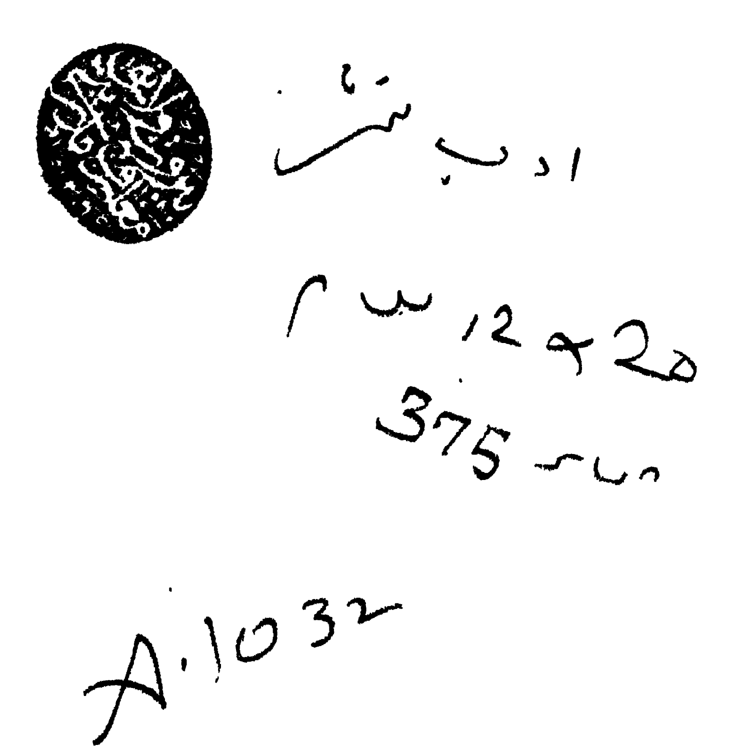
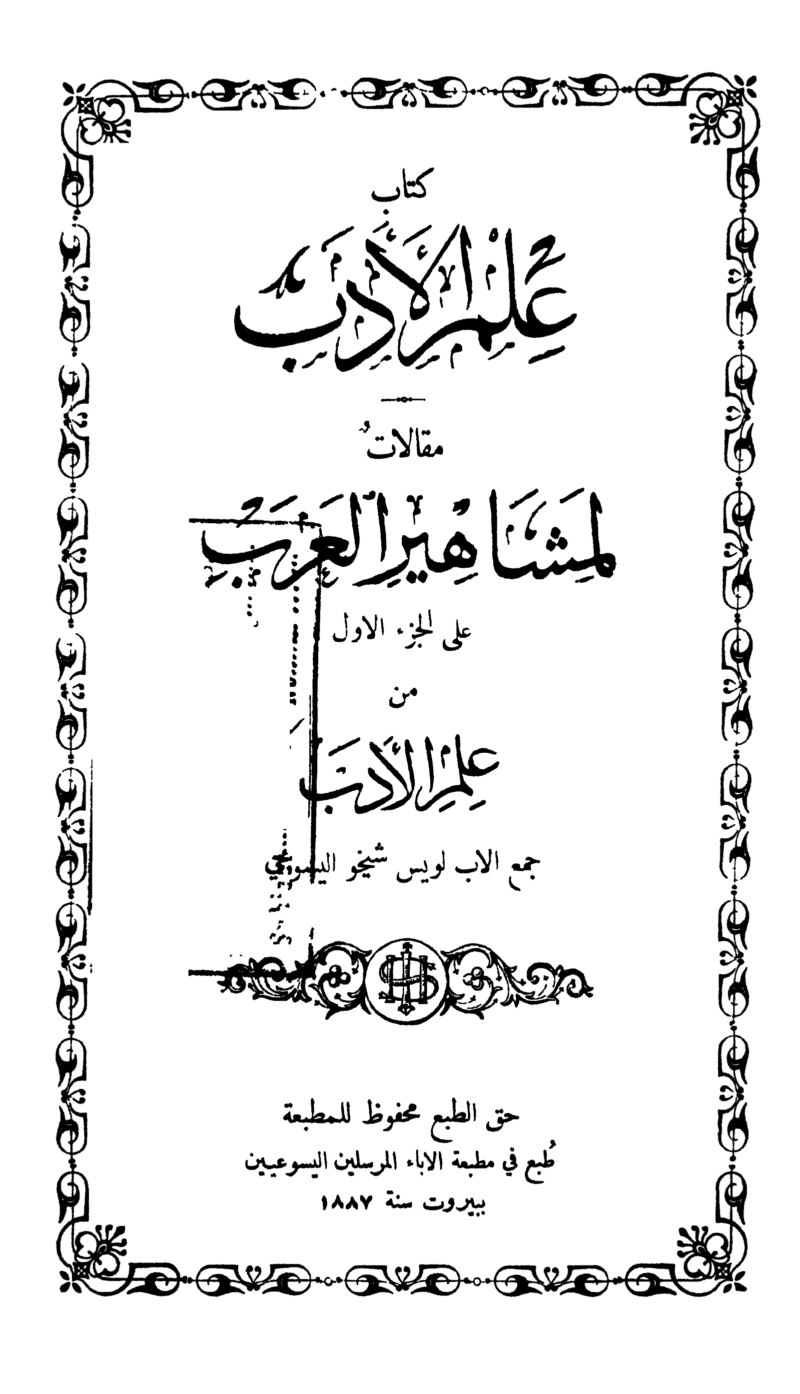

A.1032



كتاب

علم الأدب

مقالاتٌ

لمشاهير العرب

على الجزء الاول

من

علم الأدب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي

طُبع في مطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين
بيروت سنة ١٨٨٧



لبعض مشاهير كتّاب العرب

في الانشاء

توطئة

فصل في حقيقة علم الادب واقسامهِ واركانهِ

البحث الاوّل

في حدّ علم الادب

(عن الزمخشريّ والجرجانيّ والحاج خلفا بتصرف)

(راجع الجزء الاوّل من علم الادب صفحة ١ من التمهيد)

عِلْمُ ٱلْأَدَبِ عِلْمٌ يُحْتَرَزُ بِهِ عَنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ ٱلْخَطَإِ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ لَفْظًا وَكِتَابَةً. وَذٰلِكَ أَنَّ فَائِدَةَ ٱلتَّخَاطُبِ وَٱلْمُحَاوَرَاتِ فِي إِفَادَةِ ٱلْعُلُومِ وَٱسْتِفَادَتِهَا لَمَّا لَمْ تَتَبَيَّنْ لِلطَّالِبِينَ إِلَّا بِٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْكِتَابَةِ وَأَحْوَالِهِمَا كَانَ ضَبْطُ أَحْوَالِهِمَا مِمَّا ٱعْتَنَى بِهِ ٱلْعُلَمَاءُ. فَٱسْتَخْرَجُوا مِنْ أَحْوَالِهِمَا عُلُومًا سَمَّوْهَا بِٱلْعُلُومِ ٱلْأَدَبِيَّةِ لِتَوَقُّفِ أَدَبِ ٱلدَّرْسِ عَلَيْهَا بِٱلذَّاتِ وَأَدَبِ ٱلنَّفْسِ بِٱلْوَاسِطَةِ يُتَعَرَّفُ مِنْهَا ٱلتَّفَاهُمُ عَمَّا فِي ٱلضَّمَائِرِ

البحث الثاني

في تقسيم الادب وانواع العلوم الادبيَّة

(عن الوطواط والجرجاني)

(راجع صفحة ٢ و٣ من تمهيد علم الادب)

اَلْاَدَبُ نَوعَانِ نَفسِيٌّ وَكَسْبِيٌّ . فَالنَّفسِيُّ بِتَوْفِيقِ ٱللّٰهِ يَهَبُهُ لِمَنْ يُرِيدُ وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ محَاسِنِ ٱلْاَفعَالِ ٱلدَّالَّةِ عَلَى كَرَمِ ٱلطِّبَاعِ . وَٱلْكَسْبِيُّ مَا ٱسْتَفَادَتْهُ ٱلْاَنفُسُ مِنْ اَحَاسِنِ ٱلْاَقوَالِ ٱلْآخِذَةِ بِاَعِنَّةِ ٱلْقُلُوبِ وَٱلْاَسمَاعِ وَهُوَ ٱلَّذِي تَرْجَمتُ عَلَيْـهِ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ لِيَقَعَ ذِكْرُهُ فِي ٱلنُّفُوسِ اَحسَنَ مَوْقِعٍ لِتَرْمُقَـهُ لِاَجْلِهِ ٱلْعُيُونُ بِٱلْاِجلَالِ وَتَتَحَمَّـلَ ٱلنُّفُوسُ بِهِ لِمَيلِهَا اِلَيهِ بِتَتَابُعِ ٱلْاِذلَالِ

وَاَمَّا تَقْسِيمُ ٱلْاَدَبِ ٱلْكَسْبِيِّ فَاِنَّهُمُ ٱخْتَلَفُوا فِي اَقْسَامِهِ فَذَكَرَ ٱبْنُ ٱلْاَنبَارِيِّ اَنَّهَا ثَمَانِيَةٌ وَقَسَّمَهُ ٱلْعَلَّامَةُ ٱلْجُرجَانِيُّ اِلَى ٱثْنَيْ عَشَرَ قِسمًا قَالَ : لِعِلْمِ ٱلْاَدَبِ اُصُولٌ وَفُرُوعٌ . اَمَّا ٱلْاُصُولُ فَٱلبَحْثُ فِيهَا : (١) اِمَّا (عَنِ ٱلْمُفرَدَاتِ) مِنْ حَيْثُ جَوَاهِرِهَا وَمَوَادِّهَا وَهَيْئَاتِهَا فَعِلْمُ ٱللُّغَةِ . اَوْ مِنْ حَيْثُ صُوَرِهَا وَهَيْئَاتِهَا فَقَطْ فَعِلْمُ ٱلصَّرْفِ . اَوْ مِنْ حَيْثُ ٱنْتِسَابِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ بِٱلْاَصَالَةِ وَٱلْفَرْعِيَّةِ فَعِلْمُ ٱلْاِشْتِقَاقِ . (٢) وَاِمَّا (عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ عَلَى ٱلْاِطْلَاقِ) . فَاِمَّا بِٱعْتِبَارِ هَيْئَاتِهَا ٱلتَّرْكِيبِيَّةِ وَتَأْدِيَتِهَا لِمَعَانِيهَا ٱلْاَصْلِيَّةِ فَعِلْمُ ٱلنَّحْوِ . وَاِمَّا بِٱعْتِبَارِ اِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ مُغَايِرَةٍ لِاَصْلِ ٱلْمَعْنَى فَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَاِمَّا بِٱعْتِبَارِ كَيْفِيَّةِ تِلْكَ ٱلْاِفَادَةِ فِي مَرَاتِبِ ٱلْوُضُوحِ فَعِلْمُ

ٱلْبَيَانِ. وَعِلْمُ ٱلْبَدِيعِ ذَيْلٌ لِعِلْمَيِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ دَاخِلٌ تَحْتَهُمَا. (٣) وَامَّا (عَنِ ٱلْمُرَكَّبَاتِ ٱلْمَوْزُونَةِ). فَامَّا مِنْ حَيْثُ وَزْنِهَا فَعِلْمُ ٱلْعَرُوضِ اَوْ مِنْ حَيْثُ اَوَاخِرِهَا فَعِلْمُ ٱلْقَوَافِي

وَامَّا ٱلْفُرُوعُ فَٱلْبَحْثُ فِيهَا اِمَّا اَنْ يَتَعَلَّقَ بِنُقُوشِ ٱلْكِتَابَةِ فَعِلْمُ ٱلْخَطِّ اَوْ يَخْتَصُّ بِٱلْمَنْظُومِ فَٱلْعِلْمُ ٱلْمُسَمَّى بِقَرْضِ ٱلشِّعْرِ. اَوْ بِٱلنَّثْرِ فَعِلْمُ ٱلْاِنْشَاءِ. اَوْ لَا يَخْتَصُّ بِشَيْءٍ فَعِلْمُ ٱلْمُحَاضَرَاتِ وَمِنْهُ ٱلتَّوَارِيخُ

البحث الثالث

في موضوع علم الادب واركانه

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٣ من تمهيد علم الادب)

هٰذَا ٱلْعِلْمُ لَا مَوْضُوعَ لَهُ يُنْظَرُ فِي اِثْبَاتِ عَوَارِضِهِ اَوْ نَفْيِهَا وَاِنَّمَا ٱلْمَقْصُودُ مِنْهُ عِنْدَ اَهْلِ ٱللِّسَانِ ثَمَرَتُهُ وَهِيَ ٱلْاِجَادَةُ فِي فَنَّيِ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ عَلَى اَسَالِيبِ ٱلْعَرَبِ وَمَنَاحِيهِمْ. فَيَجْمَعُونَ لِذٰلِكَ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ مَا عَسَاهُ تُحَصِّلُ بِهِ ٱلْكَلِمَةُ مِنْ شِعْرٍ عَالِي ٱلطَّبَقَةِ وَسَجْعٍ مُتَسَاوٍ فِي ٱلْاِجَادَةِ وَمَسَائِلَ مِنَ ٱللُّغَةِ وَٱلنَّحْوِ مَبْثُوثَةٍ اَثْنَاءَ ذٰلِكَ مُتَفَرِّقَةٍ يَسْتَقْرِي مِنْهَا ٱلنَّاظِرُ فِي ٱلْغَالِبِ مُعْظَمَ قَوَانِينِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مَعَ ذِكْرِ بَعْضٍ مِنْ اَيَّامِ ٱلْعَرَبِ لِيُفْهَمَ بِهِ مَا يَقَعُ فِي اَشْعَارِهِمْ مِنْهَا وَكَذٰلِكَ ذِكْرُ ٱلْمُهِمِّ مِنَ ٱلْاَنْسَابِ ٱلشَّهِيرَةِ وَٱلْاَخْبَارِ ٱلْعَامَّةِ. وَٱلْمَقْصُودُ بِذٰلِكَ كُلِّهِ اَنْ لَا يَخْفَى عَلَى ٱلنَّاظِرِ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَاَسَالِيبِهِمْ

ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه. لأنه لا تحصل الملكة من حفظه إلا بعد فهمه فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه. ثم إنهم إذا أرادوا حد هذا الفن قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط إذ لا مدخل بغير ذلك من العلوم في كلام العرب إلا ما ذهب إليه المتأخرون عند كلفهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسلهم بالاصطلاحات العلمية. فاحتاج صاحب هذا الفن إلى اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها: وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين وهي: أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها وكتب المحدثين في ذلك كثيرة. وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر إذ الغناء إنما هو تلحينه. وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن انتحاله قادحا في العدالة والمروءة وقد ألف القاضي أبو الفرج الأصبهاني كتابه في الأغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودولهم. وجعل مبناه على الغناء في المائة صوتا التي اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أتم استيعاب وأوفاه. ولعمري

إِنَّهُ ديوانُ ٱلعَرَبِ وَجَامِعُ أَشْتَاتِ ٱلمَحَاسِنِ وَٱلتَّأْرِيخِ وَٱلغِنَاء وَسَائِرِ ٱلأَحْوَالِ . وَلَا يُعْدَلُ بِهِ كِتَابٌ فِي ذٰلِكَ فِيمَا نَعْلَمُهُ وَهُوَ ٱلغَايَةُ ٱلَّتِي يَسْمُو إِلَيْهَا ٱلأَدَبُ وَيَقِفُ عِنْدَهَا

البحث الرابع

في شرف الادب ومنافعهِ

(عن الثعالبي وابن عبد ربّهِ والوطواط)

(راجع صفحة ٢ من تمهيد علم الادب)

قَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ : ٱلرَّجُلُ بِلَا أَدَبٍ شَخْصٌ بِغَيْرِ آلَةٍ وَجَسَدٌ بِلَا رُوحٍ . وَقِيلَ : ٱلأَدَبُ أَكْرَمُ ٱلجَوَاهِرِ طَبِيعَةً وَأَنْفَسُهَا قِيمَةً فَٱطْلُبُوهُ فَإِنَّهُ زِيَادَةٌ فِي ٱلفَضْلِ وَٱلنَّبَاهَةِ وَمَادَّةٌ لِلعَقْلِ وَدَلِيلٌ عَلَى ٱلمُرُوءَةِ وَمَنْبَهَةٌ لِلرَّأْيِ وَلِلصَّوَابِ وَصَاحِبٌ فِي ٱلغُرْبَةِ وَأَنِيسٌ فِي ٱلوَحْدَةِ وَجَمَالٌ فِي ٱلمَحَافِلِ وَصِلَةٌ فِي ٱلمَجَالِسِ . وَإِذَا أَكْرَمَكَ ٱلنَّاسُ لِمَالٍ أَوْ سُلْطَانٍ فَلَا يُعْجِبْكَ ذٰلِكَ فَإِنَّ ٱلكَرَامَةَ تَزُولُ بِزَوَالِهِمَا وَلِيُعْجِبْكَ إِذَا أَكْرَمُوكَ لِدِينٍ أَوْ أَدَبٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِذَا ٱلفَتَى فَاتَهُ مَالٌ يُجَمِّلُهُ ... فَفِي ٱلتَّأَدُّبِ مِمَّا فَاتَهُ خَلَفُ
هُوَ ٱللِّبَاسُ ٱلَّذِي لَا شَيْءَ يَعْدِلُهُ ... وَٱلمَفْخَرُ ٱلدَّيِّنُ فِيهِ ٱلفَضْلُ وَٱلشَّرَفُ

قَالَ عَبْدُ ٱلمَلِكِ لِبَنِيهِ : تَأَدَّبُوا فَإِنْ كُنْتُمْ مُلُوكًا بَرَزْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ أَوْسَاطًا فُقْتُمْ وَإِنْ أَعْوَزَكُمُ ٱلمَعَاشُ عِشْتُمْ . وَقِيلَ : إِنَّ ٱلأَدَبَ يُفِيدُ ٱلرَّغَائِبَ ٱلجَلِيلَةَ وَيُعِزُّ بِلَا عَشِيرَةٍ وَيُكَثِّرُ ٱلأَنْصَارَ لِغَيْرِ

رَزِيَّتِهِ . قَالَ بُزُرْجُمهرُ : مَنْ كَثُرَ ادَبُهُ كَثُرَ شَرَفُهُ وَإِنْ كَانَ وَضِيعًا . وَبَعُدَ صِيتُهُ وَإِنْ كَانَ خَامِلاً . وَسَادَ وَإِنْ كَانَ غَرِيبًا وَكَثُرَتْ حَوَائِجُ ٱلنَّاسِ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا .وَقَالُوا : مَنْ دَأَبَ فِي طَرِيقِ ٱلْأَدَبِ ادْرَكَ حَاجَتَهُ وَمَلَكَ نَاصِيَتَهُ وَنَبُلَ قَدرُهُ وَنَبُهَ ذِكْرُهُ . يَنُوبُ ٱلادَبُ عَنِ ٱلنَّسَبِ وَلَا يَنفَعُ نَسَبٌ بِلا ادَبٍ وَقَالَ ٱلشَّاعِرُ :

كَمْ مِنْ خَسِيسٍ وَضِيعِ ٱلْقَدْرِ لَيْسَ لَهُ ... فِي ٱلْعِزِّ بَيْتٌ وَلَا يُنْمَى إِلَى نسبِ
قَدْ صَارَ بِٱلْأَدَبِ ٱلْمَحْمُودِ ذَا شَرَفٍ ... غَالٍ وَذَا حَسبٍ مَحْض وَذا نَشَبِ
يُعْلِي ٱلتَّأَدُّبُ اقْوَامًا وَيَرْفَعُهُمْ ... حَتَّى يُساوُوا ذَوِي ٱلْعَلْيَاءِ فِي ٱلرُّتَبِ

وَمَا احسنَ قَوْلَ بَعْضِ ٱلْأَعَاجِمِ يَفْتَخِرُ وَيَعْتَذِرُ :

مَالِيَ عَقْلِي وَهِمَّتِي حَسَبِي ... مَا انَا مَوْلىً وَلَا انَا عَرَبِي
وَإِذَا ٱنْتَمَى مُنْتَمٍ إِلَى احَدٍ ... فَإِنَّنِي مُنْتَمٍ إِلَى ادَبِي

فَٱلْبَسُوا إِذًا ٱلْادَبَ حُلَّةً وَتَزَيَّنُوهُ حِلْيَةً فَإِنَّهُ انْفَقُ مَعَاشٍ وَاجْمَلُ رِيَاشٍ إِنِ ٱحْتَجْتُمْ الَيْهِ كَانَ لَكُمْ مَالاً وَإِنِ ٱسْتَغْنَيْتُمْ عَنْهُ كَانَ لَكُمْ جَمَالاً

فصلٌ في قوى العقل الغريزيّة

البحث الاوّل

في العقل وشرفهِ واصل تسميتهِ وتقسيمهِ

(عن الماوردي باختصار وتصرّف)

(راجع صفحة ٣ من توطئة علم الادب)

اِعلَمْ اَنَّ لِكُلِّ فَضِيلةٍ اُسًّا وَلِكُلِّ اَدَبٍ يَنْبُوعًا. وَاُسُّ الفَضَائلِ وَيَنْبُوعُ الآدَابِ هُوَ العَقْلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى لِلدِّينِ اَصْلًا وَلِلدُّنْيَا عِمَادًا فَاَوْجَبَ الدِّينَ بِكَمَالِهِ وَجَعَلَ الدُّنْيَا مُدَبَّرَةً بِاَحْكَامِهِ وَاَلَّفَ بِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ مَعَ اخْتِلَافِ هِمَمِهِمْ وَمَآرِبِهِمْ . قَالَ بَعْضُ البُلَغَاءِ : اَلعَقْلُ خَيْرُ المَوَاهِبِ وَالجَهْلُ شَرُّ المَصَائِبِ. قَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ حَسَّانَ :

يَزِينُ الفَتَى فِي النَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ ... وَاِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهْ
يَشِينُ الفَتَى فِي النَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ ... وَاِنْ كَرُمَتْ اَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهْ
يَعِيشُ الفَتَى بِالعَقْلِ فِي النَّاسِ اِنَّهُ ... عَلَى العَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ
وَاَفْضَلُ قَسْمِ اللهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ ... فَلَيْسَ مِنَ الاَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ
اِذَا اَكْمَلَ الرَّحْمَانُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ ... فَقَدْ كَمُلَتْ اَخْلَاقُهُ وَمَآرِبُهْ

وَقَالَ مُطَرِّفٌ : مَا اُوتِيَ العَبْدُ بَعْدَ الاِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَى اَفْضَلَ مِنَ العَقْلِ. وَيُقَالُ : مَا تَمَّ دِينُ امْرِئٍ حَتَّى يَتِمَّ عَقْلُهُ . قَالَ بُزُرْجُمْهَرُ : اَلعَقْلُ كَالمِسْكِ اِنْ خَبَأْتَهُ عَبِقَ وَاِنْ بِعْتَهُ نَفَقَ . وَقَالُوا : اَلعَقْلُ كَنُورٍ وَضَعَهُ اللهُ طَبْعًا وَغَرَزَهُ فِي القَلْبِ كَالنُّورِ فِي العَيْنِ وَهُوَ البَصَرُ.

وَكَمَا يُدْرَكُ بِٱلْبَصَرِ شَوَاهِدُ ٱلْأُمُورِ كَذٰلِكَ يُدْرَكُ بِنُورِ ٱلْعَقْلِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْمَحْجُوبِ وَٱلْمَسْتُورِ. وَعَمَى ٱلْقَلْبِ كَعَمَى ٱلْبَصَرِ. قَالَ بَزَرْجُمْهُرُ : ٱلْإِنْسَانُ صُورَةٌ فِيهَا عَقْلٌ فَإِنْ اَخْطَأَهُ ٱلْعَقْلُ وَلَزِمَتْهُ ٱلصُّورَةُ فَلَيس بِإِنْسَانٍ . قَالَ ٱلْمُتَنَبِّي :

لَوْلَا ٱلْعُقُولُ لَكَانَ اَدْنَى ضَيْغَمٍ   اَدْنَى اِلَى شَرَفٍ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ

وَسُمِّيَ ٱلْعَقْلُ عَقْلًا تَشْبِيهًا بِعَقْلِ ٱلنَّاقَةِ (١) لِأَنَّ ٱلْعَقْلَ يَمْنَعُ ٱلْإِنْسَانَ مِنَ ٱلْإِقْدَامِ عَلَى شَهَوَاتِهِ اِذَا قَبُحَتْ كَمَا يَمْنَعُ ٱلْعَقْلُ ٱلنَّاقَةَ مِنَ ٱلشُّرُودِ اِذَا نَفَرَتْ . وَلِذَلِكَ قَالَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ : اِذَا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عَمَّا لَا يَنْبَغِي فَأَنْتَ عَاقِلٌ

البحث الثاني

في تقسيم العقل الى غريزيّ ومكتسَب

(عن الوطواط والماوردي)

اِعْلَمْ اَنَّ بِٱلْعَقْلِ تُعْرَفُ حَقَائِقُ ٱلْأُمُورِ وَيُفْصَلُ بَيْنَ ٱلْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ وَقَدْ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ غَرِيزِيٌّ وَمُكْتَسَبٌ . قَالَ ٱلْعُتْبِيُّ : ٱلْعَقْلُ عَقْلَانِ عَقْلٌ تَفَرَّدَ ٱللهُ بِصُنْعِهِ وَهُوَ ٱلْأَصْلُ . وَعَقْلٌ يَسْتَفِيدُهُ ٱلْمَرْءُ بِهِ وَهُوَ ٱلْفَرْعُ فَإِذَا ٱجْتَمَعَا قَوَّى كُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ تَقْوِيَةَ ٱلنَّارِ فِي ٱلظُّلْمَةِ . وَلِذَلِكَ قَالَ اَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ اَبِي طَالِبٍ :

رَأَيْتُ ٱلْعَقْلَ عَقْلَيْنِ   فَمَطْبُوعٌ وَمَسْمُوعٌ

---

١ يُقال عَقَل الناقة عقلا اي ربطها في وسط ذراعها بحبل ويُسمّى الحبل عقالا

فَلَا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ ۞ إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعٌ
كَمَا لَا تَنْفَعُ الشَّمْسُ ۞ وَضَوْءُ الْعَيْنِ مَمْنُوعٌ *

البحث الثالث

في العقل الغريزيّ وتعريفهِ

(عن الماوردي باختصار)

اِنَّ الْعَقْلَ الْغَرِيزِيَّ هُوَ الْعَقْلُ الْحَقِيقِيُّ وَلَهُ حَدٌّ يَتَعَلَّقُ بِهِ التَّكْلِيفُ لَا يُجَاوِزُهُ اِلَى زِيَادَةٍ وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ اِلَى نُقْصَانٍ ۰ وَبِهِ

* قد قسَّم القزوينيُّ القوى العقلية الى اربعة اقسام مرجعها الى هذين القسمين قال: القوى العقلية اربعة اقسام. (الاول) القوة التي بها يفارق الانسان البهائم وهي التي بها استعدّ لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الفكريّة فيقال انها القوة الغريزيّة بها يستعدّ الانسان لادراك العلوم النظريّة. فكما ان الحياة هي الجسم للحركات الاختياريّة والادراكات الحسيّة فكذلك هذه القوّة الغريزيّة تهيئة الانسان للعلوم النظريّة والصناعات الفكريّة والحكماء يقولون لها العقل الهيولاني وهي مجرَّد الاستعداد الذي هو موجود في الطفل وغير موجود في ولد البهيمة. (الثاني) القوّة التي تخرج الى الوجود في ذات الطفل المميّز جواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين اكثر من الواحد والشخص الواحد لا يكون في مكانين فيقال له التصوُّرات والتصديقات الحاصلة للنفس بالفطرة والحكماء يسمونهُ العقل بالملكة . (والثالث) قوّة تحصل بها العلوم المستفادة من التجارب بمجاري الاحوال فمن اتّصف بها يقال انهُ عاقل في العادة ومن لم يتّصف بها يقال انهُ غبيٌّ غمر . فيقال لها معانٍ مجتمعة في الذهن من مقدّمات تستنبط بها المصالح في الاعراض . (والرابع) قوّة بها تُعرف حقائق الامور وعواقبها فتقمع الشهوة الداعية الى اللذة العاجلة وتحتمل المكروه العاجل لسلامة الآجل . فاذا حصلت هذه القوّة يسمّى صاحبها عاقلًا من حيث ان اقدامهُ واحجامهُ بحسب ما يقتضيهِ النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة. والأوّلان بالطبع والأخيران بالاكتساب

يَمْتَازُ الإِنْسَانُ عَنْ سائِرِ الحَيَوانِ فَإِذَا تَمَّ فِي الإِنْسَانِ سُمِّيَ عَاقِلًا وَخَرَجَ بِهِ إِلَى حَدِّ الكَمَالِ كَمَا قَالَ صَالِحُ بنُ عَبْدِ القُدُّوسِ :

اذا تَمَّ عقلُ المَرْءِ تَمَّتْ أُمُورُهُ وَتَمَّتْ امَانِيهِ وَتَمَّ بِنَاؤُهُ

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي حَدِّ العَقْلِ وَفِي صِفَتِهِ عَلَى مَذَاهِبَ شَتَّى فَقَالَ قَوْمٌ : هُوَ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ يُفْصَلُ بِهِ بَيْنَ الحَقَائِقِ المَعْلُومَاتِ .. وهٰذَا القَوْلُ فِي العَقْلِ بِأَنَّهُ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ فَاسِدٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّ الجَوَاهِرَ مُتَمَاثِلَةٌ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُوجِبَ بَعْضُهَا مَا لَا يُوجِبُ سَائِرُهَا وَلَوْ أَوْجَبَ سَائِرُهَا مَا يُوجِبُ بَعْضُهَا لَاسْتَغْنَى العَاقِلُ بِوُجُودِ نَفْسِهِ عَنْ وُجُودِ عَقْلِهِ(١) . (وَالثَّانِي) أَنَّ الجَوْهَرَ يَصِحُّ قِيَامُهُ بِذَاتِهِ فَلَوْ كَانَ العَقْلُ جَوْهَرًا لَجَازَ أَنْ يَكُونَ عَقْلٌ بِغَيْرِ عَاقِلٍ كَمَا جَازَ أَنْ يَكُونَ جِسْمٌ بِغَيْرِ عَقْلٍ . فَامْتَنَعَ بِهٰذَيْنِ أَنْ يَكُونَ العَقْلُ جَوْهَرًا . وَقَالَ آخَرُونَ : العَقْلُ هُوَ المُدْرِكُ لِلْأَشْيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ حَقَائِقِ المَعْنَى . وَهٰذَا القَوْلُ وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَ مِمَّا قَبْلَهُ فَبَعِيدٌ مِنَ الصَّوَابِ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ وَهُوَ : أَنَّ الإِدْرَاكَ مِنْ صِفَاتِ الحَيِّ (٢) وَالعَقْلُ عَرَضٌ يَسْتَحِيلُ ذٰلِكَ مِنْهُ كَمَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ مُتَلَذِّذًا أَوْ آلِمًا أَوْ مُشْتَهِيًا (٣) . وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ

---

(١) يُريد انهُ لو كان العقل جوهراً مختلفاً عن جوهر النفس ملازماً لها لاتّفقا في جميع اجزائها لان النفس والعقل بسيطان متماثلان في ذلك واذا تمّ الاتفاق كان جوهر النفس وجوهر العقل واحداً فيستغني الانسان عن عقلهِ بوجود نفسهِ وهذا باطلٌ

(٢) يُريد هنا بالادراك على ما حدَّهُ الحكماء تمثيل حقيقة الشيء وحدهُ من غير حكم عليهِ او اثبات ويُسمَّى ايضاً التصوُّر وهذا يعمُّ كل حيّ لا يختص بالانسان فقط

(٣) اي ان العقل لا يمكنهُ ادراك هذه الجزئيات كما يستحيل عليهِ ان يكون ملتذذاً او آلماً او مشتهياً . لان اللذَّة والألم والشهوة من الانفعالات الطارئة على المركّب

ٱلْمُتَكَلِّمِينَ : ٱلعقلُ هُوَ جُمْلَةُ عُلُومٍ ضَرُورِيَّةٍ . وَهٰذَا ٱلْحَدُّ غَيْرُ مَحْصُورٍ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ ٱلإِجْمَالِ وَيَتَأَوَّلُهُ مِنَ ٱلِاحْتِمَالِ . وَٱلْحَدُّ إِنَّمَا هُوَ بَيَانُ ٱلْمَحْدُودِ بِمَا يَنْفِي عَنْهُ ٱلإِجْمَالَ وَٱلِاحْتِمَالَ . وَقَالَ آخَرُونَ وَهُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلصَّحِيحُ : إِنَّ ٱلْعَقْلَ هُوَ ٱلعِلْمُ بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ . وَذٰلِكَ نَوْعَانِ : أَحَدُهُمَا مَا وَقَعَ عَن دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ وَٱلثَّانِي مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ . فَأَمَّا مَا كَانَ وَاقِعًا عَنْ دَرْكِ ٱلْحَوَاسِّ فَمِثْلُ ٱلْمَرْئِيَّاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلنَّظَرِ وَٱلأَصْوَاتِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلسَّمْعِ وَٱلطُّعُومِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلذَّوْقِ وَٱلرَّوَائِحِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱلشَّمِّ وَٱلأَجْسَامِ ٱلْمُدْرَكَةِ بِٱللَّمْسِ . فَإِذَا كَانَ ٱلإِنْسَانُ مِمَّنْ لَوْ أَدْرَكَ بِحَوَاسِّهِ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءَ ثَبَتَ لَهُ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ . لِأَنَّ خُرُوجَهُ فِي حَالِ تَغْمِيضِ عَيْنَيْهِ مِنْ أَنْ يُدْرِكَ بِهِمَا وَيَعْلَمَ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَامِلَ ٱلْعَقْلِ مِنْ حَيْثُ عَلِمَ مِنْ حَالِهِ أَنْ لَوْ أَدْرَكَ لَعَلِمَ . وَأَمَّا مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي ٱلنُّفُوسِ فَكَٱلْعِلْمِ بِأَنَّ ٱلشَّيْءَ لَا يَخْلُو مِنْ وُجُودٍ أَوْ عَدَمٍ . وَأَنَّ ٱلْمَوْجُودَ لَا يَخْلُو مِنْ حُدُوثٍ أَوْ قِدَمٍ . وَأَنَّ مِنَ ٱلْمُحَالِ ٱجْتِمَاعَ ٱلضِّدَّيْنِ . وَأَنَّ ٱلْوَاحِدَ أَقَلُّ مِنَ ٱلِاثْنَيْنِ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْعِلْمِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَفِيَ عَنِ ٱلْعَاقِلِ مَعَ سَلَامَةِ حَالِهِ وَكَمَالِ عَقْلِهِ . فَإِذَا صَارَ عَالِمًا بِٱلْمُدْرَكَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ فَهُوَ كَامِلُ ٱلْعَقْلِ

الانساني . ولإدراك العقل يقتضي ان تجرَّد مادَّتهُ عن المحسوسات وهذا ما يصنعهُ العقل بالفعل فتنتقل المفردات بذلك الى حالة الكليَّات

البحث الرابع

في العقل المكتسب

(عن الماوردي)

إِنَّ ٱلعَقْلَ ٱلْمُكْتَسَبَ هُوَ نَتِيجَةُ ٱلعَقْلِ ٱلْغَرِيزِيِّ وَهُوَ نِهَايَةُ ٱلْمَعْرِفَةِ وَصِحَّةِ ٱلسِّيَاسَةِ وَإِصَابَةِ ٱلْفِكْرَةِ وَلَيْسَ لِهٰذَا حَدٌّ لِأَنَّهُ يَنْمِي إِنِ ٱسْتُعْمِلَ وَيَنْقُصُ إِنْ أُهْمِلَ . وَنَمَاؤُهُ يَكُونُ بِأَحَدِ وَجْهَيْنِ : (ٱلوَجْهُ ٱلأَوَّلُ) بِكَثْرَةِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ إِذَا لَمْ يُعَارِضْهُ مَانِعٌ مِنْ هَوى وَلَا صَادٌّ مِنْ شَهْوَةٍ كَٱلَّذِي يَحْصُلُ لِذَوِي ٱلأَسْنَانِ مِنَ ٱلْحُنْكَةِ وَصِحَّةِ ٱلرَّوِيَّةِ لِكَثْرَةِ ٱلتَّجَارِبِ وَمُمَارَسَةِ ٱلأُمُورِ . وَلِذٰلِكَ حَمِدَتِ ٱلعَرَبُ آرَاءَ ٱلشُّيُوخِ حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : ٱلْمَشَايِخُ أَشْجَارُ ٱلْوَقَارِ . وَمَنَاجِعُ ٱلأَخْبَارِ . لَا يَطِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ . وَلَا يَسْقُطُ لَهُمْ وَهْمٌ . إِنْ رَأَوْكَ فِي قَبِيحٍ صَدُّوكَ . وَإِنْ أَبْصَرُوكَ عَلَى جَمِيلٍ أَمَدُّوكَ . وَقِيلَ : عَلَيْكُمْ بِآرَاءِ ٱلشُّيُوخِ فَإِنَّهُمْ إِنْ فَقَدُوا ذَكَاءَ ٱلطَّبْعِ فَقَدْ مَرَّتْ عَلَى عُيُونِهِمْ وُجُوهُ ٱلعِبَرِ . وَتَصَدَّتْ لِأَسْمَاعِهِمْ آثَارُ ٱلْغِيَرِ . وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ : مَنْ طَالَ عُمْرُهُ نَقَصَتْ قُوَّةُ بَدَنِهِ وَزَادَتْ قُوَّةُ عَقْلِهِ : وَقَالَ فِيهِ : لَا تَدَعُ ٱلأَيَّامُ جَاهِلاً إِلَّا أَدَّبَتْهُ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : كَفَى بِٱلتَّجَارِبِ تَأَدُّبًا وَبِتَقَلُّبِ ٱلأَيَّامِ عِظَةً . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱلتَّجْرِبَةُ مِرْآةُ ٱلعَقْلِ . وَٱلْغِرَّةُ ثَمَرَةُ ٱلْجَهْلِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلأُدَبَاءِ : كَفَى مُخْبِرًا عَمَّا بَقِيَ مَا مَضَى وَكَفَى عِبَرًا لِأُولِي ٱلأَلْبَابِ مَا جَرَّبُوا . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

اَلَمْ تَرَ اَنَّ ٱلْعَقْلَ زَيْنٌ لِاَهْلِهِ وَلٰكِنْ تَمَامُ ٱلْعَقْلِ طُولُ ٱلتَّجَارِبِ

وَقَالَ آخَرُ:

اِذَا طَالَ عُمْرُ ٱلْمَرْءِ فِي غَيْرِ آفَةٍ اَفَادَتْ لَهُ ٱلْاَيَّامُ فِي كَرِّهَا عَقْلَا

(وَاَمَّا ٱلْوَجْهُ ٱلثَّانِي) فَقَدْ يَكُونُ بِفَرْطِ ٱلذَّكَاءِ وَحُسْنِ ٱلْفِطْنَةِ وَذٰلِكَ جُودَةُ ٱلْحَدْسِ فِي زَمَانٍ غَيْرِ مُهْمَلٍ لِلْحَدْسِ. فَاِذَا ٱمْتَزَجَ بِٱلْعَقْلِ ٱلْغَرِيزِيِّ صَارَتْ نَتِيجَتُهُمَا نُمُوُّ ٱلْعَقْلِ ٱلْمُكْتَسَبِ. كَالَّذِي يَكُونُ فِي ٱلْاَحْدَاثِ مِنْ وُفُورِ ٱلْعَقْلِ وَجُودَةِ ٱلرَّأْيِ حَتَّى قَالَ هَرِمُ بْنُ قُطْبَةَ حِينَ تَنَافَرَ اِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ ٱلطُّفَيْلِيِّ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عَلَاثَةَ: عَلَيْكُمْ بِٱلْحَدِيثِ ٱلسِّنِّ. ٱلْحَدِيدِ ٱلذِّهْنِ. وَلَعَلَّ هَرِمًا اَرَادَ اَنْ يَدْفَعَهُمَا عَنْ نَفْسِهِ فَٱعْتَذَرَ بِمَا قَالَ. لٰكِنْ لَمْ يُنْكِرَا قَوْلَهُ اِذْعَانًا لِلْحَقِّ فَصَارَا اِلَى اَبِي جَهْلٍ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ وَحِدَّةِ ذِهْنِهِ. فَاَبَى اَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمَا فَرَجَعَا اِلَى هَرِمٍ فَحَكَمَ بَيْنَهُمَا. وَفِيهِ قَالَ لَبِيدٌ:

يَاهَرِمُ ٱبْنَ ٱلْاَكْرَمِينَ مَنْصِبَا اِنَّكَ قَدْ اُوتِيتَ حُكْمًا مُعْجِبَا

وَقَدْ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ: عَلَيْكُمْ بِمُشَاوَرَةِ ٱلشَّبَابِ فَاِنَّهُمْ يُنْتِجُونَ رَأْيًا لَمْ يَنَلْهُ طُولُ ٱلْقِدَمِ. وَلَا ٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ رُطُوبَةُ ٱلْهَرَمِ. وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

رَاَيْتُ ٱلْعَقْلَ لَمْ يَكُنِ ٱنْتِهَابًا وَلَمْ يُقْسَمْ عَلَى عَدَدِ ٱلسِّنِينَا

وَلَوْ اَنَّ ٱلسِّنِينَ تَقَاسَمَتْهُ حَوَى ٱلْآبَاءُ اَنْصِبَةَ ٱلْبَنِينَا

وَحَكَى ٱلْاَصْمَعِيُّ قَالَ: قُلْتُ لِغُلَامٍ حَدَثٍ مِنْ اَوْلَادِ ٱلْعَرَبِ كَانَ يُحَادِثُنِي فَاَمْتَعَنِي بِفَصَاحَةٍ وَمَلَاحَةٍ: اَيَسُرُّكَ اَنْ يَكُونَ لَكَ

مِئَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَأَنْتَ أَحْمَقُ. قَالَ: لَا. قَالَ: فَقُلْتُ: وَلِمَ. قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَجْنِيَ عَلَيَّ حُمْقِي جِنَايَةً تَذْهَبُ بِمَالِي وَيَبْقَى عَلَيَّ حُمْقِي. فَانْظُرْ إِلَى هٰذَا الصَّبِيِّ كَيْفَ اسْتَخْرَجَ بِفَرْطِ ذَكَائِهِ وَاسْتَنْبَطَ بِجُودَةِ قَرِيحَتِهِ مَا لَعَلَّهُ يَدِقُّ عَلَى مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ سِنًّا وَأَكْثَرُ تَجْرِبَةً. وَأَحْسَنُ مِنْ هٰذَا الذَّكَاءِ وَالْفِطْنَةِ مَا حَكَى ابْنُ قُتَيْبَةَ: إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مَرَّ بِصِبْيَانٍ يَلْعَبُونَ وَفِيهِمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فَهَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا عَبْدَ اللهِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَالَكَ لَا تَهْرُبُ مَعَ أَصْحَابِكَ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ أَكُنْ عَلَى رِيبَةٍ فَأَخَافَكَ وَلَمْ يَكُنِ الطَّرِيقُ ضَيِّقًا فَأُوسِعَ لَكَ. فَانْظُرْ مَا تَضَمَّنَهُ هٰذَا الْجَوَابُ مِنَ الْفِطْنَةِ وَقُوَّةِ الْمُنَّةِ وَحُسْنِ الْبَدِيهَةِ كَيْفَ نَفَى عَنْهُ اللَّوْمَ وَأَثْبَتَ لَهُ الْحُجَّةَ فَلَيْسَ لِلذَّكَاءِ غَايَةٌ. وَلَا لِجُودَةِ الْقَرِيحَةِ نِهَايَةٌ

البحث الخامس

في التصوّر والتمثّل

(من كتاب زجر النفس لهرمس)

يَا نَفْسُ إِنَّ مُبْدِعَ الْأَشْيَاءِ وَمُنْشِئَهَا جَلَّ جَلَالُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ أَبْدَعَكِ وَجَعَلَكِ ذَاتَ التَّصَوُّرِ وَالتَّمَثُّلِ. فَأَمَّا التَّصَوُّرُ فَتَصَوُّرُكِ الشَّيْءَ عَلَى حَقِيقَةِ مَا أَبْدَعَهُ مُبْدِعُهُ. وَأَمَّا التَّمَثُّلُ فَتَمَثُّلُكِ مَا خَفِيَ عَنْكِ مِنْ عَالَمِ الْعَقْلِ بِمَا شَاهَدْتِهِ فِي عَالَمِ الْحِسِّ مِثْلًا بِمِثْلٍ وَمَعْنًى بِمَعْنًى كَمَا أَنْ تَدُلَّ ذَاتُ الصُّورَةِ الْمَطْبُوعَةِ فِي الشَّمْعِ عَلَى مَعْنَاهَا وَحَقِيقَتِهَا فِي الطَّابِعِ وَكَمَا تَدُلُّ الصُّورَةُ الْمُمَثَّلَةُ فِي الطَّابِعِ عَلَى مَعْنَى حَقِيقَتِهَا فِي نَفْسِ مُمَثِّلِهَا وَمُصَوِّرِهَا وَكَمَا يُؤَثِّرُ الْمَاءُ فِي الرَّمْلِ مَعَانِيَ حَرَكَاتِهِ وَتَمَوُّجِهِ

البحث السادس

الخيال والخيالي

(عن الحاج خلفا بتصرّف)

(راجع صفحة ٥ من توطئة علم الادب)

اَلْخَيَالُ فِي اَللُّغَةِ بِمَعْنَى اَلشَّخْصِ وَعِنْدَ اَلْحُكَمَاءِ يُطْلَقُ عَلَى إِحدَى اَلْحَوَاسِّ اَلْبَاطِنَة. وَهُوَ قُوَّةٌ تَحْفَظُ اَلصُّوَرَ اَلْمُرْتَسِمَةَ فِي اَلْحِسِّ اَلْمُشْتَرِكِ إِذَا غَابَتْ تِلْكَ اَلصُّورُ عَنِ اَلْحَوَاسِّ اَلْبَاطِنَة. وَمَحَلُّهُ مُؤَخَّرُ اَلتَّجْوِيفِ اَلْاَوَّلِ مِنَ اَلتَّجَاوِيفِ اَلثَّلَاثَةِ لِلدِّمَاغِ عِنْدَ اَلْجُمْهُورِ(١).وَاَسْتَدَلُّوا عَلَى وُجُودِ اَلْخَيَالِ بِاَنَّا إِذَا شَاهَدْنَا صُورَةً ثُمَّ ذَهِلْنَا عَنْهَا زَمَانًا ثُمَّ نُشَاهِدُ مَرَّةً أُخرَى نَحْكُمُ عَلَيْهَا بِاَنَّهَا هِيَ اَلَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذٰلِكَ. فَلَوْ لَمْ تَكُنْ تِلْكَ اَلصُّورَةُ مَحْفُوظَة فِينَا زَمَانَ اَلذُّهُولِ لَاَمْتَنَعَ اَلْحُكْمُ بِاَنَّهَا هِيَ اَلَّتِي شَاهَدْنَاهَا قَبْلَ ذٰلِكَ.(وَاَلْخَيَالِيُّ) يُطْلَقُ عَلَى اَلصُّورَةِ اَلْمُرْتَسِمَةِ فِي اَلْخَيَالِ اَلْمُتَأَدِّيَةِ إِلَيْهِ مِنْ طُرُقِ اَلْحَوَاسِ.وَقَدْ يُطْلَقُ عَلَى اَلْمَعْدُومِ اَلَّذِي اَخْتَرَعَتْهُ اَلْمُتَخَيِّلَةُ وَرَكَّبَتْهُ مِنَ اَلْأُمورِ اَلْمَحْسُوسَةِ اَيِ اَلْمُدْرَكَةِ بِالْحَوَاسِّ اَلظَّاهِرَةِ. وَبِقَوْلِنَا مِنَ اَلْأُمورِ اَلْمَحْسُوسَةِ خَرَجَ اَلْوَهْمِيُّ بِمَعْنَى مَا اَخْتَرَعَتْهُ اَلْقُوَّةُ اَلْمُتَخَيِّلَةُ اَخْتِرَاعًا صِرْفًا عَلَى نَحْوِ اَلْمَحْسُوسَاتِ وَبِهٰذَا اَلْمَعْنَى يُسْتَعْمَلُ فِي بَابِ اَلتَّشْبِيهِ كَمَا فِي قَوْلِ اَلشَّاعِرِ:

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ اَلشَّقِيقِ م إِذَا تَصَوَّبَ اَوْ تَصَعَّدْ
اَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

---

(١) ليس هذا الرأي بمقرَّر

فَإِنَّ ٱلْأَعْلَامَ ٱلْيَاقُوتِيَّةَ ٱلْمَنْشُورَةَ عَلَى ٱلرِّمَاحِ ٱلزَّبَرْجَدِيَّةِ مِمَّا لَا يُدْرِكُهُ ٱلْحِسُّ لِأَنَّ ٱلْحِسَّ إِنَّمَا يُدْرِكُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي ٱلْمَادَّةِ حَاضِرَةً عِنْدَ ٱلْمُدْرِكِ عَلَى هَيْئَاتٍ مَحْسُوسَةٍ مَخْصُوصَةٍ بِهِ. لٰكِنَّ مَادَّتَهُ ٱلَّتِي يَتَرَكَّبُ هُوَ مِنْهَا كَٱلْأَعْلَامِ وَٱلْيَاقُوتِ وَٱلرِّمَاحِ وَٱلزَّبَرْجَدِ كُلٌّ مِنْهَا مَحْسُوسٌ بِٱلْبَصَرِ

البحث السابع

في الحافظة

(عن الماوَردي باختصار)

(راجع صفحة ٥٠٦ من توطئة علم الادب)

رُبَّمَا ٱسْتَثْقَلَ ٱلْمُتَعَلِّمُ ٱلدَّرْسَ وَٱلْحِفْظَ وَٱتَّكَلَ بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعَانِي عَلَى ٱلرُّجُوعِ إِلَى ٱلْكُتُبِ وَٱلْمُطَالَعَةِ فِيهَا عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ فَلَا يَكُونُ إِلَّا كَمَنْ أَطْلَقَ مَا صَادَهُ ثِقَةً بِٱلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ بَعْدَ ٱلِٱمْتِنَاعِ مِنْهُ فَلَا تُعْقِبُهُ ٱلثِّقَةُ إِلَّا خَجَلًا وَٱلتَّفْرِيطُ إِلَّا نَدَمًا . وَهٰذِهِ حَالٌ قَدْ يَدْعُو إِلَيْهَا أَحَدُ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : ٱلضَّجَرُ مِنْ مُعَانَاةِ ٱلْحِفْظِ وَمُرَاعَاتِهِ وَطُولُ ٱلْأَمَلِ فِي ٱلتَّوَفُّرِ عَلَيْهِ عِنْدَ نَشَاطِهِ وَفَسَادُ ٱلرَّأْيِ فِي عَزِيمَتِهِ وَلَيْسَ يَعْلَمُ أَنَّ ٱلضَّجُورَ خَائِبٌ وَأَنَّ ٱلطَّوِيلَ ٱلْأَمَلِ مَغْرُورٌ وَأَنَّ ٱلْفَاسِدَ ٱلرَّأْيِ مُصَابٌ. وَٱلْعَرَبُ تَقُولُ فِي أَمْثَالِهَا: حَرْفٌ فِي قَلْبِكَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ فِي كُتُبِكَ. وَقَالُوا : لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَعْبُرُ مَعَكَ ٱلْوَادِي وَلَا يَعْمُرُ بِكَ ٱلنَّادِيَ. وَأُنْشِدتُ عَنِ ٱلرَّبِيعِ لِلشَّافِعِيِّ :

عِلْمِي مَعِي حَيْثُ مَا يَمَّمْتُ يَنْفَعُنِي
قَلْبِي وِعَاءٌ لَهُ لَا بَطْنُ صُنْدُوقِي
إِنْ كُنْتُ فِي ٱلْبَيْتِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِيهِ مَعِي
أَوْ كُنْتُ فِي ٱلسُّوقِ كَانَ ٱلْعِلْمُ فِي ٱلسُّوقِ

وَرُبَّمَا ٱعْتَنَى ٱلْمُتَعَلِّمُ بِٱلْحِفْظِ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرٍ وَلَا فَهْمٍ حَتَّى يَصِيرَ حَافِظًا لِأَلْفَاظِ ٱلْمَعَانِي قَيِّمًا بِتِلَاوَتِهَا وَهُوَ لَا يَتَصَوَّرُهَا وَلَا يَفْهَمُ مَا تَضَمَّنَهَا يَرْوِي بِغَيْرِ رَوِيَّةٍ وَيُخْبِرُ عَنْ غَيْرِ خِبْرَةٍ فَهُوَ كَٱلْكِتَابِ ٱلَّذِي لَا يَدْفَعُ شُبْهَةً وَلَا يُؤَيِّدُ حُجَّةً وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: هِمَّةُ ٱلسُّفَهَاءِ ٱلرِّوَايَةُ. وَهِمَّةُ ٱلْعُلَمَاءِ ٱلرِّعَايَةُ. وَرَوَى ٱبْنُ مَسْعُودٍ: كُونُوا لِلْعِلْمِ رُعَاةً. وَلَا تَكُونُوا لَهُ رُوَاةً. فَقَدْ يَرْعَوِي مَنْ لَا يَرْوِي. وَيَرْوِي مَنْ لَا يَرْعَوِي. وَحَدَّثَ ٱلْحَسَنُ ٱلْبَصْرِيُّ بِحَدِيثٍ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا سَعِيدٍ عَمَّنْ. قَالَ: مَا تَصْنَعُ بِعَمَّنْ. أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ نَالَتْكَ عِظَتُهُ وَقَامَتْ عَلَيْكَ حُجَّتُهُ

وَرُبَّمَا ٱعْتَمَدَ عَلَى حِفْظِهِ وَتَصَوُّرِهِ وَأَغْفَلَ تَقْيِيدَ ٱلْعِلْمِ فِي كُتُبِهِ ثِقَةً بِمَا ٱسْتَقَرَّ فِي ذِهْنِهِ وَهٰذَا خَطَأٌ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلشَّكَّ مُعْتَرِضٌ وَٱلنِّسْيَانَ طَارِقٌ. وَقَالَ ٱلْخَلِيلُ بْنُ أَحْمَدَ: ٱجْعَلْ مَا فِي ٱلْكُتُبِ رَأْسَ ٱلْمَالِ وَمَا فِي ٱلْقَلْبِ ٱلنَّفَقَةَ. وَقَالَ مَهْبُورٌ: لَوْلَا مَا عَقَدَتْهُ ٱلْكُتُبُ مِنْ تَجَارِبِ ٱلْأَوَّلِينَ لَانْحَلَّ مَعَ ٱلنِّسْيَانِ عُقُودُ ٱلْآخِرِينَ

البحث الثامن

في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان

(مقدمة ابن خلدون)

(راجع صفحة ٦ من توطئة علم الادب)

اِعلَمْ انَّ لَفظَةَ ٱلذَّوق يَتَداوَلُها ٱلمُعتَنُون بِفُنُونِ ٱلبيانِ . ومَعناها حُصُولُ مَلَكَةِ ٱلبَلَاغَةِ لِلِسَانِ ٱلَّتِي هِيَ مُطابَقَةُ ٱلكَلَامِ لِلمَعنى مِن جَمِيعِ وُجُوهِهِ بِخَواصَّ تَقَعُ لِلتَّراكِيبِ فِي إِفادَةِ ذٰلِكَ . فَٱلمُتَكَلِّمُ بِلِسَانِ ٱلعَرَبِ وَٱلبَليغُ فِيهِ يَتَحَرَّى ٱلهَيئَةَ ٱلمُفِيدَةَ لِذٰلِكَ عَلى اسالِيبِ ٱلعَرَبِ وَانحاءِ مُخاطَباتِهِمْ وَيَنظِمُ ٱلكَلَامَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلوَجهِ جُهدَهُ . فَإِذَا ٱتَّصَلَتْ مَقَامَاتُهُ بِمُخالَطَةِ كَلَامِ ٱلعَرَبِ حَصَلَتْ لَهُ ٱلمَلَكَةُ فِي نَظمِ ٱلكَلَامِ عَلَى ذٰلِكَ ٱلوَجهِ وَسَهُلَ عَلَيهِ امرُ ٱلتَّركِيبِ حَتَّى لَا يَكادُ يَنحُو فِيهِ غَيرَ مَنحَى ٱلبَلَاغَةِ ٱلَّتِي لِلعَرَبِ . وَإِنْ سَمِعَ تَركِيبًا غَيرَ جارٍ عَلَى ذٰلِكَ ٱلمَنحَى مَجَّهُ وَنَبا عَنهُ سَمعُهُ بادنَى فِكرٍ بَلْ وَبِغَيرِ فِكرٍ إِلَّا بِمَا ٱستَفادَهُ مِنْ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلمَلَكَةِ . فَإِنَّ ٱلمَلَكاتِ إِذَا ٱستَقَرَّتْ وَرَسَخَتْ فِي مَحالِّها ظَهَرَتْ كَأَنَّها طَبِيعَةٌ وَجِبِلَّةٌ لِذٰلِكَ ٱلمَحَلِّ . وَلِذٰلِكَ يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ ٱلمُغَفَّلِينَ مِمَّنْ لَمْ يَعرِفْ شَأْنَ ٱلمَلَكاتِ انَّ ٱلصَّوابَ لِلعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ إِعرَابًا وَبَلَاغَةً امرٌ طَبِيعِيٌّ وَيَقُولُ : كَانَتِ ٱلعَرَبُ تَنطِقُ بِٱلطَّبعِ . وَلَيسَ كَذٰلِكَ . وَإِنَّمَا هِيَ مَلَكَةٌ لِسَانِيَّةٌ فِي نَظمِ ٱلكَلَامِ تَمَكَّنَتْ وَرَسَخَتْ فَظَهَرَتْ فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ انَّها جِبِلَّةٌ وَطَبعٌ وَهٰذِهِ

ٱلْمَلَكَةُ كَمَا تَقَدَّمَ إِنَّمَا تَحْصُلُ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَتَكَرُّرِهِ عَلَى ٱلسَّمْعِ وَٱلتَّفَطُّنِ لِخَوَاصِّ تَرَاكِيبِهِ. وَلَيْستْ تَحْصُلُ بِمَعْرِفَةِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْعِلْمِيَّةِ فِي ذٰلِكَ ٱلَّتِي ٱسْتَنْبَطَهَا أَهْلُ صِنَاعَةِ ٱللِّسَانِ. فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينَ إِنَّمَا تُفِيدُ عِلْمًا بِذٰلِكَ ٱللِّسَانِ وَلَا تُفِيدُ حُصُولَ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْفِعْلِ فِي مَحَلِّهَا. وَإِذَا تَقَرَّرَ ذٰلِكَ فَمَلَكَةُ ٱلْبَلَاغَةِ فِي ٱللِّسَانِ تَهْدِي ٱلْبَلِيغَ إِلَى وُجُوهِ ٱلنَّظْمِ وَحُسْنِ ٱلتَّرْكِيبِ ٱلْمُوَافِقِ لِتَرَاكِيبِ ٱلْعَرَبِ فِي لُغَتِهِمْ وَنَظْمِ كَلَامِهِمْ. وَلَوْ رَامَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ حَيْدًا عَنْ هٰذِهِ ٱلسَّبِيلِ ٱلْمُعَيَّنَةِ وَٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْمَخْصُوصَةِ لَمَا قَدَرَ عَلَيْهِ وَلَا وَاتَاهُ عَلَيْهِ لِسَانُهُ لِأَنَّهُ لَا يَعْتَادُهُ وَلَا تَهْدِيهِ إِلَيْهِ مَلَكَتُهُ ٱلرَّاسِخَةُ عِنْدَهُ. وَإِذَا عُرِضَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ حَائِدًا عَنْ أُسْلُوبِ ٱلْعَرَبِ وَبَلَاغَتِهِمْ فِي نَظْمِ كَلَامِهِمْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَمَجَّهُ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ مَارَسَ كَلَامَهُمْ. وَرُبَّمَا يَعْجِزُ عَنِ ٱلِٱحْتِجَاجِ لِذٰلِكَ كَمَا تَصْنَعُ أَهْلُ ٱلْقَوَانِينِ ٱلنَّحْوِيَّةِ وَٱلْبَيَانِيَّةِ. فَإِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْلَالٌ بِمَا حَصَلَ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُفَادَةِ بِٱلِٱسْتِقْرَاءِ وَهٰذَا أَمْرٌ وِجْدَانِيٌّ حَاصِلٌ بِمُمَارَسَةِ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى يَصِيرَ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ. وَمِثَالُهُ لَوْ فَرَضْنَا صَبِيًّا مِنْ صِبْيَانِهِمْ نَشَأَ وَرَبِيَ فِي جِيلِهِمْ فَإِنَّهُ يَتَعَلَّمُ لُغَتَهُمْ وَيُحْكِمُ شَأْنَ ٱلْإِعْرَابِ وَٱلْبَلَاغَةِ فِيهَا حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَى غَايَتِهَا وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ٱلْقَانُونِيِّ فِي شَيْءٍ وَإِنَّمَا هُوَ بِحُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فِي لِسَانِهِ وَنُطْقِهِ. وَكَذٰلِكَ تَحْصُلُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ لِمَنْ بَعْدَ ذٰلِكَ ٱلْجِيلِ بِحِفْظِ كَلَامِهِمْ وَأَشْعَارِهِمْ وَخُطَبِهِمْ وَٱلْمُدَاوَمَةِ عَلَى ذٰلِكَ بِحَيْثُ يُحَصِّلُ ٱلْمَلَكَةَ وَيَصِيرُ كَوَاحِدٍ مِمَّنْ نَشَأَ فِي جِيلِهِمْ وَرَبِيَ بَيْنَ

اَحْيَانِهِمْ. وَٱلْقَوَانِينُ بِمَعْزِلٍ عَنْ هٰذَا. وَٱسْتُعِيرَ لِهٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ عِنْدَمَا تَرْسَخُ وَتَسْتَقِرُّ ٱسْمُ ٱلذَّوْقِ ٱلَّذِي ٱصْطَلَحَ عَلَيْهِ اَهْلُ صِنَاعَةِ ٱلْبَيَانِ. وَٱلذَّوْقُ اِنَّمَا هُوَ مَوْضُوعٌ لِإِدْرَاكِ ٱلطُّعُومِ لٰكِنْ لَمَّا كَانَ مَحَلُّ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ فِي ٱللِّسَانِ مِنْ حَيْثُ ٱلنُّطْقِ بِٱلْكَلَامِ كَمَا هُوَ مَحَلٌّ لِإِدْرَاكِ ٱلطُّعُومِ ٱسْتُعِيرَ لَهَا ٱسْمُهُ وَاَيْضًا فَهُوَ وِجْدَانِيٌّ لِلِّسَانِ كَمَا اَنَّ ٱلطُّعُومَ مَحْسُوسَةٌ لَهُ فَقِيلَ لَهُ ذَوْقٌ. وَاِذَا تَبَيَّنَ لَكَ ذٰلِكَ عَلِمْتَ مِنْهُ اَنَّ ٱلْاَعَاجِمَ ٱلدَّاخِلِينَ فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ ٱلطَّارِئِينَ عَلَيْهِ ٱلْمُضْطَرِّينَ اِلَى ٱلنُّطْقِ بِهِ لِمُخَالَطَةِ اَهْلِهِ كَٱلْفُرْسِ وَٱلرُّومِ وَٱلتُّرْكِ بِٱلْمَشْرِقِ وَكَٱلْبَرْبَرِ بِٱلْمَغْرِبِ فَاِنَّهُ لَا يَحْصُلُ لَهُمْ هٰذَا ٱلذَّوْقُ لِقُصُورِ حَظِّهِمْ فِي هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلَّتِي قَرَّرْنَا اَمْرَهَا. لِاَنَّ قُصَارَاهُمْ بَعْدَ طَائِفَةٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ وَسَبْقِ مَلَكَةٍ اُخْرَى اِلَى ٱللِّسَانِ وَهِيَ لُغَاتُهُمْ اَنْ يَعْتَنُوا بِمَا يَتَدَاوَلُهُ اَهْلُ ٱلْمِصْرِ(١) بَيْنَهُمْ فِي ٱلْمُحَاوَرَةِ مِنْ مُفْرَدٍ وَمُرَكَّبٍ لِمَا يَضْطَرُّونَ اِلَيْهِ مِنْ ذٰلِكَ وَهٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ قَدْ ذَهَبَتْ لِاَهْلِ ٱلْاَمْصَارِ وَبَعُدُوا عَنْهَا كَمَا تَقَدَّمَ. وَاِنَّمَا لَهُمْ فِي ذٰلِكَ مَلَكَةٌ اُخْرَى وَلَيْسَتْ هِيَ مَلَكَةَ ٱللِّسَانِ ٱلْمَطْلُوبَةَ. وَمَنْ عَرَفَ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةَ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْمُسَطَّرَةِ فِي ٱلْكُتُبِ فَلَيْسَ مِنْ تَحْصِيلِ ٱلْمَلَكَةِ فِي شَيْءٍ اِنَّمَا حَصَّلَ اَحْكَامَهَا كَمَا عَرَفْتَ وَاِنَّمَا تَحْصُلُ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةُ بِٱلْمُمَارَسَةِ وَٱلْاِعْتِيَادِ وَٱلتَّكَرُّرِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ. فَاِنْ عَرَضَ لَكَ مَا تَسْمَعُهُ مِنْ اَنَّ سِيبَوَيْهِ وَٱلْفَارِسِيَّ وَٱلزَّمَخْشَرِيَّ وَاَمْثَالَهُمْ مِنْ فُرْسَانِ ٱلْكَلَامِ كَانُوا اَعْجَامًا مَعَ حُصُولِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ لَهُمْ فَٱعْلَمْ اَنَّ اُولٰئِكَ ٱلْقَوْمَ

(١) وفي نسخة : اهل المُضَر

اَلَّذِينَ تَسْمَعُ عَنْهُمْ إِنَّمَا كَانُوا عَجَماً فِي نَسَبِهِمْ فَقَطْ وَأَمَّا ٱلْمَرْبَى وَٱلنَّشْأَةُ فَكَانَتْ بَيْنَ أَهْلِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَمَنْ تَعَلَّمَهَا مِنْهُمْ فَٱسْتَوْلَوْا بِذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى غَايَةٍ لَا وَرَاءَهَا . وَكَأَنَّهُمْ فِي أَوَّلِ نَشْأَتِهِمْ مِنَ ٱلْعَرَبِ ٱلَّذِينَ نَشَأُوا فِي أَحْيَائِهِمْ(١) حَتَّى أَدْرَكُوا كُنْهَ ٱللُّغَةِ وَصَارُوا مِنْ أَهْلِهَا . فَهُمْ وَإِنْ كَانُوا عَجَماً فِي ٱلنَّسَبِ فَلَيْسُوا بِأَعْجَامٍ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ أَدْرَكُوا ٱلْمِلَّةَ فِي عُنْفُوَانِهَا وَٱللُّغَةَ فِي شَبَابِهَا وَلَمْ تَذْهَبْ آثَارُ ٱلْمَلَكَةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ ٱلْأَمْصَارِ . ثُمَّ عَكَفُوا عَلَى ٱلْمُمَارَسَةِ وَٱلْمُدَارَسَةِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَتَّى ٱسْتَوْلَوْا عَلَى غَايَتِهِ . وَٱلْوَاحِدُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلْعَجَمِ إِذَا خَالَطَ أَهْلَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْأَمْصَارِ فَأَوَّلُ مَا يَجِدُ تِلْكَ ٱلْمَلَكَةَ ٱلْمَقْصُودَةَ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ مُمْتَحِيَةَ ٱلْآثَارِ وَيَجِدُ مَلَكَتَهُمْ ٱلْخَاصَّةَ بِهِمْ مَلَكَةً أُخْرَى مُخَالِفَةً لِمَلَكَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ إِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ أَقْبَلَ عَلَى ٱلْمُمَارَسَةِ لِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَأَشْعَارِهِمْ بِٱلْمُدَارَسَةِ وَٱلْحِفْظِ يَسْتَفِيدُ تَحْصِيلَهَا فَقَلَّ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ أَنَّ ٱلْمَلَكَةَ إِذَا سَبَقَتْهَا مَلَكَةٌ أُخْرَى فِي ٱلْمَحَلِّ فَلَا تَحْصُلُ إِلَّا نَاقِصَةً مَخْدُوشَةً . وَإِنْ فَرَضْنَا عَجَمِيّاً فِي ٱلنَّسَبِ سَلِمَ مِنْ مُخَالَطَةِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَجَمِيِّ بِٱلْكُلِّيَّةِ وَذَهَبَ إِلَى تَعَلُّمِ هٰذِهِ ٱلْمَلَكَةِ بِٱلْحِفْظِ وَٱلْمُدَارَسَةِ فَرُبَّمَا يَحْصُلُ لَهُ ذٰلِكَ لَكِنَّهُ مِنَ ٱلنُّدُورِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَيْكَ بِمَا تَقَرَّرَ . وَرُبَّمَا يَدَّعِي كَثِيرٌ مِمَّنْ يَنْظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْبَيَانِيَّةِ حُصُولَ هٰذَا ٱلذَّوْقِ لَهُ بِهَا وَهُوَ غَلَطٌ أَوْ مُغَالَطَةٌ وَإِنَّمَا حَصَلَتْ لَهُ ٱلْمَلَكَةُ إِنْ حَصَلَتْ فِي تِلْكَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْبَيَانِيَّةِ

(١) وفي نسخة : في اجيالهم

وَلَيستْ مِنْ مَلَكَةِ ٱلعِبَارَةِ فِي شَيْءٍ وَٱللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم

البحث التاسع

في المطالعة

(المثل السائر لابي الفتح بن الاثير الموصلي)

(راجع صفحة ٨ من توطئة علم الادب)

إِنَّ فِي ٱلإِطِّلَاعِ عَلَى كَلَامِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ فَوَائِدَ جَمَّةً لِأَنَّهُ يُعْلَمُ مِنْهُ أَغْرَاضُ ٱلنَّاسِ وَنَتَائِجُ أَفْكَارِهِمْ وَيُعْرَفُ بِهِ مَقَاصِدُ كُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ وَإِلَى أَيْنَ تَرَامَتْ بِهِ صَنْعَتُهُ فِي ذٰلِكَ. فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ مِمَّا تَشْحَذُ ٱلْقَرِيحَةَ وَتُزَكِّي ٱلْفِطْنَةَ. وَإِذَا كَانَ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِهَا تَصِيرُ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي ذُكِرَتْ وَتَعِبَ فِي ٱسْتِخْرَاجِهَا كَٱلشَّيْءِ ٱلْمُلْقَى بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْخُذُ مِنْهُ مَا أَرَادَ. وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مُطَّلِعًا عَلَى ٱلْمَعَانِي ٱلْمَسْبُوقِ إِلَيْهَا قَدْ يَنْقَدِحُ لَهُ مِنْ بَيْنِهَا مَعْنًى غَرِيبٌ لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ. وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ أَنَّ خَوَاطِرَ ٱلنَّاسِ وَإِنْ كَانَتْ مُتَفَاوِتَةً فِي ٱلْجُودَةِ وَٱلرَّدَاءَةِ فَإِنَّ بَعْضَهَا لَا يَكُونُ عَالِيًا عَلَى بَعْضٍ أَوْ مُنْحَطًّا عَنْهُ إِلَّا بِشَيْءٍ يَسِيرٍ. وَكَثِيرًا مَا تَتَسَاوَى ٱلْقَرَائِحُ وَٱلْأَفْكَارُ فِي ٱلْإِتْيَانِ بِٱلْمَعَانِي حَتَّى إِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَأْتِي بِمَعْنًى مَوْضُوعٍ بِلَفْظٍ ثُمَّ يَأْتِي ٱلْآخَرُ بَعْدَهُ بِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ بِعَيْنِهِمَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مِنْهُ بِمَا جَاءَ بِهِ ٱلْأَوَّلُ وَهٰذَا ٱلَّذِي يُسَمِّيهِ أَرْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وُقُوعَ ٱلْحَافِرِ عَلَى ٱلْحَافِرِ

البحث العاشر

في الارتياض والممارسة

(المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٩ و ١٠ من توطئة علم الادب)

اِعْلَمْ اَيُّهَا ٱلنَّاظِرُ فِي كِتَابِي انَّ مَدَارَ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ عَلَى حَاكِمِ ٱلذَّوْقِ ٱلسَّلِيمِ ٱلَّذِي هُوَ اَنْفَعُ مِنْ ذَوْقِ ٱلتَّعْلِيمِ. وَهٰذَا ٱلْكِتَابُ وَاِنْ كَانَ فِيمَا يُلْقِيهِ اِلَيْكَ اُسْتَاذًا اَوْ اِذَا سَأَلْتَ عَمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي فَنِّهِ قِيلَ لَكَ هٰذَا فَاِنَّ ٱلدُّرْبَةَ وَٱلْاِدْمَانَ اَجْدَى عَلَيْكَ نَفْعًا وَاَهْدَى بَصَرًا وَسَمْعًا. وَهُمَا يُرِيَانِكَ ٱلْخَبَرَ عِيَانًا وَيَجْعَلَانِ عُسْرَكَ مِنَ ٱلْقَوْلِ اِمْكَانًا وَكُلَّ جَارِحَةٍ مِنْكَ قَلْبًا وَلِسَانًا . فَخُذْ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ مَا اَعْطَاكَ وَٱسْتَنْبِطْ بِاِدْمَانِكَ مَا اَخْطَاكَ . وَمَا مَثَلِي فِيمَا مَهَدْتُهُ لَكَ مِنْ هٰذَا ٱلطَّرِيقِ اِلَّا كَمَنْ طَبَعَ سَيْفًا وَوَضَعَهُ فِي يَمِينِكَ لِتُقَاتِلَ بِهِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ اَنْ يَخْلُقَ لَكَ قَلْبًا فَاِنَّ حَمْلَ ٱلنِّصَالِ غَيْرُ مُبَاشَرَةِ ٱلْقِتَالِ

وَاِنَّمَا يَبْلُغُ ٱلْاِنْسَانُ غَايَتَهُ ... مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِٱلرَّحْلِ شِمْلَالُ

وَاِنَّ صَاحِبَ ٱلْكِتَابَةِ لَا يَرَى فِي اَمْرِهِ اِلَّا صُعُوبَةً وَوُعُورَةً وَطَرِيقًا مُشْكِلَةَ ٱلْمَذَاهِبِ كَثِيرَةَ ٱلشِّعَابِ . فَاِذَا اَكْرَهَ خَاطِرَهُ عَلَى سُلُوكِهَا وَشَجَّعَهُ عَلَى تَوَرُّدِهَا فَمَا مَضَى بِهِ هُنَيْهَةٌ حَتَّى يَسْتَمِرَّ بِهِ ٱلطَّرِيقُ وَيَتَّضِحَ لَدَيْهِ . وَٱلتَّعَبُ عَلَى مَنَازِلِ ٱلْعَلْيَاءِ اِمَارَةٌ

البحث الحادي عشر

في طرائق مختلفة من الممارسة والتمرين

(المثل السائر باختصار)

(راجع صفحة ١٠ من توطئة علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصلُ هُوَ كَنْزُ ٱلْكِتَابَةِ وَمَنْبَعُهَا وَمَا رَأَيْتُ اَحَدًا يَتَكَلَّمُ فِيهِ بِشَيْءٍ . وَلَمَّا حُبِّبَتْ اِلَيَّ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةُ وَبَلَّغَنِي ٱللّٰهُ مِنْهَا مَا بَلَّغَنِي وَجَدتُّ ٱلطَّرِيقَ يَنْقَسِمُ فِيهَا اِلَى ثَلَاثِ شُعَبٍ : (ٱلْاُولَى) اَنْ يَتَصَفَّحَ ٱلْكَاتِبُ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَيَطَّلِعَ عَلَى اَوْضَاعِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْاَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي ثُمَّ يَحْذُو حَذْوَهُمْ . وَهٰذِهِ اَدْنَى ٱلطَّبَقَاتِ عِنْدِي . (ٱلثَّانِيَةُ) اَنْ يَمْزُجَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِمَا يَسْتَجِيدُهُ لِنَفْسِهِ مِنْ زِيَادَةٍ حَسَنَةٍ اِمَّا فِي تَحْسِينِ ٱلْاَلْفَاظِ اَوْ فِي تَحْسِينِ ٱلْمَعَانِي . وَهٰذِهِ ٱلطَّبَقَةُ ٱلْوُسْطَى وَهِيَ اَعْلَى مِنَ ٱلَّتِي قَبْلَهَا . (ٱلثَّالِثَةُ) اَنْ لَا يَتَصَفَّحَ كِتَابَةَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ وَلَا يَطَّلِعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا بَلْ يَصْرِفَ هِمَّتَهُ اِلَى حِفْظِ ٱلْحَدِيثِ وَٱلْاَخْبَارِ وَعِدَّةٍ مِنْ دَوَاوِينِ فُحُولِ ٱلشُّعَرَاءِ مِمَّنْ غَلَبَ عَلَى شِعْرِهِ ٱلْاِجَادَةُ فِي ٱلْمَعَانِي وَٱلْاَلْفَاظِ . ثُمَّ يَأْخُذُ فِي ٱلِٱقْتِبَاسِ مِنْ هٰذِهِ فَيَقُومُ وَيَقَعُ وَيُخْطِئُ وَيُصِيبُ وَيَضِلُّ وَيَهْتَدِي حَتَّى يَسْتَقِيمَ عَلَى طَرِيقَةٍ يَفْتَتِحُهَا لِنَفْسِهِ . وَاَخْلِقْ بِتِلْكَ ٱلطَّرِيقِ اَنْ تَكُونَ مُبْتَدَعَةً غَرِيبَةً لَا شَرِكَةَ لِاَحَدٍ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فِيهَا . وَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ طَرِيقُ ٱلِٱجْتِهَادِ وَصَاحِبُهَا يُعَدُّ اِمَامًا فِي فَنِّ ٱلْكِتَابَةِ . اِلَّا اَنَّهَا مُسْتَوْعِرَةٌ جِدًّا وَلَا يَسْتَطِيعُهَا اِلَّا مَنْ رَزَقَهُ ٱللّٰهُ

تَعَالَى لِسَانًا هَجَّامًا وَخَاطِرًا رَقَّامًا وَإِنَّمَا تَكُونُ نَفَاسَةُ ٱلْأَشْيَاء بِعِزَّةِ حُصُولِهَا وَمَشَقَّةِ وُصُولِهَا :

لَيْسَ حُلْوًا وُجُودُكَ ٱلشَّيْءَ تَبْغِيهِ م طِـلَابًا حَتَّى يَعِزَّ طِـلَابُهْ

وَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ يَجْهَلُهَا كَثِيرٌ مِنْ مُتَعَاطِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلَّـذِي يَعْلَمُهَا مِنْهُمْ يَرْضَى بِٱلْحَوَاشِي وَٱلْأَطْرَافِ وَيَقْنَعُ مِنْ لَآلِيهَا بِمَعْرِفَةِ مَا فِي ٱلْأَصْدَافِ . وَلَا أُرِيدُ بِهٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ أَنْ يَكُونَ ٱلْـكَاتِبُ مُرْتَبِطًا فِي كِتَابَتِهِ بِمَا يَسْتَخْرِجُهُ بِحَيْثُ أَنَّهُ لَا يُنْشِئُ كِتَابًا إِلَّا مِنْ ذٰلِكَ بَلْ أُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا حَفِظَ مِمَّا قَدَّمْنَا شَيْئًا ثُمَّ نَقَّبَ عَنْ ذٰلِـكَ تَنْقِيبَ مُطَّلِعٍ عَلَى مَعَانِيهِ مُفَتِّشٍ عَنْ دَفَائِنِهِ وَقَلَّبَهُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ عَرَفَ حِينَئِذٍ مِنْ أَيْنَ تُؤْكَلُ ٱلْـكَتِفُ فِيمَا يُنْشِئُهُ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهِ وَٱسْتَعَانَ بِٱلْمَحْفُوظِ عَلَى ٱلْغَرِيزَةِ ٱلطَّبِيعِيَّـةِ . أَلَا تَرَى صَاحِبَ ٱلْأَجْتِهَادِ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ يَفْتَقِرُ إِلَى مَعْرِفَةِ أَخْبَارِ ٱلْأَحْكَامِ وَإِلَى مَعْرِفَةِ عِلْمِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَٱلْفَرَائِضِ وَٱلْحِسَابِ مِنَ ٱلْمَعْلُومِ وَٱلْمَجْهُولِ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْحُكْمُ فِي ٱلْـكَاتِبِ إِذَا أَحَبَّ ٱلتَّرَقِّي إِلَى دَرَجَةِ ٱلْأَجْتِهَادِ فِي ٱلْـكِتَابَةِ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى أَدَوَاتٍ كَثِيرَةٍ سَنَذْكُرُهَا

فصلٌ في صفة الكاتب وما يحتاج اليهِ من المعارف

البحث الاوَّل

في صفة الكاتب الظاهرة

(عن ابراهيم الشيباني وآثار الاول للحسن بن عبدالله)

قِيلَ اِنَّهُمْ قَدِ ٱسْتَحْسَنُوا فِي ٱلْكَاتِبِ ٱعْتِدَالَ ٱلْقَامَةِ وَصِغَرَ ٱلْهَامَةِ وَخِفَّةَ ٱللَّهَازِمِ وَصِدْقَ ٱلْحِسِّ وَلُطْفَ ٱلْمَذْهَبِ وَحَلَاوَةَ ٱلشَّمَائِلِ وَحُسْنَ ٱلْاِشَارَةِ وَمَلَاحَةَ ٱلزِّيِّ حَتَّى قَالَ بَعْضُ ٱلْمَهَالِبَةِ لِوُلْدِهِ : تَزَيَّوْا بِزِيِّ ٱلْكُتَّابِ فَاِنَّ فِيهِمْ ادَبَ ٱلْمُلُوكِ وَتَوَاضُعَ ٱلسُّوقَةِ . وَقِيلَ : اِنَّ مِنْ كَمَالِ آلَةِ ٱلْكِتَابَةِ اَنْ يَكُونَ ٱلْكَاتِبُ نَقِيَّ ٱلْمَلْبَسِ نَظِيفَ ٱلْمَجْلِسِ ظَاهِرَ ٱلْمُرُوءَةِ دَقِيقَ ٱلذِّهْنِ حَسَنَ ٱلْفَهْمِ وَافِرَ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعَقْلِ صَادِقَ ٱلْحِسِّ حَسَنَ ٱلْبَيَانِ صَحِيحَ ٱلرَّأْيِ وَٱلْعِبَارَةِ مَلِيحَ ٱلتَّأَنِّي فِي نَظْمِ ٱلْمَعَانِي وَنَثْرِهَا دَقِيقَ حَوَاشِي ٱللِّسَانِ حُلْوَ ٱلْاِشَارَةِ مَلِيحَ ٱلْاِسْتِعَارَةِ لَطِيفَ ٱلْمَسَالِكِ مُسْتَقِرَّ ٱلتَّرْكِيبِ . وَلَا يَكُونُ مَعَ ذٰلِكَ فَدْمَ ٱلْمَنْظَرِ مُتَفَاوِتَ ٱلْاَجْزَاءِ مُضْطَرِبَ ٱلْخَلْقِ . فَاِنَّهُمْ زَعَمُوا اَنَّ هٰذِهِ ٱلصُّورَةَ لَا يَلِيقُ بِصَاحِبِهَا ٱلذَّكَاءُ وَٱلْفِطْنَةُ. وَاِنِ ٱتَّفَقَ اَنْ يَكُونَ حَسَنَ ٱلْخَطِّ فَهُوَ كَمَالُهُ وَاِلَّا فَيَكُونُ هُوَ ٱلْمُنْشِئَ وَغَيْرُهُ ٱلْكَاتِبَ . وَنَظَرَ اَحْمَدُ ٱبْنُ خَصِيبٍ اِلَى رَجُلٍ مِنَ ٱلْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةِ فَقَالَ : لَاَنْ يَكُونَ هٰذَا فِنْطَاسَ مَرْكَبٍ اَشْبَهُ مِنْ اَنْ يَكُونَ كَاتِبًا . قَالَ بَعْضُهُمْ :

عَلَيْكَ بِكَاتِبٍ لَبِقٍ رَشِيقٍ   ذَكِيٍّ فِي شَمَائِلِهِ حَذَارَهْ

تُناجيهِ بِطَرْفِكَ مِنْ بَعيدٍ ... فَيَفْهَمُ رَجْعَ لَحْظِكَ بِٱلْاِشارَهْ

فَإِذَا ٱجْتَمَعَتْ لِلْكَاتِبِ هٰذِهِ ٱلْخِلَالُ وَٱنْتَظَمَتْ فيهِ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ فَهُوَ ٱلْكَاتِبُ ٱلْبَلِيغُ وَٱلْأَديبُ ٱلنِّحْرِيرُ وَإِنْ قَصُرَتْ بِهِ آلَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْآلَاتِ وَقَعَدَتْ بِهِ اَدَاةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَدَوَاتِ فَهُوَ مَنْقُوصُ ٱلْجَمَالِ مُنْكَسِفُ ٱلْحِسِّ مَنْحُوسُ ٱلنَّصِيبِ

البحث الثاني

في ادوات علم الكتابة

(عن المثل السائر لابن الاثير الموصلي باختصار)

اِعلَمْ اَنَّ صِنَاعَةَ تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْمَنْظُومِ وَٱلْمَنْثُورِ تَفْتَقِرُ اِلَى آلَاتٍ كَثِيرَةٍ . وَقَدْ قِيلَ : يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ اَنْ يَتَعَلَّقَ بِكُلِّ عِلْمٍ حَتَّى قِيلَ : كُلُّ ذِي عِلْمٍ يَسُوغُ لَهُ اَنْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ اِلَيْهِ فَيَقُولَ : فُلَانٌ ٱلنَّحْوِيُّ وَفُلَانٌ ٱلْفَقِيهُ وَلَا يَسُوغُ لَهُ اَنْ يَنْسُبَ نَفْسَهُ اِلَى ٱلْكِتَابَةِ فَيَقُولَ : فُلَانٌ ٱلْكَاتِبُ وَذٰلِكَ لِمَا يَفْتَقِرُ اِلَيْهِ مِنَ ٱلْخَوْضِ فِي كُلِّ فَنٍّ . وَمِلَاكُ هٰذَا كُلِّهِ ٱلطَّبْعُ فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ ثَمَّ طَبْعٌ فَإِنَّهُ لَا تُغْنِي تِلْكَ ٱلْآلَاتُ شَيْئًا . وَمِثَالُ ذٰلِكَ كَمَثَلِ ٱلنَّارِ ٱلْكَامِنَةِ فِي ٱلزِّنَادِ وَٱلْحَدِيدَةِ ٱلَّتِي يُقْدَحُ بِهَا . اَلَا تَرَى اَنَّهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي ٱلزِّنَادِ نَارٌ لَا تُفِيدُ تِلْكَ ٱلْحَدِيدَةُ شَيْئًا . وَكَثِيرًا مَا رَاَيْنَا مِنْ غَرَائِبِ ٱلطِّبَاعِ فِي تَعَلُّمِ ٱلْعُلُومِ حَتَّى اِنَّ بَعْضَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ لَهُ نَفَاذٌ فِي تَعَلُّمِ عِلْمٍ مُشْكِلِ ٱلْمَسْلَكِ صَعْبِ ٱلْمَأْخَذِ فَإِذَا كُلِّفَ تَعَلُّمَ مَا هُوَ دُونَهُ مِنْ سَهْلِ ٱلْعُلُومِ نَكَسَ

عَلَى عقِبَيهِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهِ نَفَاذٌ . وَأَغربُ مِنْ ذلِكَ أَنَّ صَاحِبَ الطَّبعِ فِي المَنظُومِ يُجِيدُ فِي المَدِيحِ دُونَ الهِجَاءِ أَوْ فِي الهِجَاءِ دُونَ المَدِيحِ أَوْ يُجِيدُ فِي المَرَاثِي دُونَ التَّهَانِئِ أَوْ فِي التَّهَانِئِ دُونَ المَرَاثِي. وَكَذلِكَ صَاحِبُ الطَّبعِ فِي المَنثُورِ. هٰذَا ابنُ الحَرِيرِيِّ صَاحِبُ المَقَامَاتِ قَدْ كَانَ عَلَى مَا ظَهَرَ عَنْهُ مِنْ تَنمِيقِ المَقَامَاتِ وَاحِدًا فِي فَنِّهِ فَلَمَّا حَضَرَ بِبَغدَادَ وَوُقِفَ عَلَى مَقَامَاتِهِ قِيلَ هٰذَا يَستَصلِحُ لِكِتَابَةِ الإِنشَاءِ فِي دِيوَانِ الخِلَافَةِ وَيَحسُنُ أَثَرُهُ فِيهِ . فَأُحضِرَ وَكُلِّفَ كِتَابَةَ كِتَابٍ فَأُفحِمَ وَلَمْ يَجرِ لِسَانُهُ فِي طَوِيلَةٍ وَلَا قَصِيرَةٍ .... وَبَلَغَنِي عَنِ الشَّيخِ أَبِي مُحَمَّدٍ أَحمَدَ بنِ الخَشَّابِ النَّحوِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : ابنُ الحَرِيرِيِّ رَجُلُ مَقَامَاتٍ أَيْ إِنَّهُ لَمْ يُحسِنْ مِنَ الكَلَامِ المَنثُورِ سِوَاهَا وَإِنْ أَتَى بِغَيرِهَا لَا يَقُولُ شَيئًا . فَانظُرْ أَيُّهَا المُتَأَمِّلُ إِلَى هٰذَا التَّفَاوُتِ فِي الصِّنَاعَةِ الوَاحِدَةِ مِنَ الكَلَامِ المَنثُورِ وَمِنْ أَجلِ ذٰلِكَ قِيلَ : شَيئَانِ لَا نِهَايَةَ لَهُمَا البَيَانُ وَالجَمَالُ

البحث الثالث

فيما يجب على الكاتب معرفته

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

وَمِمَّا يَجِبُ عَلَى الكَاتِبِ أَنْ يَتَرَشَّحَ بِهِ لِلكِتَابَةِ قِرَاءَةُ مَا يَتَّفِقُ مِنْ (كُتُبِ النَّحْوِ) الَّتِي يَحصُلُ بِهَا المَقصُودُ مِنْ مَعرِفَةِ العَرَبِيَّةِ بِحَيثُ يَجمَعُ بَينَ طَرَفَيِ الكِتَابِ الَّذِي يَقرَأُهُ وَيَستَكمِلُ استِشرَاحَهُ وَيُكِبُّ عَلَى

ٱلاعْرَابِ وَيُلازِمُهُ وَيَجْعَلُهُ دَأْبَهُ لِيَرْتَسِمْ فِي فِكْرِهِ وَيَدُورَ عَلَى لِسَانِهِ وَيَنْطَلِقَ بِهِ عِقَالُ قَلَمِهِ وَكَلِمِهِ وَيَزُولَ بِهِ ٱلْوَهْمُ عَنْ سَجِيَّتِهِ وَيَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ عِبَارَتِهِ . فَإِنَّهُ لَوْ اَتَى مِنَ ٱلْبَلَاغَةِ بِأَتَمّ مَا يَكُونُ وَلَحَنَ ذَهَبَتْ مَحَاسِنُ مَا اَتَى بِهِ وَٱنْهَدَّتْ طَبَقَةُ كَلَامِهِ وَأُلْغِيَ جَمِيعُ مَا يُحْسِنُهُ وَوُقِفَ بِهِ عِنْدَ مَا جَهِلَهُ . وَيَتَعَلَّقُ بِذٰلِكَ قِرَاءَةُ مَا تَيَهَّأَ مِنْ مُخْتَصَرَاتِ (كُتُبِ ٱللُّغَةِ) كَٱلْفَصِيحِ لِثَعْلَبٍ وَكِفَايَةِ ٱلْمُتَحَفِّظِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ كُتُبِ ٱلْأَلْفَاظِ لِيَتَّسِعَ عَلَيْهِ نِطَاقُ ٱلنُّطْقِ وَيَنْفَسِحَ لَهُ مَجَالُ ٱلْعِبَارَةِ وَيَنْفَتِحَ لَهُ بَابُ ٱلْاَوْصَافِ فِيمَا يَحْتَاجُ اِلَى وَصْفِهِ مِنْ خَيْلٍ اَوْ سِلَاحٍ اَوْ حَرْبٍ اَوْ سَيْرٍ اَوْ قِتَالٍ اَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُحْتَاجُ اِلَى وَصْفِهِ وَيُضْطَرُّ اِلَى نَعْتِهِ . وَيَتَّصِلُ بِذٰلِكَ حِفْظُ (خُطَبِ ٱلْبُلَغَاءِ) مِنَ ٱلصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ وَمُخَاطَبَاتِهِمْ وَمُحَاوَرَاتِهِمْ وَمُرَاجَعَاتِهِمْ وَمَا ٱدَّعَاهُ كُلٌّ مِنْهُمْ لِنَفْسِهِ اَوْ لِقَوْمِهِ وَمَا نَقَضَهُ عَلَيْهِ خَصْمُهُ لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْوَقَائِعِ بِنَظَائِرِهَا وَتَلَقِّي ٱلْحَوَادِثِ بِمَا شَاكَلَهَا وَٱلِاقْتِدَاءِ بِطَرِيقَةِ مَنْ فَلَجَ عَلَى خَصْمِهِ وَٱقْتِفَاءِ آثَارِ مَنِ ٱضْطُرَّ اِلَى عُذْرٍ اَوْ اِبْطَالِ دَعْوَى اَوْ اِثْبَاتِهَا فَلَحَنَ بِحُجَّتِهِ وَتَخَلَّصَ بِأَلْطَفِ مَأْخَذِهِ وَدِقَّةِ مَسْلَكِهِ وَحُسْنِ عِبَارَتِهِ . . . فَٱنْظُرْ فِي هٰذَا وَاَمْثَالِهِ وَٱلْحِفْظُ مِنْهُ وَٱلِاكْثَارُ مِنْ مُطَالَعَتِهِ مِمَّا يَشْحَذُ ٱلْقَرَائِحَ وَيَفْتِقُ ٱلْاَذْهَانَ وَيَرْتَسِمُ فِي ٱلْخَوَاطِرِ وَيَكْمُنُ فِي ٱلْاَفْكَارِ حَتَّى يَفِيضَ مَا غَاضَ مِنْهُ عَلَى لِسَانِ ٱلْقَلَمِ وَيَبْدُو مِنْهُ لِكُلِّ وَاقِعَةٍ مِنْوَالٌ يُنْسَجُ عَلَيْهِ وَمِثَالٌ يُنْظَرُ فِي نَظَائِرِ ٱلْأُمُورِ اِلَيْهِ

ثُمَّ ٱلنَّظَرُ فِي (اَيَّامِ ٱلْعَرَبِ) وَوَقَائِعِهِمْ وَحُرُوبِهِمْ وَتَسْمِيَةِ ٱلْاَيَّامِ

ٱلَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ وَمَعْرِفَةِ يَوْمِ كُلِّ قَبِيلَةٍ عَلَى ٱلْأُخْرَى وَمَا جَرَى بَيْنَهُمْ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْمُنَاقَضَاتِ . لِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِمَا يُسْتَشْهَدُ بِهِ مِنْ وَاقِعَةٍ قَدِيمَةٍ أَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي مُكَاتَبَةٍ مِنْ ذِكْرِ أَيَّامٍ مَشْهُورَةٍ أَوْ ذِكْرِ فَارِسٍ مُعَيَّنٍ . . . وَأَمْثَالُ ذٰلِكَ فِي نَظَائِرِهِ كَثِيرَةٌ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَارِفًا بِكُلِّ يَوْمٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَيَّامِ عَالِمًا بِمَا جَرَى فِيهَا لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُجِيبُ عَمَّا يَرِدُ إِلَيْهِ مِنْ مِثْلِهَا وَلَا مَا يَقُولُ إِذَا سُئِلَ عَنْهَا وَحَسْبُهُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي صِنَاعَتِهِ وَقُصُورًا عَمَّا يَتَحَتَّمُ عَلَيْهِ مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَحُسْنِ ٱلْجَوَابِ فِيهِ عِنْدَ ٱلسُّؤَالِ عَنْهُ

ثُمَّ (ٱلنَّظَرُ فِي ٱلتَّوَارِيخِ) وَمَعْرِفَةُ أَخْبَارِ ٱلدُّوَلِ مِنَ ٱلِاطِّلَاعِ عَلَى سِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَسِيَاسَاتِهِمْ وَذِكْرِ وَقَائِعِهِمْ وَمَكَائِدِهِمْ فِي حُرُوبِهِمْ وَمَا ٱتَّفَقَ لَهُمْ مِنَ ٱلتَّجَارِبِ ٱلَّتِي بَلَغُوا بِهَا أَقْصَى ٱلْمَآرِبِ وَغَدَتْ لِمَنْ بَعْدَهُمْ كَٱلْمِرْآةِ ٱلَّتِي تُصَوِّرُ لَهُمْ وُجُوهَ ٱلتَّدْبِيرِ وَتُرِيهِمْ مَا ٱسْتَتَرَ عَنْهُمْ مِنْ صَغِيرِ أَحْوَالِهِمْ وَٱلْكَبِيرِ . فَإِنَّهُ قَدْ يُضْطَرُّ إِلَى ٱلسُّؤَالِ عَنْ أَحْوَالِ مَنْ سَلَفَ مِنْ أَوَّلِ ٱلْعَصْرِ وَإِلَى ٱلْآنَ وَيُسْتَخْبَرُ كَيْفَ كَانَ ٱلْأَمْرُ بَيْنَ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَكَيْفَ ٱنْتَصَرَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ . أَوْ يَرِدُ عَلَيْهِ فِي كِتَابٍ ذِكْرُ وَاقِعَةٍ بِعَيْنِهَا أَوْ يُحْتَجُّ عَلَيْهِ بِصُورَةٍ قَدِيمَةٍ فَلَا يَعْرِفُ حَقِيقَتَهَا مِنْ مَجَازِهَا وَلَا صِدْقَهَا مِنْ مَيْنِهَا

ثُمَّ (حِفْظُ أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ) وَمُطَالَعَةُ شُرُوحِهَا وَٱسْتِكْشَافُ غَوَامِضِهَا وَٱلتَّوَفُّرُ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْهَا كَٱلْحَمَاسَةِ وَٱلْمُفَضَّلِيَّاتِ وَٱلْأَصْمَعِيَّاتِ وَدِيوَانِ ٱلْهُذَلِيِّينَ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ لِمَا فِي

ذلِكَ مِنْ غَزارَةِ ٱلْمَوادِ وَصِحَّةِ ٱلِاسْتِشْهادِ وَكَثْرَةِ ٱلنَّقْلِ وَصَقْلِ مِرْآةِ ٱلْعَقْلِ وَٱنْتِزاعِ ٱلْأَمْثالِ وَٱلْأَخْذِ فِي ٱخْتِراعِ ٱلْمَعاني عَلى أَصَحِّ مِثالٍ وَٱلِاطِّلاعِ عَلى أُصُولِ ٱللُّغَةِ وَشَواهِدِها وَٱلِاضْطِلاعِ مِنْ نَوادِرِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَشَوارِدِها . وَقَدْ كانَ ٱلصَّدْرُ ٱلْأَوَّلُ يَعْتَنُونَ بِذلِكَ غايَةَ ٱلِاعْتِناءِ . فَذُكِرَ أَنَّ عُمَرَ كانَ يُقَدِّمُ زُهَيْرَ بْنَ أَبي سُلْمى فِي ٱلشِّعْرِ فَقِيلَ لَهُ : بِمَ ٱسْتَحَقَّ ذلِكَ عِنْدَكَ . فَقالَ : كانَ لا يُعاظِلُ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ وَلا يَتَّبِعُ حُوشِيَّ ٱلْكَلامِ وَلا يَمْدَحُ ٱلرَّجُلَ إِلَّا بِما يَكُونُ فِي ٱلرِّجالِ . فَإِذا أَكْثَرَ ٱلْمُتَرَشِّحُ لِلْكِتابَةِ مِنْ حِفْظِ خِيارِ ٱلشِّعْرِ وَتَدَبَّرَ مَعانِيَهُ يَسْهُلُ عَلَيْهِ حالُهُ وَظَهَرَتْ لَهُ مَواضِعُ ٱلِاسْتِشْهادِ بِهِ وَساقَهُ ٱلْكَلامُ إِلى إِبْرازِ ما فِي ذَخِيرَةِ حِفْظِهِ وَوَضْعِهِ فِي مَكانِهِ وَنَقْلِهِ فِي ٱلِاسْتِشْهادِ أَوِ ٱلتَّضْمِينِ إِلى ما كَأَنَّهُ وُضِعَ لَهُ . . . .

وَكَذلِكَ حِفْظُ جانِبٍ جَيِّدٍ مِنْ شِعْرِ ٱلْمُحْدَثِينَ كَأَبي تَمَّامٍ وَمُسْلِمِ ٱبْنِ ٱلْوَلِيدِ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ وَٱلْمُتَنَبِّي لِلُطْفِ مَأْخَذِهِمْ وَدَوَرانِ ٱلصِّناعَةِ فِي كَلامِهِمْ وَدِقَّةِ تَوْلِيدِ ٱلْمَعانِي فِي أَشْعارِهِمْ وَقُرْبِ أُسْلُوبِهِمْ مِنْ أُسْلُوبِ ٱلْخِطابَةِ وَٱلْكِتابَةِ وَخُصُوصاً ٱلْمُتَنَبِّي ٱلَّذِي كَأَنَّهُ يَنْطِقُ عَنْ أَلْسِنَةِ ٱلنَّاسِ فِي مُحاوَراتِهِمْ . وَكَثُرَ ٱلِاسْتِشْهادُ لِشِعْرِهِ حَتَّى قَلَّ مَنْ يَجْهَلُهُ وَحَتَّى ٱكْتُفِيَ بِٱلْبَيْتِ ٱلْواحِدِ فِي ٱلدَّلالَةِ عَلى ٱلْقَصْدِ وَبُلُوغِ ٱلْغَرَضِ فِي ٱلْجَوابِ كَما كَتَبَ بَعْضُ مُلُوكِ ٱلْعَرَبِ إِلى مَنْ كَرَّرَ كُتُبَهُ وَأَرْسَلَهُ إِلَيْهِ بِقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَلا كُتْبَ إِلَّا ٱلْمَشْرَفِيَّةُ عِنْدَهُ   وَلا رُسُلٌ إِلَّا ٱلْخَمِيسُ ٱلْعَرَمْرَمُ

وَكذٰلِكَ ٱلنَّظَرُ فِي رَسَائِلِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ دُونَ حِفْظِهَا لِمَا فِي ٱلنَّظَرِ فِيهَا مِنْ تَنْقِيحِ ٱلْقَرِيحَةِ وَإِرْشَادِ ٱلْخَاطِرِ وَتَسْهِيلِ ٱلطُّرُقِ وَٱلنَّسْجِ عَلَى مِنْوَالِ ٱلْمُجِيدِ وَٱلِاقْتِدَاءِ بِطَرِيقَةِ ٱلْمُحْسِنِ وَٱسْتِجْلَاءِ مَا ٱنْتَجَتْهُ ٱلْقَرَائِحُ مِنْ أَبْكَارِ ٱلْأَفْكَارِ وَٱسْتِجْلَاءِ مَا رَوَّقَتْهُ ٱلْخَوَاطِرُ مِنْ حِيَاضِ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱسْتِدْرَاكِ مَا فَاتَ ٱلْقَاصِرَ وَٱلِاحْتِرَازِ مِمَّا أَظْهَرَهُ ٱلنَّقْدُ وَرَدِّ مَا بَهْرَجَهُ ٱلسَّبْكُ . فَأَمَّا ٱلنَّهْيُ عَنْ حِفْظِ ذٰلِكَ فَلِئَلَّا يَكِلَّ ٱلْخَاطِرُ عَمَّا فِي حَاصِلِهِ وَيَسْتَنِدَ ٱلْفِكْرُ إِلَى مَا فِي مُودَعِهِ وَيَكْتَفِيَ بِمَا لَيْسَ لَهُ وَيَتَلَبَّسَ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ . . . .

وكذٰلِكَ (ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلْأَمْثَالِ) ٱلْوَارِدَةِ عَنِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا كَأَمْثَالِ ٱلْمَيْدَانِيِّ وَٱلْمُفَضَّلِ بْنِ سَلَمَةَ ٱلضَّبِّيِّ وَحَمْزَةَ ٱلْأَصْبَهَانِيِّ وَغَيْرِهِمْ وَأَمْثَالِ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱلْوَارِدَةِ فِي أَشْعَارِهِمْ كَأَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ وَأَبِي تَمَّامٍ وَٱلْمُتَنَبِّي وَأَمْثَالِ ٱلْمُوَلَّدِينَ وَٱلْأَمْثَالِ ٱلْمَوْضُوعَةِ عَلَى أَلْسُنِ ٱلْحَيَوَانِ لِلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ لِيَسْتَشْهِدَ بِٱلْمَثَلِ فِي مَوْضِعِهِ وَيُورِدَهُ فِي مَكَانِهِ وَيَكُونَ مِنْ وَرَاءِ ٱلْمَعْرِفَةِ بِأَصْلِهِ وَأَوَّلِ مَنْ أَرْسَلَهُ مَثَلًا وَمَنِ ٱسْتَشْهَدَ بِهِ وَذِكْرِ سَبَبِهِ . . . .

وَأَمَّا (ٱلتَّمَثُّلُ بِٱلشِّعْرِ) فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ تَمَثَّلَ يَوْمًا بِقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ   عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

ثُمَّ قَالَ : لِمَنْ هٰذَا . فَقِيلَ لَهُ : لِلنَّابِغَةِ . فَقَالَ : ذَاكَ أَشْعَرُ شُعَرَائِكُمْ . وَسَأَلَ عُمَرُ ٱبْنَ عَبَّاسٍ عَنْ شَيْءٍ فَأَجَابَهُ عَنْهُ فَأَعْجَبَهُ جَوَابُهُ فَقَالَ :

شِنْشِنَةٌ اَعرِفُهَا مِنْ اَخزم . وَامْثَالُ ذٰلِكَ مِمَّا تَمَثَّلَ بِهِ ٱلصَّحَابَةُ كَثِيرٌ .

وَكَذٰلِكَ ٱلنَّظَرُ فِي (ٱلْاَحكَامِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ) فَإِنَّهُ قَدْ يُؤْمَرُ بِأَمرٍ فَيَعْرِفُ بِهَا كَيفَ يُخَلِّصُ قَلَمَهُ عَلَى حُكْمِ ٱلشَّرِيعَةِ ٱلْمُطَهَّرَةِ مِنْ وِلَايَةِ ٱلْقَضَاءِ وَٱلْحِسبَةِ وَغَيرِ ذٰلِكَ . فَهٰذِهِ أُمورٌ كُلِّيَّةٌ لَا بُدَّ لِلْمُتَرَشِّحِ لِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنَ ٱلتَّصَدِّي لِلْاِطِّلَاعِ عَلَيهَا وَٱلْاِكبَابِ عَلَى مُطَالَعَتِهَا وَٱلْاِستِكْثَارِ مِنْهَا . يَنفَقُ مِنْ تِلْكَ ٱلْمَوَادِّ وَيَسْلُكُ فِي ٱلْوُصولِ اِلَى تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ بِذٰلِكَ ٱلْجَوَادِ وَاِلَّا فَلْيَعْلَمْ اَنَّهُ فِي وَادٍ وَٱلْكِتَابَةُ فِي وَادٍ

وَاَمَّا ٱلْأُمُورُ ٱلْخَاصَّةُ ٱلَّتِي تَزِيدُ مَعْرِفَتُهَا قَدْرَهُ وَيُزَيِّنُ ٱلْعِلْمُ بِهَا نَظْمَهُ وَنَثْرَهُ فَاِنَّهَا مِنَ ٱلْمُكَمِّلَاتِ لِهٰذَا ٱلْفَنِّ وَاِنْ لَمْ يُضْطَرَّ اِلَيْهَا ذُو ٱلذِّهْنِ ٱلثَّاقِبِ وَٱلطَّبْعِ ٱلسَّلِيمِ وَٱلْقَرِيحَةِ ٱلْمُطَاوِعَةِ وَٱلْفِكْرَةِ ٱلْمُنَقَّحَةِ وَٱلْبَدِيهَةِ ٱلْمُجِيبَةِ وَٱلرَّوِيَّةِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ . لٰكِنَّ ٱلْعَالِمَ بِهَا مُتَمَكِّنٌ مِنْ اَزِمَّةِ ٱلْمَعَانِي يَقُولُ عَنْ عِلْمٍ وَيَتَصَرَّفُ عَنْ مَعْرِفَةٍ وَيَنْتَقِدُ بِحُجَّةٍ وَيَتَخَيَّرُ بِدَلِيلٍ وَيَسْتَحْسِنُ بِبُرْهَانٍ وَيَصُوغُ ٱلْكَلَامَ بِتَرْتِيبٍ

فَمِنْ ذٰلِكَ (عِلْمُ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ وَٱلْبَدِيعُ) وَمَا يَلْحَقُ بِهَا وَاَنَا أُشِيرُ ٱلْآنَ اِلَى نُكَتٍ مِنْهَا تَدُلُّ عَلَى جَلَالَةِ قَدْرِ هٰذَا ٱلْعِلْمِ وَعِظَمِ ٱلْفَائِدَةِ بِهِ وَاَنَّ ٱلْأَدِيبَ وَٱلْكَاتِبَ ٱلْعَارِيَيْنِ مِنْهُ قَاصِرَانِ عَنْ اَدْنَى رُتَبِ ٱلْكَمَالِ يُجِيدَانِ وَلَا يَدْرِيَانِ كَيْفَ يُجِيبَانِ . فَلَوْ سُئِلَ عَنْ عِلَّةِ مَعْنًى ٱسْتَحْسَنَهُ اَوْ لَفْظٍ ٱسْتَحْلَاهُ اَوْ تَرْكِيبٍ ٱسْتَجَادَهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى ٱلْاِتْيَانِ بِدَلِيلٍ عَلَى ذٰلِكَ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ :

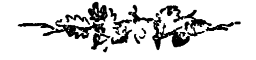
يَا اَبَا جَعْفَرٍ اَتَحْكُمُ فِي ٱلشِّعْرِ م وَمَا فِيكَ آلَةُ ٱلْحُكَّامِ

إنَّ نقدَ ٱلدِّينارِ إلَّا عَلَى ٱلصَّرْ ... فِي صَعْبٌ فَكَيْفَ نَقْدُ ٱلْكَلَامِ
قَدْ رَأَيْنَاكَ لَسْتَ تَفرِقُ فِي ٱلْأَ ... مِ شعَارِ بَيْنَ ٱلْأَرْوَاحِ وَٱلْأَجْسَامِ

وَحَكَى ٱلْإِمَامُ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ ٱلْجُرْجَانِيُّ قالَ : رَكِبَ ٱلْكِنْدِيُّ ٱلْمُتَفَلْسِفُ إِلَى أَبِي ٱلْعَبَّاسِ وَقَالَ لَهُ : إِنِّي أَجِدُ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ حَشْوًا . فَقَالَ لَهُ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ : فِي أَيِّ مَوْضِعٍ وَجَدتَّ ذٰلِكَ . قَالَ : وَجدتُّ ٱلْعَرَبَ تَقُولُ : عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : انَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ . ثُمَّ يَقُولُونَ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ . فَٱلْأَلْفَاظُ مُتَكَرِّرَةٌ وَٱلْمَعْنَى وَاحِدٌ . فَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ : بَلِ ٱلْمَعَانِي مُخْتَلِفَةٌ لِٱخْتِلَافِ ٱلْأَلْفَاظِ . فَقَوْلُهُمْ : عَبْدُ ٱللهِ قَائِمٌ إِخْبَارٌ عَنْ قِيَامِهِ . وَقَوْلُهُمْ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ قَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِلٍ . وَقَوْلُهُمْ : إِنَّ عَبْدَ ٱللهِ لَقَائِمٌ جَوَابٌ عَنْ إِنْكَارِ مُنْكِرٍ قِيَامَهُ . فَمَا أَحَارَ ٱلْمُتَفَلْسِفُ جَوَابًا . فَإِذَا ذَهَبَ مِثْلُ هٰذَا عَلَى ٱلْكِنْدِيِّ فَمَا ٱلظَّنُّ بِغَيْرِهِ . وَإِنْ كَانَ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يَحْكُمُ فِي ٱمْتِزَاجِهِ بِٱلْقُلُوبِ غَيْرُ ٱلذَّوْقِ ٱلسَّلِيمِ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

شَيْءٌ بِهِ فُتِنَ ٱلْوَرَى غَيْرُ ٱلَّذِي ... يُدْعَى ٱلْجَمَالَ وَلَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ

لٰكِنَّ ٱلْغَالِبَ فِي ٱلْكَلَامِ يُعْلَمُ سَبَبُ تَحْسِينِهِ وَتُعْلَلُ مَوَادُّ تَمْكِينِهِ وَيُجَابُ عَنِ ٱلْعِلَّةِ فِي ٱنْحِطَاطِهِ وَٱرْتِفَاعِهِ وَيُذْكَرُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱرْتِقَائِهِ مِنْ حَضِيضِ ٱلْقَوْلِ إِلَى أَيْفَاعِهِ



ألجزء الأول

في علم الانشاء

بحث في تعريف الانشاء

(عن ابي الخير وعن آداب المنشئ لابن صدر الدين)

(راجع الجزء الاول من علم الادب صفحة ١)

إِنَّ ٱلإِنْشَاءَ عِلْمٌ يُبْحَثُ فِيهِ عَنِ ٱلْمَنْثُورِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ بَلِيغٌ وَفَصِيحٌ وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى ٱلآدَابِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ عِنْدَهُمْ فِي ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ وَٱللاَّئِقَةِ بِٱلْمَقَامِ . وَمَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ ظَاهِرَةٌ مِمَّا ذُكِرَ وَمَبَادِيهِ مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَتَبُّعِ ٱلْخُطَبِ وَٱلرَّسَائِلِ بَلْ لَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعُلُومِ سِيَّمَا ٱلْحِكْمَةِ ٱلْعَمَلِيَّةِ وَٱلْعُلُومِ ٱلشَّرْعِيَّةِ وَسِيَرِ ٱلْمُلُوكِ وَوَصَايَا ٱلْعُقَلَاءِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلأُمُورِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُتَنَاهِيَةِ . هٰذَا مَا ذَكَرَهُ أَبُو ٱلْخَيْرِ . وَيَنْدَرِجُ فِيهِ مَا أَوْرَدَهُ فِي عِلْمِ مَبَادِئِ ٱلإِنْشَاءِ وَأَدَوَاتِهِ فَلَا وَجْهَ لِجَعْلِهِ عِلْمًا آخَرَ . وَأَمَّا ٱبْنُ صَدْرِ ٱلدِّينِ فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ سِوَى مَعْرِفَةِ ٱلْمَحَاسِنِ وَٱلْمَعَايِبِ وَنُبْذَةٍ مِنْ آدَابِ ٱلْمُنْشِئِ . وَزُبْدَةُ كَلَامِهِ أَنَّ لِلنَّثْرِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ نَثْرٌ مَحَاسِنُ وَمَعَايِبُ يَجِبُ عَلَى ٱلْمُنْشِئِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا فَيَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلْمَعَايِبِ . وَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ أَعْلَى كَعْبًا فِي ٱلْعَرَبِيَّةِ مُحْتَرِزًا عَنِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلأَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ وَمَا يُخِلُّ لَهُ بِفَهْمِ ٱلْمُرَادِ وَيُوجِبُ

صُعُوبَتَهُ وَانْ يَتَحَرَّزَ عَنِ ٱلتَّكْرَارِ وَانْ يَجْعَلَ ٱلْالْفَاظَ تَابِعَةً لِلْمَعَانِي دُونَ ٱلْعَكْسِ . اِذِ ٱلْمَعَانِي اِذَا تَرَكَّبَتْ عَلَى سَجِيَّتِهَا طَلَبَتْ لِاَنْفُسِهَا ٱلْفَاظًا تَلِيقُ بِهَا فَيَحْسُنُ ٱللَّفْظُ وَٱلْمَعْنَى جَمِيعًا . وَامَّا جَعْلُ ٱلْالْفَاظِ مُتَكَلِّفَةً وَٱلْمَعَانِي تَابِعَةً لَهَا فَهُوَ كَلِبَاسٍ مَلِيحٍ عَلَى مَنْظَرٍ قَبِيحٍ فَيَجِبُ انْ يُجْتَنَبَ عَمَّا يَفْعَلُهُ بَعْضُ مَنْ لَهُمْ شَغَفٌ بِاِيرَادِ شَيْءٍ مِنَ ٱلْمُحَسِّنَاتِ ٱللَّفْظِيَّةِ فَيَصْرِفُونَ ٱلْعِنَايَةَ اِلَى ٱلْمُحَسِّنَاتِ وَيَجْعَلُونَ ٱلْكَلَامَ كَانَّهُ غَيْرُ مَسُوقٍ لِاِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى فَلَا يُبَالُونَ بِخَفَاءِ ٱلدَّلَالَاتِ وَرَكَاكَةِ ٱلْمَعْنَى . وَمِنْ اَعْظَمِ مَا يَلِيقُ لِمَنْ يَتَعَاطَى ٱلْاِنْشَاءَ انْ يَكْتُبَ مَا يُرَادُ لَا مَا يُرِيدُ . كَمَا قِيلَ فِي ٱلصَّاحِبِ وَٱلصَّابِئِ : اِنَّ ٱلصَّابِئَ يَكْتُبُ مَا يُرَادُ وَٱلصَّاحِبُ يَكْتُبُ مَا يُرِيدُ . وَلَا بُدَّ انْ يُلَاحَظَ فِي كِتَابِ ٱلنَّثْرِ حَالُ ٱلْمُرْسِلِ وَٱلْمُرْسَلِ اِلَيْهِ وَيُعَنْوَنَ ٱلْكِتَابُ بِمَا يُنَاسِبُ ٱلْمَقَامَ

الفصل الاول

في الفصاحة

البحث الاوَّل

في تحديد الفصاحة

(عن الفصاحة والبلاغة للامام السيوطي باختصار)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الاول من علم الادب)

اَلْفَصَاحَةُ لُغَةً تُنْبِئُ عَنِ ٱلْإِبَانَةِ وَٱلظُّهُورِ يُقَالُ : فَصُحَ ٱلْاعْجَمِيُّ وَافْصَحَ اِذَا انْطَلَقَ لِسَانُهُ وَخَلَصَتْ لُغَتُهُ مِنَ ٱللُّكْنَةِ وَجَادَتْ فَلَمْ يَلْحَنْ . وَافْصَحَ بِهِ اَيْ صَرَّحَ . وَعِنْدَ اهْلِ ٱلْمَعَانِي تُطْلَقُ عَلَى مَعَانٍ مِنْهَا : وَصْفٌ فِي ٱلْكَلَامِ بِهِ يَقَعُ ٱلتَّفَاضُلُ وَيَثْبُتُ ٱلْإِعْجَازُ . قَالَ ٱلْإِمَامُ فَخْرُ ٱلدِّينِ ٱلرَّازِيُّ : اعْلَمْ انَّ ٱلْفَصَاحَةَ خُلُوصُ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ . وَاصْلُهَا مِنْ قَوْلِهِمْ : افْصَحَ ٱللَّبَنُ اِذَا ذَهَبَتْ عَنْهُ ٱلرَّغْوَةُ . وَهِيَ بِٱلْإصْطِلَاحِ : عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلظَّاهِرَةِ ٱلْمُتَبَادِرَةِ اِلَى ٱلْفَهْمِ وَٱلْمَأْنُوسَةِ ٱلْإسْتِعْمَالِ لِمَكَانِ حُسْنِهَا

البحث الثاني

في الفرق بين الفصاحة والبلاغة وموضوعهما

(عن كتاب الصناعتين الكتابة والانشاء لابي هلال العسكري باختصار)

اَلْبَلَاغَةُ مِنْ قَوْلِهِمْ : بَلَغْتُ ٱلْغَايَةَ اِذَا ٱنْتَهَيْتُ اِلَيْهَا وَبَلَّغْتُهَا

غَيْرِي. وَمَبْلَغُ ٱلشَّيْءِ مُنْتَهَاهُ . وَٱلْمُبَالَغَةُ فِي ٱلشَّيْءِ ٱلْانْتِهَاءُ إِلَى غَايَتِهِ . فَسُمِّيَتِ ٱلْبَلَاغَةُ بَلَاغَةً لِأَنَّهَا تُنْهِي ٱلْمَعْنَى إِلَى قَلْبِ ٱلسَّامِعِ فَيَفْهَمُهُ وَسُمِّيَتِ ٱلْبُلْغَةُ بُلْغَةً لِأَنَّكَ تَتَبَلَّغُ بِهَا فَتَنْتَهِي بِكَ إِلَى مَا فَوْقَهَا وَهِيَ ٱلْبَلَاغُ أَيْضًا . وَيُقَالُ : ٱلدُّنْيَا بَلَاغٌ لِأَنَّهَا تُؤَدِّيكَ إِلَى ٱلْآخِرَةِ . وَٱلْبَلَاغُ أَيْضًا ٱلتَّبْلِيغُ . وَمِنْهُ : هٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ أَيْ تَبْلِيغٌ . وَيُقَالُ : بَلُغَ ٱلرَّجُلُ بَلَاغَةً إِذَا صَارَ بَلِيغًا كَمَا يُقَالُ نَبُلَ نَبَالَةً إِذَا صَارَ نَبِيلًا . وَكَلَامٌ بَلِيغٌ وَبَلْغٌ (بِالْفَتْحِ) كَمَا يُقَالُ وَجِيزٌ وَوَجْزٌ . وَرَجُلٌ بِلْغٌ (بِالْكَسْرِ) يَبْلُغُ مَا يُرِيدُ وَفِي مَثَلٍ لَهُمْ : أَحْمَقُ بِلْغٌ . وَيُقَالُ : أَبْلَغْتُ فِي ٱلْكَلَامِ إِذَا أَتَيْتَ بِٱلْبَلَاغَةِ فِيهِ كَمَا تَقُولُ : أَبْرَحْتُ إِذَا أَتَيْتَ بِٱلْبُرَحَاءِ وَهُوَ ٱلْأَمْرُ ٱلْجَسِيمُ . وَٱلْبَلَاغَةُ مِنْ صِفَةِ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَلِهٰذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى ٱللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ بَلِيغٌ إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِصِفَةٍ كَانَ مَوْضُوعُهَا ٱلْكَلَامَ وَتَسْمِيَتُنَا ٱلْمُتَكَلِّمَ بِأَنَّهُ بَلِيغٌ تَوَسُّعٌ وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ كَلَامَهُ بَلِيغٌ كَمَا تَقُولُ : فُلَانٌ رَجُلٌ مُحْكَمٌ وَتَعْنِي أَنَّ أَفْعَالَهُ مُحْكَمَةٌ . وَكَذٰلِكَ كَثْرَةُ ٱلِاسْتِعْمَالِ جَعَلَتْ تَسْمِيَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِ بِأَنَّهُ بَلِيغٌ كَٱلْحَقِيقَةِ

أَمَّا ٱلْفَصَاحَةُ فَقَدْ قَالَ قَوْمٌ إِنَّهَا مِنْ قَوْلِهِمْ : أَفْصَحَ فُلَانٌ عَمَّا فِي نَفْسِهِ إِذَا أَظْهَرَهُ . وَٱلشَّاهِدُ عَلَى أَنَّهَا هِيَ ٱلْإِظْهَارُ قَوْلُ ٱلْعَرَبِ أَفْصَحَ ٱلصُّبْحُ إِذَا أَضَاءَ وَفَصُحَ أَيْضًا . وَأَفْصَحَ ٱلْأَعْجَمِيُّ إِذَا أَبَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ يُبَيِّنُ وَفَصُحَ ٱللَّحَّانُ إِذَا عَبَّرَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ وَأَظْهَرَهُ عَلَى جِهَةِ ٱلصَّوَابِ دُونَ ٱلْخَطَإِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ عَلَى هٰذَا فَٱلْفَصَاحَةُ

وَٱلْبَلَاغَةُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ إِذَا كَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إِنَّمَا هُوَ ٱلْإِبَانَةُ عَنِ ٱلْمَعْنَى وَٱلْإِظْهَارُ لَهُ . وَقَالَ بَعْضُ عُلَمَائِنَا : ٱلْفَصَاحَةُ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ . فَلِهٰذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى ٱللهُ تَعَالَى فَصِيحًا إِذَا كَانَتِ ٱلْفَصَاحَةُ تَتَضَمَّنُ مَعْنَى ٱلْآلَةِ وَلَا يَجُوزُ عَلَى ٱللهِ تَعَالَى ٱلْآلَةُ . وَيُوصَفُ كَلَامُهُ بِٱلْفَصَاحَةِ لِمَا يَتَضَمَّنُ مِنْ تَمَامِ ٱلْبَيَانِ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْأَلْثَغَ وَٱلتَّمْتَامَ لَا يُسَمَّيَانِ فَصِيحَيْنِ لِنُقْصَانِ آلَتِهِمَا عَنْ إِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ . وَقِيلَ : زِيَادٌ ٱلْأَعْجَمُ . لِنُقْصَانِ آلَةِ نُطْقِهِ عَنْ إِقَامَةِ ٱلْحُرُوفِ وَكَانَ يُعَبِّرُ عَنِ ٱلْحِمَارِ بِٱلْهِمَارِ فَهُوَ أَعْجَمُ وَشِعْرُهُ فَصِيحٌ لِتَمَامِ بَيَانِهِ . فَعَلَى هٰذَا تَكُونُ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ مُخْتَلِفَتَيْنِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَمَامُ آلَةِ ٱلْبَيَانِ فَهِيَ مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱللَّفْظِ لِأَنَّ ٱلْآلَةَ تَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ دُونَ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْبَلَاغَةُ إِنَّمَا هِيَ إِنْهَاءُ ٱلْمَعْنَى فِي ٱلْقَلْبِ فَكَأَنَّهَا مَقْصُورَةٌ عَلَى ٱلْمَعْنَى . وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ تَتَضَمَّنُ ٱللَّفْظَ وَٱلْبَلَاغَةَ تَتَنَاوَلُ ٱلْمَعْنَى أَنَّ ٱلْبَبْغَاءَ يُسَمَّى فَصِيحًا وَلَا يُسَمَّى بَلِيغًا إِذْ هُوَ مُقِيمُ ٱلْحُرُوفِ وَلَيْسَ لَهُ قَصْدٌ إِلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُؤَدِّيهِ . وَقَدْ يَجُوزُ مَعَ هٰذَا أَنْ يُسَمَّى ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ فَصِيحًا بَلِيغًا إِذَا كَانَ وَاضِحَ ٱلْمَعْنَى سَهْلَ ٱللَّفْظِ وَجَيِّدَ ٱلسَّبْكِ غَيْرَ مُسْتَكْرَهٍ فَجٍّ وَلَا مُتَكَلَّفٍ وَخِمٍ وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ أَحَدِ ٱلْاِسْمَيْنِ شَيْءٌ لِمَا فِيهِ مِنْ إِيضَاحِ ٱلْمَعْنَى وَتَقْوِيمِ ٱلْحُرُوفِ . وَشَهِدْتُ قَوْمًا يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ لَا يُسَمَّى فَصِيحًا حَتَّى يَجْمَعَ مَعَ هٰذِهِ ٱلنُّعُوتِ فَخَامَةً وَشِدَّةَ جَزَالَةٍ فَيَكُونَ مِثْلَ كَلَامِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ : إِنَّ ٱلنَّاسَ عَبِيدُ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلدِّينُ لَغْوٌ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ يَحُوطُونَهُ مَا دَرَّتْ بِهِ مَعَايِشُهُمْ فَإِذَا

مُحِصُوا بِالْابْتِلَاء قَلَّ الدَّيَانُونَ . وَمِثْلُ الْمَنْظُومِ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

تَرَى غَابَةَ الْخَطِّيِّ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ   كَمَا أَشْرَقَتْ فَوْقَ الصِّوَارِ قُرُونُهَا

(قَالُوا) وَإِذَا كَانَ الْكَلَامُ يَجْمَعُ نُعُوتَ الْجَوْدَةِ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ فَخَامَةٌ وَفَضْلُ جَزَالَةٍ سُمِّيَ بَلِيغًا ثُمَّ فَصِيحًا كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ وَقَدْ سُئِلَ عَنْ حَالِهِ عِنْدَ الْوَفَاةِ فَقَالَ : مَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بِلَا زَادٍ وَيُقْدِمُ عَلَى مَلِكٍ عَادِلٍ بِغَيْرِ حُجَّةٍ وَيَسْكُنُ قَبْرًا مُوحِشًا بِلَا أَنِيسٍ . وَقَوْلِ آخَرَ لِأَخٍ لَهُ : مَدَدْتَ إِلَى الْمَوَدَّةِ يَدًا فَشَكَرْنَاكَ وَشَفَعْتَ ذَٰلِكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْجَفَاءِ فَعَذَرْنَاكَ وَالرُّجُوعُ إِلَى مَحْمُودِ الْوُدِّ أَوْلَى بِكَ مِنَ الْمُقَامِ عَلَى مَكْرُوهِ الصَّدِّ . وَاسْتَدَلُّوا عَلَى صِحَّةِ هٰذَا الْمَذْهَبِ بِقَوْلِ الْعَاصِي بْنِ عَدِيٍّ : الشَّجَاعَةُ قَلْبٌ رَكِينٌ وَالْفَصَاحَةُ لِسَانٌ رَزِينٌ . وَاللِّسَانُ هَا هُنَا الْكَلَامُ . وَالرَّزِينُ الَّذِي فِيهِ فَخَامَةٌ وَجَزَالَةٌ وَلَيْسَ الْغَرَضُ فِي هٰذَا الْكِتَابِ سُلُوكَ مَذْهَبِ الْمُتَكَلِّمِينَ . وَإِنَّمَا قَصَدْتُ فِيهِ مَقْصِدَ صُنَّاعِ الْكَلَامِ مِنَ الشُّعَرَاءِ وَالْكُتَّابِ فَلِهٰذَا لَمْ أُطِلِ الْكَلَامَ فِي هٰذَا الْفَصْلِ

البحث الثالث

في حقيقة الفصاحة

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣ من علم الادب)

اِعْلَمْ أَنَّ هٰذَا بَابٌ مُتَعَذِّرٌ عَلَى الْوَالِجِ وَمَسْلَكٌ مُتَوَعِّرٌ عَلَى

ٱلنَّاهِجِ وَلَمْ يَزَلِ ٱلْعُلَمَاءُ مِنْ قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ وَحَدِيثِهِ يُكْثِرُونَ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَٱلْبَحْثَ عَنْهُ وَلَمْ اَجِدْ مِنْ ذلك ما يُعوَّلُ عَلَيْهِ اِلَّا ٱلْقَلِيلَ . وَغَايَةُ مَا يُقَالُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ اَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ هِيَ ٱلظُّهُورُ وَٱلْبيَانُ فِي اَصْلِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ يُقَالُ : اَفْصَحَ ٱلصُّبْحُ اِذا ظَهَرَ ثُمَّ اِنَّهُمْ يَقِفُونَ عِنْدَ ذٰلِكَ وَلَا يَكْشِفُونَ عَنِ ٱلسِّرِّ فِيهِ . وَبِهٰذَا ٱلقَوْلِ لَا تَتبيَّنُ حَقِيقَةُ ٱلْفصَاحَةِ لِانَّهُ يُعْتَرَضُ عَلَيْهِ بِوُجُوهٍ مِنَ ٱلِاعْتِرَاضَاتِ . (اَحَدُهَا) : اَنَّهُ اِذَا لَمْ يَكُنِ ٱللَّفظُ ظَاهِرًا بَيِّنًا لَمْ يَكُنْ فَصِيحًا ثُمَّ اِذَا ظَهَرَ وَتَبَيَّنَ صَارَ فَصِيحًا . (ٱلْوَجهُ ٱلثَّانِي) : اَنَّهُ اِذَا كَانَ ٱللفظُ ٱلْفَصِيحُ هُوَ ٱلظَّاهِرَ ٱلْبَيِّنَ فَقَدْ صَارَ ذٰلِكَ بِٱلنِّسَبِ وَٱلْاِضَافَاتِ اِلَى ٱلْاَشْخَاصِ فَاِنَّ ٱللفظَ قَدْ يَكُونُ ظَاهِرًا لِزَيْدٍ وَلَا يَكُونُ ظَاهِرًا لِعَمْرٍو فَهُوَ اذَنْ فَصِيحٌ عِنْدَ هٰذَا وَغَيْرُ فَصِيحٍ عِنْدَ هٰذَا . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلْفَصِيحُ هُوَ فَصِيحٌ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ لَاخِلَافَ فِيهِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْاَحْوَالِ لِاَنَّهُ اِذَا تَحَقَّقَ حَدُّ ٱلْفَصَاحَةِ وَعُرِفَ مَاهِيَ لَمْ يَبْقَ فِي ٱللَّفظِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِهِ خِلَافٌ . (ٱلْوَجْهُ ٱلثَّالِثُ) : اَنَّهُ اِذَا جِيءَ بِلَفظٍ قَبِيحٍ يَنْبُو عَنْهُ ٱلسَّمْعُ وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ يَنْبَغِي اَنْ يَكُونَ فَصِيحًا وَلَيْسَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلْفَصَاحَةَ وَصْفُ حُسْنٍ لِلَفْظِ لَا وَصْفُ قُبْحٍ . فَهٰذِهِ ٱلِاعْتِرَاضَاتُ ٱلثَّلَاثَةُ وَارِدَةٌ عَلَى قَوْلِ ٱلْقَائِلِ اِنَّ ٱللفظَ ٱلْفَصِيحَ هُوَ ٱلظَّاهِرُ ٱلْبَيِّنُ مِنْ غَيْرِ تَفْصِيلٍ . وَلَمَّا وَقَفْتُ عَلَى اَقْوَالِ ٱلنَّاسِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ مَلَكَتْنِي ٱلْحَيْرَةُ فِيهَا وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدِي مِنْهَا مَا اُعوِّلُ عَلَيْهِ وَلِكَثْرَةِ مُلَابَسَتِي هٰذَا ٱلْفَنَّ وَمُعَارَكَتِي اِيَّاهُ ٱنْكَشَفَ لِي ٱلسِّرُّ فِيهِ وَسَاُوضِحُهُ فِي كِتَابِي هٰذَا

وَاحقّ القولَ فيه فاقولُ : اِنَّ الكلامَ الفصيحَ هو الظّاهِرُ البيّنُ وَاعني بالظّاهِرِ البيّنِ اَنْ تكونَ الفاظُهُ مفهومةً لايُحتاج في فهمِها الى استخراج مِنْ كِتابِ لغةٍ . وَانما كانت بهذهِ الصفةِ لانّها تكونُ مألوفةَ الاستعمال بينَ اربابِ النظمِ وَالنثرِ دائرةً في كلامِهم . وانما كانت مألوفةَ الاستعمالِ دائرةً في الكلامِ دونَ غيرِها مِنَ الالفاظِ لمكانِ حسنِها . وذلكَ انَّ اربابَ النظمِ وَالنثرِ غربلوا اللّغةَ باعتبارِ الفاظِها وَسبروا وقسّموا فاختاروا الحسنَ مِنَ الالفاظِ فاستعملوه وَنفوا القبيحَ منها فلمْ يستعملوهُ فحُسنُ الاستعمالِ سببُ استعمالِها دونَ غيرِها وَاستعمالُها سببُ ظهورِها وبيانِها . فالفصيحُ اذنْ مِنَ الالفاظِ هوَ الحسنُ . فإنْ قيلَ : منْ ايّ وجهٍ علمَ اربابُ النظمِ وَالنثرِ الحسنَ مِنَ الالفاظِ حتّى استعملوهُ وعلِموا القبيحَ مِنها حتّى نفوهُ وَلمْ يستعملوهُ . قلتُ في الجوابِ : انَّ هذا مِنَ الامورِ المحسوسةِ الّتي شاهدُها مِنْ نفسِها لانَّ الالفاظَ داخلةٌ في حيّزِ الاصواتِ فالّذي يستلذّهُ السمعُ منها وَيميلُ اِليهِ هوَ الحسنُ وَالّذي يكرهُهُ وينفرُ عنهُ القبيحُ . الاترى انَّ السمعَ يستلذُّ صوتَ البُلبُلِ مِنَ الطيرِ وصوتَ الشحرورِ وَيميلُ اليهِما ويكرهُ صوتَ الغرابِ وينفرُ عنهُ وَكذلكَ يكرهُ نهيقَ الحمارِ وَلايجدُ ذلكَ في صهيلِ الفرسِ . وَالالفاظُ جاريةٌ هذا المجرى فانّهُ لاخلافَ في انَّ لفظةَ المزنةِ وَالديمةِ حسنةٌ يستلذّها السمعُ . وَانَّ لفظةَ البُعاقِ قبيحةٌ يكرهُها السمعُ . وَهذهِ اللفظاتُ الثلاثُ مِنْ صفةِ المطرِ وهي تدلُّ على معنًى وَاحدٍ . ومعَ هذا فانّكَ ترى لفظتي المزنةِ

وَٱلدّيَةِ وَمَا جرى مجراهما مألوفي الاستعمال وترى لفظ ٱلبعاق وما جرى مجراه متروكا لا يستعمل . وان استعمل فانما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة او ذوقه غير ذوق سليم وان كان عربيا محضا من الجاهلية الاقدمين فان حقيقة الشيء اذا علمت وجب الوقوف عندها ولم يعرج على ما خرج عنها . واذ ثبتت ان الفصيح من الالفاظ هو الظاهر البين وانما كان ظاهرا بينا لانه مألوف الاستعمال وانما كان مألوف الاستعمال لمكان حسنه وحسنه مدرك بالسمع . والذي يدرك بالسمع انما هو اللفظ لانه صوت يأتلف عن مخارج الحروف فما استلذه السمع منه فهو الحسن وما كرهه فهو القبيح والحسن هو الموصوف بالفصاحة والقبيح غير موصوف بفصاحة لانه ضدها لمكان قبحه . وقد مثلت المثال المتقدم بلفظة المزنة والديمة ولفظة البعاق ولو كانت الفصاحة لامر يرجع الى المعنى لكانت هذه الالفاظ في الدلالة عليه سواء ليس منها حسن ومنها قبيح . ولما لم يكن كذلك علمنا انها تخص اللفظ دون المعنى . وليس لقائل ههنا ان يقول لا لفظ الا بمعنى فكيف فصلت انت بين اللفظ والمعنى . قلت : لم افصل بينهما وانما خصصت اللفظ بصفة هي له والمعنى يجيء فيه ضمنا وتبعا

البحث الرابع

في احكام الفصاحة وشروطها

(عن المثل السائر)

(راجع صفحة ٣و٤ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّهُ يَحْتَاجُ صَاحِبُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي تَأْلِيفِهِ اِلى ثَلَاثَةِ اَشْيَاءَ : (اَلاوّلُ) مِنْهَا اَخْتِيَارُ ٱلالْفَاظِ ٱلْمُفْرَدَةِ . وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱللَّآلِئِ ٱلْمُبَدَّدَةِ فَاِنَّهَا تُتَخَيَّرُ وتُنْتَقَى قَبْلَ ٱلنَّظْمِ . (ٱلثَّانِي) نَظْمُ كُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ اُخْتِهَا فِي ٱلْمُشَاكَلَةِ لَهَا لِئَلَّا يَجِيءَ ٱلْكَلَامُ قَلِقًا نَافِرًا عَنْ مَوَاضِعِهِ وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱلعِقْدِ ٱلْمَنْظُومِ فِي اقْتِرَانِ كُلِّ لُؤْلُؤَةٍ مِنْهُ بأُخْتِهَا ٱلْمُشَاكِلَةِ لَهَا . (اَلثَّالِثُ) ٱلْغَرَضُ ٱلْمَقْصُودُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ عَلَى اخْتِلَافِ انْوَاعِهِ وَحُكْمُ ذٰلِكَ حُكْمُ ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يُوضَعُ فِيهِ ٱلعِقْدُ ٱلْمَنْظُومُ فَتَارَةً يُجْعَلُ اِكْلِيلا عَلَى ٱلرَّأْسِ وَتَارَةً يُجْعَلُ قِلَادَةً فِي ٱلْعُنُقِ وتَارَةً يُجْعَلُ شَنْفًا فِي ٱلْأُذُنِ وَلِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ هَيْئَةٌ مِنَ ٱلْحُسْنِ تَخُصُّهُ . فَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ اَشْيَاءَ لَا بُدَّ لِلْخَطِيبِ وَٱلشَّاعِرِ مِنَ ٱلعِنَايَةِ بِهَا وَهِيَ ٱلْاَصْلُ ٱلْمُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ . فَٱلاوّلُ وَٱلثَّانِي مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمَذْكُورَةِ هُمَا ٱلْمُرَادُ بِٱلْفَصَاحَةِ . وَٱلثلاثةُ بِجُمْلَتِهَا هِيَ ٱلْمُرَادُ بِٱلبلَاغَةِ. وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَضِلُّ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهِ ٱلْعُلَمَاءُ بِصِنَاعَةِ صَوْغِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلنظْمِ وٱلنَّثْرِ فَكَيْفَ ٱلْجُهَّالُ ٱلَّذِينَ لَمْ تَنْفَحْهُمْ رَائِحَتُهُ . وَمَنْ

ٱلَّذِي يُؤتِيهِ ٱللهُ فِطرَةً نَاصعَةً يَكَادُ زَيتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمسَسْهُ نَارٌ حَتَّى يَنْظُرَ اِلَى مَا يَسْتَعمِلُهُ مِنَ ٱلالفَاظِ فَيضعهَا فِي مَوَاضِعِهَا

وَقَدْ ذَكَرَ مَنْ تَقدَّمَنِي من عُلمَاءِ ٱلبيَانِ لِلالفاظِ ٱلمُفردَةِ خَصَائِص وَهَيئَات تَتَّصفُ بهَا وَٱختَلَفُوا فِي ذٰلك وَٱستحسن احَدهُمْ شَيئًا فَخُولِفَ فِيهِ وكذٰلك ٱستقبح ٱلآخرُ شَيئًا فَخُولِفَ فيهِ . وَلَوْ حَقَّقُوا ٱلنَّظَرَ وَوَقَفُوا عَلَى ٱلسّرِ فِي ٱتِّصافِ بَعضِ ٱلالفَاظِ بِٱلحُسْنِ وَبَعْضِهَا بِٱلقُبْح لَمَا كَانَ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ فِي شَيْءٍ مِنْهَا

وَقَدْ رَأَيتُ جَمَاعَةً مِنَ ٱلجُهّالِ اِذا قِيلَ لِاحَدِهِمْ اِنَّ هٰذِهِ ٱللَّفظَةَ حَسَنَةٌ وهٰذه قَبِيحَةٌ انكَرَ ذالكَ وَقالَ : كُلُّ ٱلالفَاظِ حَسنٌ وَٱلوَاضِعُ لَمْ يَضَعْ الّا حَسنًا . وَمَنْ يَبْلُغُ جَهْلُهُ اِلَى انْ لَا يُفرِّقَ بَيْنَ لَفظَةِ ٱلغُصْنِ وَلَفظَةِ ٱلعُسْلُوجِ وَبَيْنَ لَفْظَةِ ٱلمُدامَةِ وَلَفظَةِ ٱلإِسفِنْطِ وَبَيْنَ لَفظَةِ ٱلسَّيفِ وَلَفظَةِ ٱلخَنْشَلِيلِ وَبَيْنَ لَفظَةِ ٱلاسد وَلَفْظَةِ ٱلفَدَوْكَسِ فَلَا يَنْبَغِي انْ يُخَاطَبَ بِخِطَابٍ وَ يُجَاوَبَ بِجَوَابٍ

وقَد بَقِيَتْ هُنَالِكَ اَوصَافٌ اُخَر يَنبَغِي انْ يُنَبَّهَ عَلَيهَا . فَمِنْهَا انْ لَا تَكُونَ ٱلكَلِمَةُ وَحْشِيَّةً . وَقَدْ خَفِيَ ٱلوَحْشِيُّ عَلَى جَمَاعَةٍ مِنَ ٱلمُنتَمِينَ اِلَى صِنَاعَةِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَظَنُّوهُ ٱلمُسْتَقْبَحَ مِنَ ٱلالفَاظِ وَلَيسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلوَحْشِيُّ يَنقَسِمُ قِسْمَيْنِ احَدُهُمَا غَرِيبٌ حَسَنٌ وَٱلآخَرُ غَرِيبٌ قَبِيحٌ . وَذٰلِكَ انَّهُ مَنْسُوبٌ اِلَى ٱسمِ ٱلوَحْشِ ٱلذِي يَسكُنُ ٱلقِفَارَ وَلَيسَ بِانِيسٍ وَكَذٰلِكَ ٱلالفَاظُ ٱلَّتِي لَمْ تَكُنْ مَأنُوسَةَ ٱلاِستِعْمَالِ . وَلَيسَ مِنْ شَرطِ ٱلوَحْشِ انْ يَكُونَ مُسْتَقْبَحًا بَلْ انْ يَكُونَ نَافِرًا لَا يَأْلَفُ

ٱلإنس فتارةً يكون حسناً وتارةً يكون قبيحاً . وعلى هذا فإنَّ أحد قسمي ٱلوحشيّ وهو ٱلغريب ٱلحسن يختلف باختلاف ٱلنسب وٱلإضافات . وأما ٱلقسم ٱلآخر من ٱلوحشيّ ٱلذي هو قبيحٌ فانَّ ٱلناس في ٱستقباحه سواءٌ ولا يختلف به عربيٌّ بادٍ ولا قرويٌّ متحضرٌ . وأحسن ٱلألفاظ ما كان مألوفاً متداولاً لأنه لم يكن مألوفاً متداولاً إلّا لمكان حسنه وقد تقدَّم ٱلكلام على ذلك في باب ٱلفصاحة . فانَّ أرباب ٱلخطابة وٱلشعر نظروا الى ٱلألفاظ ونقّبوا عنها ثمَّ عدلوا الى ٱلأحسن منها فٱستعملوه وتركوا ما سواه وهو أيضا يتفاوت في درجات حسنه فالألفاظ إذن تنقسم ثلاثة أقسام : قسمان حسنان وقسمٌ قبيحٌ . فٱلقسمان ٱلحسنان أحدهما ما تداول ٱستعماله ٱلأوَّل وٱلآخر من ٱلزمن ٱلقديم الى زماننا هذا ولا يطلق عليه انه وحشيٌّ . وٱلآخر ما تداول ٱستعماله ٱلأوَّل دون ٱلآخر ويختلف في ٱستعماله بٱلنسبة الى ٱلزمن وأهله وهذا هو ٱلذي لا يعاب ٱستعماله عند ٱلعرب لأنه لم يكن عندهم وحشيّاً وهو عندنا وحشيٌّ

ولا يسبق وهمك أيها ٱلمتأمل الى قول ٱلقائل ٱلذي غلب عليه غلظ ٱلطبع وفجاجة ٱلذهن بأنَّ ٱلعرب كانت تستعمل من ٱلألفاظ كذا وكذا فهذا دليلٌ على انه حسنٌ . بل ينبغي ان تعلم انَّ ٱلذي نستحسنه نحن في زماننا هذا هو ٱلذي كان عند ٱلعرب مستحسناً وٱلذي نستقبحه هو ٱلذي كان عندهم مستقبحاً . وٱلاستعمال ليس بدليل على ٱلحسن فإنّا نحن نستعمل ٱلآن من ٱلكلام ما

ليس بحسن وانما نستعمله لضرورة فليس استعمال الحسن بممكن في كل الاحوال . وهذا طريق يضل بغير العارف بمسالكه ومن لم يعرف صناعة النظم والنثر وما يجده صاحبها من الكلفة في صوغ الالفاظ واختيارها فانه معذور في ان يقول ما قال :

لا يعرف الحزن الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

ومع هذا فان قول القائل : بان العرب كانت تستعمل من الالفاظ كذا وكذا وهذا دليل على انه حسن. قول فاسد لا يصدر الا عن جاهل. فان استحسان الالفاظ واستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب لانه شيء ليس التقليد فيه مجال وانما هو شيء له خصائص وهيئات وعلامات اذا وجدت علم حسنه من قبحه. واما الذي نقلد العرب فيه من الالفاظ فانما هو الاستشهاد باشعارها على ما ينقل من لغتها والاخذ باقوالها في الاوضاع النحوية في رفع الفاعل ونصب المفعول وجر المضاف اليه وجزم الشرط واشباه ذلك وما عداه فلا . وحسن الالفاظ وقبحها ليس اضافيا الى زيد دون عمرو او الى عمرو دون زيد لانه وصف ذوقي لا يتغير الا بالاضافة . الا ترى ان لفظة المزنة مثلا حسنة عند الناس كافة من العرب وغيرهم وهلم جرا لا يختلف احد في حسنها . وكذلك لفظة البعاق فانها قبيحة عند الناس كافة من العرب وغيرهم فاذا استعملتها العرب لا يكون استعمالهم اياها مخرجا لها عن القبح ولا يلتفت اذن الى استعمالهم اياها بل يعاب مستعملها ويغلظ له النكير حيث استعملها

فلا تظنَّ انّ الوحشيَّ مِنَ الالفاظِ ما يكرهُهُ سمعُك ويثقُل عليكَ النُّطقُ بهِ وانّما هو الغريبُ الذي يقلُّ استعمالُهُ فتارةَ يخِفُّ على سمعكَ ولا تجدُ بهِ كراهة وتارة يثقُل على سمعكَ وتجدُ منهُ الكراهة. وذلك في اللفظِ عيبانِ : (احدهُما) انّهُ غريبُ الاستعمالِ (والآخرُ) انهُ ثقيلٌ على السمعِ كريهٌ على الذوقِ. وإذا كانَ اللفظُ بهذهِ الصّفةِ فلا مزيد على فظاظتهِ وغلاظتهِ وهو الذي يُسمَّى الوحشيّ الغليظ ويُسمَّى ايضاً المتوعّر وليس وراءهُ في القبحِ درجةٌ أخرى ولا يستعملهُ إلّا اجهلُ الناس ممّن لم يخطرْ ببالهِ شيءٌ من معرفة هذا الفنّ اصلاً. فإنْ قيلَ: فما هذا النوعُ من الالفاظِ. قُلتُ: قدْ ثبت لكَ انهُ ما كرههُ سمعُكَ وثقُلَ على لسانكَ النُّطقُ بهِ. وسأضربُ لكَ في ذلك مثالاً فمنهُ ما وردَ لتأبط شرّاً في كتابِ الحماسةِ :

يَظلُّ بموماةٍ ويُمسي بغيرِها جحيشاً ويعرَوْري ظهورَ المسالكِ

فإنّ لفظةَ (جحيش) من الالفاظ المنكرةِ القبيحةِ. ويا للهِ العجبُ أليسَ انها بمعنى (فريد) وفريدٌ لفظةٌ حسنةٌ رائقةٌ ولوْ وُضِعت في هذا البيتِ موضعَ جحيش لما اختلَّ شيئاً من وزنهِ. فتأبط شرّاً ملومٌ من وجهينِ في هذا الموضعِ : احدُهما انهُ استعمل القبيحَ. والآخرُ انّهُ كانتْ لهُ مندوحةٌ عن استعمالهِ فلم يعدِلْ عنهُ. وممّا هوَ اقبحُ منها ما وردَ لابي تمّام قولُهُ :

قدْ قُلتُ لما اطلخمّ الأمرُ وانبعثتْ عشواءُ تاليةٌ غُبساً دهاريسا

فَلفْظَةُ (طَلِخمٌّ) مِنَ ٱلالْفَاظِ ٱلْمُنْكَرَة ٱلَّتِي جمعت ٱلْوَصْفَيْن ٱلْقبيحَيْنِ في انَّها غريبةٌ وَانها غليظةٌ في ٱلسَّمعِ كريهةٌ عَلَى ٱلذَّوْقِ وكذٰلك لفظَةُ (دَهَارِيس) ايضًا . وعَلَى هٰذَا وَرَدَ قَوْلَهُ مِنْ ابياتٍ يَصف فَرسا مِنْ جُمْلَتِها :

نِعْمَ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا حَبَاكَ بِهِ   اروعُ لَا جَيْدَرٌ ولاجِبْسُ

فَلَفْظَةُ (جَيْدَر) غَلِيظَةٌ . واغلظُ مِنْها قَوْلُ ابِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمتنبي :

جَفَخَتْ وَهُمْ لايَجْفَخُونَ بِها بِهِمْ   شِيَمٌ عَلَى ٱلْحَسَبِ ٱلْاغرِّ دَلائلُ

فَإِنَّ لَفظَةَ (جفخ) مُرَّةُ الطَّعْمِ وَإِذَا مَرّتْ عَلَى ٱلسَّمْعِ ٱقشعرَّ مِنْهَا وَابُو ٱلطَّيِّبِ فِي اسْتِعْمَالِها كاستعمالِ تأبطَ شرًّا لفْظَة جحيش . فانَّ تأبَّطَ شرًّا كانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنِ استِعْمَالِ تلْكَ ٱللفظَةِ كما اشَرْنا فيما تقدم . وكذلك ابو ٱلطيِّبِ فِي استِعْمَالِ هٰذه ٱللفظَةِ ٱلتِي هِيَ جَفَخَتْ فَإِنَّ معناها فخرتْ وٱلجفخْ ٱلْفخْر يقالُ : جَفَخَ فُلَانٌ إِذَا فَخَرَ. ولو اسْتعْمَلَ عوضًا عَنْ جفخت فخرتْ لَاسْتَقَامَ ٱلْبَيْتُ وحظِيَ فِي استعماله بِالْاحسنِ . ومَا اعلمُ كيفَ يَذْهبُ هٰذَا وَامْثَالُهُ عَلَى مِثْلِ هَؤُلاءِ ٱلفُحُولِ مِنَ ٱلشُّعراءِ . وهَذا ٱلَّذي ذَكَرْتهُ وَمَا يَجْرِي مجْرَاهُ من ٱلْالفَاظِ هو ٱلْوَحْشِيُّ ٱلغليظُ ٱلذي لَيْسَ لَهُ مَا يُدانِيهِ فِي قُبْحِهِ وكَرَاهَتِهِ . وهذه ٱلْامْثِلَةُ دَلِيلٌ عَلَى مَا اوْرَدْناهُ . وٱلْعَرَبُ اذَنْ لا تُلَامُ عَلَى استعْمالِ ٱلْغَرِيبِ ٱلْحسنِ من ٱلْالفاظ وَإِنما تُلامُ عَلى ٱلْغريب ٱلقبيح . وامّا ٱلْحَضَرِيُّ فانهُ عَلَى ٱستِعْمَالِ ٱلْقِسْمَيْنِ مَعا وَهُوَ فِي احدِهِما اشَدُّ مَلَامَةً مِنْهُ فِي ٱلْآخرِ

البحث الخامس

في الالفاظ المترادفة والاسماء المشتركة

(عن المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٦ من علم الادب)

وَيَفْتَقِرُ مُؤَلِّفُ ٱلْكَلَامِ الى مَعْرِفَةِ عِدَّةِ اَسْمَاء لِمَا يَقَعُ اَسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ لِيَجِدَ اِذَا ضَاقَ بِهِ مَوْضِعٌ فِي كَلَامِهِ بِإِيرَاد بَعْض ٱلْأَلْفَاظ فِيهِ ٱلْعُدُولَ عَنْهُ اِلَى غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ . وَهٰذِهِ ٱلْاَسْمَاء تُسَمّى ٱلْمُتَرَادِفَةَ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلْمُسَمَّى وَٱخْتِلَافُ اَسْمَائِهِ كَقَوْلِنَا: ٱلْخَمْرُ وَٱلرَّاحُ وَٱلْمُدَامُ . فَاِنَّ ٱلْمُسَمَّى بِهٰذِهِ ٱلْاَسْمَاء شَيْءٌ وَاحِدٌ وَاَسْمَاؤُهُ كَثِيرَةٌ . وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ اِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْاَسْمَاء ٱلْمُشْتَرِكَةِ لِيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّجْنِيسِ فِي كَلَامِهِ وَهِيَ ٱتِّحَادُ ٱلْاِسْمِ وَٱخْتِلَافُ ٱلْمُسَمَّيَات. كَٱلْعَيْنِ فَاِنَّهَا تُطْلَقُ عَلَى ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَة وَعَلَى يَنْبُوعِ ٱلْمَاء وَعَلَى ٱلْمَطَر وَغَيْرِهِ . اِلَّا اَنَّ ٱلْمُشْتَرِكَةَ تَفْتَقِرُ فِي ٱلْاِسْتِعْمَالِ اِلَى قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهَا كَيْ لَا تَكُونَ مُبْهَمَةً . لِاَنَّا اِذَا قُلْنَا: عَيْنٌ. ثُمَّ سَكَتْنَا وَقَعَ ذٰلِكَ عَلَى مُحْتَمَلَاتٍ كَثِيرَةٍ منَ ٱلْعَيْنِ ٱلنَّاظِرَةِ وَٱلْعَيْنِ ٱلنَّابِعَةِ وَٱلْمَطَر وَغَيْرِه مِمَّا هُوَ مَوْضُوعٌ بِإِزَاءِ هٰذَا ٱلْاِسْمِ . وَاِذَا قُرِنَ اِلَيْهِ قَرِينَةٌ تُخَصِّصُهُ زَالَ ذٰلِكَ ٱلْاِبْهَامُ بِاَنْ تَقُولَ : عَيْنٌ حَسْنَاء اَوْ عَيْنٌ نَضَّاخَةٌ اَوْ غَيْرَ ذٰلِكَ . وَهٰذَا مَوْضِعٌ لِلْعُلَمَاء فِيهِ مُجَاذَبَاتٌ جَدَلِيَّةٌ . فَمِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ ٱلْمُشْتَرِكُ حَقِيقَةً فِي ٱلْمَعْنَيَيْنِ جَمِيعًا وَيَقُولُ :

إنَّ ذلكَ يُخِلُّ بفائدةِ وضعِ اللُّغةِ لأنَّ اللُّغةَ إنَّما هيَ وضعُ الألفاظِ في دلالتِها على المعاني أيْ وضعُ الأسماءِ على المُسمَّياتِ لتكونَ مُنبئةً عنها عندَ إطلاقِ اللَّفظِ والاشتراكِ لا بيانَ فيهِ وإنَّما هوَ ضدُّ البيانِ. لكنَّ طريقَ البيانِ أنْ يُجعلَ أحدُ المعنيينِ في اللَّفظِ المُشتركِ حقيقةً والآخرُ مجازياً. فإذا قلنا: هذهِ كلمةٌ. وأطلقنا القولَ فُهِمَ منهُ اللَّفظةُ الواحدةُ. وإذا قيَّدنا اللَّفظَ فقلنا: هذهِ كلمةٌ شاعرةٌ. فُهِمَ منهُ القصيدةُ المقصَّدةُ مِنَ الشِّعرِ وهيَ مجموعُ كلماتٍ كثيرةٍ. ولوْ أطلقنا مِنْ غيرِ تقييدٍ وأردنا القصيدةَ مِنَ الشِّعرِ لما فُهِمَ مُرادُنا ألبتَّةَ. هذا خلاصةُ ما ذهبَ إليهِ مَنْ ينكرُ وقوعَ اللَّفظِ المُشتركِ في المعنيينِ حقيقةً. وفي ذلكَ ما فيهِ. وسأُبيِّنُ ما يدخلُهُ مِنَ الخللِ فأقولُ في الجوابِ عنْ ذلكَ ما استخرجتُهُ بفكري ولمْ يكنْ لأحدٍ فيهِ قولٌ مِنْ قبلي وهوَ: أمَّا قولُكَ: إنَّ فائدةَ وضعِ اللُّغةِ إنَّما هوَ البيانُ عندَ إطلاقِ اللَّفظِ واللَّفظُ المُشتركُ يُخِلُّ بهذهِ الفائدةِ. فهذا غيرُ مُسلَّمٍ بلْ فائدةُ وضعِ اللُّغةِ هوَ البيانُ والتَّحسينُ

(أمَّا البيانُ) فقدْ وفَى الأسماءَ المُتباينةَ الَّتي كلُّ اسمٍ واحدٍ دلَّ على مُسمًّى واحدٍ. فإذا أُطلقَ اللَّفظُ في هذهِ الأسماءِ كانَ بيِّناً مفهوماً لا يحتاجُ إلى قرينةٍ ولوْ لمْ يضعِ الواضعُ مِنَ الأسماءِ شيئاً غيرَها لكانَ كافياً في البيانِ

(وأمَّا التَّحسينُ) فإنَّ الواضعَ لهذهِ اللُّغةِ العربيَّةِ الَّتي هيَ أحسنُ اللُّغاتِ نظراً إلى ما يحتاجُ إليهِ أربابُ الفصاحةِ والبلاغةِ فيما يصوغونَهُ

مِن نظم ونثر ورأى انّ مِن مهمات ذلكَ التجنيسَ ولا يقومُ بِهِ اِلّا الأسماء المشتركة التي هي كلّ اسم واحدٍ دلّ على مسمّيين فصاعِدا فوضعها مِن اجلِ ذلكَ . وهذا الموضع يتجاذبهُ جانبان يترجّح احدهما على الآخر . وبيانه انّ التحسينَ يقضي بوضعِ الاسماء المشتركةِ ووضعها يذهبُ بفائدةِ البيان عِندَ اِطلاقِ اللفظِ . وعلى هذا فانْ وضعها الواضعُ ذهبَ بفائدةِ البيانِ وانْ لم يضعْ ذهب بفائدةِ التحسينِ. لكنهُ اِنْ وضعَ استدركَ ما ذهبَ مِنْ فائدةِ البيانِ بالقرينةِ وانْ لَمْ يضع لَمْ يستدرِكْ مَا ذهبَ من فائدةِ التحسينِ فترجّحَ حينئذ جانبُ الوضعِ فوُضِع

البحث السادس

في فصاحة المفرد وفصاحة المركّب

(من شرح بديعيَّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٥٤ و٥ من علم الادب)

الفصاحةُ فِي المفردِ هِيَ انْ تكون مِمّا استعملتِ العربُ الفصحاءُ كثيرا ودارَ عَلَى السنتِهِمْ فسلم مِنْ ستة اشياءَ . (الاوّلُ) : انْ لا يتركّ مِن حروفٍ متنافرةٍ كلفظةِ (العخعخ) وهو نبتٌ . سُئل اعرابيٌّ عَنْ ناقتِهِ فقالَ : تركتها ترعى العخعخ . وانما تنافرتْ حروفُ هذهِ الكلمةِ لكونِها مِنْ مخرجٍ واحدٍ وهو الحلقُ . (الثاني) : انْ لا تتوالى فيهِ اكثرُ مِنْ حركتينِ يحدثُ بسببِهما ثقلٌ . (الثالثُ) :

انْ لَا يَكُونَ مُتَنَاهِيًا فِي كَثْرَة ٱلْحُرُوفِ بِلَا زِيَادة مَعْنى نَحْوُ : خَنْدَرِيس . ولَا فِي قِلَّتِها نَحْوُ : حِد عَنْ ذا ٱلْمرءِ . وَخَيْرُ ٱلْأُمُورِ اَوْسَطُها وَهُوَ ٱلثُّلَاثِيُّ اِذْ لَا فَضْلَةَ فِيهِ عَمَّا يُحْتَاجُ اِلَيْهِ مِنْ حَرفِ ٱلْأَبْتِداء وَحَرفِ ٱلْوَقْفِ وَحَرْف فاصل بَيْنَ ٱلْوَقْفِ وَٱلِابْتداء . اَما لَوْ كَانَتْ زِيَادَةُ ٱلْحُرُوفِ تَدُلُّ عَلَى مَعْنَى زَائد لَكَانَت ٱللفْظَةَ فَصِيحَةً نَحْوُ : اَخْشَوْشَنَ . مَعْنَاهُ اَزْيدُ منْ خَشُنَ . (الرَّابِعْ) : اَنْ لَا يَكُونَ وَحْشِيًّا غَيْرَ مَأْلُوفٍ نَحْوُ : ٱلْاِسْفِنْطِ لِلْخَمْرِ وَٱلْخَنْشَلِيل للسَّيْفِ وَٱلْفَدَوْكَسِ لِلْاَسَدِ . فَهذِهِ ٱلْاَلْفَاظْ غَرِيبَةٌ يَمُجُّها ٱلطبْعُ ولَا يُطلعُ عَلى مَعْنَاهَا اِلّا بَعْدَ بَحْثٍ فِي كُتُبِ ٱللغَةِ . (اَلْخَامِسْ) : انْ لَا يكُونَ مَبْذُولا وذلكَ نَحْوُ انْ يَخْرُجَ ٱللَّفْظُ عَنْ اَصْلِ وَضْعه وَيَسْتَعْمَلُ فِي شَيْءٍ مُسْتَقْبَح . (اَلسَّادِسُ) : اَنْ لَا يَكُونَ مُشْتَرِكًا بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ اَحَدُهُما مَكْرُوهٌ كَما لَوْ قُلْت : لقِيتُ فُلانًا فعزَرْتُهُ . فَاِنَّهُ يَحْتَمِلُ ٱلْاِكْرام وَٱلْاهانَة . ولو كَانَ فِي ٱلْكَلام قرِينةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْحسن لَكَانَ ٱللفْظُ فَصِيحًا كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ فُلَانًا فَعَزَرْتُهُ وَنَصَرْتُهُ . فَلَفظُ (نَصَرْتُهُ) يُعَيِّنُ فِيهِ ٱلْمَعْنَى الحسنَ . وَعَلَيْهِ يَكُون ٱللفْظُ حَسنا فِي نَفْسِه فَيُعَدُّ قَبِيحًا بسببِ مَحلّهِ مِن ٱلْكَلام وَمَوْقعه مِنْهُ

وَاَمَّا ٱلْفَصَاحَةُ فِي ٱلتَّرْكِيبِ فَهُوَ انْ يَسْلَمَ مِنْ خَمْسَةِ اَشْيَاءَ . (اَلْاَوّلُ) : سَلامَةُ مُفْرَدَاتِهِ مِن ٱلسِّتةِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُتَقَدِّمَة ٱلذكْرِ فِي ٱلْمُفْرَد لانَّ لِلْمُرَكَّبِ حُكْمَ مَا تَرَكّب مِنْهُ . (اَلثاني) : اَنْ يَسْلمَ مِنْ ضُعْفِ ٱلتأْلِيفِ وَهُوَ خُرُوجُهُ عَنْ قَوَاعِدِ ٱلْعربِيَّةِ كَقَوْلِه :

جَزَا رَبُّهُ عَنّي عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ جَزاءَ ٱلْكِلَابِ ٱلعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلْ

فَإِنَّهُ خَالَفَ ٱلقِيَاسَ فِي إِعَادَةِ ٱلضَّمِيرِ فِي (رَبِّهِ) إِلَى عَدِيٍّ وَهُوَ مُتَأَخِّرٌ لفظًا ومَعْنًى. وَٱلقَاعِدَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ أَنْ يَعُودَ ٱلضَّمِيرُ عَلَى مَا قَبْلَهُ أَوْ عَلَى مَا بَعْدَهُ لَفظًا لا معنًى. (ٱلثَّالِثُ): أَنْ يَسْلَمَ مِنْ تنافُرِ ٱلْكَلِمَةِ وَذٰلِكَ أَنْ تَكُونَ ٱلْكَلِمَةُ حَالَ ٱلإِفْرَادِ غَيْرَ مُتَنَافِرَةٍ فَإِذَا رُكِّبَتْ حَصَلَ ٱلتَّنَافُرُ نَحْوُ قَوْلِهِ:

وَقَبْرُ حَرْبٍ (١) بِمَكَانٍ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

قِيلَ: إِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ لَا يُمْكِنُ إِنْشَادُهُ فِي ٱلْغَالِبِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتَوَالِيَةٍ إِلَّا وَيَغْلَطُ ٱلْمُنْشِدُ فِيهِ لِأَنَّ نَفْسَ ٱجْتِمَاعِ ٱلْكَلَامِ وَٱلْقُرْبَ فِي ٱلْمَخَارِجِ يُحْدِثَانِ ثِقَلًا. وَإِذَا كَانَ ٱلتَّنَافُرُ فِي حُرُوفِ ٱلْكَلِمَةِ فَهُوَ رَاجِعٌ إِلَى عَدَمِ فَصَاحَةِ ٱلْمُفْرَدِ وَلَا يَسْلَمُ ٱلْمُرَكَّبُ مِنَ ٱلتَّنَافُرِ مَتَى تَسْلَمْ مُفْرَدَاتُهُ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَٱلْوَرَى مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي

فَٱلتَّنَافُرُ فِيهِ مِنْ وَجْهِ تَكْرَارِ (أَمْدَحْهُ) لَا مِنْ وَجْهِ أَنَّ حُرُوفَ (أَمْدَحْهُ) مُتَنَافِرَةٌ لِاجْتِمَاعِ حَرْفَيِ ٱلْحَلْقِ. (ٱلرَّابِعُ): أَنْ يَسْلَمَ مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ وَهُوَ إِيرَادُ كَلَامٍ خَفِيِّ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنَاهُ وَهُوَ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ وَمِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى. فَمِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ كَتَأْخِيرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَتَقْدِيمِهَا عَلَى مَوَاضِعِهَا وَحُصُولِ ٱلْفَصْلِ إِذْ ذَاكَ بَيْنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُتَلَازِمَةِ كَقَوْلِ ٱلْفَرَزْدَقِ يَمْدَحُ إِبْرَاهِيمَ خَالَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ:

---

(١) حرب اسم رجل

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ (١)

ٱلتَّقْدِيرُ: وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ حَيٌّ يُقَارِبُهُ فِي ٱلشَّرَفِ إِلَّا مُمَلَّكٌ أَبُو أُمِّ ذٰلِكَ ٱلْمُمَلَّكِ أَبُو هٰذَا ٱلْمَمْدُوحِ. فَتَأَمَّلْ مَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ ٱلْمُؤْذِنِ بِٱلتَّعْقِيدِ ٱللَّفْظِيِّ. وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى فَهُوَ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ ٱلدَّلَالَةَ فِي ٱللَّفْظِ عَلَى لَازِمِ مَعْنَاهُ فِي ٱعْتِقَادِهِ وَلَيْسَ كَذٰلِكَ فِي ٱلْمَشْهُورِ مِنْ كَلَامِ ٱلْفُصَحَاءِ كَقَوْلِ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْأَحْنَفِ:

سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا ‏ ‏ ‏ وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ ٱلدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا (٢)

فَجَعَلَ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ كِنَايَةً عَمَّا يَلْزَمُ فِرَاقَ ٱلْأَحِبَّةِ مِنَ ٱلْكَآبَةِ وَٱلْحُزْنِ وَأَصَابَ. لٰكِنَّهُ أَخْطَأَ فِي جَعْلِ جُمُودِ ٱلْعَيْنِ كِنَايَةً عَمَّا يُوجِبُهُ دَوَامُ ٱلتَّلَاقِي مِنَ ٱلْفَرَحِ وَٱلسُّرُورِ لِٱعْتِقَادِهِ أَنَّ ٱلسُّرُورَ بِمَعْنَى ٱلْجُمُودِ. لِأَنَّ جُمُودَ ٱلْعَيْنِ عِنْدَ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا يَلْزَمُ بُخْلَهَا بِٱلدُّمُوعِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَيْهِ لَا ٱلسُّرُورِ. وَٱعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ ٱلدِّينِ ٱلطِّيبِيَّ جَعَلَ بَيْتَ ٱلْعَبَّاسِ (سَأَطْلُبُ بُعْدَ ٱلدَّارِ) مِنَ ٱلْمُطَابَقَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَلَيْسَ فِيهِ عِنْدَهُ تَعْقِيدٌ مَعْنَوِيٌّ لِأَنَّهُ رَأَى أَنَّ سَكْبَ ٱلدُّمُوعِ فِي ٱلْبَيْتِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْحُزْنِ. وَٱلْجُمُودَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلسُّرُورِ فَحَصَلَتْ بَيْنَهُمَا مُطَابَقَةٌ بِهٰذَا ٱللَّفْظِ. وَجَعَلَ ٱلتَّعْقِيدَ ٱللَّفْظِيَّ فِيمَا يَحْدُثُ مِنَ ٱلثِّقَلِ مِنْ تَوَالِي ٱلْمُضَافَاتِ وَٱلضَّمَائِرِ وَٱلصِّفَاتِ وَٱلْأَفْعَالِ مِنْ غَيْرِ عَطْفٍ وَتَكْرَارِ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَا جَرَى مَجْرَى

---

(١) اي ليس في الناس مثل الممدوح حيٌّ يقاربهُ الّا ابن اختهِ وهو هشام المملّك اي المعطى الملك

(٢) المعنى: اني اطيب نفساً بالبعد والفراق واوطنها على مقاساة الحزن والتجرع غصصاً تفيض لاجلها الدموع من عيني الى ان يأتي بعد العسر يسرٌ

ذلكَ . (الخامِسُ) انْ يَسلَمَ مِنَ التكرارِ الموجِبِ فِي الثِقلِ كتكرارِ اللفظةِ ذاتِها وتوالِي الاضافاتِ والصِفاتِ ولا يُخلُّ بالفصاحةِ قطعًا تكرارُ اللفظةِ للتوكيدِ وانّمَا يُعابُ قُبحُ التكرارِ بلا فائدةٍ كقولِ بعضِهِمْ :

كُنْتُ كُنتُ كَتَمتُ السِرَّ كُنْتُ كَمَا
كُنّا وَكُنْتَ وَلكِن ذاكَ لَمْ يكُنِ

فجاءتِ الحُرُوفُ قَلِقَة مكدُودَةً غيْرَ مُتَمَكّنة فِي مَواضعِها . (وَتتَابُعُ الاضَافَاتِ) مثْلُ قَوْل ابِي فائدٍ :

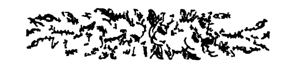
حمامةَ جَرْعَا حَومَةِ الجَنْدَلِ اسْجَعِي فَانتِ بمَرْاى مِنْ سُعادَ وَمَسْمَعِ (١)

فَفيه اِضافَةُ حَمامَة اِلى جَرْعَا وجَرْعَا اِلى حَوْمَة وَحَوْمَةِ اِلَى الجَنْدَلِ . وَلَيسَ هذا بِفَصِيحٍ مأْنوس

(وتَوَالِي الصِفَاتِ) ذَكرهُ الطِيبِيْ ذلكَ مِمّا يُحْدِثُ فِي الكَلامِ ثِقْلا واسْتَشْهدَ عَلى ذلكَ بقولِ المُتَنَبّي :

دَانٍ بعيدُ مُحِبٌّ مُبْغِضٌ بهِجٌ اعَزُّ حُلْوٌ مُمِرٌّ لَيِّنٌ شَرِسُ

(١) الجرعا تخفيف الجرعاء ومؤنث الاجرع وهي ارض ذات رمل لا تنبت شيئًا. والحومة معظم الشيء. والجندل ارض ذات حجارة يقول : اسجعي يا حمامة ارضٍ قفرةٍ سبخة فان سعاد تراك وتسمعك



الفصل الثاني

في البلاغة

البحث الاول

في الابانة عن حدّ البلاغة

(من كتاب الصاعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٩ من علم الادب)

اَلبلاغةُ كُلُّ ما تُبَلِّغُ بهِ ٱلمعْنَى قَلْبَ ٱلسَّامعِ فتُمكّنُهُ في نفسهِ كتَمكُّنهِ في نَفْسِك مع صُورَة مَقْبُولَة ومَعْرِض حَسن . وَانما جعلْنا حُسْنَ ٱلمَعْرض وَقَبُولَ ٱلصُّورَةِ شرطا في ٱلبلاَغَةِ لِانَّ ٱلكلامَ إذ كَانَتْ عِبارَتُهُ رَثَّة وَمَعْرِضُهُ خَلَقا لمْ يُسمَّ بَلِيغا وَإنْ كَانَ مَفْهومُ ٱلمعنى مَكشوفَ ٱلمغْزَى . اَلاَ تَرَى الى معْنَى ٱلكاتِب ٱلذِي كَتبَ إلى بَعْضِ مُعاوِليهِ : (قدْ تاخَّرَ ٱلأمرُ فِيمَا وعَدْتَّ حَمْلَهُ ضَحْوَة انهارِ وَٱلقَوْمُ غَيْرُ مُقيمِينَ لَيْسَ لَهُمْ صَبْرٌ . فَإنْ راَيتَ فِي إِزَاحَة ٱلعِلَةِ مَعَ ٱلجَهْدِ فعَلْتَ إنْ شاءَ ٱللهُ) . فمَعْناهُ مفهومٌ ومَغْزَاهُ مَعْلومٌ ولَيس كَلاَمُهُ بِبَلِيغ فهذَا يدُلُّ عَلَى انَّ مِنْ شرط ٱلبَلاغَةِ انْ يكُونَ ٱلمَعْنى مفهوما وٱللفظُ مَقْبُولا عَلى مَا قدَّمْناهُ . ومَنْ قالَ ان ٱلبَلاغَة إنما هِيَ إفْهامُ ٱلمعْنَى فقطْ فقَدْ جعَلَ ٱلفَصاحَةَ وَٱللُّكْنة وَٱلخَطأ وٱلصواب وَٱلاغْلاَقَ

وَٱلإِبَانَةَ سَوَاء . وَأيضاً فلو كَانَ ٱلكَلَامُ ٱلوَاضِحُ ٱلسَّهلُ وَٱلقَرِيبُ ٱلسَّلِسُ ٱلحُلْوُ بَلِيغاً وَمَا خَالَفَهُ من ٱلكَلَامِ ٱلمُستَبهَمِ ٱلمُستَغلَقِ وَٱلمُتَكَلَّف ٱلمُتَعقِّد ايضاً بليغاً لكَانَ كُلُّ ذَلِكَ مَحمُوداً وَمَمدُوحاً مَقبُولاً لأنَّ ٱلبَلَاغَةَ أسمٌ يُمدَحُ بِهِ ٱلكَلَامُ . فَلَمَّا رَأينَا أحدَهُمَا مُستَحسَناً وَٱلآخَرَ مُستَهجَناً عَلِمْنَا أنَّ ٱلذي يُستَحسَنُ هُوَ ٱلبَلِيغُ وَٱلذِي يُستَهجَنُ لَيسَ بِبَلِيغٍ . وَقَالَ ٱلعَتَّابِيُّ : كُلُّ مَنْ أفهَمَكَ حَاجَتَهُ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَإنَّمَا عَنَى أنَّ مَنْ أفهَمَكَ حَاجَتَهُ بِٱلأَلْفَاظِ ٱلحَسَنَةِ وَٱلعِبَارَةِ ٱلنَّيِّرَةِ فَهُوَ بَلِيغٌ . وَلَوْ حَمَلْنَا هٰذَا ٱلكَلَامَ عَلَى ظَاهِرِهِ لَلَزِمَ أنْ يَكُونَ ٱلأَلْكَنُ بَلِيغاً لأنَّهُ يُفهِمُنَا حَاجَتَهُ بَلْ يَلزَمُ أنْ يَكُونَ كُلُّ ٱلنَّاسِ بُلغَاءَ حَتَّى ٱلأَطْفَالُ لِأَنَّ كُلَّ أحَدٍ لَا يَعدَمُ ان يَدُلَّ عَلَى غَرَضِهِ بِعُجْمَتِهِ وَلُكْنَتِهِ وَإِيمَائِهِ وَإِشَارَتِهِ بَلْ لَزِمَ انْ يَكُونَ ٱلسِّنَّوْرُ بَلِيغاً لأنَّا نَستَدِلُّ بِضُغَائِهِ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ إِرَادَتِهِ وَهٰذَا ظَاهِرُ ٱلإِحَالَةِ . وَنَحْنُ نَفْهَمُ رَطَانَةَ ٱلسُّوقِيِّ وَجَمْجَمَةَ ٱلأَعْجَمِيِّ لِلعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ لَنَا فِي سَمَاعِهَا لَا لِأَنَّ تِلْكَ بَلَاغَةٌ . ألا تَرَى أنَّ ٱلأَعرَابِيَّ انْ سَمِعَ ذٰلِكَ لَمْ يَفْهَمْهُ إِذْ لا عَادَةَ لَهُ بِسَمَاعِهِ . وَأرَادَ رَجُلٌ أنْ يَسأَلَ بَعضَ ٱلأَعْرَابِ عَنْ أهلِهِ فقَالَ : كَيفَ أهْلِكَ (بِٱلكَسْرِ). فقَالَ لَهُ ٱلأَعرَابِيُّ : صَلْباً . اذ لَمْ يَشُكَّ أنَّهُ إنَّمَا يَسأَلُهُ عَنِ ٱلسَّبَبِ ٱلذِي يَهلِكُ بِهِ . وَسَمِعَ أعرَابِيٌّ قَصِيدَةَ أبي تَمَّام فِي خَالِدِ بْنِ يَزِيدَ :

طَلَلَ ٱلجَمِيعِ لَقَدْ عَفَوْتَ حَمِيدَا

فَقَالَ : إنَّ فِي هٰذِهِ ٱلقَصِيدَةِ أشيَاءَ أفهَمُهَا وَأشيَاءَ لَا أفهَمُهَا

فاما ان يكون قائلها اشعر من جميع الناس واما ان يكون جميع الناس اشعر منه . ونحن نفهم معاني هذه القصيدة باسرها لعادتنا لسماع مثلها لا لانا اعرف بالكلام من الاعراب . ومما يؤيد ما قلنا من ان البلاغة انما هي ايضاح المعنى وتحسين اللفظ قول بعض الحكماء : البلاغة تصحيح الاقسام واختيار الكلام الى غير ذلك .
وقال محمد بن الحنفية : البلاغة قول يضطر العقول الى فهمه باسهل العبارة . فقوله : (يضطر العقول الى فهمه) عبارة عن ايضاح المعنى . وقوله : (باسهل العبارة) تنبيه على تسليس اللفظ وترك تنقيحه

البحث الثاني

اقوال في تحديد البلاغة

(ملخص عن زهر الاداب للحصري وكتاب الصناعتين للعسكري)

قال اعرابي : البلاغة التقرب من البعيد والتباعد من الكلفة والدلالة بقليل على كثير . قال عبد الحميد بن يحيى : البلاغة تقرير المعنى في الافهام من اقرب وجوه الكلام . قال ابن المعتز : البلاغة البلوغ الى المعنى ولم يطل سفر الكلام . قال سهل بن هارون : البيان ترجمان العقول وروض القلوب . وقال ايضاً : العقل رائد الروح والعلم رائد العقل والبيان ترجمان العلم . قال ابرهيم الامام : يكفي من البلاغة ان لا يؤتى السامع من سوء فهم الناطق ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع . قال العتابي : البلاغة مد

الكلام بمعانيه اذا قصر وحسن التأليف اذا طال . قال اعرابيٌّ : البلاغة ايجاز في غير عجز واطناب في غير خطل . وقد قيل لليونانيّ : ما البلاغة . قال : تصحيح الاقسام واختيار الكلام . وقيل للروميّ : ما البلاغة . قال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة . وقيل للهنديّ : ما البلاغة . قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة . وقيل للفارسيّ : ما البلاغة . قال : معرفة الفصل من الوصل . وقال عليّ بن عيسى الرمّانيّ : البلاغة ايصال المعنى الى القلب في حسن صورة من اللفظ . وسئل بعضهم عن البلاغة قال : ابلغ الكلام ما حسن ايجازه . وقلّ مجازه . وكثر اعجازه . وتناسبت صدوره واعجازه . وقيل لجعفر بن خالد : ما البلاغة . قال : التقرّب من المعنى البعيد والدلالة بالقليل على الكثير . وقيل لآخر : ما البلاغة . قال : تطويل القصير وتقصير الطويل . وقيل لاعرابيّ : ما البلاغة . قال : حذف الفضول وتقريب البعيد وحسن الاستعارة . وقيل لجالينوس : ما البلاغة . قال : ايضاح المعضل وفكّ المشكل . وقيل للخليل بن احمد : ما البلاغة . فقال : ما قرب طرفاه وبعد منتهاه . وقيل لخالد بن صفوان : ما البلاغة . قال : اصابة المعنى والقصد الى الحجّة . وقيل لآخر : ما البلاغة . قال : تصوير الحقّ في صورة الباطل وتصوير الباطل في صورة الحقّ (١) . وقيل لابرهيم الامام : ما البلاغة . فقال : الجزالة والاصالة

(١) لا يجوز ذلك الا على طريقة المعايرة في الامور القابلة المدح والذمّ

قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ حَسَّان : لَمْ يُفَسِّرْ أَحَدٌ ٱلبلاَغَة تَفْسِيرَ ٱبْنِ ٱلْمقفع إذْ قَال : ٱلْبلاَغَةُ لمعانٍ تَجْرِي فِي وُجُوه كَثِيرَةٍ : فَمِنْها مَا يَكُونُ فِي ٱلاشارَةِ . وَمنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلْحديثِ . وَمنْهَا مَا يكُونُ في ٱلِاسْتِمَاع وَمنْها مَا يَكُونُ في ٱلِاحْتِجاجِ . وَمنْهَا مَا يَكُونُ شعْرًا . وَمِنْها مَا يَكُونُ ٱبْتداء . وَمِنْها مَا يَكُونُ جَوابًا . وَمِنْها مَا يَكُونُ سجْعا . وَمِنْها مَا يَكُونُ خُطَبا . وَمِنْها رُبمَا كَانَتْ رَسَائِلَ . فَغَايَةُ (١) هٰذه ٱلا بواب ٱلْوَحْيُ فيها وَٱلْإِشَارَةُ الى ٱلْمَعْنَى ابْلَغْ وَٱلْإِيجازُ هُوَ ٱلْبلاغَة . فَٱلسُّكُوتُ يُسمّى بلاغَة مجازا وَهُوَ فِي حَالَة لَا يَنْجع فِيها ٱلْقوْلُ ولا يَنْفعُ فِيها إِقامَـة ٱلحُجَجِ إِما عنْدَ جَاهل لَا يَفْهَمُ ٱلخطاب أَو عِنْـدَ وضيع لَا يَرْهَبُ ٱلْجواب . اَوْ ظَالِم سَلِيط يَحْكُمُ بِالْهوى وَلا يَرْتَدعُ بِكَلمَةِ ٱلتَّقْوى وَ اذا كَانَ ٱلْكَلامُ يُعْرَى مِن ٱلْخيْرِ اَوْ يَجْلِبُ ٱلشَّرَّ فَٱلسُّكُوتُ اَوْلَى كَمَا قالَ ابُو ٱلْعتاهيَة :

مَا كُلُّ نُطْق لَهُ جَوَابٌ جَوَابُ مَا يُكْرَهُ ٱلسُّكُوتُ

وَرُبمَا كَانَ صَمْتُكَ فِي حَال أَرْفَقَ مِنْ كَلامِكَ وَلَهُ وجْهٌ آخرُ وَهُوَ قَوْلُهُمْ : كُلُّ صَامِت نَاطِقٌ منْ جِهةِ ٱلدلالَةِ . وَذٰلكَ أَنَّ دَلَائلَ ٱلصّنْعَة فِي جميع ٱلْاشْيَاء وَاضحةٌ . وٱلْموْعظَةُ فِيها قَائمَةٌ . وقَدْ قَال ٱلرَّقاشِيُّ : سَل ٱلْأَرْضَ مَنْ شَقَّ انْهارَكِ وَغَرس اشجارَكِ وَجَنَى ثِمَارَك . فَإِنْ لَمْ تُجِبْكَ حِوَارا اَجَابَتْـكَ ٱعْتِبَارا . وَقَوْلُ ٱبْنُ ٱلْمُقفَّع : (رُبَّمَا كَانَتِ ٱلْبلاغَةُ بِٱلِاستِمَاع) فَـلِأَنَّ ٱلْمُخَاطَبَ إِذَا لَمْ يُحْسِنِ ٱلِاسْتِمَاعَ لَمْ

(١) وفي نسخة : عامَّة

يَقِفُ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُؤَدِّي إِلَى ٱلْخِطَابِ . فَٱلِاسْتِمَاعُ ٱلْحَسَنُ عَوْنٌ لِلْبَلِيغِ عَلَى إِفْهَامِ ٱلْمَعْنَى

وَقَدْ جَاءَ لِلْبَلَاغَةِ تَعْرِيفَاتٌ أُخَرُ مِنْهَا قَوْلُ بَعْضِ حُكَمَاءِ ٱلْهِنْدِ : جِمَاعُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْبَصَرُ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاقِعِ ٱلْفُرْصَةِ وَمِنَ ٱلْبَصَرِ بِٱلْحُجَّةِ أَنْ تَدَعَ ٱلْإِفْصَاحَ بِهَا إِلَى ٱلْكِنَايَةِ عَنْهَا إِذَا كَانَ طَرِيقُ ٱلْإِفْصَاحِ وَعْرًا وَكَانَتِ ٱلْكِنَايَةُ أَحْضَرَ نَفْعًا. قَالَ آخَرُ : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا يُؤْنِسُ مَسْمَعُهُ . وَيُؤْيِسُ مَصْنَعُهُ. وَٱلْبَلِيغُ مَنْ يَجْتَنِي مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ أَنْوَارَهَا. وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ثِمَارَهَا. لَيْسَتِ ٱلْبَلَاغَةُ أَنْ يُطَالَ عِنَانُ ٱلْقَلَمِ أَوْ سِنَانُهُ . أَوْ يُبْسَطَ رِهَانُ ٱلْقَوْلِ وَمَيْدَانُهُ . بَلْ هِيَ أَنْ يَبْلُغَ أَمَدَ ٱلْمُرَادِ بِأَلْفَاظٍ أَعْيَانٍ وَمَعَانٍ أَفْرَادٍ مِنْ حَيْثُ لَا تَزِيدُ عَلَى ٱلْحَاجَةِ وَلَا إِخْلَالٌ يُفْضِي إِلَى ٱلْفَاقَةِ . وَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْبَلَاغَةَ قَالَ : هِيَ مَيْدَانٌ لَا يُقْطَعُ إِلَّا بِسَوَابِقِ ٱلْأَذْهَانِ . وَلَا يُسْلَكُ إِلَّا بِبَصَائِرِ ٱلْبَيَانِ . يَعْبَثُ صَاحِبُهَا بِٱلْكَلَامِ . وَيَقُودُهُ بِأَلْيَنِ زِمَامٍ. حَتَّى كَأَنَّ ٱلْأَلْفَاظَ تَتَحَاشَدُ فِي ٱلتَّسَابُقِ إِلَى خَوَاطِرِهِ وَٱلْمَعَانِي تَتَغَايَرُ فِي ٱلِانْثِيَالِ عَلَى أَنَامِلِهِ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ ٱلطَّائِيِّ :

تَغَايَرَ ٱلشِّعْرُ فِيهِ إِذْ سَهِرْتُ لَهُ   حَتَّى ظَنَنْتُ قَوَافِيهِ سَتَقْتَتِلُ

وَقِيلَ فِي بَلِيغٍ : فُلَانٌ مَشْرَفِيُّ ٱلْمَشْرِقِ . وَصَيْرَفِيُّ ٱلْمَنْطِقِ . ٱلْبَيَانُ أَصْغَرُ صِفَاتِهِ. وَٱلْبَلَاغَةُ عَفْوُ خَطَرَاتِهِ . كَأَنَّهُ أُوحِيَ بِٱلتَّوْفِيقِ إِلَى صَدْرِهِ. وَحَسُنَ ٱلصَّوَابُ بَيْنَ طَبْعِهِ وَفِكْرِهِ . يَحُزُّ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ . وَيَسْبِقُ فِيهَا إِلَى دَرْكِ ٱلْمَرَامِ . كَأَنَّمَا جُمِعَ ٱلْكَلَامُ حَوْلَهُ حَتَّى ٱنْتَقَى مِنْهُ وَٱنْتَخَبَ . وَتَنَاوَلَ مِنْهُ مَا طَلَبَ . وَتَرَكَ بَعْدَ ذٰلِكَ أَذْنَابًا لَا رُؤُسًا.

وَاجْسَادًا لَا نُفُوسًا . وَقِيلَ فِي آخَرَ : يَرْضَى بِعَفْوِ ٱلطَّبْعِ . وَيَقْنَعُ بِمَا خَفَّ عَلَى ٱلسَّمْعِ . وَيُوجِزُ فَلَا يُخِلُّ . وَيُطْنِبُ فَلَا يُمِلُّ . فَلِلّٰهِ فُلَانٌ اخَذَ بِازِمَّةِ ٱلْقَوْلِ يَقُودُهَا كَيْفَ ارَادَ وَيَجْذُبُهَا انَّى شَاءَ فَلَا تَعْصِيهِ بَيْنَ ٱلصَّعْبِ وَٱلذَّلُولِ . وَلَا تُسْلِمُهُ عِنْدَ ٱلْحُزُونِ وَٱلسُّهُولِ . كَلَامُهُ يَشْتَدُّ مَرَّةً حَتَّى تَقُولَ : ٱلصَّخْرُ ٱلْأَمْلَسُ . وَيَلِينُ تَارَةً حَتَّى تَقُولَ : ٱلْمَاءُ اوْ اسْلَسُ . يَقُولُ : فَيَصُولُ . وَيُجِيبُ . فَيُصِيبُ . وَيَكْتُبُ فَيُطَبِّقُ ٱلْمَفْصِلَ . وَيَنْسُقُ ٱلدُّرَّ ٱلْمُفَصَّلَ . وَيَرِدُ مَشَارِعَ ٱلْكَلَامِ وَهِيَ صَافِيَةٌ لَمْ تُطْرَقْ . وَجَامَّةٌ لَمْ تُرْتَقْ . خَاطِرُهُ ٱلْبَرْقُ اوْ اسْرَعُ لَمْعًا . وَٱلسَّيْفُ اوْ احَدُّ قَطْعًا . وَٱلْمَاءُ اوْ اسْلَسُ جَرْيًا . وَٱلْفَلَكُ او اقْوَمُ هَدْيًا . يَسْهُلُ ٱلْكَلَامُ عَلَى لَفْظِهِ وَتَتَزَاحَمُ ٱلْمَعَانِي عَلَى طَبْعِهِ فَيَتَنَاوَلُ ٱلْمَرْمَى ٱلْبَعِيدَ بِقَرِيبِ سَعْيِهِ . وَيَسْتَنْبِطُ ٱلْمَشْرَعَ ٱلْعَمِيقَ بِيَسِيرِ جَرْيِهِ . لِسَانُهُ يَفْلِقُ ٱلصُّخُورَ . وَيُفِيضُ ٱلْبُحُورَ . خَطِيبٌ لَا تَنَالُهُ حُبْسَةٌ وَلَا تَرْتَهِنُهُ لُكْنَةٌ وَلَا تَتَحَيَّفُ بَيَانَهُ عُجْمَةٌ وَلَا تَعْتَرِضُ لِسَانَهُ عُقْدَةٌ يُحْسِنُ ٱلسِّفَارَةَ . وَيَسْتَوْفِي ٱلْعِبَارَةَ . وَيُؤَدِّي ٱلْأَلْفَاظَ . وَيَسْتَغْرِقُ ٱلْأَغْرَاضَ . قَالَ حَتَّى قَالَ ٱلْكَلَامُ : لَوْ اعْفَيْتَ . وَكَتَبَ حَتَّى قَالَتِ ٱلْأَقْلَامُ : قَدْ احْفَيْتَ

البحث الثالث

في أوصاف البلاغات على السنة اقوام من اهل البلاغات

(عن زهر الاداب للقيرواني)

قَالَ بَعْضٌ مِنْ وُلْدِ عَقَائِلِ هٰذَا ٱلْمَنْثُورِ . وَالِفِ فَوَاصِلِ هٰذِهِ

ٱلشُّذُورِ: تَجَمَّعَ قَوْمٌ مِنْ اَهلِ ٱلصِّنَاعَاتِ فَوَصَفُوا بَلَاغَاتِهِمْ مِنْ طَرِيقِ صِنَاعَاتِهِمْ . (فَقَالَ ٱلْجَوْهَرِيُّ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ نِظَامًا مَا ثَقَبَتْهُ يَدُ ٱلْفِكْرَةِ وَنَظَمَتْهُ ٱلْفِطْنَةُ وَوُصِلَ جَوْهَرُ مَعَانِيهِ فِي سُمُوطِ اَلْفَاظِهِ فَٱحْتَمَلَتْهُ نُحُورُ ٱلرُّوَاةِ . (وَقَالَ ٱلْعَطَّارُ) : اَطْيَبُ ٱلْكَلَامِ مَا عُجِنَ عَنْبَرُ اَلْفَاظِهِ بِمِسْكِ مَعَانِيهِ فَفَاحَ نَسِيمُ نَشْقِهِ . وَسَطَعَتْ رَائِحَةُ عَبَقِهِ . فَتَعَلَّقَتْ بِهِ ٱلرُّوَاةُ . وَتَعَطَّرَتْ بِهِ ٱلسُّرَاةُ . (وَقَالَ ٱلصَّائِغُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا اَحْمَيْتَهُ بِكِيرِ ٱلْفِكْرِ . وَسَبَكْتَهُ بِمَشَاعِلِ ٱلنَّظَرِ . وَخَلَّصْتَهُ مِنْ خَبَثِ ٱلْاِطْنَابِ فَبَرَزَ بُرُوزَ ٱلْاِبْرِيزِ . فِي مَعْنًى وَجِيزٍ . (وَقَالَ ٱلصَّيْرَفِيُّ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا نَقَدَتْهُ يَدُ ٱلْبَصِيرَةِ وَجَلَتْهُ عَيْنُ ٱلرَّوِيَّةِ وَوَزَنْتَهُ بِمِعْيَارِ ٱلْفَصَاحَةِ فَلَا نَظَرٌ يُزَيِّفُهُ وَلَا سَمَاعٌ يُبَهْرِجُهُ . (وَقَالَ ٱلْحَدَّادُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا نَصَبْتَ عَلَيْهِ مِنْفَخَةَ ٱلْقَرِيحَةِ وَاَشْعَلْتَ عَلَيْهِ نَارَ ٱلْبَصِيرَةِ ثُمَّ اَخْرَجْتَهُ مِنْ فَحْمِ ٱلْاِفْحَامِ . وَرَقَّقْتَهُ بِفِطِّيسِ ٱلْاِفْهَامِ . (وَقَالَ ٱلنَّجَّارُ) : خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا اَحْكَمْتَ نَجْرَ مَعْنَاهُ بِقَدُومِ ٱلتَّقْدِيرِ . وَنَشَرْتَهُ بِمِنْشَارِ ٱلتَّدْبِيرِ . فَصَارَ بَابًا لِبَيْتِ ٱلْبَيَانِ . وَعَارِضَةً لِسَقْفِ ٱللِّسَانِ . (وَقَالَ ٱلنَّجَّادُ) : اَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَطُفَتْ رِفَافُ اَلْفَاظِهِ وَحَسُنَتْ مَطَارِحُ مَعَانِيهِ فَتَنَزَّهَتْ فِي زَرَابِيِّ مَحَاسِنِهِ عُيُونُ ٱلنَّاظِرِينَ . وَاَصَاخَتْ لِنَمَارِقِ بَهْجَتِهِ آذَانُ ٱلسَّامِعِينَ . (وَقَالَ ٱلْمَاتِحُ) : اَبْيَنُ ٱلْكَلَامِ مَا عَلَّقْتَ وَذَمَ اَلْفَاظِهِ بِبَكَرَةِ مَعَانِيهِ ثُمَّ اَرْسَلْتَهُ فِي قَلِيبِ ٱلْفِطَنِ رِيًّا فَٱمْتَتَحْتَ بِهِ سِقَاءً يَكْشِفُ ٱلشُّبُهَاتِ . وَٱسْتَنْبَطْتَ بِهِ مَعْنًى يُرْوِي مِنْ ظَمَاءِ ٱلْمُشْكِلَاتِ . (وَقَالَ ٱلْخَيَّاطُ) : ٱلْبَلَاغَةُ رِدَاءٌ فَجُرُبَّانُهُ ٱلْبَيَانُ

وَجَيْبُهُ ٱلْمَعْرِفَةُ وَكُدَّاهُ ٱلْوَجَازَةُ وَدَخَارِيصُهُ ٱلْإِفْهَامُ وَدُرُوزُهُ ٱلْحَلَاوَةُ وَلَابِسُهُ جَسَدُ ٱللَّفْظِ وَرُوحُ ٱلْمَعْنَى. (وَقَالَ ٱلصَّبَّاغُ): أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ تَنْضُ بَهْجَةُ إِيجَازِهِ. وَلَمْ تُكْشَفْ صِبْغَةُ إِعْجَازِهِ. قَدْ صَقَلَتْهُ يَدُ ٱلرَّوِيَّةِ مِنْ كُمُودِ ٱلْإِشْكَالِ فَرَاعَ كَوَاعِبَ ٱلْآدَابِ. وَأَلِفَ عَذَارَى ٱلْأَلْبَابِ. (وَقَالَ ٱلْحَائِكُ): أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا ٱتَّصَلَتْ لُحْمَةُ أَلْفَاظِهِ بِسَدَى مَعَانِيهِ فَخَرَجَ مُفَوَّفًا مُنَيَّرًا وَمُوَشًّى مُحَبَّرًا. (وَقَالَ ٱلْبَزَّازُ): أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا صَدَقَ رَقْمُ أَلْفَاظِهِ وَحَسُنَ نَشْرُ مَعَانِيهِ فَلَمْ يُسْتَعْجَمْ عَنْكَ نَشْرٌ وَلَمْ يُسْتَبْهَمْ عَلَيْكَ طَيٌّ. (وَقَالَ ٱلرَّائِضُ): خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا لَمْ يَخْرُجْ عَنْ حَدِّ ٱلتَّخْلِيعِ إِلَى مَنْزِلَةِ ٱلتَّقْرِيبِ إِلَّا بَعْدَ ٱلرِّيَاضَةِ وَكَانَ كَالْمُهْرِ ٱلَّذِي أَطْمَعَ أَوَّلُ رِيَاضَتِهِ فِي تَمَامِ ثَقَافَتِهِ. (وَقَالَ ٱلْجَمَّالُ): ٱلْبَلِيغُ مَنْ أَخَذَ بِخِطَامِ كَلَامِهِ فَأَنَاخَهُ فِي مَبْرَكِ ٱلْمَعْنَى ثُمَّ جَعَلَ ٱلِٱخْتِصَارَ لَهُ عِقَالًا. وَٱلْإِيجَازَ لَهُ مَجَالًا. فَلَمْ يَنِدَّ عَنِ ٱلْآذَانِ. وَلَمْ يَشُذَّ عَنِ ٱلْأَذْهَانِ. (وَقَالَ ٱلْخَمَّارُ): أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا طَبَخَتْهُ مَرَاجِلُ ٱلْعِلْمِ وَصَفَّاهُ رَاوُوقُ ٱلْفَهْمِ وَضَمَّنَتْهُ دِنَانُ ٱلْحِكْمَةِ فَتَمَشَّتْ فِي ٱلْمَفَاصِلِ عُذُوبَتُهُ وَفِي ٱلْأَفْكَارِ دِقَّتُهُ وَفِي ٱلْعُقُولِ حِدَّتُهُ. (وَقَالَ ٱلْفُقَّاعِيُّ): خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا رَوَّحَتْ أَلْفَاظُهُ غَبَاوَةَ ٱلشَّكِّ وَدَفَعَتْ دِقَّتُهُ فَظَاظَةَ ٱلْجَهْلِ فَطَابَ جُشَاءُ قِطَعِهِ وَعَذُبَ مَصُّ جُرَعِهِ. (وَقَالَ ٱلطَّبِيبُ): خَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا إِذَا بَاشَرَ دَوَاءُ بَيَانِهِ سُقْمَ ٱلشُّبْهَةِ ٱسْتَطْلَقَتْ طَبِيعَةُ ٱلْغَبَاوَةِ فَشَفَى مِنْ سُوءِ ٱلتَّفَهُّمِ وَأَوْرَثَ صِحَّةَ ٱلتَّوَهُّمِ. (قَالَ ٱلْكَحَّالُ): كَمَا أَنَّ ٱلرَّمَدَ قَذَى ٱلْأَبْصَارِ فَٱلشُّبْهَةُ قَذَى ٱلْبَصَائِرِ

فَاكْحَلْ عَيْنَ اللُّكْنَةِ بِمِيلِ الْبَلَاغَةِ وَاجْلُ رَمَصَ الْغَفْلَةِ بِمِرْوَدِ الْيَقْظَةِ. (ثُمَّ قَالَ): اجْمَعُوا كُلُّهُمْ عَلَى انَّ ابْلَغَ الْكَلَامِ مَا اِذَا اشْرَقَتْ شَمْسُهُ انْكَشَفَ لَبْسُهُ وَاِذَا صَدَقَتْ انْوَاؤُهُ اخْضَرَّتْ احْمَاؤُهُ

الفصل الثالث

في المعاني

البحث الاوّل

في حقيقة المعاني

(عن كشّاف اصطلاحات الفنون بتصرّف)

(راجع صفحة ١٠ من علم الادب)

اَلْمَعْنَى لُغَةً الْمَقْصُودُ وَفِي الِاصْطِلَاحِ هُوَ الصُّورَةُ الذِّهْنِيَّةُ مِنْ حَيْثُ اِنَّهُ وُضِعَ بِاِزَائِهَا اللَّفْظُ اي مِنْ حَيْثُ اِنَّهَا تُقْصَدُ مِنْهُ. وَذٰلِكَ اِنَّمَا يَكُونُ بِالْوَضْعِ فَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُفْرَدٍ يُسَمَّى مَعْنًى مُفْرَدًا. وَاِنْ عُبِّرَ عَنْهَا بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ سُمِّيَ مَعْنًى مُرَكَّبًا. فَالْاِفْرَادُ وَالتَّرْكِيبُ صِفَتَانِ لِلْاَلْفَاظِ حَقِيقَةً وَيُوصَفُ بِهِمَا الْمَعَانِي تَبَعًا. وَعِلْمُ الْمَعَانِي عِلْمٌ يُحْتَرَزُ بِهِ عَنِ الْخَطَاءِ فِي تَأْدِيَةِ الْمُرَادِ وَتُعْرَفُ احْوَالُ اللَّفْظِ الْعَرَبِيِّ الَّتِي بِهَا يُطَابِقُ اللَّفْظُ مُقْتَضَى الْحَالِ وَهُوَ مِنْ اُصُولِ الْعُلُومِ الْعَرَبِيَّةِ يَبْحَثُ عَنِ الْمُرَكَّبَاتِ عَلَى الْاِطْلَاقِ بِاعْتِبَارِ اِفَادَتِهَا لِمَعَانٍ زَائِدَةٍ عَلَى اَصْلِ الْمَعْنَى. قَالَ بَعْضُ اهْلِ الْمَعَانِي: اَلْكَلَامُ الَّذِي يُوصَفُ

بِٱلْبَلَاغَةِ هُوَ ٱلَّذِي يَدُلُّ بِلَفظِهِ عَلَى مَعْنَاهُ ٱللُّغَوِيّ اَوِ ٱلْعُرْفِيّ اَوِ ٱلشَّرْعِيّ . ثُمَّ تَجِدُ لِذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى دَلَالَةً ثَانِيَةً عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ ٱلَّذِي يُرِيدُ ٱلْمُتَكَلِّمُ اِثْبَاتَهُ اَوْ نَفْيَهُ فَهُنَاكَ اَلْفَاظٌ وَمَعَانٍ اُوَلٌ وَمَعَانٍ ثَوَانٍ . فَٱلْمَعَانِي ٱلْاُوَلُ هِيَ مَدْلُولَاتُ ٱلتَّرَاكِيبِ وَٱلْاَلْفَاظِ ٱلَّتِي تُسَمَّى فِي عِلْمِ ٱلنَّحْوِ اَصْلَ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْمَعَانِي ٱلثَّوَانِي ٱلْاَغْرَاضُ ٱلَّتِي يُسَاقُ لَهَا ٱلْكَلَامُ . وَلِذَا قِيلَ : مُقْتَضَى ٱلْحَالِ هُوَ ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي . كَرَدِّ ٱلْاِنْكَارِ وَدَفْعِ ٱلشَّكِّ مَثَلًا اِذَا قُلْنَا : اِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلُ هُوَ ٱلْقِيَامُ ٱلْمُؤَكَّدُ وَٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي رَدُّ ٱلْاِنْكَارِ وَدَفْعُ ٱلشَّكِّ . وَاِذَا قُلْنَا : هُوَ اَسَدٌ فِي صُورَةِ ٱلْاِنْسَانِ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلُ هُوَ مَدْلُولُ هٰذَا ٱلْكَلَامِ وَٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي هُوَ اَنَّهُ شُجَاعٌ . فَٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي هُوَ ٱلَّذِي يُرَادُ اِيرَادُهُ فِي ٱلطُّرُقِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ وَٱلْمَفْهُومُ مِنْ تِلْكَ ٱلطُّرُقِ هُوَ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلُ . وَتَسْمِيَتُهُ بِٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي لِكَوْنِ ٱللَّفْظِ دَالًّا عَلَيْهِ بِوَاسِطَةِ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلِ . فَدَلَالَةُ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلِ عَلَى ٱلثَّانِي عَقْلِيَّةٌ قَطْعًا وَاَمَّا دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلِ فَقَدْ تَكُونُ وَضْعِيَّةً وَقَدْ تَكُونُ عَقْلِيَّةً . وَقَدْ تُسَمَّى ٱلْمَعَانِي ٱلْاُوَلُ بِٱلْخُصُوصِيَّاتِ وَٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلزَّائِدَةِ عَلَى اَصْلِ ٱلْمَعْنَى وَبِٱلصُّوَرِ وَٱلْخَوَاصِّ وَٱلْمَزَايَا مَجَازًا . ثُمَّ اِنَّهُمْ سَمَّوْا تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي ٱلْاُوَلِ وَكَذَا ٱلْمَعَانِي ٱلْاُوَلَ اَلْفَاظًا . وَفَضِيلَةَ ٱلْكَلَامِ بِٱعْتِبَارِ هٰذَا ٱلتَّرْتِيبِ لِكَوْنِ ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلِ مَحَلَّ ٱلْفَضِيلَةِ لِاَنَّ تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي ٱلْاَصْلِيَّةِ فِي ٱلنَّفْسِ ثُمَّ تَرْتِيبَ ٱلْاَلْفَاظِ فِي ٱلنُّطْقِ عَلَى حَذْوِهَا عَلَى وَجْهٍ يَنْتَقِلُ مِنْهَا ٱلذِّهْنُ بِتَوَسُّلِهَا اِلَى ٱلْخَوَاصِّ فِي ٱلْاِفَادَةِ بِلَا اِخْلَالٍ وَلَا تَعْقِيدٍ هُوَ

ٱلْبَلَاغَةُ. فَيَكُونُ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْأُوَلِ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمَخْصُوصِ مَنْشَأَ ٱلْفَضِيلَةِ وَمَنَاطَ ٱلْبَرَاعَةِ بِلَا شَكٍّ. قَالَ ٱلشَّيْخُ: وَلَمَّا كَانَتِ ٱلْمَعَانِي تَتَبَيَّنُ بِٱلْأَلْفَاظِ وَلَمْ يَكُنْ لِتَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي سَبِيلٌ إِلَّا بِتَرْتِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ فِي ٱلنُّطْقِ تَجَوَّزُوا فَعَبَّرُوا عَنْ تَرْتِيبِ ٱلْمَعَانِي بِتَرْتِيبِ ٱلْأَلْفَاظِ ثُمَّ بِٱلْأَلْفَاظِ بِحَذْفِ ٱلتَّرْتِيبِ. وَإِذَا وَصَفُوا ٱللَّفْظَ بِمَا يَدُلُّ عَلَى تَفْخِيمِهِ كَأَنْ يُقَالَ ٱلْبَلَاغَةُ رَاجِعَةٌ إِلَى ٱللَّفْظِ. أَوْ هُوَ مَحَلُّ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلَّتِي بِهَا يَسْتَحِقُّ ٱلِٱتِّصَافَ بِٱلْفَصَاحَةِ وَنَحْوِهَا لَمْ يُرِيدُوا ٱللَّفْظَ ٱلْمَنْطُوقَ وَلٰكِنْ أَرَادُوا مَعْنَى ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي دَلَّ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي

البحث الثاني

في صحّة المعاني

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ١١٠ و ١١١ من علم الادب)

أَمَّا صِحَّةُ ٱلْمَعَانِي فَتَكُونُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ: (أَحَدُهَا) إِيضَاحُ تَفْسِيرِهَا حَتَّى لَا تَكُونَ مُشْكِلَةً وَلَا مُجْمَلَةً. (وَٱلثَّانِي) ٱسْتِيفَاءُ تَقْسِيمِهَا حَتَّى لَا يَدْخُلَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا وَلَا يَخْرُجَ عَنْهَا مَا هُوَ فِيهَا. (وَٱلثَّالِثُ) صِحَّةُ مُقَابَلَاتِهَا. وَٱلْمُقَابَلَةُ تَكُونُ مِنْ وَجْهَيْنِ: (أَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمَعْنَى بِمَا يُوَافِقُهُ وَحَقِيقَةُ هٰذِهِ ٱلْمُقَارَبَةِ لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ تَصِيرُ مُتَشَاكِلَةً. وَٱلثَّانِي مُقَابَلَتُهُ بِمَا يُضَادُّهُ وَهُوَ حَقِيقَةُ ٱلْمُقَابَلَةِ. وَلَيْسَ لِلْمُقَابَلَةِ إِلَّا أَحَدُ هٰذَيْنِ ٱلْوَجْهَيْنِ: ٱلْمُوَافَقَةِ فِي ٱلِٱئْتِلَافِ وَٱلْمُضَادَّةِ مَعَ ٱلِٱخْتِلَافِ. فَأَمَّا فَصَاحَةُ

ٱلْأَلْفَاظِ فَتَكُونُ بِثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : (أَحَدُهَا) مُجَانَبَةُ ٱلْغَرِيبِ ٱلْوَحْشِيِّ حَتَّى لَا يَمُجَّهُ سَمْعٌ وَلَا يَنْفِرَ مِنْهُ طَبْعٌ . (وَٱلثَّانِي) تَنَكُّبُ ٱللَّفْظِ ٱلْمُبْتَذَلِ وَٱلْعُدُولُ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَرْذَلِ حَتَّى لَا يَسْتَسْقِطَهُ خَاصِّيٌّ وَلَا يَنْبُو عَنْهُ فَهْمُ عَامِّيٍّ كَمَا قَالَ ٱلْجَاحِظُ فِي كِتَابِ ٱلْبَيَانِ : أَمَّا أَنَا فَلَمْ أَرَ قَوْمًا أَمْثَلَ طَرِيقَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ مِنَ ٱلْكُتَّابِ وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ قَدِ ٱلْتَمَسُوا مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ مَا لَمْ يَكُنْ مُتَوَعِّرًا وَحْشِيًا وَلَا سَاقِطًا عَامِّيًا . (وَٱلثَّالِثُ) أَنْ يَكُونَ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَمَعَانِيهَا مُنَاسَبَةٌ وَمُطَابَقَةٌ . أَمَّا ٱلْمُطَابَقَةُ فَهِيَ أَنْ تَكُونَ ٱلْأَلْفَاظُ كَٱلْقَوَالِبِ لِمَعَانِيهَا فَلَا تَزِيدُ عَلَيْهَا وَلَا تَنْقُصُ عَنْهَا . وَقَالَ بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ فِي وَصِيَّتِهِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ : إِذَا لَمْ تَجِدِ ٱللَّفْظَةَ وَاقِعَةً مَوْقِعَهَا وَلَا صَائِرَةً إِلَى مُسْتَقَرِّهَا وَلَا حَالَّةً فِي مَرْكَزِهَا بَلْ وَجَدْتَهَا قَلِقَةً فِي مَكَانِهَا نَافِرَةً عَنْ مَوْضِعِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى ٱلْقَرَارِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرْضَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَوْزُونِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ ٱخْتِيَارَ ٱلْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِتَرْكِ ذٰلِكَ أَحَدٌ وَإِذَا أَنْتَ تَكَلَّفْتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا فَهِيمًا عَابَكَ مَنْ أَنْتَ أَقَلُّ عَيْبًا مِنْهُ وَأَزْرَى عَلَيْكَ مَنْ أَنْتَ فَوْقَهُ . وَأَمَّا ٱلْمُنَاسَبَةُ فَهِيَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَى يَلِيقُ بِبَعْضِ ٱلْأَلْفَاظِ إِمَّا لِعُرْفٍ مُسْتَعْمَلٍ أَوْ لِٱتِّفَاقٍ مُسْتَحْسَنٍ حَتَّى إِذَا ذُكِرَتْ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي بِغَيْرِ تِلْكَ ٱلْأَلْفَاظِ كَانَتْ نَافِرَةً عَنْهَا وَإِنْ كَانَتْ أَفْصَحَ وَأَوْضَحَ لِٱعْتِيَادِ مَا سِوَاهَا . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : لَا يَكُونُ ٱلْبَلِيغُ بَلِيغًا حَتَّى يَكُونَ مَعْنَى كَلَامِهِ أَسْبَقَ إِلَى فَهْمِكَ مِنْ لَفْظِهِ إِلَى سَمْعِكَ . وَأَمَّا مُعَاطَاةُ ٱلْإِعْرَابِ وَتَجَنُّبُ ٱللَّحْنِ فَإِنَّمَا هُوَ مِنْ

صِفَاتِ ٱلصَّوَابِ . وَٱلْبَلَاغَةُ أَعْلَى مِنْهُ رُتْبَةً وَأَشْرَفُ مَنْزِلَةً وَلَيْسَ لِمَنْ لَحَنَ فِي كَلَامِهِ مَدْخَلٌ فِي ٱلْأُدَبَاءِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ فِي عِدَادِ ٱلْبُلَغَاءِ

البحث الثالث

في انواع المعاني

(ملخَّص عن زهر الاداب للقيرواني)

(راجع صفحة ١٢ من علم الادب)

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بْنُ بَحْرٍ ٱلْجَاحِظُ : قَالَ بَعْضُ جَهَابِذَةِ ٱلْأَلْفَاظِ وَنُقَّادِ ٱلْمَعَانِي : ٱلْمَعَانِي ٱلْقَائِمَةُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٱلْمُتَصَوَّرَةُ فِي أَذْهَانِهِمْ ٱلْمُخْتَلِجَةُ فِي نُفُوسِهِمْ ٱلْمُتَّصِلَةُ بِخَوَاطِرِهِمْ وَٱلْحَادِثَةُ عَنْ فِكْرِهِمْ مَسْتُورَةٌ خَفِيَّةٌ وَبَعِيدَةٌ وَحْشِيَّةٌ وَمَحْجُوبَةٌ مَكْنُونَةٌ وَمَوْجُودَةٌ فِي مَعْنًى مَعْدُومَةٌ لَا يَعْرِفُ ٱلْإِنْسَانُ ضَمِيرَ صَاحِبِهِ وَلَا حَاجَةَ أَخِيهِ وَخَلِيطِهِ وَلَا مَعْنَى شَرِيكِهِ وَٱلْمُعَاوِنِ لَهُ عَلَى أَمْرِهِ وَعَلَى مَا لَا يَبْلُغُهُ مِنْ حَاجَاتِ نَفْسِهِ إِلَّا بِغَيْرِهِ . وَإِنَّمَا يُحْيِي تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ذِكْرُهُمْ لَهَا وَإِخْبَارُهُمْ عَنْهَا وَٱسْتِعْمَالُهُمْ إِيَّاهَا . وَهٰذِهِ ٱلْخِصَالُ هِيَ ٱلَّتِي تُقَرِّبُهَا مِنَ ٱلْفَهْمِ وَتُجْلِيهَا لِلْعَقْلِ وَتَجْعَلُ ٱلْخَفِيَّ مِنْهَا ظَاهِرًا وَٱلْغَائِبَ شَاهِدًا وَٱلْبَعِيدَ قَرِيبًا . وَهِيَ ٱلَّتِي تُلَخِّصُ ٱلْمُلْتَبِسَ وَتَحُلُّ ٱلْمُنْعَقِدَ وَتَجْعَلُ ٱلْمُهْمَلَ مُقَيَّدًا وَٱلْمُقَيَّدَ مُطْلَقًا وَٱلْمَجْهُولَ مَعْرُوفًا وَٱلْوَحْشِيَّ مَأْلُوفًا . وَعَلَى قَدْرِ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ وَصَوَابِ ٱلْإِشَارَةِ وَحُسْنِ ٱلِٱخْتِصَارِ وَدِقَّةِ ٱلْمَدْخَلِ يَكُونُ ظُهُورُ ٱلْمَعْنَى . وَكُلَّمَا

كَانَتِ ٱلدِّلَالَةُ اوضَحَ وَافصَحَ وَكَانَتِ ٱلاِشَارَةُ ابيَنَ وَانوَرَ كَانَتْ انفَعَ وَانجَعَ فِي ٱلبَيَانِ . ثُمَّ اعلَمْ حَفِظَكَ ٱللّٰهُ انَّ حُكمَ ٱلمَعَانِي خِلَافُ حُكمِ ٱلالفَاظِ لِانَّ ٱلمَعَانِيَ مَبْسُوطَةٌ اِلَى غَايَةٍ وَمُمْتَدَّةٌ اِلَى غَيرِ نِهَايَةٍ واسمَاءُ ٱلمَعَانِي مَخصُورَةٌ مَعْدُودَةٌ وَمُحَصَّلَةٌ مَحْدُودَةٌ.وَجَمِيعُ اَصْنَافِ ٱلدِّلَالَةِ عَلَى ٱلمَعَانِي مِنْ لَفظٍ اَوْ غَيرِ لَفظٍ خَمسَةُ اَشيَاءَ لَا تَنقُصُ وَلَا تَزِيدُ : اَوَّلُهَا ٱللَّفظُ.ثُمَّ ٱلاِشَارَةُ.ثُمَّ ٱلعَقدُ.ثُمَّ ٱلخَطُّ.ثُمَّ ٱلحَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى نُصْبَة.وَٱلنُّصْبَةُ هِيَ ٱلحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلكَ ٱلاَصنَافِ وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ تِلكَ ٱلدِّلَالَاتِ . وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ ٱلخَمسَةِ صُورَةٌ بَائِنَةٌ مِنْ صُورَةِ صَاحِبَتِهَا وَحِليَةٌ مُخَالِفَةٌ لِحِليَةِ اُختِهَا . وَهِيَ ٱلَّتِي تَكشِفُ لَكَ عَنْ اَعيَانِ ٱلمَعَانِي فِي ٱلجُملَةِ وَعَنْ حَقَائِقِهَا فِي ٱلتَّفسِيرِ وَعَنْ اَجنَاسِهَا وَاَقدَارِهَا وَعَنْ خَاصِّهَا وَعَامِّهَا وَعَنْ طَبَقَاتِهَا فِي ٱلسَّارِّ وَٱلضَّارِّ وَعَمَّا يَكُونُ مِنهَا لَهوًا مُبَهرَجًا وَسَاقِطًا مُطَّرَحًا . وَفِي نَحوِ قَولِ اَبِي عُثمَانَ (اِنَّ ٱلمَعَانِي غَيرُ مَقصُورَةٍ وَلَا مَحْصُورَةٍ) يَقُولُ اَبُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ لِاَبِي دُلَفَ بْنِ عِيسَى ٱلعِجلِيِّ :

وَلَوْ كَانَ يَفنَى ٱلشِّعرُ اَفنَتهُ مَا قَرَتْ ... حِيَاضُكَ مِنهُ فِي ٱلعُصُورِ ٱلذَّوَاهِبِ

وَلٰكِنَّهُ فَيضُ ٱلعُقُولِ اِذَا ٱنجَلَتْ ... سَحَائِبُ مِنهُ اُعقِبَتْ بِسَحَائِبِ

وَقَالَ اَبُو ٱلعَبَّاسِ بْنُ ٱلمُعتَزِّ : لَحظَةُ ٱلقَلبِ اَسرَعُ مِنْ لَحظَةِ ٱلعَينِ وَابعَدُ مَجَالًا وَهِيَ ٱلغَائِصَةُ فِي اَعمَاقِ اَودِيَةِ ٱلفِكرِ وَٱلمُتَامِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلعَوَاقِبِ وَٱلجَامِعَةُ بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ وَٱلمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ . وَٱلقَلبُ كَٱلمُملِي لِلكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ اِذَا نَطَقَ وَٱليَدُ

إذا كتبت . والعاقل يكسو المعاني وشي الكلام في قلبه ثم يبديها بألفاظ كواس في احسن زينة . والجاهل يستعجل بإظهار المعاني قبل العناية بتزيين معارضها واستكمال محاسنها . قيل لبشار ابن برد : بما فقت اهل عصرك وسبقت اهل عصرك في حسن معاني الشعر وتهذيب الفاظه . فقال : لأني لم اقبل كل ما تورده علي قريحتي ويناجيني به طبعي ويبعثه فكري . ونظرت الى مغارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات فسرت اليها بفهم جيد وغريزة قوية فأحكمت سبرها وانتقيت حرها وكشفت عن حقائقها واحترزت من متكلفها وما ملك قيادي قط الاعجاب بشيء مما آتي به

البحث الرابع

في الحكم على المعاني

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرف)

فائدة هذا الفصل الاحاطة بأساليب المعاني على اختلافها وتباينها . وصاحب هذه الصناعة مفتقر الى هذا الفصل والذي يليه بخلاف غيرهما من هذه الفصول المذكورة لا سيما مفسري الأشعار فانهم به اعنى . واعلم ان الاصل في المعنى ان يحمل على ظاهر لفظه ومن يذهب الى التأويل يفتقر الى دليل كقول القائل : وثيابك فطهر . فالظاهر من لفظ (الثياب) هو ما يلبس ومن تأول ذهب الى ان المراد هو القلب لا الملبوس . وهذا لا بد له من

دَليل لِانَّهُ عدولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللفظ . وكَذٰلكَ وَرَدَ عن عيسى بْن مَرْيَمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلامُ اَنَّهُ قَالَ : اذا اردتَ اَنْ تصلّي فَادْخل بَيْتك وا غلقْ بَابَك . فَٱلظَّاهِرُ مِنْ هٰذا هُو ٱلْبَيْتُ وٱلْبابُ . وَمَنْ تاوّل ذهَب الى اَنَّهُ اَرادَ اَنَّكَ تَجمعُ عَلَيْكَ هَمَّ قَلْبِكَ وتمنعُ اَنْ يَخْطُرَ به سوى اَمْرِ ٱلصَّلاة . فَعبّر عَنِ ٱلْقلْب بِٱلْبيْت وعَنْ مَنْعِ ٱلْخواطر ٱلّتي تَخطُرْ لَهُ بِاِغلاق ٱلْباب . وَهٰذا يحتَاجُ اِلَى دَلِيل لاَنَّهُ عُدولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللفظِ . فَٱلمعْنَى ٱلمَحْمولُ عَلَى ظَاهِرِه لَا يَقَعُ فِي تَفسِيره خِلافٌ وٱلمَعْنَى ٱلمَعْدولُ عَنْ ظَاهِرِهِ اِلَى ٱلتَّأويلِ يَقعُ فِيهِ ٱلْخِلافُ اِذ بَابُ ٱلتَّأويل غيْرُ مَحْصُورٍ . وَٱلْعُلَمَاءُ مُتَفَاوِتُونَ فِي هٰــذَا فَاِنَّهُ قد يَأْخُذُ بَعْضُهُمْ وجْها ضَعِيفا من ٱلتَّأْويلِ فَيَكْسُوهُ بِعبَارَتِهِ قُوَّةً تُمــيِّزُهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ ٱلْوُجوه ٱلْقَوِيَّةِ فَاِنَّ ٱلسَّيفَ بِضَارِبِهِ

اِنَّ ٱلسُّيُوفَ مَعَ ٱلَّذِينَ قُلُوبُهُمْ ۔۔ كَقُلُوبِهِنَّ اِذَا ٱلتَقَى ٱلْجَمْعَانِ
تَلْقَى ٱلْحُسامَ عَلَى جَرَاءَةِ حَدّهِ ۔۔ مِثْلَ ٱلْجَبَانِ بِكَفّ كلّ جَبَانِ

وَهٰذَا ٱلْفَصْلُ ٱلَّذِي نَحْنُ بِصَددِ ذِكْرِه هَاهُنَا يَرْجِعُ اَكْثَرُهُ اِلَى ٱلتَّأويلِ لِاَنَّهُ اَدقُّ ولَا يَخْلُو تَأْوِيلُ ٱلمَعْنَى مِنْ ثَلَاثَةِ اَقْسَام : اِمَّا اَنْ يُفْهَمَ مِنْهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَا يُحْتَمَلُ غَيْرُهُ . وَاِمَا انْ يُحْتَمَلَ ٱلشَّيْءُ وَغَيْرُهُ . وَتِلْكَ ٱلْغَيْرِيَّةُ اِمَّا اَنْ تَكُونَ ضِدًّا اَوْ لَا تَكُونَ ضِدًّا وَلَيس لَنا قِسْمٌ رَابِعٌ . (فَالْاَوَّلُ) يَقَعُ عَلَيْهِ اَكْثَرُ ٱلْاَشْعَارِ وَلَا يَجْرِي فِي ٱلدِّقَّةِ وَٱللَّطَافَةِ مَجْرَى ٱلْقِسْمَيْنِ ٱلْآخَرَيْنِ . (وَاَمَا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) فَاِنَّهُ قَلِيلُ ٱلْوُقُوعِ جِدًّا وَهُوَ مِنَ ٱلتَّأْوِيلاتِ ٱلمَعْنَوِيَّةِ . لِاَنَّ

دَلَالَةَ ٱللَفظِ عَلَى ٱلمعنَى وَضِدِّهِ اَغرَبُ مِنْ دَلالَتِهِ عَلَى ٱلمعنَى وَغيرِهِ .
فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَولُهُ : اذا لَمْ تَستَحِ فَاصْنَعْ ما شِئْتَ . وَهٰذا يَشتَمِلُ عَلَى
مَعنَيَينِ ضِدَّينِ : (اَحدُهُما) اَنَّ ٱلْمُرادَ بِهِ اِذَا لَمْ تَفعَلْ فِعلًا تَستَحِي
مِنْهُ فَافعَلْ مَاشِئْتَ . (وَٱلآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُرادَ بِهِ اِذَا لَمْ يَكُنْ لَكَ
حَيَاءٌ يَنزَعُكَ عَنْ فِعلِ مَا يُستَحَى منهُ فَافعَلْ مَاشِئْتَ . وَهٰذَانِ
مَعنَيَانِ ضِدَّانِ اَحدُهُما مَدحٌ وَٱلآخَرُ ذَمٌّ . وَيَجرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَهجِ مِنَ
ٱلشِعرِ قَولُ اَبِي ٱلطَيِّبِ فِي قَصِيدَةٍ يَمدَحُ بِهَا كَافُورا :

وَاَظلَمُ اَهلِ ٱلظُلمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا ... لِمَنْ بَاتَ فِي نَعمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

وَهٰذَا ٱلبيتُ يُستَخرَجُ مِنْهُ مَعنَيَانِ ضِدَّانِ : (اَحدُهُما) اَنَّ ٱلْمُنعَمَ
عَلَيهِ يَحسُدُ ٱلْمُنعِمَ . (وٱلآخَرُ) اَنَّ ٱلْمُنعِمَ يَحسُدُ ٱلْمُنعَمَ عَلَيهِ . وكَذٰلِكَ
وَرَدَ قَولُهُ اَيضا مِنْ قَصِيدَةٍ يَمدَحُهُ :

فَاِنْ نِلتُ مَا اَمَّلْتُ مِنكَ فَرُبَّمَا ... شَرِبْتُ بِمَاءٍ يُعجِزُ ٱلطَيْرَ وِرْدُهُ

فَاِنَّ هٰذَا ٱلبَيتَ يَحتَمِلُ مَدحًا وذمًّا وَاذا اُخِذَ بِمُفرَدِهِ مِنْ غَيرِ
نَظَرٍ اِلَى مَا قَبلَهُ فَاِنَّهُ يَكُونُ بِٱلذَمِّ اَولَى منهُ بِٱلْمَدحِ لاَنَّهُ يَتَضَمَّنُ
وَصفَ نَوَالِهِ بِٱلبُعدِ وَٱلشُذُوذِ . وَصَدرُ ٱلبَيتِ مُفتَتَحٌ (بِاِنْ) ٱلشَرطِيَّةِ وَقَدْ
اُجِيبَ بِلَفظَةِ (رُبَّ) ٱلَّتِي مَعنَاهَا ٱلتَقلِيلُ اَيْ : لَستُ مِنْ نَوَالِكَ عَلَى
يَقِينٍ فَاِنْ نِلتُهُ فَرُبَّمَا وَصَلتُ اِلَى مَورِدٍ لَا يَصِلُ اِلَيهِ ٱلطَيْرُ لِبُعدِهِ .
وَاِذَا نُظِرَ اِلَى مَا قَبلَ هٰذَا ٱلبَيتِ دَلَّ عَلَى ٱلْمَدحِ خَاصَّةً لِارتِبَاطِهِ
بِٱلمَعنَى ٱلَّذِي قَبلَهُ . وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقصِدُ ٱلْمُتَنَبِّي هٰذَا ٱلقِسمَ فِي شِعرِهِ
كَقَولِهِ مِنْ قَصِيدَةٍ اَوَّلُهَا :

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسانٍ ولوْ كانَ مِنْ اعدائكَ ٱلْقمرانِ
ولِلّهِ سرٌّ فِي عُلاكَ وَإِنَّمَا كَلامُ ٱلعِدى ضَرْبٌ مِنَ ٱلْهَذَيانِ

ثُمَّ قَالَ :

فَما لكَ تَعْنِي بِٱلْأَسِنَّةِ وَٱلْقنا وجَدُّكَ طَعَّانٌ بغَيْرِ سِنَانِ

فَإِنَّ هٰذَا بِٱلذَّمِّ اشْبَهُ مِنْهُ بِٱلْمدحِ لِانَّهُ يَقُولُ : لَمْ تَبْلُغْ مَا بَلَغْتَهُ بِسعْيِكَ واهْتِمَامِكَ بَلْ بِجَدٍّ وَسَعَادَةٍ . وَهٰذَا لَا فَضْلَ فِيهِ لِأَنَّ ٱلسَّعادَةَ تَنالُ ٱلْخَامِلَ وَٱلْجَاهِدَ وَمَنْ لا يَسْتَحِقُّها . وَاَكْثَرُ ما كَانَ ٱلْمُتَنَبِّي يَسْتَعْمِلُ هٰذَا ٱلْقِسْمَ فِي قَصَائِدِهِ ٱلْكَافورِيَّاتِ . . . وَهٰذَا ٱلْقِسْمُ مِنَ ٱلْكَلَامِ يُسمَّى ٱلْمُوَجَّهَ اي لَهُ وَجْهَانِ وهُوَ مِمَّا يَدُلُّ عَلى بَرَاعَةِ ٱلشَّاعِرِ وَحُسْنِ تَأَتِّيهِ . (وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ) فَإِنَّهُ يَكُونُ اَكْثَرَ وُقُوعًا مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي وَهُوَ وَاسِطَةٌ بَينَ طَرَفَيْنِ . لِأَنَّ ٱلْقِسْمَ ٱلْأَوَّلَ كَثِيرُ ٱلْوُقُوعِ . وَٱلْقِسْمَ ٱلثانِي قَلِيلُ ٱلْوُقُوعِ . وَهٰذَا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ وَسَطٌ بَيْنَهُمَا فَمِمَّا جاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : وَلَا تَقْتُلُوا اَنْفُسَكُمْ . فَإِنَّ هٰذَا لَهُ وجْهَانِ مِنَ ٱلتَّأْوِيلِ اَحَدُهُمَا ٱلْقَتْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ ٱلَّذِي هُوَ مَعْرُوفٌ وَٱلْآخَرُ هُوَ ٱلْقَتْلُ ٱلْمَجَازِيُّ وَهُوَ ٱلْإِكْبَابُ عَلَى ٱلْمَعَاصِي فَإِنَّ ٱلْإِنسانَ إِذَا اَكَبَّ عَلَى ٱلْمَعَاصِي قَتَلَ نَفْسَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ . . . . وَمِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّهْجِ ما يُحْكَى عَنْ اَفلَاطُونَ اَنَّهُ قَالَ : تَرْكُ ٱلدَّوَاءِ دَوَاءٌ . فَذَهَبَ بَعْضُ ٱلْاَطِبَّاءِ إِلَى اَنَّهُ اَرادَ : إِنْ لَطُفَ ٱلْمِزَاجُ وَٱنْتَهَى إِلَى غَايَةٍ لَا يَحْتَمِلُ ٱلدَّوَاءَ فَتَرْكُهُ حِينَئِذٍ وَٱلْإِضْرَابُ عَنْهُ دَوَاءٌ . وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى اَنَّهُ اَرَادَ بِٱلتَّرْكِ ٱلْوَضْعَ اَيْ : وَضْعُ ٱلدَّوَاءِ عَلَى ٱلدَّاءِ دَوَاءٌ . يُشِيرُ بِذٰلِكَ

الى حِذقِ ٱلطَّبِيبِ في اوقَاتِ عِلَاجِهِ . وَمِثْلُهُ فِي ٱلشِّعْرِ قَوْلُ ٱلفرزدق :

اِذَا جعفرٌ مرّت على هضبةِ ٱلحمى فقدْ اخذَ ٱلاحياءُ مِنهَا قبورَهَا

وَهٰذا يدلُ على معنيينِ : (احدُهما) ذمُّ ٱلاحياءِ وَٱلآخرُ ذمُّ ٱلاموات . امَّا (ذمُّ ٱلاحياءِ) فهوَ انهم خذلوا ٱلاموات يُريدُ انَّهم تلاقوا قتالهم وَقومًا آخرين ففرَّ ٱلاحياءُ عنهم وَاسلَموهم او انهم ٱستنجدوهم فلم يُنجدوهم . وَامَا (ذمُّ ٱلاموات) فهو انَّ لهمْ مخازيَ وفضائحَ توجبُ عارًا وَشنارًا فهمْ يعدُّونَ بها ٱلاحياءَ وَيُلصِقونها بِهِمْ . وَعلى هذا وردَ قولُ ابي تمام :

بِٱلشِّعْرِ طُولُ اِذا اصطكَّتْ قصائدُهُ

في مَعْشَرٍ وَبِهِ عَنْ مَعْشَرٍ قِصَرُ

فهذَا ٱلبيتُ يحتمِلُ تأويلَينِ . (احدُهما) انَّ ٱلشِّعْرَ يتّسعُ مجالُهُ بِمدحِكَ وَيضيقُ بِمدحِ غيرِكَ . يُريدُ بذلك انَّ مآثِرَهُ كثيرةٌ وَمآثِرَ غيرِهِ قليلةٌ . (وَٱلآخرُ) انَّ ٱلشِّعْرَ يكونُ ذا فخرٍ وَنباهةٍ بِمدحكَ وَذا خمولٍ بِمدحِ غيرِكَ . فلفظةُ ٱلطُّولِ : يُفهمُ مِنها ضِدُّ ٱلقِصرِ وَيُفهمُ مِنها ٱلفخرُ مِنْ قولنا : طَالَ فُلانٌ عَلى فُلانٍ اي فخرَ عَلَيهِ . وَمِمَّا ينتظمُ بهذَا ٱلسِّلكِ قَوْلُ ابي كبيرٍ ٱلهذليِّ :

عَجِبْتُ لسعي ٱلدَّهرِ بيني وَبينَهُ فلمَّا ٱنقضى ما بيننا سكنَ ٱلدَّهرُ

وَهٰذَا يحتمِلُ وجهَينِ مِنَ ٱلتَّأويلِ . (احدُهما) انَّهُ ارادَ بِسَعيِ ٱلدَّهرِ سُرعةَ تقضِّي ٱلاوقاتِ مُدَّةَ ٱلوِصالِ . فلمَّا ٱنقضى ٱلوَصلُ عادَ ٱلدَّهرُ اِلى حالَتِهِ فِي ٱلسُّكونِ وَٱلبطءِ . (وَٱلآخرُ) انَّهُ ارادَ بسعي

ٱلدَّهر بِٱلنمائم وَٱلوشايات فلمّا ٱنقضى ما كان بينهما من ٱلوصل سكنوا او تركوا ٱلسعاية . وهٰذا من باب وضع ٱلمضاف اليه مكان ٱلمضاف كقوله : وَٱسأل ٱلقرية اي اهل ٱلقرية . ومن ٱلدقيق ٱلمعنى في هٰذا ٱلباب قول ابي ٱلطيّب ٱلمتنبي في عضد ٱلدولة من جملة قصيدته ٱلتي اولها (اوهِ بديلٌ من قولتي واهَا) فقال :

لو فطنت خيلُهُ لنائلِهِ لم يُرضِها ان تراه يَرضاها

وهٰذا يُستنبط منه معنيان . (احدهما) انّ خيله لو علمت مقدار عطاياه ٱلنفيسة لما رضيت له بان تكون من جملة عطاياه لانّ عطاياهُ انفس منها . (ٱلآخرُ) انّ خيله لو علمت انّه يهبها من جملة عطاياه لما رضيت ذلك اذ تكرهُ خروجها عن ملكه. وهذان ٱلوجهان انا ذكرتهما وا:ا ٱلمذكورُ منهما احدُهما . وهٰذا ٱلذي اشرتُ اليه من ٱلكلام على ٱلمعاني وتأويلاتها كافٍ لمن عنده ذوقٌ وله قوةٌ على حملها على اشباهها ونظائرها

ٱلبحث ٱلخامس

في ٱلتّرجيح بين ٱلمعاني

(عن المثل السائر باختصار)

هٰذا ٱلفصلُ هو ميزانُ ٱلخواطر ٱلذي يوزن به نقدُ درهمها ودينارها بل ٱلمحكُّ ٱلذي يعلمُ منهُ مقدارُ عيارها ولا يزنُ به الّا ذو فكرةٍ متقدة ولمحة منتقدةٍ . فليس كلُّ من حمل ميزانًا سُمّي صرّافًا .

وَلا كُلُّ مَنْ وَزَنَ بِهِ سُمّيَ عَرّافا . وَالْفرق بَيْنَ هٰذا ٱلتَّرْجيحِ وَٱلتَّرْجيحِ ٱلفِقْهِيِّ اَنَّ هُناكَ يُرَجَّحُ بين دَليلَيِ ٱلْخَصْمَيْنِ في حُكْم شَرْعِيّ وَهٰهُنا يُرَجَّحُ بَيْنَ جانِبَيْ فَصاحَةٍ وَبَلاغَةٍ فِي ٱلْفَاظٍ وَمَعانٍ خِطابيَّةٍ . وَبَيانُ ذٰلِكَ اَنَّ صاحِبَ ٱلتَّرْجيحِ ٱلفِقْهِيِّ يُرَجِّحُ بَيْنَ خَبَرِ ٱلتَّواتُرِ مَثَلاً وَبَيْنَ خَبَرِ ٱلْآحادِ اَوْ بَيْنَ ٱلْمُسْنَدِ وَٱلْمُرْسَلِ اَوْ ما جَرَى هٰذا ٱلمَجْرَى . وَهٰذا لا يُعَرّضُ اِلَيْهِ صاحِبُ عِلْمِ ٱلْبَيانِ لِاَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ وَلٰكِنّ ٱلَّذي هُوَ مِنْ شَأْنِهِ اَنْ يُرَجِّحَ بَيْنَ حَقيقَةٍ وَمَجازٍ اَوْ بَيْنَ حَقيقَتَيْنِ اَوْ بَيْنَ مَجازَيْنِ وَيَكُونَ ناظِرًا فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ اِلَى ٱلصِّناعَةِ ٱلْخِطابِيَّةِ . وَرُبَّما اتَّفَقَ هُوَ وَصاحِبُ ٱلتَّرْجيحِ ٱلْفِقْهِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْمَواضِعِ كَالتَّرْجيحِ بَيْنَ عامٍّ وَخاصٍّ اَوْ ما شابَهَ ذٰلِكَ . وَكُنّا قَدْ قَدَّمْنا ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْمَعاني وَٱنْقِسامِها . وَلْنُبَيِّنْ فِي هٰذا ٱلْفَصْلِ مَواضِعَ ٱلتَّرْجيحِ بَيْنَ وُجُوهِ تَأْويلاتِها فَنَقُولُ : (اَمّا ٱلْقِسْمُ ٱلْاَوّلُ) مِنَ ٱلْمَعاني فَلا تَعَلُّقَ لِلتَّرْجيحِ بِهِ اِذْ ما دَلَّ عَلَيْهِ ظاهِرُ لَفْظِهِ لا يَحْتَمِلُ اِلّا وَجْهًا واحِدًا فَلَيْسَ مِنْ هٰذا ٱلبابِ فِي شَيْءٍ . وَٱلتَّرْجيحُ اِنَّما يَقَعُ بَيْنَ مَعْنَيَيْنِ يَدُلُّ عَلَيْهِما لَفْظٌ واحِدٌ وَلا يَخْلُو ٱلتَّرْجيحُ بَيْنَهُما مِنْ ثَلاثَةِ اَقْسامٍ اِمّا اَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظُ حَقيقَةً فِي اَحَدِهِما مَجازًا فِي ٱلْآخَرِ . اَوْ حَقيقَةً فيهِما جَميعًا اَوْ مَجازًا فيهِما جَميعًا وَلَيْسَ لَنا قِسْمٌ رابِعٌ . وَٱلتَّرْجيحُ بَيْنَ ٱلْحَقيقَتَيْنِ اَوْ بَيْنَ ٱلْمَجازَيْنِ يَحْتاجُ اِلَى نَظَرٍ . (وَاَمّا ٱلتَّرْجيحُ بَيْنَ ٱلْحَقيقَةِ وَٱلْمَجازِ) فَاِنَّهُ يُعْلَمُ بِبَديهَةِ ٱلنَّظَرِ لِمَكانِ ٱلْاِخْتِلافِ بَيْنَهُما . وَٱلشَّيْئانِ ٱلْمُخْتَلِفانِ يَظْهَرُ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُما بِخِلافِ ما يَظْهَرُ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ ٱلْمُشْتَبِهَيْنِ . . . .

(وَاما مثالُ ٱلمعْنيَيْن) إذا كانَا حَقيقيَيْن فقوله : ٱلتمِسُوا ٱلرِّزقَ فِي خبَايَا ٱلارْضِ وَٱلخبايا جمعُ خبيئة وهو كلُّ ما يُخبأ كائنًا ما كان . وهذا يَدُلُّ عَلَى مَعْنيَيْنِ حقيقيَيْن : (احدُهما) ٱلكُنوزُ ٱلمَخْبوءَةُ فِي بطونِ ٱلأَرْضِ. (وَٱلآخر) ٱلحرْثُ وَٱلغِراسُ. وجَانِبُ ٱلحرثِ وٱلغِراسِ ارجحُ لانَّ مَواضِعَ ٱلكُنوزِ لَا تُعلمُ حتَّى تُلْتمَسَ وهو لا يأمرُ بذلكَ لِانَّهُ شَيْءٌ مجْهولٌ غيْرُ معْلوم فبقي ٱلمُرَادُ بِخبَايَا ٱلارْضِ مَا يُحرثُ ويُغرسُ.

(واما مثالُ ٱلمجازينِ) فقولُ ابي تمام :

قد بَلَوْنا ابا سعيدٍ حديثًا ... وَبلونا ابا سَعيد قديمَا
وَوَرَدْنَاهُ سَاحلا وَقَليبا ... وَرعَيْنَاهُ بَارضًا وَجَميما
فَعلمنا ان ليسَ إلّا بِشقِّ م ... ٱلنفسِ صارَ ٱلكريمُ يُدعَى كريمَا

فٱلسّاحِلُ وَٱلقليبُ يُسْتخرجُ مِنْهُمَا تَأوِيلانِ مجازِيَانِ : (احدُهما) انَّهُ ارادَ بهما ٱلكثيرَ وَٱلقلِيلَ بِٱلنسبة الى ٱلسَّاحِلِ وٱلقليب . (وَٱلآخرُ) انَّهُ اراد بهما ٱلسَّبَبَ وَغيْرَ ٱلسببِ . فانَّ ٱلسَّاحلَ لايُحتاجُ في ورْدِهِ الى سَبَب وَٱلقليبُ يُحتَاجُ في ورْدِهِ الى سَببٍ . وَكِلَا هذينِ ٱلمعْنيَيْنِ مجازٌ . فَإنَّ حَقيقةَ ٱلساحل وٱلقليبِ غيْرُهمَا وَٱلوَجْهُ هوَ ٱلثاني لِانَّهُ هوَ ادلُّ عَلَى بَلاغة ٱلقَائلِ ومَدحِ ٱلمقُولِ فِيهِ. اما بَلاغةُ ٱلقائلِ فَٱلسَّلامَةُ منْ هُجْنَةِ ٱلتَّكريرِ بِٱلمخالفة بيْن صَدْرِ ٱلبَيت وعَجُزِهِ . فإنَّ عَجُزَهُ يدلُّ عَلَى ٱلقليلِ وَٱلكثيرِ لِانَّ ٱلبارِضَ هُوَ اوّلُ ٱلنَبْتِ حين يَبْدُو فإذا كَثُرَ وَتكاثف سُمّيَ جميما. فَكَانَّهُ قالَ : اخذْنا مِنْهُ تَبرُّعا وَمسْئلةً وَقليلا وَكثيرًا . وَامَّا مدحُ ٱلمقُولِ

فيه فلتعداد حالاته الأربع في تبرّعه وسؤاله وإكثاره وإقلاله وما في معاناة هذه الأحوال من المشاق. فهذا إمّا يتعلّق بالترجيح البلاغي بين الحقيقة والحقيقة وبين المجاز والمجاز وبين الحقيقة والمجاز

البحث السادس

في الفصل والوصل

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ١٨ من علم الادب)

الفصل والوصل هو العلم بمواضع العطف والاستئناف والهدى الى كيفيّة إيقاع حروف العطف في مواضعها. وهو من اعظم اركان البلاغة حتى إنّ بعضهم حدّ البلاغة بأنّها معرفة الفصل والوصل. وقال عبد القاهر: إنّه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه احدٌ الا كمل لسائر معاني البلاغة. إعلم انّ فائدة العطف التشريك بين المعطوف والمعطوف عليه. ثمّ من الحروف العاطفة ما لا يفيد إلّا هذا القدر وهو الواو. ومنها ما يفيد فائدة زائدة كالفاء وثمّ واو. وغرضنا ها هنا تعلّق بما لا يفيد الّا الاشتراك فنقول: العطف إمّا ان يكون في المفردات كقولك: مررت برجل خلقه حسنٌ وخُلقه قبيحٌ. فقد اشركت بينهما في الإعراب والمعنى لاشتراكهما في كون كلّ واحدٍ منهما مقيّدا للموصوف. ولا يتصوّر ان يكون هناك معنًى يقع ذلك الاشتراك فيه وحتّى يكونا كالنظيرين والشريكين بحيث إذا عرف

اَلسَّامِعْ حَالَةَ ٱلْاوَّلِ عساهُ يَعْرِفْ حَالَةَ ٱلثَّانِي . يَدُلُّكَ عَلَى ذٰلِكَ اَنَّكَ اِذا عَطَفْتَ عَلَى ٱلْاَوَّلِ شَيْئًا لَيْسَ مِنْهُ سَبَبٌ وَلا هُوَ مِمَّا يُذْكَرُ بِذِكْرِهِ لَمْ يَسْتَقِمْ . فَلَوْ قُلْتَ : (خَرَجْتُ ٱلْيَوْمَ مِنْ دَارِي وَاَحْسَنَ ٱلَّذِي يَقُولُ بَيْتَ كَذَا) قُلْتَ مَا يُضْحِكُ مِنْهُ. وَانْ لَمْ يَكُنْ فِي قُوَّةِ ٱلْمُفْرَدِ فَهُوَ عَلَى قِسْمَيْنِ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ مَعْنَى اِحْدَى ٱلْجُمْلَتَيْنِ لِذَاتِهِ مُتَعَلِّقًا بِمَعْنَى ٱلْاُخْرَى كَمَا اذَا كَانَتْ كَالتَّوْكِيدِ لَهَا اَوْ كَالصِّفَةِ فَلَا يَجُوزُ اِدْخَالُ ٱلْعَاطِفِ عَلَيْهِ لِاَنَّ التَّوْكِيدَ وَٱلصِّفَةَ مُتَعَلِّقَانِ بِٱلْمُؤَكَّدِ وَٱلْمَوْصُوفِ لِذَاتَيْهِمَا . وَٱلتَّعَلُّقُ ٱلذَّاتِيُّ يُغْنِي عَنْ لَفْظٍ يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعَلُّقِ. فَمِثَالُ ٱلتَّوْكِيدِ قَوْلُهُ : وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِٱللهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ ٱللهَ . وَلَمْ يَقُلْ : (وَيُخَادِعُونَ) لِاَنَّ ٱلْمُخَادَعَةَ لَيْسَتْ شَيْئًا غَيْرَ قَوْلِهِمْ : آمَنَّا مَعَ اَنَّهُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ . وَمِمَّا جَاءَ فِيهِ ٱلْاِثْبَاتُ (بِاِنْ وَاِلَّا) عَلَى هٰذَا ٱلْحَدِّ قَوْلُهُ : اِنْ هُوَ اِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. فَٱلْاِثْبَاتُ فِي قَوْلِهِ تَأْكِيدٌ لِنَفْيِ مَا يُنْفَى . (اَلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ بَيْنَ ٱلْجُمْلَتَيْنِ تَعَلُّقٌ ذَاتِيٌّ فَاِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ فَيَجِبُ تَرْكُ ٱلْعَاطِفِ اَيْضًا لِاَنَّ ٱلْعَطْفَ لِلتَّشْرِيكِ وَلا تَشْرِيكَ . وَمِنْ هَاهُنَا عَابُوا عَلَى اَبِي تَمَّامٍ قَوْلَهُ :

لا وَٱلَّذِي عَالِمٌ اَنَّ ٱلنَّوَى مُرٌّ وَاَنَّ اَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ

اِذْ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ مَرَارَةِ ٱلنَّوَى وَبَيْنَ كَرَمِ اَبِي ٱلْحُسَيْنِ . وَلِذٰلِكَ لَمْ يُحْسِنْ جَوَازَ ٱلْعَاطِفِ . وَاِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ فَاِمَّا اَنْ يَكُونَ بِٱلَّذِي اُخْبِرَ بِهِمَا اَوْ بِٱلَّذِي اُخْبِرَ عَنْهُمَا اَوْ بِهِمَا كِلَيْهِمَا . وَهٰذَا ٱلْاَخِيرُ

هو ٱلْمُعْتَبَرُ في ٱلْعَطْفِ ومعنى ٱلْمُنَاسَبَة ان يكونا مُتَشابِهَيْنِ كقولك : زَيْدٌ كَاتِبٌ وَعَمْرو. او مُتَضَادَّيْن تَضَادا عَلَى ٱلْخُصُوص كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ طَوِيلٌ وَعَمْرو قَصِيرٌ . وَكَقَوْلِكَ : ٱلْعِلْمُ حَسَنٌ وَٱلْجَهْلُ قَبِيحٌ . فَلَوْ قُلْتَ : زَيْدُ طَوِيلٌ وَعَمْرٌو شَاعِرٌ ٱخْتَلَّ اِذ لَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ طُولِ ٱلْقَامَةِ وَٱلشِّعْرِ . وَاِنْ كَانَ ٱلْمُحَدَّثُ عَنْهُ فِي ٱلْجُمْلَتَيْنِ شَيْئًا وَاحِدًا كَقَوْلِكَ : فُلَانٌ يَقُولُ وَيَفْعَلُ وَيَضُرُّ وَيَنْفَعُ وَيَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُسِيءُ وَيُحْسِنُ . يَجِبُ اِدْخَالُ ٱلْعَاطِفِ فَاِنَّ ٱلْغَرَضَ جَعْلُهُ فَاعِلًا لِلْأَمْرَيْنِ . فَلَوْ قُلْتَ : يَقُولُ يَفْعَلُ بِلَا عَاطِفٍ لَتُوُهِّمَ اَنَّ ٱلثَّانِي رُجُوعٌ عَنِ ٱلْأَوَّلِ . و اذا اَفَادَ ٱلْعَاطِفُ ٱلِاجْتِمَاعَ ازْدَادَ ٱلِاشْتِرَاكُ كَقَوْلِكَ : ٱلْعَجَبُ مِنْ اَنَّكَ احْسَنْتَ وَاَسَأْتَ . وَٱلْعَجَبُ مِنْ اَنَّكَ تَنْهَى عَنْ شَيْءٍ تَأْتِي مِثْلَهُ . وكقوله :

لَا تَطْمَعُوا اَنْ تُهِينُونَا وَنُكْرِمَكُمْ   وَاَنْ نَكُفَّ ٱلْاَذَى عَنْكُمْ وَتُؤْذُونَا

فَاِنَّ ٱلْمَعْنَى جَعْلُ ٱلْفِعْلَيْنِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ اَيْ لَا تَطْمَعُوا اَنْ تَرَوْا اِكْرَامَنَا اِيَّاكُمْ يُوجَدُ مَعَ اِهَانَتِكُمْ اِيَّانَا . وَٱعْلَمْ اَنَّهُ قَدْ يَجِبُ اِسْقَاطُ ٱلْعَاطِفِ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ لِٱخْتِلَالِ ٱلْمَعْنَى عِنْدَ اِثْبَاتِهِ كَقَوْلِهِ : وَاِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْاَرْضِ قَالُوا : اِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ اَلَا اِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ. فقوله : (اَلَا اِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ) كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ وَهُوَ اِخْبَارٌ مِنْهُ . فَلَوْ اَتَى بِٱلْوَاوِ لَكَانَ اِخْبَارًا عَنِ ٱلْيَهُودِ بِاَنَّهُمْ وَصَفُوا اَنْفُسَهُمْ بِاَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ فَيَخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى. قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ : وَاِذَا ٱسْتَقْرَيْتَ وَجَدْتَ هٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرْتُ لَكَ مِنْ تَنْزِيلِهِمِ ٱلْكَلَامَ اِذَا جَاءَ بِعَقِبِ مَا يَقْتَضِي سُؤَالًا مَنْزِلَتَهُ اِذَا صُرِّحَ بِذٰلِكَ ٱلسُّؤَالِ

كثيرا. فمن لطيف ذلك قوله :

زعم العواذل انني في غمرة   صدقوا ولكن غمرتي لا تنجلي

لما حكى عن العواذل قولهم إنه في غمرة وكان ذلك مما يحرك السامع على ان يسأله : فما جوابك عن ذلك . اخرج الكلام مخرجه إذا كان قد قيل فقال : اقول صدقوا . انا كما قالوا ولكن لا مطمع لهم في فلاحي . ولو قال : وصدقوا لكن لم يضع نفسه في انه مسئول . وامثال ذلك كثيرة . وإذا كان كذلك فلا حاجة الى العاطف بخلاف قوله : يخادعون الله وهو خادعهم . ومكروا ومكر الله : فان كل واحد من الجملتين خبر

(ومما يجب) ذكره هاهنا الجملة اذا وقعت حالا فانها تجيء مع الواو تارة و بدونها اخرى. فنقول الجملة اذا وقعت حالا فلا بد ان تكون خبرية تحتمل الصدق والكذب وهو على قسمين: (الاول) وله احوال : (الاولى) ان يجمع لها بين الواو وضمير صاحب الحال كقولك : جاء زيد ومعه غلامه ولقيت زيدا وفرسه سابقه. وهذه الواو تسمى واو الحال. (الثانية) ان تجيء بالضمير من غير واو كقولك : كلمته فوه الى فيّ. وهو في معنى مشافها والرابط الضمير. (الثالثة) ان تجيء بالواو من غير ضمير وهو كثير كقولك : لقيتك والجيش قادم . وزرتنا والشتاء خارج . قال امرؤ القيس :

وقد اغتدي والطير في وكناتها   بمنجرد قيد الاوابد هيكل

ويجوز ان يجمع بين حالين: مفرد وجملة. إذا اجزنا وقوع حالين

كَقَوْلِكَ : لَقِيتُكَ رَاكِبًا وَٱلْحَسَنُ قَادِمٌ . فَٱلْجُمْلَةُ حَالٌ مِنَ ٱلتَّاءِ اَوْ مِنَ ٱلْكَافِ وَٱلْعَامِلُ فِيهَا (لَقِيتُ) اَو مِنْ ضَمِيرِ (رَاكِبٍ) وَرَاكِبٌ هُوَ ٱلْعَامِلُ فِيهَا . (اَلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) اَلْجُمْلَةُ ٱلْفِعْلِيَّةُ . وَلَا بُدَّ اَنْ تَكُونَ مَاضِيًا اَوْ مُضَارِعًا . امَّا ٱلْمَاضِي فَلَا بُدَّ مَعَــهُ مِنَ ٱلْاِتْيَانِ بِٱلْوَاوِ وَقَدْ اَوْ بِاَحَدِهِمَا كَقَوْلِكَ : تَكَلَّمْتُ وَقَدْ عَجِلْتُ . وَجَاءَ زَيْدٌ قَدْ ضَرَبَ عَمْرًا . وَجِئْتُ وَاَسْرَعْتُ فِي ٱلْمَجِيءِ . وَلَمْ يُجِزِ ٱلْبَصْرِيُّونَ خُلُوَّهُ عَنْهُمَا وَقَالُوا فِي قَوْلِ اَبِي صَخْرٍ ٱلْهُذَلِيِّ :

وَاِنِّي لَتَعْرُونِي لِذِكْرَاكِ هِزَّةٌ   كَمَا ٱنْتَفَضَ ٱلْعُصْفُورُ بَلَّلَهُ ٱلْقَطْرُ

اِنَّ (قَدْ) مُقَدَّرَةٌ فِيهَا فَاِنَّ ٱلشَّيْءَ اِذَا عُرِفَ مَوْضِعُهُ جَازَ حَذْفُهُ .

وَامَّا ٱلْمُضَارِعُ فَاِنْ كَانَ مُوجَبًا فَلَا يُؤْتَى مَعَهُ بِٱلْوَاوِ تَقُولُ : جَاءَنِي زَيْدٌ يَضْحَكُ وَجَاءَ عَمْرٌو يُسْرِعُ وَجَلَسَ يُحَدِّثُنَا (بِٱلرَّفْعِ) اَيْ مُحَدِّثًا لَنَا بِتَجَرُّدِهِ عَمَّا يُغَيِّرُ مَعْنَاهُ اَشْبَهَ ٱسْمَ ٱلْفَاعِلِ اِذَا وَقَعَ حَالًا . وَاِنْ كَانَ مَنْفِيًا جَازَ حَذْفُ ٱلْوَاوِ مُرَاعَاةً لِاَصْلِ ٱلْفِعْلِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْاِيجَابُ وَجَازَ اِثْبَاتُهَا لِاَنَّ ٱلْفِعْلَ لَيْسَ هُوَ ٱلْحَالَ . فَاِنَّ مَعْنَى قَوْلِكَ : (جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ) جَلَسَ زَيْدٌ غَيْرَ مُتَكَلِّمٍ . فَجَرَى مَجْرَى ٱلْجُمْلَةِ ٱلْاِسْمِيَّةِ . فَٱلْحَذْفُ كَقَوْلِكَ : جَاءَ زَيْدٌ مَا يَفُوهُ بِبِنْتِ شَفَةٍ . وَكَقَوْلِهِ : اَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . فَقَوْلُهُ : (لَا يَمَسُّنَا) فِي مَوْضِعِ نَصْبٍ عَلَى ٱلْحَالِ مِنْ ضَمِيرِ ٱلْمَرْفُوعِ فِي اَحَلَّنَا . وَٱلْاِثْبَاتُ كَقَوْلِكَ : جَلَسَ زَيْدٌ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ . وَقَالَ : اَفَلَا يَرَوْنَ اَلَّا يَرْجِعُ اِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا . وَشَبَّهُوا بِهِ ٱلْفِعْلَ

ٱلْمَاضِي فقالُوا : جَاءَ زَيْدٌ مَا ضَرَبَ عَمرا . وَجَاءَ زَيدٌ وَمَا ضَربَ عَمْرَا

البحث السابع

في تأكيد الكلام وقصره وتعزيزهِ بانَّ وانَّما

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ١٩ من علم الادب)

امَّا (اِنَّ) فلَهَا فَوائدُ : (ٱلْاولى) انَّها تَرْبطُ ٱلْجُمْلَةَ ٱلثَّانِيَةَ بِٱلْأُوْلَى وَبسببهَا يَحْصُلُ ٱلتَّأْلِيفُ بَيْنهُما حتّى كَانَّ ٱلْكَلامَيْنِ أُفرِغا افْراغا وَاحِدًا ولَوْ اسْقطتَّها كان ٱلثانِي نَائبا عَن ٱلْاوّلِ كقولِهِ : يَا ايُّها ٱلنّاسُ ٱتّقُوا رَبّكُمْ انَّ زَلْزَلَةَ ٱلساعَةِ شيءٌ عَظِيمٌ . (ٱلثَّانِيَةُ) انَّك تَرَى لِضَمِيرِ ٱلشأنِ وٱلقصةِ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلشَّرْطِيَّة مَع (انَّ) مِن ٱلْحُسْنِ وَٱللُّطْفِ مَا لَا تراهُ اِذَا هِيَ لَمْ تَدْخُل عَلَيْها كقوْلِهِ : اِنَّهُ مَنْ يَتَّقي وَيَصْبِرْ فَاِنَّ ٱللهَ لَا يُضِيعُ اَجْر ٱلْمُحْسِنِينَ . (ٱلثالثةُ) انها تُهَيِّئُ ٱلنكِرَةَ وَتُصْلِحُها لِانْ يُحدّثَ عَنْهَا وَاِنْ كَانَتِ ٱلنكِرةُ مَوْصُوفَةً جَازَ حَذْفُها وَلٰكِنّ دُخُولَهَا اَصْلحُ كقَوْلِ حَسّانٍ :

اِنَّ دَهْرا يَلفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِٱلْاِحْسَانِ

(ٱلرَّابِعَةُ) انها تُغْنِي عَنِ ٱلْخَبَرِ كَمَا اِذَا قِيلَ لَكَ : ٱلنَاسُ اَلْبُوا عَلَيْكُمْ فهَلَّ لَكُمْ اَحَدٌ . فَقُلْتُ : اِنّ زَيْدًا اَوْ اِنَّ عَمرا . اَيْ لَنَا . قالَ ٱلْاعْشَى :

اِنَّ مَحَلا وَاِنَّ مُرْتَحِلَا وَاِنّ فِي ٱلسَّفْرِ اِذْ مَضَوْا مَهَلَا

(اَلْخَامِسَةُ) قَالَ اَلْمُبَرّد اِذا قُلْتَ : اِنَّ عَبْدَاللهِ قَائِمٌ . فَهُوَ جوَابٌ عَنْ سُؤَالِ سَائِل . فَاِذا قُلْتَ : اِنَّ عَبْدَاللهِ لقائِمٌ . فَهُوَ جوَابٌ عنْ اِنكارِ مُنكِرٍ لقيامِهِ سَوَاءٌ كَانَ اَلْمُنكِرُ هُوَ السَّائل اَوِ الْحَاضِرِينَ

(وَ اما اِنما)فَتَارَة تَجِيءُ لِلْحَصْرِ بِمَعْنَى اَنَّ هٰذَا الْحُكْمَ لايُوجدُ فِي غيرِ اَلْمَذْكُورِ وهُوَ بِمَنْزِلة (لَيسَ اِلَّا) كقوْلِهِ : اِنما يَستجيبُ اَلذينَ يَسْمَعُون . وقوْلِهِ : اِنما تُنْذِرُ مَن اَتَّبعَ اَلذِّكر . وَقَوْلِهِ : اِنما انْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاهَا . و تارَةَ تَجِيءُ لِبيَانِ انَ هٰذَا اَلْامْرَ ظَاهِرٌ عنْدَ كُلِّ احدِ سَوَاءٌ كَانَ كذلك اَوْ فِي زَعْمِ اَلْمتَكَلِّم . ومِنْهُ قوْلُ الشاعِرِ :

انَّمَا مُصْعبٌ شِهابٌ مِنَ اللهِ م تَجلتْ مِنْ وَجْهِهِ الظَلْمَاءُ

مُدعيًا انّ ذٰلكَ مِما لاَ يُنكِرُهُ اَحَدٌ مِنَ اَلنَاس .(فَائدَةٌ) اِذَا دخَلَ(مَا و اِلَّا) عَلَى اَلْجُمْلَةِ اَلْمُشْتَمِلَة عَلَى اَلْمنصُوبِ كَانَ اَلْمَقْصُودُ بِالذِّكْرِ مَا اتَّصل (بِاِلَّا) مُتاَخِرا عَنْهُ . فاِذَا قُلْتَ :مَا ضَرَبَ عَمْرًا الا زَيْدٌ . فَاَلمقْصُودُ اَلْمرْفُوع . واِذا قلتَ : مَا ضَرَبَ زَيْدٌ اِلَّا عَمْرا . فَالْمَقْصُودُ اَلْمَنْصُوبُ.وَاِذَا قُلْتَ :مَا ضَربَ زَيْدٌ اِلا عَمْرا. فَاَلاخْتِصَاصُ بِالضّارِبِ. وَاِذا قُلْتَ :مَا ضَرَبَ اِلَّا زَيْدا عمْرٌو . فَالْاخْتِصَاصُ بِالْمَضْرُوب. واِذَا قُلْتَ : لَمْ اَكسُ اِلَّا زَيْدا جُبة . فَالْمَعْنَى تَخْصِيص كُسْوَةِ الْجُبَّةِ بَيْنَ اَلناسِ بِزَيْدٍ. وكَذلكَ اَلْحكْمُ حَيْثُ يكُونُ يَدُلُّ احَدُ اَلْمَفْعُولَيْن جَارًا وَمَجْرُورا كقوْلِ السيِّدِ اَلْحِمْيَرِيِّ :

لَوْ خُيِّرَ اَلْمِنْبرُ فُرْسَانَهُ مَا اَخْتَارَ اِلَّا مِنْكُمُ فَارِسا

وكَذٰلكَ حُكْمُ اَلْمُبْتَدَإِ وَالخبَرِ والْفعْلِ وَالْفَاعِلِ كَقَوْلِكَ : مَا

زَيْدٌ إِلَّا قَائِمٌ وَمَا قَائِمٌ إِلَّا زَيْدٌ. وَأَمَّا (إِنَّمَا) فَالِاخْتِصَاصُ فِيهَا يَقَعُ مَعَ الْمُتَأَخِّرِ. فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّمَا ضَرَبَ زَيْدًا عَمْرٌو. فَالِاخْتِصَاصُ فِي الضَّارِبِ. وَقَوْلُهُ: (إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) فَالْغَرَضُ بَيَانُ الْمَرْفُوعِ وَهُوَ أَنَّ الْخَاشِينَ هُمُ الْعُلَمَاءُ. وَلَوْ قُدِّمَ الْمَرْفُوعُ لَصَارَ الْمَقْصُودُ بَيَانَ الْمَخْشِيِّ مِنْهُ فَالْأَوَّلُ أَتَمُّ. وَمِنْهُ قَوْلُ الْفَرَزْدَقِ:

أَنَا الرَّائِدُ الْحَامِي الذِّمَارَ وَإِنَّمَا ... يُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِكُمْ أَنَا أَوْ مِثْلِي

فَإِنَّ غَرَضَهُ أَنْ يَحْصُرَ الْمُدَافِعَ بِأَنَّهُ هُوَ لَا الْمُدَافَعَ عَنْهُ. وَلَوْ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا أُدَافِعُ عَنْ أَحْسَابِكُمْ. تَوَجَّهَ التَّخْصِيصُ إِلَى الْمُدَافَعِ عَنْهُ. إِذَا أَدْخَلْتَ عَلَيْهِمَا (إِنَّمَا) فَإِنْ قَدَّمْتَ الْخَبَرَ فَالِاخْتِصَاصُ لِلْمُبْتَدَإِ. وَإِنْ لَمْ تُقَدِّمْهُ فَلِلْخَبَرِ. فَإِذَا قُلْتَ: إِنَّمَا هٰذَا لَكَ فَالِاخْتِصَاصُ فِي (لَكَ) بِدَلِيلِ أَنَّكَ تَقُولُ بَعْدَهُ: لَا لِغَيْرِكَ. وَإِنْ قُلْتَ: إِنَّمَا لَكَ هٰذَا. فَالِاخْتِصَاصُ فِي هٰذَا بِدَلِيلِ أَنَّكَ تَقُولُ بَعْدَهُ لَا ذَاكَ. ثُمَّ قَدْ يَجْتَمِعُ مَعَهُ حَرْفُ النَّفْيِ إِمَّا مُتَأَخِّرًا كَقَوْلِكَ: إِنَّمَا يَجِيءُ زَيْدٌ لَا عَمْرٌو. وَقَالَ لَبِيدٌ:

وَإِذَا جُوزِيتَ قَرْضًا فَأَجْزِهِ ... إِنَّمَا يَجْزِي الْفَتَى لَيْسَ الْجَمَلْ

وَأَمَّا مُقَدَّمًا عَلَيْهِ كَقَوْلِكَ: مَا جَاءَنِي زَيْدٌ وَإِنَّمَا جَاءَنِي عَمْرٌو. فَهَا هُنَا لَوْ لَمْ تَقُلْ: (إِنَّمَا). وَقُلْتَ: مَا جَاءَنِي زَيْدٌ وَجَاءَنِي عَمْرٌو. لَكَانَ الْكَلَامُ مَعَ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُمَا جَاءَا جَمِيعًا. وَإِذَا أَدْخَلْتَهَا كَانَ الْكَلَامُ مَعَ مَنْ غَلِطَ فِي الْجَائِي أَنَّهُ زَيْدٌ لَا عَمْرٌو. وَاعْلَمْ أَنَّ أَقْوَى مَا يَكُونُ إِنَّمَا إِذَا كَانَ لَا يُرَادُ بِالْكَلَامِ الَّذِي بَعْدَهَا نَفْسُ مَعْنَاهَا

وَلٰكِنَّ ٱلتعرِيضَ بِأَمْرٍ هُوَ مُقتَضَاهُ . وهٰذَا ٱلغَرَضُ لَايَحْصُلُ بِدُونِ (إِنَّمَا) لِأَنَّ مِنْ إِثْبَاتِهَا تَضْمِينَ ٱلكَلَامِ مَعْنَى ٱلنَّفْيِ بَعْدَ ٱلإِثْبَاتِ . فإِذَا أُسْقِطَتْ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا إِثْبَاتُ ٱلحُكْمِ لِلْمَذْكُورِينَ فَلَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ غَيْرِهِمْ إِلَّا أَنْ يُذْكَرَ فِي مَعْرِضِ مَدْحِ ٱلإِنسانِ بِٱلتيقُّظِ وَٱلكَرَمِ وَأَمْثَالِهِمَا كَما يُقالُ : كذٰلِكَ يَفْعَلُ ٱلعَاقِلُ وهٰكذَا يَفعَلُ ٱلكَرِيمُ

البحث الثامن

في التقديم والتأخير

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع علم الادب صفحة ١٩)

إِذَا قُدِّمَ ٱلشيْءُ عَلَى غَيْرِهِ فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ كَمَا إِذَا قُدِّمَ ٱلخَبَرُ عَلَى ٱلمُبْتَدَإِ . وَإِمَّا أَن يَكُونَ فِي نِيَّةِ ٱلتَّأْخِيرِ وَلٰكن أَنتَقَلَ ٱلشيْءُ مِنْ حُكْمٍ إِلَى آخر . كَما إِذَا جِئْت إِلَى ٱسْمَيْنِ جازَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُبْتَدَأً فجَعَلْتَ أَحدَهما مُبْتَدَأً كَقولك : زَيْدٌ ٱلمُنْطَلِقُ وَٱلمُنْطَلِقُ زَيْدٌ . قَالَ ٱلجُرْجَانِيُّ : كَأَنَّهُمْ يُقدِّمون ٱلذِي بَيَانُهُ أَهَمُّ لَهُمْ وَهُمْ بِبَيَانِهِ أَعْنَى وَإِنْ كَانَا جَمِيعاً يُهِمَّانِهِم وَيَعْنِيَانِهِمْ . وِمِثَالُهُ إِنَّ ٱلنَّاسَ إِذَا تعَلَّقَ غَرَضُهُمْ بِقَتْلِ خارِجِيٍّ مُفْسِدٍ وَلَا يَعْلَمُونَ مَنْ صَدَرَ ٱلقَتْلُ مِنْهُ وَأَرَادَ مُرِيدٌ ٱلإِخْبَارَ بذٰلِكَ فَإِنَّهُ يُقدِّمُ ذِكْرَ ٱلخَارِجِيِّ فَيَقُولُ : قَتَلَ ٱلخَارِجِيَّ زَيْدٌ . وَلَا يَقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ ٱلخَارِجِيَّ . لِأَنَّهُ يَعْلَمُ

اَنَّ قَتْلَ ٱلْخَارِجِيّ هُوَ ٱلَّذِي يَعْنِيهِمْ . وَاِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ قَتْلٌ مِنْ رَجُلٍ يَبْعُدُ فِي ٱعْتِقَادِ ٱلنَّاسِ وُقُوعُ ٱلْقَتْلِ مِنْ مِثْلِهِ قَدَّمَ ٱلْمُخْبِرُ ذِكْرَ ٱلْفَاعِلِ فَيَقُولُ : قَتَلَ زَيْدٌ رَجُلًا . لِاَعْتِقَادِ ٱلنَّاسِ فِي ٱلْمَذْكُورِ خِلَافَ ذٰلِكَ (اه). وَلْنَذْكُرْ مِنْهُ ثَلَاثَةَ مَوَاضِعَ يُعْرَفُ بِهَا مَا لَمْ يُذْكَرْ :

(ٱلْاَوَّلُ ٱلِاسْتِفْهَامُ) فَاِذَا اَدْخَلْتَهُ عَلَى ٱلْفِعْلِ وَقُلْتَ : اَضَرَبْتَ زَيْدًا . كَانَ ٱلشَّكُّ فِي وُجُودِ ٱلْفِعْلِ مُحَقَّقًا وَٱلشَّكُّ فِي تَعْيِينِ ٱلْفَاعِلِ وَهٰكَذَا حُكْمُ ٱلنَّكِرَةِ . فَاِذَا قُلْتَ : اَجَاءَكَ رَجُلٌ فَاِنَّ ٱلْمَقْصُودَ هَلْ وُجِدَ ٱلْمَجِيءُ مِنْ رَجُلٍ . فَاِذَا قُلْتَ : اَرَجُلٌ جَاءَكَ كَانَ ذٰلِكَ سُؤَالًا عَنْ جِنْسِ مَنْ جَاءَ بَعْدَ ٱلْحُكْمِ بِوُجُودِ ٱلْمَجِيءِ مِنْ اِنْسَانٍ . وَقِسْ عَلَيْهِ ٱلْخَبَرَ فِي قَوْلِكَ : ضَرَبْتُ زَيْدًا وَزَيْدًا ضَرَبْتُ . وَجَاءَنِي رَجُلٌ تَمِيمِيٌّ . وَرَجُلٌ تَمِيمِيٌّ جَاءَنِي . ثُمَّ ٱلِاسْتِفْهَامُ قَدْ يَجِيءُ لِلْاِنْكَارِ : وَهُوَ اِمَّا لِلتَّقْرِيرِ وَٱلتَّوْبِيخِ وَعَلَيْهِ قَوْلُهُ : اَاَنْتَ فَعَلْتَ هٰذَا بِآلِهَتِنَا . وَاِمَّا لِاِنْكَارِ اَنَّهُ ٱلْفَاعِلُ مَعَ تَحْقِيقِ ٱلْفِعْلِ كَقَوْلِكَ لِمَنِ ٱنْتَحَلَ شِعْرًا : اَاَنْتَ قُلْتَ هٰذَا . وَاِنْ كَانَ ٱلْفِعْلُ مُضَارِعًا فَاِنْ اَدْخَلْتَ حَرْفَ ٱلِاسْتِفْهَامِ عَلَيْهِ كَانَ اِمَّا لِاِنْكَارِ وُجُودِهِ كَقَوْلِهِ : اَنُلْزِمُكُمُوهَا وَاَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ . اَوْ لِاِنْكَارِ اَنَّهُ يَقْدِرُ عَلَى ٱلْفِعْلِ كَقَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

اَيَقْتُلُنِي وَٱلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ⁂ وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَاَنْيَابِ اَغْوَالِ

اَوْ لِاِزَالَةِ طَمَعِ مَنْ طَمِعَ فِي اَمْرٍ لَا يَكُونُ فَيُجَهِّلُهُ فِي طَمَعِهِ كَقَوْلِكَ : اَيَرْضَى عَنْكَ فُلَانٌ وَاَنْتَ عَلَى مَا يَكْرَهُ . اَوْ لِتَعْنِيفِ مَنْ يُضِيعُ ٱلْحَقَّ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

أَأَتْرُكُ إِنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ زِيَارَتَهُ إِنِّي إِذًا لَلَئِيمْ

أَوْ لِتَقْدِيمِ الْفِعْلِ كَمَا تَقُولُ لِمَنْ يَرْكَبُ الْخَطَرَ : أَتَرْكَبُ فِي هٰذَا الْوَقْتِ . وَإِنْ أَدْخَلْتَهُ عَلَى الْإِسْمِ فَهُوَ لِإِنْكَارِ صُدُورِ الْفِعْلِ مِنْ ذٰلِكَ الْفَاعِلِ إِمَّا لِاسْتِحْقَارٍ كَقَوْلِكَ : أَأَنْتَ تَمْنَعُنِي . أَوْ لِلتَّعْظِيمِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَسْأَلُ النَّاسَ . أَوْ لِلْمُبَالَغَةِ إِمَّا فِي كَرَمِهِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَمْنَعُ مَا لَهُ . وَإِمَّا فِي خَسَاسَتِهِ كَقَوْلِكَ : أَهُوَ يَسْمَحُ بِمِثْلِ هٰذَا . وَقَدْ يَكُونُ لِبَيَانِ اسْتِحَالَةِ فِعْلٍ ظُنَّ مُمْكِنًا كَقَوْلِهِ : أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ . وَكَذٰلِكَ إِذَا أَدْخَلْتَهُ عَلَى الْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : أَغَيْرَ اللّٰهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا وَأَغَيْرَ اللّٰهِ تَدْعُونَ . وَأَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ . بَنَوْا كُفْرَهُمْ عَلَى أَنَّ الْبَشَرَ لَيْسَ بِمَثَابَةِ أَنْ يُتَّبَعَ وَيُطَاعَ

(فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فِي النَّفْيِ) إِذَا أَدْخَلْتَ النَّفْيَ عَلَى الْفِعْلِ فَقُلْتَ : مَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . فَقَدْ نَفَيْتَ عَنْ زَيْدٍ ضَرْبًا وَاقِعًا بِزَيْدٍ وَهٰذَا لَا يَقْتَضِي كَوْنَ زَيْدٍ مَضْرُوبًا . وَإِذَا أَدْخَلْتَهُ عَلَى الْإِسْمِ فَقُلْتَ : مَا أَنَا ضَرَبْتُ زَيْدًا . اقْتَضَى مِنْ بَابِ دَلِيلِ الْخِطَابِ كَوْنُ زَيْدٍ مَضْرُوبًا وَعَلَيْهِ قَوْلُ الْمُتَنَبِّي :

وَمَا أَنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا الشِّعْرَ كُلَّهُ وَلٰكِنْ لِشِعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِهِ شِعْرْ

وَكَذٰلِكَ (حُكْمُ الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ وَحُكْمُ الْمَفْعُولِ) . فَإِذَا قُلْتَ : مَا أَمَرْتُكَ بِهٰذَا . لَمْ يَقْتَضِ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَمَرْتَهُ بِشَيْءٍ غَيْرَ هٰذَا . وَإِذَا قُلْتَ : مَا بِهٰذَا أَمَرْتُكَ . اقْتَضَاهُ . وَإِذَا قَدَّمْتَ صِفَةَ الْعُمُومِ عَلَى السَّلْبِ وَقُلْتَ : كُلُّ ذٰلِكَ لَمْ أَفْعَلْهُ بِرَفْعِ (كُلّ) كَانَ نَفْيًا عَامًّا

وَيناقِضُهُ ٱلْاِثباتُ ٱلخاصُ . فَلوْ فعلْتَ بعْضَهُ كُنْت كاذبا . وإن قدمْت ٱلسّلْب وقُلْتَ : لَمْ افعلْ كُل ذلك . كانَ نَفْيا لِلعُمُوم ولا ينافي ٱلاثباتَ ٱلخاصّ فلَوْ فَعلْتَ بَعْضهُ لَمْ تكُن كاذبا . (ٱلثالثُ في ٱلتقْديم وَٱلتأْخِير فِي ٱلخبَرِ ٱلْمُثْبتِ) مَا تقدّم فِي ٱلِاسْتفْهام وَٱلنّفْيِ قائِمٌ هَاهُنا فَإذا قدّمْت ٱلاسمَ وقلْت : زيْدٌ فعَل وأنَا فعلت . فالقصْدُ ان ٱلفَاعلِ اِما لتخْصيصِ ذٰلكَ ٱلفعْل به كقوْلك : انا شفَعتُ في شأنه مُدّعِيا الِانْفِرادَ بِذٰلِك . او لتأْكيدِ اِثْبات ٱلفعْل لَهُ لَا للحصرِ كَقولكَ : هُوِ يُعطي ٱلْجزيل . ليتمكن فِي نفْس ٱلسّامعِ ان ذٰلك دَأْبُهُ دُونَ نَفْيِه عَنْ غيْره كقوْل درنا بنت عَشْعشة :

هُما يَلْبسانِ ٱلمجدَ احسن لِبْسة شَحِيحان مَا ٱسْطَاعَا عليْه كلاهُمَا

وٱلسّببُ فِي هٰذا ٱلتأْكيدِ اذا قُلْت مثلا : (زَيدٌ) . فقدْ اشْعرْت بِأنّكَ تُرِيدُ ٱلحديث عَنْهُ فيحْصُلُ للسّامِعِ تشوُّقٌ الى معْرفَتِهِ . فإذا ذكرْتهُ قبلتْهُ ٱلنفسُ قَبُولَ ٱلصدِيقِ صَديقهُ فيكُون ذلك ابْلغَ في ٱلتحْقيقِ ونَفْيِ ٱلشكِ وَٱلشُّبهة . ولٰهذا تقُولُ لِمَنْ تعدُهُ : انَا اعطيك . انَا اكْفيك . انَا اقُومُ بهٰذَا ٱلْامْر . وَذٰلك اذا كانَ منْ شَأْن مَن سبقَ لَهُ وعْدُ انْ يعْترِضَهُ ٱلشكُّ في وفائه . وَلِذلِكَ يُقَالُ فِي ٱلْمدْح : انْت تُعطي ٱلْجزِيلَ . انْت تَجُودُ حين لَا يَجُودُ احدٌ . وَمِنْ هَاهُنا تُعرفُ ٱلفخامَةُ فِي ٱلْجُملِ ٱلتِي فِيها ضَمِيرُ ٱلشأْن وَٱلقصةِ كَقوْلِهِ : فإنها لَا تعْمى ٱلابْصارُ ولٰكنْ تعْمَى ٱلقُلوبُ ٱلّتِي في ٱلصُّدُورِ . وَكقوْله : اِنّهُ لَا يُفلِحُ ٱلكَافِرُونَ . (وَانّهَا) فِيهَا مَا لَيْس فِي قَوْلِكَ : فَإنّ

ٱلْأَبصارَ لَا تَعمى وَإِنَّ ٱلْكافِرِينَ لَا يُفْلِحُونَ . وَهٰذَا ٱلْكلامْ فِي ٱلْخَبَرِ ٱلْمَنفِيِّ . فَاذَا قُلْتَ . أَنتَ لَا تُحْسِنُ هٰذَا . كَانَ أَبلغَ مِنْ أَنْ تقولَ : لَا تُحْسِنُ هٰذَا . فَٱلْأَوَّلُ لِمَنْ هُوَ أَشَدُّ إِعْجَابًا بِنَفْسِهِ وَأَكْثَرُ دعْوَى بِأَنَّهُ يُحْسِنُ . وَٱعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ تَقْدِيمُ ٱلِٱسْمِ كَٱللَّازِمِ وَهُوَ : (كَمِثْلِ) فِي نَحْوِ قَوْلِهِ :

يَاعَاذِلِي دَعْنِي مِنْ عَذْلِكْ مِثْلِي لَا يَقْبَلُ مِنْ مِثْلِكْ

وَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

مِثْلُكَ يَثْنِي ٱلْحُزْنَ عَنْ صَوْبِهِ وَيَسْتَرِدُّ ٱلدمْعَ عَنْ غَرْبِهِ

وكقَوْلِ ٱلنَّاسِ : مِثْلُكَ يَرْعَى ٱلْحَقَّ وَٱلْحُرْمَةَ . وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا لَا يقْصِدُ فِيهِ ٱلْإِنسانُ سوى ٱلَّذِي أُضِيفَ إِلَيْه وجِيءَ بِهِ لِلْمُبَالَغَةِ . وَٱلْمَعْنَى أَنَّ مَنْ كَانَ مِثْلَهُ فِي ٱلْحَالِ وَٱلصِّفَةِ كَانَ مِنْ مُقْتَضَى ٱلْقِياسِ أَنْ يفْعلَ مَا ذُكِرَ فَكَيْفَ بِهِ . وَقَدْ عَبَّرَ ٱلْمُتَنَبِّي عَنْ هٰذا ٱلْمَعْنَى فقَالَ :

وَلَمْ أَقُلْ مِثْلُكَ أَعْنِي بِهِ سِوَاكَ يَافَرْدًا بِلَا مُشْبِهِ

وكذٰلكَ حُكْمُ (غَيْرٍ) اذا سلِكَ فِيهِ هٰذَا ٱلْمَسْلَكُ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هٰذَا ٱلنَّاسِ يَنْخَدِعُ إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا اوْ حَدَّثُوا شَجُعُوا

أَيْ لَسْتُ مِمَّنْ يَنْخدِعُ وَيَغْتَرُّ . وَلَوْ لَمْ يُقَدِّمْ (مِثْلًا وغَيْرًا) فِي هٰذِهِ ٱلصُّوَرِ لَمْ يُرِدْ هٰذا ٱلْمَعْنَى

(أَمَّا مَوَاضِعُ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ) فَقَدْ يَحْسُنُ ٱلتَّقْدِيمُ فِي مَوَاضِعَ : (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ تَكُونَ ٱلْحَاجَةُ إِلَى ذِكْرِهِ أَشَدَّ كَقَوْلِكَ : قَطَعَ ٱللِّصَّ ٱلْأَمِيرُ . (ٱلثَّانِي) أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْيَقَ بِمَا قَبْلَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ أَوْ

بِمَا بعده كقوله: وتغشي وجوههم النار . فانه اشكل بما بعده . وهو قوله : إنّ الله سريع الحساب . وبما قبله وهو : مقرنين في الاصفاد . (الثالث) ان يكون اعرف او اشد تعلقا بما بعده كقولك : زيدٌ قام . وقام زيد . وزيدٌ الطويل . (الرابع) ان يكون من الحروف التي لها صدر الكلام كحروف الاستفهام والنفي فان الاستفهام طلب فهم الشيء وهو حالة اضافية فلا تستقل بالمفهومية فيشتد اتصاله بما بعده . (الخامس) تقديم الكلي على جزئياته . فان الشيء كلما كان اكثر عموما كان اعرف فان الوجود لما كان اعم الامور كان اعرفها عند العقل . (السادس) تقديم الدليل على المدلول

واما التأخير فيحسن في مواضع : (الاول) تمام الاسم كالصلة والمضاف اليه . (الثاني) توابع الاسماء . (الثالث) الفاعل . (الرابع) المضمر وهو ان كان متأخرا لفظا وتقديرا كقولك : ضرب زيدٌ غلامه . او مؤخرا في اللفظ مقدما في المعنى كقوله : وإذا ابتلى ابراهيم ربه . او بالعكس كقولك : ضرب غلامه زيدٌ . جاز . وان تقدم لفظا ومعنى لم يجز كقولك : ضرب غلامه زيدا . (الخامس) ما يفضي الى اللبس كقولك : ضرب موسى عيسى . واكرم هذا هذا . فيجب فيه تقديم الفاعل . (السادس) العامل الذي يضعف عمله كالصفة المشبهة والتمييز وما عمل فيه حرف او معنى كقولك : هو حسنٌ وجها . وكريمٌ ابا . وتصبب عرقا . وخمسة وعشرون درهما وإنّ

زَيدًا قَائِمٌ . وفي الدَّارِ سَعْدٌ جَالسٌ . ولَا يَجُوزُ الْفصلُ بَيْنَ الْعَامِلِ وَالْمَعْمولِ بِمَا ليس مِنْهُ فلا تقولُ : كَانَتْ زَيْدا الْحُمى تَأخذ . اذا رفَعْتَ الْحُمى بكَانَتْ للفصْلِ بَين الْعامِلِ ومَا عَمِل فِيه . فإنْ اضْمرْتَ الْحُمى فِي كَانتْ صحت المسْئلةُ

البحث التاسع

في الحذف والاضمار

(عن صناعة الترسل ايضا)

(راجع صفحة ٢٠ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَ الْافعال الْمتعدّيَة الَّتي يُترك ذكْرُ مفعُولاتها علَى قسمين : (اَلاوّلُ) اَنْ لا يكُونَ لَهُ مفْعُولٌ معينٌ فَقَدْ يُترَكُ مفعولهُ لفظا وتقْديرًا ويُجْعلُ حَالُهُ كحال غَيْر الْمتَعدّي كقوْلهمْ : فُلانٌ يَحُلُ ويَعقدُ ويأمُرُ وَيَنْهى ويَضرُّ وينفعُ . وَالْمقْصودُ اِثْبَاتُ الْمعْنى في نفْسه الشيْء منْ غَيْر تَعرّض لحَديث الْمفْعولِ فَكَانّك قُلْت : بِحَيْثُ يَكُونُ منهُ حَلٌّ وعَقْدٌ وامرٌ ونَهْيٌ وضرٌّ ونفْعٌ . وَبِالْجُمْلَةِ متى كَانَ الْغرضُ بيان حَالِ الْفاعلِ فقطْ فَلا تُعدّ الْفِعْل فإنْ تعْديَتهُ تَنقُّصُ الْغرَضِ . اَلَا ترى اَنّكَ اِذا قُلْتَ : فُلَانٌ يُعطي الدنانِير كَان الْمقْصودُ بيانَ جِنْس مَا تناوَلهُ اَلإِعطَاء لا بيَانُ حَال كونهِ مُعْطيا . (اَلثاني) انْ يَكُون لهُ مفْعولٌ معْلومٌ اِلَّا انهُ يُحْذفُ منَ اللفْظ لاغْرَاض : (اَلاولُ) اَنْ يكُونَ الْمُرادُ بيَانَ حَالِ الْفَاعِل وَاَن ذلِكَ الْفعْلَ دأْبُهُ لا بيانُ

اَلْمَفعولِ كَقَوْلِ طُفَيْلٍ :

جَزَى ٱللّٰهُ عَنَا جَعْفَرا حِينَ اَزْلَقت بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِـئِينَ فَزَلَّت
اَبَوْا اَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ اَنَّ اُمَّنَـا تلاقِي ٱلَّـذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ
هُمُ خَلَطُونَا بِٱلنُّفُوسِ وَاَلْجَأُوا الَى حُجُرَات اَدْفَاتْ وَاَظَلَّتِ

وَٱلْاَصْلُ اَنْ يَقُولَ : لَمَلَّتْنَا وَاَلْجَأُونَا وَاَدْفَاتْنَا وَاَظَلَّتْنَا فَحَذَفَ ٱلْمَفعُولَ ٱلْمُعَيَّنَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلْاَرْبَعَةِ وَكَاَنَّهُ قَدْ اُبْهِمَ وَلَمْ يُقْصَدْ قَصْدَ شَيْءٍ يَقَعُ عَلَيْهِ كَمَا تَقُولُ : قَدْ مَلَّ فُلانٌ . تُرِيدُ قَدْ دَخَلَ عَلَيْهِ ٱلْمَلَالُ مِنْ غَيْرِ اَنْ تَخُصَّ شَيْئًا بَلْ لَا تُرِيدُ عَلَى اَنْ تَجْعَـلَ ٱلْمَلَالَ مِنْ صِفَتِهِ . فَكَذٰلِكَ ٱلشَّاعِرُ جَعَلَ هٰذِهِ ٱلْاَوْصَافَ مِنْ ذَاتِهِمْ وَلَوْ اَضَافَ اِلَى مَفْعُولٍ مُعَيَّنٍ لَبَطَلَ هٰذَا ٱلْغَرَضُ. (اَلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ ٱلْمَقْصُودُ ذِكْرَهُ اِلَّا اَنَّكَ لَا تَذْكُرُهُ اِيهَامًا لِاَنَّكَ لَا تَقْصِدُ ذِكْرَهُ كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

شَجْوُ حُسَّـادِهِ وَغَيْظُ عِدَاهُ اَنْ يَرَى مُبْصِرٌ وَيَسْمَعَ وَاعِ

اَلْمَعْنَى اَنْ يَرَى مُبْصِرٌ مَحَاسِنَهُ وَاَنْ يَسْمَعَ وَاعٍ اَخْبَارَهُ . وَلٰكِنَّهُ تَغَافَلَ عَنْ ذٰلِـكَ اِيذَانًا بِاَنَّ فَضَائِلَهُ يَكْفِي فِيهَا اَنْ يَقَعَ عَلَيْهَا بَصَرٌ وَيَعِيهَا سَمْعٌ حَتَّى يُعْلَمَ اَنَّهُ ٱلْمُنْفَرِدُ بِٱلْفَضَائِـلِ فَلَيْسَ لِحُسَّادِهِ وَعِدَاهُ اَشْجَى مِنْ عِلْمِهِمْ بِاَنَّ هَا هُنَا مُبْصِرًا وَسَامِعًا . (اَلثَّالِثُ) اَنْ يُحْذَفَ لِـكَوْنِهِ بَيِّنًا كَقَوْلِهِمْ : اَصْغَيْتُ اِلَيْكَ . اَيْ اُذُنِي . وَاَغْضَيْتُ عَلَيْكَ . اَيْ جَفْنِي

(فَصْلٌ فِي حَذْفِ ٱلْمُبْتَدَإِ وَٱلْخَبَرِ) قَدْ يَحْسُنُ حَذْفُ ٱلْمُبْتَدَإِ حَيْثُ يَكُونُ ٱلْغَرَضُ اَنَّهُ قَدْ بَلَغَ فِي ٱسْتِحْقَاقِ ٱلْوَصْفِ بِمَا جُعِـلَ وَصْفًا لَهُ

إِلى حَيْثُ يُعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ ذٰلِكَ لَيْسَ إِلَّا لَهُ سَوَاءٌ كَانَ فِي نَفْسِهِ كَذٰلِكَ أَوْ بِحَسَبِ دَعْوَى ٱلشَّاعِرِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمُبَالَغَةِ فَذِكْرُهُ يُبْطِلُ هٰذَا ٱلْغَرَضَ. وَلِهٰذَا قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ: مَا مِنِ ٱسْمٍ يُحْذَفُ فِي ٱلْحَالَةِ يَنْبَغِي أَنْ يُحْذَفَ فِيهَا إِلَّا وَحَذْفُهُ أَحْسَنُ مِنْ ذِكْرِهِ فَمِنْ حَذْفِ ٱلْمُبْتَدَإِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ:

لَا يُبْعِدِ ٱللّٰهُ ٱلتَّلَبُّبَ وَٱلْغَارَاتِ إِذْ قَالَ ٱلْخَمِيسُ نَعَمْ

أَيْ هٰذِهِ نَعَمْ. قَالَ عَبْدُ ٱلْقَاهِرِ: وَمِنَ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يَطَّرِدُ فِيهَا حَذْفُ ٱلْمُبْتَدَإِ بِٱلْقَطْعِ وَٱلِٱسْتِئْنَافِ أَنَّهُمْ يَبْدَأُونَ بِذِكْرِ ٱلرَّجُلِ وَيُقَدِّمُونَ بَعْضَ أَمْرِهِ ثُمَّ يَدَعُونَ ٱلْكَلَامَ ٱلْأَوَّلَ فَيَسْتَأْنِفُونَ كَلَامًا آخَرَ إِذَا فَعَلُوا ذٰلِكَ أَتَوْا فِي أَكْثَرِ ٱلْأَمْرِ بِخَبَرٍ مِنْ غَيْرِ مُبْتَدَإٍ مِثَالُ ذٰلِكَ:

وَعَلِمْتُ أَنِّي يَوْمَ ذَا كَ مُنَازِلٌ كَعْبًا وَنَهْدَا

قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا ٱلْحَدِيدَ تَنَمَّرُوا حَلَقًا وَقَدَّا

وَقَوْلُ ٱلْحُطَيْئَةِ:

هُمُ حَلُّوا مِنَ ٱلشَّرَفِ ٱلْمُعَلَّى وَمِنْ حَسَبِ ٱلْعَشِيرَةِ حَيْثُ شَاءُوا

أُسَاةُ مَكَارِمٍ وَأُسَاةُ كَلْمٍ دِمَاؤُهُمُ مِنَ ٱلْكَلَبِ ٱلشِّفَاءُ

وَأَمْثِلَتُهُ كَثِيرَةٌ. وَمِنْ حَذْفِ ٱلْخَبَرِ قَوْلُهُ: لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ أَيْ لَوْلَا أَنْتُمْ مُضِلُّونَا. وَقَوْلُ عُمَرَ: لَوْلَا عَلِيٌّ لَهَلَكَ عُمَرُ. أَيْ لَوْلَا عَلِيٌّ حَاضِرٌ أَوْ مُفْتٍ. وَمِمَّا يَحْتَمِلُ ٱلْأَمْرَيْنِ قَوْلُهُ: طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ. وَقَوْلُهُ: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ

ٱلْإِضْمَارُ عَلَى شَرِيطَةِ ٱلتَّفْسِيرِ كَقَوْلِكَ: أَكْرَمَنِي وَأَكْرَمْتُ عَبْدَ ٱللّٰهِ أَيْ

اَكْرَمَنِي عَبْدُاللهِ وَاَكْرَمْتُ عَبْدَاللهِ. وَمِمَّا يُشْبِهُ ذٰلِكَ مَفْعُولُ الْمَشِيئَةِ اِذَا جَاءَتْ بَعْدَ (لو). فَاِنْ كَانَ مَفْعُولُهَا عَظِيماً اَوْ غَرِيباً فَالْاَوْلَى ذِكْرُهُ كَقَوْلِهِ:

وَلَوْ شِئْتُ اَنْ اَبْكِي دَماً لَبَكَيْتُهُ   عَلَيْهِ وَلٰكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ اَوْسَعُ

فَاِنَّ بُكَاءَ الْاِنْسَانِ دَماً عَجِيبٌ. وَاِنْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ فَالْاَوْلَى حَذْفُهُ كَقَوْلِهِ: وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى. وَالتَّقْدِيرُ: وَلَوْ شَاءَ اللهُ اَنْ يَجْمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى لَجَمَعَهُمْ. وَاعْلَمْ اَنَّهُ قَدْ تُتْرَكُ الْكِنَايَةُ اِلَى التَّصْرِيحِ لِمَا فِيهِ مِنْ زِيَادَةِ الْفَخَامَةِ كَقَوْلِ الْبُحْتُرِيِّ:

قَدْ طَلَبْنَا فَلَمْ نَجِدْ لَكَ فِي السُّؤْ   دُدِ وَالْمَجْدِ وَالْمَكَارِمِ مِثْلَا

اَلْمَعْنَى قَدْ طَلَبْنَا لَكَ مِثْلاً. ثُمَّ حُذِفَ لِاَنَّ هٰذَا الْمَدْحَ اِنَّمَا يَتِمُّ بِنَفْيِ الْمِثْلِ فَلَوْ قَالَ: قَدْ طَلَبْنَا لَكَ مِثْلاً فِي السُّؤْدُدِ وَالْمَجْدِ فَلَمْ نَجِدْ لَكَانَ قَدْ اَوْقَعَ نَفْيَ الْوُجُودِ عَلَى ضَمِيرِ (الْمِثْلِ) فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ مَا اِذَا اَوْقَعَهُ عَلَى صَرِيحِ الْمِثْلِ. فَاِنَّ الْكِنَايَةَ لَا تَبْلُغُ مَبْلَغَ الصَّرِيحِ. وَعَلَى ذٰلِكَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

لَا اَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْءٌ   نَغَّصَ الْمَوْتُ ذَا الْغِنَى وَالْفَقِيرَا

البحث العاشر

في جوامع الكلم

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

اِنَّ الْكَلِمَ جَمْعُ كَلِمَةٍ. وَالْجَوَامِعُ جَمْعُ جَامِعَةٍ. وَالْجَامِعَةُ اسْمُ فَاعِلَةٍ مِنْ جَمَعَتْ فَهِيَ جَامِعَةٌ. كَمَا يُقَالُ فِي الْمُذَكَّرِ جَمَعَ فَهُوَ جَامِعٌ

وَٱلْمُرَادُ بِجَوَامِعِ ٱلْكَلِمِ ٱلْكَلِمُ ٱلْجَوَامِعُ لِلْمَعَانِي. وَهُوَ عِنْدِي يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: (ٱلْقِسْمُ ٱلْاَوَّلُ) مِنْهُمَا هُوَ مَا ٱسْتَخْرَجْتُهُ وَنَبَّهْتُ عَلَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ لِاَحَدٍ فِيهِ قَوْلٌ سَابِقٌ وَهُوَ اَنَّ لَنَا اَلْفَاظًا تَتَضَمَّنُ مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا لَا تَتَضَمَّنُهُ اَخَوَاتُهَا مِمَّا يَجُوزُ اَنْ يُسْتَعْمَلَ فِي مَكَانِهَا. فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْمَجَازِ. وَمِنْهُ مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْحَقِيقَةِ. وَقَدْ وَرَدَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فِي اَقْوَالِ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُفْلِقِينَ. وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ ٱلْاَشْعَارَ قَدِيمَهَا وَحَدِيثَهَا وَحَفِظْتُ مَا حَفِظْتُ مِنْهَا وَكُنْتُ اِذَا مَرَرْتُ بِنَظَرِي فِي دِيوَانٍ مِنَ ٱلدَّوَاوِينِ وَيَلُوحُ لِي فِيهِ مِثْلُ هٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظِ اَجِدُ لَهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ وَطَرَبًا كَطَرَبِ ٱلْاَلْحَانِ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاظِمِينَ وَٱلنَّاثِرِينَ يَمُرُّ عَلَى ذٰلِكَ وَلَا يَتَفَطَّنُ لَهُ سِوَى اَنَّهُ يَسْتَحْسِنُهُ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِيمَا نَظَرْتُ اَنَا فِيهِ وَيَظُنُّهُ كَغَيْرِهِ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ.

فَمِمَّا جَاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ:

كَمْ صَارِمٍ عَضْبٍ اَنَافَ عَلَى قَفًا ... مِنْهُمْ لِاَعْبَاءِ ٱلْوَغَى حَمَّالِ

سَبَقَ ٱلْمَشِيبَ اِلَيْهِ حَتَّى ٱبْتَزَّهُ ... وَطَنَ ٱلنُّهَى مِنْ مَفْرِقٍ وَقَذَالِ

فَقَوْلُهُ: (وَطَنُ ٱلنُّهَى) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَامِعَةِ وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأْسِ وَلَا يُجَاءُ بِمِثْلِهَا فِي مَعْنَاهَا مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّهَا. وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ:

قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى اَفْكَارِهِ وَيَدٌ ... تُمْضِي ٱلْاُمُورَ وَنَفْسٌ لَهْوُهَا ٱلتَّعَبُ

فَقَوْلُهُ: (قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى اَفْكَارِهِ) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَوَامِعِ. وَمُرَادُهُ بِذٰلِكَ اَنَّ قَلْبَهُ لَا تَمْلَؤُهُ ٱلْاَفْكَارُ وَلَا تُحِيطُ بِهِ وَاِنَّمَا هُوَ عَالٍ

عَلَيْهَا يَصِفُ بِذَلِكَ عَدَمَ ٱحْتِفَالِهِ بِٱلْفَوَادِحِ وَقِلَّةَ مُبَالَاتِهِ بِٱلْخُطُوبِ ٱلَّتِي تُحْدِثُ افْكَارًا تَسْتَغْرِقُ ٱلْقُلُوبَ وَهٰذِهِ عِبَارَةٌ عَجِيبَةٌ لَا يُؤْتَى بِمِثْلِهَا مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّهَا. (وَامَّا) مَا يَأْتِي عَلَى حُكْمِ ٱلْحَقِيقَةِ فَكَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ :

سَقَى ٱللّٰهُ اوْطَارًا لَنَا وَمَآرِبًا　　تَقَطَّعَ مِنْ اقْرَانِهَا مَا تَقَطَّعَا

لَيَالَ تُنَسِّينِي ٱللَّيَالِي حِسَابَهَا　　بُلَهْنِيَةٌ اقْضِي بِهَا ٱلْحَوْلَ اجْمَعَا

سِوَى عِزَّةٍ لَا اعْرِفُ ٱلْيَوْمَ بِٱسْمِهِ　　وَاعْمَلُ فِيهِ ٱللَّهْوَ مَرْأًى وَمَسْمَعَا

فَقَوْلُهُ : (لَا اعْرِفُ ٱلْيَوْمَ بِٱسْمِهِ) مِنَ ٱلْكَلِمَاتِ ٱلْجَامِعَةِ اَيْ اِنِّي قَدْ شُغِلْتُ بِٱللَّذَّاتِ عَنْ مَعْرِفَةِ ٱللَّيَالِي وَٱلْاَيَّامِ وَلَوْ وَصَفَ ٱشْتِغَالَهُ بِٱللَّذَّاتِ مَهْمَا وَصَفَ لَمْ يَأْتِ بِمِثْلِ قَوْلِهِ: (لَا اعْرِفُ ٱلْيَوْمَ بِٱسْمِهِ). (وَامَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) مِنْ جَوَامِعِ ٱلْكَلِمِ فَٱلْمُرَادُ بِهِ ٱلْاِيجَازُ ٱلَّذِي يُدَلُّ بِهِ بِٱلْاَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ اَيْ تَكُونُ ٱلْاَلْفَاظُ جَامِعَةَ ٱلْمَعَانِي ٱلْمَقْصُودَةِ عَلَى اِيجَازِهَا وَٱخْتِصَارِهَا . وَسَيَأْتِي فِي بَابِ ٱلْاِيجَازِ مِنْهُ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ وَمَقْنَعٌ . (فَاِنْ قِيلَ) : فَمَا ٱلْفَرْقُ بَيْنَ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ ٱللَّذَيْنِ ذَكَرْتَهُمَا فَاِنَّهُمَا بِٱلنَّظَرِ سَوَاءٌ . (قُلْتُ فِي ٱلْجَوَابِ) : اِنَّ ٱلْاِيجَازَ هُوَ انْ يُؤْتَى بِأَلْفَاظٍ دَالَّةٍ عَلَى مَعْنًى مِنْ غَيْرِ انْ تَزِيدَ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى وَلَا يُشْتَرَطُ فِي تِلْكَ ٱلْاَلْفَاظِ انَّهَا لَا نَظِيرَ لَهَا فَاِنَّهَا تَكُونُ قَدِ ٱتَّصَفَتْ بِوَصْفٍ آخَرَ خَارِجٍ عَنْ وَصْفِ ٱلْاِيجَازِ . وَحِينَئِذٍ يَكُونُ اِيجَازًا اوْ زِيَادَةً . وَامَّا هٰذَا ٱلْقِسْمُ ٱلْآخَرُ فَاِنَّهُ ٱلْفَاظٌ افْرَادٌ فِي حُسْنِهَا لَا نَظِيرَ لَهَا . فَتَارَةً تَكُونُ مُوجَزَةً وَتَارَةً لَا تَكُونُ

مُوجَزَةً . وَلَيسَ ٱلغَرَضُ مِنهَا ٱلايجَازَ وَإِنَّمَا ٱلغَرَضُ مَكَانُهَا مِنَ ٱلحُسْنِ ٱلَّذِي لَا نَظِيرَ لَهَا فِيهِ . أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ : (وَطَنَ ٱلنُّهَى) فَإِنَّ ذٰلِكَ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلرَّأسِ وَلَاشَكَّ أَنَّ ٱلرَّأسَ أَوجَزُ لِأَنَّ ٱلرَّأسَ لَفظَةٌ وَاحِدَةٌ .وَوَطَنَ ٱلنُّهَى لَفظَتَانِ . إِلَّا إِنَّ(وَطَنَ ٱلنُّهَى) أَحسَنُ فِي ٱلتَّعبِيرِ عَنِ ٱلرَّأسِ . فَبَانَ بِهٰذَا أَنَّ أَحَدَ هٰذَينِ ٱلقِسمَينِ غَيرُ ٱلآخَرِ

البحث الحادي عشر

في الانسجام

(عن شرح بديعية العميان لابن جابر وبديعية الحموي)

(راجع صفحة ٢١ من علم الادب)

اَلإِنسِجَامُ لُغَةً جَرَيَانُ ٱلمَاءِ وَعِندَ أَهلِ ٱلبَلَاغَةِ هُوَ أَنْ يَأْتِيَ ٱلنَّاظِمُ أَوِ ٱلنَّاثِرُ بِكَلَامٍ خَالٍ مِنَ ٱلتَّعقِيدِ ٱللَّفظِيِّ وَٱلمَعنَوِيِّ بَسِيطًا مَفهُومًا دَقِيقَ ٱلأَلفَاظِ جَلِيلَ ٱلمَعنَى لَا تَكَلُّفَ فِيهِ وَلَا تَعَسُّفَ يَتَحَدَّرُ كَتَحَدُّرِ ٱلمَاءِ ٱلمُنسَجِمِ فَيَكَادُ لِسُهُولَةِ تَركِيبِهِ وَعُذُوبَةِ أَلفَاظِهِ أَن يَسِيلَ رِقَّةً . وَلَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِلَّا فِي مَنْ هُوَ مَطبُوعٌ عَلَى سَلَامَةِ ٱلذَّوقِ وَتَوَقُّدِ ٱلفِكرَةِ وَبَرَاعَةِ ٱلإِنشَاءِ وَحُسنِ ٱلأَسَالِيبِ . فَإِن كَانَ مَصنُوعًا فَلَا بُدَّ أَن يَقَعَ فِيهِ غَالبًا مَا يُظهِرُ صِنَاعَتَهُ مَعَ مُقَابَلَتِهِ بِغَيرِهِ مِنْ نَفسِ صَانِعِهِ . وَإِنَّ فُحُولَ هٰذَا ٱلمَيدَانِ مَا أَثقَلُوا كَاهِلَ سُهُولَتِهِ بِنَوعٍ مِنْ أَنوَاعِ ٱلبَدِيعِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ عَفوًا مِنْ غَيرِ قَصدٍ . وَعَلَى هٰذَا أَجمَعَ عُلَمَاءُ ٱلبَدِيعِ فِي حَدِّ هٰذَا ٱلنَّوعِ فَإِنَّهُم قَرَّرُوا : أَنْ يَكُونَ بَعِيدًا فِي ٱلتَّصَنُّعِ خَالِيًا مِنَ ٱلأَنوَاعِ ٱلبَدِيعِيَّةِ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ

فِي ضِمْنِ ٱلسُّهُولَةِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ. وَإِنْ كَانَ ٱلِٱنْسِجَامُ فِي ٱلنَّثْرِ تَكُونُ غَالِبُ فَقَرَاتِهِ مَوْزُونَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِقُوَّةِ ٱنْسِجَامِهِ. وَإِنْ كَانَ فِي ٱلنَّظْمِ فَتَكَادُ ٱلْأَبْيَاتُ أَنْ تَسِيلَ رِقَّةً وَعُذُوبَةً. وَرُبَّمَا دَخَلَتْ فِي ٱلْمُطْرِبِ وَٱلْمُرْقِصِ

البحث الثاني عشر

في القول في النظم

(عن صناعة الترسل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٤ من علم الادب)

اَلنَّظْمُ عِبَارَةٌ عَنْ تَوَاخِي مَعَانِي ٱلنَّحْوِ فِيمَا بَيْنَ ٱلْكَلَامِ. وَذٰلِكَ أَنْ تَضَعَ كَلَامَكَ ٱلْوَضْعَ ٱلَّذِي يَقْتَضِيهِ عِلْمُ ٱلنَّحْوِ بِأَنْ تَنْظُرَ فِي كُلِّ بَابٍ إِلَى قَوَانِينِهِ وَٱلْفُرُوقِ ٱلَّتِي بَيْنَ مَعَانِي ٱخْتِلَافِ صِيَغِهِ وَتَضَعَ ٱلْحُرُوفَ مَوَاضِعَهَا وَتُرَاعِيَ شَرَائِطَ ٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ وَمَوَاضِعَ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ وَمَوَاضِعَ حُرُوفِ ٱلْعَطْفِ عَلَى ٱخْتِلَافِ مَعَانِيهَا وَتَعْتَبِرَ ٱلْإِصَابَةَ فِي طَرِيقِ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلتَّمْثِيلِ. وَقَدْ أَطْبَقَ ٱلْعُلَمَاءُ عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِ ٱلنَّظْمِ وَأَنْ لَا فَضْلَ مَعَ عَدَمِهِ وَلَوْ بَلَغَ ٱلْكَلَامُ فِي غَرَابَةِ مَعْنَاهُ إِلَى مَا بَلَغَ. وَإِنَّ سَبَبَ فَسَادِهِ تَرْكُ ٱلْعَمَلِ بِقَرَائِنِ ٱلنَّحْوِ وَٱسْتِعْمَالُ شَيْءٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ. ثُمَّ ٱلْجُمَلُ ٱلْكَثِيرَةُ إِذَا نُظِمَتْ نَظْمًا وَاحِدًا فَهِيَ عَلَى قِسْمَيْنِ: (ٱلْأَوَّلُ) أَنْ يَتَعَلَّقَ ٱلْبَعْضُ بِٱلْبَعْضِ فَلَا يَحْتَاجُ وَاضِعُهُ إِلَى فِكْرٍ وَرَوِيَّةٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ بَلْ هُوَ كَمَنْ عَمَدَ إِلَى ٱللَّآلِئِ

يَنظِمُها في سلكٍ . ومثالُهُ قولُ الجاحظِ : جَنَّبَكَ اللهُ الشُّبهَةَ وعَصَمَكَ مِنَ الحَيرَةِ وجعلَ بينَكَ وبينَ المعروفِ نسبا وبينَكَ وبينَ الصِّدقِ سَبَبًا . وكقولِ النابغةِ للنُّعمانِ : يُفاخِرُكَ ابنُ ابي جفنةٍ وانَّ لقفاكَ خيرٌ مِن وجهِهِ ولَشِمالُكَ خيرٌ من يمينِهِ ولأخمصُكَ خيرٌ من رأسِهِ ولَخطاؤُكَ خيرٌ مِن صوابِهِ ولخدَمُكَ خيرٌ مِن قومِهِ . وهذا النَّظمُ لا يستحقُّ الفضلَ إلَّا بسلامةِ معناهُ وسلامةِ الفاظِهِ اذ ليس فيهِ معنى دقيقٌ لا يُدرَكُ إلَّا بثاقبِ الفكرِ . وربَّما ظنَّ بالكلامِ انَّهُ مِن هذا الجنسِ ولا يكونُ منهُ . (الثاني) ان تكونَ الجُمَلُ المذكورةُ يتعلَّقُ بعضُها ببعضٍ وهناكَ تظهرُ قوَّةُ الطبعِ وجودةُ القريحةِ واستقامةُ الذهنِ . ثمَّ ليس لهذا البابِ قانونٌ يُحفَظُ فانَّما يجيءُ على وجوهٍ شتَّى :

(فمنها الايجازُ) وهو التعبيرُ عنِ الغرَضِ باقلِّ ما يُمكِنُ مِنَ الحروفِ وهو على ضربينِ : (احدُهما) إيجازُ قصرٍ وهو تقليلُ اللفظِ وتكثيرُ المعنى . (والثاني) إيجازُ حذفٍ وهو الاستغناءُ بالمذكورِ عمَّا لم يُذكَرْ . (ومنها التأكيدُ) وهو تقويةُ المعنى وتقريرُهُ امَّا بإظهارِ البرهانِ كقولِ قابوسَ :

يا ذا الَّذي بصروفِ الدهرِ عيَّرنا ... هل عانَدَ الدهرُ الَّا مَن لهُ خطَرُ
اما ترى البحرَ يعلو فوقَهُ جِيَفٌ ... وتستقرُّ باقصى قعرِهِ الدُّرَرُ
وفي السَّماءِ نجومٌ غيرُ ذي عددٍ ... وليس يُكسَفُ الَّا الشمسُ والقمرُ

(او بالعزيمةِ) كقولِهِ : فوربِّ السَّماءِ والأرضِ انَّهُ لحقٌّ .

(او بالتَّكرارِ) كقولِهم : اللهَ اللهَ والأسدَ الأسدَ

الفصل الرابع

في البيان

البحث الاوّل

في تحديد البيان على وجه الاجمال

(من كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغرر الخصائص للوطواط بتصرّف)

(راجع صفحة ٢٧و٢٨من علم الادب)

اَلْبَيَانُ اَسْمٌ لِكُلِّ شَيْءٍ كَشَفَ لَكَ عَلَى بَيَانِ ٱلْمَعْنَى وَهَتَكَ لكَ ٱلْحُجُبَ دُونَ ٱلضَّمِيرِ حَتَّى يُفْضِيَ ٱلسَّامِعُ اِلَى حَقِيقَتِهِ وَيَهْجُمَ عَلَى مَحْصُولِهِ كَائِنًا مَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلْبَيَانُ وَمِنْ اَيِّ جِنْسٍ كَانَ ذٰلِكَ ٱلدَّلِيلُ. لِاَنَّ مَدَارَ ٱلْاَمْرِ وَٱلْغَايَةَ ٱلَّتِي يَجْرِي اِلَيْهَا ٱلْقَائِلُ وَٱلسَّامِعُ اِنَّمَا هُوَ ٱلْفَهْمُ وَٱلْاِفْهَامُ فَبِاَيِّ شَيْءٍ بَلَغْتَ ٱلْاِفْهَامَ وَاَوْضَحْتَ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَذٰلِكَ هُوَ ٱلْبَيَانُ فِي ذٰلِكَ ٱلْمَوْضِعِ. وَقِيلَ لِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى ٱلْبَرْمَكِيِّ: مَا ٱلْبَيَانُ. قَالَ: اَنْ يَكُونَ ٱلْاَسْمُ يُحِيطُ بِمَعْنَاكَ وَيَكْشِفُ عَنْ مَغْزَاكَ وَيُخْرِجُهُ مِنَ ٱلشِّرْكَةِ وَلَا يُسْتَعَانُ عَلَيْهِ بِٱلْفِكْرَةِ وَيَكُونَ سَلِيمًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ بَعِيدًا مِنَ ٱلصَّنْعَةِ بَرِيئًا مِنَ ٱلتَّعْقِيدِ غَنِيًّا عَنِ ٱلتَّأْوِيلِ. وَقَالُوا: ٱلْبَيَانُ بَصَرٌ وَٱلْعِيُّ عَمًى كَمَا اَنَّ ٱلْعِلْمَ بَصَرٌ وَٱلْجَهْلَ عَمًى وَٱلْبَيَانُ مِنْ نَتَائِجِ ٱلْعِلْمِ وَٱلْعِيُّ مِنْ نَتَائِجِ ٱلْجَهْلِ. وَقَالُوا: حَيَاةُ ٱلْمُرُوءَةِ ٱلصِّدْقُ وَحَيَاةُ ٱلرُّوحِ ٱلْعَفَافُ وَحَيَاةُ ٱلْحِلْمِ ٱلْعِلْمُ وَحَيَاةُ ٱلْعِلْمِ

ٱلْبَيَانُ . وَقَالَ ٱبْنُ ٱلتَّوْأَمِ : ٱلرُّوحُ عِمَادُ ٱلْبَدَنِ وَٱلْعِلْمُ عِمَادُ ٱلرُّوحِ وَٱلْبَيَانُ عِمَادُ ٱلْعِلْمِ . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى حَدِّ ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَنَقَّصُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . (وَفِي كُتُبِ ٱلْحُكَمَاءِ) : ٱلْبَيَانُ هُوَ أَنْ يُحْسِنَ ٱلْعِبَارَةَ عَنِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي تَهْجِسُ فِي ٱلضَّمِيرِ فَيُحْتَاجُ إِلَى نَقْلِ صُوَرِهَا ٱلْمُخَيَّلَةِ أَوِ ٱلْمَعْقُولَةِ إِلَى ضَمِيرِ مَنْ يُخَاطِبُهُ . وَقَالَ آخَرُ : خَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقُّنُهُ وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللِّسَانِ تَعَاهُدُهُ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱلْقُلُوبِ وَصَيْقَلُ ٱلْعُقُولِ . وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هَارُونَ : ٱلْبَيَانُ تَرْجُمَانُ ٱللِّسَانِ وَرَوْضُ ٱلْقُلُوبِ

البحث الثاني

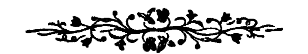
في تعريف علم البيان

(عن الكشّاف للتهانوي وكشف الظنون للحاجّ خلفا)

(راجع صفحة ٢٧ من علم الادب)

ٱلْبَيَانُ لُغَةً ٱلْكَشْفُ وَٱلتَّوْضِيحُ وَٱلظُّهُورُ وَهُوَ فِي ٱلِٱصْطِلَاحِ عِبَارَةٌ عَنِ ٱلْمَنْطِقِ ٱلْفَصِيحِ ٱلْمُعْرِبِ عَمَّا فِي ٱلضَّمِيرِ . وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى ٱلْإِثْبَاتِ بِٱلدَّلِيلِ . وَقِيلَ : ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْبَيَانِ وَٱلتِّبْيَانِ بِأَنَّ ٱلْبَيَانَ هُوَ إِظْهَارُ ٱلْمُرَادِ . وَٱلتِّبْيَانَ يَحْتَوِي عَلَى كَدِّ ٱلْخَاطِرِ وَإِعْمَالِ ٱلْقَلْبِ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ مَا قِيلَ : ٱلتِّبْيَانُ بَيَانٌ مَعَ دَلِيلٍ وَبُرْهَانٍ .

وَٱلْبَيَانُ عِنْدَ ٱلْبُلَغَاءِ : هُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ إِيرَادُ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدِ بِتَرَاكِيبَ مُخْتَلِفَةٍ فِي وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ بِأَنْ يَكُونَ دَلَالَةُ بَعْضِهَا أَجْلَى مِنْ بَعْضٍ . وَمَوْضُوعُهُ ٱللَّفْظُ ٱلْبَلِيغُ مِنْ حَيْثُ وُضُوحِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَغَرَضُهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلْإِفَادَةِ بِالدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَفَهْمِ مَدْلُولَاتِهَا . وَغَايَتُهُ ٱلْاِحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَإِ فِي تَعْيِينِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ . وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا عَقْلِيَّةٌ كَأَقْسَامِ ٱلدَّلَالَةِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلْعِلَاقَاتِ . وَبَعْضُهَا وِجْدَانِيَّةٌ ذَوْقِيَّةٌ كَوُجُوهِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَأَقْسَامِ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ وَكَيْفِيَّةِ حُسْنِهَا . وَإِنَّمَا ٱخْتَارُوا فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وُضُوحَ ٱلدَّلَالَةِ لِأَنَّ بَحْثَهُمْ لَمَّا ٱقْتَصَرَ عَلَى ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ أَعْنِي ٱلتَّضَمُّنِيَّةَ وَٱلْاِلْتِزَامِيَّةَ وَكَانَتْ تِلْكَ ٱلدَّلَالَةُ خَفِيَّةً سِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱللُّزُومُ بِحَسَبِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلطَّبَائِعِ فَوَجَبَ ٱلتَّعْبِيرُ عَنْهَا بِلَفْظٍ أَوْضَحَ . مَثَلًا : إِذَا كَانَ ٱلْمَرْئِيُّ دَقِيقًا فِي ٱلْغَايَةِ تَحْتَاجُ ٱلْحَاسَّةُ فِي إِبْصَارِهَا إِلَى شُعَاعٍ قَوِيٍّ بِخِلَافِ ٱلْمَرْئِيِّ إِذَا كَانَ جَلِيلًا . وَكَذَا ٱلْحَالُ فِي ٱلرُّؤْيَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ أَعْنِي ٱلْفَهْمَ وَٱلْإِدْرَاكَ . وَٱلْحَاصِلُ أَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ دِقَّةُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِيهَا مِنَ ٱلْاِسْتِعَارَاتِ وَٱلْكِنَايَاتِ مَعَ وُضُوحِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلدَّالَّةِ عَلَيْهَا



البحث الثالث

في الحقيقة والمجاز

(من المثل السائر لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هٰذَا ٱلْفَصْلُ مُهِمٌّ كَبِيرٌ مِنْ مُهِمَّاتِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ لَا بَلْ هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ بِأَجْمَعِهِ. فَإِنَّ فِي تَصْرِيفِ ٱلْعِبَارَاتِ عَلَى ٱلْأُسْلُوبِ ٱلْمَجَازِيِّ فَوَائِدَ كَثِيرَةً. وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ عَلَى جُمْلَتِهَا دُونَ تَفْصِيلِهَا. فَأَمَّا ٱلْحَقِيقَةُ فَهِيَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى مَوْضُوعِهِ ٱلْأَصْلِيِّ. وَأَمَّا ٱلْمَجَازُ فَهُوَ مَا أُرِيدَ بِهِ غَيْرُ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ مِنْ أَصْلِ ٱللُّغَةِ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ جَازَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ إِذَا تَخَطَّاهُ إِلَيْهِ. فَٱلْمَجَازُ إِذًا ٱسْمٌ لِلْمَكَانِ ٱلَّذِي يُجَازُ فِيهِ كَٱلْمَعَاجِ وَٱلْمَزَارِ وَأَشْبَاهِهِمَا. وَحَقِيقَتُهُ هِيَ ٱلِٱنْتِقَالُ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ. فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ ٱلْأَلْفَاظِ مِنْ مَحَلٍّ إِلَى مَحَلٍّ كَقَوْلِنَا: زَيْدٌ أَسَدٌ. فَإِنَّ زَيْدًا إِنْسَانٌ وَٱلْأَسَدَ هُوَ هٰذَا ٱلْحَيَوَانُ ٱلْمَعْرُوفُ. وَقَدْ جُزْنَا مِنَ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى ٱلْأَسَدِيَّةِ. أَيْ عَبَرْنَا مِنْ هٰذِهِ إِلَى هٰذِهِ لِوُصْلَةٍ بَيْنَهُمَا وَتِلْكَ ٱلْوُصْلَةُ هِيَ صِفَةُ ٱلشَّجَاعَةِ. وَقَدْ يَكُونُ ٱلْعُبُورُ لِغَيْرِ وُصْلَةٍ. وَذٰلِكَ هُوَ ٱلِٱتِّسَاعُ كَقَوْلِهِمْ فِي كِتَابِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ: قَالَ ٱلْأَسَدُ. قَالَ ٱلثَّعْلَبُ. فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ لَا وُصْلَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ هٰذَيْنِ بِحَالٍ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ. وَإِنَّمَا أُجْرِيَ عَلَيْهِمَا ٱتِّسَاعًا مَحْضًا لَا غَيْرُ . . . . وَقَدْ ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ كُلَّهُ حَقِيقَةٌ لَا مَجَازَ فِيهِ. وَذَهَبَ آخَرُونَ: إِلَى أَنَّهُ كُلَّهُ مَجَازٌ لَا حَقِيقَةَ فِيهِ. وَكِلَا هٰذَيْنِ

ٱلْمَذْهَبَيْنِ فَاسِدٌ عِنْدِي . وَسَأُجِيبُ ٱلْخَصْمَ عَمَّا ٱدَّعَاهُ فِيهِمَا فَأَقُولُ : مَحَلُّ ٱلنِّزَاعِ هُوَ إِنَّ ٱللُّغَةَ كُلَّهَا حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّهَا كُلَّهَا مَجَازٌ . وَلَا فَرْقَ عِنْدِي بَيْنَ قَوْلِكَ إِنَّهَا كُلَّهَا حَقِيقَةٌ أَوْ إِنَّهَا مَجَازٌ . فَإِنَّ كِلَا ٱلطَّرَفَيْنِ عِنْدِي سَوَاءٌ . لِأَنَّ مُنْكِرَهُمَا غَيْرُ مُسَلِّمٍ لَهُمَا . وَأَنَا بِصَدَدِ أَنْ أُبَيِّنَ أَنَّ فِي ٱللُّغَةِ حَقِيقَةً وَمَجَازًا . وَٱلْحَقِيقَةُ ٱللُّغَوِيَّةُ هِيَ حَقِيقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي وَلَيْسَتْ بِٱلْحَقِيقَةِ ٱلَّتِي هِيَ ذَاتُ ٱلشَّيْءِ أَيْ نَفْسُهُ وَعَيْنُهُ . فَٱلْحَقِيقَةُ ٱللَّفْظِيَّةُ إِذًا هِيَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي أَصْلِ ٱللُّغَةِ . وَٱلْمَجَازُ هُوَ نَقْلُ ٱلْمَعْنَى عَنِ ٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ إِلَى لَفْظٍ آخَرَ غَيْرِهِ . وَتَقْرِيرُ ذَٰلِكَ بِأَنْ أَقُولَ : ٱلْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَفْتَقِرُ إِلَى أَسْمَاءٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَيْهَا لِيُعْرَفَ كُلٌّ مِنْهَا بِٱسْمِهِ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّفَاهُمِ بَيْنَ ٱلنَّاسِ . وَهٰذَا يَقَعُ ضَرُورَةً لَا بُدَّ مِنْهَا . فَٱلِٱسْمُ ٱلْمَوْضُوعُ بِإِزَاءِ ٱلْمُسَمَّى هُوَ حَقِيقَةٌ لَهُ فَإِذَا نُقِلَ إِلَى غَيْرِهِ صَارَ مَجَازًا . وَمِثَالُ ذَٰلِكَ أَنَّا إِذَا قُلْنَا : شَمْسٌ . أَرَدْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْكَوْكَبَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْكَثِيرَ ٱلضَّوْءِ . وَهٰذَا ٱلِٱسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهِ . وَكَذَٰلِكَ إِذَا قُلْنَا : بَحْرٌ . أَرَدْنَا بِهِ هٰذَا ٱلْمَاءَ ٱلْعَظِيمَ ٱلْمُجْتَمِعَ ٱلَّذِي طَعْمُهُ مِلْحٌ . وَهٰذَا ٱلِٱسْمُ لَهُ حَقِيقَةٌ لِأَنَّهُ وُضِعَ بِإِزَائِهِ . فَإِذَا نَقَلْنَا ٱلشَّمْسَ إِلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمَلِيحِ ٱسْتِعَارَةً كَانَ لَهُ ذَٰلِكَ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . وَكَذَٰلِكَ إِذَا نَقَلْنَا ٱلْبَحْرَ إِلَى ٱلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ ٱسْتِعَارَةً كَانَ ذَٰلِكَ لَهُ مَجَازًا لَا حَقِيقَةً . (فَإِنْ قِيلَ) : إِنَّ ٱلْوَجْهَ ٱلْمَلِيحَ يُقَالُ لَهُ شَمْسٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . وَكَذَٰلِكَ يُقَالُ لِلرَّجُلِ ٱلْجَوَادِ بَحْرٌ وَهُوَ حَقِيقَةٌ فِيهِ . (فَٱلْجَوَابُ) عَنْ ذَٰلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ : (أَحَدُهُمَا)

نَظَرِيٌّ وَٱلآخرُ وَضعِيٌّ . (اما ٱلنظَرِيُّ) فَهوَ انَّ ٱلأَلفَاظَ اِنَّمَا جُعِلَتْ
اَدِلَّةَ عَلَى اِفهَامِ ٱلمعَانِي وَلَوْ كَانَ مَا ذَهَبْتَ اِلَيهِ صَحِيحًا لَكَانَ
ٱلبحرُ يُطلَقُ عَلَى هٰذَا ٱلمَاءِ ٱلعَظِيمِ ٱلملحِ وعَلَى ٱلرَّجلِ ٱلجَوادِ بِٱلاشتِرَاكِ .
وكذلكَ ٱلشَّمسُ ايضًا فَانَّهَا كَانَتْ تُطلَقُ عَلَى هٰذَا ٱلكَوكَبِ ٱلعظِيمِ
ٱلكَثِيرِ ٱلضوءِ وعَلَى هٰذَا ٱلوَجهِ ٱلمَلِيحِ بِٱلاشتِرَاكِ . وَحِينَئذ فَاِذا وَرَد
احَدُ هٰذَينِ ٱللفظَينِ مُطلَقًا بغَيرِ قَرِينَةٍ تُخَصِّصُهُ فَلَا يُفهَمُ ٱلمرَادُ بِهِ مَا
هُوَ مِنْ احد ٱلمعنَيَينِ ٱلمُشتَرَكَينِ ٱلمندَرِجَينِ تَحتَهُ وَنَحنُ نرى ٱلاَمرَ
بِخِلَافِ ذلِكَ فَاِنَّا اِذَا قُلنَا : شَمسٌ اَو بَحرٌ . وَاَطلَقنَا ٱلقَولَ لا يُفهَمُ
مِنْ ذٰلك وَجهٌ مليحٌ وَلا رجلٌ جوادٌ . وَاِنما يُفهمُ مِنهُ ذٰلكَ ٱلكَوكَبُ
ٱلمعلُومُ وَذٰلك ٱلمَاءُ ٱلمعلُومُ لا غيرُ فبطَلَ اِذَا مَا ذَهَبتَ اِلَيهِ بِمَا بيناهُ
واوضحنَاهُ . (فَاِنْ قُلتَ) : اِنَّ ٱلعُرفَ يُخَالفُ مَا ذَهَبتَ اِلَيهِ فَاِنَّ منَ
ٱلاَلفاظِ مَا اذَا اُطلِقَ لَمْ يَذهَبِ ٱلفَهمُ مِنهُ اِلَّا اِلَى ٱلمجَازِ دونَ
ٱلحَقِيقَةِ . (قُلتُ فِي ٱلجوَابِ) : هٰذَا شَيءٌ ذَهَبَ اِلَيهِ بَعضُهُمْ وَلَيسَ
ٱلاَمرُ كَمَا ذهَبُوا اِلَيهِ . لِاَنَّهُ ان كانَ اِطلَاقُ ٱللفظِ فِيهِ بَينَ عَامةِ
ٱلنَّاسِ فَهؤُلاءِ لَا يَفهَمُونَ اِلَّا ٱلمَعنَى ٱلمجَازِيَّ . لِاَنَّهُمْ لَمْ يَعلَمُوا اَصلَ
وَضعِ ٱلكَلِمَةِ . وَاَمَّا خَاصَّةُ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ يَعلَمُونَ اَصلَ ٱلوَضعِ
فَاِنَّهُمْ لَا يَفهَمُونَ عِندَ اِطلَاقِ ٱللَفظِ اِلَّا ٱلحَقِيقَةَ لَا غيرُ . . . (وَاَمَّا
ٱلوَجهُ ٱلوَضعِيُّ) فَهوَ انَّ ٱلمَرجِعَ فِي هٰذَا وَمَا يَجرِي مَجرَاهُ اِلَى اَصلِ
ٱللُّغةِ ٱلَّتِي هِيَ وَضعُ ٱلاَسمَاءِ عَلَى ٱلمُسَمَّيَاتِ وَلَمْ يُوجَدْ فِيهَا انَّ ٱلوَجهَ
ٱلمَلِيحَ يُسَمَّى شَمسًا وَلَا انَّ ٱلرَّجُلَ ٱلجَوَادَ يُسَمَّى بَحرًا . وَاِنَّمَا اَهلُ

ٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ تَوَسَّعُوا فِي ٱلْأَسَالِيبِ ٱلْمَعْنَوِيَةِ فَنقلُوا ٱلْحَقِيقَةَ إِلى ٱلْمَجَازِ وَلَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ مِنْ وَاضِعِ ٱللُّغَةِ فِي اصْلِ ٱلْوَضْعِ وَلِهٰذَا ٱخْتَصَّ كُلٌّ مِنْهُم بِشَيْءٍ ٱخْتَرَعَهُ فِي ٱلتَّوَسُّعَاتِ ٱلْمَجَازِيَّةِ . هٰذَا ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ قَدِ ٱخْتَرَعَ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ . فَمِنْ ذٰلِكَ انَّهُ اوَّلُ مَنْ عَبَّرَ عَنِ ٱلْفَرَسِ بِقَوْلِهِ : (قَيْدُ ٱلْاَوَابِدِ) . وَلَمْ يُسْمَعْ ذٰلِكَ لِاحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ . . . وَوَاضِعُ ٱللُّغَةِ مَا ذَكَرَ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ فَعَلِمْنَا حِينَئِذٍ انَّ مِنَ ٱللُّغَةِ حَقِيقَةً بِوَضْعِهِ وَمَجَازًا بِتَوَسُّعَاتِ اهْلِ ٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ . وَفِي زَمَانِنَا هٰذَا قَدْ يَخْتَرِعُونَ اشْيَاءَ مِنَ ٱلْمَجَازِ عَلَى حُكْمِ ٱلِاسْتِعَارَةِ لَمْ تَكُنْ مِنْ قَبْلُ . وَلَوْ كَانَ هٰذَا مَوْقُوفًا مِنْ جِهَةِ وَاضِعِ ٱللُّغَةِ لَمَا ٱخْتَرَعَهُ احَدٌ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا زِيدَ فِيهِ وَلَا نَقَصَ مِنْهُ . وامَّا ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْحَقِيقَةِ فَهُوَ انَّ ٱلْحَقِيقَةَ جَارِيَةٌ عَلَى ٱلْعُمُومِ فِي نَظَائِرَ . الَا تَرَى اذَا قُلْنَا : فُلَانٌ عَالِمٌ . صَدَقَ عَلَى كُلِّ ذِي عِلْمٍ . بِخِلَافِ (وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ) . لِانَّهُ لَا يَصِحُّ الَّا فِي بَعْضِ ٱلْجَمَادَاتِ دُونَ بَعْضٍ إِذِ ٱلْمُرَادُ اهْلُ ٱلْقَرْيَةِ لِانَّهُم مِمَّنْ يَصِحُّ ٱلسُّؤَالُ لَهُمْ . وَلَا يَجُوزُ انْ يُقَالَ : وَٱسْأَلِ ٱلْحَجَرَ وَٱلتُّرَابَ . وَقَدْ يَحْسُنُ انْ يُقَالَ : وَٱسْأَلِ ٱلرَّبْعَ وَٱلطَّلَلَ . (وَٱعْلَمْ) انَّ كُلَّ مَجَازٍ فَلَهُ حَقِيقَةٌ لِانَّهُ لَمْ يَصِحَّ انْ يُطْلَقَ عَلَيْهِ ٱسْمُ ٱلْمَجَازِ إِلَّا عَنْ حَقِيقَةٍ مَوْضُوعَةٍ لَهُ إِذِ ٱلْمَجَازُ هُوَ ٱسْمٌ لِلْمَوْضُوعِ ٱلَّذِي يُنْتَقَلُ فِيهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ فَجُعِلَ ذٰلِكَ لِنَقْلِ ٱلْالْفَاظِ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ إِلَى غَيْرِهَا . وَإِذَا كَانَ كُلُّ مَجَازٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَقِيقَةٍ نُقِلَ عَنْهَا إِلَى حَالَةٍ ٱلْمَجَازِيَّةِ فَكَذٰلِكَ لَيْسَ مِنْ ضَرُورَةِ كُلِّ حَقِيقَةٍ انْ يَكُونَ لَهَا مَجَازٌ . فَإِنَّ

مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ مَا لَا مجازَ لَهُ كَاسْمَاءِ ٱلْاَعْلَامِ لِاَنَّهَا وُضِعَتْ لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلذَّوَاتِ لَا لِلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصِّفَاتِ

وَكَذٰلِكَ فَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْمَجَازَ اَوْلَى بِٱلِاسْتِعْمَالِ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ فِي بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ لِاَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلْحَقِيقَةُ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْاَصْلُ اَوْلَى مِنْهُ حَيْثُ هُوَ فَرْعٌ عَلَيْهَا . وَلَيْسَ ٱلْاَمْرُ كَذٰلِكَ لِاَنَّهُ ثَبَتَ وَتَحَقَّقَ اَنَّ فَائِدَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلْخَطَابِيِّ هُوَ اِثْبَاتُ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ بِٱلتَّخْيِيلِ وَٱلتَّصْوِيرِ حَتَّى يَكَادَ يَنْظُرُ اِلَيْهِ عِيَانًا . اَلَا تُرَى اَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِنَا : زَيْدٌ اَسَدٌ . هِيَ قَوْلُنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لٰكِنْ فُرِقَ بَيْنَ ٱلْقَوْلَيْنِ فِي ٱلتَّصْوِيرِ وَٱلتَّخْيِيلِ وَاِثْبَاتِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ فِي نَفْسِ ٱلسَّامِعِ . لِاَنَّ قَوْلَنَا : زَيْدٌ شُجَاعٌ . لَا يَتَخَيَّلُ مِنْهُ ٱلسَّامِعُ سِوَى اَنَّهُ رَجُلٌ جَرِيءٌ مِقْدَامٌ . فَاذَا قُلْنَا : زَيْدٌ اَسَدٌ . يُخَيَّلُ عِنْدَ ذٰلِكَ صُورَةَ ٱلْاَسَدِ وَهَيْئَتَهُ وَمَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلْقُوَّةِ وَدَقِّ ٱلْفَرَائِسِ . وَقَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ : (قَيْدُ ٱلْاَوَابِدِ) هُوَ اَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ لَوْ قَالَ : مَانِعُ ٱلْاَوَابِدِ عَنِ ٱلذَّهَابِ وَٱلْاِفْلَاتِ . وَٱلْقَيْدُ مِنْ اَعْلَى مَرَاتِبِ ٱلْمَنْعِ عَنِ ٱلتَّصَرُّفِ لِاَنَّكَ تُشَاهِدُ مَا فِي ٱلْقَيْدِ مِنَ ٱلْمَنْعِ فَلَا تَشُكُّ فِيهِ . وَكَقَوْلِهِمْ : هٰذَا مِيزَانُ ٱلْقِيَاسِ اَيْ تَعْدِيلُهُ . وَٱلْمَجَازُ اَبْلَغُ لِاَنَّ ٱلْمِيزَانَ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلتَّعْدِيلَ حَتَّى تُعَايِنَهُ وَلِلْعِيَانِ فَضْلٌ عَلَى مَا سِوَاهُ . وَكَذٰلِكَ : اَلْعَرُوضُ مِيزَانُ ٱلشِّعْرِ اَيْ حَقِيقَةُ تَقْوِيمِهِ . وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ . وَاَعْجَبُ مَا فِي ٱلْعِبَارَةِ ٱلْمَجَازِيَّةِ اَنَّهَا تَنْقُلُ ٱلسَّامِعَ عَنْ خُلُقِهِ ٱلطَّبِيعِيِّ فِي بَعْضِ ٱلْاَحْوَالِ حَتَّى اِنَّهَا يَسْمَحُ بِهَا ٱلْبَخِيلُ

وَيَشْجُعُ بِهَا ٱلْجَبَانُ وَيُحْكَمُ بِهَا ٱلطَّائِشُ ٱلْمُتَسَرِّعُ وَيَجِدُ ٱلْمُخَاطَبُ بِهَا عِنْدَ سَمَاعِهَا نَشْوَةً كَنَشْوَةِ ٱلْخَمْرِ حَتَّى إِذَا قُطِعَ عِنْدَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ أَفَاقَ وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ مِنْ بَذْلِ مَالٍ . اوْ تَرْكِ عُقُوبَةٍ . أَوْ إِقْدَامٍ عَلَى أَمْرٍ مَهُولٍ وَهٰذَا هُوَ فَحْوَى ٱلسِّحْرِ ٱلْحَلَالِ ٱلْمُسْتَغْنِي مِنْ إِلْقَاءِ ٱلْعَصَا وَٱلْحِبَالِ . (وَٱعْلَم) انَّهُ اذَا وَرَدَ عَلَيْكَ كَلَامٌ . يَجُوزُ انْ يُحْمَلَ مَعْنَاهُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ بِٱخْتِلَافِ لَفْظِهِ فَٱنْظُرْ فَانْ كَانَ لَا مَزِيَّةَ لِمَعْنَاهُ فِي حَمْلِهِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمَجَازِ فَلَا يَنْبَغِي انْ يُحْمَلَ إِلَّا عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَقِيقَةِ لِأَنَّهَا هِيَ ٱلْأَصْلُ وَٱلْمَجَازُ هُوَ ٱلْفَرْعُ وَلَا يُعْدَلُ عَنِ ٱلْأَصْلِ إِلَى ٱلْفَرْعِ إِلَّا لِفَائِدَةٍ

البحث الرابع

في الاستعارة

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٢٩ من علم الادب)

هِيَ ٱدِّعَاءُ مَعْنَى ٱلْحَقِيقَةِ فِي ٱلشَّيْءِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ مِنَ ٱلْبَيْنِ لَفْظًا وَتَقْدِيرًا . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ : هُوَ جَعْلُ ٱلشَّيْءِ لِلشَّيْءِ لِأَجْلِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ . فَٱلْأَوَّلُ كَقَوْلِكَ : لَقِيتُ أَسَدًا تَعْنِي ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ . وَٱلثَّانِي كَقَوْلِ لَبِيدٍ :

إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ ٱلشَّمَالِ زِمَامُهَا

اثبت اليد للشمال مبالغة في تشبيهها بالقادر في التصرف فيه.
وحد الرماني الاستعارة فقال: هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في اصل اللغة على سبيل النقل للابانة. وقال ابن المعتز: هي استعارة الكلمة من شيء قد عرف بها الى شيء لم يعرف بها.
وذكر الخفاجي كلام الرماني وقال: وتفسير هذه الجملة ان قوله مثلا: (واشتعل الرأس شيبا). استعارة لان الاشتعال للنار ولم توضع في اصل اللغة للشيب فلما نقل اليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه. لان الشيب لما كان نافذا في الرأس شيئا فشيئا حتى يحيله الى غير لونه الاول كان بمنزلة النار التي تسري في الخشب حتى تحيله الى غير حالته المتقدمة. فهذا من نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان ولا بد ان يكون اوضح من الحقيقة لاجل التشبيه العارض فيها. لان الحقيقة لو قامت مقامها لكانت اولى بها لانها الاصل وليس يخفى على المتأمل ان قوله: (واشتعل الرأس شيبا). ابلغ من: كثر شيب الرأس. وهو حقيقة هذا المعنى. وقوله: (يوم يكشف عن ساق). احسن وابلغ في ما قصد له من قوله لو قال: يوم يكشف عن شدة الامر. وان كان المعنيان واحدا. الا ترى انك تقول لمن يحتاج الى الجد في امره: شمر عن ساقك. فيكون هذا القول منك ازكى في نفسه من قولك: جد في امرك. وقال دريد بن الصمة:

كميش الازار خارج نصف ساقه　　صبور على الضراء طلاع انجد

وَقَالَ ٱلْهُذَلِيُّ :

وَكُنْتُ إِذَا جَارٌ دَعَا بِغُرُومِهِ ... أُشَمِّرُ حَتَّى يَنْصِفَ ٱلسَّاقَ مِئْزَرِي

وَلَا بُدَّ لِلِاسْتِعَارَةِ مِنْ حَقِيقَةٍ هِيَ أَصْلُهَا وَهِيَ : مُسْتَعَارٌ مِنْهُ . وَمُسْتَعَارٌ بِهِ . وَمُسْتَعَارٌ لَهُ . فَٱلنَّارُ فِي قَوْلِهِ : (ٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا) . مُسْتَعَارٌ مِنْهَا . وَٱلِاشْتِعَالُ مُسْتَعَارٌ . وَٱلشَّيْبُ مُسْتَعَارٌ لَهُ . وَأَمَّا قَوْلُنَا : (مَعَ طَرْحِ ذِكْرِ ٱلْمُشَبَّهِ) . فَٱعْلَمْ أَنَّنَا إِذَا طَرَحْنَاهُ كَقَوْلِنَا : رَأَيْتُ أَسَدًا . وَأَرَدْنَا ٱلرَّجُلَ ٱلشُّجَاعَ فَهُوَ ٱسْتِعَارَةٌ بِٱلِاتِّفَاقِ وَإِنْ ذَكَرْنَا مَعَهُ ٱلْمُشَبَّهَ وَقُلْنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . فَٱلْمُخْتَارُ أَنَّهُ لَيْسَ بِٱسْتِعَارَةٍ إِذْ فِي ٱللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِأَسَدٍ فَلَمْ تَحْصُلِ ٱلْمُبَالَغَةُ . وَإِذَا قُلْتَ : زَيْدٌ ٱلْأَسَدُ . فَهُوَ أَبْعَدُ عَنِ ٱلِاسْتِعَارَةِ فَإِنَّ ٱلْأَوَّلَ خَرَجَ بِٱلتَّنْكِيرِ مِنْ أَنْ يَحْسُنَ فِيهِ كَافُ ٱلتَّشْبِيهِ . فَإِنَّ قَوْلَكَ : زَيْدٌ كَأَسَدٍ . كَلَامٌ نَازِلٌ بِخِلَافِ ٱلثَّانِي . قَالَ ضِيَاءُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْأَثِيرِ : وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ ٱلْمُضْمَرُ ٱلْأَدَاةِ قَدْ خَلَطُوهُ بِٱلِاسْتِعَارَةِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا وَذٰلِكَ خَطَأٌ مَحْضٌ . وَسَأُوضِحُ وَجْهَ ٱلْخَطَإِ فِيهِ وَأُحَقِّقُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا فَأَقُولُ : إِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُظْهَرَ ٱلْأَدَاةِ فَلَا حَاجَةَ لِبَيَانِ ذِكْرِهِ لِأَنَّهُ لَا خِلَافَ فِيهِ وَلٰكِنْ نَذْكُرُ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْأَدَاةِ فَنَقُولُ : إِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ وَٱلْمَنْقُولُ إِلَيْهِ عَلَى أَنَّهُ تَشْبِيهُ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْأَدَاةِ قِيلَ فِيهِ : زَيْدٌ أَسَدٌ . أَيْ كَٱلْأَسَدِ . فَأَدَاةُ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ مُضْمَرَةٌ مُقَدَّرَةٌ . وَإِذَا أُظْهِرَتْ حَسُنَ ظُهُورُهَا وَلَمْ تَقْدَحْ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي أُظْهِرَتْ فِيهِ وَلَمْ تُزِلْ عَنْهُ فَصَاحَتَهُ وَبَلَاغَتَهُ وَهٰذَا بِخِلَافِ مَا إِذَا ذُكِرَ ٱلْمَنْقُولُ إِلَيْهِ دُونَ ٱلْمَنْقُولِ فَإِنَّهُ لَا يَحْسُنُ

فِيهِ ظُهُورُ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ وَإِذَا أُظْهِرَتْ اَزَالَتْ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ مُتَّصِفًا بِهِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْفَصَاحَةِ . . . فَٱلْفَرْقُ إِذًا بَيْنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ وَبَيْنَ ٱلِاسْتِعَارَةِ اَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ ٱلْمُضْمَرَ ٱلْاَدَاةِ يَحْسُنُ إِظْهَارُ اَدَاةِ ٱلتَّشْبِيهِ فِيهِ وَٱلِاسْتِعَارَةُ لَا يَحْسُنُ ذٰلِكَ فِيهَا . وَٱلِاسْتِعَارَةُ اَخَصُّ مِنَ ٱلْمَجَازِ إِذْ قَصْدُ ٱلْمُبَالَغَةِ شَرْطٌ فِي ٱلِاسْتِعَارَةِ دُونَ ٱلْمَجَازِ . وَاَيْضًا فَكُلُّ اسْتِعَارَةٍ مِنَ ٱلْبَدِيعِ وَلَيْسَ كُلُّ مَجَازٍ مِنْهُ وَٱلْحَقُّ اَنَّ ٱلْمَعْنَى يُعَارُ اَوَّلًا ثُمَّ بِوَاسِطَتِهِ يُعَارُ ٱللَّفْظُ . وَلَا تَحْسُنُ ٱلِاسْتِعَارَةُ إِلَّا حَيْثُ كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ مُقَرَّرًا بَيْنَهُمَا ظَاهِرًا اَوَّلًا فَلَا بُدَّ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلَوْ قُلْتَ : رَاَيْتُ نَخْلَةً اَوْ خَامَةً . وَاَنْتَ تُرِيدُ مُؤْمِنًا إِشَارَةً إِلَى قَوْلِهِ : مَثَلُ ٱلْمُؤْمِنِ كَمَثَلِ ٱلنَّخْلَةِ اَوْ مَثَلِ ٱلْخَامَةِ . لَكُنْتَ كَٱلْمُلْغِزِ ٱلتَّارِكِ لِمَا يُفْهَمُ وَكُلَّمَا زَادَ ٱلتَّشْبِيهُ خَفَاءً زَادَتِ ٱلِاسْتِعَارَةُ حُسْنًا بِحَيْثُ يَكُونُ اَلْطَفَ مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ بِٱلتَّشْبِيهِ. وَرُبَّمَا جُمِعَ بَيْنَ عِدَّةِ اسْتِعَارَاتٍ إِلْحَاقًا لِلشَّكْلِ بِٱلشَّكْلِ لِإِتْمَامِ ٱلتَّشْبِيهِ فَتَزِيدُ ٱلِاسْتِعَارَةُ بِهِ حُسْنًا كَقَوْلِ امْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي صِفَةِ ٱللَّيْلِ :

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَاَرْدَفَ اَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَٱعْلَمْ اَنَّهُ لَا بُدَّ اَيْضًا مِنْ مَعْنًى يَشْتَرِكُ بَيْنَ ٱلْمُسْتَعَارِ وَٱلْمُسْتَعَارِ مِنْهُ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْمُشْتَرَكُ بَيْنَ قَيْدِ ٱلْاَوَابِدِ مَثَلًا وَمَانِعِ ٱلْاَوَابِدِ هُوَ ٱلْحَبْسُ وَعَدَمُ ٱلْإِفْلَاتِ . وَبَيْنَ مِيزَانِ ٱلْقِيَاسِ وَتَعْدِيلِ حُصُولِ ٱلِاسْتِقَامَةِ هُوَ ارْتِفَاعُ ٱلْحَيْفِ وَٱلْمَيْلِ إِلَى اَحَدِ ٱلْجَانِبَيْنِ . وَهٰكَذَا جَمِيعُ ٱلِاسْتِعَارَاتِ وَٱلْمَجَازَاتِ

البحث الخامس

فيما تدخله الاستعارة وما لا تدخله

(عن صناعة الترسل ايضاً)

الأَعْلَامُ لَا يَدْخُلُهَا ٱلِاسْتِعَارَةُ لِمَا تَقَدَّمَ فِي ٱلمَجَازِ. وَامَّا ٱلفِعْلُ وَٱلِاسْتِعَارَةُ تَقَعُ اوَّلًا فِي ٱلْمَصْدَرِ ثُمَّ تَقَعُ بِوَاسِطَةِ ذٰلِكَ فِي ٱلْفِعْلِ. فَإِذَا قُلْتَ: نَطَقَتِ ٱلحَالُ بِكَذَا. فهذَا إِنَّمَا يَصِحُّ لِأَنَّكَ وَجَدتَّ ٱلحَالَ مُشَابِهَةً لِلنُّطْقِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلشَّيْءِ فَلَاجَرَمَ ٱسْتَعَرْتَ ٱلنُّطْقَ لِتِلْكَ ٱلحَالَةِ ثُمَّ نَقَلْتَهُ إِلَى ٱلفِعْلِ. وَٱلْاَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَقَّةُ فِي ذٰلِكَ كَٱلفِعْلِ. فَظَهَرَ انَّ ٱلاسْتِعَارَةَ إِنَّمَا تَقَعُ وُقُوعًا اوَّلِيًّا فِي اَسْمَاءِ ٱلاَجْنَاسِ. ثُمَّ ٱلفِعْلُ إِذَا كَانَ مُسْتَعَارًا فَٱسْتِعَارَتُهُ إِمَّا مِنْ جِهَةِ فَاعِلِهِ كَقَوْلِهِ: نَطَقَتِ ٱلحَالُ بِكَذَا اوْ لَعِبَتْ بِهِ ٱلْهُمُومُ. وَكَقَوْلِ جَرِيرٍ:

يُحْشِي ٱلرَّوَامِسَ رَبْعُهَا فَتُجِدُّهُ ... بَعْدَ ٱلبِلَى وَتُمِيتُهُ ٱلاَمْطَارُ

اوْ مِن جِهَةِ مَفْعُولِهِ كَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ:

جُمِعَ ٱلحَقُّ لَنَا فِي إِمَامٍ ... قَتَلَ ٱلْجُوْرَ وَاحْيَا ٱلسَّمَاحَا

اوْ مِن جِهَةِ ٱلفَاعِلِ وَٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ: يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ اَبْصَارَهُمْ. وَيَتَّصِلُ بِهٰذَا تَرْشِيحُ ٱلاسْتِعَارَةِ وَتَجْرِيدُهَا. اَمَّا تَرْشِيحُهَا فَهُوَ اَنْ تَنْظُرَ فِيهَا إِلَى ٱلْمُسْتَعَارِ وَتُرَاعِيَ جَانِبَهُ وَتُوَلِيَهُ مَا تَسْتَدْعِيهِ وَتَضُمَّ إِلَيْهِ مَا تَقْتَضِيهِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

وَصَدْرٍ ازَاحَ ٱللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ ... تَضَاعَفَ فِيهِ ٱلْحُزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

ٱلْمُسْتَعَارُ فِيهِ وَهُوَ ٱلْإِزَاحَةُ مَنْظُورٌ إِلَيْهِ فِي لَفْظِ ٱلْعَازِبِ . وَأَمَّا تَجْرِيدُهَا فَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمُسْتَعَارُ لَهُ مَنْظُورًا إِلَيْهِ كَقَوْلِهِ: فَأَذَاقَهَا ٱللهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ . فَإِنَّ ٱلْإِذَاقَةَ وَقَعَتْ عِبَارَةً عَمَّا يُدْرَكُ مِنْ أَثَرِ ٱلضَّرَرِ وَٱلْأَلَمِ تَشْبِيهًا لَهُ بِمَا يُدْرَكُ مِنْ طَعْمِ ٱلْمُرِّ. ٱلشَّبَعُ وَٱللِّبَاسُ عِبَارَةٌ عَمَّا يَغْشَى مِنْهُمَا وَيُلَابِسُ فَكَأَنَّهُ قَالَ : فَأَذَاقَهَا مَا غَشِيَهَا مِنْ أَلَمِ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ . وَكَقَوْلِ زُهَيْرٍ :

لَدَى أَسَدٍ شَاكِي ٱلسِّلَاحِ مُقَذَّفٍ ... لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

فَلَوْ نَظَرَ إِلَى ٱلْمُسْتَعَارِ لَقَالَ : لَدَى أَسَدٍ دَامِي أَوْ دَامِي ٱلْبَرَاثِنِ مَثَلًا. وَنَظَرَ زُهَيْرٌ فِي آخِرِ ٱلْبَيْتِ إِلَى ٱلْمُسْتَعَارِ . وَمِنْهُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ :

غَمْرُ ٱلرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا ... غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ ٱلْمَالِ

إِسْتَعَارَ ٱلرِّدَاءَ لِلْمَعْرُوفِ لِأَنَّهُ يَصُونُ عِرْضَ صَاحِبِهِ صَوْنَ ٱلرِّدَاءِ لِمَا يُلْقَى عَلَيْهِ . وَوَصَفَهُ بِٱلْغَمْرِ ٱلَّذِي هُوَ وَصْفُ ٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّوَالِ لَا وَصْفُ ٱلرِّدَاءِ

وَيَقْرُبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْإِسْتِعَارَةُ بِٱلْكِنَايَةِ وَهُوَ أَنْ لَا يُصَرَّحَ بِذِكْرِ ٱلْمُسْتَعَارِ بَلْ يُذْكَرُ بَعْضُ لَوَازِمِهِ تَنْبِيهًا بِهِ كَقَوْلِهِ : شُجَاعٌ يَفْتَرِسُ أَقْرَانَهُ وَعَالِمٌ يَغْتَرِفُ مِنْهُ ٱلنَّاسُ . وَكَقَوْلِ أَبِي ذُؤَيْبٍ :

وَإِذَا ٱلْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ ٱلشُّجَاعَ أَسَدٌ وَٱلْعَالِمَ بَحْرٌ وَٱلْمَنِيَّةَ سَبُعٌ . وَهٰذَا وَإِنْ كَانَ يُشْبِهُ ٱلْإِسْتِعَارَةَ ٱلْمُجَرَّدَةَ إِلَّا أَنَّهُ أَغْرَبُ وَأَعْجَبُ. وَيَقْرُبُ مِنْهُ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَمَنْ يَعصِ اَطْرَافَ ٱلرِّمَاحِ فَاِنَّهُ ‏ ‏ يُطِيعُ ٱلْعَوَالِيَ رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

اَرَادَ اَنْ يَقُولَ : مَنْ لَمْ يَرْضَ بِاَحْكَامِ ٱلصُّلْحِ رَضِيَ بِاَحْكَامِ ٱلْحَرْبِ اَيْ اَشْرَعُوا ٱلْاَسِنَّةَ وَاَخَرُوا ٱلرِّمَاحَ . وَقَدْ يُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْمُمَاثَلَةَ اَيْضًا . وَقَدْ يُنَزِّلُونَ ٱلِاسْتِعَارَةَ مَنْزِلَةَ ٱلْحَقِيقَةِ وَذٰلِكَ اَنَّهُمْ يَسْتَعِيرُونَ ٱلْوَصْفَ ٱلْمَحْسُوسَ لِلشَّيْءِ ٱلْمَعْقُولِ . وَيَجْعَلُونَ كَاَنَّ تِلْكَ ٱلصِّفَةَ ثَابِتَةٌ لِذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَاَنَّ ٱلِاسْتِعَارَةَ لَمْ تُوجَدْ اَصْلًا . مِثَالُهُ اسْتِعَارَتُهُمُ ٱلْعُلُوَّ لِزِيَادَةِ ٱلرَّجُلِ عَلَى غَيْرِهِ فِي ٱلْفَضْلِ وَٱلْقَدْرِ وَٱلسُّلْطَانِ ثُمَّ وَضْعُهُمُ ٱلْكَلَامَ وَضْعَ مَنْ يَذْكُرُ عُلُوًّا مَكَانِيًّا . كَقَوْلِ اَبِي تَمَّامٍ :

وَيَصْعَدُ حَتَّى يَظُنَّ ٱلْحَسُودُ ‏ ‏ بِاَنَّ لَهُ حَاجَةً فِي ٱلسَّمَاءِ

وَكَقَوْلِهِ اَيْضًا :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَاَنَّمَا ‏ ‏ تُحَاوِلُ ثَارًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

البحث السادس

في اقسام الاستعارة

(عن صناعة الترسل ايضاً)

(راجع صفحة ٣٢ من علم الادب)

هِيَ عَلَى نَوْعَيْنِ : (ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يُعْتَمَدَ نَفْسُ ٱلتَّشْبِيهِ وَهُوَ اَنْ يَشْتَرِكَ شَيْئَانِ فِي وَصْفٍ وَاَحَدُهُمَا اَنْقَصُ مِنَ ٱلْآخَرِ . فَيُعْطَى ٱلنَّاقِصُ

اسم الزائد مبالغة في تحقيق ذلك الوصف له كقولك: رأيت أسدًا. وأنت تعني رجلًا شجاعا. (والثاني) تعتمد لوازمه عندما يكون جهة الاشتراك وصفا وإنما ثبت كماله في المستعار في واسطة شيء آخر فتثبت ذلك الشيء للمستعار له مبالغة في إثبات المشترك. كقول تأبط شرا:

إذا هزه في عظم قرن تهللت نواجذ أفواه المنايا الضواحك

لما شبه المنايا عند هزة السيف بالسرور وكمال الفرح والسرور إنما يظهر بالضحك الذي يتهلل به النواجذ أثبته تحقيقا للوصف المقصود وإلا فليس للمنايا ما ينقل إليه اسم النواجذ. وهكذا الكلام في قول الحماسي:

سقاه الردى سيف إذا سل أومضت إليه منايا الموت من كل مرقب

ومن هذا الباب قولهم: فلان مرخى العنان وملقى الزمام.

والفرق بين القسمين أنك إن رجعت في الأول إلى التشبيه الذي هو المقصد من كل استعارة مقيدة وجدته يأتيك عفوا كقولك: رأيت رجلا كالأسد أو مثله أو شبهه. وإن رمته في الثاني لا يؤاتيك تلك المؤاتاة إذ لا وجه أن تقول: شيء مثل اليد للشمال. وإنما تهيأ لك التشبيه بعد أن تخرق إليه سترا أو تعمل تأملا وفكرا. وفي اغفال هذا الأصل وقوع في التشبيه. وذلك أن من وضع في نفسه أن كل اسم يستعار فلا بد أن يكون هناك شيء يمكن الاشارة إليه تتناوله في حالة المجاز كما تتناول مسماه في حالة

اَلْحقيقَةِ . ثُمَّ نظَرَ اِلَى قوْلهِ : وَلِتُصنعَ عَلَى عَيْني . وَقوْلِهِ : تَجْرِي بِاَعْيُنِنَا . اَرْتبكَ فِي اَلشَّكِّ وحَامَ حَوْلَ اَلظاهِرِ ووَقعَ فِي اَلتَّشبيــهِ اَلذِي هُوَ اَلضَّلالُ اَلْبَعيدِ . فَفي مَعْرِفَةِ هٰذَا الخلاصُ مِنْ ذٰلِكَ اَلتَّشبِيهِ وَيسَمَّى هٰذَا اَلنَّوعْ اَسْتِعَارَةً تَخيُلِيَّةً وَهوَ كَإِثباتِ اَلْجناحِ الذُّلِّ فِي قَوْلــهِ : وَاَخفضْ لَهُمَا جَناحَ اَلذلِّ مِنَ اَلرَّحْمَةِ . اِذَا عُرِفَ هٰذَا فَاَلنَوعُ اَلْاَوَّلُ عَلَى اربَعَةِ اَقسام : (اَلْاَولُ) انْ يُسْتَعَار اَلْمَحْسُوسُ لِلْمَحْسُوسِ . وذٰلِكَ اِمَّا ان يَشْتَرِكا فِي اَلذَّاتِ وَيَخْتلِفَا فِي اَلصِّفاتِ كَاَسْتِعَارَةِ اَلطيَرَانِ لِغيْرِ ذِي جَناحٍ فِي اَلسُّرْعَةِ . فَاِنَّ اَلطيَرَانَ وَاَلْعدو يَشْتَرِكَانِ فِي اَلْحَقِيقَةِ وَهِيَ اَلْحرَكَةُ اَلْمَكَانِيَةُ اِلَّا اَنَّ اَلطَيَرانَ اَسرعُ . اَوْ بِاَنْ يَختلِفا فِي اَلذَّاتِ وَيَشْتَرِكا فِي صِفَةٍ اِمَّا مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِمْ : رَاَيتُ شَمْسا . وَيُرِيدُونَ اِنْسَانًا يَتَهلَّلُ وَجْهُهُ . وَكَقوْلِهِ : وَاَشْتَعَــلَ اَلرَّأْسُ شَيبًا . فَاَلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ اَلنَّارُ . وَاَلْمُسْتعارُ لَهُ اَلشيبُ . وَاَلْجَامِعُ اَلْاَنبساطُ وَلٰــكِنَّهُ فِي النَّارِ اَقْوَى . وَاِمَّا غيرِ مَحْسُوسَةٍ كَقَوْلِهِ : اِذَا اَرسَلْنَا عَلَيهِمِ اَلرِّيحَ اَلْعَقيمَ . اَلْمُسْتَعَارُ لَهُ اَلرِّيحُ وَاَلْمُسْتَعَارُ مِنْهُ اَلْمَرْءُ وَاَلْجَامِعُ اَلْمَنْعُ مِنْ ظُهُورِ اَلنَّتِيجَةِ . (اَلثَّانِي) اَنْ يُسْتَعَارَ شَيْءٌ مَعْقُولٌ لِشَيْءٍ مَعْقُولٍ لِاَشْتِرَاكِهِمَا فِي وَصْفٍ عَدَمِيٍّ اَوْ ثُبوتِيٍّ وَاَحَدُهُمَا اَكمَلُ مِنْ ذٰلِــكَ اَلْوَصْفِ فَيُنَزَّلُ اَلنَّاقِصُ مَنْزِلَةَ اَلْــكَامِلِ كَاَسْتِعَارَةِ اَسْمِ اَلْعَــدمِ لِلْمَوْجُود اِذَا اَشْتَرَكا فِي عَدَمِ اَلْفَائِدَةِ اَو اَسْتِعَارَةِ اَسْمِ اَلْوُجُودِ لِلْعَدَمِ اِذَا بَقِيَتْ آثَارُهُ اَلْمَطْلُوبَةُ مِنْهُ كَتَشْبِيهِ اَلْجَهْلِ بِاَلْموْتِ لِاَشْتِرَاكِ اَلْمَوْصُوفِ بِهِمَا فِي عَدَمِ اَلْاِدْرَاكِ وَاَلْعقْلِ . وَكَقَوْلِهِمْ : فُــلَانٌ لَقِيَ اَلْمَوْتَ اِذَا لَقِيَ

ٱلشَّدَائِدَ لِاشْتِرَاكِهِمَا فِي ٱلْمَكْرُوهِيَّةِ . وَقَوْلِهِ: وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى ٱلْغَضَبُ . وَٱلسُّكُوتُ وَٱلزَّوَالُ امْرَانِ مَعْقُولَانِ . (ٱلثَّالِثُ) انْ يُسْتَعَارَ ٱلْمَحْسُوسُ لِلْمَعْقُولِ كَٱسْتِعَارَةِ ٱلنُّورِ ٱلَّذِي هُوَ مَحْسُوسٌ وَٱسْتِعَارَةِ ٱلْقِسْطَاسِ لِلْعَدْلِ . وَكَقَوْلِهِ: بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ . فَٱلْقَذْفُ وَٱلدَّمْغُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ: فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ . وَقَوْلِهِ: أَلَمْ تَرَ انَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . ٱلْوَادِي وَٱلْهَيَمَانُ مُسْتَعَارَانِ . (ٱلرَّابِعُ) انْ يُسْتَعَارَ ٱسْمُ ٱلْمَعْقُولِ لِلْمَحْسُوسِ عَلَى ٱلتَّأْوِيلِ ٱلْمَذْكُورِ فِي ٱلتَّشْبِيهِ كَقَوْلِهِ: إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ . فَٱلشَّهِيقُ وَٱلْغَيْظُ مُسْتَعَارَانِ . وَقَوْلِهِ: حَتَّى تَضَعَ ٱلْحَرْبُ اوْزَارَهَا

البحث السابع

في جيد الاستعارة ورديئها ومتوسطها

(عن كتاب الصناعتين وصناعة الترسل)

قَالَ مُحَمَّدٌ ابُو عَبْدِ ٱللهِ بْنِ سِنَانٍ ٱلْخَفَاجِيُّ: وَقَدِ ٱخْتَارَ ابُو ٱلْقَاسِمِ ٱبْنُ بِشْرٍ ٱلْآمِدِيُّ مِنْ جُمْلَةِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ قَوْلَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ   وَارْدَفَ اعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

وَقَالَ: إِنَّ هٰذِهِ ٱلِٱسْتِعَارَةَ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ . لِأَنَّهُ إِنَّمَا قَصَدَ وَصْفَ احْوَالِ ٱللَّيْلِ فَذَكَرَ ٱمْتِدَادَ وَسْطِهِ وَتَثَاقُلَ صَدْرِهِ لِلذَّهَابِ وَٱلِٱنْبِعَاثِ وَتَرَادُفَ اعْجَازِهِ وَاوَاخِرِهِ شَيْئًا فَشَيْئًا . وَقَالَ ٱلْخَفَاجِيُّ:

وَهٰذَا ٱلَّـذِي ذَكَرَهُ أَبُو ٱلْقَاسِمِ لَا أَرْضَى بِهِ غَايَةَ ٱلرِّضَى وَلَوْ كُنْتُ أَسْكُنُ إِلَى تَقْلِيدِ أَحَدٍ مِنْ عُلَمَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَقَـلَّدْتُهُ لِحُسْنِ نَظَرِهِ وَصِحَّةِ فِكْرِهِ وَهُوَ عِنْدِي مِنَ ٱلْوَسَطِ لَيْسَ مِنْ جَيِّدِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَلَا مِنْ رَدِيئِهَا . وَإِنَّمَا قُلْتُ ذٰلِكَ لِأَنَّ أَبَا ٱلْقَاسِمِ قَدْ أَفْصَحَ بِأَنَّ ٱمْرَءَ ٱلْقَيْسِ لَمَّا جَعَلَ لِلَّيْلِ وَسَطًا وَعَجُزًا ٱسْتَعَارَ لَهُ ٱسْمَ ٱلصُّلْبِ وَجَعَلَهُ مُتَمَطِّيًا مِنْ أَجْلِ ٱمْتِدَادِهِ وَجَعَلَ ٱلْكَلْكَلَ مِنْ أَجْلِ نُهُوضِهِ وَكُلُّ هٰذَا إِنَّمَا يَحْسُنُ بَعْضُهُ لِأَجْلِ بَعْضٍ . فَذِكْرُ ٱلصُّلْبِ إِنَّمَا حَسُنَ لِأَجْلِ ٱلْعَجُزِ . وَٱلتَّمَطِّي لِأَجْلِ ٱلصُّلْبِ . وَٱلْكَلْكَلُ لِمَجْمُوعِ ذٰلِكَ . وَهٰذِهِ ٱلِٱسْتِعَارَةُ ٱلْمَبْنِيَّةُ عَلَى غَيْرِهَا فَلِذٰلِكَ لَمْ أَرَ أَنْ تُجْعَلَ مِنْ أَبْلَغِ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ وَكَانَتِ ٱسْتِعَارَةُ طُفَيْلٍ ٱلْغَنَوِيِّ فِي قَوْلِهِ :

وَجَعَلْتُ رَحْلِي فَوْقَ نَاجِيهِ ... يَقْتَاتُ شَحْمَ سَنَامِهَا ٱلرَّحْلُ

أَوْفَقَ وَأَوْضَحَ . لِأَنَّهَا غَنِيَّةٌ بِنَفْسِهَا غَيْرُ مُفْتَقِرَةٍ إِلَى مُقَدِّمَةٍ حِلْيَتِهَا.

(وَقَالَ) وَقَدْ كُنْتُ مَثَّلْتُ فِي بَعْضِ مَوَاضِعِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلْمَذْمُومَةِ بِبَيْتَيْنِ أَحَدُهُمَا قَوْلُ ٱبْنِ نُبَاتَةَ :

حَتَّى إِذَا بَهَرُوا ٱلْأَبَاطِحَ وَٱلثَّرَى ... نَظَرُوا إِلَيْكَ بِأَعْيُنِ ٱلنُّوَّارِ

فَنَظَرُ أَعْيُنِ ٱلنُّوَّارِ مِنْ أَشْبَهِ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ وَأَلْيَقِهَا . لِأَنَّ ٱلنُّوَّارَ يُشْبِهُ ٱلْعُيُونَ إِذَا كَانَ مُقَابِلًا لِمَنْ يَمُرُّ بِهِ كَأَنَّهُ مُنَاظِرٌ إِلَيْهِ . وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي بَيْتُ أَبِي تَمَّام :

قَرَّتْ بِقُرَّانَ عَيْنُ ٱلدِّينِ وَٱسْتَتَرَتْ ... بِٱلْأَشْتَرَيْنِ عُيُونُ ٱلشِّرْكِ فَٱصْطَلَمَا

وَقُرَّةُ عَيْنِ ٱلدِّينِ وَٱسْتِتَارُ عُيُونِ ٱلشِّرْكِ مِنْ أَقْبَحِ ٱلِٱسْتِعَارَاتِ

لعدم الشبه الذي لأجله جعل للشرك عيونا . ومن تأمل هذين البيتين لا يفهم معنى الاستعارة لأن النوار والشرك لا عيون لهما على الحقيقة . وقد قبحت استعارة العيون لأحدهما وحسنت للآخر . والعلة فيه ان النوار يشبه العيون . والدين والشرك ليس فيهما ما يشبهها ولا يقاربها .

ومن احسن الاستعارات كقول الشريف الرضي :

رسا النسيم بواديكم ولا برحت   حوامل المزن في اجداثكم تضع

ولا يزال جنين النبت يرضعه   على قبوركم العراصة الهمع

لان المزن تحمل الماء واذا حملت تضعه فاستعارة الحمل لها والوضع المعروفين من اقرب شيء واشبهه . وكذلك جنين النبت لان الجنين المستور مأخوذ من الجنة . واذا كان النبت مستورا والغيث يسقيه كان ذلك بمنزلة الرضاع

وامثال المحاسن في ذلك والمساوئ كثيرة وقد اخذ القول في هذا الباب حقه . مع ان اقوال العلماء بهذا الفن فيه اكثر من ذلك

البحث الثامن

في ما جاء من الاستعارات في كلام العرب

(عن كتاب الصناعتين للعسكري وسر العربيّة للثعالبي)

وَامَّا مَا جَاءَ فِي قَوْلِ ٱلْعَرَبِ مِنَ ٱلِاسْتِعَارَاتِ فَكَثِيرٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : هٰذَا رَأْسُ ٱلْامْرِ وَوَجْهُهُ وَرَأْسُ ٱلْمَالِ . وَهٰذَا ٱلْامْرُ فِي جَنْبِ غَيْرِهِ يَسِيرٌ . وَيَقُولُونَ : هٰذَا جَنَاحُ ٱلْحَرْبِ وَقَلْبُهَا وَجَنَاحُ ٱلطَرِيقِ . وَهٰؤُلَاءِ رُؤُوسُ ٱلْقَوْمِ وَجَمَاجِمُهُمْ وَعُيُونُهُم . وَفُلَانٌ ظَهْرُ فُلَانٍ وَلِسَانُ قَوْمِهِ وَنَابُهُمْ وَعَضُدُهُمْ . وَهٰذَا كَلَامٌ لَهُ ظَهْرٌ وَبَطْنٌ . وَفِي ٱلْعَرَبِ : ٱلْجَمَاجِمُ . وَٱلْقَبَائِلُ . وَٱلْافْخَاذُ . وَٱلْبُطُونُ . وَخَرَجَ عَلَيْنَا عُنُقٌ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَهُ عِنْدِي يَدٌ بَيْضَاءُ . وَهٰذِهِ عَيْنُ ٱلْمَاءِ . وَحَاجِبُ ٱلشَّمْسِ . وَلِسَانُ ٱلنَّارِ . وَهٰذَا انْفُ ٱلْجَبَلِ . وَبَطْنُ ٱلْوَادِي . وَكَبِدُ ٱلسَّمَاءِ . وَسَاقُ ٱلشَّجَرَةِ . وَيَقُولُونَ فِي ٱلتَفَرُّقِ : ٱنْشَقَّتْ عَصَاهُمْ . وَشَالَتْ نَعَامَتُهُمْ . وَمَرُّوا بَيْنَ سَمْعِ ٱلْارْضِ وَبَصَرِهَا . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ٱشْتِدَادِ ٱلْامْرِ : كَشَفَتِ ٱلْحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا . ابْدَى ٱلشَّرُّ نَاجِذَيْهِ . حَمِيَ ٱلْوَطِيسُ . دَارَتْ رَحَى ٱلْحَرْبِ . وَكَقَوْلِهِمْ فِي ذِكْرِ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ : افْتَرَّ ٱلصُّبْحُ عَنْ نَوَاجِذِهِ . ضَرَبَ بِعَمُودِهِ . سُلَّ سَيْفُ ٱلصُّبْحِ مِنْ غِمْدِ ٱلظَّلَامِ . نَعَرَ ٱلصُّبْحُ فِي قَفَا ٱللَّيْلِ . بَاحَ ٱلصَّبَاحُ بِسِرِّهِ . وَهَى نِطَاقُ ٱلْجَوْزَاءِ . ٱنْحَطَّ قِنْدِيلُ ٱلثُّرَيَّا . ذَرَّ قَرْنُ ٱلشَّمْسِ . ٱرْتَفَعَ ٱلنَّهَارُ . تَرَجَّلَتِ ٱلشَّمْسُ بِجَمَرَاتِ ٱلظَّهِيرَةِ . بَقَّلَ وَجْهُ ٱلنَّهَارِ . خَفَقَتْ رَايَاتُ ٱلظَّلَامِ .

نوّرت حدائق الجوّ . شاب رأس الليل . لبست الشمس جلبابها . قام خطيب الرعد . خفق قلب البرق . انحلّ عقد السماء . وهى عقد الأنداء . انقطع شريان الغمام . تنفس الربيع . تعطّر النسيم . تبرّجت الارض . قوي سلطان الحرّ . آن ان يجيش مرجله . ويثور قسطله . انحصر قناع الصيف . جاشت جيوش الخريف . حلّت الشمس الميزان . وعدل الزمان . دبّت عقارب البرد . اقدم الشتاء كلكله . شابت مفارق الجبال . يوم عبوس قمطرير . كشّر عن ناب الزمهرير . وكقولهم في محاسن الكلام : الادب غذاء الروح . الشباب باكورة الحياة . النار فاكهة الشتاء . العيال سوس المال . النبيذ كيمياء الفرح . الوحدة قبر الحيّ . الصبر مفتاح الفرج . الدين داء الكرام . النمام جسر الشرّ . الارجاف زند الفتنة . الشكر نسيم النعيم . الربيع شباب الزمان . الولد ريحانة الروح . الشمس قطيفة المساكين . الطيب لسان المروءة . ويسمّون النبات نوًا . قال : وجفّ انواء السحاب . اي جفّ البقل . ويقولون المطر سماء . قال الشاعر :

إذا سقط السماء بارض قوم　　رعيناها وإن كانوا غضابا

ويقولون : ضحكت الارض اذا انبتت لانها تبدي عن حسن النبات كما يفترّ الضاحك عن الثغر . ويقال : ضحكت الظلمة . والنور يضاحك الشمس . قال الاعشى :

يضاحك الشمس منه كوكب مشرق
مؤزّر لعميم النبت مكتهل

وَيقولونَ : ضحِكَ ٱلسَّحابُ بِٱلبَرقِ وحَنَّ بِٱلرَّعدِ وبَكَى بِٱلقَطرِ . وَيقولونَ : لَقِيتُ مِن فُلانٍ عَرَقَ ٱلقِربَةِ اي شِدَّةً ومَشَقَّةً . (واصلُ هٰذا انَّ حامِلَ ٱلقِربَةِ يَتعَبُ مِن ثِقلِها حتَّى يعرَقَ) . ويقولونَ ايضًا : لَقِيتُ مِنهُ عَرَقَ ٱلجَبِينِ . وَٱلعَربُ تَقولُ : بِأَرضِ فُلانٍ شَجَرٌ قَد صاحَ . وذٰلكَ اِذا طالَ فَتبَيَّنَ لِلنَّاظِرِ بِطُولِهِ ودلَّ على نَفسِهِ لِأَنَّ ٱلصَّائِحَ يَدُلُّ على نَفسِهِ بِصَوتِهِ . ومِثلُهُ قَولُ ٱلعجَّاجِ :

كَٱلكَرْمِ اِذْ نَادَى مِنَ ٱلكَافُورِ

وَمِمَّا جاءَ ايضًا في هٰذا ٱلبابِ في ٱلقُرآنِ وكَلامِ ٱلصَّحابَةِ وَغَيرِهِم ما نَصُّهُ : ٱلبَلاءُ مُوَكَّلٌ بِٱلمَنطِقِ . وَقَولُهُ : اُذكُروا هَادِمَ ٱللَّذَّاتِ . وَقَولُهُ : اِخفِضْ لَهُما جَناحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحمَةِ . وَقَولُهُ : اَذاقَها ٱللهُ لِباسَ ٱلجُوعِ وَٱلخَوفِ . وقَولُهُ : ٱشتَعَلَ ٱلرَّأسُ شَيبًا . وَقَولُهُ : وَصَبَّ عَلَيهِم رَبُّكَ سَوطَ ٱلعَذابِ . وقَولُهُ : لَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى ٱلغَضَبُ . وَقالَ عَلِيٌّ : ٱلسَّفَرُ مِيزانُ ٱلقَومِ . وَقالَ : وَامَا وَقَدِ ٱتَّسَعَ نِطاقُ ٱلإِسلامِ . وَلَهُ قَولُهُ لِابنِ عَبَّاسٍ : اَرغِبْ راغِبَهُم وَٱحلُلْ عُقدَةَ ٱلخَوفِ عَنهُم . وَقَولُهُ : ٱلعِلمُ قُفلٌ مِفتاحُهُ ٱلمَسأَلَةُ . وَقَولُهُ : ٱلحِلمُ وَٱلاَناةُ تَوأَمانِ يُنتِجُهُما عُلُوُّ ٱلهِمَّةِ . وَقالَ في بَعضِ خُطَبِهِ يَصِفُ ٱلدُّنيا : اِنَّ ٱمرَءًا لَم يَكُن مِنها في فَرحَةٍ اِلَّا اَعقَبَتهُ بَعدَها تَرحَةً وَلَم يَلقَ مِن سَرَّائِها بَطنًا اِلَّا مَنَحَتهُ مِن ضَرَّائِها ظَهرًا . وَلَم تُطِلَّهُ فِيها غَابَةُ رَخاءٍ اِلَّا هَبَّت عَلَيهِ مُزنَةُ بَلاءٍ . وَلَم يُمسِ مِنها في جَناحِ آمِنٍ اِلَّا اَصبَحَ مِنها عَلَى قَوادِمِ خَوفٍ . وَقالَ ابُو بَكرٍ : اِنَّ ٱلمَلِكَ اِذا مَلَكَ زَهَّدَهُ ٱللهُ

فِي مَا لَهُ وَرَغْبَةٌ فِيمَا فِي يَدِ غَيْرِهِ وَأَشْرَبَ قَلْبُهُ الْإِشْفَاقَ • فَهُوَ يَحْسُدُ عَلَى الْقَلِيلِ وَيَسْخَطُ عَلَى الْكَثِيرِ جَزْلُ الظَّاهِرِ حَزِينُ الْبَاطِنِ • فَإِذَا وَجَبَتْ نَفْسُهُ وَنَفِرَ عُمْرُهُ وَضَحَى ظِلُّهُ حَاسَبَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَأَشَدَّ حِسَابَهُ وَأَقَلَّ عَقْرَهُ • وَكَتَبَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ إِلَى مَرَازِبَةِ فَارِسَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَصَرَ خِدْمَتَكُمْ وَفَرَّقَ كَلِمَتَكُمْ • وَقَالَ الْحَجَّاجُ: دُلُّونِي عَلَى رَجُلٍ سَمِينِ الْأَمَانَةِ أَعْجَفِ الْخِيَانَةِ • وَقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ: الرَّأْيُ لِأَصْحَابِهِ لَا خَيْرَ فِي الرَّأْيِ الْفَطِيرِ وَالْكَلَامِ الْقَضِيبِ • فَلَمَّا بَايَعُوهُ قَالَ: دَعُوا الرَّأْيَ يَغِبُّ فَإِنَّ غُبُوبَهُ يَكْشِفُ لَكُمْ عَنْ مَحَلِّهِ • وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ: إِنَّكَ لَحَسَنُ الْكِدْيَةِ • قَالَ: عِنْوَانُ نِعْمَةِ اللهِ عِنْدِي • وَقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ: الْحِلْمُ دِعَامَةُ الْعَقْلِ • وَقَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ لِرَجُلٍ: رَحِمَ اللهُ أَبَاكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَقْرِي الْعَيْنَ جَمَالًا وَالْأُذُنَ بَيَانًا • وَقِيلَ لِرُؤْبَةَ: كَيْفَ تَرَكْتَ مَا وَرَاءَكَ • قَالَ: التُّرَابُ يَابِسٌ وَالْمَالُ عَابِسٌ • وَقَالَ الْمَنْصُورُ لِبَعْضِهِمْ: بَلَغَنِي أَنَّكَ بَخِيلٌ: قَالَ مَا أَجْمُدُ فِي حَقٍّ وَلَا أَذُوبُ فِي بَاطِلٍ • وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ الْمَوْصِلِيُّ: قُلْتُ لِلْعَبَّاسِ ابْنِ الْحُسَيْنِ: إِنِّي لَأُحِبُّكَ • قَالَ: رَائِدُ ذَلِكَ عِنْدِي • وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْاِسْتِطَالَةُ لِسَانُ الْجَهَالَةِ • وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: الشُّكْرُ كُفْوُ النِّعْمَةِ • وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: خَرَجْتُ فِي لَيْلَةٍ حِنْدِسٍ قَدْ أَلْقَتْ عَلَى الْأَرْضِ أَكَارِعَهَا فَمَحَتْ صُورَةَ الْأَبْدَانِ فَمَا كُنَّا نَتَعَارَفُ إِلَّا بِالْآذَانِ • وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِآخَرَ: يَسَارُ النَّفْسِ خَيْرٌ مِنْ يَسَارِ الْمَالِ وَرُبَّ شَبْعَانَ مِنَ النِّعَمِ غَرْثَانَ مِنَ الْكَرَمِ • وَقَالَ آخَرُ فِي حَرْبٍ: جَعَلُوا الْحَرْبَ

ارشية الموت واستقوا بها ارواح العدو . وقال آخر : فلان املس ليس فيه مستقر بخير ولا شر . وقال احمد بن يوسف وقد شتمه رجل بين يدي المأمون : رأيته يستملي ما يلقاني به من عينيك . وقيل لاعرابي : اي طعام اطيب . قال : الجوع ابصر . ومدح اعرابي رجلا قال : كان يفتح من الرأي ابوابا منسدة ويغسل من العار وجوها مسودة . اذا عرضت له زينة الدنيا هجنتها صورة الحمد عنده وان للمصانع لغارة على امواله كغارة سيوفه على اعدائه . ومدح اعرابي قوما فقال : اولائك غرر تضيء في ظلم الامور المشكلة قد صغت آذان المجد اليهم . وقال اعرابي يمدح رجلا : انه ليعطي عطاء من يعلم ان الله مادته . ومدح اعرابي رجلا فقال : لسانه احلى من الشهد وقلبه سجن الحقد . ان اسأت اليه احسن وكأنه المسيء . واذا اجرمت غفر وكأنه المجرم . اشترى بالمعروف عرضه من الاذى فهو وان كانت له الدنيا باسرها فوهبها راى بعد ذلك عليه حقوقا لا يستعذب الخنى ولا يستحسن غير الوفاء . وقال اعرابي لرجل : لا تدنس شعرك بعرض فلان فانه سمين المال مهزول المعروف من المرزوقين فجاءة قصير عمر الغنى طويل حياة الفقر . وسأل اعرابي فقيل له : عليك بالصيارف . فقال : هناك مرارة اللؤم . وذكر اعرابي قوما فقال : اولائك قوم قد سلخت اقفاءهم بالهجاء ودبغت جلودهم باللوم . فلباسهم في الدنيا الملامة وزادهم في الآخرة الندامة . وذم اعرابي قوما فقال : هم اقل ذنوبا الى اعدائهم

وأكثر تجرماً على أصدقائهم . يصومون عن المعروف ويفطرون على الفحشاء . وذم اعرابي رجلا فقال : ذاك رجل تغدو اليه مواكب الضلالة وترجع من عنده بذور الآثام معدم مما يحب مثر مما يكره . وقال آخر : ما رأيت دمعة ترقرق في عين وتجري على خد احر من عبرة امطرتها عيناه واعشب لها قلبي . وقال اعرابي وذكر زهادا : فاز قوم ادبتهم الحكمة واحكمتهم التجارب ولم تغرهم السلامة المنطوية على الهلكة . ورحل عنهم التسويف الذي قطع به الناس مسافة آجالهم واحسنوا المقال وشفعوه بالفعال تركوا النعيم ليتنعموا . لهم عبرات متدافعة لا يراهم الا في وجه عند الله وجيه . ووصف اعرابي واليا فقال : كان اذا ولي لم يطابق بين جفونه وارسال العيون على عيونه . فهو شاهد معهم غائب عنهم فالمحسن آمن والمسيء خائف . وذكر اعرابي رجلا فقال : كان الفهم منه ذا اذنين والجواب منه ذا لسانين . لم ار احدا كان ارتق لخلل السراء منه كان بعيد مسافة الرأي يرمي بطرفه حيث اشار الكرم . وما زال يتحسى مرارة الاخوان ويسيغهم العذب . ووصف اعرابي قومه فقال : اذا اصطفوا تحت القتام سفرت بينهم السهام بوفود الحمام . واذا تصافحوا بالسيوف فغرت المنايا بافواهها . فكم من يوم عارم قد احسنوا ادبه وحرب عبوس قد ضاحكتها اسنتهم وخطب قد ذللوا مناكبه . انما كانوا كالبحر الذي لا ينكش غماره ولا ينهنه تياره . وقيل لاعرابي : لم لا تشرب النبيذ . فقال : لا اشرب ما يشرب عقلي .

وَقَالَ آخَرُ : اَلْخَطُّ مَرْكَبُ ٱلْبَيَانِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : اَلْقَلَمُ لِسَانُ ٱلْبَيَانِ . وَسَمِعْتُ بَعْضَ ٱلْأَطِبَّاءِ يَقُولُ : اَلْمَاءُ مَطِيَّةُ ٱلطَّعَامِ . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِكَاتِبِهِ : لَا تُكَدِّرْ مَاءَ مَعْرُوفِي بِٱلْمَنِّ فَإِنَّ ٱعْتِدَادَكَ بِٱلْمَعْرُوفِ يَعْقِلُ لِسَانَ ٱلشُّكْرِ . وَأَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي مَنْثُورِ ٱلْكَلَامِ وَفِيمَا أَوْرَدْنَاهُ كِفَايَةٌ . وَأَمَّا ٱلْاِسْتِعَارَةُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ فَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى

البحث التاسع

في مراعاة النظير

(من شرح بديعية العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٣١ من علم الادب)

يُسَمَّى أَيْضًا هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّنَاسُبَ وَٱلْاِئْتِلَافَ وَٱلتَّوْفِيقَ وَٱلْمُؤَاخَاةَ . وَهُوَ فِي ٱصْطِلَاحِ ٱلْبَدِيعِيِّينَ أَنْ يُجْمَعَ بَيْنَ أَمْرٍ وَمَا يُنَاسِبُهُ لَا عَلَى جِهَةِ ٱلتَّضَادِّ . وَهُوَ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ . (ٱلْأَوَّلُ) يُذْكَرُ فِيهِ ٱلشَّيْءُ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فَقَطْ كَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَشَّابِ لِلْخَلِيفَةِ ٱلْمُسْتَضِيءِ :

وَرَدَ ٱلْوَرَى سَلْسَالَ جُودِكَ فَٱرْتَوَوْا ... وَوَقَفْتُ دُونَ ٱلْوِرْدِ وِقْفَةَ حَائِمِ

ظَمْآنَ أَطْلُبُ خِفَّةً مِنْ زَحْمَةٍ ... وَٱلْوِرْدُ لَا يَزْدَادُ غَيْرَ تَزَاحُمِ

فَٱنْظُرْ حُسْنَ هٰذَيْنِ ٱلْبَيْتَيْنِ كَيْفَ جَرَيَا كَٱلْمَاءِ فِي طَلَاوَتِهِ . وَوَقَعَا مِنَ ٱلْقُلُوبِ كَٱلشَّهْدِ فِي حَلَاوَتِهِ . مَعَ أَنَّ نَاظِمَهُمَا مَا خَرَجَ عَنْ وَصْفِ ٱلْمَاءِ كَلَامُهُ . وَلَا تَعَدَّى ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى نِظَامُهُ . فَأَوْدَعَهُمَا فِي عَشْرِ مَوَاضِعَ مُرَاعَاةَ ٱلنَّظِيرِ . فِيهَا مِنَ ٱلْحُسْنِ مَا لَيْسَ لَهُ مِنْ نَظِيرٍ . لٰكِنَّهُ مَا سَلِمَ

مَليحٌ مِنْ عَيبٍ. وَلَاخَلَا مِنْ مَرفُوعِ رَيبٍ. فَمَعَ هٰذِهِ ٱلمَحاسِنِ ٱلظَّرِيفَةِ مَا سَلِمَ ٱلبَيتَانِ مِنْ عَيبِ ٱلقَافِيَةِ. فَقَدْ غَيَّرَ ٱلنَّاظِمُ كَسْرَةَ ٱلدَّخِيلِ عَلَى ٱلضَّمَّةِ. وَجَاءَ فِي ذَلِكَ بِمَا عَابَهُ كُلُّ اَدِيبٍ وَذَمَّهُ. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلسَّلَامِيِّ:

وَٱلنَّقعُ ثَوبٌ بِٱلنُّسُورِ مُطَرَّزٌ ... وَٱلأَرضُ فَرشٌ بِٱلجِيادِ مُخَمَّلُ

وَسُطُورُ خَيلِكَ اِنَّمَا اَلِفَاتُهَا ... سُمْرٌ تُنَقِّطُ بِٱلدِّمَاءِ وَتُشكِلُ

نَاسَبَ بَيْنَ ٱلثَّوبِ وَٱلتَّطرِيزِ وَٱلمُخَمَّلِ وَبَيْنَ ٱلسُّطُورِ وَٱلأَلِفَاتِ وَٱلنَّقطِ وَٱلشَّكلِ

(تَنبِيهٌ) وَلَوْ ذَكَرَ ٱلشَّيْءَ مَعَ مَا لَا يُنَاسِبُهُ كَانَ ذَلِكَ عِنْدَهُمْ عَيبًا. كَقَوْلِ اَبِي نُوَاس:

وَقَدْ حَلَفْتُ يَمِينًا ... مَبْرُورَةً لَا تُكَذَّبْ

بِرَبِّ زَمْزَمَ وَٱلحَوْ ... ضِ وَٱلصَّفَا وَٱلمُحَصَّبْ

عَابُوا عَلَيهِ ذِكرَ ٱلحَوضِ مَعَ زَمْزَمَ وَٱلصَّفَا وَٱلمُحَصَّبِ. وَاِنَّهُ غَيرُ مُنَاسِبٍ ذِكرُهُ مَعَهَا. وَاِنَّمَا يُنَاسِبُ ذِكرُ ٱلحَوضِ مَعَ ٱلمِيزَانِ وَٱلصِّرَاطِ وَشِبهِهِمَا مِمَّا هُوَ مَنُوطٌ بِيَومِ ٱلقِيَامَةِ

(تَنبِيهٌ ثَانٍ) لَوْ جَاءَ ٱلكَاتِبُ بِمُتَنَاسِبَيْنِ فَاَفرَدَ اَحَدَهُمَا وَثَنَّى ٱلآخَرَ اَوْ جَمَعَهُ وَمَا اَشبَهَ ذَلِكَ كَانَ عَيبًا كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

اَلَا يَا ٱبْنَ ٱلَّذِينَ فَنُوا وَمَاتُوا ... اَمَا وَٱللهِ مَا مَاتُوا لِتَبقَى

وَمَا لَكَ فَاعْلَمَنْ فِيهَا بَقَاءٌ ... اِذَا ٱستَكمَلتَ آجَالًا وَرِزقَا

فَجَمَعَ (ٱلأَجَلَ) وَاَفرَدَ (ٱلرِّزقَ) مَعَ اَنَّهُمَا مُتَنَاسِبَانِ. (اَلثَّانِي) اَنْ يُذكَرَ شَيْءٌ اَوْ اَشيَاءُ كُلُّ وَاحِدٍ مَعَ مَا يُنَاسِبُهُ فِي جُمَلٍ مُستَوِيَةٍ

ٱلْمِقْدَارِ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلتَّفْوِيفَ اِشَبَهِهِ بِٱلثَّوْبِ ٱلْمُفَوَّفِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ خُطُوطٌ مُسْتَوِيَةٌ وَتَشْبِيهُ ٱلْجُمَلِ بِٱسْتِوَاءِ تِلْكَ ٱلْخُطُوطِ . وَتَكُونُ هٰذِهِ ٱلْجُمَلُ طِوَالًا كُلُّهَا اَوْ مُتَوَسِّطَةً . وَكُلُّهَا اِمَّا اَنْ يَكُونَ آخِرُهَا فِي بَعْضِ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْمُدْمَجَةُ . وَاِمَّا اَنْ يُوَافِقَ آخِرُهَا آخِرَ جُزْءِ ٱلتَّفْعِيلِ وَهِيَ ٱلْغَيْرُ ٱلْمُدْمَجَةِ وَهُوَ ٱلْاَحْسَنُ . فَمِنْ قَوْلِ ٱبْنِ عُنَيْنٍ :

دَعَتْ فِي اَعَالِي ٱلسُّغْدِ يَوْمًا حَمَامَةٌ   عَلَى فَنَنٍ مِنْ كُلِّ رَيَّانَ كَٱلْيَمِّ
فَهَاجَتْ مَشُوقًا وَٱسْتَفَزَّتْ مُتَيَّمًا   وَاَبْكَتْ غَرِيبًا وَٱسْتَخَفَّتْ اَخَا عِلْمِ

(اَلسُّغْدُ مَوْضِعٌ بِسَمَرْقَنْدَ قَدِ ٱتُّخِذَ لِلنَّزَاهَةِ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْحُسْنِ) . وَكَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ فِي مَدْحٍ :

وَٱلدَّهْرُ يُقْبِلُ اَنْ تُقْبِلْ وَيُعْرِضُ اَنْ   تُعْرِضْ وَغَيْرُ ٱلَّذِي قَدَّرْتَ لَمْ يَرِمِ
اِنْ قُلْتَ يَسْمَعْ وَاِنْ تَأْمُرْ يُطِعْ وَمَتَى   فَعَلْتَ تُسْعِدْ وَاِنْ لَاحَظْتَ تُحْتَرَمِ

وَقَدْ بَلَغَ بِهَا ٱلْمُتَنَبِّي اِلَى اَرْبَعَ عَشْرَةَ جُمْلَةً لٰكِنْ بِغَيْرِ حَرْفِ عَطْفٍ فَثَقُلَتْ وَخَرَجَتْ عَنْ سِلْكِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَهِيَ قَوْلُهُ :

اَقِلْ اَنِلْ اَقْطِعِ ٱحْمِلْ عَلِّ سَلِّ اَعِدْ   زِدْ هَشِّ بَشِّ تَفَضَّلْ اَدْنِ سُرَّ صِلِ

(اَلثَّالِثُ) مِنْ مُرَاعَاةِ ٱلنَّظِيرِ اَنْ تَذْكُرَ شَيْئَيْنِ مُتَنَاسِبَيْنِ وَتَخْتِمَ ٱلْكَلَامَ بِشَيْئَيْنِ : اَحَدُهُمَا يُلَائِمُ وَاحِدًا مِمَّا تَقَدَّمَ . وَٱلْآخَرُ يُلَائِمُ ٱلْآخَرَ . وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ تَنَاسُبَ ٱلْاَطْرَافِ . وَمِنْهُ قَوْلُهُ : لَا تُدْرِكُهُ ٱلْاَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْاَبْصَارَ . وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ . فَٱللَّطِيفُ يُنَاسِبُ مَا لَا يُدْرَكُ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَفَاءِ . وَٱلْخَبِيرُ يُنَاسِبُ مَنْ هُوَ مُدْرِكٌ لِلطَّائِفِ

ٱلْاَشياء . (ٱلرَّابعُ) اَنْ تذكُرَ ٱلشَّيْءَ ثُمَّ تذكُرَ معَهُ لَفظًا مُشتَرَكًا بَيْنَ اَمرَيْنِ: اَحدُهما يُلائِمُ ٱلأَوَّلَ وَٱلآخَرُ لَا يُلائِمُهُ فيتوَهَّمُ ٱلسامِعُ اَنَّهُ مُرادِفُ ٱلْمُلائِمِ ولَيسَ كَذٰلِكَ . وَيُسمَّى هٰذَا ٱلنَّوعُ إِيهامَ ٱلنَّظِيرِ . كَقَوْلِ ٱلقائِلِ : ٱلشَّمْسُ وَٱلقَمرُ بِحُسْبانٍ وَٱلنَّجمُ وَٱلشجرُ يَسجُدانِ . فَيُتَوَهَّمُ مُراعاةُ ٱلنَّظِيرِ وَلَيْسَ كذٰلِكَ لِانَّ ٱلْمُرادَ بِٱلنَّجمِ ٱلنَّباتُ لَا ٱلكَوْكَبُ لِعَطفِ ٱلشَّجرِ عَلَيْهِ

البحث العاشر

في المجاز المرسل

(عن السكاكي والدسوقي والتعالي باختصار)

(راجع صفحة ٣٣ من علم الادب)

إِنَّ عَلاقَةَ ٱلْمَجازِ ٱلْمُصَحِّحَةَ لَهُ إِمَّا اَنْ تَكُونَ مُشابَهَةَ ٱلْمَنقُولِ إِلَيْهِ بِٱلْمَنقُولِ عَنهُ فِي شَيْءٍ فَيُسمَّى ٱلْمَجازُ ٱسْتِعارةً كَمَا مَرَّ . وَإِمَّا اَنْ تَكُونَ عَلاقَةُ ٱلمَجازِ غَيْرَ ٱلْمُشابَهَةِ فَيُسمَّى مُرْسَلًا كَلَفظِ ٱلْيَدِ إِذَا ٱسْتُعْمِلَ فِي ٱلنِّعْمَةِ وَٱلْقُدْرَةِ كَمَا يُقالُ : جَلَّتْ اَيادِيهِ عِنْدِي . اَيْ كَثُرَتْ نِعْمَتُهُ لَدَيَّ. وَٱتَّسعَتِ ٱلْيَدُ فِي ٱلْبَلَدِ . وَٱلْيَدُ فِي ٱللُّغةِ ٱلْعُضْوُ ٱلْمَخْصُوصُ وَٱلْعَلاقَةُ كَوْنُ ذٰلِكَ ٱلْعُضْوِ مَصْدَرًا لِلنِّعْمَةِ فَإِنَّهَا تَصِلُ إِلَى ٱلْمُنعَمِ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْيَدِ فَتَكُونُ ٱلْجارِحَةُ ٱلْمَخْصُوصَةُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْعِلَّةِ ٱلْفاعِلِيَّةِ لَهَا. وَاَيضًا بِٱلْيَدِ تَظْهَرُ ٱلنِّعْمَةُ فَتَكُونُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْعِلَّةِ ٱلصُّورِيَّةِ لَهَا . وَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ لِلْقُدْرَةِ فَلِأَنَّ اَكْثَرَ مَا يَظْهَرُ سُلْطانُ ٱلْقُدْرَةِ فِي ٱلْيَدِ وَبِهَا تَكُونُ ٱلْاَفْعالُ ٱلدَّالَّةُ عَلَى ٱلْقُدْرَةِ مِنَ ٱلْبَطْشِ وَٱلضَّرْبِ

وَٱلْقطعِ وَٱلْأخذِ وغيرِ ذلكَ . وَأنواعُ ٱلعلاقةِ ٱلْمُعتبَرة كثيرةٌ منها عائدةٌ إلى (ٱلتَّضمُّنِ) وهي ٱلتي تدلُّ على زِيادةِ او نُقصانٍ . (فَمِنَ ٱلنُّقصانِ) تسميةُ ٱلشَّيْءِ بٱسْمِ جُزْئهِ وَإطلاقُ ٱلخاصِّ لِلعامِّ . وَهٰذا مِنْ سُنَنِ ٱلعربِ فإنَّهم يقتصرون على بعضِ ٱلشَّيْءِ وَهُم يُرِيدون كُلَّهُ فيقولونَ : قعدَ على ظَهرِ رَاحِلتهِ . وَكقولِ ٱلشاعِرِ :

ٱلوَاطِئينَ عَلى صُدُورِ نِعالِهِمْ

وَكقولِ لَبيدٍ :

او يَرتبِطْ بعضَ ٱلنُّفوسِ حِمامُها

وَفي ٱلقُرآنِ : قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ ابصارِهِمْ . وَٱلْمُرادُ يَغُضُّوا ابصارَهُمْ كُلَّها . (وكذلكَ) يَصِفُونَ ٱلبعضَ بِصِفَةِ ٱلكُلِّ كقولهِ : نَاصِيةٌ كاذِبةٌ خاطِئةٌ . فَٱلخطأُ صِفةُ ٱلكُلِّ وَصَفَ بهِ ٱلنَّاصِيةَ . ومِثلُ ذلكَ إطلاقُهُمْ لفظَ (بعضٍ) مُرادًا بهِ ٱلكُلُّ كقولهِ : لِأُبيِّنَ لَكُمْ بعضَ ٱلذي تختلفونَ فيهِ اي كُلَّهُ . وَمِنْ سُنَنِ ٱلعربِ انْ تُقيمَ ٱلوَاحِدَ مَقامَ ٱلجَمعِ فيقولونَ : قرَرْنا بهِ عينًا . اي اعيُنا . وكقولهِ : لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ احَدٍ مِنهُمْ . وَٱلتَّفريقُ لَا يَكونُ إلَّا بينَ ٱثنينِ . وَٱلتَّقديرُ : لَا نُفرِّقُ بينهُمْ . وَمِنْ هٰذا ٱلبابِ سُنَّةُ ٱلعربِ انْ يَقُولُوا لِلرَّجلِ ٱلعظيمِ وَٱلْمَلكِ ٱلكبيرِ : ٱنظُرُوا في امري . وَلِأنَّ ٱلسَّادةَ وَٱلْمُلوكَ يقولونَ : نَحْنُ فَعَلْنا وَإنَّا امَرْنا . فعلَى قَضيةِ هٰذا ٱلِابتداءِ يُخاطَبون في ٱلجوابِ . (وَمِنَ ٱلزِّيادةِ) وَهُوَ عَكسُ ما قبلَهُ إطلاقُ ٱسمِ ٱلعامِّ لِلخاصِّ وَمِنْهُ بابُ ٱلتَّخصيصِ بِأسرهِ وَإطلاقُ ٱسمِ ٱلكُلِّ على ٱلجُزءِ نحوُ : يَجعلونَ

اَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ ٱلصَّوَاعِقِ • يُرِيدُ ٱلْأَنْمُلَةَ وَهِيَ جُزْءٌ مِنَ ٱلْأَصَابِعِ • وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْمُبَالَغَةُ كَأَنَّهُ جَعَلَ جَمِيعَ ٱلْأَصَابِعِ فِي ٱلْأُذُنِ لِئَلَّا يَسْمَعَ شَيْئًا مِنَ ٱلصَّاعِقَةِ • (وَمِنْ سُنَنِهِمْ) اَيْضًا ٱلْإِتْيَانُ بِٱلْجَمْعِ وَيُرِيدُونَ بِهِ ٱلْوَاحِدَ كَقَوْلِهِ : مَا كَانَ لَهُمْ اَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ ٱللّٰهِ • وَإِنَّمَا اَرَادَ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ • وَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ : ٱفْعَلَا ذٰلِكَ • وَٱلْمُخَاطَبُ وَاحِدٌ • وَكَقَوْلِهِ : اَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ • وَهُوَ خِطَابٌ لِخَازِنِ ٱلنَّارِ وَحْدَهُ • وَكَمَا قَالَ ٱلْأَعْشَى :

وَصَلِّ عَلَى خَيْرِ ٱلْعَشِيَّاتِ وَٱلضُّحَى ... وَلَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ وَٱللّٰهَ فَٱعْبُدَا

وَيُقَالُ إِنَّهُ اَرَادَ : وَٱللّٰهَ فَٱعْبُدَنْ • فَقَلَبَ ٱلنُّونَ ٱلْخَفِيفَةَ اَلِفًا • وَكَذٰلِكَ فِي قَوْلِهِ : اَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ • (وَمِنْ اَنْوَاعِ) ٱلْعَلَاقَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ فِي ٱلْمَجَازِ ٱلْمُرْسَلِ مَا يَقُودُ إِلَى (ٱلِٱسْتِلْزَامِ) وَهُوَ مَا ٱقْتَضَى مَعْنَاهُ مَعْنًى آخَرَ لِأَجْلِ عَلَاقَتِهِ • (فَمِنْ ذٰلِكَ) إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْمَلْزُومِ عَلَى ٱللَّازِمِ وَٱللَّازِمِ عَلَى ٱلْمَلْزُومِ نَحْوُ : هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ • اَيْ هَلْ يَفْعَلُ • اَطْلَقَ ٱلِٱسْتِطَاعَةَ عَلَى ٱلْفِعْلِ لِأَنَّهَا لَازِمَةٌ لَهُ • وَكَقَوْلِهِ : يُرْسِلُ ٱلسَّمَاءَ مِدْرَارًا • اَيِ ٱلْمَطَرَ • لِأَنَّهُ مِنْهَا يَنْزِلُ • (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ سَبَبِهِ • كَقَوْلِهِ : مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ • اَيِ ٱلْقَبُولَ وَٱلْعَمَلَ بِهِ لِأَنَّهُ يَتَسَبَّبُ عَنِ ٱلسَّمْعِ • وَكَقَوْلِهِ : رَعَيْنَا ٱلْغَيْثَ • اَيِ ٱلنَّبَاتَ ٱلَّذِي سَبَبُهُ ٱلْغَيْثُ • (وَعَكْسُهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مُسَبَّبِهِ نَحْوُ : اَمْطَرَتِ ٱلسَّمَاءُ نَبَاتًا • اَيْ غَيْثًا يَكُونُ ٱلنَّبَاتُ مُسَبَّبًا عَنْهُ • وَكَقَوْلِهِ : يُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ ٱلسَّمَاءِ رِزْقًا • اَيْ مَطَرًا وَهُوَ مِنْ تَوَابِعِهِ • (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا كَانَ

عَلَيهِ نَحْوُ : آتوا ٱليَتَامَى اَموَالَهُمْ . اَيِ ٱلَّـذِينَ كَانُوا يَتَامَى لِاَنَّهُمْ لَا يُؤْتَوْنَ اَموَالَهُمْ حَتَّى يَبْلُغُوا وَلَا يُتمَ بَعْدَ ٱلْبُلُوغِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَا يَؤُولُ اِلَيهِ نَحْوُ : اِنِّي اَرَانِي اَعصِرُ خَمْرًا اَيْ عِنَبًا . يُعصَرُ فَيَؤُولُ اِلَى ٱلخَمْرِ . وَكَقَوْلِهِ : وَلَا يَلِدُوا اِلَّا كَفَّارًا . اَيْ صَائِرًا اِلَى ٱلـكُفرِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ مَحَلِّهِ نَحْوُ : فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ اَيْ اَهلَ نَادِيهِ . اَيْ مَجْلِسِهِ . وَكَقَوْلِهِ : اَسْاَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا . اَيْ اهلَهَا . (وَمِنْهُ عَكْسُهُ) اَيْ إِطْلَاقُ ٱسْمِ ٱلْحَالِّ عَلَى ٱلْمَحَلِّ . نَحْوُ : حَلُّوا فِي رَحْمَةِ ٱللهِ اَيْ فِي ٱلْجَنَّةِ لِاَنَّهَا مَحَـلُّ ٱلرَّحْمَةِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ آلَتِهِ نَحْوُ : وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلآخِرِينَ . اَيِ ٱجْعَلْ لِي ثَنَاءً حَسَنًا وَٱللِّسَانُ آلَةُ ٱلصِّدْقِ وَٱلثَّنَاءِ . (وَمِنْهُ) تَسْمِيَةُ ٱلشَّيْءِ بِٱسْمِ ضِدِّهِ نَحْوُ : فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ اَلِيمٍ . اَيْ اَنْذِرْهُمْ وَهَدِّدْهُمْ . وَتَقُولُ ٱلعَرَبُ لِلرَّجُلِ تَسْتَجْهِلُهُ : يَا عَاقِلُ . وَٱلْمَرْاَةِ تَسْتَقْبِحُهَا : يَا قَمَرُ . (وَكَذٰلِكَ) يَقْلِبُونَ ٱلْمَعْنَى نَحْوُ : عَرَضْتُ ٱلنَّاقَةَ عَلَى ٱلْحَوْضِ . يُرِيدُونَ ٱلْحَوْضَ عَلَى ٱلنَّاقَةِ . (وَمِنْهُ) وَصْفُ ٱلشَّيْءِ بِمَا يَقَعُ فِيهِ اَوْ يَكُونُ مِنْهُ نَحْوُ : يَوْمٌ عَاصِفٌ . اَيْ عَاصِفُ ٱلرِّيحِ . وَلَيْلٌ نَائِمٌ وَسَاهِرٌ وَصَائِمٌ اَيْ يُنَامُ فِيهِ وَيُسْهَرُ وَيُصَامُ . (وَمِنْهُ) اِضَافَةُ ٱلفِعْلِ اِلَى مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ تَشْبِيهًا . كَقَوْلِهِ : جِدَارٌ يُرِيدُ اَنْ يَنْقَضَّ . وَلَا اِرَادَةَ لِلْجِدَارِ . وَلٰـكِنَّهُ تَوَسَّعَ ٱلعَرَبُ فِي ٱلمَجَازِ فَعَبَّرُوا عَنِ ٱلْجَمَادِ بِفِعْلِ ٱلاِنْسَانِ كَمَا قَالَ ٱلرَّاجِزُ :

اِمْتَلَاَ ٱلْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي

ايْ كَفَانِي وَلَيسَ لِلحَوْضِ قَوْلٌ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلرَّاعِي ٱلشَّاعِرِ ٱلنَّصْرَانِيّ :

فِي مَهْمَهٍ فُلِقَتْ بِهِ هَامَاتُهَا فَلْقَ ٱلْفُؤُوسِ إِذَا ارَدْنَ نُصُولَا

وَٱلْعربُ تُسَمِّي ٱلتهيُّؤَ لِلفعلِ وَٱلِاحْتِيَاجَ اِلَيْهِ إِرَادَةً. وَكَذٰلِكَ يَأْتُونَ بِلَفظِ ٱلْمَاضِي وَهُوَ مُسْتَقْبَلٌ وَبِلَفْظِ ٱلْمُسْتَقْبلِ وَهُوَ مَاضٍ كَقَوْلِهِ : لِمَ تَقْتُلُونَ انبِيَاءَ ٱللهِ اي لِمَ قَتَلْتُمْ . وَكَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

فَادْرَكْتُ مَنْ قَدْ كَانَ قَبْلِي وَلَمْ ادَعْ لِمَنْ كَانَ بَعْدِي فِي ٱلْقَصَائِدِ مُصْنِفَا

ايْ لِمَنْ يَكُونُ بَعْدِي . وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : وَكَانَ ٱللهُ غَفُورًا . ايْ كَانَ وَيَكُونُ وَهُوَ كَائِنٌ ٱلآنَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ . وَكَذٰلِكَ يَأْتُونَ بِٱلْمَفعُولِ بِلَفْظِ ٱلْفَاعِلِ فَيَقُولُونَ : سِرٌّ كَاتِمٌ اي مَكْتُومٌ . وَمَكَانٌ عَامِرٌ اي مَعْمُورٌ. وَمَاءٌ دَافِقٌ اي مَدْفُوقٌ . وَعِيشَةٌ رَاضِيَةٌ اي مَرْضِيَّةٌ . وَحَرَمٌ آمِنٌ اي مَأْمُونٌ . وَقَالَ جَرِيرٌ :

إِنَّ ٱلْبَلِيَّةَ مَنْ تَمَلُّ كَلَامَهُ فَانْقَعْ فُؤَادَكَ مِنْ حَدِيثِ ٱلوَامِقِ

ايْ مِنْ حَدِيثِ ٱلْمَوْمُوقِ . وَيَعْكِسُونَ هٰذَا ٱلْعَمَلَ وَيَسْتَعْمِلُونَ ٱلْفَاعِلَ بِلَفْظِ ٱلْمَفْعُولِ كَقَوْلِهِ : كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ايْ آتِيًا . وَكَقَوْلِهِ : حِجَابٌ مَسْتُورٌ اي سَاتِرٌ . وَيُقِيمُونَ ٱلِاسْمَ وَٱلْمَصْدَرَ مَقَامَ ٱلْفَاعِلِ وَٱلْمَفعُولِ . فَتَقُولُ ٱلْعَرَبُ : رَجُلٌ عَدْلٌ اي عَادِلٌ . وَرِضًى اي مَرْضِيٌّ . وَبَنُو فُلَانٍ لَنَا سِلْمٌ ايْ مُسَالِمُونَ . وَحَرْبٌ اي مُحَارِبُونَ . (وَكَذٰلِكَ) يَحْمِلُونَ ٱللَّفظَ عَلَى ٱلْمَعْنَى فِي تَذْكِيرِ ٱلْمُؤَنَّثِ وَتَأْنِيثِ ٱلْمُذَكَّرِ فَيَتْرُكُونَ حُكْمَ ظَاهِرِ ٱللفظِ وَيَحْمِلُونَهُ عَلَى مَعْنَاهُ كَمَا يَقُولُونَ : ثَلَاثَةُ انفُسٍ. وَٱلنَّفسُ مُؤَنَّثَةٌ وَإِنَّمَا حَمَلُوهُ عَلَى مَعْنَى ٱلْإِنسَانِ اوْ مَعْنَى ٱلشَّخصِ

قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا عِنْدَنَا إِلَّا ثَلاثَةُ أَنْفُسٍ بِمِثْلِ ٱلنُّجُومِ تَلألأَتْ فِي ٱلْحِنْدِسِ

وَكَمَا ذَكَرَ بَعْضُهُمْ ٱلْكَفَّ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ فِي قَوْلِهِ :

أَرَى رَجُلًا مِنْهُمْ أَسِيفًا كَأَنَّمَا يَضُمُّ إِلَى كَشْحَيْهِ كَفًا مُخَضَّبَا

فَحَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلْعُضْوِ وَهُوَ مُذَكَّرٌ . وَكَمَا قَالَ ٱلْآخَرُ :

يَا أَيُّهَا ٱلرَّاكِبُ ٱلْمُزْجِي مَطِيَّتَهُ سَائِلْ بَنِي أَسَدٍ مَا هٰذِهِ ٱلصَّوْتُ

أَيْ مَا هٰذِهِ ٱلْجَلَبَةُ . وَفِي ٱلْقُرْآنِ : وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا . وَلَمْ يَقُلْ : مَيْتَةً لِأَنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ٱلْمَكَانِ . وَقَالَ : ٱلسَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ . فَذَكَّرَ ٱلسَّمَاءَ وَهِيَ مُؤَنَّثَةٌ لِأَنَّهُ حَمَلَ ٱلْكَلَامَ عَلَى ٱلسَّقْفِ . وَكُلُّ مَا عَلَاكَ وَأَظَلَّكَ فَهُوَ سَمَاءٌ .

البحث الحادي عشر

في القول عن الكناية

(عن كتاب صناعة الترسل والمثل السائر)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَللَّفْظَةُ إِذَا أُطْلِقَتْ وَكَانَ ٱلْغَرَضُ ٱلْأَصْلِيُّ غَيْرَ مَعْنَاهَا فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهَا مَقْصُودًا أَيْضًا لِيَكُونَ دَالًّا عَلَى ذٰلِكَ ٱلْغَرَضِ ٱلْأَصْلِيِّ . وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ كَذٰلِكَ . فَٱلْأَوَّلُ هُوَ ٱلْكِنَايَةُ وَيُقَالُ لَهُ : ٱلْإِرْدَافُ . وَٱلثَّانِي ٱلْمَجَازُ . فَٱلْكِنَايَةُ عِنْدَ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ أَنْ يُرِيدَ ٱلْمُتَكَلِّمُ إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي فَلَا يَذْكُرُهُ بِٱللَّفْظِ ٱلْمَوْضُوعِ لَهُ فِي ٱللُّغَةِ وَلٰكِنْ يَجِيءُ إِلَى مَعْنًى هُوَ تَالِيهِ وَرِدْفُهُ فِي ٱلْوُجُودِ

فَيُومِئُ بِهِ إِلَيْهِ وَيَجْعَلُهُ دَلِيلًا عَلَيْهِ

وَاعْلَمْ أَنَّ الْكِنَايَةَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ السِّتْرِ . يُقَالُ : كَنَيْتُ الشَّيْءَ إِذَا سَتَرْتَهُ . وَأُجْرِيَ هٰذَا الْحُكْمُ فِي الْأَلْفَاظِ الَّتِي يُسْتَرُ فِيهَا الْمَجَازُ بِالْحَقِيقَةِ فَتَكُونُ دَالَّةً عَلَى السَّاتِرِ وَعَلَى الْمَسْتُورِ مَعًا . وَذٰلِكَ أَنَّ الْمَسْتُورَ فِيهَا هُوَ الْمَجَازُ لِأَنَّ الْحَقِيقَةَ تُفْهَمُ أَوَّلًا وَيَتَسَارَعُ الْفَهْمُ إِلَيْهَا قَبْلَ الْمَجَازِ . لِأَنَّ دَلَالَةَ اللَّفْظِ عَلَيْهَا دَلَالَةٌ وَضْعِيَّةٌ . وَأَمَّا الْمَجَازُ فَإِنَّهُ يُفْهَمُ مِنْهُ بَعْدَ فَهْمِ الْحَقِيقَةِ وَإِنَّمَا يُفْهَمُ بِالنَّظَرِ وَالْفِكْرَةِ وَبِهٰذَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ لِأَنَّهُ عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ اللَّفْظِ . فَالْحَقِيقَةُ أَظْهَرُ وَالْمَجَازُ أَخْفَى وَهُوَ مَسْتُورٌ بِالْحَقِيقَةِ . وَقَدْ تَأَوَّلْتُ الْكِنَايَةَ بِغَيْرِ هٰذَا وَهِيَ أَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْكُنْيَةِ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا : أَبُو فُلَانٍ . فَإِنَّا إِذَا نَادَيْنَا رَجُلًا اسْمُهُ عَبْدُ اللّٰهِ وَلَهُ وَلَدٌ اسْمُهُ مُحَمَّدٌ فَقُلْنَا : يَا أَبَا مُحَمَّدٍ . كَانَ ذٰلِكَ مِثْلَ قَوْلِنَا : يَا عَبْدَ اللّٰهِ . فَإِنْ شِئْنَا نَادَيْنَاهُ بِهٰذَا وَإِنْ شِئْنَا نَادَيْنَاهُ بِهٰذَا وَكِلَاهُمَا وَاقِعٌ عَلَيْهِ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي الْحُكْمُ فِي الْكِنَايَةِ فَإِنَّا إِذَا شِئْنَا حَمَلْنَاهَا عَلَى جَانِبِ الْمَجَازِ . وَإِنْ شِئْنَا حَمَلْنَاهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ . إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الْوَصْفِ الْجَامِعِ بَيْنَهُمَا لِئَلَّا يَلْحَقَ بِالْكِنَايَةِ مَا لَيْسَ مِنْهَا

وَمِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : هُوَ طَوِيلُ النِّجَادِ وَكَثِيرُ رَمَادِ الْقِدْرِ . يَعْنُونَ بِهِ أَنَّهُ طَوِيلُ الْقَامَةِ كَثِيرُ الْقِرَى فَلَمْ يَذْكُرِ الْمُرَادَ بِلَفْظِهِ الْخَاصِّ بِهِ وَلٰكِنْ تَوَصَّلُوا إِلَيْهِ بِذِكْرِ مَعْنًى آخَرَ هُوَ رِدْفُهُ فِي الْوُجُودِ . أَلَا تَرَى أَنَّ الْقَامَةَ إِذَا طَالَتْ طَالَ النِّجَادُ . وَإِذَا كَثُرَ الْقِرَى كَثُرَ رَمَادُ الْقِدْرِ .

وَكَقَوْلِ الْحَضْرَمِيِّ :

قَدْ كَانَ يُعْجِبُ بَعْضَهُنَّ بَرَاعَتِي   حَتَّى رَأَيْنَ تَنَحْنُحِي وَسُعَالِي

كَنَى عَنْ كِبَرِ ٱلسِّنِّ بِتَوَابِعِهِ وَهِيَ ٱلتَّنَحْنُحُ وَٱلسُّعَالُ. وَٱلْكِنَايَةُ تَكُونُ فِي ٱلْمُثْبَتِ كَمَا ذَكَرْنَا وَقَدْ تَكُونُ فِي ٱلْاثْبَاتِ. وَهِيَ مَا إِذَا حَاوَلُوا إِثْبَاتَ مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي لِشَيْءٍ فَيَتْرُكُونَ ٱلتَّصْرِيحَ بِإِثْبَاتِهِ لَهُ وَيُثْبِتُونَهُ لِمَا لَهُ بِهِ تَعَلُّقٌ كَقَوْلِهِمْ: ٱلْمَجْدُ بَيْنَ ثَوْبَيْهِ وَٱلْكَرَمُ بَيْنَ بُرْدَيْهِ. وَقَوْلِهِ:

إِنَّ ٱلْمُرُوءَةَ وَٱلسَّمَاحَةَ وَٱلنَّدَى   فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ٱبْنِ ٱلْحَشْرَجِ

وَنَظِيرُهُ قَوْلُ يَزِيدَ بْنِ ٱلْحَكَمِ يَمْدَحُ يَزِيدَ بْنَ ٱلْمُهَلَّبِ وَهُوَ فِي حَبْسِ ٱلْحَجَّاجِ:

أَصْبَحَ فِي قَيْدِكَ ٱلسَّمَاحَةُ م   وَٱلْمَجْدُ وَفَضْلُ ٱلصَّلَاحِ وَٱلْحَسَبُ

وَقَالَ ٱلْجُرْجَانِيُّ: مَكَانُ ٱلْقَيْدِ هٰهُنَا هُوَ مَكَانُ ٱلْقُبَّةِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْمُتَقَدِّمِ. وَقَدْ يَجْتَمِعُ بِٱلْبَيْتِ ٱلْوَاحِدِ كِنَايَاتَانِ: ٱلْغَرَضُ مِنْهُمَا وَاحِدٌ وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا أَصْلٌ بِنَفْسِهَا كَقَوْلِهِ:

وَمَا يَكُ فِيَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنِّي   جَبَانُ ٱلْكَلْبِ مَهْزُولُ ٱلْفَصِيلِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ جُزْءٌ مِنَ ٱلْاسْتِعَارَةِ وَلَا تَأْتِي إِلَّا عَلَى حُكْمِ ٱلِاسْتِعَارَةِ خَاصَّةً لِأَنَّ ٱلِاسْتِعَارَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ ٱلْمُسْتَعَارِ لَهُ. وَكَذٰلِكَ ٱلْكِنَايَةُ فَإِنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِحَيْثُ يُطْوَى ذِكْرُ ٱلْمَكْنِيِّ عَنْهُ وَنِسْبَتُهَا إِلَى ٱلِاسْتِعَارَةِ نِسْبَةُ خَاصٍّ إِلَى عَامٍّ. فَيُقَالُ: كُلُّ كِنَايَةٍ ٱسْتِعَارَةٌ. وَلَيْسَ كُلُّ ٱسْتِعَارَةٍ كِنَايَةً. وَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا مِنْ وَجْهٍ آخَرَ وَهُوَ: أَنَّ ٱلِاسْتِعَارَةَ لَفْظُهَا صَرِيحٌ. وَٱلصَّرِيحُ

هُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ لَفظِهِ وَالْكِنَايَةُ ضِدُّ ٱلصَّرِيحِ لِأَنَّهَا عُدُولٌ عَنْ ظَاهِرِ ٱللَّفظِ . وَهٰذِهِ ثَلَاثَةُ فُرُوق احَدُهَا : ٱلْخُصُوصُ وَٱلْعُمُومُ . وَٱلآخَرَ ٱلصَّرِيحُ . وَٱلآخَرُ ٱلْحَمْلُ عَلَى جَانِبِ ٱلْحَقِيقَةِ وَٱلْمَجَازِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ فِي بَابِ ٱلِاسْتِعَارَةِ انَّهَا جُزْءٌ مِنَ ٱلْمَجَازِ . وَعَلَى ذٰلِكَ فَتَكُونُ نِسْبَةُ ٱلْكِنَايَةِ إِلَى ٱلْمَجَازِ نِسْبَةَ جُزْءِ ٱلْجُزْءِ وَخَاصِّ ٱلْخَاصِّ وَقَدْ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ مَا يَجُوزُ انْ يَكُونَ كِنَايَةً وَيَجُوزُ انْ يَكُونَ ٱسْتِعَارَةً . وَذٰلِكَ يَخْتَلِفُ بِٱخْتِلَافِ ٱلنَّظَرِ إِلَيْهِ فِي مُفْرَدِهِ وَٱلنَّظَرِ إِلَى مَا بَعْدَهُ كَقَوْلِ نَصرِ بْنِ سَيَّار فِي ابْيَاتِهِ ٱلْمَشْهُورَةِ ٱلَّتِي يُحَرِّضُ بِهَا بَنِي أُمَيَّةَ عِنْدَ خُرُوجِ ابِي مُسْلِم :

ارَى خَلَلَ ٱلرَّمَادِ وَمِيضَ جَمْرٍ وَيُوشِكُ انْ يَكُونَ لَهُ ضِرَامُ

البحث الثاني عشر

في التعريض

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٣٧ من علم الادب)

قَدْ تَكَلَّمَ عُلَمَاءُ ٱلْبَيَانِ فِي ٱلتَّعْرِيضِ فَوَجَدْتُهُمْ قَدْ خَلَطُوا ٱلتَّعْرِيضَ بِٱلْكِنَايَةِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَهُمَا وَلَا حَدُّوا كُلًّا مِنْهُمَا بِحَدٍّ يَفْصِلُهُ عَنْ صَاحِبِهِ . بَلْ اوْرَدُوا لَهُمَا امْثِلَةً مِنَ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ وَادْخَلُوا احَدَهُمَا فِي ٱلآخَرِ . فَذَكَرُوا لِلْكِنَايَةِ امْثِلَةً مِنَ ٱلتَّعْرِيضِ وَلِلتَّعْرِيضِ امْثِلَةً مِنَ ٱلْكِنَايَةِ . فَمِمَّنْ فَعَلَ ذٰلِكَ ٱلْغَانِمِيُّ وَٱبْنُ سِنَان وَٱلْخَفَاجِيُّ وَٱلْعَسْكَرِيُّ . وَسَاذْكُرُ مَا عِنْدِي فِي ٱلْفَرْقِ بَيْنَهُمَا وَامَيِّزُ احَدَهُمَا

عَنِ ٱلْآخرِ لِيُعْرَفَ كُلٌّ مِنْهُمَا عَلَى ٱنْفِرَادِهِ . وَذٰلِكَ انَّ ٱلْكِنَايَةَ اذَا وَرَدَتْ تَجَاذَبَهَا جَانِبَا حَقِيقَةٍ وَمَجَازٍ . وَجَازَ حَمْلُهَا عَلَى ٱلْجَانِبَيْنِ مَعًا فَيَصِحُّ بِكُلٍّ مِنْهُمَا ٱلْمَعْنَى وَلَا يَخْتَلُّ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ اَنَّ ٱلْكِنَايَةَ فِي اَصْلِ ٱلْوَضْعِ اَنْ تَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ وَتُرِيدَ غَيْرَهُ . يُقَالُ : كَنَيْتُ بِكَذَا عَنْ كَذَا . فَهِيَ تَدُلُّ عَلَى مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ وَعَلَى مَا اَرَدْتَهُ مِنْ غَيْرِهِ . وَاَمَّا ٱلتَّعْرِيضُ فَهُوَ ٱللَّفْظُ ٱلدَّالُّ عَلَى ٱلشَّيْءِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَفْهُومِ لَا بِٱلْوَضْعِ ٱلْحَقِيقِيِّ وَلَا ٱلْمَجَازِيِّ . فَاِنَّكَ اِذَا قُلْتَ لِمَنْ تَتَوَقَّعُ صِلَتَهُ وَمَعْرُوفَهُ بِغَيْرِ طَلَبٍ : اِنِّي مُحْتَاجٌ وَلَيْسَ فِي يَدِي شَيْءٌ وَاَنَا عُرْيَانٌ وَٱلْبَرْدُ قَدْ آذَانِي . فَاِنَّ هٰذَا وَاَشْبَاهَهُ تَعْرِيضٌ بِٱلطَّلَبِ وَلَيْسَ هٰذَا ٱللَّفْظُ مَوْضُوعًا فِي مُقَابَلَةِ ٱلطَّلَبِ لَا حَقِيقَةً بَلْ مَجَازًا . اِنَّمَا دَلَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ ٱلْمَفْهُومِ بِخِلَافِ دَلَالَةِ ٱلْكِنَايَةِ فَاِنَّهَا لَفْظِيَّةٌ وَضْعِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَجَازِ . وَاِنَّمَا سُمِّيَ ٱلتَّعْرِيضُ تَعْرِيضًا لِاَنَّ ٱلْمَعْنَى فِيهِ يُفْهَمُ مِنْ عُرْضِهِ اَيْ مِنْ جَانِبِهِ . وَمِنْ لَطِيفِ ٱلتَّعْرِيضَاتِ ٱلْاَدَبِيَّةِ مَا يُرْوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ ٱلْخَطَّابِ : اَنَّهُ كَانَ يَخْطُبُ يَوْمَ جُمُعَةٍ فَدَخَلَ عُثْمَانُ ٱبْنُ عَفَّانَ . فَقَالَ عُمَرُ : اَيَّةُ سَاعَةٍ هٰذِهِ . يُرِيدُ ٱلتَّعْرِيضَ بِٱلْاِنْكَارِ عَلَيْهِ لِتَاَخُّرِهِ عَنِ ٱلْمَجِيءِ اِلَى ٱلصَّلَاةِ . وَهُوَ مِنَ ٱلتَّعْرِيضِ ٱلْمُعْرِبِ عَنِ ٱلْاَدَبِ . وَمِنْ اَمْثِلَتِهِ ٱلشِّعْرِيَّةِ قَوْلُ ٱلْحَجَّاجِ يُعَرِّضُ بِمَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ ٱلْاُمَرَاءِ :

لَسْتُ بِرَاعِي اِبِلٍ وَلَا غَنَمْ   وَلَا بِجَزَّارٍ عَلَى ظَهْرِ وَضَمْ

البحث الثالث عشر

في ما ورد من الكنايات عن العرب

(عن كتاب الكناية للثعالبي وكتاب الصناعتين للعسكري)

اِعلَمْ اَنَّ ٱلعَرَبَ يَلتَجِئُونَ إِلَى ٱلكِنَايَةِ إِذَا مَا ارادُوا ٱلتَّعرِيض عَمَّا يُستَقبَحُ ذِكرُهُ فَيَكنُونَ عَنِ ٱلأَعوَرِ بِٱلمُمَتَّعِ . وَعَنِ ٱلَّذِي فِي عَينَيهِ نُكتَةُ بَيَاضٍ بِٱلمُكَوكَبِ . وَعَمَّنْ فِي وَجهِهِ اَثَرُ ضَربَةٍ بِٱلمُشَطَّبِ . وَلِبَعضِهِمْ فِي اَبرَصَ :

اَخُو لَخمٍ اَعَارَكَ مِنهُ ثَوبًا هَنِيئًا بِٱلقَمِيصِ ٱلمُستَجَدِّ

اَرَادَ بِاَخِي لَخمٍ جَذِيمَةَ ٱلأَبرَصَ . وَلِلصَّاحِبِ فِي ٱلجَرَبِ :

اَبَا ٱلعَلَاءِ هِلَالُ ٱلهَزلِ وَٱلجِدِّ كَيفَ ٱلنُّجُومُ ٱلَّتِي يَطلُعنَ فِي ٱلجِلدِ

وَيُكنَى عَنِ ٱلحَولِ بِٱلتَّاَخُّرِ . قَالَ ٱلدُّوَلِيُّ :

بِيضُ ٱلمَطَابِخِ لَا تَشكُو اِمَاؤُهُمُ طَبخَ ٱلقُدُورِ وَلَا غَسلَ ٱلمَنَادِيلِ

قَالَ آخَرُ :

ثِيَابُ طَبَّاخٍ اِذَا ٱتَّسَخَتْ اَنقَى بَيَاضًا مِنَ ٱلقَرَاطِيسِ

وَقَالَ اَبُو بَكرٍ ٱلخُوَارَزمِيُّ :

فَتًى مُختَصِرُ ٱلمَأكُو لِ وَٱلمَشرُوبِ وَٱلعِطرِ
نَقِيُّ ٱلكَأسِ وَٱلقَصعَةِ م وَٱلمِندِيلِ وَٱلقِدرِ

وَيَكنُونَ عَنِ ٱلجَاهِلِ بِاَنَّهُ مِنَ ٱلمُستَرِيحِينَ . وَيُروَى اَنَّ خِلَافًا وَقَعَ بَينَ بَعضِ ٱلخُلَفَاءِ وَبَينَ نَدِيمٍ لَهُ فِي مَسأَلَةٍ . فَٱتَّفَقَا عَلَى رَأيِ بَعضِ اَهلِ ٱلعِلمِ فَأُحضِرَ . فَوَجَدَ ٱلخَلِيفَةَ مُخطِئًا فَقَالَ : ٱلقَائِلُونَ

بِقَوْلِ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ اَكْثَرُ (يُرِيدُ ٱلْجُهَّالَ) . وَاِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ اَحْمَقَ قِيلَ : نَعْتُهُ لَا يَنْصَرِفُ . وَكَانَ قَابُوسُ بْنُ وَشْمَكِيرَ اِذَا وَصَفَ رَجُلًا بِٱلْبَلَهِ قَالَ : هُوَ مِنْ اَهْلِ ٱلْجَنَّةِ . وَيَقُولُونَ : فُلَانٌ خَفِيفٌ عَلَى ٱلْقَلْبِ يُرِيدُونَ مَقْلُوبًا وَهُوَ ٱلثَّقِيلُ . وَكَانَ ٱلنَّاصِرُ ٱلْعَلَوِيُّ ٱلْاُطْرُوشُ اِذَا خَاطَبَهُ اَحَدٌ فَلَمْ يَسْمَعْ قَالَ لَهُ : ٱرْفَعْ صَوْتَكَ فَاِنَّ بِاُذْنِي بَعْضَ مَا بِرُوحِكَ . وَنَظَرَ ٱلْبَدِيعُ ٱلْهَمَذَانِيُّ اِلَى رَجُلٍ طَوِيلٍ بَارِدٍ فَقَالَ : قَدْ اَقْبَلَ لَيْلُ ٱلشِّتَاءِ . وَدَخَلَ رَجُلٌ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ وَقَدِ ٱقْشَعَرَّ . فَقَالَ : مَا تَجِدُ فَدَيْتُكَ . قَالَ : اَجِدُكَ (يَعْنِي ٱلْبَرْدَ) . وَاِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ كَذُوبًا قِيلَ : ٱلْفَاخِتَةُ عِنْدَهُ اَبُو ذَرٍّ (يُضْرَبُ ٱلْمَثَلُ بِٱلْفَاخِتَةِ فِي ٱلْكَذِبِ وَبِاَبِي ذَرٍّ فِي ٱلصِّدْقِ) . وَيَقُولُونَ اَيْضًا : فُلَانٌ يَلْطِمُ عَيْنَ مِيزَانَ . (وَمِيزَانُ رَجُلٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْكَذِبِ) . وَاِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ مَلُولًا قِيلَ : هُوَ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ مُوسَى . وَاِذَا كَانَ مُلْحِدًا قِيلَ : قَدْ عَبَرَ (يُرِيدُونَ جِسْرَ ٱلْاِيمَانِ) . قِيلَ لِبَعْضِهِمْ : هَلْ عَبَرْتَ . قَالَ : فِي ذٰلِكَ ٱلْجَانِبِ وُلِدْتُ . وَاِنْ كَانَ يُسِيءُ ٱلْاَدَبَ فِي ٱلْمُؤَاكَلَةِ قِيلَ : تُسَافِرُ يَدُهُ عَلَى ٱلْخِوَانِ وَيَرْعَى اَرْضَ ٱلْجِيرَانِ . فَاِنْ كَانَ خَفِيفَ ٱلْيَدِ فِي ٱلطَّرِّ وَٱلسَّرِقَةِ . قَالُوا : هُوَ اَحَذُّ يَدِ ٱلْقَمِيصِ (وَيَدُ ٱلْقَمِيصِ ٱلْكُمُّ وَٱلسَّارِقُ يُقَصِّرُهُ لِيَكُونَ اَقْدَرَ عَلَى مَا يُرِيدُ مِنْ سَرِقَةٍ) . فَاِذَا كَانَ قَمِلَ ٱلثَّوْبِ قِيلَ : فُلَانٌ يَعْرِضُ ٱلصَّيْدَ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ :

وُحُوشُهُ تَرْتَعُ فِي جَنْبِهِ ‏ ‏ ‏ ‏ وَظُفْرُهُ يَرْكَبُ لِلصَّيْدِ

وَإِذَا كَانَ ٱلرَّجُلُ يَتَشَاعَرُ وَلَيْسَ يُجِيدُ قَالُوا: هُوَ نَبِيٌّ فِي ٱلشِّعْرِ.
قَالَ بَعْضُهُمْ:

يَا نَبِيَّ ٱللهِ فِي ٱلشِّعْرِ م وَيَا مَنْ فِيهِ يُكْرَمْ
أَنْتَ مِنْ أَشْعَرِ خَلْقِ ٱللهِ م مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ

وَيُقَالُ: فُلَانٌ رَابِعُ ٱلشُّعَرَاءِ. إِذَا كَانَ مُتَخَلِّفًا مُنْحَطَّ ٱلطَّبَقَةِ
لِقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

ٱلشُّعَرَاءُ فَٱعْلَمَنَّ أَرْبَعَهْ فَشَاعِرٌ يَجْرِي وَلَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَسْمَعَهْ
وَشَاعِرٌ مِنْ حَقِّهِ أَنْ تَصْفَعَهْ

وَسُئِلَ حَائِكٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ فَقَالَ: كُسْوَةُ ٱلْأَحْيَاءِ وَجِهَازُ ٱلْمَوْتَى.
وَيَكْنُونَ عَنِ ٱلْقَرَوِيِّ بِأَخْضَرِ ٱلْأَسْنَانِ مِنْ كَثْرَةِ أَكْلِ ٱلْبَقْلِ.
وَسُئِلَ حَجَّامٌ عَنْ صِنَاعَتِهِ. فَقَالَ: أَكْتُبُ بِٱلْحَدِيدِ وَأَخْتِمُ بِٱلزُّجَاجِ.
وَفِيهِ قِيلَ:

يَا ٱبْنَ ٱلَّذِي عَاشَ غَيْرَ مُضْطَهَدٍ بِرَحْمَةِ ٱللهِ أَيَّمَا رَجُلِ
أَبُوكَ أَوْهَى ٱلنِّجَادُ عَاتِقَهُ كَمْ مِنْ كَمِيٍّ أَدْمَى وَكَمْ بَطَلِ
لَهُ رِقَابُ ٱلْمُلُوكِ خَاضِعَةٌ مِنْ بَيْنِ حَافٍ وَبَيْنِ مُنْتَعِلِ
يَأْخُذُ مِنْ مَالِهِ وَمِنْ دَمِهِ لَمْ يُمْسِ مِنْ ثَأْرِهِ عَلَى وَجَلِ (١)

وَيُقَالُ عَمَّنْ يُكْثِرُ ٱلْأَسْفَارَ: فُلَانٌ لَا يَضَعُ ٱلْعَصَا عَنْ عَاتِقِهِ.
وَجَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ: أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ. فَإِنَّهُ

(١) راجع الجزء الثالث من مجاني الادب صفحة ١٥١

كَنَى عَنِ ٱلْغِيبَةِ بِأَكْلِ ٱلْإِنْسَانِ لَحْمَ ٱلْإِنْسَانِ . وَهٰذَا شَدِيدُ ٱلْمُنَاسَبَةِ لِأَنَّ ٱلْغِيبَةَ إِنَّمَا هِيَ ذِكْرُ مَثَالِبِ ٱلنَّاسِ وَتَمْزِيقُ أَعْرَاضِهِمْ وَتَمْزِيقُ ٱلْعِرْضِ مُمَاثِلٌ لِأَكْلِ ٱلْإِنْسَانِ لَحْمَ مَنْ يَغْتَابُهُ . وَمِنْ أَمْثَالِ ٱلْعَرَبِ قَوْلُهُمْ : لَبِسَ لِفُلَانٍ جِلْدَ ٱلنَّمِرِ وَجِلْدَ ٱلْأَرْقَمِ . كِنَايَةً عَنِ ٱلْعَدَاوَةِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : قَلَبَ لَهُ ظَهْرَ ٱلْمِجَنِّ كِنَايَةً عَنْ تَغْيِيرِ ٱلْمَوَدَّةِ . وَمِنْ ظَرِيفِ ٱلْكِنَايَاتِ مَا جَاءَ عَنِ ٱلْجَمَّازِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : أَيُّ ٱلْبُقُولِ أَحَبُّ إِلَيْكَ . فَقَالَ : بَقْلَةُ ٱلذِّئْبِ (يَعْنِي ٱللَّحْمَ) . وَرَأَى رَجُلٌ مَنْ أَضَافُوهُ يُطِيلُونَ ٱلْغِنَاءَ وَلَا يَأْتُونَ بِٱلْأَكْلِ فَقَالَ :

خَلِيلَيَّ دَاوَيْتُمَا ظَاهِرًا فَمَنْ ذَا يُدَاوِي جَوًى بَاطِنَا

فَعَلِمُوا أَنَّهُ جَائِعٌ . وَأُخْبِرَ عَنِ ٱلْجَاحِظِ أَنَّهُ أَكَلَ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ فَالُوذَجَةً فَأَمَرَ ٱبْنُ ٱلزَّيَّاتِ أَنْ يُجْعَلَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْجَاحِظِ مَا رَقَّ مِنَ ٱلْجَامِ . فَأَسْرَعَ فِي ٱلْأَكْلِ حَتَّى نَظَّفَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ . فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ : يَا أَبَا عُثْمَانَ قَدْ تَقَشَّعَتْ سَمَاؤُكَ . فَقَالَ : أَصْلَحَكَ ٱللّٰهُ لِأَنَّ غَيْمَهَا كَانَ رَقِيقًا . وَكَذٰلِكَ يُقِيمُونَ وَصْفَ ٱلشَّيْءِ مَقَامَ ٱسْمِهِ كَمَا قَالَ : حَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . يَعْنِي ٱلسَّفِينَةَ فَوَضَعَ صِفَتَهَا مَوْضِعَ تَسْمِيَتِهَا . وَقَالَ : إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ . يَعْنِي ٱلْخَيْلَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ :

سَأَلَتْ قُتَيْبَةُ عَنْ أَبِيهَا صَحْبَهُ فِي ٱلرَّوْحِ هَلْ رَكِبَ ٱلْأَغَرَّ ٱلْأَشْقَرَا

يَعْنِي هَلْ قُتِلَ . وَٱلْأَغَرُّ ٱلْأَشْقَرُ وَصْفُ ٱلدَّمِ فَأَقَامَهُ مَقَامَ ٱسْمِهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْمُحْدَثِينَ :

شِمْتُ بَرْقَ ٱلْوَزِيرِ فَٱنْهَلَّ حَتَّى　　لَمْ أَجِدْ مَهْرَبًا إِلَى ٱلْأَقْدَامِ
فَكَأَنِّي وَقَدْ تَقَاصَرَ بَاعِي　　خَابِطٌ فِي عُبَابِ أَخْضَرَ طَامِي

يَعْنِي ٱلْبَحْرَ. وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ لِٱبْنِ ٱلْقَبَعْثَرِيِّ: لَأَحْمِلَنَّكَ عَلَى ٱلْأَدْهَمِ. يَعْنِي ٱلْقَتْلَ. فَتَجَاهَلَ عَلَيْهِ وَقَالَ: مِثْلُ ٱلْأَمِيرِ يَحْمِلُ عَلَى ٱلْأَدْهَمِ وَٱلْأَشْهَبِ. يُرِيدُ ٱلْخَيْلَ. وَمِنْ ذٰلِكَ: أَنَّ ٱلْمَنْصُورَ كَانَ فِي بُسْتَانٍ لَهُ وَهُوَ فِي أَيَّامِ مُحَارَبَتِهِ إِبْرَاهِيمَ بْنَ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلْحَسَنِ وَنَظَرَ إِلَى شَجَرَةِ خِلَافٍ فَقَالَ لِلرَّبِيعِ: مَا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ. فَقَالَ: طَاعَةٌ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. فَتَفَاءَلَ ٱلْمَنْصُورُ بِهِ وَعَجِبَ مِنْ ذَكَائِهِ. وَمِثْلُ ذٰلِكَ: أَنَّ رَجُلًا مَرَّ فِي صَحْنِ دَارِ ٱلرَّشِيدِ وَمَعَهُ حُزْمَةُ خَيْزُرَانٍ. فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ لِلْفَضْلِ بْنِ ٱلرَّبِيعِ: مَا ذَاكَ. فَقَالَ: عُرُوقُ ٱلرِّمَاحِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. وَكَرِهَ أَنْ يَقُولَ ٱلْخَيْزُرَانَ لِمُوَافَقَتِهِ ٱسْمَ وَالِدَةِ ٱلرَّشِيدِ. وَمِنْ كَلَامِ ٱلْعَرَبِ أَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ نَقِيُّ ٱلثَّوْبِ. يُرِيدُونَ بِهِ أَنَّهُ لَا عَيْبَ فِيهِ وَلَيْسَ بِمَوْضُوعٍ نَقَاءُ ٱلثَّوْبِ ٱلْبَرَاءَةَ مِنَ ٱلْعَيْبِ وَإِنَّمَا ٱسْتُعْمِلَ فِيهِ تَمْثِيلًا. وَقَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ:

ثِيَابُ بَنِي عَوْفٍ طَهَارَى نَقِيَّةٌ　　وَأَوْجُهُهُمْ عِنْدَ ٱلْمَشَاهِدِ غُرَّاتُ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ طَاهِرُ ٱلثَّوْبِ. يُرِيدُونَ أَنَّهُ لَيْسَ بِخَائِنٍ وَلَا غَادِرٍ. وَفُلَانٌ دَنِسُ ٱلثَّوْبِ إِذَا كَانَ غَادِرًا فَاجِرًا. وَقَوْلُهُمْ: طَيِّبُ ٱلْحُجْزَةِ أَيْ عَفِيفٌ. قَالَ ٱلنَّابِغَةُ يَمْدَحُ بَنِي غَسَّانَ ٱلنَّصَارَى:

رِقَاقُ ٱلنِّعَالِ طَيِّبٌ حُجُزَاتُهُمْ　　يُحَيُّونَ بِٱلرَّيْحَانِ يَوْمَ ٱلسَّبَاسِبِ

وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: إِذَا قَالَتِ ٱلْعَرَبُ: ٱلثَّوْبَ وَٱلْإِزَارَ. فَإِنَّهُمْ

يُرِيدُونَ ٱلْبَدَنَ . وَيَقُولُونَ : فُلَانٌ اَوْسَعُ بَنِي أُمَيَّةَ ثَوْبًا . اَيْ اَكْثَرُهُمْ مَعْرُوفًا . وَفُلَانٌ غَمْرُ ٱلرِّدَاءِ اِذَا كَانَ كَثِيرَ ٱلْمَعْرُوفِ . قَالَ كُثَيِّرٌ :

غَمْرُ ٱلرِّدَاءِ اِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا   غَلِقَتْ لِضَحْكَتِهِ رِقَابُ ٱلْمَالِ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُمْ : فُلَانٌ رَحْبُ ٱلذِّرَاعِ . وَمِنَ ٱلْكِنَايَاتِ ٱللَّطِيفَةِ مَا ذَكَرَهَا ٱلْأُدَبَاءُ فِي ٱلشَّيْبِ وَٱلْكِبَرِ . فَيَقُولُونَ : عَرَضَتْ لِفُلَانٍ فَتْرَةٌ . عَرَضَ لَهُ مَا يَمْحُو ذُنُوبَهُ وَيُكَفِّرُ سَيِّئَاتِهِ . اَقْمَرَ لَيْلُهُ نَوَّرَ غُصْنُ شَبَابِهِ . فَضَّضَ ٱلزَّمَانُ اَبْنُوسَهُ . وَجَاءَهُ ٱلنَّذِيرُ . وَقَرَعَ نَاجِذَ ٱلْحِلْمِ . وَٱرْتَاضَ بِلِجَامِ ٱلدَّهْرِ . اَدْرَكَ زَمَانَ ٱلْحُنْكَةِ . رَفَضَ غِرَّةَ ٱلصِّبَى وَلَبَّى دَاعِيَ ٱلْحِجَى . وَمِنْ كِنَايَاتِهِمْ عَنِ ٱلْمَوْتِ : اَسْتَأْثَرَ ٱللّٰهُ بِهِ . اَسْعَدَهُ ٱللّٰهُ بِجِوَارِهِ . نَقَلَهُ اِلَى دَارِ رِضْوَانِهِ . وَمَحَلِّ غُفْرَانِهِ . اِنْتَقَلَ اِلَى جِوَارِ رَبِّهِ وَٱنْقَلَبَ اِلَى مَحَلِّ عَفْوِهِ . اِخْتَارَ لَهُ ٱلنُّقْلَةَ مِنْ دَارِ ٱلْبَوَارِ اِلَى دَارِ ٱلْاَبْرَارِ

البحث الرابع عشر

في المبالغة

(عن بديعية الحموي وكتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الادب)

اَلْمُبَالَغَةُ نَوْعٌ مَعْدُودٌ مِنْ مَحَاسِنِ فَنِّ ٱلْكِتَابَةِ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ وَٱسْتَدَلُّوا عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِ مَنْ قَالَ : اَحْسَنُ ٱلشِّعْرِ اَكْذَبُهُ . وَبِقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ : اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ مَنِ ٱسْتُجِيدَ كَذِبُهُ . وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَعُدَّ

ٱلْمُبَالَغَة مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمَشَى فِي ذٰلِكَ عَلَى مَذْهَبِ حَسَّانِ ٱبْنِ ثَابِتٍ فَإِنَّهُ قَالَ :

وَإِنَّمَا ٱلشِّعْرُ عَقْلُ ٱلْمَرْءِ يَعْرِضُهُ عَلَى ٱلْأَنَامِ فَإِنْ كَيْساً وَإِنْ حُمُقَا
وَإِنَّ أَشْعَرَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

وَعِنْدَ أَهْلِ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ أَنّ ٱلْمُبَالَغَةَ لَمْ تُسْفِرْ عَنْ غَيْرِ ٱلتَّهْوِيلِ عَلَى ٱلسامِعِ وَلَمْ يَفِرَّ ٱلنَّاظِمُ إِلَى ٱلتَّخْيِيمِ عَلَيْهَا إِلَّا بِعَجْزِهِ وَقُصُورِ هِمَّتِهِ عَنِ ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُبْتَكَرَةِ . لِأَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ كَٱلْاِسْتِرَاحَةِ مِنَ ٱلشَّاعِرِ إِذَا أَعْيَاهُ إِيرَادُ ٱلْمَعَانِي ٱلْغَرِيبَةِ فَيَشْغَلُ ٱلْأَسْمَاعَ بِمَا هُوَ مُحَالٌ وَتَهْوِيلٌ . وَقَالُوا : رُبَّمَا أَنَّهَا أَحَالَتِ ٱلْمَعَانِيَ فَأَخْرَجَتْهَا عَنْ حَدِّ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُمْكِنِ إِلَى حَدِّ ٱلْاِمْتِنَاعِ . وَٱلْمُبَالَغَةُ تُعَابُ فِي بَابِهَا إِذَا خَرَجَتْ عَنْ حَدِّ ٱلْإِمْكَانِ إِلَى ٱلْاِسْتِحَالَةِ وَأَتَى ٱلْكَلَامُ عَلَى حَدِّهَا فِي مَوْضِعِهِ .
وَٱلَّذِي أَقُولُهُ : إِنَّ ٱلْمُبَالَغَةَ مِنْ مَحَاسِنِ أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ وَلَمْ يَسْتَطْرِدْ فِي حَلَبَاتِ سَبْقِهَا إِلَّا فُحُولُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَلَوْ سَلَّمْنَا إِلَى مَنْ يَهْضِمُ جَانِبَهَا وَلَمْ يَعُدَّهَا مِنْ حَسَنَاتِ ٱلْكَلَامِ بَطَلَتْ بَلَاغَةُ ٱلْاِسْتِعَارَةِ وَٱنْحَطَّتْ رُتْبَةُ ٱلتَّشْبِيهِ . وَتَسْمِيَةُ ٱلْمُبَالَغَةِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى قُدَامَةَ . وَمِنْهُمْ مَنْ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ ٱلتَّبْلِيغَ . وَسَمَّاهُ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ : ٱلْإِفْرَاطَ فِي ٱلصِّفَةِ . وَهٰذِهِ ٱلتَّسْمِيَةُ طَابَقَتِ ٱلْمُسَمَّى . وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ رَغِبُوا فِي تَسْمِيَةِ قُدَامَةَ لِخِفَّتِهَا . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ أَعْنِي ٱلْمُبَالَغَةَ شَرِكَهُ قَوْمٌ مَعَ ٱلْإِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لِعَدَمِ مَعْرِفَةِ ٱلْفَرْقِ وَهُوَ مِثْلَ ٱلصُّبْحِ ظَاهِرٌ . (وَٱلْمُبَالَغَةُ) فِي ٱلْاِصْطِلَاحِ هِيَ إِفْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ

عَادَةً . (وَٱلْإِغْرَاقُ) وَصفُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً .
(وَٱلْغُلُوُّ)وَصْفُهُ بِمَا يَسْتَحِيلُ وُقُوعُهُ.وَيَأْتِي ٱلْكَلَامُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ
ٱلثَّلَاثَةِ فِي مَوْضِعِهِ . وَقَدْ تَقَرَّرَ اوَّلًا انَّ ٱلْمُبَالَغَةَ نَوْعُهَا مَبْنِيٌّ عَلَى
وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْقَرِيبِ وُقُوعُهُ . وَحَدَّ قُدَامَةُ ٱلْمُبَالَغَةَ فَقَالَ :
هِيَ اَنْ يَذْكُرَ ٱلْمُتَكَلِّمُ حَالًا مِنَ ٱلْاَحْوَالِ لَوْ وُقِفَ عِنْدَهَا لَاَجْزَاَتْ
فَلَا يَقِفُ حَتَّى يَزِيدَ فِي مَعْنَى مَا ذَكَرَهُ مَا يَكُونُ اَبْلَغَ مِنْ مَعْنَى قَصْدِهِ
كَقَوْلِ عُمَيْرِ بْنِ كَرِيمٍ ٱلتَّغْلِبِيِّ :

وَنُكْرِمُ جَارَنَا مَا دَامَ فِينَا وَنُتْبِعُهُ ٱلْكَرَامَةَ حَيْثُ مَالَا

وَقَالَ : اِنَّ هٰذَا ٱلْبَيْتَ مِنْ اَحْسَنِ ٱلْمُبَالَغَةِ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ . فَاِنَّ
ٱلشَّاعِرَ بَلَغَ فِيهِ اِلَى اَقْصَى مَا يُمْكِنُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ وَتَوَصَّلَ اِلَى
اَكْثَرِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَتَعَطَّاهُ . وَلَخَّصَ بَعْضُهُمْ عِبَارَةَ ٱلْحَدِّ ٱلَّذِي حَدَّهُ
قُدَامَةُ وَقَالَ : ٱلْمَعْنَى اِذَا زَادَ عَلَى ٱلتَّمَامِ سُمِّيَ مُبَالَغَةً . وَقَالَ اَبْنُ
رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : ٱلْمُبَالَغَةُ بُلُوغُ ٱلشَّاعِرِ اَقْصَى مَا يُمْكِنُ فِي وَصْفِ
ٱلشَّيْءِ . قُلْتُ عَلَى هٰذَا ٱلتَّقْرِيرِ : فَجُلُّ ٱلْقَصْدِ فِي ٱلْمُبَالَغَةِ ٱلْاِمْكَانُ
وَٱلْخُرُوجُ مِنَ ٱلْمُسْتَحِيلِ . وَٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ فِيهَا انَّهَا ضَرْبٌ مِنَ
ٱلْمَحَاسِنِ اِذَا بَعُدَتْ عَنِ ٱلْاِغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ . وَاِنْ كَانَ ٱلْاِغْرَاقُ
وَٱلْغُلُوُّ ضَرْبَيْنِ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ وَنَوْعَيْنِ مِنْ انْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ . فَقَدْ شَرَطَ
عُلَمَاؤُهُ انَّ ٱلنَّوْعَ لَا يَتَجَاوَزُ حَدَّهُ بِحَيْثُ يَزُولُ ٱلِٱلْتِبَاسُ وَيُعْجِبُنِي مِنْ
اَمْثِلَةِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي ٱلْمَدِيحِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ :

اَضَاءَتْ لَهُمْ اَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ دُجَى ٱللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجَزْعَ ثَاقِبُهْ

فَالْمَعْنَى تَمَّ لِلنَّاظِمِ لَمَّا انْتَهَى فِي بَيْتِهِ إِلَى قَوْلِهِ : دُجَى اللَّيْلِ وَلَكِنْ زَادَ بِمَا هُوَ أَبْلَغُ وَأَبْدَعُ وَأَغْرَبُ فِي قَوْلِهِ : حَتَّى نَظَّمَ الْجَزْعَ ثَاقِبُهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ جَوَادٍ :

وَأَصْرَعُ أَيَّ الْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ

قَالَ ذَكِيُّ الدِّينِ بْنُ أَبِي الْإِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ الْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ التَّحْبِيرِ : أَبْلَغُ شِعْرٍ سَمِعْتُهُ فِي بَابِ الْمُبَالَغَةِ قَوْلُ شَاعِرِ الْحَمَاسَةِ إِذْ بَالَغَ فِي مَدْحِ مَمْدُوحِهِ بِقَوْلِهِ :

رَهَنْتُ يَدِي بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بِرِّهِ وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعْتُهُ وَلَكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ

فَانْظُرْ مَا أَحْلَى احْتِرَاسَهُ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشَّكُورِ مَزِيدُ . وَانْظُرْ كَيْفَ أَظْهَرَ عُذْرَهُ فِي عَجْزِهِ مَعَ قُدْرَتِهِ بِأَنْ قَالَ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي : وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتَطَعْتُهُ . ثُمَّ أَخْرَجَ بَقِيَّةَ الْبَيْتِ لِلْمُبَالَغَةِ مُخْرَجَ الْمَثَلِ السَّائِرِ حَيْثُ قَالَ : وَلَكِنَّ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدُ . وَمِنْ هُنَا قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَمِنْ حَسَنِ الْمُبَالَغَةِ قَوْلُ الْحَكَمِ الْخُضْرِيِّ :

وَأَقْبَحُ مِنْ قِرْدٍ وَأَبْخَلُ بِالْقِرَى
مِنَ الْكَلْبِ أَمْسَى وَهُوَ غَرْثَانُ أَعْجَفُ

فَالْكَلْبُ بَخِيلٌ عَلَى مَا ظَفِرَ بِهِ وَهُوَ أَشَدُّ بُخْلًا إِذَا كَانَ جَائِعًا أَعْجَفَ أَمَّا (الْإِغْرَاقُ) فَهُوَ فَوْقَ الْمُبَالَغَةِ وَلَكِنَّهُ دُونَ الْغُلُوِّ . وَهُوَ

فِي ٱلْاصْطِلَاحِ افْرَاطُ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمْكِنِ ٱلْبَعِيدِ وُقُوعُهُ عَادَةً وَقَلَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا . وَغَالِبُ ٱلنَّاسِ عِنْدَهُمُ ٱلْمُبَالَغَةُ وَٱلْاغْرَاقُ وَٱلْغُلُوُّ نَوْعٌ وَاحِدٌ مَعَ انَّهَا تَخْتَلِفُ كَمَا سَبَقَ . وَكُلٌّ مِنَ ٱلْاغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ لَا يُعَدُّ مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ اِلَّا اِذَا ٱقْتَرَنَ بِمَا يُقَرِّبُهُ اِلَى ٱلْقَبُولِ (كَقَدْ) لِلْاحْتِمَالِ . (وَلَوْلَا) لِلْامْتِنَاعِ . (وَكَادَ) لِلْمُقَارَبَةِ . وَمَا اشْبَهَ ذٰلِكَ مِنْ انْوَاعِ ٱلتَّقْرِيبِ . وَمَا وَقَعَ شَيْءٌ مِنَ ٱلْاغْرَاقِ وَٱلْغُلُوِّ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلصَّحِيحِ اِلَّا مَقْرُونًا بِمَا يُخْرِجُهُ مِنْ بَابِ ٱلْاسْتِحَالَةِ وَيُدْخِلُهُ فِي بَابِ ٱلْامْكَانِ مِثْلُ : (كَادَ وَلَوْ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا كَقَوْلِهِ : يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يُذْهِبُ ٱلْابْصَارَ . اِذْ لَا يَسْتَحِيلُ فِي ٱلْعَقْلِ انَّ ٱلْبَرْقَ يَخْطَفُ ٱلْابْصَارَ وَلٰكِنَّهُ يَمْتَنِعُ عَادَةً . وَمَا زَادَ عَلَى وَجْهِ ٱلْاغْرَاقِ هُنَا جَمَالًا اِلَّا بِتَقْرِيبِهِ (بِكَادَ) . وَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ بِهَا هُوَ ٱلَّذِي صَرَفَهُ اِلَى ٱلْحَقِيقَةِ فَقُلِبَتْ مِنَ ٱلْامْتِنَاعِ اِلَى ٱلْامْكَانِ . وَمِنْ شَوَاهِدِ تَقْرِيبِ نَوْعِ ٱلْاغْرَاقِ (بِلَوْ) قَوْلُ زُهَيْرٍ :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِاَوَّلِهِمْ اَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

فَٱقْتِرَانُ هٰذِهِ ٱلْجُمْلَةِ ايْضًا بِٱمْتِنَاعِ قُعُودِ ٱلْقَوْمِ فَوْقَ ٱلشَّمْسِ ٱلْمُسْتَفَادِ (بِلَوْ) هُوَ ٱلَّذِي اظْهَرَ بَهْجَةَ شَمْسِهَا فِي بَابِ ٱلْاغْرَاقِ

وَرُبَّمَا جَاءَ دُونَ ذٰلِكَ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي رَجُلٍ طَوِيلِ ٱلْانْفِ :

لَكَ انْفٌ يَا ٱبْنَ حَرْبٍ اَنِفَتْ مِنْهُ ٱلْانُوفُ
انْتَ فِي ٱلْبَيْتِ وَعِرْنِينُكَ م فِي ٱلسُّوقِ يَطُوفُ

وَكَقَوْلِ ٱلطِّرِمَّاحِ يَهْجُو تَمِيمًا :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ اَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا　　وَلَوْ سَلَكَتْ سُبْلَ ٱلْمَكَارِمِ ضَلَّتِ

وَلَوْ اَنَّ بُرْغُوثًا عَلَى ظَهْرِ نَمْلَةٍ　　يَكُرُّ عَلَى صَفَّيْ تَمِيمٍ لَوَلَّتِ

وَلَوْ اَنَّ اُمَّ ٱلْعَنْكَبُوتِ بَنَتْ لَهَا　　مَظَلَّتَهَا يَوْمَ ٱلنَّدَى لَٱسْتَظَلَّتِ

وَلَوْ جُمِعَتْ يَوْمًا تَمِيمٌ جُمُوعَهَا　　عَلَى ذَرْوَةٍ سِخَالَةٍ لَٱسْتَقَلَّتِ

اَمَّا (ٱلْغُلُوُّ) فَهُوَ فَوْقَ ٱلْمُبَالَغَةِ وَٱلْاِغْرَاقِ فَاِنَّهُ ٱلْاِفْرَاطُ فِي وَصْفِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُسْتَحِيلِ وُقُوعُهُ عَقْلًا وَعَادَةً وَهُوَ يَنْقَسِمُ اِلَى قِسْمَيْنِ : مَقْبُولٍ وَغَيْرِ مَقْبُولٍ . فَٱلْمَقْبُولُ لَا بُدَّ اَنْ يُقَرِّبَهُ ٱلنَّاظِمُ اِلَى ٱلْقَبُولِ بِاَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ ٱللّٰهُمَّ اِلَّا اَنْ يَكُونَ ٱلْغُلُوُّ فِي مَدِيحِ نَبِيٍّ فَلَا غُلُوَّ . وَيَجِبُ عَلَى صَاحِبِ ٱلْغُلُوِّ اَنْ يَسْبِكَهُ فِي قَوَالِبِ ٱلتَّخَيُّلَاتِ ٱلْحَسَنَةِ ٱلَّتِي يَدْعُو ٱلْعَقْلُ اِلَى قَبُولِهَا فِي اَوَّلِ وَهْلَةٍ كَقَوْلِهِ : يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ . فَاِنَّ اِضَاءَةَ ٱلزَّيْتِ مِنْ غَيْرِ مَسِّ نَارٍ مُسْتَحِيلَةٌ عَقْلًا وَلٰكِنَّ لَفْظَةَ (يَكَادُ) قَرَّبَتْهُ فَصَارَ مَقْبُولًا . وَمِنْهُ قَوْلُ اَبِي ٱلْعَلَاءِ ٱلْمَعَرِّيِّ :

تَكَادُ قِسِيُّهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ　　تُمَكِّنُ فِي قُلُوبِهِمِ ٱلنِّبَالَا

تَكَادُ سُيُوفُهُ مِنْ غَيْرِ سَلٍّ　　تَجِدُّ اِلَى رِقَابِهِمِ ٱنْسِلَالَا

وَيُعْجِبُنِي هُنَا قَوْلُ ٱبْنِ حَمْدِيسَ ٱلصِّقِلِّيِّ فِي وَصْفِ فَرَسٍ :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً مِنْ ظِلِّهِ　　لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقِ

وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ اَبِي طَالِبٍ :

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ　　رُكْنُ ٱلْحَطِيمِ اِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

وَمِنَ ٱلْغُلُوِّ ٱلْمَقْبُولِ بِغَيْرِ اَدَاةِ ٱلتَّقْرِيبِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي فِي مَمْدُوحِهِ :

عَقَدَتْ سَنَابِكُهَا عَلَيْهِ عِثْيَرًا لَوْ تَبْتَغِي عَنَقًا عَلَيْهِ لَاَمْكَنَا *

وَٱنْعِقَادُ ٱلْغُبَارِ فِي ٱلْهَوَاءِ حَتَّى يُمْكِنَ ٱلْمَشْيُ عَلَيْهِ مُسْتَحِيلٌ عَقْلًا وَعَادَةً اِلَّا اِنَّهُ تَخَيُّلٌ مَقْبُولٌ

وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ فِي ٱلْخَلِيفَةِ ٱلْمُتَوَكِّلِ :

وَلَوَ اَنَّ مُشْتَاقًا تَكَلَّفَ غَيْرَ مَا فِي وُسْعِهِ لَسَعَى اِلَيْكَ ٱلْمِنْبَرُ

وَامَّا ٱلَّذِي هُوَ غَيْرُ مَقْبُولٍ فَكَقَوْلِ اَبِي نُوَّاسٍ فِي ٱلْخَمْرَةِ :

فَلَمَّا شَرِبْنَاهَا وَدَبَّ دَبِيبُهَا اِلَى مَوْضِعِ ٱلْاَسْرَارِ قُلْتُ لَهَا قِفِي

مَخَافَةَ اَنْ يَسْطُو عَلَيَّ شُعَاعُهَا فَيَطَّلِعَ نُدْمَانِي عَلَى سِرِّيَ ٱلْخَفِي

قَالُوا : اِنَّ سَطْوَةَ شُعَاعِ ٱلْخَمْرِ بِحَيْثُ يَصِيرُ جِسْمُهُ شَفَّافًا يُظْهِرُ لِنَدِيمِهِ مَا فِي بَاطِنِهِ لَا يُمْكِنُ عَقْلًا وَلَا عَادَةً . قُلْتُ : وَمَرَاتِبُ ٱلْغُلُوِّ تَتَفَاوَتُ اِلَى اَنْ تَؤُولَ بِقَائِلِهَا اِلَى ٱلْكُفْرِ كَقَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي :

تَتَقَاصَرُ ٱلْاَفْهَامُ عَنْ اِدْرَاكِهِ مِثْلَ ٱلَّذِي ٱلْاَفْلَاكُ فِيهِ وَٱلدُّنَى

وَكَقَوْلِهِ :

كَاَنِّي دَحَوْتُ ٱلْاَرْضَ مِنْ خِبْرَتِي بِهَا كَاَنِّي بَنَى ٱلْاِسْكَنْدَرُ ٱلسَّدَّ مِنْ عَزْمِي

فَهٰذَا ٱلْغُلُوُّ يُؤَدِّي اِلَى سَخَافَةِ ٱلْعَقْلِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ قُبْحِ ٱلتَّرْكِيبِ وَلَوْلَا ٱلْاِطَالَةُ لَاَوْرَدْتُ كَثِيرًا مِنْ نَظْمِ ٱلَّذِينَ يَتَسَاهَلُونَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ كَاَبِي

* معنى هذا البيت ان سنابك الخيل وهي اطراف الحوافر عقدت على هذا الممدوح عثيرًا وهو الغبار حتى لو اراد ان يمشي عليـهِ عنقًا لامكن . والعنق هو المشي السريع

نُؤاس وَٱبنِ هَانِئٍ ٱلأَندُلُسِيّ وَٱلمُتَنَبّي وَأَبي ٱلعَلاءِ ٱلمَعَرّيّ وَغَيرِهِم مِنَ ٱلمُتَأَخّرِينَ كَٱبنِ ٱلنَّبِيهِ وَمَن جَرَى مَجرَاهُ . وَفي مَا قَدَّمنَا كِفَايَةٌ

البحث الخامس عشر

في التكرير

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٤٢ من علم الادب)

إِعلَم أَنَّ هٰذَا ٱلنَّوعَ مِن مَقَاتِلِ عِلمِ ٱلبَيَانِ وَهُوَ دَقِيقُ ٱلمَأخَذِ وَحَدُّهُ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفظِ عَلَى ٱلمَعنَى مُرَدَّدًا . وَهُوَ يَنقَسِمُ قِسمَينِ : أَحَدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفظِ وَٱلمَعنَى وَٱلآخَرُ يُوجَدُ فِي ٱلمَعنَى دُونَ ٱللَّفظِ . فَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفظِ وَٱلمَعنَى فَكَقَولِكَ لِمَن تَستَدعِيهِ : أَسرِع أَسرِع . وَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلمَعنَى دُونَ ٱللَّفظِ فَكَقَولِكَ : أَطِعنِي وَلَا تَعصِنِي . فَإِنَّ ٱلأَمرَ بِٱلطَّاعَةِ نَهيٌ عَنِ ٱلمَعصِيَةِ . وَكُلٌّ مِن هٰذَينِ ٱلقِسمَينِ يَنقَسِمُ إِلَى مُفِيدٍ وَغَيرِ مُفِيدٍ . وَمَقصُودِي مِنَ ٱلمُفِيدِ أَن يَأتِيَ لِمَعنًى . وَغَيرِ ٱلمُفِيدِ أَن يَأتِيَ لِغَيرِ مَعنًى . وَٱعلَم أَنَّ ٱلمُفِيدَ مِنَ ٱلتَّكرِيرِ يَأتِي فِي ٱلكَلَامِ تَأكِيدًا وَتَشدِيدًا مِن أَمرِهِ . وَإِنَّمَا يُفعَلُ ذٰلِكَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلعِنَايَةِ بِٱلشَّيءِ ٱلَّذِي كَرَّرتَ فِيهِ كَلَامَكَ إِمَّا مُبَالَغَةً فِي مَدحِهِ أَو فِي ذَمّهِ أَو غَيرِ ذٰلِكَ . وَلَا يَأتِي إِلَّا فِي أَحَدِ طَرَفَيِ ٱلشَّيءِ ٱلمَقصُودِ بِٱلذِّكرِ . وَٱلوَسَطُ عَارٍ مِنهُ لِأَنَّ أَحَدَ ٱلطَّرَفَينِ هُوَ ٱلمَقصُودُ بِٱلمُبَالَغَةِ إِمَّا بِمَدحٍ أَو ذَمّ أَو غَيرِهِمَا وَٱلوَسَطُ لَيسَ مِن شَرطِ ٱلمُبَالَغَةِ . وَغَيرُ ٱلمُفِيدِ لَا يَأتِي فِي ٱلكَلَامِ إِلَّا عِيًّا وَخَطَلًا مِن غَيرِ حَاجَةٍ إِلَيهِ

(فَامَّا ٱلاَوَّلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفظِ وَٱلمَعْنَى) فَإِنَّهُ يَنْقَسِمُ اِلَى ضَرْبَيْنِ : مُفِيدٍ وَغَيْرِ مُفِيدٍ . (فَٱلاَوَّلُ ٱلْمُفِيدُ) وَهُوَ فَرْعَانِ : (ٱلاَوَّلُ) اِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفظِ وَٱلمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلمَقْصُودُ بِهِ غَرَضَانِ مُخْتَلِفَانِ . فَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلمَجْرَى قَوْلُهُ: بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ للهِ رَبِّ ٱلعَالَمِينَ ٱلرَّحْمَانِ ٱلرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ . فَكَرَّرَ (ٱلرَّحْمَانَ ٱلرَّحِيمَ) مَرَّتَيْنِ . وَٱلفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ اَنَّ ٱلاَوَّلَ يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلدُّنْيَا كَٱلخَلْقِ وَٱلعِنَايَةِ . وَٱلثَّانِي يَتَعَلَّقُ بِأَمْرِ ٱلآخِرَةِ اِشَارَةً لِرَحْمَتِهِ يَوْمَ ٱلقِيَامَةِ . (ٱلفَرْعُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلضَّرْبِ ٱلاَوَّلِ) اِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱللَّفظِ وَٱلمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ وَٱلْمُرَادُ بِهِ غَرَضٌ وَاحِدٌ كَقَوْلِهِ : فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . وَٱلتَّكْرِيرُ دَلَالَةُ ٱلتَّعَجُّبِ مِنْ تَقْرِيرِهِ وَاِصَابَتِهِ ٱلغَرَضَ . وَهٰذَا كَمَا يُقَالُ : قَتَلَهُ ٱللهُ مَا اَشْجَعَهُ اَوْ مَا اَشْجَعَهُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

اَلَا يَا اَسْلَمِي ثُمَّ اَسْلَمِي ثُمَّتَ اَسْلَمِي

وَهٰذَا مُبَالَغَةٌ فِي ٱلدُّعَاءِ لَهَا بِٱلسَّلَامَةِ . وَكُلُّ هٰذَا يُجَاءُ بِهِ لِتَقْرِيرِ ٱلمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَاِثْبَاتِهِ . وَٱعْلَمْ اَنَّ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قِسْمًا يَكُونُ ٱلمَعْنَى مُضَافًا اِلَى نَفْسِهِ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱللَّفظِ . وَذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلاَلفَاظِ ٱلْمُتَرَادِفَةِ . وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلقُرْآنِ وَٱسْتُعْمِلَ فِي فَصِيحِ ٱلكَلَامِ فَمِنْهُ قَوْلُهُ: وَٱلَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ اُولٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ اَلِيمٍ . وَٱلرِّجْزُ هُوَ ٱلعَذَابُ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

نَهُوضٌ بِثِقْلِ ٱلعِبْءِ مُضْطَلِعٌ بِهِ وَاِنْ عَظُمَتْ فِيهِ ٱلخُطُوبُ وَجَلَّتِ

وَالثِقْلُ هُوَ ٱلعِبْءُ وَٱلعِبْءُ هُوَ ٱلثِقْلُ . وَرُبَّمَا اَشْكَلَ هٰذَا ٱلْمَوْضُوعُ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتَعَاطَى هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ وَظَنُّوهُ مِمَّا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَلَيْسَ كَذٰلِكَ بَلِ ٱلفَائِدَةُ فِيهِ هِيَ ٱلتَّأْكِيدُ لِلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ وَٱلْمُبَالَغَةُ فِيهِ . اَمَّا ٱلْمُرَادُ بِقَوْلِهِ : (عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ) اَيْ عَذَابٌ مُضَاعَفٌ مِنْ عَذَابٍ . وَاَمَا بَيْتُ اَبِي تَمَّامٍ فَاِنَّهُ تَضَمَّنَ ٱلْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ ٱلْمَمْدُوحِ بِجُمْلِهِ الْلَانْفَالَ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ لَمْ يَتَنَبَّهْ عَلَيْهِ اَحَدٌ سِوَايَ . وَلَرُبَّمَا اُدْخِلَ فِي ٱلتَّكْرِيرِ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مَا لَيْسَ مِنْهُ . فَمِنْهُ قَوْلُهُ : ثُمَّ اِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ وَاَصْلَحُوا اِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . فَلَمَّا تَكَرَّرَ اِنَّ رَبَّكَ مَرَّتَيْنِ عُلِمَ اَنَّ ذٰلِكَ اَدَلُّ عَلَى ٱلْمَغْفِرَةِ . . . وَهٰذِهِ ٱلْاَقْوَالُ يُظَنُّ اَنَّهَا مِنْ بَابِ ٱلتَّكْرِيرِ وَلَيْسَتْ كَذٰلِكَ . وَقَدْ اَنْعَمْتُ نَظَرِي فِيهَا فَرَاَيْتُهَا خَارِجَةً عَنْ حُكْمِ ٱلتَّكْرِيرِ وَذَاكَ اِنَّهُ اِذَا طَالَ ٱلْفَصْلُ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَكَانَ اَوَّلُهُ يَفْتَقِرُ اِلَى تَمَامٍ وَلَا يُفْهَمُ اِلَّا بِهِ فَٱلْاَوْلَى فِي بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ اَنْ يُعَادَ ٱللَّفْظُ ٱلْاَوَّلُ مَرَّةً ثَانِيَةً لِيَكُونَ مُقَارِنًا لِتَمَامِ ٱلْفَصْلِ كَيْ لَا يَجِيءَ ٱلْكَلَامُ مَنْثُورًا لَا سِيَمَا فِي (اِنَّ وَاَخَوَاتِهَا) . فَاِذَا وَرَدَتْ (اِنَّ) وَكَانَ بَيْنَ اَسْمِهَا وَخَبَرِهَا فُسْحَةٌ طَوِيلَةٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَاِعَادَةُ (اِنَّ) اَحْسَنُ فِي حُكْمِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْفَصَاحَةِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ :

اَ بِجُنًّا وَقَيْدًا وَٱشْتِيَاقًا وَغُرْبَةً ... وَنَأْيَ حَبِيبٍ اِنَّ ذَا لَعَظِيمُ
وَاِنَّ ٱمْرَءًا دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ ... عَلَى مِثْلِ مَا قَاسَيْتُهُ لَكَرِيمُ

فَإِنَّهُ لَمَّا طَالَ ٱلْكَلَامُ بَيْنَ ٱسْمِ (إِنَّ) وَخَبَرِهَا أُعِيدَتْ (إِنَّ) مَرَّةً ثَانِيَةً لِأَنَّ تَقْدِيرَ ٱلْكَلَامِ : وَإِنَّ ٱمْرَءًا دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ عَلَى مِثْلِ هٰذَا لَكَرِيمٌ. لٰكِنْ بَيْنَ ٱلِٱسْمِ وَٱلْخَبَرِ مَدًى طَوِيلٌ فَإِذَا لَمْ تُعَدْ (إِنَّ) مَرَّةً ثَانِيَةً لَمْ يَأْتِ عَلَى ٱلْكَلَامِ بَهْجَةٌ . وَهٰذَا لَا يَتَنَبَّهُ لِٱسْتِعْمَالِهِ إِلَّا ٱلْفُصَحَاءُ امَّا طَبْعًا وَإِمَّا عِلْمًا . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ إِذَا كَانَ خَبَرُ (إِنَّ) عَامِلًا فِي مَعْمُولٍ يَطُولُ ذِكْرُهُ فَإِنَّ إِعَادَةَ ٱلْخَبَرِ ثَانِيَةً هُوَ ٱلْأَحْسَنُ. وَعَلَى هٰذَا جَاءَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ يُوسُفَ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ : يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ احَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . فَلَمَّا قَالَ : إِنِّي رَأَيْتُ ثُمَّ طَالَ ٱلْفَصْلُ كَانَ ٱلْأَحْسَنُ أَنْ يُعِيدَ لَفْظَ (ٱلرُّؤْيَةِ) فَيَقُولَ : رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ .

وَمِنْ بَابِ (ٱلتَّكْرِيرِ فِي ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى) ٱلدَّالِّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ قَوْلُهُ : وَقَالَ ٱلَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ ٱتَّبِعُونِي أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ . يَا قَوْمِ إِنَّ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ . فَإِنَّهُ إِنَّمَا كَرَّرَ نِدَاءَ قَوْمِهِ هَا هُنَا لِزِيَادَةِ ٱلتَّنْبِيهِ لَهُمْ وَٱلْإِيقَاظِ عَنْ سِنَةِ ٱلْغَفْلَةِ وَلِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ وَعَشِيرَتُهُ فَيَتَحَزَّنُ لَهُمْ وَيَتَلَطَّفُ بِهِمْ فَيَسْتَدْعِي بِذٰلِكَ أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى نَصِيحَتِهِ . وَهٰذَا فِي ٱلتَّكْرِيرِ ٱلَّذِي هُوَ أَبْلَغُ مِنَ ٱلْإِيجَازِ وَأَشَدُّ مَوْقِعًا مِنَ ٱلِٱخْتِصَارِ . وَمِمَّا وَرَدَ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ شِعْرًا قَوْلُ بَعْضِ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ :

إِلَى مَعْدِنِ ٱلْعِزِّ ٱلْمُؤَثَّلِ وَٱلنَّدَى ... هُنَاكَ هُنَاكَ ٱلْفَضْلُ وَٱلْخُلُقُ ٱلْجَزْلُ

فَقَوْلُهُ : هُنَاكَ هُنَاكَ مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ ٱلَّذِي هُوَ أَبْلَغُ مِنَ ٱلْإِيجَازِ

لِاَنَّهُ فِي مَعرِضِ مَدحٍ فَهوَ يُقرِّرُ فِي نَفسِ السَّامِعِ مَا عِندَ الْمَمدُوحِ مِنْ هٰذِهِ الاَوصَافِ الْمَذكُورَةِ مُشِيرًا اِلَيهَا كَاَنَّهُ قَالَ : اَدُلُّكُمْ عَلَى مَعدِنِ كَذَا وَكَذَا وَمَقَرِّهِ وَمَفَادِهِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ الْمُسَاوِرِ اَبْنِ هِنْدٍ :

جَزَى اللهُ عَنِّي غَالِبًا مِنْ عَشِيرَةٍ ... اِذَا حَدَثَانُ الدَّهرِ نَابَتْ نَوَائِبُهْ
فَكَمْ دَفَعُوا مِن كُرْبَةٍ قَدْ تَلَاحَمَتْ ... عَلَيَّ وَمَوْجٍ قَدْ عَلَتْنِي غَوَارِبُهْ

فَصَدْرُ الْبَيتِ الثَّانِي وَعَجْزُهُ يَدُلَّانِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لِاَنَّ تَلَاحُمَ الْكُرَبِ عَلَيهِ كَتَعَالِي الْمَوْجِ مِنْ فَوْقِهِ . وَاِنَّمَا نَوَّعَ ذٰلِكَ لِاَنَّهُ مَقَامُ مَدحٍ وَاِطْرَاء . اَلَا تُرَى اَنَّهُ يَصِفُ اِحسَانَ هٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ عِنْدَ حِدْثَانِ دَهرِهِ فِي التَّكْرِيرِ . وَفِي قُبَالَتِهِ لَوْ كَانَ الْقَائِلُ هَاجِيًا فَاِنَّ الْهِجَاءَ فِي هٰذَا كَالْمَدحِ . (اَلضَّرْبُ الثَّانِي مِنَ التَّكْرِيرِ فِي اللَّفظِ وَالْمَعْنَى) وَهُوَ غَيرُ الْمُفِيدِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مَرْوَانَ الْاَصْغَرِ :

سَقَى اللهُ نَجْدًا وَالسَّلَامُ عَلَى نَجْدِ ... وَيَاحَبَّذَا نَجْدٌ عَلَى الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ
نَظَرْتُ اِلَى نَجْدٍ وَبَغْدَادُ دُونَهَا ... لَعَلِّي اَرَى نَجْدًا وَهَيهَاتَ مِنْ نَجْدِ

وَهٰذَا مِنَ الْعِيِّ الضَّعِيفِ فَاِنَّهُ كَرَّرَ ذِكْرَ نَجْدٍ فِي الْبَيتِ الْاَوَّلِ ثَلَاثًا . وَفِي الْبَيتِ الثَّانِي ثَلَاثًا . وَمُرَادُهُ فِي الْاَوَّلِ الثَّنَاءُ عَلَى نَجْدٍ . وَفِي الثَّانِي اَنَّهُ تَلَفَّتَ اِلَيهِ نَاظِرًا مِنْ بَغْدَادَ وَذٰلِكَ مَرْمًى بَعِيدٌ . اَلْمَعْنَى لَايَحْتَاجُ اِلَى مِثْلِ هٰذَا التَّكْرِيرِ . اَمَّا الْبَيتُ الْاَوَّلُ فَيُحْمَلُ عَلَى الْجَائِزِ مِنَ التَّكْرِيرِ لِاَنَّهُ مَقَامُ تَشَوُّقٍ وَتَحَرُّقٍ وَمَوْجِدَةٍ بِفِرَاقِ نَجْدٍ . وَلَمَّا كَانَ كَذٰلِكَ اُجِيزَ فِيهِ التَّكْرِيرُ عَلَى اَنَّهُ قَدْ كَانَ يُمْكِنُهُ اَنْ

يُسوّغ هذا ٱلمعنى ٱلوارد في ٱلبيتين معًا من غير ان يأتي بهذا ٱلتكرير ٱلمتتابع ست مرات . وعلى هذا ٱلأسلوب ورد قول ابي نؤاس :

اقمنا بها يومًا ويومًا وثالثا ويومًا له يومُ ٱلترحّل خامسُ

ومرادهُ من ذلك انهم اقاموا بها اربعة ايام . ويا عجبا له بمثل هذا ٱلبيت ٱلسخيف ٱلدال على ٱلعيّ ٱلفاحش في ضمن ابيات عجيبة ٱلحسن تتقدَّم هذا ٱلبيت . ومن هذا ٱلباب ايضا قول ابي ٱلطيّب ٱلمتنبي :

ولم ار مثل جيراني ومثلي لمثلي عند مثلهم مقامُ

فهذا هو ٱلتكرير ٱلفاحش ٱلذي يؤثّر في ٱلكلام نقصًا . الا ترى انهُ يقول : لم ار مثل جيراني في سوء ٱلجوار ولا مثلي في مصابرتهم ومقامي عندهم . الّا انهُ قد كرَّر هذا ٱلمعنى في ٱلبيت مرتين . وعلى نحو من ذلك جاء قولهُ :

وقلقلتُ بٱلهمّ ٱلذي قلقل ٱلحشى قلاقلَ عيسٍ كلُّهنَّ قلاقلُ

(واما ٱلقسم ٱلثاني من ٱلتكرير وهو ٱلذي يوجد في ٱلمعنى دون ٱللفظ) فذلك ضربان : مفيدٌ وغيرُ مفيدٍ . (ٱلضربُ ٱلاوَّل) ٱلمفيدُ وهو فرعان : (ٱلاوَّلُ) اذا كان ٱلتكرير في ٱلمعنى يدلُّ على معنيين مختلفين وهو موضعٌ من ٱلتكرير مشكلٌ لانهُ يسبق الى ٱلوهم انهُ تكريرٌ يدلُّ على معنى واحدٍ وهو ليس كذلك . . . بل يُقصد به ٱلتأكيدُ وٱلتقريرُ وٱلتنصُّلُ عمَّا يُرمى به ٱلمتكلِّمُ . ومما

يَنْتَظِمُ بِهٰذَا ٱلسِّلْكِ اَنْ يَكُونَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى معنيَيْنِ اَحَدُهُمَا خَاصٌّ وَٱلآخَرُ عَامٌّ كَقَوْلِهِ : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ اِلَى ٱللّٰهِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ . فَاِنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ دَاخِلٌ تَحْتَ ٱلدُّعَاءِ اِلَى ٱلْخَيْرِ . لِاَنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ خَاصٌّ وَٱلْخَيْرَ عَامٌّ فَكُلُّ اَمْرٍ بِٱلْمَعْرُوفِ خَيْرٌ وَلَيْسَ كُلُّ خَيْرٍ اَمْرًا بِٱلْمَعْرُوفِ . وَذَاكَ اَنَّ ٱلْخَيْرَ اَنْوَاعٌ كَثِيرَةٌ مِنْ جُمْلَتِهَا ٱلْاَمْرُ بِٱلْمَعْرُوفِ . فَفَائِدَةُ ٱلتَّكْرِيرِ هٰهُنَا اَنَّهُ ذَكَرَ ٱلْخَاصَّ بَعْدَ ٱلْعَامِّ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِهِ . وَكَقَوْلِهِ : حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَى . وَكَقَوْلِهِ : فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ . وَكَقَوْلِهِ : اِنَّا عَرَضْنَا ٱلْاَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْاَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَاَبَيْنَ اَنْ يَحْمِلْنَهَا . فَاِنَّ ٱلْجِبَالَ دَاخِلَةٌ فِي جُمْلَةِ ٱلْاَرْضِ . لٰكِنَّ لَفْظَ ٱلْاَرْضِ عَامٌّ وَٱلْجِبَالِ خَاصٌّ . وَفَائِدَتُهُ هٰهُنَا تَعْظِيمُ شَأْنِ ٱلْاَمَانَةِ ٱلْمُشَارِ اِلَيْهَا وَتَفْخِيمُ اَمْرِهَا . . . وَهُوَ مَوْضِعٌ يَرِدُ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْبَلِيغِ وَيُظَنُّ اَنْ لَا فَائِدَةَ فِيهِ . (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي) اِذَا كَانَ ٱلتَّكْرِيرُ فِي ٱلْمَعْنَى يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ لَا غَيْرُ . وَقَدْ سَبَقَ مِثَالُ ذٰلِكَ فِي اَوَّلِ هٰذَا ٱلْبَابِ كَقَوْلِكَ : اَطِعْنِي وَلَا تَعْصِنِي . فَاِنَّ ٱلْاَمْرَ بِٱلطَّاعَةِ نَهْيٌ عَنِ ٱلْمَعْصِيَةِ وَٱلْفَائِدَةُ فِي ذٰلِكَ تَثْبِيتُ ٱلطَّاعَةِ فِي نَفْسِ ٱلْمُخَاطَبِ . وَٱلْكَلَامُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ كَٱلْكَلَامِ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي قَبْلَهُ مِنْ تَكْرِيرِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى اِذَا كَانَ ٱلْغَرَضُ بِهِ شَيْئًا وَاحِدًا . وَلَا تَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ يَأْتِي فِي ٱلْكَلَامِ اِلَّا لِتَأْكِيدِ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ بِهِ كَقَوْلِهِ : اِنَّ مِنْ اَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَاِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَاِنَّ ٱللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . فَاِنَّهُ اِنَّمَا كَرَّرَ

ٱلْعفوَ وَٱلصَّفحَ وَٱلْمغفِرةَ وَٱلْجميعُ بمعنًى وَاحِدٍ لِلزِّيادةِ فِي تحسينِ عفوِ ٱلْوالِدِ عَنْ وَلَدِهِ . وهٰذَا وَامثالُهُ يُنظَرُ في ٱلْغرضِ ٱلْمقصودِ بِهِ . وَهُوَ مَوضِعٌ يَكُونُ ٱلتَّكرِيرُ فِيهِ اوجَزَ مِنْ لَمحَةِ ٱلْايجازِ وَاولَى بِٱلْاستِعمَالِ . وَمِمَّا وَرَدَ مِنْهُ شِعرًا قَولُ بَعضِهِمْ فِي ابياتِ ٱلْحماسَةِ :

نَزَلتُ عَلَى آلِ ٱلْمُهَلَّبِ شَاتِيًا   بَعِيدًا عَنِ ٱلْاوطانِ فِي زَمَنِ ٱلْمَحْلِ

فَمَا زَالَ بِي إِكرَامُهُمْ وَٱفْتِقَادُهُمْ   وَإِحسانُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمُ اهْلِي

فَإِنَّ ٱلْاكرامَ وَٱلْافتِقَادَ دَاخِلَانِ تَحتَ ٱلْإِحسَانِ وَإِنَّمَا كَرَّرَ ذٰلِكَ لِلتَّنويهِ بِذِكرِ ٱلصَّنِيعِ وَٱلْايجابِ لِحَقِّهِ . (اَلضَّربُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلْقِسمِ ٱلثَّانِي) فِي تَكرِيرِ ٱلْمعنَى دُونَ ٱللَّفظِ وَهُوَ غَيرُ ٱلْمفيدِ فَمِنْ ذٰلِكَ قَولُ ابِي تمّام :

قَسَمَ ٱلزَّمَانُ رُبُوعَهَا بَيْنَ ٱلصبَا   وَقَبُولِهَا وَدَبُورِهَا اثْلَاثَا

فَانَّ رِيحَ ٱلصَّبَا هِيَ رِيحُ ٱلْقَبُولِ يَشْتَمِلُ عَلَى مَعنًى وَاحِدٍ لَاغيرُ . وهٰذَا ٱلضَّربُ مِنَ ٱلتَّكرِيرِ قَدْ خَبَطَ فِيهِ عُلَمَاءُ ٱلْبَيَانِ خَبْطًا كَثيرًا وَٱلْاكثَرُ مِنْهُمْ اجَازَهُ . فَقَالُوا : إِذَا كَانَتِ ٱلْالفَاظُ مُتَغايرةً وَٱلْمعنَى ٱلْمعبَّرُ عَنْهُ وَاحِدًا فَلَيسَ ٱستِعمَالُ ذٰلِكَ بِمَعِيبٍ . وهٰذَا ٱلْقولُ فِيهِ نَظَرٌ وَٱلَّذِي عِندِي فِيهِ انَّ ٱلنَّاثِرَ يُعابُ عَلَى ٱستِعمَالِهِ مُطلَقًا إِذَا اتَى لِغَيرِ فَائِدَةٍ . وَامَّا ٱلنَّاظِمُ فَإِنَّهُ يُعابُ عَلَيهِ فِي مَوضِعٍ دُونَ مَوضِعٍ . امَّا ٱلْمَوضِعُ ٱلَّذِي يُعابُ ٱستِعمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ صُدُورُ ٱلْابيَاتِ ٱلشِّعرِيَّةِ وَمَا وَالَاهَا . وَامَّا ٱلْمَوضِعُ ٱلَّذِي لَا يُعابُ ٱستِعمَالُهُ فِيهِ فَهُوَ ٱلْاعجَازُ مِنَ ٱلْابيَاتِ لِمَكَانِ ٱلْقَافِيَةِ . وَإِنَّمَا جَازَ ذٰلِكَ وَلَمْ يَكُنْ عَيبًا لِانَّهُ قَافِيَةٌ

وَٱلشَّاعِرُ مُضطَرٌّ إِلَيهَا وَٱلْمضطَرُّ يَحِلُّ لَهُ مَا حُرِّمَ عَلَيهِ كَقَوْلِ ٱمرِئِ ٱلقَيسِ فِي قَصِيدَتِهِ ٱللاَّمِيَّةِ ٱلَّتِي مَطلَعُهَا :

اَلَا ٱنعَمْ صَبَاحًا اَيُّهَا ٱلطَّلَلُ ٱلبَالِي

فَقَالَ :

وَهَلْ يَنْعَمَنْ إِلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ قَلِيلُ ٱلْهُمُومِ لَا يَبِيتُ بِاَوْجَالِ

وَإِذَا كَانَ قَلِيلَ ٱلْهُمُومِ فَإِنَّهُ لَا يَبِيتُ بِاَوْجَالٍ . وَهٰذَا تَكْرِيرٌ لِلمَعْنَى إِلَّا انَّهُ لَيسَ بِمَعِيبٍ لِاَنَّهُ قَافِيَةٌ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُ ٱلْحُطَيئَةِ :

قَالَتْ إِمَامَةُ لَاتَجْزَعْ فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ ٱلْعَزَاءَ وَانَّ ٱلصَّبْرَ قَدْ غَلَبَا
هَلَّا ٱلْتَمَسْتِ لَنَا انْ كُنْتِ صَادِقَةً مَالًا نَعِيشُ بِهِ فِي ٱلنَّاسِ اَوْ نَشَبَا

فَٱلْبَيْتُ ٱلْاَوَّلُ مَعِيبٌ لِاَنَّهُ كَرَّرَ ٱلْعَزَاءَ وَٱلصَّبْرَ إِذْ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَلَمْ يَرِدَا قَافِيَةً لِاَنَ ٱلقَافِيَـةَ هِيَ ٱلبَاءُ . وامَّا ٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي فَلَيسَ بِمَعِيبٍ لِاَنَّ ٱلتَّكْرِيرَ جَاءَ فِي ٱلنَّشَبِ وَهُوَ قَافِيَةٌ

البحث السادس عشر

في حقيقة التشبيه وتحديده

(عن خزانة الادب للحموي وعن كتاب الصناعتين)

(راجع صفحة ٤٨ من علم الادب)

إِعلَمْ اَنَّ اَصْحَابَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ اَطْلَقُوا اَعِنَّةَ ٱلْكَلَامِ فِي مَيَادِينِ حُدُودِ ٱلتَّشْبِيهِ وَتَقَادِيرِهَا وَهُوَ عِنْدَهُمْ ٱلدَّلَالَةُ عَلَى مُشَارَكَةِ اَمرٍ لِاَمرٍ فِي مَعْنًى . وَقَالَ ٱلرُّمَّانِيُّ : ٱلتَّشْبِيهُ هُوَ ٱلْعَقْدُ عَلَى اَحَدِ ٱلشَّيْئَيْنِ

يَسُدُّ أَحَدُهُما مَسَدَّ ٱلآخَرِ فِي حَالٍ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّشْبِيهُ ٱلعَامُّ ٱلَّذِي يَدْخُلُ تَحْتَهُ ٱلتَّشْبِيهُ ٱلبَلِيغُ وَغَيْرُهُ . وَٱلتَّشْبِيهُ ٱلبَلِيغُ هُوَ إِخْرَاجُ ٱلأَغْمَضِ إِلَى ٱلأَوْضَحِ مَعَ حُسْنِ ٱلتَّأْلِيفِ . وَمِنْهُم مَنْ قَالَ: ٱلتَّشْبِيهُ هُوَ ٱلدَّلَالَةُ عَلَى ٱشْتِرَاكِ شَيْئَيْنِ فِي وَصْفٍ هُوَ مِنْ أَوْصَافِ ٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ . وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : ٱلتَّشْبِيهُ صِفَةُ ٱلشَّيْءِ بِمَا قَارَبَهُ وَشَاكَلَهُ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ لِأَنَّهُ لَوْ نَاسَبَهُ مُنَاسَبَةً كُلِّيَّةً كَانَ إِيَّاهُ . أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ : خَدٌّ كَٱلْوَرْدِ إِنَّمَا مُرَادُهُمْ أَحْمِرَارُ أَوْرَاقِهِ وَطَرَاوَتُهَا لَا مَا سِوَى ذٰلِكَ مِنْ صُفْرَةِ وَسَطِهِ وَخُضْرَةِ كَمَائِمِهِ (اه) . وَقِيلَ: ٱلتَّشْبِيهُ إِلْحَاقُ أَدْنَى ٱلشَّيْئَيْنِ بِأَعْلَاهُمَا فِي صِفَةٍ ٱشْتَرَكَا فِي أَصْلِهَا وَٱخْتَلَفَا فِي كَيْفِيَّتِهَا قُوَّةً وَضُعْفًا . قُلْتُ : وَهٰذَا حَدٌّ مُفِيدٌ . وَأَوْرَدَ ٱبْنُ أَبِي ٱلْأَصْبَعِ فِي كِتَابِهِ تَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ حَدًّا زَادَ فِي حُسْنِهِ عَلَى ٱلْحَدِّ وَهُوَ : أَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ تَشْبِيهَانِ (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهُمَا تَشْبِيهُ شَيْئَيْنِ مُتَّفِقَيْنِ بِأَنْفُسِهِمَا كَتَشْبِيهِ ٱلْجَوْهَرِ بِٱلْجَوْهَرِ مِثْلُ قَوْلِكَ : مَاءُ ٱلنِّيلِ كَمَاءِ ٱلْفُرَاتِ . وَتَشْبِيهِ ٱلْعَرَضِ بِٱلْعَرَضِ كَقَوْلِكَ: حُمْرَةُ ٱلْخَدِّ كَحُمْرَةِ ٱلْوَرْدِ. وَتَشْبِيهِ ٱلْجِسْمِ بِٱلْجِسْمِ كَقَوْلِكَ: ٱلزَّبَرْجَدُ مِثْلُ ٱلزُّمُرُّدِ. (وَٱلثَّانِي) تَشْبِيهُ شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ بِٱلذَّاتِ يَجْمَعُهُمَا مَعْنًى وَاحِدٌ مُشْتَرِكٌ . كَقَوْلِكَ: حَاتِمٌ كَٱلْغَمَامِ وَعَنْتَرَةُ كَٱلضِّرْغَامِ . وَتَشْبِيهُ ٱلِٱتِّفَاقِ وَهُوَ ٱلأَوَّلُ تَشْبِيهٌ حَقِيقِيٌّ . وَتَشْبِيهُ ٱلِٱخْتِلَافِ وَهُوَ ٱلثَّانِي تَشْبِيهٌ مَجَازِيٌّ وَٱلْمُرَادُ ٱلْمُبَالَغَةُ. وَٱلتَّشْبِيهُ رُكْنٌ مِنْ أَرْكَانِ ٱلْبَلَاغَةِ لِإِخْرَاجِهِ ٱلْخَفِيَّ إِلَى ٱلْجَلِيِّ وَإِدْنَائِهِ ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْقَرِيبِ . وَهُوَ حُكْمٌ اضَافِيٌّ لَا يُوجَدُ إِلَّا بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ بِخِلَافِ ٱلِٱسْتِعَارَةِ وَلَيْسَ ٱلْحُكْمُ

اَنَّهُ اِذَا صَحَّتِ ٱلِٱسْتِعَارَةُ حَسُنَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَاِنَّ ٱلْمُشَابَهَةَ اِذَا قُرِنَتْ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ بِٱلِٱسْتِعَارَةِ قَبُحَ ٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ . فَلَا تَقُولُ: كَاَنَّكَ اَوْقَعْتَنِي فِي ظُلْمَةٍ اِذَا اَوْقَعَكَ فِي شُبْهَةٍ . وَفَهِمْتُ ٱلْمَسْاَلَةَ فَكَاَنَّهُ ٱنْشَرَحَ صَدْرِي اَوْ كَاَنَّ نُورًا حَصَلَ فِي قَلْبِي. لِتَمَكُّنِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ حَتَّى كَاَنَّهَا صَارَتْ حَقِيقَيَّةً

البحث السابع عشر

في اركان التشبيه ومحاسنهِ وفوائده

(من المثل السائر لابن الاثير بتصرُّف)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

وَٱعْلَمْ اَنَّ لِلتَّشْبِيهِ اَدَوَاتٍ كَنَحْوِ وَكَانَ وَشِبْهٍ وَمِثْلٍ . فَرُبَّمَا ظَهَرَتْ وَرُبَّمَا اُضْمِرَتْ . (وَمِنَ ٱلْمُظْهِرِ ٱلْاَدَاةَ) مَا قِيلَ فِي وَصْفِ حَالِ ٱلْمُنَافِقِينَ : مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا اَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ ٱللّٰهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ . وَكَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

خُلُقٌ مِنْهُمُ تَرَدَّدَ فِيهِمْ وَلِيَتْهُ عِصَابَةٌ عَنْ عِصَابَهْ
كَٱلْحُسَامِ ٱلْجُرَازِ يَبْقَى عَلَى ٱلدَّهْرِ م وَيَفْنِي فِي كُلِّ حِينٍ قِرَابُهْ

وَمِنَ ٱللَّطِيفِ ٱلْبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْاَحْنَفِ:

لَا جَزَى ٱللّٰهُ دَمْعَ عَيْنَيَّ خَيْرًا وَجَزَى ٱللّٰهُ كُلَّ خَيْرٍ لِسَانِي
نَمَّ دَمْعِي فَلَيْسَ يَكْتُمُ شَيْئًا وَوَجَدْتُ ٱللِّسَانَ ذَا كُتْمَانِ
كُنْتُ مِثْلَ ٱلْكِتَابِ اَخْفَاهُ طَيٌّ فَٱسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ بِٱلْعُنْوَانِ

(وَمِنَ ٱلْمُضمرِ ٱلأَدَاةِ) قَوْلُهُ : وَجَعلْنَا ٱللَّيلَ لِبَاسًا. فَشَبَّهَ ٱللَّيلَ بِٱللِّبَاسِ . وَذَاكَ أَنَّهُ يَستُرُ ٱلنَّاسَ بَعضَهُمْ عَنْ بَعْضٍ لِمَنْ أَرَادَ هَرَبًا مِنْ عَدُوٍّ أَوْ ثَبَاتًا لِعَدُوٍّ أَوْ إِخْفَاءً لِمَا لَا يُحِبُّ ٱلْأِطِّلَاعَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْأَمْثَالِ مِثْلُهُ : ٱللَّيْلُ جُنَّةُ ٱلْهَارِبِ . وَمِمَّا وَرَدَ شِعْرًا قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَإِذَا ٱهتَزَّ لِلنَّدَى كَانَ بَحْرًا ... وَإِذَا ٱهتَزَّ لِلْوَغَى كَانَ نَصْلَا

وَإِذَا ٱلْأَرْضُ أَظْلَمَتْ كَانَ شَمْسًا ... وَإِذَا ٱلْأَرْضُ أَمحلَتْ كَانَ وَبْلَا

وَكُلُّ ذٰلِكَ مِنَ ٱلتَّشبِيهِ ٱلْمُضمَرِ ٱلْأَدَاةِ . وَإِنَّ هٰذَا ٱلتَّشبِيهَ أَبلَغُ مِنَ ٱلتَّشبِيهِ ٱلْمُظْهَرِ ٱلْأَدَاةِ وَأَوجَزُ . أَمَّا كَوْنُهُ أَبلَغَ فَلِجَعْلِ ٱلْمُشَبَّهِ مُشَبَّهًا بِهِ مِنْ غَيْرِ وَاسِطَةِ أَدَاةٍ فَيَكُونُ هُوَ إِيَّاهُ . فَإِنَّكَ إِذَا قُلْتَ : زَيْدٌ أَسَدٌ . كُنْتَ قَدْ جَعَلْتَهُ أَسَدًا مِنْ غَيْرِ إِظْهَارِ أَدَاةِ ٱلتَّشبِيهِ . وَأَمَّا كَوْنُهُ أَوجَزَ فَلِحَذْفِ أَدَاةِ ٱلتَّشبِيهِ مِنْهُ . وَعَلَى هٰذَا فَإِنَّ ٱلْقِسْمَيْنِ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ وَٱلْمُضمَرِ كِلَيْهِمَا فِي فَضِيلَةِ ٱلْبَيَانِ سَوَاءٌ فَإِنَّ ٱلْغَرَضَ ٱلْمَقْصُودَ مِنَ قَوْلِنَا : زَيْدٌ أَسَدٌ . أَنْ يَتَبَيَّنَ حَالُ زَيْدٍ فِي ٱتِّصَافِهِ بِشَهَامَةِ ٱلنَّفْسِ وَقُوَّةِ ٱلْبَطْشِ وَجَرَاءَةِ ٱلْإِقْدَامِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُ . إِلَّا أَنَّا لَمْ نَجِدْ شَيْئًا نَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ سِوَى أَنْ جَعَلْنَاهُ شَبِيهًا بِٱلْأَسَدِ حَيْثُ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتُ مُخْتَصَّةً بِهِ . فَصَارَ مَا قَصَدْنَاهُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ أَكْشَفَ وَأَبْيَنَ مِنْ أَنْ لَوْ قُلْنَا : زَيْدٌ شَهْمٌ شُجَاعٌ قَوِيُّ ٱلْبَطْشِ جَرِيءُ ٱلْجَنَانِ وَأَشْبَاهُ ذٰلِكَ . لِمَا قَدْ عُرِفَ وَعُهِدَ مِنِ ٱجْتِمَاعِ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ فِي ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ أَعْنِي ٱلْأَسَدَ . وَأَمَّا زَيْدٌ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ فَلَيْسَ مَعْرُوفًا بِهَا

وَإنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِيهِ. وَكِلَا هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ أَيضًا يَخْتَصُّ بِفَضِيلَةِ ٱلْإيجَازِ وَإنْ كَانَ ٱلْمُضْمَرُ أوجَزَ مِنَ ٱلْمُظْهَرِ لِأَنَّ قَوْلَنَا: زَيْدٌ أَسَدٌ أَوْ كَالْأَسَدِ. يَسُدُّ مَسَدَّ قَوْلِنَا: زَيْدٌ مِنْ حَالِهِ كَيتَ وَكَيْتَ. وَهُو مِنَ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلشِّدَّةِ عَلَى كَذَا وَكَذَا مِمَّا يَطُولُ ذِكْرُهُ. فَٱلتَّشْبِيهُ إِذًا يَجْمَعُ صِفَاتٍ ثَلَاثَةً هِيَ: ٱلْمُبَالَغَةُ. وَٱلْبَيَانُ. وَٱلْإيجَازُ كَمَا أَرَيْتُكَ. إِلَّا أَنَّهُ نَوْعٌ مِنْ بَيْنِ أَنْوَاعِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ مُسْتَوْعِرُ ٱلْمَذْهَبِ وَهُوَ مَقْتَلٌ مِنْ مَقَاتِلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَسَبَبُ ذٰلِكَ أَنَّ حَمْلَ ٱلشَّيْءِ بِٱلْمُمَاثَلَةِ إِمَّا صُورَةً وَإمَّا مَعْنًى يَعِزُّ صَوَابُهُ وَتَعْسُرُ ٱلْإجَادَةُ فِيهِ. وَقَلَّمَا أَكْثَرَ مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا عَثَرَ كَمَا فَعَلَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ مِنْ أُدَبَاءِ ٱلْعِرَاقِ وَٱبْنُ وَكِيعٍ مِنْ أُدَبَاءِ مِصْرَ. فَإِنَّهُمَا أَكْثَرَا مِنْ ذٰلِكَ لَاسِيَّمَا فِي وَصْفِ ٱلرِّيَاضِ وَٱلْأَشْجَارِ وَٱلْأَزْهَارِ وَٱلثِّمَارِ. لَاجَرَمَ أَنَّهُمَا أَتَيَا بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ ٱلَّذِي لَا يَثْبُتُ عَلَى مِحَكِّ ٱلصَّوَابِ فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَوَقَّى مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ. وَأَمَّا فَائِدَةُ ٱلتَّشْبِيهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهِيَ: أَنَّكَ إِذَا مَثَّلْتَ ٱلشَّيْءَ بِٱلشَّيْءِ فَإنَّمَا تَقْصِدُ فِيهِ إِثْبَاتَ ٱلْخَالِ فِي ٱلنَّفْسِ بِصُورَةِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ أَوْ بِمَعْنَاهُ وَذٰلِكَ أَوْكَدُ فِي طَرَفَي ٱلتَّرْغِيبِ فِيهِ أَوِ ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهُ. أَلَا تَرَى أَنَّكَ إِذَا أَشْبَهْتَ صُورَةً بِصُورَةٍ هِيَ أَحْسَنُ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتًا فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا حَسَنًا يَدْعُو إِلَى ٱلتَّرْغِيبِ فِيهَا. وَكَذٰلِكَ إِذَا أَشْبَهْتَهَا بِصُورَةِ شَيْءٍ أَقْبَحَ مِنْهَا كَانَ ذٰلِكَ مُثْبِتًا فِي ٱلنَّفْسِ خَيَالًا قَبِيحًا يَدْعُو إِلَى ٱلتَّنْفِيرِ عَنْهَا وَهٰذَا لَا نِزَاعَ فِيهِ. وَلْنَضْرِبْ لَهُ مِثَالًا يُوضِحُهُ فَنَقُولُ: قَدْ وَرَدَ عَنِ ٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي مَدْحِ ٱلْعَسَلِ وَذَمِّهِ بَيْتٌ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ:

تَقُولُ هٰذَا مُجَاجُ ٱلنَّحْلِ تَمْدَحُهُ وَانْ تَعِبْ قُلْتَ ذَا قَيْءُ ٱلزَّنَابِيرِ

اَلَا تَرَى كَيْفَ مَدَحَ وَذَمَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ بِتَصْرِيفِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْمَجَازِيِّ ٱلْمُضْمَرِ ٱلْاَدَاةِ ٱلَّذِي خَيَّلَ بِهِ اِلَى ٱلسَّامِعِ خَيَالًا يُحَسِّنُ ٱلشَّيْءَ عِنْدَهُ تَارَةً وَيُقَبِّحُهُ اُخْرَى . وَلَوْلَا ٱلتَّوَصُّلُ بِطَرِيقِ ٱلتَّشْبِيهِ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ لَمَا اَمْكَنَهُ ذٰلِكَ . وَهٰذَا ٱلْمِثَالُ كَافٍ فِيمَا اَرَدْنَاهُ . وَٱعْلَمْ اَنَّ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلتَّشْبِيهِ اَنْ يَجِيءَ مَصْدَرِيًا كَقَوْلِنَا : اَقْدَمَ اِقْدَامَ ٱلْاَسَدِ وَفَاضَ فَيْضَ ٱلْبَحْرِ . وَهُوَ اَحْسَنُ مَا ٱسْتُعْمِلَ فِي بَابِ ٱلتَّشْبِيهِ . كَقَوْلِ اَبِي نُوَّاس فِي وَصْفِ ٱلْخَمْرِ :

وَاِذَا مَا مَزَجُوهَا وَثَبَتْ وَثْبَ ٱلْجَرَادْ
وَاِذَا مَا شَرِبُوهَا اَخَذَتْ اَخْذَ ٱلرُّقَادْ

وَقِيلَ : اِنَّ مِنْ شَرْطِ بَلَاغَةِ ٱلتَّشْبِيهِ اَنْ يُشَبَّهَ ٱلشَّيْءُ بِمَا هُوَ اَكْبَرُ مِنْهُ وَاَعْظَمُ . وَٱلْقَوْلُ ٱلسَّدِيدُ فِي ذٰلِكَ هُوَ مَا اَذْكُرُهُ : وَهُوَ اَنَّ اِطْلَاقَ مَنْ اَطْلَقَ قَوْلَهُ فِي اَنَّ مِنْ شُرُوطِ بَلَاغَةِ ٱلتَّشْبِيهِ اَنْ يُشَبَّهَ ٱلْاَصْغَرُ بِٱلْاَكْبَرِ قَوْلٌ غَيْرُ حَاصِرٍ لِلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ . لِاَنَّ ٱلتَّشْبِيهَ يَأْتِي تَارَةً فِي مَعْرِضِ ٱلْمَدْحِ وَتَارَةً فِي مَعْرِضِ ٱلذَّمِّ . وَتَارَةً فِي غَيْرِ مَعْرِضِ مَدْحٍ وَلَا ذَمٍّ . وَاِنَّمَا يَأْتِي قَصْدًا لِلْاِبَانَةِ وَٱلْاِيضَاحِ . وَلَا يَكُونُ تَشْبِيهُ اَصْغَرَ بِاَكْبَرَ كَمَا ذَهَبَ اِلَيْهِ مَنْ ذَهَبَ . بَلِ ٱلْقَوْلُ ٱلْجَامِعُ فِي ذٰلِكَ اَنْ يُقَالَ : اِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ لَا يُعْمَدُ اِلَيْهِ اِلَّا لِضَرْبٍ مِنَ ٱلْمُبَالَغَةِ فَاِمَّا اَنْ يَكُونَ مَدْحًا اَوْ ذَمًّا اَوْ بَيَانًا اَوْ اِيضَاحًا وَلَا يَخْرُجُ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِي ٱلثَّلَاثَةِ . وَاِذَا كَانَ ٱلْاَمْرُ

كَذٰلِكَ فَلَا بُدَّ فيهِ مِنْ تَقْدِيرِ لَفظَةِ افعَلَ (يُرِيدُ افعلَ ٱلتَّفضِيل) . فَاِنْ لَمْ تُقَدَّرْ فِيهِ لَفظَةُ (اَفعلَ) فَلَيس بتَشبيهٍ بَلِيغٍ . اَلَا تَرَى اَنَّا نَقُولُ فِي ٱلتَّشبِيهِ ٱلْمُضمَرِ ٱلاَدَاةِ: زَيدٌ اَسَدٌ . فَقَدْ شَبَّهْنَا زَيدًا بِٱلاَسَدِ ٱلَّذِي هُوَ اَشجَعُ مِنهُ. فَاِنْ لَمْ يَكُنِ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ فِي هٰذَا ٱلْمَقَامِ اَشجَعَ مِن زَيدٍ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُشَبَّهُ وَاِلَّا كَانَ ٱلتَّشبِيهُ نَاقِصًا اِذْ لَا مُبَالَغَةَ فِيهِ . وَكَذٰلِكَ فِي ٱلتَّشبِيهِ ٱلْمُظهَرِ ٱلاَدَاةِ كَقَوْلِهِ : وَلَهُ ٱلْجَوَارِي ٱلْمُنشَآتُ فِي ٱلبَحرِ كَٱلاَعلَامِ . وَهٰذَا تَشبِيهُ كَبِيرٍ بِمَا هُوَ اَكبَرُ مِنهُ. لِاَنَّ خَلقَ ٱلسُّفُنِ ٱلبَحرِيَّةِ كَبِيرٌ وَخَلقَ ٱلْجِبَالِ اَكبَرُ مِنهُ . وَمِثلُهُ : اِذَا شُبِّهَ شَيْءٌ حَسَنٌ بِشَيْءٍ حَسَنٍ فَاِنَّهُ اِذَا لَمْ يُشَبَّهْ بِمَا هُوَ اَحسَنُ مِنهُ فَلَيسَ هُوَ بِوَارِدٍ عَلَى طَرِيقِ ٱلبَلَاغَةِ . وَهٰكَذَا: اِنْ شُبِّهَ قَبِيحٌ بِقَبِيحٍ فَيَنبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ اَقبَحَ وَاِنْ قُصِدَ ٱلْبَيَانُ وَٱلاِيضَاحُ فَيَنبَغِي اَنْ يَكُونَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ اَبيَنَ وَاَوضَحَ . فَتَقدِيرُ لَفظَةِ (اَفعَلَ) لَا بُدَّ مِنهُ فِيمَا يُقصَدُ بِهِ بَلَاغَةُ ٱلتَّشبِيهِ وَاِلَّا كَانَ ٱلتَّشبِيهُ نَاقِصًا فَٱعلَمْ ذٰلِكَ وَقِسْ عَلَيهِ

البحث الثامن العاشر

في اقسام التشبيه

(عن صناعة الترسّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٤٩ من علم الادب)

(اَلتَّشبِيهُ عَلَى اَربَعَةِ اَقسَامٍ) : اَلاَوَّلُ تَشبِيهُ مَحسُوسٍ بِمَحسُوسٍ لِاشتِرَاكِهِمَا اِمَّا فِي ٱلْمَحسُوسَاتِ ٱلاُولَى وَهِيَ مُدرَكَاتُ ٱلسَّمعِ

وَٱلْبَصَرِ وَٱلذَّوْقِ وَٱلشَّمِّ وَٱللَّمْسِ . كَتَشْبِيهِ ٱلْخَدِّ بِٱلْوَرْدِ . وَٱلْوَجْهِ بِٱلنَّهَارِ . وَٱلْفَوَاكِهِ ٱلْحُلْوَةِ بِٱلسُّكَّرِ وَٱلْعَسَلِ . وَرَائِحَةِ بَعْضِ ٱلرَّيَاحِينِ بِٱلْكَافُورِ وَٱلْمِسْكِ . وَٱللَّيِّنِ ٱلنَّاعِمِ بِٱلْخَزِّ . وَٱلْخَشِنِ بِٱلْمِسْحِ . أَوْ فِي ٱلْمَحْسُوسَاتِ ٱلثَّانِيَةِ وَهِيَ : ٱلْأَشْكَالُ ٱلْمُسْتَقِيمَةُ وَٱلْمُسْتَدِيرَةُ وَٱلْمَقَادِيرُ وَٱلْحَرَكَاتُ كَتَشْبِيهِ ٱلْمُسْتَوِي ٱلْمُنْتَصِبِ بِٱلرُّمْحِ . وَٱلْقَدِّ ٱللَّطِيفِ بِٱلْغُصْنِ . وَٱلشَّيْءِ ٱلْمُسْتَدِيرِ بِٱلْكُرَةِ وَٱلْحَلْقَةِ . وَعِظَمِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْجَبَلِ . وَٱلذَّاهِبِ عَلَى ٱلِاسْتِقَامَةِ بِنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ . أَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلْجُثْمَانِيَّةِ كَٱلصَّلَابَةِ وَٱلرَّخَاوَةِ . أَوْ فِي ٱلْكَيْفِيَّاتِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ كَٱلْغَرَائِزِ وَٱلْأَخْلَاقِ . أَوْ فِي حَالَةٍ إِضَافِيَّةٍ كَقَوْلِكَ : هٰذِهِ حُجَّةٌ كَٱلشَّمْسِ . وَٱلْجَامِعُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُزِيلٌ لِلْحِجَابِ وَكَقَوْلِكَ : أَلْفَاظُهُ كَٱلْمَاءِ فِي ٱلسَّلَاسَةِ . وَكَٱلنَّسِيمِ فِي ٱلرِّقَّةِ . وَكَٱلْعَسَلِ فِي ٱلْحَلَاوَةِ . وَٱلْجَامِعُ سُرْعَةُ وُصُولِهِ إِلَى ٱلنَّفْسِ وَٱهْتِزَازُهَا بِهِ . وَرُبَّمَا كَانَ ٱلتَّشْبِيهُ بِوَجْهٍ عَقْلِيٍّ كَقَوْلِ فَاطِمَةَ بِنْتِ ٱلْخُرْشُبِ ٱلْأَنْمَارِيَّةِ حِينَ وَصَفَتْ بَنِيهَا : هُمْ كَٱلْحَلْقَةِ ٱلْمُفْرَغَةِ لَا يُدْرَى أَيْنَ طَرَفَاهَا . فَإِنَّهُ لَا يَفْهَمُ ٱلْمَقْصُودَ إِلَّا مَنْ لَهُ ذِهْنٌ يَتَرَفَّعُ عَنْ طَبَقَةِ ٱلْعَامَّةِ بِخِلَافِ مَا سَبَقَ . وَمِنَ ٱلْفَرْقِ ٱلظَّاهِرِ بَيْنَهُمَا أَنَّ جَعْلَ ٱلْفَرْعِ أَصْلًا وَٱلْأَصْلِ فَرْعًا يَجِيءُ فِيمَا تَقَدَّمَ مَجِيئًا وَاسِعًا كَقَوْلِهِمْ فِي ٱلنُّجُومِ : كَأَنَّهُمْ مَصَابِيحُ . وَفِي ٱلْمَصَابِيحِ : كَأَنَّهَا نُجُومٌ . وَإِنْ حَاوَلْتَ ذٰلِكَ فِي ٱلثَّانِي لَمْ يَكَدْ يَنْقَادُ ٱنْقِيَادَ ٱلْأَوَّلِ . (ٱلثَّانِي) تَشْبِيهُ ٱلْمَعْقُولِ بِٱلْمَعْقُولِ كَتَشْبِيهِ ٱلْوُجُودِ ٱلْعَارِي عَنِ ٱلْفَوَائِدِ بِٱلْعَدَمِ وَتَشْبِيهِ ٱلْفَوَائِدِ ٱلَّتِي تَبْقَى بَعْدَ عَدَمِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْوُجُودِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

رُبَّ حَيٍّ كَمَيْتٍ لَيْسَ فِيهِ أَمَلٌ يُرْتَجَى لِنَفْعٍ وَضُرِّ
وَعِظَامٍ تَحْتَ التُّرَابِ وَفَوْقَ الْأَرْ ضِ مِنْهَا آثَارُ حَمْدٍ وَشُكْرِ

(الثَّالِثُ) تَشْبِيهُ الْمَعْقُولِ بِالْمَحْسُوسِ كَقَوْلِهِ : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ . وَكَقَوْلِهِ : وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ . (الرَّابِعُ) تَشْبِيهُ الْمَحْسُوسِ بِالْمَعْقُولِ وَهُوَ غَيْرُ جَائِزٍ لِأَنَّ الْعُلُومَ مُسْتَفَادَةٌ مِنَ الْحَوَاسِّ وَمُنْتَهِيَةٌ إِلَيْهَا وَلِذَلِكَ قِيلَ : مَنْ فَقَدَ حِسًّا فَقَدَ عِلْمًا . فَإِذَا كَانَ الْمَحْسُوسُ أَصْلًا لِلْمَعْقُولِ فَتَشْبِيهُهُ بِهِ يَكُونُ جَعْلًا لِلْفَرْعِ أَصْلًا وَالْأَصْلِ فَرْعًا . وَلِذَلِكَ لَوْ حَاوَلَ مُحَاوِلٌ الْمُبَالَغَةَ فِي وَصْفِ الشَّمْسِ بِالظُّهُورِ وَالْمِسْكِ بِالثَّنَاءِ فَقَالَ : الشَّمْسُ كَالْحُجَّةِ فِي الظُّهُورِ . وَالْمِسْكُ كَالثَّنَاءِ فِي الطِّيبِ . كَانَ سَخِيفًا مِنَ الْقَوْلِ . فَأَمَّا مَا جَاءَ فِي الْأَشْعَارِ مِنْ تَشْبِيهِ الْمَحْسُوسِ بِالْمَعْقُولِ فَوَجْهُهُ أَنْ يُقَدَّرَ الْمَعْقُولُ مَحْسُوسًا وَيُجْعَلَ كَالْأَصْلِ الْمَحْسُوسِ عَلَى طَرِيقِ الْمُبَالَغَةِ فَيَصِحُّ التَّشْبِيهُ حِينَئِذٍ . وَذَلِكَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

وَكَأَنَّ النُّجُومَ بَيْنَ دُجَاهَا سُنَنٌ لَاحَ بَيْنَهُنَّ ابْتِدَاعُ

فَإِنَّهُ لَمَّا شَاعَ وَصْفُ السُّنَّةِ بِالْبَيَاضِ وَالْإِشْرَاقِ عَلَى مَا قِيلَ : أَتَيْتُكُمْ بِالْحَنِيفِيَّةِ الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا . وَاشْتَهَرَتِ الْبِدْعَةُ وَكُلُّ مَا لَيْسَ بِحَقٍّ بِالظُّلْمَةِ تَخَيَّلَ الشَّاعِرُ أَنَّ السُّنَنَ كَأَنَّهَا مِنَ الْأَجْنَاسِ الَّتِي لَهَا إِشْرَاقٌ وَنُورٌ وَأَنَّ الْبِدَعَ نَوْعٌ مِنَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي لَهَا اخْتِصَاصٌ بِالسَّوَادِ وَالظُّلْمَةِ . فَصَارَ ذَلِكَ عِنْدَهُ كَتَشْبِيهِ مَحْسُوسٍ بِمَحْسُوسٍ فَجَازَ لَهُ التَّشْبِيهُ . وَبِالْجُمْلَةِ فَهَذَا التَّشْبِيهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَخَيُّلِ مَا لَيْسَ بِمُتَلَوِّنٍ مُتَلَوِّنًا . ثُمَّ

يتخيّل اصلًا فيشبّهُ بِه.وهذا هو التأويلُ في قولِ ابي طالبِ الرَّقّيّ :

وَلقد ذكرتُكَ والظلامُ كأنّهُ   يومُ النوى وفؤادُ مَنْ لم يَرفقِ

فانَّهُ لمّا كانتِ الاوقاتُ التي تحدثُ فيها المكارهُ توصفُ بالسوادِ (يُقالُ: اسودّت الدُّنيا في عينيهِ).جعل يومَ النوى كأنّهُ اشهرُ واعرفُ بالسوادِ منَ الظلامِ فعرّفهُ بهِ وشبّهُ . ثُمَّ عطفَ عليهِ فؤادَ مَنْ لا يَرفقُ تظرّفًا .والقلبُ القاسي يوصفُ بشدّةِ السوادِ . فصار هذا القلبُ اصلا عِندهُ في السّوادِ فقسَ عليه . وكذلكَ قولُ الصاحبِ بنُ عبّادٍ حِينَ اهدى للقاضي ابي الحسنِ عليّ بنِ عبدِ العزيزِ الجُرجانيّ عِطرًا :

يا ايّها القاضي الذي نفسي لهُ   في قُربِ عهدِ لقائِهِ مُشتاقه

اهديتُ عِطرًا مِثلَ طيبِ ثنائِهِ   فكأنّما اهدي لهُ اخلاقه

والعادةُ تشبيهُ الثناء بالعطرِ وهوَ عكسَ الامرَ على جِهةِ المبالغةِ كما بيّنا . وقلتُ في تشبيهِ حِصنٍ :

كأنّهُ وكأنّ الجوَّ يكنفُهُ   وَهمٌ تمثّلهُ في طيها الفِكَرُ

لانّهُ لمّا ارتفعَ الحِصنُ في الجوّ حتى صارَ كالوهمِ فيكونُ من تشبيهِ المحسوسِ بما تُخيّلَ انّهُ محسوسٌ لإظلامِهِ في العينِ او فُرض لهُ الخفاء حتّى صارَ يُشبهُ معقولًا بمعقول . ويقربُ مِنْ هذا النوعِ تشبيهُ الوجودِ بالتخيّلِ الذي لا وجودَ لهُ في الاعيانِ كتشبيهِ الجمرِ بينَ الرمادِ ببحرٍ مِنَ المسكِ موجُهُ الذهبُ.وذلكَ انما يتمُّ اذا فرضَ المتخيّلُ امورا كلُّ واحدٍ منها موجودٌ في الاعيانِ . فحينئذٍ يكونُ التشبيهُ حسنًا لطيفًا كقولِ الشاعرِ في النرجسِ :

كَأَنَّ عُيونَ ٱلنَّرْجِسِ ٱلغَضِّ بَيْنَنا مَدَاهِنُ دُرٍّ حَشْوُهُنَّ عَقِيقُ

وَكَقَوْلِ آخَرَ فِي تَشْبِيهِ ٱلشَّقَائِقِ :

وَكَأَنَّ مُحْمَرَّ ٱلشَّقِيـقِ م إِذَا تَصَوَّبَ أَوْ تَصَعَّدْ

أَعْلَامُ يَاقُوتٍ نُشِرْ نَ عَلَى رِمَاحٍ مِنْ زَبَرْجَدْ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

أَيَقْتُلُنِي وَٱلْمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَغْوَالِ

فَإِنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا أَنْيَابَ ٱلْأَغْوَالِ بَلِ ٱعْتَقَدُوا أَنَّهَا فِي غَايَةِ ٱلْحِدَّةِ فَحَسُنَ ٱلتَّشْبِيهُ . وَعَلَيْهِ جَاءَ قَوْلُهُ : طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ ٱلشَّيَاطِينِ . لِتَنَاهِي رُؤُوسِ ٱلشَّيَاطِينِ فِي ٱلْكَرَاهَةِ وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي قُبْحِ ٱلشَّيْطَانِ وَكَرَاهِيَتِهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلْوَجْهَ ٱلْقَبِيحَ . وَلِٱعْتِقَادِهِمِ ٱلْغَايَةَ فِي خَيْرِ ٱلْمَلَكِ وَأَنَّهُ لَا شَرَّ فِيهِ يُشَبِّهُونَ بِهِ ٱلصُّوَرَ ٱلْحَسَنَةَ كَمَا قَالَ : مَا هٰذَا بَشَرًا إِنْ هٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مَا بِهِ ٱلْمُشَابَهَةُ قَدْ يَكُونُ مُقَيَّدًا بِٱلِٱنْتِسَابِ إِلَى ٱلشَّيْءِ . وَذٰلِكَ إِمَّا إِلَى ٱلْمَفْعُولِ بِهِ وَهُوَ ٱلْجَارُّ وَٱلْمَجْرُورُ كَقَوْلِهِمْ لِمَنْ يَفْعَلُ مَا لَا يُفِيدُ : كَٱلرَّاقِمِ عَلَى ٱلْمَاءِ . وَإِمَّا إِلَى ٱلْحَالِ كَقَوْلِهِمْ : كَٱلْحَادِي وَلَيْسَ لَهُ بَعِيرٌ (ٱلْوَاوُ لِلْحَالِ) . وَإِمَّا إِلَى ٱلْمَفْعُولِ بِهِ وَٱلْجَارِّ وَٱلْمَجْرُورِ كَقَوْلِهِمْ : هُوَ كَمَنْ يَجْمَعُ ٱلسَّيْفَيْنِ فِي غِمْدٍ وَكَمُبْتَغِي ٱلصَّيْدَ فِي عِرِّيسَةِ ٱلْأَسَدِ . وَكَقَوْلِ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلنَّاسُ إِلَّا كَٱلدِّيَارِ وَأَهْلِهَا بِهَا يَوْمَ حَلُّوهَا وَغَدَوْا بَلَاقِعُ

فَإِنَّهُ لَمْ يُشَبِّهِ ٱلنَّاسَ بِٱلدِّيَارِ وَإِنَّمَا شَبَّهَ وُجُودَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَسُرْعَةَ زَوَالِهِمْ بِحُلُولِهِمِ ٱلدِّيَارَ وَوَشْكِ رَحِيلِهِمْ مِنْهَا . وَكُلَّمَا كَانَتِ ٱلْمُقَدَّمَاتُ

اكثر كان التشبيه اوغل في كونه عقلياً كقوله : إنما مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام حتى اذا اخذت الارض زخرفها وازينت وظن اهلها انهم قادرون عليها اتاها امرنا ليلاً او نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالامس . فان التشبيه منتزع من مجموع هذه الجمل من غير ان يمكن فصل بعضها من بعض . فانك لو حذفت منها جملة واحدة من اي موضع كان اخل ذلك بالمقصود من التشبيه . ثم ما به المشابهة ان كان مركباً فانه على قسمين : (الاول) ما لا يمكن افراد احد اجزائه بالذكر كقوله :

كأن سهيلاً والنجوم وراءه صفوف صلاة قام فيها امامها

فانه لا يمكن افراد اجزاء هذا التشبيه اذ لو قلت : كأن سهيلاً امام وكأن النجوم صفوف صلاة . ذهبت فائدة هذا التشبيه . (الثاني) ما يمكن افراده بالذكر ويكون اذا ازيل منه التركيب صحيح التشبيه في طرفيه الا ان المعنى مغير كقول ابي طالب الرقي :

وكأن اجرام النجوم لوامعا درر نثرن على بساط ازرق

فلو قلت : كأن النجوم درر وكأن السماء بساط ازرق وجدت التشبيه مقبولاً . ولكن المقصود من الهيئة المشبه بها قد زال . وربما كان التشبيه في امور كثيرة ولا يتقيد بعضها ببعض . وانما يكون بعضها مضموما الى البعض وكل واحد منها منفرد بنفسه

كَقَوْلِكَ: زَيْدٌ كَالأَسَدِ بَأْساً وَٱلْبَحْرِ جُوداً وَٱلسَّيْفِ مَضَاءً وَٱلْبَدْرِ بَهَاءً. وَكَقَوْلِكَ: هُوَ يَصْفُو وَيَكْدُرُ وَيَحْلُو وَيَمُرُّ. وَلَهُ خَاصَّتَانِ (إِحْدَاهُمَا) أَنَّهُ لَا يَجِبُ فِيهِ ٱلتَّرْتِيبُ. (وَٱلثَّانِيَةُ) إِذَا أُسْقِطَ ٱلْبَعْضُ لَا يَتَغَيَّرُ حُكْمُ ٱلْبَاقِي. وَمِنْهُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

كَأَنَّ قُلُوبَ ٱلطَّيْرِ رَطْباً وَيَابِساً ... لَدَى وَكْرِهَا ٱلْعُنَّابُ وَٱلْحَشَفُ ٱلْبَالِي

وَفِيهِ نَظَرٌ

البحث التاسع عشر

في التشابيه المستعملة عند العرب

(من كتاب الصناعتين للعسكري وعن البديعيات)

اَمَا ٱلطَّرِيقَةُ ٱلْمَسْلُوكَةُ فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلنَّهْجُ ٱلْقَاصِدُ فِي ٱلتَّمْثِيلِ عَنِ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ فَتَشْبِيهُ ٱلْجَوَادِ بِٱلْبَحْرِ وَٱلْمَطَرِ. وَٱلشُّجَاعِ بِٱلأَسَدِ. وَٱلْحَسَنِ بِٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ. وَٱلْفَهِمِ ٱلْمَاضِي بِٱلسَّيْفِ. وَٱلْعَالِي ٱلرُّتْبَةِ بِٱلنَّجْمِ. وَٱلْحَلِيمِ ٱلرَّزِينِ بِٱلْجَبَلِ. وَٱلْحَيِيِّ بِٱلْبِكْرِ. ثُمَّ يُشَبِّهُونَ ٱللَّئِيمَ بِٱلْكَلْبِ. وَٱلْجَبَانَ بِٱلصِّفْرِدِ. وَٱلطَّائِشَ بِٱلْفَرَاشِ. وَٱلذَّلِيلَ بِٱلنَّقَدِ وَٱلنَّعْلِ. وَٱلْنَفِعَ بِٱلْوَتِدِ. وَٱلْقَاسِيَ بِٱلْحَدِيدِ وَٱلصَّخْرِ. وَٱلْبَلِيدَ بِٱلْجَمَادِ. وَشُهِرَ قَوْمٌ بِخِصَالٍ مَحْمُودَةٍ فَصَارُوا فِيهَا أَعْلَاماً فَجَرَوْا مَجْرَى مَا قَدَّمْنَاهُ كَٱلسَّمَوْءَلِ فِي ٱلْوَفَاءِ. وَحَاتِمٍ فِي ٱلسَّخَاءِ. وَٱلأَحْنَفِ فِي ٱلْحِلْمِ. وَسَحْبَانَ فِي ٱلْبَلَاغَةِ. وَقُسٍّ فِي ٱلْخَطَابَةِ. وَلُقْمَانَ فِي ٱلْحِكْمَةِ. وَشُهِرَ آخَرُونَ بِأَضْدَادِ هٰذِهِ ٱلْخِصَالِ فَشُبِّهَ بِهِمْ فِي حَالِ ٱلذَّمِّ كَبَاقِلٍ فِي ٱلْعِيِّ. وَهَبَنَّقَةَ فِي ٱلْحُمْقِ. وَٱلْكُسَعِيِّ فِي ٱلنَّدَامَةِ. وَمَادِرٍ فِي ٱلْبُخْلِ

وَٱلتَّشبيهُ يَزيدُ ٱلمَعنَى وُضُوحًا وَيُكسِبُهُ تأكيدًا . وَقَد يَأتي تارةً لبيانِ إمكانِ وُجودِ ٱلشَّيْءِ عِندَ ٱدِّعاءِ مَا لَا يَكُونُ إمكانُهُ بيِّنًا . كَقَولِ ٱلمُتَنَبِّي:

فَإنْ تَفُقِ ٱلأنامَ وَأنتَ مِنهُمْ ... فَإنَّ ٱلمِسكَ بَعضُ دَمِ ٱلغَزالِ

وَيكُونُ لِبَيانِ مِقدارِ ٱلشَّيْءِ كَمَا إذا حاوَلتَ نَفيَ ٱلفائِدَةِ مِن فِعلِ ٱلإنسانِ قُلتَ: هُوَ كَٱلقابِضِ عَلَى ٱلماءِ. وَقَد أطبَقَ جَميعُ ٱلمُتَكَلِّمِينَ مِنَ ٱلعَرَبِ وَٱلعَجَمِ عَلَى فَوائِدِ ٱلتَّشبِيهِ . وَلَمْ يَستَغنِ أحَدٌ مِنهُمْ عَنهُ . وَقَد جاءَ عَنِ ٱلقُدَماءِ وَأهلِ ٱلجاهِلِيَّةِ مِن كُلِّ جِيلٍ مَا يُستَدَلُّ بِهِ عَلَى شَرَفِهِ وَفَضلِهِ وَمَوقِعِهِ مِنَ ٱلبَلاغَةِ بِكُلِّ لِسان . فَمِنْ ذٰلكَ مَا قَالَ صاحِبُ كَليلةَ وَدِمنَةَ : ٱلدُّنيا كَٱلماءِ كُلَّما ٱزدَدتَّ مِنهُ شُربًا ٱزدَدتَّ مِنهُ عَطَشًا . وَقالَ : صُحبَةُ ٱلأشرارِ تُورِثُ ٱلشَّرَّ كَٱلرِّيحِ إذا مَرَّتْ عَلَى ٱلمُنتِنِ حَمَلَتْ نَتنًا . وَإذا مَرَّتْ عَلَى ٱلطِّيبِ حَمَلَتْ طِيبًا . وَقالَ : مَنْ أنعَمَ لِمَنْ لا يَشكُرُ كانَ كَمَنْ نَثَرَ بَذرَهُ فِي ٱلسِّباخِ . وَقَد نَظَمتُ هٰذا ٱلمَعنَى :

ألا إنَّما ٱلنُّعمَى تُجازَى بِمِثلِها ... إذا كانَ مُسداها إلَى ماجِدٍ حَرِي

فَأمَّا إذا كانَتْ إلَى غَيرِ ماجِدٍ ... فَقَد ذَهَبَتْ فِي غَيرِ حَمدٍ وَلا شُكرِ

إذا ٱلمَرءُ ألقَى فِي ٱلسِّباخِ بُذُورَهُ ... أضاعَ فَلَمْ يَرجِعْ بِزَرعٍ وَلا بَذرِ

وَقالَ أيضًا : لا يَخفَى فَضلُ ذِي ٱلعِلمِ وَإنْ أخفاهُ كَٱلمِسكِ يُخبَأُ وَيُستَرُ ثُمَّ لا يَمنَعُ ذٰلكَ رائِحَتَهُ أنْ تَفُوحَ. أخَذَهُ ٱلصّاحِبُ فَكَتَبَ: أنتَ أدامَ ٱللهُ عِزَّكَ . وَإنْ طَوَيتَ عَنّا خَبَرَكَ . وَجَعَلتَ وَطَنَكَ وَطَرَكَ.

فأنباؤك تأتينا كما وشى بالمسك رياه . ونمّ على الصباح محياه . وقال : الرجل ذو المروءة يكرم على غير مال . كالأسد يهاب وإن كان رابضاً . والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كان غنياً . كالكلب يهون على الناس وإن طوق . وقال : لا يجب للمذنب أن يفحص عن أمره لقبح ما ينكشف منه كالشيء المنتن كلما أثير ازداد نتناً . وقال أيضاً : من يصنع المعروف لعاجل الجزاء فهو كملقي الحب للطير لا لينفعها بل ليصيدها به . وقال أيضاً : المال إذا اجتمع ولم يصرف في الحقوق أسرع إليه الهلاك من كل وجه كالماء إذا اجتمع في موضع ولم يكن له طريق إلى النفوذ تفجر من جوانبه فضاع . وقال أيضاً : يبقى الصالح من الرجال صالحاً حتى يصاحب فاسداً فإذا صاحبه فسد مثل مياه الأنهار تكون عذبة حتى تخالط ماء البحر فإذا خالطته ملحت . ومن التشابيه الحسنة قول جعفر بن محمد : الأدب عند الأحمق كالماء العذب في أصول الحنظل كلما ازداد رياً ازداد مرارة . ومن التشابيه الشعرية البديعة قول لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه ... يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

وما المال والأهلون إلا وديعة ... ولا بدّ يوماً أن تردّ الودائع

ثمّ قال :

وأصبحت مثل السيف أخلق جفنه ... تقادم عهد القين والنصل قاطع

وكقول صالح بن جناح العبسي :

ألا إنما الإنسان غمد لقلبه ... ولا خير في غمد إذا لم يكن نصل

وَقَالَ مُتَمِّمٌ :

وَبَعْضُ ٱلرِّجَالِ نَخْلَةٌ لَاجَنَى لَهَا وَلَاظِلَّ إِلَّا أَنْ يُعَدَّ مِنَ ٱلنَّخْلِ

وَقَالَ ٱلْأَخْطَلُ ٱلنَّصْرَانِيُّ :

وَإِذَا ٱفْتَقَرْتَ إِلَى ٱلذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ ٱلْأَعْمَالِ

وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي ٱلنُّعْمَانِ :

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْأَنَامُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَمِنْ بَدِيعِ تَشَابِيهِ ٱلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ :

وَإِنِّي وَإِسْمَاعِيلَ يَوْمَ وَدَاعِهِ فَكَٱلْغِمْدِ يَوْمَ ٱلرَّوْعِ فَارَقَهُ ٱلنَّصْلُ

وَكَقَوْلِ بَدِيعِ ٱلزَّمَانِ ٱلْهَمَذَانِيِّ :

قَدْ كَادَ يَحْكِيكَ صَوْبُ ٱلْغَيْثِ مُنْسَكِبًا
لَوْ كَانَ طَلْقَ ٱلْمُحَيَّا يُمْطِرُ ٱلذَّهَبَا
وَٱلدَّهْرُ لَوْ لَمْ يَخُنْ وَٱلشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ
وَٱللَّيْثُ لَوْ لَمْ يُصَدْ وَٱلْبَحْرُ لَوْ عَذُبَا

وَلِلْمُتَنَبِّي فِي وَصْفِ ظَبْيٍ :

أَغْنَاهُ حُسْنُ ٱلْجِيدِ عَنْ لُبْسِ ٱلْحُلِيِّ وَعَادَةُ ٱلْعُرْيِ عَنِ ٱلتَّفَضُّلِ
كَأَنَّهُ مُضَمَّخٌ بِصَنْدَلِ

وَكَقَوْلِهِ فِي سُرْعَةِ ٱلْأَوْبَةِ وَتَقَلِيلِ ٱللُّبْثِ :

وَمَا أَنَا غَيْرُ سَهْمٍ فِي هَوَاءٍ يَعُودُ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ ٱمْتِسَاكَا

وَلَهُ قَوْلُهُ :

وَأَنْتَ حُسَامُ ٱلْمُلْكِ وَٱللهُ ضَارِبٌ وَأَنْتَ لِوَاءُ ٱلدِّينِ وَٱللهُ عَاقِدُ

وَلَهُ أَيضًا وَهُوَ مِنْ جِنْسِ ٱلْإِبْدَاعِ :

مَلِكٌ سِنَانُ قَنَاتِهِ وَبَنَانُهُ يَتَبَارَيَانِ دَمًا وَعُرْفًا سَاكِبَا
كَٱلْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ ٱلْتَفَتَّ رَأَيْتَهُ يُهْدِي إِلَى عَيْنَيْكَ نُورًا ثَاقِبَا
كَٱلشَّمْسِ فِي كَبِدِ ٱلسَّمَاءِ وَضَوْءُهَا يَغْشَى ٱلْبِلَادَ مَشَارِقًا وَمَغَارِبَا
كَٱلْبَحْرِ يَقْذِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرًا جُودًا وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَائِبَا

وَكَثِيرًا مَا يَتَلَطَّفُ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلتَّشْبِيهِ فَيُشَبِّهُونَ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةٍ . وَرُبَّمَا شَبَّهُوا شَيْئَيْنِ بِشَيْئَيْنِ وَثَلَاثَةً بِثَلَاثَةٍ وَأَرْبَعَةً بِأَرْبَعَةٍ . وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلْفَرَسِ :

لَهُ أَيْطَلَا ظَبْيٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

وَكَقَوْلِ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

كَأَنَّ مُثَارَ ٱلنَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

وَلِٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فِي تَشْبِيهِ حُبَابِ ٱلرَّاحِ :

يَجُولُ حُبَابُ ٱلرَّاحِ فِي جَنَبَاتِهَا كَمَا جَالَ دَمْعٌ فَوْقَ خَدٍّ مُوَرَّدِ

وَلِآخَرَ قَدْ شَبَّهَ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ بِأَرْبَعَةٍ :

لِلّٰهِ طِرْسٌ عَنْ سُطُورٍ جَادَهَا م ٱلْفِكْرُ ٱلسَّلِيمُ بِصَوْبِ مِسْكٍ أَذْفَرِ
فَكَأَنَّمَا هُوَ رَوْضَةٌ أَوْ جَدْوَلٌ أَوْ سِمْطُ دُرٍّ أَوْ قِلَادَةُ عَنْبَرِ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلتَّمْثِيلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ تَشْبِيهًا وَاحِدًا مُقَيَّدًا بِقُيُودٍ وَيُظَنُّ أَنَّهَا تَشْبِيهَاتٌ مَجْمُوعَةٌ كَقَوْلِهِ :

كَمَا أَبْرَقَتْ قَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ فَلَمَّا رَجَوْهَا أَقْشَعَتْ وَتَجَلَّتِ

فَإِنَّ مُجَرَّدَ قَوْلِهِ : أَبْرَقَتْ قَوْمًا عِطَاشًا غَمَامَةٌ لَيْسَ تَشْبِيهًا مُسْتَقِلًّا

بِذَاتِهِ. لِأَنَّ مَقْصُودَ ٱلشَّاعِرِ اَنْ يَصِفَ ٱبْتِدَاءَ مُطْمِعٍ اَدَّى اِلَى ٱنْتِهَاءٍ مُؤْيِسٍ . وَذٰلِكَ لَا يَتِمُّ اِلَّا بِجُمْلَةٍ فَاِنَّ تَأْدِيَةَ ٱلشَّيْءِ اِلَى غَيْرِهِ حُكْمٌ زَائِدٌ عَلَى ذَاتِهِ

وَٱعْلَمْ اَنَّ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ضَرْبًا يُسَمَّى ٱلطَّرْدَ وَٱلْعَكْسَ. وَهُوَ اَنْ يُجْعَلَ ٱلْمُشَبَّهُ بِهِ مُشَبَّهًا وَٱلْمُشَبَّهُ مُشَبَّهًا بِهِ . وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّيهِ : غَلَبَةَ ٱلْفُرُوعِ عَلَى ٱلْأُصُولِ. وَلَا تَجِدُ شَيْئًا مِنْ ذٰلِكَ اِلَّا وَٱلْغَرَضُ بِهِ ٱلْمُبَالَغَةُ . كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَبَدَا ٱلصَّبَاحُ كَاَنَّ غُرَّتَهُ   وَجْهُ ٱلْخَلِيفَةِ حِينَ يُمْتَدَحُ

فَجَعَلَ ٱلْاَصْلَ فَرْعًا وَٱلْفَرْعَ اَصْلًا . وَهٰذَا اَبْلَغُ وَاَحْسَنُ وَاَمْدَحُ مِنْ تَشْبِيهِ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ . لِاَنَّ تَشْبِيهَ ٱلْوَجْهِ بِٱلصَّبَاحِ اَصْلٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ لَا يُنْكَرُ وَلَا يُسْتَنْكَرُ . وَاِنَّمَا ٱلَّذِي يُسْتَنْكَرُ تَشْبِيهُ ٱلصَّبَاحِ بِٱلْوَجْهِ

البحث العشرون

في معايب التشبيه

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

وَاِذْ ذَكَرْنَا اَقْسَامَ ٱلتَّشْبِيهِ وَبَيَّنَّا ٱلْمَحْمُودَ مِنْهَا ٱلَّذِي يَنْبَغِي اِقْتِفَاءُ اَثَرِهِ وَٱتِّبَاعُ مَذْهَبِهِ فَلْنُتْبِعْهُ بِضِدِّهِ مِمَّا يَنْبَغِي ٱجْتِنَابُهُ وَٱلْاِضْرَابُ عَنْهُ . عَلَى اَنَّهُ قَدْ قَدَّمْنَا ٱلْقَوْلَ بِاَنَّ حَدَّ ٱلتَّشْبِيهِ هُوَ اَنْ يُثْبَتَ لِلْمُشَبَّهِ حُكْمٌ مِنْ اَحْكَامِ ٱلْمُشَبَّهِ بِهِ . فَاِذَا لَمْ يَكُنْ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اَوْ كَانَ بَيْنَ ٱلْمُشَبَّهِ وَٱلْمُشَبَّهِ بِهِ بُعْدٌ فَذٰلِكَ ٱلَّذِي يُطْرَحُ وَلَا يُسْتَعْمَلُ . وَٱلَّذِي يَرِدُ مِنْهُ مُضْمَرَ ٱلْاَدَاةِ لَا يَكُونُ اِلَّا فِي ٱلتَّوَسُّعِ . كَقَوْلِ اَبِي نُوَّاس :

مَا لِرَجلِ ٱلْمَالِ اَمسَتْ ... تَشتَكِي مِنكَ ٱلكَلَالَا

فَجَعَلَ لِلْمَالِ رِجلًا وَذٰلِكَ تَشبِيهٌ بَعِيدٌ. وَمِنْ اَقبَحِ مَا سَمِعتُهُ مِنْ ذٰلِكَ قَولُ اَبِي تَمَّامٍ :

وَتَعَلَّمَ ٱلنَّاسُ ٱلسَّخَاءَ مُجَزَّأً ... وَذَهَبْتَ اَنتَ بِرَأْسِهِ وَسَنَامِهِ

وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلْاِهَابَ وَمَا بَقِي ... مِنْ فَرْثِهِ وَعُرُوقِهِ وَعِظَامِهِ

وَٱلْقُبحُ ٱلْفَاحِشُ فِي ٱلْبَيتِ ٱلثَّانِي وَكُلُّ هٰذَا ٱلتَّعَسُّفُ فِي ٱلتَّشبِيهِ ٱلْبَعِيدِ دَنْدَنَةٌ حَولَ مَعنًى لَيسَ بِطَائِلٍ. فَانَّ غَرَضَهُ اَنْ يَقُولَ : ذَهَبتَ بِٱلْاَعْلَى وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلْاَدنَى. اَوْ : ذَهَبتَ بِٱلْجَيِّدِ وَتَرَكْتَ لِلنَّاسِ ٱلرَّدِيءَ.

وَامَّا (ٱلتَّشبِيهُ ٱلْمُظهَرُ ٱلْاَدَاة) فَهٰذِهِ اَمثَالٌ اَورَدتُهَا لِتَستَدِلَّ بِهَا عَلَى اَشبَاهِهِ فَاِنَّ لِذِكْرِ ٱلْمِثَالِ فَائِدَةً لَا تَكُونُ لِذِكْرِ ٱلْحَدِّ وَحدَهُ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَولُ بَعضِهِمْ :

عَلَا حَاجِبَيكَ ٱلشَّيبُ حَتَّى كَاَنَّهُ ... ظِبَاءٌ جَرَتْ مِنهَا سَنِيحٌ وَبَارِحُ

وَكَذٰلِكَ قَولُ ٱلْآخَرِ يَصِفُ ٱلسِّهَامَ فَشَبَّهَهَا بِاَعنَاقِ ٱلظِّبَاءِ. وَذٰلِكَ مِنْ اَبعَدِ ٱلتَّشبِيهَاتِ :

كَسَاهَا رَطِيبُ ٱلرِّيشِ فَٱعتَدَلَتْ لَهُ ... قِدَاحٌ كَاَعنَاقِ ٱلظِّبَاءِ ٱلْفَوَارِقِ

وَعَلَى نَحوٍ مِنْ ذٰلِكَ قَولُ ٱلْفَرَزدَقِ :

يَمشُونَ فِي حَلَقِ ٱلْحَدِيدِ كَمَا مَشَتْ ... جُربُ ٱلْجِمَالِ بِهَا ٱلْكُحَيلُ ٱلْمُشعَلُ

فَشَبَّهَ ٱلرِّجَالَ فِي دُرُوعِ ٱلزَّرَدِ بِٱلْجِمَالِ ٱلْجُربِ. وَهٰذَا مِنَ ٱلتَّشبِيهِ ٱلْبَعِيدِ ٱلسَّخِيفِ فَضلًا عَنْ اَنْ لَا مُقَارَبَةَ بَينَهُمَا فِي ٱللَّونِ. وَمِنَ ٱلتَّشبِيهَاتِ ٱلْبَارِدَةِ قَولُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

وَجَرَى عَلَى ٱلْوَرَقِ ٱلنَّجِيعُ ٱلْقَانِي　　فَكَأَنَّهُ ٱلنَّارَنْجُ فِي ٱلْأَغْصَانِ

وَهٰذَا تَشْبِيهٌ يُنْكِرُهُ أَهْلُ ٱلتَّجْسِيمِ . وَقَدْ عَدُّوا مِنَ ٱلتَّشَابِيهِ ٱلَّتِي هِيَ غَيْرُ بَلِيغَةٍ قَوْلَ ٱلشَّاعِرِ فِي وَصْفِ ٱلرَّوْضِ :

كَأَنَّ شَقَائِقَ ٱلنُّعْمَانِ فِيهِ　　ثِيَابٌ قَدْ رَوِينَ مِنَ ٱلدِّمَاءِ

فَهٰذَا وَإِنْ كَانَ تَشْبِيهًا مُضِيئًا فَإِنَّ فِيهِ بَشَاعَةَ كَثْرَةِ ٱلدِّمَاءِ ٱلَّتِي تَعَافُ ٱلْأَنْفُسُ ٱللَّطِيفَةُ رُؤْيَتَهَا . وَفِي أَقْوَالِ ٱلْعَرَبِ تَشَابِيهُ تَمُجُّهَا ٱلْأَذْوَاقُ ٱلصَّحِيحَةُ وَتَنْفِرُ مِنْهَا ٱلطِّبَاعُ ٱلسَّلِيمَةُ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ وَقَدْ عَابَهُ ٱلْأَصْمَعِيُّ بَيْنَ يَدَيِ ٱلرَّشِيدِ :

نَظَرَتْ إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ لَمْ تَقْضِهَا　　نَظَرَ ٱلْمَرِيضِ إِلَى وُجُوهِ ٱلْعُوَّدِ

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ : قَدْ يُكْرَهُ تَشْبِيهُ ٱلْمَمْدُوحِ بِٱلْمَرِيضِ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي مِحْجَنٍ ٱلثَّقَفِيِّ فِي قَيْنَةٍ :

وَتُرْجِعُ ٱلْعُودَ أَحْيَانًا وَتَخْفِضُهُ　　كَمَا يَطِيرُ ذُبَابُ ٱلرَّوْضَةِ ٱلْغَرِدُ

فَإِنَّ ٱلْقَيْنَةَ لَمْ تَرْضَ أَنْ تُشَبِّهَ نَفْسَهَا بِٱلذُّبَابِ . وَلِذٰلِكَ رَغِبَ ٱلْمُوَلَّدُونَ عَنْ تَشَابِيهِ ٱلْعَرَبِ لِأَنَّهَا مَعَ عَقَادَةِ ٱلتَّرْكِيبِ لَمْ تُسْفِرْ عَنْ كَبِيرِ أَمْرٍ فَخَالَفُوهَا فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ إِلَى مَا هُوَ أَلْيَقُ بِٱلْوَقْتِ وَأَمَسُّ بِأَهْلِهِ

البحث الحادي والعشرون

في المذهب الكلامي

(من شرح بديعيَّة العميان لابن جابر الاندلسي باختصار)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

اَلْمَذْهَبُ ٱلْكَلَامِيُّ عِنْدَ اَهْلِ ٱلْبَيَانِ هُوَ اِيرَادُ حُجَّةٍ لِلْمَطْلُوبِ عَلَى طَرِيقَةِ اَهْلِ ٱلْكَلَامِ . وَهُوَ اَنْ يَكُونَ بَعْدَ تَسْلِيمِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ مُقَدِّمَةٌ مُسْتَلْزِمَةٌ لِلْمَطْلُوبِ . وَقِيلَ : هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْبَلِيغُ فِي صِحَّةِ دَعْوَاهُ وَاِبْطَالِ دَعْوَى خَصْمِهِ بِحُجَّةٍ قَاطِعَةٍ عَقْلِيَّةٍ تَصِحُّ نِسْبَتُهَا اِلَى عِلْمِ ٱلْكَلَامِ . اِذْ عِلْمُ ٱلْكَلَامِ عِبَارَةٌ عَنْ اِثْبَاتِ اُصُولِ ٱلدِّينِ بِٱلْبَرَاهِينِ ٱلْعَقْلِيَّةِ ٱلْقَاطِعَةِ . وَمِنْ اَوْضَحِ ٱلشَّوَاهِدِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : لَوْ كَانَ فِي ٱلْاَرْضِ وَٱلسَّمَاءِ آلِهَةٌ اِلَّا ٱللهُ لَفَسَدَتَا . فَهٰذَا دَلِيلٌ قَاطِعٌ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ . وَتَمَامُ ٱلدَّلِيلِ اَنْ تَقُولَ لٰكِنَّهُمَا لَمْ تَفْسُدَا فَلَيْسَ اِذًا فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرُ ٱللهِ . وَمِنْ اَمْثِلَةِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ اَعْرَابِيٍّ لِرَجُلٍ : اِنِّي لَمْ اَرُدَّ وَجْهِي عَنِ ٱلطَّلَبِ اِلَيْكَ فَصُنْ نَفْسَكَ عَنْ رَدِّي وَضَعْنِي مِنْ كَرَمِكَ بِحَيْثُ وَضَعْتُ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ . وَمِنْهُ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ يَعْتَذِرُ اِلَى ٱلنُّعْمَانِ :

حَلَفْتُ فَلَمْ اَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً ... لَمُبْلِغُكَ ٱلْوَاشِي اَغَشُّ وَاَكْذَبُ
وَلٰكِنَّنِي كُنْتُ ٱمْرَءًا لِيَ جَانِبٌ ... مِنَ ٱلْاَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ

مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا مَدَحْتُهُمْ أُحَكَّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ ٱصْطَنَعْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي مَدْحِهِمْ لَكَ أَذْنَبُوا

يَقُولُ لِهٰذَا ٱلْمَلِكِ: أَنْتَ أَحْسَنْتَ إِلَى قَوْمٍ فَمَدَحُوكَ. وَأَنَا أَحْسَنَ إِلَيَّ قَوْمٌ فَمَدَحْتُهُمْ. فَكَمَا أَنَّ مَدْحَ مَنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ لَكَ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا فَكَذَا مَدْحِي لِمَنْ أَحْسَنَ إِلَيَّ لَا يُعَدُّ ذَنْبًا. قَالَ ٱبْنُ أَبِي ٱلْإِصْبَعِ: وَمِنْ شَوَاهِدِ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ:

لِكُلِّ ٱمْرِئٍ نَفْسَانِ نَفْسٌ كَرِيمَةٌ وَنَفْسٌ يُعَاصِيهَا ٱلْفَتَى وَيُطِيعُهَا
وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسَيْكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى إِذَا قَلَّ مِنْ أَحْرَارِهِنَّ شَفِيعُهَا

يَقُولُ: لِكُلِّ إِنْسَانٍ نَفْسٌ مُطْمَئِنَّةٌ تَأْمُرُ بِٱلْخَيْرِ. وَنَفْسٌ أَمَّارَةٌ تَأْمُرُ بِٱلسُّوءِ. وَٱلْإِنْسَانُ يُعَاصِي ٱلْأَمَّارَةَ مَرَّةً وَيُطِيعُهَا أُخْرَى. وَأَنْتَ إِذَا أَمَرَتْكَ ٱلْأَمَّارَةُ بِتَرْكِ ٱلنَّدَى شَفَعَتِ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ إِلَيْهَا فِي ٱلنَّدَى فِي ٱلْحَالَةِ ٱلَّتِي يَقِلُّ فِيهَا ٱلشَّفِيعُ فِي ٱلنَّدَى مِنَ ٱلنُّفُوسِ. فَأَنْتَ أَكْرَمُ ٱلنَّاسِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ قِيَاسَ ٱلْمَذْهَبِ ٱلْكَلَامِيِّ إِمَّا حَمْلِيٌّ. وَإِمَّا شَرْطِيٌّ. فَٱلْأَقْيِسَةُ ٱلْحَمْلِيَّةُ قَدِ ٱسْتَنْبَطُوهَا عَلَى صُوَرٍ: مِنْهَا مَا يُرْوَى أَنَّ أَبَا دُلَفَ قَصَدَهُ شَاعِرٌ تَمِيمِيٌّ. فَقَالَ لَهُ: مِمَّنْ أَنْتَ. فَقَالَ مِنْ تَمِيمٍ. فَقَالَ أَبُو دُلَفَ:

تَمِيمٌ بِطُرْقِ ٱللُّؤْمِ أَهْدَى مِنَ ٱلْقَطَا وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ ٱلْهِدَايَةِ ضَلَّتِ

فَقَالَ لَهُ ٱلتَّمِيمِيُّ: نَعَمْ بِتِلْكَ ٱلْهِدَايَةِ جِئْتُ إِلَيْكَ. فَأَفْحَمَهُ بِدَلِيلٍ حَمْلِيٍّ أَلْزَمَهُ فِيهِ أَنَّ ٱلْمَجِيءَ إِلَيْهِ ضَلَالٌ. وَلَعَمْرِي إِنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلشَّرْطِيَّ

اوضح دلالة في هذا الباب من غيره واعذب في الذوق واسهل في التركيب. فانه جملة واقعة بعد (لو) وجوابها. وهذه الجملة على اصطلاحهم مقدمة شرطية متصلة يستدل بها على ما تقدم من الحكم كما جاء: لو تعلمون ما اعلم (يريد امور الآخرة) لضحكتم قليلا وبكيتم كثيرا. وتمام الدليل ان يقال: لكنكم ضحكتم كثيرا وبكيتم قليلا فلم تعلموا ما اعلم

ولقد زادوا على هذين القياسين القياس الفقهي وذلك ان يقاس فرع على اصل بجامع بينهما فيلزم للتساوي في الحكم. كما يحكى ان الوليد قال لبعضهم: انشد من قولك في الخمر. فانشده:

كميت اذا شجت وفي الكأس وردها
لها في عظام الشاربين دبيب
تريك القذى من دونها وهي دونه
لوجه اخيها في الاناء قطوب

فقال له الوليد: شربتها ورب الكعبة. فقال: لئن كان وصفي لها رابك لقد رابني معرفتك بها. (يقول): كما ان معرفتي بوصفها رابتك كذلك معرفتك بها رابتني



الفصل الخامس

في محاسن الانشاء ومعايبه

البحث الاوَّل

في تمييز الكلام جيّدهِ من رديئهِ ونادرهِ من باردهِ

(عن كتاب الصناعتين للعسكري باختصار)

(راجع صفحة ٥١ من علم الادب)

اَلْكَلَامُ اَيَّدكَ ٱللّٰهُ يَحْسُنُ بِسَلَاسَتِهِ وَسُهُولَتِهِ وَنَصَاعَتِهِ وَتَحْسِينِ لَفظِهِ وَإِصَابَةِ مَعْنَاهُ وَجُودَةِ مَقَاطِعِهِ وَلِينِ مَعَاطِفِهِ وَٱسْتِوَاءِ تَقَاسِيمِهِ وَتَعَادُلِ اَطْرَافِهِ وَتَشَبُّهِ اَعْجَازِهِ بِهَوَادِيهِ وَمُوَافَقَةِ مَآخِيرِهِ لِمَبَادِئِهِ مَعَ قِلَّةِ ضَرُورَاتِهِ بَلْ عَدَمِهَا اَصْلًا حَتَّى لَا يَكُونَ لَهَا فِي ٱلْاَلْفَاظِ اَثَرٌ . فَتَجِدُ ٱلْمَنْظُومَ مِثْلَ ٱلْمَنْثُورِ فِي سُهُولَةِ مَطْلَعِهِ وَجُودَةِ مَقْطَعِهِ وَحُسْنِ رَصْفِهِ وَتَأْلِيفِهِ وَكَمَالِ صَوْغِهِ وَتَرْكِيبِهِ . فَاذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ كَذَلِكَ كَانَ بِٱلْقَبُولِ حَقِيقًا وَبِٱلتَّحَفُّظِ خَلِيقًا كَقَوْلِ ٱلْاَوَّلِ :

هُمُ ٱلْاُولَى وَهَبُوا لِلْمَجْدِ اَنْفُسَهُمْ ... فَمَا يُبَالُونَ مَا نَالُوا اِذَا حُمِدُوا

وَقَوْلِ مَعْنِ بْنِ اَوْسٍ :

لَعَمْرُكَ مَا اَهْدَيْتُ كَفِّي لِرِيبَةٍ ... وَلَا حَمَلَتْنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي

وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصَرِي لَهَا ... وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي

وَاَعْلَمُ اَنِّي لَمْ تُصِبْنِي مُصِيبَةٌ ... مِنَ ٱلدَّهْرِ اِلَّا قَدْ اَصَابَتْ فَتًى قَبْلِي

وَلَسْتُ بِمَاشٍ مَا حَيِيتُ لِمُنْكَرٍ … مِنَ ٱلْأَمْرِ لَا يَمْشِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي
وَلَا مُؤْثِرٍ نَفْسِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ … وَأُوثِرُ ضَيْفِي مَا أَقَامَ عَلَى أَهْلِي

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ ٱلْغِنَى … إِذَا كَانَتِ ٱلْعَلْيَاءُ فِي جَانِبِ ٱلْفَقْرِ

وَقَالَ ٱلْآخَرُ :

ذَرِينِي أَسِيرُ فِي ٱلْبِلَادَ لَعَلَّنِي … أُصِيبُ غِنًى فِيهِ لَدَى ٱلْحَقِّ مُحْمَلُ
فَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَسْطِعْ دِفَاعًا لِحَادِثٍ … تَجِيءُ بِهِ ٱلْأَيَّامُ فَٱلصَّبْرُ أَجْمَلُ
أَلَيْسَ كَثِيرًا أَنْ تُلِمَّ مُلِمَّةٌ … وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْحُقُوقِ مُعَوَّلُ

وَمِمَّا هُوَ فَصِيحٌ فِي لَفْظِهِ جَيِّدٌ فِي وَصْفِهِ قَوْلُ ٱلشَّنْفَرَى :

أُطِيلُ مِطَالَ ٱلْجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ … وَأَضْرِبُ عَنْهُ ٱلْقَلْبَ صَفْحًا فَيَذْهَلُ
وَلَوْلَا ٱجْتِنَابُ ٱلْعَارِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ … يُعَاشُ بِهِ إِلَّا لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
وَلٰكِنَّ نَفْسًا مُرَّةً لَا تُقِيمُنِي … عَلَى ٱلضَّيْمِ إِلَّا رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ

وَقَوْلُ آخَرَ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى ٱلْقَذَى … ظَمِئْتَ وَأَيُّ ٱلنَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

وَمَا إِنْ قَتَلْنَاهُمْ بِأَكْثَرَ مِنْهُمُ … وَلٰكِنْ بِأَوْفَى لِلطِّعَانِ وَأَكْرَمَا

وَقَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لَا تَلُمُّهُ … عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلَيْسَ لِهٰذَا ٱلْبَيْتِ نَظِيرٌ فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : نَظِيرُهُ قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حُجْرٍ :

وَلَسْتُ بِجَائِي‌ءٍ ابدًا طَعَامًا   حِذَارَ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعَامُ

وَهٰذَا وَإِنْ كَانَ نَظِيرَهُ فِي ٱلتَّأْلِيفِ فَإِنَّهُ دُونَهُ لِمَا تَكَرَّرَ فِيهِ مِنْ لَفْظِ غَدٍ. فَإِنْ كَانَ ٱلْكَلَامُ قَدْ جَمَعَ ٱلْعُذُوبَةَ وَٱلْجَزَالَةَ وَٱلسُّهُولَةَ وَٱلرَّصَانَةَ مَعَ ٱلسَّلَاسَةِ وَٱلنَّصَاعَةِ. وَٱشْتَمَلَ عَلَى ٱلرَّوْنَقِ وَٱلطُّلَاوَةِ. وَسَلِمَ مِنْ سُخْفِ ٱلتَّأْلِيفِ. وَبَعُدَ مِنْ سَمَاجَةِ ٱلتَّرْكِيبِ. وَرَدَ عَلَى ٱلْفَهْمِ ٱلثَّاقِبِ فَقَبِلَهُ وَلَمْ يَرُدَّهُ. وَعَلَى ٱلسَّمْعِ ٱلْمُصِيبِ ٱسْتَوْعَبَهُ وَلَمْ يَمُجَّهُ. وَٱلنَّفْسُ تَقْبَلُ ٱللَّطِيفَ وَتَنْبُو عَنِ ٱلْغَلِيظِ وَتَقْلَقُ مِنَ ٱلْجَاسِي‌ءِ ٱلْبَشِعِ. وَجَمِيعُ جَوَارِحِ ٱلْبَدَنِ وَحَوَاسِّهِ يَسْكُنُ إِلَى مَا يُوَافِقُهُ وَيَنْفِرُ عَمَّا يُضَادُّهُ وَيُخَالِفُهُ. وَٱلْعَيْنُ تَأْلَفُ ٱلْحَسَنَ وَتَقْذَى بِٱلْقَبِيحِ. وَٱلْأَنْفُ يَرْتَاحُ لِلطَّيِّبِ وَيَنْفِرُ لِلْمُنْتِنِ. وَٱلْفَمُ يَلْتَذُّ بِٱلْحُلْوِ وَيَمُجُّ ٱلْمُرَّ. وَٱلسَّمْعُ يَتَشَوَّقُ لِلصَّوَابِ ٱلرَّائِعِ وَيَنْزَوِي عَنِ ٱلْجَهِيرِ ٱلْهَائِلِ. وَٱلْيَدُ تَنْعَمُ بِٱللَّيِّنِ وَتَتَأَذَّى بِٱلْخَشِنِ. وَٱلْفَهْمُ يَأْنَسُ مِنَ ٱلْكَلَامِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَسْكُنُ إِلَى ٱلْمَأْلُوفِ وَيُصْغِي إِلَى ٱلصَّوَابِ وَيَهْرُبُ مِنَ ٱلْمُحَالِ وَيَنْقَبِضُ عَنِ ٱلْوَخِمِ وَيَتَأَخَّرُ عَنِ ٱلْجَافِي ٱلْغَلِيظِ. وَلَا يَقْبَلُ ٱلْكَلَامَ ٱلْمُضْطَرِبَ إِلَّا ٱلْفَهْمُ ٱلْمُضْطَرِبُ وَٱلرَّوِيَّةُ ٱلْفَاسِدَةُ. وَلَيْسَ ٱلشَّأْنُ فِي إِيرَادِ ٱلْمَعَانِي لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ يَعْرِفُهَا ٱلْعَرَبِيُّ وَٱلْعَجَمِيُّ وَٱلْقَرَوِيُّ وَٱلْبَدَوِيُّ وَإِنَّمَا هُوَ فِي جُودَةِ ٱللَّفْظِ وَصَفَائِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ وَنَزَاهَتِهِ وَنَقَائِهِ وَكَثْرَةِ طُلَاوَتِهِ وَمَائِهِ مَعَ صِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَٱلتَّرْكِيبِ وَٱلْخُلُوِّ مِنْ أَوَدِ ٱلنَّظْمِ وَٱلتَّأْلِيفِ. وَلَيْسَ يُطْلَبُ مِنَ ٱلْمَعْنَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَوَابًا. وَلَا يُقْنَعُ مِنَ ٱللَّفْظِ بِذٰلِكَ حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنْ نُعُوتِهِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ. أَلَا تَرَى

إِلَى قَوْلِ حَبِيبٍ :

مُسْتَسْلِمٌ لِلّٰهِ سَائِسُ أُمَّةٍ بِذَوِي تَجَهْضُمِهَا لَهُ ٱسْتِسْلَامُ

فِيهِ صَوَابُ ٱللَّفْظِ وَلَيْسَ هُوَ بِحَسَنٍ وَلَا مَقْبُولٍ . وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَدَارَ ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ أَنَّ ٱلْخُطَبَ ٱلرَّائِعَةَ وَٱلْأَشْعَارَ ٱلرَّائِقَةَ مَا عُمِلَتْ لِإِفْهَامِ ٱلْمَعَانِي فَقَطْ لِأَنَّ ٱلرَّدِيءَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ يَقُومُ مَقَامَ جَيِّدِهَا فِي ٱلْإِفْهَامِ وَإِنَّمَا يَدُلُّ حُسْنُ ٱلْكَلَامِ وَإِحْكَامُ صَنْعَتِهِ وَرَوْنَقُ أَلْفَاظِهِ وَجَوْدَةُ مَطَالِعِهِ وَحُسْنُ مَقَاطِعِهِ وَبَدِيعُ مَبَادِئِهِ وَغَرِيبُ مَبَانِيهِ عَلَى فَضْلِ قَائِلِهِ وَفَهْمِ مُنْشِئِهِ . وَأَكْثَرُ هٰذِهِ ٱلْأَوْصَافِ تَرْجِعُ إِلَى ٱلْأَلْفَاظِ دُونَ ٱلْمَعَانِي . وَتَوَخِّي صَوَابِ ٱلْمَعْنَى أَحْسَنُ مِنْ تَوَخِّي هٰذِهِ ٱلْأُمُورِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ . فَلِهٰذَا تَأَنَّقَ ٱلْكَاتِبُ فِي ٱلرِّسَالَةِ وَٱلْخَطِيبُ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَٱلشَّاعِرُ فِي ٱلْقَصِيدَةِ وَهُمْ يُبَالِغُونَ فِي تَجْوِيدِهَا . وَيَغْلُونَ فِي تَرْتِيبِهَا لِيَدُلُّوا عَلَى بَرَاعَتِهِمْ وَحِذْقِهِمْ بِصِنَاعَتِهِمْ . وَلَوْ كَانَ ٱلْأَمْرُ فِي ٱلْمَعَانِي لَطَرَحُوا أَكْثَرَ ذٰلِكَ فَرَبِحُوا كَدًّا كَثِيرًا وَأَسْقَطُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ تَعَبًا طَوِيلًا . وَلِهٰذَا دَلِيلٌ آخَرُ : أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَ لَفْظُهُ حُلْوًا عَذْبًا وَسَلِسًا سَهْلًا وَمَعْنَاهُ وَسَطًا دَخَلَ فِي جُمْلَةِ ٱلْجَيِّدِ وَجَرَى مَعَ ٱلرَّائِعِ ٱلنَّادِرِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ وَمَسَّحَ بِٱلْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

وَشُدَّتْ عَلَى حُدْبِ ٱلْمَهَارِي رِحَالُنَا وَلَمْ يَنْظُرِ ٱلْغَادِي ٱلَّذِي هُوَ رَائِحُ

أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ ٱلْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلْأَبَاطِحُ

وَلَيْسَ تَحْتَ هٰذِهِ ٱلْأَلْفَاظِ كَبِيرُ مَعْنًى وَهِيَ رَائِقَةٌ مُعْجِبَةٌ . وَإِنَّمَا

هِيَ : وَلَمَّا قَضَيْنَا ٱلْحَجَّ وَمَسَّحْنَا ٱلْأَرْكَانَ وَشُدَّتْ رِحَالُنَا عَلَى مَهَازِيلِ ٱلْإِبِلِ وَلَمْ يَنْتَظِرْ بَعْضُنَا بَعْضًا جَعَلْنَا نَتَحَدَّثُ وَتَسِيرُ بِنَا ٱلْإِبِلُ فِي بُطُونِ ٱلْأَوْدِيَةِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْمَعْنَى صَوَابًا وَٱللَّفْظُ بَارِدًا وَفَاتِرًا وَٱلْفَاتِرُ شَرٌّ مِنَ ٱلْبَارِدِ كَانَ مُسْتَهْجَنًا مَلْفُوظًا وَمَذْمُومًا مَرْدُودًا . وَٱلْبَارِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ كَقَوْلِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ :

قَدْ عَلِمَتْ سَلْمَى وَجَارَاتُهَا مَا قَطَّرَ ٱلْفَارِسَ إِلَّا أَنَا

شَكَكْتُ بِٱلرُّمْحِ سَرَابِيلَهُ وَٱلْخَيْلُ تَعْدُو زِيَمًا حَوْلَنَا

وَقَوْلِ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ :

مَاتَ وَٱللهِ سَعِيدُ بْنُ وَهْبِ رَحِمَ ٱللهُ سَعِيدَ بْنَ وَهْبِ

يَا أَبَا عُثْمَانَ أَبْكَيْتَ عَيْنِي يَا أَبَا عُثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي

وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمَعَانِي إِذَا ٱسْتُكْرِهَتْ قَهْرًا وَفِي ٱلْأَلْفَاظِ إِذَا جَرَتْ قَسْرًا . وَلَا خَيْرَ فِيمَا أُجِيدَ لَفْظُهُ إِذَا سَخُفَ مَعْنَاهُ . وَلَا فِي غَرَابَةِ ٱلْمَعْنَى إِلَّا إِذَا شَرُفَ لَفْظُهُ مَعَ وُضُوحِ ٱلْمَغْزَى وَظُهُورِ ٱلْمَقْصِدِ . وَقَدْ غَلَبَ ٱلْجَهْلُ عَلَى قَوْمٍ فَصَارُوا يَسْتَجِيدُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى مَعْنَاهُ بِكَدٍّ وَيَسْتَفْصِحُونَهُ إِذَا وَجَدُوا أَلْفَاظَهُ كَزَّةً غَلِيظَةً وَجَاسِيَةً غَرِيبَةً . وَيَسْتَحْقِرُونَ ٱلْكَلَامَ إِذَا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبًا وَسَهْلًا حُلْوًا . وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱلسَّهْلَ أَمْنَعُ جَانِبًا وَأَعَزُّ مَطْلَبًا وَهُوَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا وَأَعْذَبُ مُسْتَمَعًا وَلِهٰذَا قِيلَ : أَجْوَدُ ٱلْكَلَامِ ٱلسَّهْلُ ٱلْمُمْتَنِعُ . وَصَفَ ٱلْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ عَمْرَو ٱبْنَ مَسْعَدَةَ فَقَالَ : هُوَ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ . وَمِنْ بَلَاغَتِهِ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَظُنُّ أَنْ يَكْتُبَ مِثْلَ كُتُبِهِ فَإِذَا رَامَهَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ . حَدَّثَنَا ٱلْحَسَنُ بْنُ

مُخْلَدٍ قَالَ: أَنْشَدَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ لِخَالِهِ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ:

إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ وَإِنْ سُئِلَ لَمْ م يَبْذُلْ وَإِنْ عُوتِبَ لَمْ يُعْتِبِ

صَبٌّ بِعِصْيَانِي وَلَوْ قَالَ لِي لَا تَشْرَبِ الْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبِ

ثُمَّ قَالَ: هٰذَا الشِّعْرُ الْحَسَنُ الْمَعْنَى السَّهْلُ اللَّفْظِ الْعَذْبُ الْمُسْتَمِعِ الْقَلِيلُ النَّظِيرِ الْعَزِيزُ التَّشْبِيهِ الْمُطْمِعُ الْمُمْتَنِعُ الْبَعِيدُ مَعَ قُرْبِهِ الصَّعْبُ فِي سُهُولَتِهِ. (قَالَ) فَجَعَلْنَا نَقُولُ: هٰذَا الْكَلَامُ أَحْسَنُ مِنْ شِعْرِهِ. وَمِنَ الْكَلَامِ الْمَطْبُوعِ السَّهْلِ مَا وَقَّعَ بِهِ عَلِيٌّ بْنُ عِيسَى: قَدْ بَلَّغْتُكَ أَقْصَى طِلْبَتِكَ وَأَنَلْتُكَ غَايَةَ بُغْيَتِكَ وَأَنْتَ مَعَ ذٰلِكَ تَسْتَقِلُّ كَثِيرِي لَكَ وَتَسْتَقْبِحُ حَسَنِي فِيكَ. فَأَنْتَ كَمَا قَالَ رُؤْبَةُ:

كَالْحُوتِ لَا يَكْفِيهِ شَيْءٌ يَلْهَمُهْ يُصْبِحُ ظَمْآنَ وَفِي الْبَحْرِ فَمُهْ

وَمِنَ الْمَنْظُومِ الْمُطْمِعِ قَوْلُ الْبُحْتُرِيِّ:

أَيُّهَا الرَّاغِبُ الَّذِي طَلَبَ الْجُو دَ فَأَبْلَى كُومَ الْمَطَايَا وَأَنْضَى

رِدْ حِيَاضَ الْإِمَامِ تَلْقَ نَوَالًا يَسَعُ الرَّاغِبِينَ طُولًا وَعَرْضَا

هُوَ أَنْدَى مِنَ الْغَمَامِ وَأَوْحَى وَقَعَاتٍ مِنَ الْحُسَامِ وَأَمْضَى

يَتَوَخَّى الْإِحْسَانَ قَوْلًا وَفِعْلًا وَيُطِيعُ الْإِلٰهَ بَسْطًا وَقَبْضَا

فَضَّلَ اللّٰهُ جَعْفَرًا بِخِلَالٍ جَعَلَتْ حُبَّهُ عَلَى النَّاسِ فَرْضَا

وَأَرَى الْمَجْدَ بَيْنَ عَارِفَةٍ مِنْكَ م تُرَجَّى وَعَزْمَةٍ مِنْكَ تُمْضَى

وَقَوْلُهُ:

خَلَقَ اللّٰهُ جَعْفَرًا قَيِّمَ الدُّنْيَا م سَدَادًا وَقَيِّمَ الدِّينِ رُشْدَا

أَكْرَمُ النَّاسِ شِيمَةً وَأَتَمُّ م النَّاسِ حِلْمًا وَأَكْثَرُ النَّاسِ رِفْدَا

هُوَ بَحْرُ ٱلسَّماحِ وَٱلْجُودِ فَٱزْدَدْ ... مِنْهُ قُرْبًا تَزْدَدْ مِنَ ٱلْفَقْرِ بُعْدَا

يَا ثِمَالَ ٱلدُّنْيَا عَطَاءً وَبَذْلًا ... وَكَمَالَ ٱلدُّنْيَا سَنَاءً وَمَجْدَا

إِبْقَ عُمْرَ ٱلزَّمَانِ حَتَّى نُؤَدِّي ... شُكْرَ إِحْسَانِكَ ٱلَّذِي لَا يُؤَدَّى

وَأَمَّا ٱلْجَزْلُ ٱلْمُخْتَارُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَهُوَ ٱلَّذِي تَعْرِفُهُ ٱلْعَامَّةُ إِذَا سَمِعَتْهُ وَلَا تَسْتَعْمِلُهُ فِي مُحَاوَرَاتِهَا. فَمِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْجَيِّدِ ٱلْمُخْتَارِ قَوْلُ مُسْلِمٍ :

وَرَدْنَا رِوَاقَ ٱلْفَضْلِ فَضْلِ بْنِ جَعْفَرٍ ... فَحَطَّ إِلَيْنَا ٱلْجَزْلَ نَائِلُهُ ٱلْجَزْلُ

بِكَفَّيْ أَبِي ٱلْعَبَّاسِ يُسْتَمْطَرُ ٱلْغِنَى ... وَيُسْتَنْزَلُ ٱلنُّعْمَى وَيُسْتَرْعَفُ ٱلنَّصْلُ

وَيُسْتَعْطَفُ ٱلْأَمْرُ ٱلْأَبِيُّ بِحَزْمِهِ ... إِذَا ٱلْأَمْرُ لَمْ يَعْطِفْهُ نَقْضٌ وَلَا فَتْلُ

وَمِمَّا هُوَ خَيْرٌ مِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱلْمَرَّارِ ٱلْفَقْعَسِيِّ :

لَا تَسْأَلِي ٱلْقَوْمَ عَنْ مَالِي وَكَثْرَتِهِ ... قَدْ يُقْتِرُ ٱلْمَرْءُ يَوْمًا وَهُوَ مَحْمُودُ

أَمْضِي عَلَى سُنَّةٍ مِنْ وَالِدِي سَلَفَتْ ... وَفِي أَرُومَتِهِ مَا يُنْبِتُ ٱلْعُودُ

فَهٰذَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَلَامِ ٱلْعَامَّةِ فَإِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ ٱلْغَرَضَ وَيَقِفُونَ عَلَى أَكْثَرِ مَعَانِيهِ لِحُسْنِ تَرْتِيبِهِ وَجُودَةِ نَسْجِهِ

وَمِنَ ٱلنَّثْرِ قَوْلُ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ : أَعْطَانَا ٱلدَّهْرُ فَأَسْرَفَ . ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْنَا فَعَسَفَ . وَقَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ : وَأَنَا مَنْ لَا يُحَاجُّكَ عَنْ نَفْسِهِ . وَلَا يُغَالِطُكَ عَنْ جُرْمِهِ . وَلَا يَلْتَمِسُ رِضَاكَ إِلَّا مِنْ جِهَتِهِ . وَلَا يَسْتَدْعِي بِرَّكَ إِلَّا مِنْ طَرِيقَتِهِ . وَلَا يَسْتَعْطِفُكَ إِلَّا بِٱلْإِقْرَارِ بِٱلذَّنْبِ . وَلَا يَسْتَمِيلُكَ إِلَّا بِٱلْإِعْتِرَافِ. نَبَتْ بِي عَنْكَ غِرَّةُ ٱلْحَدَاثَةِ . وَرَدَّتْنِي إِلَيْكَ ٱلْحُنْكَةُ . وَبَاعَدَتْنِي مِنْكَ ٱلثِّقَةُ بِٱلْأَيَّامِ فَأَدَّتْنِي إِلَيْكَ ٱلضَّرُورَةُ . فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَسْتَقْبِلَ ٱلصَّنِيعَةَ بِقَبُولِ ٱلْعُذْرِ

وَتُجَدِّدَ ٱلنِّعْمَةَ بِٱطِّرَاحِ ٱلْحِقْدِ فَإِنَّ قَدِيمَ ٱلْحُرْمَةِ وَحَدِيثَ ٱلتَّوْبَةِ يَمْحَقَانِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْإِسَاءَةِ . فَإِنَّ أَيَّامَ ٱلْقُدْرَةِ وَإِنْ طَالَتْ قَصِيرَةٌ وَٱلْمُتْعَةَ بِهَا وَإِنْ كَثُرَتْ قَلِيلَةٌ فَعَلْتَ . وَفِي هٰذَا ٱلْكَلَامِ وَمَا قَبْلَهُ قُوَّةٌ فِي سُهُولَةٍ . وَمِمَّا هُوَ أَجْزَلُ مِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱلشَّعْبِيِّ لِلْحَجَّاجِ وَأَرَادَ قَتْلَهُ لِخُرُوجِهِ عَلَيْهِ مَعَ ٱبْنِ ٱلْأَشْعَثِ : أَجْدَبَ بِنَا ٱلْجَنَابُ وَأَحْزَنَ بِنَا ٱلْمَنْزِلُ وَٱسْتَحْلَسْنَا ٱلْحَذَرَ وَٱكْتَحَلْنَا ٱلسَّهَرَ . وَأَصَابَتْنَا فِتْنَةٌ وَلَمْ نَكُنْ فِيهَا بَرَرَةً أَتْقِيَاءَ وَلَا فَجَرَةً أَقْوِيَاءَ . فَعَفَا عَنْهُ . وَأَجْوَدُ ٱلْكَلَامِ مَا يَكُونُ جَزْلًا سَهْلًا لَا يَنْغَلِقُ مَعْنَاهُ وَلَا يُسْتَبْهَمُ مَغْزَاهُ . وَلَا يَكُونُ مَكْدُودًا مُسْتَكْرَهًا وَمُتَوَعِّرًا مُتَقَعِّرًا . وَيَكُونُ بَرِيئًا مِنَ ٱلْغَثَاثَةِ عَارِيًا مِنَ ٱلرَّثَاثَةِ . وَٱلْكَلَامُ إِذَا كَانَ لَفْظُهُ غَثًّا وَمَعْرِضُهُ رَثًّا كَانَ مَرْدُودًا وَلَوِ ٱحْتَوَى عَلَى أَجَلِّ مَعْنًى وَأَنْبَلِهِ وَأَرْفَعِهِ وَأَفْضَلِهِ كَقَوْلِهِ :

لَمَّا أَطَعْنَاكُمُ فِي سُخْطِ خَالِقِنَا　　لَا شَكَّ سُلَّ عَلَيْنَا سَيْفُ نِقْمَتِهِ

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

أَرَى رِجَالًا بِأَدْنَى ٱلدِّينِ قَدْ قَنِعُوا　　وَلَا أَرَاهُمْ رَضُوا فِي ٱلْعَيْشِ بِٱلدُّونِ

فَٱسْتَغْنِ بِٱلدِّينِ عَنْ دُنْيَا ٱلْمُلُوكِ كَمَا م　　ٱسْتَغْنَى ٱلْمُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ ٱلدِّينِ

وَلَا يَدْخُلُ هٰذَا فِي جُمْلَةِ ٱلْمُخْتَارِ وَمَعْنَاهُ كَمَا تَرَى نَبِيلٌ فَاضِلٌ جَلِيلٌ . وَأَمَّا ٱلْجَزْلُ ٱلرَّدِيءُ ٱلْفَجُّ ٱلَّذِي يَنْبَغِي تَرْكُ ٱسْتِعْمَالِهِ فَمِثْلُ قَوْلِ تَأَبَّطَ شَرًّا وَكَانَ خَرَجَ مَعَ صَاحِبَيْنِ لَهُ فَقُتِلَا فِي ٱلْغَزْوِ وَرَجَعَ هُوَ سَالِمًا :

إِذَا مَا تَرَكْتُ صَاحِبَيَّ لِثَلَاثَةٍ　　أَوِ ٱثْنَيْنِ مِثْلَيْنَا فَلَا أُبْتُ آمِنَا

وَلَمَّا سَمِعْتُ ٱلْعُوصَ تَدْعُو تَنَفَّرَتْ　　عَصَافِيرُ رَأْسِي مِنْ غُوَاةٍ فُرَاتِنَا

هِجَفٌّ رَاى قَصْرًا سِمَاكًا وَدَاجِنًا وَحَجْحَثُ مَشْغُوفَ ٱلنِّجَاءِ كَأَنَّنِي
إِذَا ٱسْتَدْرَجَ ٱلْفِيفَا وَمَدَّ ٱلْمَغَابِنَا مِنَ ٱلْحُصِّ هُزْرُوفٌ كَأَنَّ عَفَاءَهُ
هِزَفٌّ يَبِذُّ ٱلنَّاجِيَاتِ ٱلصَّوَافِنَا أَرَجُّ زَلُوجٌ هِزْرَفِيٌّ زَفَازِفٌ

فَهٰذَا مِنَ ٱلْجَزْلِ ٱلْبَغِيضِ ٱلْجِلْفِ ٱلْفَاسِدِ ٱلنَّسْجِ ٱلْقَبِيحِ ٱلرَّصْفِ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُتَجَنَّبَ مِثْلُهُ وَتَمْيِيزُ ٱلْأَلْفَاظِ شَدِيدٌ . وَلَوْلَا كَرَاهَةُ ٱلْإِطَالَةِ وَتَخَوُّفُ ٱلْإِمْلَالِ لَزِدْتُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَلٰكِنْ يَكْفِي مِنَ ٱلْبَحْرِ جَرْعَةٌ . قَالُوا : وَجِيزُ ٱلْكَلَامِ مَا قَلَّ وَجَلَّ وَدَلَّ وَلَمْ يُمَلَّ

البحث الثاني

في التنبيه على خطإ المعاني وصوابها

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

إِنَّ ٱلْكَلَامَ أَلْفَاظٌ تَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ تَدُلُّ عَلَيْهَا وَتُعَبِّرُ عَنْهَا فَيَحْتَاجُ صَاحِبُ ٱلْبَلَاغَةِ إِلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى كَحَاجَتِهِ إِلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ . لِأَنَّ ٱلْمَدَارَ بَعْدَ ٱللَّفْظِ عَلَى إِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى . وَٱلْمَعَانِي تَحُلُّ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحَلَّ ٱلْأَبْدَانِ وَٱلْأَلْفَاظُ تَجْرِي مَعَهَا مَجْرَى ٱلْكُسْوَةِ . وَمَرْتَبَةُ إِحْدَاهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَى مَعْرُوفَةٌ وَمَنْ عَرَفَ تَرْتِيبَ ٱلْمَعَانِي وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْأَلْفَاظِ عَلَى وُجُوهِهَا بِلُغَةٍ مِنَ ٱللُّغَاتِ ثُمَّ ٱنْتَقَلَ إِلَى لُغَةٍ أُخْرَى تَهَيَّأَ لَهُ فِيهَا مِنْ صَنْعَةِ ٱلْكَلَامِ مِثْلُ مَا تَهَيَّأَ لَهُ مِنَ ٱلْأُولَى . أَلَا تَرَى أَنَّ عَبْدَ ٱلْحَمِيدِ ٱلْكَاتِبَ ٱسْتَخْرَجَ أَمْثِلَةَ ٱلْكِتَابَةِ ٱلَّتِي رَسَمَهَا لِمَنْ بَعْدَهُ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْفَارِسِيِّ فَحَوَّلَهَا إِلَى ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . فَلَا يَكْمُلُ لِصِنَاعَةِ ٱلْكَلَامِ إِلَّا مَنْ يَكْمُلُ لِإِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى وَتَصْحِيحِ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلِٱسْتِعْمَالِ .

وَٱلْمَعَانِي عَلَى ضَرْبَيْنِ : ضَرْبٌ يَبْتَدِعُهُ صَاحِبُ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَكُونَ لَهُ إِمَامٌ يَقْتَدِي بِهِ فِيهِ اَوْ رُسُومٌ قَائِمَةٌ فِي اَمْثِلَةٍ مَاثِلَةٍ يَعْمَلُ عَلَيْهَا . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ رُبَّمَا يَقَعُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْخُطُوبِ ٱلْحَادِثَةِ وَيَتَنَبَّهُ لَهُ عِنْدَ ٱلْأُمُورِ ٱلطَّارِئَةِ .وَٱلْآخَرُ مَا يَحْتَذِيهِ عَلَى مِثَالٍ تَقَدَّمَ وَرَسْمٍ فُرِضَ. وَيَنْبَغِي اَنْ تُطْلَبَ ٱلْاِصَابَةُ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَتُتَوَخَّى فِيهِ ٱلصُّورَةُ ٱلْمَقْبُولَةُ وَٱلْعِبَارَةُ ٱلْمُسْتَحْسَنَةُ وَلَا يُتَّكَلَ فِيمَا ٱبْتَكَرَهُ عَلَى فَضِيلَةِ ٱبْتِكَارِهِ إِيَّاهُ . وَلَا يَغُرُّهُ ٱبْتِدَاعُهُ لَهُ فَيُسَاهِلَ نَفْسَهُ فِي تَهْجِينِ صُورَتِهِ فَيَذْهَبَ حُسْنُهُ وَيُطْمَسَ نُورُهُ وَيَكُونُ فِيهِ اَقْرَبَ إِلَى ٱلذَّمِّ مِنْهُ إِلَى ٱلْحَمْدِ . وَٱلْمَعَانِي بَعْدَ ذٰلِكَ عَلَى وُجُوهٍ : مِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ حَسَنٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : رَاَيْتُ زَيْدًا . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمٌ قَبِيحٌ نَحْوُ قَوْلِكَ : قَدْ زَيْدًا رَاَيْتُ. وَإِنَّمَا قَبُحَ لِاَنَّكَ اَفْسَدتَّ ٱلنِّظَامَ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ. وَمِنْهَا مَا هُوَ مُسْتَقِيمُ ٱلنَّظْمِ وَهُوَ كَذِبٌ مِثْلُ قَوْلِكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَشَرِبْتُ مَاءَ ٱلْبَحْرِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ مُحَالٌ كَقَوْلِكَ : آتِيكَ اَمْسِ وَاَتَيْتُكَ غَدًا . وَكُلُّ ذٰلِكَ مُحَالٌ فَاسِدٌ . وَلَيْسَ كُلُّ فَاسِدٍ مُحَالًا. اَلَا تَرَى اَنَّ قَوْلَكَ : قَامَ زَيْدٍ. فَاسِدٌ وَلَيْسَ بِمُحَالٍ . وَٱلْمُحَالُ مَا لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ ٱلْبَتَّةَ كَقَوْلِكَ : ٱلدُّنْيَا فِي بَيْضَةٍ . وَاَمَّا قَوْلُكَ : حَمَلْتُ ٱلْجَبَلَ وَاَشْبَاهُهُ وَاَمْثَالُهُ فَكَذِبٌ . وَلَيْسَ بِمُحَالٍ إِنْ جَازَ اَنْ يَزِيدَ ٱللّٰهُ فِي قُدْرَتِكَ فَتَحْمِلَهُ . وَيَجُوزُ اَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ ٱلْوَاحِدُ كَذِبًا مُحَالًا وَهُوَ قَوْلُكَ : رَاَيْتُ قَاعِدًا قَائِمًا وَمَرَرْتُ بِيَقْظَانَ نَائِمٍ . فَتَصِلُ كَذِبًا بِمُحَالٍ فَصَارَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْكَذِبُ هُوَ ٱلْمُحَالَ بِٱلْجَمْعِ بَيْنَهُمَا . وَإِنْ كَانَ لِكُلٍّ

مِنْهُمَا مَعْنًى عَلَى حِيَالِهِ . وَذٰلِكَ لِأَنَّ بَعْضَهَا عُقِدَ بِبَعْضٍ حَتَّى صَارَا كَلَامًا وَاحِدًا. وَمِنْهَا ٱلْغَلَطُ وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: ضَرَبَنِي زَيْدٌ. وَأَنْتَ تُرِيدُ: ضَرَبْتُ زَيْدًا. فَغَلِطتَ. فَإِنْ تَعَمَّدتَّ ذٰلِكَ كَانَ كَذِبًا . وَلِلْخَطَإِ صُوَرٌ مُخْتَلِفَةٌ نَبَّهتُ عَلَى أَشْيَاءَ مِنْهَا فِي هٰذَا ٱلْفَصْلِ وَبَيَّنْتُ وُجُوهَهَا وَشَرَحْتُ أَبْوَابَهَا لِتَقِفَ عَلَيْهَا فَتَجْتَنِبَهَا كَمَا عَرَّفْتُكَ بِمَوَاضِعِ ٱلصَّوَابِ لِتَعْتَمِدَهَا. وَلِيَكُونَ فِيمَا أَوْرَدتُّ دَلَالَةٌ عَلَى أَمْثَالِهِ مِمَّا تَرَكْتُ . وَمَنْ لَا يَعْرِفُ ٱلْخَطَأَ كَانَ جَدِيرًا بِٱلْوُقُوعِ فِيهِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

أَلَمْ تَسْأَلِ ٱلرَّبْعَ ٱلْقَدِيمَ بِعَسْعَسَا ... كَأَنِّي أُنَادِي أَوْ أُكَلِّمُ أَخْرَسَا

هٰذَا مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلْفَاسِدِ لِأَنَّهُ لَا يُقَالُ : كَلَّمْتُ حَجَرًا فَلَمْ يُجِبْ فَكَأَنَّهُ كَانَ حَجَرًا . وَٱلَّذِي جَاءَ بِهِ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مَقْلُوبٌ. وَٱلْجَيِّدُ قَوْلُ كُثَيِّرٍ فِي ٱمْرَأَةٍ :

فَقُلْتُ لَهَا يَا عَزَّ كُلُّ مُصِيبَةٍ ... إِذَا وُطِّنَتْ يَوْمًا لَهَا ٱلنَّفْسُ ذَلَّتِ

كَأَنِّي أُنَادِي صَخْرَةً حِينَ أَعْرَضَتْ ... مِنَ ٱلصُّمِّ لَوْ تَمْشِي بِهَا ٱلْعُصْمُ زَلَّتِ

فَشَبَّهَ ٱلْمَرْأَةَ عِنْدَ ٱلسُّكُوتِ وَٱلتَّغَافُلِ بِٱلصَّخْرَةِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱبْنِ أَحْمَرَ :

لَمْ يَدْرِ مَا نَسْجُ ٱلْيَرَنْدَجِ قَبْلَهَا ... وَدِرَاسَ أَعْوَصَ دَارِسٍ مُتَجَدِّدِ

ظَنَّ أَنَّ ٱلْيَرَنْدَجَ يُنْسَجُ . وَٱلْيَرَنْدَجُ جِلْدٌ أَسْوَدُ يُعْمَلُ مِنْهَا ٱلْخِفَافُ فَارِسِيٌّ مُعَرَّبٌ وَأَصْلُهُ : رَنْدَه . وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ :

وَمِنْ أَنَابِيبِ تُفَّاحٍ وَرُمَّانِ

ظَنَّ أَنَّ ٱلرُّمَّانَ وَٱلتُّفَّاحَ أَنَابِيبُ . وَقِيلَ: إِنَّ ٱلْأَنَابِيبَ ٱلطَّرَائِقُ ٱلَّتِي فِي ٱلرُّمَّانِ . وَإِذَا حُمِلَ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ صَحَّ ٱلْمَعْنَى . وَمِمَّا أُخِذَ عَلَى

امرئ القيس قوله في الفرس :

فللسوط ألهوب وللساق درة ... وللزجر منه وقع أخرج مهذب

فلو وصف أخس حمار وأضعفه ما زاد على ذلك. والجيد قوله :

على سابح يعطيك قبل سؤاله ... أفانين جري غير كز ولا واني

وما سمعنا أجود ولا أبلغ من قوله : أفانين جري. وقول علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه ... يمر كمر الرائح المتحلب

فأدرك طريدته وهو ثان من عنانه لم يضربه بسوط ولم يمره بساق ولم يزجره بصوت ومما يعاب قول الأخطل :

وقد جعل الله الخلافة منهم ... لأبلج لا عاري الخوان ولا جدب

يقوله في عبد الملك. ومثل هذا لا يمدح به الملوك. وإنما تمدح الملوك بمثل قول الشاعر :

له همم لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجل من الدهر

له راحة لو أن معشار جودها ... على البر كان البر أندى من البحر

ومن الخطإ قول جنادة :

من حبه أتمنى أن يلاقيني ... من نحو بلدته ناع فينعاه

لكي يكون فراق لا لقاء له ... وتضمر النفس يأسا ثم تسلاه

فإذا تمنى المحب لحبيبه الموت فما عسى أن يتمنى المبغض لبغيضه. وشتان ما بين هذا وبين من يقول :

ألا ليتنا عشنا جميعا وكان بي ... من الداء ما لا يعرف الناس ما بيا

فهذا أقرب إلى الصواب ولو أن جنادة كان يتمنى وصله ولقاءه

لَكَانَ قَدْ قَضَى وَطَرًا مِنَ ٱلْمُنَى وَلَمْ تَلْزَمْهُ ٱلْهُجْنَةُ. كَمَا قَالَ ٱلْعَبَّاسُ ٱبْنُ ٱلْأَحْنَفِ :

فَإِنْ تَبْخَلُوا عَنِّي بِبَذْلِ نَوَالِكُمْ وَبِٱلْوَصْلِ مِنْكُمْ كَيْ أُصَبَّ وَأَحْزَنَا

فَإِنِّي بِلَذَّاتِ ٱلْمُنَى وَنَعِيمِهَا أَعِيشُ إِلَى أَنْ يَجْمَعَ ٱللهُ بَيْنَنَا

وَمِنْ وَضْعِ ٱلشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ :

يَمْشِي بِهَا كُلُّ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ مَشْيَ ٱلْهَرَابِذِ حَجُّوا بِيعَةَ ٱلزُّورِ

فَٱلْغَلَطُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : أَحَدُهَا أَنَّ ٱلْهَرَابِذَ ٱلْمَجُوسُ لَا ٱلنَّصَارَى. وَٱلثَّانِي أَنَّ ٱلْبِيعَةَ لِلنَّصَارَى لَا لِلْمَجُوسِ. وَٱلثَّالِثُ أَنَّ ٱلنَّصَارَى لَا يَعْبُدُونَ ٱلْأَصْنَامَ وَلَا ٱلْمَجُوسُ. وَمِنَ ٱلْمُحَالِ ٱلَّذِي لَا وَجْهَ لَهُ قَوْلُ ٱلْقَسِّ :

وَإِنِّي إِذَا مَا ٱلْمَوْتُ حَلَّ بِنَفْسِهَا يُزَالُ بِنَفْسِي قَبْلَ ذَاكَ فَأُقْبَرُ

وَهٰذَا شَبِيهٌ بِقَوْلِ قَائِلٍ لَوْ قَالَ : اذَا دَخَلَ زَيْدٌ ٱلدَّارَ دَخَلَ عَمْرٌو قَبْلَهُ وَهٰذَا عَيْنُ ٱلْمُحَالِ ٱلْمُمْتَنِعِ ٱلَّذِي لَا يَجُوزُ كَوْنُهُ. وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَعْنَى مُخَالَفَةُ ٱلْعُرْفِ وَذِكْرُ مَا لَيْسَ فِي ٱلْعَادَةِ كَقَوْلِ ٱلْمَرَّارِ :

وَخَالٍ عَلَى خَدَّيْهِ يَبْدُو كَأَنَّهُ سَنَا ٱلْبَدْرِ فِي دَعْجَاءَ بَادٍ دُجُونُهَا

وَٱلْمَعْرُوفُ أَنَّ ٱلْخِيلَانَ سُودٌ أَوْ سُمْرٌ وَٱلْخُدُودَ ٱلْحَسَنَةَ إِنَّمَا هِيَ ٱلْبِيضُ. فَأَتَى هٰذَا ٱلشَّاعِرُ بِقَلْبِ ٱلْمَعْنَى. وَمِنَ ٱلْمَعَانِي مَا يَكُونُ مُقَصِّرًا غَيْرَ بَالِغٍ مَبْلَغَ غَيْرِهِ فِي ٱلْإِحْسَانِ. وَمِنْ عُيُوبِ ٱلْمَدِيحِ عُدُولُ ٱلْمَادِحِ عَنِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ مِنَ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ إِلَى مَا يَلِيقُ بِأَوْصَافِ ٱلْجِسْمِ مِنَ ٱلْحُسْنِ وَٱلْبَهَاءِ وَٱلزِّينَةِ. كَمَا قَالَ

ٱبْنُ قَيْسِ ٱلرُّقَيَّاتِ فِي عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَأْتَلِقُ ٱلتَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ ٱلذَّهَبُ

فَغَضِبَ عَبْدُ ٱلْمَلِكِ وَقَالَ : قَدْ قُلْتَ فِي مُصْعَبٍ :

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ ٱللّٰهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ ٱلظَّلْمَاءُ

فَأَعْطَيْتَهُ ٱلْمَدْحَ بِكَشْفِ ٱلْغُمَمِ وَجَلَاءِ ٱلظُّلَمِ وَأَعْطَيْتَنِي مَا لَا فَخْرَ فِيهِ وَهُوَ ٱعْتِدَالُ ٱلتَّاجِ فَوْقَ جَبِينِي ٱلَّذِي هُوَ كَالذَّهَبِ فِي ٱلنَّضَارَةِ .

وَمِثْلُ ذٰلِكَ قَوْلُ أَيْمَنَ بْنِ خُزَيْمٍ فِي بِشْرِ بْنِ مَرْوَانَ :

يَا ٱبْنَ ٱلْمَكَارِمِ مِنْ قُرَيْشٍ كُلِّهَا وَٱبْنَ ٱلْخَلَائِفِ وَٱبْنَ كُلِّ قَلَمَّسِ

مِنْ فَرْعِ آدَمَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ حَتَّى ٱنْتَهَيْتَ إِلَى أَبِيكَ ٱلْعَنْبَسِ

مَرْوَانَ إِنَّ قَنَاتَهُ خَطِّيَّةٌ غُرِسَتْ أَرُومَتُهَا أَعَزَّ ٱلْمَغْرِسِ

وَبَنَيْتَ عِنْدَ مَقَامِ رَبِّكَ قُبَّةً خَضْرَاءَ كُلِّلَ تَاجُهَا بِٱلْفُسْفُسِ

فَسَمَاؤُهَا ذَهَبٌ وَأَسْفَلُ أَرْضِهَا وَرِقٌ يُلَأْلَأُ فِي صَمِيمِ ٱلْخِنْدِسِ

فَمَا فِي هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ شَيْءٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَدْحِ ٱلَّذِي يَخْتَصُّ بِٱلنَّفْسِ وَإِنَّمَا ذِكْرُ سُؤْدَدِ ٱلْآبَاءِ وَفِيهِ فَخْرٌ لِلْأَبْنَاءِ . وَلٰكِنْ لَيْسَ ٱلْعِصَامِيُّ كَٱلْعِظَامِيِّ . وَرُبَّمَا كَانَ سُؤْدَدُ ٱلْوَالِدِ وَفَضِيلَتُهُ نَقِيصَةً لِلْوَلَدِ إِذَا تَأَخَّرَ عَنْ رُتْبَةِ ٱلْوَالِدِ . وَيَكُونُ ذِكْرُ ٱلْوَالِدِ ٱلْفَاضِلِ تَقْرِيعًا لِلْوَلَدِ ٱلنَّاقِصِ . وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ : لِمَ لَا تَكُونُ كَأَبِيكَ . فَقَالَ : لَيْتَ أَبِي لَمْ يَكُنْ ذَا فَضْلٍ فَإِنَّ فَضْلَهُ صَارَ نَقْصًا لِي . وَقَدْ قَالَ ٱلْأَوَّلُ :

إِنَّمَا ٱلْمَجْدُ مَا بَنَى وَٱلِدُ ٱلصِّدْ قِ وَأَحْيَا فَعَالَهُ ٱلْمَوْلُودُ

وَقَالَ غَيْرُهُ فِي خِلَافِهِ :

لَئِنْ فَخَرْتَ بِآبَاءٍ ذَوِي شَرَفٍ   لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

وَقَالَ آخَرُ :

عَلَتْ مَقَابِحُ أَخْلَاقٍ خُصِصْتَ بِهَا   عَلَى مَحَاسِنَ أَبْقَاهَا أَبُوكَ لَكَا

لَئِنْ تَقَدَّمَ أَبْنَاءُ الْكِرَامِ بِهِ   لَقَدْ تَقَدَّمَ آبَاءُ اللِّئَامِ بِكَا

ثُمَّ ذَكَرَ أَيْمَنُ بِنَاءَ قُبَّةٍ حَسَنَةٍ وَلَيْسَ بِنَاءُ الْقِبَابِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى جُودٍ وَكَرَمٍ . بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَبْنِيَ اللَّئِيمُ الْبَخِيلُ الْأَبْنِيَةَ النَّفِيسَةَ وَيَتَوَسَّعَ فِي النَّفَقَةِ عَلَى الدُّورِ الْحَسَنَةِ مَعَ مَنْعِ الْحَقِّ وَرَدِّ السَّائِلِ وَلَيْسَ الْيَسَارُ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ مَدْحًا حَقِيقِيًّا . أَلَا تَرَى كَيْفَ يَقُولُ أَشْجَعُ السُّلَمِيُّ :

يُرِيدُ الْمُلُوكُ مَدَى جَعْفَرٍ   وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ

وَلَيْسَ بِأَوْسَعِهِمْ فِي الْغِنَى   وَلَكِنَّ مَعْرُوفَهُ أَوْسَعُ

وَالْجَيِّدُ فِي الْمَدِيحِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

هُنَالِكَ إِنْ يُسْتَخْوَلُوا الْمَالَ يُخْوِلُوا   وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يَيْسِرُوا يُغْلُوا

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ   وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ

فَلَمَّا اسْتَتَمَّ وَصْفَهُمْ بِحُسْنِ الْمَقَالِ وَتَصْدِيقِ الْقَوْلِ بِالْفِعْلِ وَصَفَهُمْ بِحُسْنِ الْوُجُوهِ ثُمَّ قَالَ :

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ حَقُّ مَنْ يَعْتَرِيهِمِ   وَعِنْدَ الْمُقِلِّينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ

فَلَمْ يُخْلِ مُكْثِرًا مِنْهُمْ وَلَا مُقِلًّا مِنْ بِرٍّ وَفَضْلٍ . ثُمَّ قَالَ :

وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ   مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا الْجَهْلُ

فَوَصَفَهُمْ بِالْحِلْمِ ثُمَّ قَالَ :

وَإِنْ قَامَ مِنْهُمْ قَائِمٌ قَالَ قَاعِدٌ   رَشَدْتَ فَلَا غُرْمٌ عَلَيْكَ وَلَا خَذْلُ

فَوَصَفَهُمْ أَيضًا بِالتَّضَافُرِ وَالتَّعَاوُنِ فَلَمَّا أَتَى بِهَذِهِ الصِّفَاتِ النَّفِيسَةِ ذَكَرَ فَضْلَ آبَائِهِمْ فَقَالَ :

وَمَا يَكُ مِنْ فَضْلٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا ... نَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ ... وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ

وَقَوْلُ مَرْوَانَ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ :

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ اللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ ... أُسُودٌ لَهُمْ فِي غِيلِ خَفَّانَ أَشْبُلُ

هُمُ الْمَانِعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا ... لِجَارِهِمِ فَوْقَ السِّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ

بَهَالِيلُ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ ... كَأَوَّلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ

هُمُ الْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا ... أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

وَلَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ ... وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

ثَلَاثٌ بِأَمْثَالِ الْجِبَالِ حِبَاهُمْ ... وَأَحْلَامُهُمْ مِنْهَا لَدَى الْوَزْنِ أَثْقَلُ

وَكَقَوْلِ الْآخَرِ :

عَلَّمَ الْغَيْثَ النَّدَى حَتَّى إِذَا ... مَا حَكَاهُ عَلَّمَ الْبَأْسَ الْأَسَدْ

فَلَهُ الْغَيْثُ مُقِرٌّ بِالنَّدَى ... وَلَهُ اللَّيْثُ مُقِرٌّ بِالْجَلَدْ

وَمَعَ مَا ذَكَرْنَاهُ فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَخْلُوَ الْمَدْحُ مِنْ مَنَاقِبِ آبَاءِ الْمَمْدُوحِ وَتَقْرِيظِ مَنْ يُعْرَفُ بِهِ وَيُنْسَبُ إِلَيْهِ. وَأَنْشَدَ مَرْوَانُ ابْنُ أَبِي حَفْصَةَ :

نَقَرْتَ فَلَا شُلَّتْ يَدٌ خَالِدِيَّةٌ ... رَتَقْتَ بِهَا الْفَتْقَ الَّذِي بَيْنَ هَاشِمِ

فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ قُلْ : بَرْمَكِيَّةٌ .فَقَدْ يَشْرَكُنَا فِي خَالِدٍ بَشَرٌ كَثِيرٌ وَلَا يَشْرَكُنَا فِي بَرْمَكَ أَحَدٌ

وَٱلْهِجَاءُ اَيضًا اِذَا لَمْ يَكُنْ بِسَلْبِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَحْسَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا ٱلنَّفسُ وَاِثْبَاتِ ٱلصِّفَاتِ ٱلْمُسْتَهْجَنَةِ ٱلَّتِي تَخْتَصُّهَا اَيضًا لَمْ يَكُنْ مُخْتَارًا . وَٱلِاخْتِيَارُ اَنْ تَنْسُبَ ٱلْمَهْجُوَّ اِلَى ٱللُّؤْمِ وَٱلْبُخْلِ وَٱلشَّرَهِ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ . وَلَيسَ بِٱلْمُخْتَارِ فِي ٱلْهِجَاءِ اَنْ يَنْسُبَهُ اِلَى قُبْحِ ٱلْوَجْهِ وَصِغَرِ ٱلْحَجْمِ وَضُؤُولَةِ ٱلْجِسْمِ وَيَدُلُّ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْقَائِلُ :

فَقُلْتُ لَهَا لَيسَ ٱلشُّحُوبُ عَلَى ٱلْفَتَى بِعَارٍ وَلَا خَيْرُ ٱلرِّجَالِ سَمِينُهَا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

تَنَالُ ٱلْخَيْرَ مِمَّنْ تَزْدَرِيهِ وَيُخْلِفُ ظَنَّكَ ٱلرَّجُلُ ٱلطَّرِيرُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

رَاَوْهُ فَٱزْدَرَوْهُ وَهْوَ حِذْقٌ وَيَنْفَعُ اَهْلَهُ ٱلرَّجُلُ ٱلْقَبِيحُ

وَذَكَرَ ٱلسَّمَوْأَلُ اَنَّ قِلَّةَ ٱلْعَدَدِ لَيسَ بِعَيْبٍ فَقَالَ :

تُعَيِّرُنَا اَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا اِنَّ ٱلْكِرَامَ قَلِيلُ

وَمِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلْجَيِّدِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

ٱللُّؤْمُ اَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَوَالِدِهِ وَٱللُّؤْمُ اَكْرَمُ مِنْ وَبْرٍ وَمَا وَلَدَا

قَوْمٌ اِذَا مَا جَنَى جَانِيهِمِ اَمِنُوا مِنْ لُؤْمِ اَحْسَابِهِمْ اَنْ يُقْتَلُوا قَوَدَا

وَقَوْلُ اَعْشَى بَاهِلَةَ :

بَنُو تَيمٍ قَرَارَةُ كُلِّ لُؤْمٍ كَذَاكَ لِكُلِّ سَائِلَةٍ قَرَارُ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوْ كَانَ يَخْفَى عَلَى ٱلرَّحْمٰنِ خَافِيَةٌ مِنْ خَلْقِهِ خَفِيَتْ عَنْهُ بَنُو اَسَدِ

وَمِنْ خَبِيثِ ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

إِنْ يَغْدِرُوا أَوْ يَجْبُنُوا أَوْ يَبْخَلُوا لَا يَحْفِلُوا
يَغْدُوا عَلَيْكَ مُرَجَّلِينَ كَأَنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

لَوِ ٱطَّلَعَ ٱلْغُرَابُ عَلَى تَمِيمٍ وَمَا فِيهَا مِنَ ٱلسَّوْءَاتِ شَابَا

وَمِنْ خَطَإِ ٱللَّفْظِ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

ذَكَرْتُ أَخِي فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ

فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ لِأَنَّ ٱلصُّدَاعَ لَا يَكُونُ فِي ٱلرِّجْلِ وَلَا فِي غَيْرِهَا مِنَ ٱلْأَعْضَاءِ . وَفِيهِ وَجْهٌ آخَرُ مِنَ ٱلْعَيْبِ : وَهُوَ أَنَّ ٱلذَّاكِرَ لِمَا قَدْ فَاتَ مِنْ مَحْبُوبٍ يُوصَفُ بِأَلَمِ ٱلْقَلْبِ وَٱحْتِرَاقِهِ لَا بِٱلصُّدَاعِ . وَمِنْ عُيُوبِ ٱللَّفْظِ ٱرْتِكَابُ ٱلضَّرُورَاتِ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُتَلَمِّسُ :

إِنْ تَسْلُكِي سُبُلَ ٱلْمَنَجَاةِ مُنْجِدَةً مَا عَاشَ عَمْرٌو وَمَا عَمَّرْتَ قَابُوسُ

أَرَادَ (وَمَا عُمِّرَ قَابُوسُ) . وَقَوْلُ ٱلْأَعْشَى حَكَاهُ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ وَعَابَهُ

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ سُجُوفُ ٱلْحِجَالِ فَلَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرَا

قَالَ : لَا تُوضَعُ ٱلشَّمْسُ مَعَ ٱلزَّمْهَرِيرِ (قَالَ :) وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَقُولَ : لَمْ تَرَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَمْ يُصِبْهَا حَرٌّ وَلَا قُرٌّ وَقَدْ أَخْطَأَ .

وَكَقَوْلِ عَلْقَمَةَ :

يَحْمِلْنَ أُتْرُجَّةً نَضْحُ ٱلْعَبِيرِ بِهَا كَأَنَّ تَطْيَابَهَا فِي ٱلْأَنْفِ مَشْمُومُ

وَٱلتَّطْيَابُ هَا هُنَا عَلَى غَايَةِ ٱلسَّمَاجَةِ وَٱلطِّيبُ أَيْضًا مَشْمُومٌ لَا مَحَالَةَ

فَقَوْلُهُ: (كَأَنَّهُ مَشْمُومٌ) هُجْنَةٌ وَقَوْلُهُ: (فِي ٱلْأَنْفِ أَهْجَنُ). لِأَنَّ ٱلشَّمَّ لَا يَكُونُ بِٱلْعَيْنِ. وَمِنَ ٱلْمُتَنَاقِضِ قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ أُذَيْنَةَ:

تَزَلُوا ثَلَاثَ مِنًى بِمَنْزِلِ غِبْطَةٍ وَهُمُ عَلَى غَرَضٍ لَعَمْرُكَ مَا هُمُ
مُتَجَاوِرِينَ بِغَيْرِ دَارِ إِقَامَةٍ لَوْ قَدْ أَجَدَّ رَحِيلُهُمْ لَمْ يَنْدَمُوا

(فَقَالَ) لَبِثُوا فِي دَارِ غِبْطَةٍ ثُمَّ قَالَ: لَوْ رَحَلُوا لَمْ يَنْدَمُوا. وَمِمَّا جَاءَ فِي ذٰلِكَ مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارٍ:

وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهَا بَصَلًا غَلَبَ ٱلْمِسْكُ عَلَى رِيحِ ٱلْبَصَلْ

وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْبَشِعَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

يَا أَحْمَدَ ٱلْمُرْتَجَى فِي كُلِّ نَائِبَةٍ قُمْ سَيِّدِي نَعْصِ جَبَّارَ ٱلسَّمَاوَاتِ

فَهٰذَا مَعَ كُفْرِهِ مَمْقُوتٌ. وَمِنَ ٱلْخَطَإِ قَوْلُ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ:

غَنِيتَ عَلَى ٱلْوَصْلِ ٱلْقَدِيمِ غَنِيتَا وَضَيَّعْتَ وُدًّا كَانَ لِي وَنَسِيتَا
وَمِنْ أَعْجَبِ ٱلْأَشْيَاءِ أَنْ مَاتَ مَأْلَفِي وَمَا كُنْتَ تَرْعَانِي لَهُ وَبَقِيتَا
تَجَاهَلْتَ عَمَّا كُنْتَ تُحْسِنُ وَصْفَهُ وَمُتَّ عَنِ ٱلْإِحْسَانِ حِينَ حَيِيتَا

وَلَيْسَ مِنَ ٱلْعَجَبِ أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَيَبْقَى بَعْدَهُ إِنْسَانٌ آخَرُ. بَلْ هٰذِهِ عَادَةُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْمَعْهُودُ مِنْ أَمْرِهَا وَلَوْ قَالَ: (مِنْ ظُلْمِ ٱلْأَيَّامِ) كَانَ ٱلْمَعْنَى مُسْتَوِيًا. وَسَمِعْتُ بَعْضَ ٱلْأُدَبَاءِ يَقُولُ: وَمِنَ ٱلْمَعَانِي ٱلْبَارِدَةِ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ ٱلْبَازِي:

فِي هَامَةٍ غَلْبَاءَ تَهْدِي مِنْسَرَا كَعَطْفَةِ ٱلْجِيمِ بِكَفٍّ أَعْسَرَا

ثُمَّ قَالَ:

يَقُولُ مَنْ فِيهَا بِعَقْلٍ فَكَّرَا لَوْ زَادَهَا عَيْنًا إِلَى فَاءٍ وَرَا

فَاتَّصَلَتْ بِالْجِيمِ صَارَ جَعْفَرَا

فَمَنْ يَجْهَلُ انَّ الْجِيمَ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْهَا الْعَيْنُ وَالْفَاءُ وَالرَّاءُ يَصِيرُ (جَعْفَرًا) وَمَا يَدْخُلُ فِي صِفَةِ الْبَازِي مِنْ هٰذَا الْقَوْلِ شَيْءٌ. وَتَبِعَهُ قَوْلُ ابِي تَمَّامٍ:

هُنَّ الْحَمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً   مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهُنَّ حِمَامُ

فَمَنْ ذَا الَّذِي جَهِلَ انَّ الْحَمَامَ إِذَا كُسِرَتْ حَاؤُهَا صَارَ حِمَامًا.
وَإِنَّمَا ارَادَ ابُو نُوَاسٍ انَّهُ يُشَبِّهُ الْجِيمَ لَا يُغَادِرُ مِنْ شَبَهِهَا شَيْئًا حَتَّى لَوْ زِدتَّ عَلَيْهَا هٰذِهِ الْاَحْرُفَ صَارَتْ جَعْفَرًا لِشِدَّةِ شَبَهِهَا بِهِ وَهُوَ عِنْدِي صَوَابٌ. إِلَّا انَّهُ لَوِ اكْتَفَى بِقَوْلِهِ: (كَعَطْفَةِ الْجِيمِ بِكَفِّ اعْسَرَا) وَلَمْ يَزِدِ الزِّيَادَةَ الَّتِي بَعْدَهَا كَانَ اجْوَدَ وَارْشَقَ وَادْخَلَ فِي مَذَاهِبِ الْفُصَحَاءِ وَاشْبَهَ بِالشِّعْرِ الْقَدِيمِ. وَامَّا قَوْلُ ابِي تَمَّامٍ: فَلَهُ مَعْنًى خِلَافُ مَا ذَكَرَهُ وَذٰلِكَ انَّهُ ارَادَ انَّكَ إِذَا ارَدْتَ الزَّجْرَ وَالْعِيَافَةَ ادَّاكَ الْحَمَامُ إِلَى الْحِمَامِ كَمَا انَّ صَوْتَهَا الَّذِي تَظُنُّ انَّهُ بُكَاءٌ إِنَّمَا هُوَ طَرَبٌ وَيُؤَدِّيكَ إِلَى الْبُكَاءِ الْحَقِيقِيِّ وَهٰذَا مَعْنًى صَحِيحٌ. إِلَّا انَّ الْمَعْنَى إِذَا صَارَ بِهٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ مِنَ الدِّقَّةِ كَانَ كَالْمُعَمَّى وَالتَّعْمِيَةُ حَيْثُ يُرَادُ الْبَيَانُ عِيٌّ. وَمِنْ عُيُوبِ الْمَعْنَى قَوْلُ ابِي نُوَاسٍ فِي صِفَةِ الْاَسَدِ:

كَأَنَّمَا عَيْنُهُ إِذَا نَظَرَتْ   بَارِزَةَ الْجَفْنِ عَيْنُ مَخْنُوقِ

فَوَصَفَ عَيْنَ الْاَسَدِ بِالْجُحُوظِ وَهِيَ تُوصَفُ بِالْغُؤُورِ كَقَوْلِ ابِي زُبَيْدٍ:

وَعَيْنَانِ كَالْوَقْبَيْنِ فِي قَلْبِ صَخْرَةٍ   تَرَى فِيهِمَا كَالْجَمْرَتَيْنِ تَسَعُّرَا

وَمِنَ الْغَلَطِ قَوْلُ ابِي تَمَّامٍ:

رَقِيقُ حَوَاشِي ٱلْحِلْمِ لَوْ اَنَّ حِلْمَهُ   بِكَفَّيْكَ مَا مَارَيْتَ فِي اَنَّهُ بُرْدُ

وَمَا وَصَفَ اَحَدٌ مِنْ اَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَلَا اَهْلِ ٱلْاِسْلَامِ ٱلْحِلْمَ بِٱلرِّقَّةِ وَاِنَّمَا يُوصَفُ بِٱلرُّجْحَانِ وَٱلرَّزَانَةِ كَمَا قَالَ اَبُو ذُؤَيْبٍ :

وَصَبْرٌ عَلَى حَدَثِ ٱلنَّائِبَاتِ   وَحِلْمٌ رَزِينٌ وَعَقْلٌ ذَكِي

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَاِذَا ذَمُّوا ٱلرَّجُلَ قَالُوا : خَفَّ حِلْمُهُ وَطَاشَ .

وَمِنَ ٱلْخَطَاءِ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

ظَعَنُوا فَكَانَ بُكَايَ حَوْلًا بَعْدَهُمْ   ثُمَّ ٱرْعَوَيْتُ وَذَاكَ حِلْمُ لَبِيدِ

اَجْدِرْ بِجَمْرَةِ لَوْعَةٍ اِطْفَاؤُهَا   بِٱلدَّمْعِ اَنْ تَزْدَادَ طُولَ وُقُودِ

هٰذَا خِلَافُ مَا يَعْرِفُهُ ٱلنَّاسُ لِاَنَّهُمْ قَدْ اَجْمَعُوا اَنَّ ٱلْبُكَاءَ يُطْفِئُ ٱلْغَلِيلَ وَيُبَرِّدُ حَرَارَةَ ٱلْحُزْنِ وَيُزِيلُ شِدَّةَ ٱلْوَجْدِ . وَقَدْ شَهِدَ اَبُو تَمَّامٍ بِصِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَخَالَفَ قَوْلَهُ ٱلْاَوَّلَ فَقَالَ :

نَثَرَتْ فَرِيدَ مَدَامِعٍ لَمْ يُنْظَمِ   وَٱلدَّمْعُ يَحْمِلُ بَعْضَ ثِقْلِ ٱلْمُغْرَمِ

وَمِنَ ٱلْخَطَاءِ قَوْلُ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

بَدَتْ صُفْرَةٌ فِي لَوْنِهِ اِنَّ حَمْدَهُمْ   مِنَ ٱلدُّرِّ مَا ٱصْفَرَّتْ حَوَاشِيهِ فِي ٱلْعِقْدِ

وَاِنَّمَا يُوصَفُ ٱلدُّرُّ بِشِدَّةِ ٱلْبَيَاضِ وَاِذَا اُرِيدَ ٱلْمُبَالَغَةُ فِي وَصْفِهِ وُصِفَ بِٱلنُّصُوعِ . وَمِنْ اَعْيَبِ عُيُوبِهِ ٱلصُّفْرَةُ . وَقَالُوا : كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ لِبَيَاضِهِ . وَاِذَا ٱصْفَرَّ ٱحْتِيلَ فِي اِزَالَةِ صُفْرَتِهِ لِيَتَضَوَّأَ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلْحَوَاشِي فِي ٱلدُّرِّ اَيْضًا خَطَأٌ . وَلَوْ قَالَ : (نَوَاحِيهِ) لَكَانَ اَجْوَدَ . وَٱلْحَاشِيَةُ لِلْبُرْدِ وَٱلثَّوْبِ . فَاَمَّا حَاشِيَةُ ٱلدُّرِّ فَغَيْرُ مَعْرُوفٍ . وَفِيهَا :

وَحَرَّتْ عَلَى ٱلْاَيْدِي مَجَسَّةُ جِسْمِهِ   كَذٰلِكَ مَوْجُ ٱلْبَحْرِ مُلْتَهِبُ ٱلْوَقْدِ

وَهٰذَا غَلَطٌ لِاَنَّ ٱلْبَحْرَ غَيْرُ مُلْتَهِبِ ٱلْمَوْجِ وَلَا مُتَّقِدِ ٱلْمَاءِ . وَلَوْ كَانَ مُتَّقِدًا لَمَا اَمْكَنَ رُكُوبُهُ . وَاِنَّمَا اَرَادَ اَنْ يُعَظِّمَ اَمْرَ ٱلْمَمْدُوحِ فَجَاءَ بِمَا لَا يُعْرَفُ . وَفِيهَا :

وَلَسْتَ تَرَى شَوْكَ ٱلْقَتَادَةِ خَائِفًا   سَمُومَ رِيَاحِ ٱلْقَادِحَاتِ مِنَ ٱلزَّنْدِ

وَهٰذَا خَطَأٌ لِاَنَّهُ شَبَّهَ ٱلْعَلِيلَ بِشَوْكِ ٱلْقَتَادِ لَا يَخَافُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُقْدَحُ بِٱلزِّنَادِ . وَقَدْ عَلِمْنَا اَنَّ ٱلنَّارَ تَفْلِقُ ٱلصَّخْرَ وَتُلِينُ ٱلْحَدِيدَ فَكَيْفَ يَسْلَمُ مِنْهَا ٱلْقَتَادُ . وَلَيْسَ لِذِكْرِ ٱلسَّمُومِ وَٱلرِّيَاحِ اَيْضًا فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ فَائِدَةٌ وَلَا مَوْقِعٌ . وَنُورِدُ هٰهُنَا جُمْلَةً تَتِمُّ بِهَا مَعَانِي هٰذَا ٱلْبَابِ : يَنْبَغِي اَنْ تَعْرِفَ اَنَّ اَجْوَدَ ٱلْوَصْفِ مَا يَسْتَوْعِبُ اَكْثَرَ مَعَانِي ٱلْمَوْصُوفِ حَتَّى كَاَنَّهُ يُصَوِّرُ ٱلْمَوْصُوفَ لَكَ فَتَرَاهُ نُصْبَ عَيْنِكَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ يَزِيدَ بْنِ عَمْرٍو ٱلطَّائِيِّ :

اَلَا مَنْ رَاَى قَوْمِي كَاَنَّ رِجَالَهُمْ   نَخِيلٌ اَتَاهَا عَاضِدٌ فَاَمَالَهَا

فَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ كَاَنَّهُ يُصَوِّرُ لَكَ ٱلْقَتْلَى مُصَرَّعِينَ . وَقَوْلِ ٱلْعَتَّابِيِّ فِي ٱلسَّحَابِ :

وَٱلْغَيْمُ كَٱلثَّوْبِ فِي ٱلْآفَاقِ مُنْتَشِرٌ   مِنْ فَوْقِهِ طَبَقٌ مِنْ تَحْتِهِ طَبَقُ

اِنْ مَعْمَعَ ٱلرَّعْدُ فِيهِ قُلْتَ مُنْخَرِقٌ   اَوْ لَأْلَأَ ٱلْبَرْقُ فِيهِ قُلْتَ مُحْتَرِقُ

وَلَمَّا كَانَتْ اَغْرَاضُ ٱلشُّعَرَاءِ كَثِيرَةً وَمَعَانِيهَا مُتَشَعِّبَةً جَمَّةً لَا يَبْلُغُهَا ٱلْاِحْصَاءُ . كَانَ مِنَ ٱلْوَجْهِ اَنْ نَذْكُرَ مَا هُوَ اَكْثَرُ ٱسْتِعْمَالًا وَاَطْوَلُ مُدَاوَمَةً وَهُوَ ٱلْمَدْحُ . وَٱلْهِجَاءُ . وَٱلْوَصْفُ . وَٱلْمَرَاثِي . وَٱلْفَخْرُ . وَقَدْ ذَكَرْتُ قَبْلَ هٰذَا ٱلْمَدِيحَ وَٱلْهِجَاءَ وَمَا يَنْبَغِي ٱسْتِعْمَالُهُ فِيهِمَا . ثُمَّ

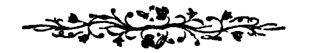
ذكرتُ الآنَ الوصف وتركتُ المراثي والفخر. لانهما داخلانِ في المديحِ وذلكَ انّ الفخر مدحك نفسكَ بالطهارةِ والعفافِ والحلم والعلمِ والحسبِ وما يجري مجرى ذلكَ. والمرثية مدحُ الميتِ والفرقُ بينهما وبينَ المديحِ انْ تقولَ: كانَ كذا وكذا. وتقولُ في المديحِ: هو كذا وانتَ كذا. فينبغي انْ يُتوخّى في المرثيةِ ما يُتوخّى في المديحِ. الّا انّكَ اذا اردتَ انْ تذكرَ الميتَ بالجودِ والشجاعة تقولُ: ماتَ الجودُ وهلكتِ الشجاعةُ. ولا تقولُ: كانَ فلانٌ جوادًا وشجاعًا فانّ ذلكَ باردٌ غيرُ مستحسنٍ. وكذلكَ ما كانَ الميتُ يركبُهُ في حياتِهِ. فينبغي انّهُ لا يذكرَ انهُ يبكي عليهِ مثلُ الخيلِ والابلِ وما يجري مجراهُما وانّما يذكرُ اغتباطَهُما بموتِهِ. وقدْ احسنَتِ الخنساءُ حيثُ تقولُ:

فقدْ فقدَتكَ طلقةُ واستراحتْ ‏ ‏ ‏ ‏ فليتَ الخيلَ فارسُها يراها

بلْ يوصفُ بالبكاءِ عليهِ مَنْ كانَ يحسنُ اليهِ في حياتِهِ. كما قالَ الغنويُّ:

ليبكِكَ شيخٌ لمْ يجدْ مَنْ يعينُهُ ‏ ‏ ‏ ‏ وطاوي الحشى نائي المزارِ غريبُ

فهذهِ جملةٌ اذا تدبّرها صانعُ الكلامِ استغنى بها عنْ غيرِها. وباللهِ التوفيقُ



البحث الثالث

في كيفية نظم الكلام وما ينبغي استعماله في تأليفه

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

إِذَا أَردتَ أَنْ تصنعَ كَلاماً فَأَخطِرْ مَعانِيَهُ بِبالِكَ وتنوَّقْ لَهُ كَرائِمَ ٱللَّفظِ وَٱجعلْها على ذِكْرٍ مِنكَ لِيقرُبَ عليكَ تناوُلُها ولا يُتعِبكَ تطلُّبُها . وَٱعمَلْهُ ما دُمْتَ فِي شبابِ نشاطِكَ فإِذَا غشِيَكَ ٱلفتورُ وتخوَّنكَ ٱلمَلالُ فَأَمسِكْ . فَانَّ ٱلكثيرَ معَ ٱلمَلالِ قليلٌ وَٱلنَّفيسَ معَ ٱلضَّجرِ خسيسٌ وَٱلخواطِرَ كَٱلينابيعِ يُسقَى مِنها شيءٌ بعدَ شيءٍ فتجِدُ حاجتَكَ من ٱلرِّيِّ وتنالُ أربَكَ مِنَ ٱلمَنفعةِ. فإِذَا أَكثرتَ عليها نضَبَ ماؤُها وقلَّ عنكَ غناؤُها. وينبغي أَنْ تجريَ معَ ٱلكلامِ مُعارَضةً فإِذا مررتَ بلفظٍ حسنٍ أخذتَ برقبتِهِ أو بمعنًى بديعٍ تعلَّقتَ بذيلِهِ . وتحذَّرْ أَنْ يسبِقَكَ فإِنَّهُ إِنْ سبقَكَ تعِبتَ فِي تتبُّعِهِ وَنصِبتَ فِي طلبِهِ ولعلَّكَ لا تلحقُهُ على طُولِ ٱلطَّلَبِ ومُواصلةِ ٱلدَّأْبِ وقدْ قالَ ٱلشَّاعِرُ :

إِذَا ضيَّعتَ أوَّلَ كُلِّ أمرٍ أَبتْ أَعجازُهُ إِلَّا ٱلتِواءَ

وقالُوا : ينبغي لِصانعِ ٱلكلامِ أَنْ لا يتقدَّمَ ٱلكلامَ تقدُّماً ولا يتَّبِعَ ذُنابَاهُ تتبُّعاً ولا يحمِلَهُ على لِسانِهِ حمْلًا فإِنَّهُ إِنْ تقدَّمَ ٱلكلامَ لمْ تتبَعْهُ حقيقتُهُ وهزيلُهُ وَٱعجَفُهُ وَٱلشَّارِدُ مِنهُ.وإِنْ تتبَّعهُ فاتتْهُ سوابقُهُ ولواحِقُهُ وتباعدتْ عنهُ جِيادُهُ وغُررُهُ . وإِنْ حمَلَهُ على لِسانِهِ ثقُلتْ عليهِ أَوسَاقُهُ وأَعباؤُهُ ودخلَتْ مساوِيهِ فِي محاسِنِهِ ولكِنَّهُ يجري معَهُ

فَلَا تَنِدُّ عَنْهُ نَادَّةٌ مُعَجِّبَةٌ سَهْمَاءُ إِلَّا كَبَحَهَا وَلَا تَتَخَلَّفُ عَنْهُ مُثْقِلَةٌ هَزِيلَةٌ إِلَّا أَرْهَقَهَا فَطَوْرًا تُفَرِّقُهُ لِيَخْتَارَ أَحْسَنَهُ وَطَوْرًا تَجْمَعُهُ لِتُقَرِّبَ عَلَيْكَ خُطْوَةَ الْفِكْرِ وَيَتَنَاوَلَ اللَّفْظَ مِنْ تَحْتِ لِسَانِهِ وَلَا يُسَلِّطُ الْمَلَلَ عَلَى قَلْبِهِ وَالْإِكْثَارَ عَلَى فِكْرِهِ فَيَأْخُذُ عَفْوَهُ وَلَا يَسْتَغْزِرُ دِرَّهُ وَلَا يُكْرِهُ آبِيًا وَلَا يَدْفَعُ آتِيًا . وَقَالَ بِشْرُ بْنُ الْمُعْتَمِرِ : خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا لَكَ . فَإِنَّ تِلْكَ السَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حَسَبًا وَأَحْسَنُ فِي الْأَسْمَاعِ وَأَحْلَى فِي الصُّدُورِ وَأَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ الْخَطَإِ وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وَغُرَّةٍ مِنْ لَفْظٍ كَرِيمٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ . وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ الْأَطْوَلُ بِالْكَدِّ وَالْمُطَاوَلَةِ وَالْمُجَاهَدَةِ وَالتَّكَلُّفِ وَالْمُعَاوَدَةِ . وَمَهْمَا أَخْطَاكَ لَمْ يُخْطِئْكَ أَنْ يَكُونَ مَقْبُولًا قَصْدًا أَوْ خَفِيفًا عَلَى اللِّسَانِ سَهْلًا وَكَمَا خَرَجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدِنِهِ . وَإِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ فَإِنَّ التَّوَعُّرَ يُسْلِمُكَ إِلَى التَّعْقِيدِ وَالتَّعْقِيدُ هُوَ الَّذِي يَسْتَهْلِكُ مَعَانِيَكَ وَيَشِينُ أَلْفَاظَكَ . وَمَنْ أَرَادَ مَعْنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفْظًا كَرِيمًا فَإِنَّ حَقَّ الْمَعْنَى الشَّرِيفِ اللَّفْظُ الشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا أَنْ يَصُونَهُمَا عَمَّا يُدَنِّسُهُمَا وَيُفْسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا فَيَصِيرُ بِهِمَا إِلَى حَدٍّ يَكُونُ فِيهِ أَسْوَأَ حَالًا مِنْكَ قَبْلَ أَنْ تَلْتَمِسَ الْبَلَاغَةَ وَتَرْتَهِنَ نَفْسَكَ فِي مَلَابِسِهَا . فَكُنْ فِي ثَلَاثِ مَنَازِلَ . فَأَوَّلُ الثَّلَاثِ : أَنْ يَكُونَ لَفْظُكَ شَرِيفًا عَذْبًا وَفَخْمًا سَهْلًا وَيَكُونَ مَعْنَاكَ ظَاهِرًا مَكْشُوفًا وَقَرِيبًا مَعْرُوفًا . فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ لَا تُوَاتِيكَ وَلَا تَسْنَحُ لَكَ عِنْدَ أَوَّلِ خَاطِرٍ وَتَجِدُ اللَّفْظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوْقِعَهَا

ولَمْ تَصِلْ إِلَى مَرْكَزِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِسِلْكِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَوْضِعِهَا نَافِرَةً عَنْ مَكَانِهَا فلاَ تُكْرِهْهَا عَلَى اغْتِصَابِ الأَمَاكِنِ وَالنُّزُولِ فِي غَيْرِ أَوْطَانِهَا . فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَتَعَاطَ قَرِيضَ الشِّعْرِ الْمَنْظُومِ وَلَمْ تَتَكَلَّفِ اخْتِيَارَ الْكَلَامِ الْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِذَلِكَ أَحَدٌ . وَإِنْ تَكَلَّفْتَهُ وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا عَابَكَ مَنْ أَنْتَ أَقَلُّ عَيْبًا مِنْهُ وَزَرَى عَلَيْكَ مَنْ هُوَ دُونَكَ . فَإِنِ ابْتُلِيتَ بِتَكَلُّفِ الْقَوْلِ وَتَعَاطِي الصِّنَاعَةِ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ الطَّبِيعَةُ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَتَعَصَّى عَلَيْكَ بَعْدَ إِجَالَةِ الْفِكْرَةِ فَلَا تَعْجَلْ وَدَعْهُ سَحَابَةَ يَوْمِكَ وَلَا تَضْجَرْ وَأَمْهِلْهُ سَوَادَ لَيْلَتِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ فَإِنَّكَ لَا تَعْدَمُ الإِجَابَةَ وَالْمُؤَاتَاةَ . وَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ وَأُجْرِيتَ مِنَ الصِّنَاعَةِ عَلَى عِرْقٍ فَهِيَ الْمَنْزِلَةُ الثَّانِيَةُ . فَإِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَ تَرْوِيحِ الْخَاطِرِ وَطُولِ الإِمْهَالِ فَالْمَنْزِلَةُ الثَّالِثَةُ . أَيْ أَنْ تَتَحَوَّلَ مِنْ هَذِهِ الصِّنَاعَةِ إِلَى أَشْهَى الصِّنَاعَاتِ إِلَيْكَ وَأَخَفِّهَا عَلَيْكَ فَإِنَّكَ لَمْ تَشْتَهِهَا إِلَّا وَبَيْنَكُمَا نَسَبٌ . وَالشَّيْءُ لَا يَحِنُّ إِلَّا إِلَى مَا شَاكَلَهُ وَإِنْ كَانَتِ الْمُشَاكَلَةُ قَدْ تَكُونُ فِي طَبَقَاتٍ فَإِنَّ النُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِهَا مَعَ الرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ مَعَ الرَّغْبَةِ وَالْمَحَبَّةِ . وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْرِفَ أَقْدَارَ الْمَعَانِي فَتُوَازِنَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَوْزَانِ الْمُسْتَمِعِينَ وَبَيْنَ أَقْدَارِ الْحَالَاتِ فَتَجْعَلَ لِكُلِّ طَبَقَةٍ كَلَامًا وَلِكُلِّ حَالٍ مَقَامًا حَتَّى تَقْسِمَ أَقْدَارَ الْمَعَانِي عَلَى أَقْدَارِ الْمَقَامَاتِ وَأَقْدَارَ الْمُسْتَمِعِينَ عَلَى أَقْدَارِ الْحَالَاتِ . وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَنْفَعَةَ مَعَ مُوَافَقَةِ الْحَالِ وَمَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقَامٍ

مِنَ ٱلمقَالِ . فَإِنْ كُنتَ مُتَكَلِّمًا أَوِ ٱحْتَجْتَ إِلَى عَمَلِ خُطْبَةٍ لِبَعْضِ مَنْ تَصْلُحُ لَهُ ٱلْخُطَبُ أَوْ قَصِيدَةً لِبَعْضِ مَا يُرَادُ لَهُ ٱلْقَصْدُ فَتَخَطَّ أَلْفَاظَ ٱلمتَكَلِّمِينَ مِثْلَ ٱلْجِسْمِ وَٱلْعَرَضِ وَٱلْكَوْنِ وَٱلتَّأْلِيفِ وَٱلْجَوْهَرِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُجْنَةٌ …

البحث الرابع

في خواص الكلام الحرّ

(عن ابن المعتز والرمّاني)

قِيلَ إِنَّ أَحسنَ ٱلْكَلَامِ مَا كَانَ تَرْجُمَانًا لِلْقُلُوبِ وَصَيْقَلًا لِلْعُقُولِ وَمُجْلِيًا لِلشُّبْهَةِ وَمُوجِبًا لِلْحُجَّةِ . وَٱلْحَاكِمَ عِنْدَ ٱخْتِصَاصِ ٱلظُّنُونِ وَٱلْمُفَرِّقَ بَيْنَ ٱلشَّكِّ وَٱلْيَقِينِ . يَنْقَادُ بِهِ ٱلْمُسْتَصْعَبُ وَيَسْتَقِيمُ لَهُ ٱلْأَصْيَدُ . وَخَيْرُ ٱلْبَيَانِ مَا كَانَ مُصَرِّحًا عَنِ ٱلْمَعْنَى لِيُسْرِعَ إِلَى ٱلْفَهْمِ تَلَقِّيهِ . وَمُوجَزًا لِيَخِفَّ عَلَى ٱللَّفْظِ تَعَاطِيهِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُبْلِغُ ٱلَّذِي لَا يُمَلُّ وَٱلْجَدِيدُ ٱلَّذِي لَا يَخْلَقُ . وَٱلْحَقُّ ٱلسَّاطِعُ . وَٱلْمَاحِي لِظُلَمِ ٱلضَّلَالِ . وَلِسَانُ ٱلصِّدْقِ ٱلنَّافِي لِلْكَذِبِ . إِنْ أَوْجَزَ كَانَ كَافِيًا وَإِنْ أَكْثَرَ كَانَ مُذَكِّرًا . وَإِنْ أَوْمَا كَانَ مُقْنِعًا . وَإِنْ أَطَالَ كَانَ مُفْهِمًا . وَإِنْ أَمَرَ فَنَاصِحًا . وَإِنْ حَكَمَ فَعَادِلًا . وَإِنْ أَخْبَرَ فَصَادِقًا . وَإِنْ بَيَّنَ فَشَافِيًا . سَهْلٌ عَلَى ٱلْفَهْمِ . صَعْبٌ عَلَى ٱلْمُتَعَاطِي . قَرِيبُ ٱلْمَأْخَذِ بَعِيدُ ٱلْمَرَامِ . سِرَاجٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ ٱلْقُلُوبُ حُلْوٌ إِذَا تَذَوَّقَتْهُ ٱلْعُقُولُ . وَقَدْ قِيلَ : أَبْلَغُ ٱلْكَلَامِ مَا حَطَّ ٱلتَّكَلُّفَ عَنْهُ وَبُنِيَ عَلَى ٱلتَّبْيِينِ وَكَانَتِ ٱلْفَائِدَةُ أَغْلَبَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْقَافِيَةِ بِأَنْ جَمَعَ مَعَ ذٰلِكَ سُهُولَةَ ٱلْمَخْرَجِ

مَعَ قُرْبِ ٱلْمُتَنَاوَلِ . وَعُذُوبَةَ ٱللَّفْظِ مَعَ رَشَاقَةِ ٱلْمَعْنَى . وَانْ يَكُونَ حُسْنُ ٱلِٱبْتِدَاءِ كَحُسْنِ ٱلِٱنْتِهَاءِ . وَحُسْنُ ٱلْوَصْلِ كَحُسْنِ ٱلْقَطْعِ فِي ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّمْعِ . وَكَانَتْ كُلُّ كَلِمَةٍ قَدْ وَقَعَتْ فِي حَقِّهَا وَالَى جَنْبِ اُخْتِهَا حَتَّى لَا يُقَالَ : لَوْ كَانَ كَذَا فِي مَوْضِعِ كَذَا لَكَانَ اَوْلَى حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ لَفْظٌ مُخْتَلِفٌ وَلَا مَعْنًى مُسْتَكْرَهٌ . ثُمَّ اُلْبِسَ بَهَاءَ ٱلْحِكْمَةِ وَنُورَ ٱلْمَعْرِفَةِ وَشَرَفَ ٱلْمَعْنَى وَجَزَالَةَ ٱللَّفْظِ وَكَانَتْ حَلَاوَتُهُ فِي ٱلصَّدْرِ وَجَلَالَتُهُ فِي ٱلنَّفْسِ تَفْتُقُ ٱلْفَهْمَ وَتَنْثُرُ دَقَائِقَ ٱلْحِكَمِ وَكَانَ ظَاهِرَ ٱلنَّفْعِ شَرِيفَ ٱلْقَصْدِ مُعْتَدِلَ ٱلْوَزْنِ جَمِيلَ ٱلْمَذْهَبِ كَرِيمَ ٱلْمَطْلَبِ . فَصِيحًا فِي مَعْنَاهُ بَيِّنًا فِي فَحْوَاهُ . . . وَجَاءَ اَيْضًا فِي كُتُبِ ٱلْاَدَبِ: اِنَّ لَحْظَةَ ٱلْقَلْبِ اَسْرَعُ خَطْرَةً مِنْ لَحْظَةِ ٱلْعَيْنِ وَاَبْعَدُ مَجَالًا وَهِيَ ٱلْغَائِصَةُ فِي اَعْمَاقِ اَوْدِيَةِ ٱلْفِكْرِ وَٱلْمُتَأَمِّلَةُ لِوُجُوهِ ٱلْعَوَاقِبِ . وَٱلْجَامِعَةُ بَيْنَ مَا غَابَ وَحَضَرَ . وَٱلْمِيزَانُ ٱلشَّاهِدُ عَلَى مَا نَفَعَ وَضَرَّ . وَٱلْقَلْبُ كَٱلْمُمْلِي لِلْكَلَامِ عَلَى ٱللِّسَانِ اِذَا نَطَقَ وَٱلْيَدِ اِذَا كَتَبَتْ . وَٱلْعَاقِلُ يَكْسُو ٱلْمَعَانِي وَشْيَ ٱلْكَلَامِ فِي قَلْبِهِ ثُمَّ يُبْدِيهَا بِاَلْفَاظٍ كَيِّسَةٍ بِاَحْسَنِ زِينَةٍ . وَٱلْجَاهِلُ يَسْتَعْجِلُ بِاِظْهَارِ ٱلْمَعَانِي قَبْلَ ٱلْعِنَايَةِ بِتَزْيِينِ مَعَارِضِهَا وَٱسْتِكْمَالِ مَحَاسِنِهَا . قِيلَ لِبَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ : بِمَ فُقْتَ اَهْلَ عَصْرِكَ فِي حُسْنِ مَعَانِي ٱلشِّعْرِ وَتَهْذِيبِ اَلْفَاظِهِ . فَقَالَ : لِاَنِّي لَمْ اَقْبَلْ كُلَّ مَا تُورِدُهُ عَلَيَّ قَرِيحَتِي وَيُنَاجِينِي بِهِ طَبْعِي وَيَبْعَثُهُ فِكْرِي . وَنَظَرْتُ اِلَى مَغَارِسِ ٱلْفِطَنِ وَمَعَادِنِ ٱلْحَقَائِقِ وَلَطَائِفِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ فَسِرْتُ اِلَيْهَا بِفَهْمٍ جَيِّدٍ وَغَرِيزَةٍ قَوِيَّةٍ فَاَحْكَمْتُ سَبْرَهَا وَٱنْتَقَيْتُ حُرَّهَا

وَكَشَفْتُ عَنْ حَقَائِقِهَا وَٱحْتَرَزْتُ عَنْ مُتَكَلِّفِهَا . وَمَا مَلَكَ قَطُّ قِيَادِي ٱلْإِعْجَابُ بِشَيْءٍ مِمَّا آتِي بِهِ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : إِنَّ ٱلْمَعْنَى إِذَا كَانَ شَرِيفًا وَكَانَ ٱللَّفْظُ بَلِيغًا وَكَانَ صَحِيحَ ٱلطَّبْعِ بَعِيدًا مِنَ ٱلْإِسْتِكْرَاهِ مُنَزَّهًا عَنِ ٱلْإِخْتِلَالِ مَصُونًا عَنِ ٱلتَّكَلُّفِ صَنَعَ فِي ٱلْقَلْبِ صَنِيعَ ٱلْغَيْثِ فِي ٱلتُّرْبَةِ ٱلْكَرِيمَةِ . وَمَتَى فُصِّلَتِ ٱلْكَلِمَةُ عَلَى هٰذِهِ ٱلشَّرِيطَةِ وَنَفَذَتْ مِنْ قَائِلِهَا عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ كَسَاهَا ٱللهُ مِنَ ٱلتَّوْفِيقِ وَمَنَحَهَا مِنَ ٱلتَّأْيِيدِ مَا لَا يَمْتَنِعُ مِنْ تَعْظِيمِهَا بِهِ صُدُورُ ٱلْجَبَابِرَةِ وَلَا يَذْهَلُ عَنْ فَهْمِهَا مَعَهُ عُقُولُ ٱلْجَهَلَةِ

البحث الخامس

في تهذيب الكلام وتنقيحهِ

(عن خزانة الادب للحموي وزهر الآداب للحصري)

وَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَرْدَادِ ٱلنَّظَرِ فِي ٱلْكَلَامِ بَعْدَ عَمَلِهِ وَٱلشُّرُوعِ فِي تَهْذِيبِهِ وَتَنْقِيحِهِ نَظْمًا كَانَ أَوْ نَثْرًا وَتَغْيِيرِ مَا يَجِبُ تَغْيِيرُهُ وَحَذْفِ مَا يَنْبَغِي حَذْفُهُ وَإِصْلَاحِ مَا يَتَعَيَّنُ إِصْلَاحُهُ وَكَشْفِ مَا يُشْكِلُ عَنْ غَرِيبِهِ وَإِعْرَابِهِ . وَتَحْرِيرِ مَا يَدِقُّ مِنْ مَعَانِيهِ . وَٱطِّرَاحِ مَا يَتَجَافَى عَنْ مَضَاجِعِ ٱلرِّقَّةِ مِنْ غَلِيظِ أَلْفَاظِهِ لِتُشْرِقَ شُمُوسُ ٱلتَّهْذِيبِ فِي سَمَاءِ بَلَاغَتِهِ وَتَرْشُفَ ٱلْأَسْمَاعُ عَلَى ٱلطَّرَبِ رَقِيقَ سُلَافَتِهِ . فَإِنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَانَ مَوْصُوفًا بِٱلْمُهَذَّبِ مَنْعُوتًا بِٱلْمُنَقَّحِ عَلَتْ رُتْبَتُهُ . وَإِنْ كَانَتْ مَعَانِيهِ غَيْرَ مُبْتَكَرَةٍ . وَكُلُّ كَلَامٍ قِيلَ فِيهِ : لَوْ كَانَ مَوْضِعُ هٰذِهِ

ٱلْكَلِمَةِ غَيْرُهَا . وَلَوْ تَقَدَّمَ هٰذَا ٱلْمُتَأَخِّرُ وَتَأَخَّرَ هٰذَا ٱلْمُتَقَدِّمُ . أَوْ لَوْ تُمِّمَ هٰذَا ٱلنَّقْصُ بِكَذَا . أَوْ لَوْ تَكَمَّلَ هٰذَا ٱلْوَصْفُ بِكَذَا . أَوْ لَوْ حُذِفَتْ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةُ . أَوْ لَوِ ٱتَّضَحَ هٰذَا ٱلْمَقْصَدُ وَسَهُلَ هٰذَا ٱلْمَطْلَبُ لَكَانَ ٱلْكَلَامُ أَحْسَنَ وَٱلْمَعْنَى أَبْيَنَ . كَانَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ غَيْرَ مُنْتَظِمٍ فِي سِلْكِ نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ . وَكَانَ زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلْمَى مَعْرُوفًا بِٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّهْذِيبِ . وَلَهُ قَصَائِدُ تُعْرَفُ بِٱلْحَوْلِيَّاتِ . قِيلَ : إِنَّهُ كَانَ يَنْظِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَيُهَذِّبُهَا وَيُنَقِّحُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ وَيَعْرِضُهَا عَلَى عُلَمَاءِ قَبِيلَتِهِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ . وَيُرْوَى : أَنَّهُ كَانَ يَعْمَلُ ٱلْقَصِيدَةَ فِي شَهْرٍ وَيُنَقِّحُهَا وَيُهَذِّبُهَا فِي أَحَدَ عَشَرَ شَهْرًا وَلَا جَرَمَ أَنَّهُ قَلَّمَا يَسْقُطُ مِنْهُ شَيْءٌ . وَلِهٰذَا كَانَ ٱلْإِمَامُ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ مَعَ جَلَالَتِهِ فِي ٱلْعِلْمِ وَتَقَدُّمِهِ فِي ٱلنَّقْدِ يُقَدِّمُهُ عَلَى سَائِرِ ٱلْفُحُولِ مِنْ طَبَقَتِهِ . وَمَا أَحْسَنَ مَا أَشَارَ أَبُو ٱلتَّمَّامِ إِلَى ٱلتَّهْذِيبِ بِقَوْلِهِ :

خُذْهَا ٱبْنَةَ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُهَذَّبِ فِي ٱلدُّجَى ... وَٱللَّيْلُ أَسْوَدُ رُقْعَةِ ٱلْجِلْبَابِ

فَإِنَّهُ خَصَّ تَهْذِيبَ ٱلْفِكْرِ بِٱلدُّجَى لِكَوْنِ ٱللَّيْلِ تَهْدَأُ فِيهِ ٱلْأَصْوَاتُ وَتَسْكُنُ ٱلْحَرَكَاتُ فَيَكُونُ ٱلْفِكْرُ فِيهِ مُجْتَمِعًا وَمِرْآةُ ٱلتَّهْذِيبِ فِيهِ صَقِيلَةً لِخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ وَصَفَاءِ ٱلْقَرِيحَةِ . لَا سِيَّمَا وَسَطَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّفْسُ قَدْ أَخَذَتْ حَظَّهَا مِنَ ٱلرَّاحَةِ بَعْدَ نَيْلِ قِسْطِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَخَفَّ عَلَيْهَا ثِقَلُ ٱلْغِذَاءِ . وَصَحَّ ذِهْنُهَا وَصَارَ صَدْرُهَا مُنْشَرِحًا وَقَلْبُهَا بِٱلتَّأْلِيفِ مُنْبَسِطًا . وَمَا قَدَّمُوا وَسَطَ ٱللَّيْلِ فِي ٱلتَّأْلِيفِ عَلَى ٱلسَّحَرِ مَعَ مَا فِيهِ مِنِ ٱنْتِبَاهِ أَكْثَرِ ٱلْحَيَوَانِ ٱلنَّاطِقِ وَٱرْتِفَاعِ ٱلْأَصْوَاتِ وَجَرْشِ ٱلْحَرَكَاتِ وَتَقَشُّعِ

ٱلظَّلْماء بِطلائع ٱلاضْوَاء . وَبِدُونِ ذٰلكَ يَنْقسمُ ٱلفِكْرُ وَيشْتَغِلُ ٱلقلبُ وَوَسَطُ ٱللَّيل خَالٍ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ . وَلِهٰذا خَصَّ ابُو تمام تَهْذِيب ٱلفِكْرِ بِٱلدُّجى عادلًا عَنِ ٱلطَّرَفَينِ لِمَا فيهِمَا مِنَ ٱلشواغِلِ ٱلمَذْكُورَةِ. وحَكَتِ ٱلثقاتُ عَنْ ابِي عبادَةَ ٱلبُحْتُرِيّ قَالَ: كُنْتُ فِي حَدَاثَتِي ارُومُ ٱلشِّعْرَ وَكُنْتُ ارجعُ فِيهِ اِلَى طَبْعٍ سَلِيمٍ وَلَمْ اكُنْ وَقفتُ لَهُ عَلَى تَسْهِيل مَأْخَذِ وَوُجُوهِ ٱقْتِضَاب حَتَّى قَصَدتُ ابَا تمام وٱنْقطَعْتُ اِلَيْهِ وَٱتَّكَلْتُ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَيْهِ فَكَانَ اوَّلُ مَا قَالَ لِي : يَا ابَا عِبادَةَ تَخَيَّرِ ٱلأَوْقَاتَ وَانْتَ قَلِيلُ ٱلهُمُومِ صِفْرٌ مِنَ ٱلغُمُوم . وٱعْلَمْ انَّ ٱلعادَةَ فِي ٱلأَوْقَاتِ اذَا قصَدَ ٱلانْسانُ تَأْلِيف شَيْءٍ او حفْظَهُ انْ يَخْتَارَ وَقْتَ ٱلسحرِ . وذلكَ انَّ ٱلنفسَ تَكُونُ قَدْ اخَذَتْ حظَّها منَ ٱلرَّاحَة وَقِسْطَهَا مِنَ ٱلنوْم وَخفَّ عَنْهَا ثِقَلُ ٱلغذاء . وصَفَا من اكْثَرِ ٱلأَبْخِرَةِ وَالأَدْخِنَة جسْمُ ٱلهَوَاء . وَسَكَنتِ ٱلغَمائمُ . ورقتِ ٱلنسائمُ . وَتغنَّتِ ٱلحمائِمُ . وَاذا شَرَعتَ فِي ٱلتأْليفِ تَغَنَّ بِٱلشِّعْرِ فَاِنَّ ٱلغناءَ مِضْمارُهُ ٱلَّذِي يَجْرِي فِيه . وٱجْتَهِدْ فِي اِيضاحِ مَعَانِيهِ . فانْ ارَدْتَ ذِكْرَ ٱلأَحْبَابِ فَٱجعلِ ٱللفظَ رَقِيقًا وَٱلمَعْنى رَشِيقًا وَاكْثِرْ فِيهِ مِنْ بَيانِ ٱلكَآبَةِ . وَقَلَقِ ٱلأَشْوَاق . وَلوْعَةِ ٱلفِرَاقِ وَٱلتعَلُّلِ بِٱسْتِنْشَاقِ ٱلنسائِمِ . وَغِنَاءِ ٱلحَمَائِمِ . وَٱلبُرُوقِ ٱللَّامِعَةِ . وَٱلنُّجُومِ ٱلطَّالعَةِ . وَٱلتبَرُّمِ مِنَ ٱلعُذَّالِ . وَٱلوُقُوف عَلى ٱلأَطْلَالِ . وَاذَا اخَذْتَ فِي مَدْحِ سَيِّدٍ فَٱشْهَرْ مَنَاقِبَهُ وَاَظْهِرْ مَنَاسِبَهُ وَارْهِبْ مِنْ عَزَائِمِهِ وَارْغَبْ فِي مَكَارِمِهِ . وَٱحْذَرِ ٱلمَجْهُولَ مِنَ ٱلمَعَانِي وَاِيَّاكَ انْ تَشِينَ شِعْرَكَ بِٱلعِبَارَةِ وَٱلأَلْفَاظِ

ٱلوَحْشِيَّةِ وَنَاسِبْ بَيْنَ ٱلْاَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ وَكُنْ كَاَنَّكَ خَيَّاطٌ تُقَدِّرُ ٱلثِّيَابَ عَلَى مَقَادِيرِ ٱلْاَجْسَامِ . وَاِذَا عَارَضَكَ ٱلضَّجَرُ فَأَرِحْ نَفْسَكَ وَلَا تَعْمَلْ اِلَّا وَاَنْتَ فَارِغُ ٱلْقَلْبِ وَلَا تَنْظِمْ اِلَّا بِشَهْوَةٍ فَاِنَّ ٱلشَّهْوَةَ نِعْمَ ٱلْمُعِينُ عَلَى حُسْنِ ٱلنَّظْمِ . وَجُمْلَةُ ٱلْحَالِ اَنْ تَعْتَبِرَ شِعْرَكَ بِمَا سَلَفَ مِنْ اَشْعَارِ ٱلْمَاضِينَ فَمَا ٱسْتَحْسَنَ ٱلْعُلَمَاءُ فَاْقْصِدْهُ وَمَا ٱسْتَقْبَحُوهُ فَاجْتَنِبْهُ

وَاَوْرَدَ ٱلْعَلَّامَةُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ اَبِي ٱلْاِصْبَعِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمُسَمَّى بِتَحْرِيرِ ٱلتَّحْبِيرِ وَصِيَّةً لِنَفْسِهِ اَوْرَدَهَا اَيْضًا عَلَى نَوْعِ ٱلتَّهْذِيبِ وَٱلتَّأْدِيبِ فَٱخْتَرْتُ مِنْهَا مَا هُوَ ٱللَّائِقُ بِٱلْحَالِ وَاَوَّلُهَا : يَنْبَغِي لَكَ اَيُّهَا ٱلرَّاغِبُ فِي ٱلْعَمَلِ ٱلسَّائِلُ عَنْ اَوْضَحِ ٱلسُّبُلِ اَنْ تُحَصِّلَ ٱلْمَعْنَى قَبْلَ ٱلشُّرُوعِ فِي ٱلنَّظْمِ وَٱلْقَوَافِي قَبْلَ ٱلْاَبْيَاتِ (قُلْتُ وَهٰذَا مَذْهَبُنَا) . ثُمَّ قَالَ اَيْضًا : وَلَا تُكْرِهِ ٱلْخَاطِرَ عَلَى وَزْنٍ مَخْصُوصٍ وَرَوِيٍّ مَقْصُودٍ وَتَوَخَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْجَزْلَ دُونَ ٱلرَّذْلِ وَٱلسَّهْلَ دُونَ ٱلصَّعْبِ وَٱلْعَذْبَ دُونَ ٱلْمُسْتَكْرَهِ وَٱلْمُسْتَحْسَنَ دُونَ ٱلْمُسْتَهْجَنِ . وَلَا تَعْمَلْ نَظْمًا وَلَا نَثْرًا عِنْدَ ٱلْمَلَلِ فَاِنَّ ٱلْكَثِيرَ مَعَهُ قَلِيلٌ وَٱلنَّفِيسَ مَعَهُ خَسِيسٌ . وَٱلْخَوَاطِرُ يَنَابِيعُ اِذَا رُفِقَ بِهَا جَمَّتْ وَاِذَا كَثُرَ ٱسْتِعْمَالُهَا نَزَحَتْ . وَٱكْتُبْ كُلَّ مَعْنًى يَسْنَحُ وَقَيِّدْ كُلَّ فَائِدَةٍ تَعْرِضُ فَاِنَّ نَتَائِجَ ٱلْاَفْكَارِ كَلَمْعَةِ ٱلْبَرْقِ وَلَمْحَةِ ٱلطَّرْفِ اِنْ لَمْ تُقَيِّدْهَا شَرَدَتْ وَنَدَّتْ وَاِنْ لَمْ تَسْتَعْطِفْ بِٱلتَّكْرَارِ عَلَيْهَا صَدَّتْ وَٱلتَّرَنُّمُ بِٱلشِّعْرِ مِمَّا يُعِينُ عَلَيْهِ . فَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

تَغَنَّ بِٱلشِّعْرِ اِمَّا كُنْتَ قَائِلَهُ   اِنَّ ٱلْغِنَاءَ لِقَوْلِ ٱلشِّعْرِ مِضْمَارُ

البحث السادس

في شروط الكلام

(عن ادب الدنيا والدين للماوردي)

اِعلمْ اَنَّ لِلْكَلَامِ شُرُوطًا لَا يَسْلَمُ ٱلْمُتَكَلِّمُ مِنَ ٱلزَّلَلِ اِلَّا بِهَا وَلَا يَعْرَى مِنَ ٱلنَّقْصِ اِلَّا بَعْدَ اَنْ يَسْتَوْفِيَهَا وَهِيَ اَرْبَعَةٌ : (فَٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ لِدَاعٍ يَدْعُو اِلَيْهِ اِمَّا فِي ٱجْتِلَابِ نَفْعٍ اوْ فِي دَفْعِ ضَرَرٍ . (وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَأْتِيَ بِهِ فِي مَوْضِعِهِ وَيَتَوَخَّى بِهِ اِصَابَةَ فُرْصَتِهِ . (وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) اَنْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ . (وَٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) اَنْ يَتَخَيَّرَ ٱللَّفْظَ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ . فَهٰذِهِ اَرْبَعَةُ شُرُوطٍ مَتَى اَخَلَّ ٱلْمُتَكَلِّمُ بِشَرْطٍ مِنْهَا فَقَدْ اَوْهَنَ فَضِيلَةَ بَاقِيهَا . وَسَنَذْكُرُ تَعْلِيلَ كُلِّ شَرْطٍ مِنْهَا بِمَا يُنْبِئُ عَنْ لُزُومِهِ . فَامَّا ٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ وَهُوَ ٱلدَّاعِي اِلَى ٱلْكَلَامِ فَلِاَنَّ مَا لَا دَاعِيَ لَهُ هَذَيَانٌ وَمَا لَا سَبَبَ لَهُ هُجْرٌ وَمَنْ سَامَحَ نَفْسَهُ فِي ٱلْكَلَامِ اِذَا عَنَّ وَلَمْ يُرَاعِ صِحَّةَ دَوَاعِيهِ وَاِصَابَةَ مَعَانِيهِ كَانَ قَوْلُهُ مَرْذُولًا وَرَأْيُهُ مَعْلُولًا . كَٱلَّذِي حَكَى ٱبْنُ عَائِشَةَ : اِنَّ شَابًّا كَانَ يُجَالِسُ ٱلْاَحْنَفَ وَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَاَعْجَبَ ذٰلِكَ ٱلْاَحْنَفَ فَخَلَتِ ٱلْحَلْقَةُ يَوْمًا فَقَالَ لَهُ ٱلْاَحْنَفُ : تَكَلَّمْ يَا ٱبْنَ اَخِي . فَقَالَ : يَا عَمِّ لَوْ اَنَّ رَجُلًا سَقَطَ مِنْ شَرَفِ هٰذَا ٱلْمَسْجِدِ هَلْ كَانَ يَضُرُّهُ شَيْءٌ . فَقَالَ : يَا ٱبْنَ اَخِي لَيْتَنَا تَرَكْنَاكَ مَسْتُورًا . ثُمَّ تَمَثَّلَ ٱلْاَحْنَفُ بِقَوْلِ ٱلْاَعْوَرِ ٱلشَّنِّيِّ :

كَأَيِّنْ تَرَى مِنْ صَاحِبٍ لَكَ مُعْجِبٍ زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي ٱلتَّكَلُّمِ
لِسَانُ ٱلْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ

وَكَٱلَّذِي حُكِيَ عَنْ أَبِي ٱلْفَقِيهِ: إِنَّ رَجُلًا كَانَ يَجْلِسُ إِلَيْهِ فَيُطِيلُ ٱلصَّمْتَ فَقَالَ لَهُ أَبُو يُوسُفَ: أَلَا تَسْأَلُ. قَالَ: بَلَى مَتَى يُفْطِرُ ٱلصَّائِمُ. قَالَ: إِذَا غَرَبَتِ ٱلشَّمْسُ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ تَغْرُبْ إِلَى نِصْفِ ٱللَّيْلِ. (قَالَ) فَتَبَسَّمَ أَبُو يُوسُفَ وَتَمَثَّلَ بِبَيْتَيِ ٱلْخَطَفِيِّ جَدِّ جَرِيرٍ:

عَجِبْتُ لِإِزْرَاءِ ٱلْعَيِيِّ بِنَفْسِهِ وَصَمْتِ ٱلَّذِي قَدْ كَانَ بِٱلْعِلْمِ أَعْلَمَا
وَفِي ٱلصَّمْتِ سِتْرٌ لِلْغَبِيِّ وَإِنَّمَا صَحِيفَةُ لُبِّ ٱلْمَرْءِ أَنْ يَتَكَلَّمَا

فَٱنْظُرْ إِلَى هَؤُلَاءِ كَيْفَ أَبَانُوا بِٱلْكَلَامِ عَنْ جَهْلِهِمْ وَأَعْرَبُوا بِٱلسُّؤَالِ عَنْ نَقْصِهِمْ إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ دَاعٍ إِلَيْهِ وَلَا رَوِيَّةٌ فِيمَا تَكَلَّمُوا بِهِ وَلَوْ صَدَرَ عَنْ رَوِيَّةٍ دَعَا إِلَيْهَا دَاعٍ لَسَلِمُوا مِنْ شَيْنِهِ وَبَرِئُوا مِنْ عَيْبِهِ. وَلِذَلِكَ قِيلَ: لِسَانُ ٱلْعَاقِلِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ فَإِذَا أَرَادَ ٱلْكَلَامَ رَجَعَ إِلَى قَلْبِهِ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَكَلَّمَ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ أَمْسَكَ. وَقَلْبُ ٱلْجَاهِلِ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا عَرَضَ لَهُ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ: مَنْ لَمْ يَعُدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ كَثُرَتْ خَطَايَاهُ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: عَقْلُ ٱلْمَرْءِ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: ٱحْبِسْ لِسَانَكَ قَبْلَ أَنْ يُطِيلَ حَبْسَكَ أَوْ يُتْلِفَ نَفْسَكَ فَلَا شَيْءَ أَوْلَى بِطُولِ حَبْسٍ مِنْ لِسَانٍ يُقَصِّرُ عَنِ ٱلصَّوَابِ وَيُسْرِعُ إِلَى ٱلْجَوَابِ. وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ ٱلطَّائِيُّ:

وَمِمَّا كَانَتِ ٱلْحُكَمَاءُ قَالَتْ   لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مِنْ تَبَعِ ٱلْفُؤَادِ

وَكَانَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ يَحْسِمُ ٱلرُّخْصَةَ فِي ٱلْكَلَامِ وَيَقُولُ: اذَا جَالَسْتَ ٱلْجُهَّالَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ وَإِذَا جَالَسْتَ ٱلْعُلَمَاءَ فَأَنْصِتْ لَهُمْ. فَإِنَّ فِي إِنْصَاتِكَ لِلْجُهَّالِ زِيَادَةً فِي ٱلْحِلْمِ وَفِي إِنْصَاتِكَ لِلْعُلَمَاءِ زِيَادَةً فِي ٱلْعِلْمِ. وَامَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي) فَهُوَ انْ يَأْتِيَ بِٱلْكَلَامِ فِي مَوْضِعِهِ لِأَنَّ ٱلْكَلَامَ فِي غَيْرِ حِينِهِ لَا يَقَعُ مَوْقِعَ ٱلِانْتِفَاعِ بِهِ وَمَا لَا يَنْفَعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِأَنَّهُ هَذَيَانٌ وَهُجْرٌ. فَإِنْ قَدَّمَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّأْخِيرَ كَانَ عَجَلَةً وَخُرْقًا. وَإِنْ اخَّرَ مَا يَقْتَضِي ٱلتَّقْدِيمَ كَانَ تَوَانِيًا وَعَجْزًا لِأَنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ قَوْلًا وَفِي كُلِّ زَمَانٍ عَمَلًا. وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

يَضَعُ ٱلْحَدِيثَ عَلَى مَوَاضِعِهِ   وَكَلَامُهُ مِنْ بَعْدِهَا نَزْرُ

وَامَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ انْ يَقْتَصِرَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِ. فَانَّ ٱلْكَلَامَ انْ لَمْ يَنْحَصِرْ بِٱلْحَاجَةِ وَلَمْ يُقَدَّرْ بِٱلْكِفَايَةِ لَمْ يَكُنْ لِحَدِّهِ غَايَةٌ وَلَا لِقَدْرِهِ نِهَايَةٌ وَمَا لَمْ يَكُنْ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُورًا كَانَ حَصَرًا وَإِنْ قَصُرَ وَهَذَرًا وَإِنْ كَثُرَ. وَرُوِيَ: انَّ اعْرَابِيًّا تَكَلَّمَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ وَطَوَّلَ فَقَالَ لَهُ: كَمْ دُونَ لِسَانِكَ مِنْ حِجَابٍ. قَالَ: شَفَتَايَ وَلِسَانِي. قَالَ: فَإِنَّ ٱللّٰهَ عَزَّ وَجَلَّ يَكْرَهُ ٱلِانْبِعَاقَ فِي ٱلْكَلَامِ فَنَضَّرَ ٱللّٰهُ وَجْهَ امْرِئٍ اوْجَزَ فِي كَلَامِهِ فَٱقْتَصَرَ عَلَى حَاجَتِهِ. وَحُكِيَ انَّ بَعْضَ ٱلْحُكَمَاءِ رَأَى رَجُلًا يُكْثِرُ ٱلْكَلَامَ وَيُقِلُّ ٱلسُّكُوتَ فَقَالَ: انَّ ٱللّٰهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ لَكَ اذُنَيْنِ وَلِسَانًا وَاحِدًا لِيَكُونَ مَا تَسْمَعُهُ ضِعْفَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ

كَثُرَتْ آثَامُهُ . وَقَالَ ٱبْنُ مَسْعُودٍ : أُنذِرُكُمْ فُضُولَ ٱلْمَنْطِقِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : كَلَامُ ٱلْمَرْءِ بَيَانُ فَضْلِهِ وَتَرْجُمَانُ عَقْلِهِ فَٱقْصِرْهُ عَلَى ٱلْجَمِيلِ وَٱقْتَصِرْ مِنْهُ عَلَى ٱلْقَلِيلِ وَإِيَّاكَ مَا يُسْخِطُ سُلْطَانَكَ وَيُوحِشُ إِخْوَانَكَ. فَمَنْ أَسْخَطَ سُلْطَانَهُ تَعَرَّضَ لِلْمَنِيَّةِ . وَمَنْ أَوْحَشَ إِخْوَانَهُ تَبَرَّأَ مِنَ ٱلْحُرِّيَّةِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ :

وَزِنِ ٱلْكَلَامَ إِذَا نَطَقْتَ فَإِنَّمَا ... يُبْدِي عُيُوبَ ذَوِي ٱلْعُيُوبِ ٱلْمَنْطِقُ

وَلِمُخَالَفَةِ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ حَالَتَانِ : تَقْصِيرٌ يَكُونُ حَصَرًا وَتَكْثِيرٌ يَكُونُ هَذَرًا . وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَشَيْنُ ٱلْهَذَرِ أَشْنَعُ وَرُبَّمَا كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ أَخْوَفَ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : مَقْتَلُ ٱلرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْهِ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : ٱلْحَصَرُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْهَذَرِ لِأَنَّ ٱلْحَصَرَ يُضْعِفُ ٱلْحُجَّةَ وَٱلْهَذَرَ يُتْلِفُ ٱلْمُحَجَّةَ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

رَأَيْتُ ٱللِّسَانَ عَلَى أَهْلِهِ ... إِذَا سَاسَهُ ٱلْجَهْلُ لَيْثًا مُغِيرَا

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ : يَا رُبَّ أَلْسِنَةٍ كَٱلسُّيُوفِ تَقْطَعُ أَعْنَاقَ أَصْحَابِهَا وَمَا يَنْقُصُ مِنْ هَيْئَاتِ ٱلرِّجَالِ يَزِيدُ فِي بَهَائِهَا وَأَلْبَابِهَا . وَقَدْ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ ٱلْكَلَامَ إِذَا كَثُرَ عَنْ قَدْرِ ٱلْحَاجَةِ وَزَادَ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ وَكَانَ صَوَابًا لَا يَشُوبُهُ خَطَلٌ وَسَلِيمًا لَا يَتَعَوَّدُهُ زَلَلٌ فَهُوَ ٱلْبَيَانُ وَٱلسِّحْرُ ٱلْحَلَالُ . وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ وَقَدْ ذُمَّ ٱلْكَلَامُ فِي مَجْلِسِهِ : كَلَّا إِنَّ مَنْ تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَسْكُتَ فَيُحْسِنَ وَلَيْسَ مَنْ سَكَتَ فَأَحْسَنَ قَدَرَ عَلَى أَنْ يَتَكَلَّمَ فَيُحْسِنَ . وَوَصَفَ بَعْضُهُمُ ٱلْكَاتِبَ فَقَالَ : مَنْ إِذَا أَخَذَ شِبْرًا كَفَاهُ وَإِذَا وَجَدَ طُومَارًا

أملاه . وأنشد بعضهم في خطباء إياد :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وقال الهيثم بن صالح لابنه : يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب . فقال : يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت (يعني كلاما وصوابا) . فقال : يا بني ما رأيت موعوظا أحق بأن يكون واعظا منك . وأنشدت لأبي الفتح البستي :

تكلم وسدد ما استطعت فإنما كلامك حي والسكوت جماد
فإن لم تجد قولا سديدا تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

وقيل لإياس بن معاوية : ما فيك عيب إلا كثرة الكلام . فقال : أفتسمعون صوابا أو خطأ . قالوا : لا بل صوابا . قال : فالزيادة من الخير خير . وقال أبو عثمان الجاحظ : للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال فذلك الفاضل هو الهذر . وصدق أبو عثمان لأن الإكثار منه وإن كان صوابا يمل السامع ويكل الخاطر وهو صادر عن إعجاب به لولاه قصر عنه . ومن أعجب بكلامه استرسل فيه والمسترسل في الكلام كثير الزلل دائم العثار . وقال بعض الحكماء : من أعجب بقوله أصيب بعقله وليس لكثرة الهذر رجاء يقابل خوفه ولا نفع يوازي ضرره لأنه يخاف من نفسه الزلل ومن سامعيه الملل وليس في مقابلة هذين حاجة داعية ولا نفع مرجو . قال جعفر بن يحيى : إذا كان الإيجاز كافيا كان الإكثار عيا وإن

كَانَ ٱلْإِكْثَارُ وَاجِبًا كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ عَجْزًا. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ: إِذَا تَمَّ ٱلْعَقْلُ نَقَصَ ٱلْكَلَامُ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ: مَنْ أَطَالَ صَمْتَهُ ٱجْتَلَبَ مِنَ ٱلْهَيْبَةِ مَا يَنْفَعُهُ وَمِنَ ٱلْوَحْشَةِ مَا لَا يَضُرُّهُ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: عِيٌّ تَسْلَمُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنْ مَنْطِقٍ تَنْدَمُ عَلَيْهِ فَٱقْتَصِرْ مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى مَا يُقِيمُ حُجَّتَكَ وَيُبْلِغُ حَاجَتَكَ وَإِيَّاكَ وَفُضُولَهُ فَإِنَّهُ يُزِلُّ ٱلْقَدَمَ وَيُورِثُ ٱلنَّدَمَ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْفُصَحَاءِ: فَمُ ٱلْعَاقِلِ مُلْجَمٌ إِذَا هَمَّ بِٱلْكَلَامِ أَحْجَمَ وَفَمُ ٱلْجَاهِلِ مُطْلَقٌ كُلَّمَا شَاءَ أَطْلَقَ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

إِنَّ ٱلْكَلَامَ يُعِدُّ ٱلْقَوْمَ جَلْوَتَهُ   حَتَّى يَلِجَّ بِهِ عِيٌّ وَإِكْثَارُ

وَأَمَّا (ٱلشَّرْطُ ٱلرَّابِعُ) وَهُوَ ٱخْتِيَارُ ٱللَّفْظِ ٱلَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ فَلِأَنَّ ٱللِّسَانَ عُنْوَانُ ٱلْإِنْسَانِ يُتَرْجِمُ عَنْ مَجْهُولِهِ وَيُبَرْهِنُ عَنْ مَحْصُولِهِ فَيَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ بِتَهْذِيبِ أَلْفَاظِهِ حَرِيًّا وَتَقْوِيمِ لِسَانِهِ مَلِيًّا. وَقَالَ خَالِدُ ٱبْنُ صَفْوَانَ: مَا ٱلْإِنْسَانُ لَوْلَا ٱللِّسَانُ هَلْ إِلَّا بَهِيمَةٌ مُهْمَلَةٌ أَوْ صُورَةٌ مُمَثَّلَةٌ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: ٱللِّسَانُ وَزِيرُ ٱلْإِنْسَانِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: يُسْتَدَلُّ عَلَى عَقْلِ ٱلرَّجُلِ بِقَوْلِهِ وَعَلَى أَصْلِهِ بِفِعْلِهِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

وَإِنَّ لِسَانَ ٱلْمَرْءِ مَا لَمْ تَكُنْ لَهُ   حَصَاةٌ عَلَى عَوْرَاتِهِ لَدَلِيلُ

وَلَيْسَ يَصِحُّ ٱخْتِيَارُ ٱلْكَلَامِ إِلَّا لِمَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِٱلْبَلَاغَةِ وَكَلَّفَهَا لُزُومَ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى يَصِيرَ مُتَدَرِّبًا بِهَا مُعْتَادًا لَهَا فَلَا يَأْتِيَ بِكَلَامٍ مُسْتَكْرَهِ ٱللَّفْظِ وَلَا مُخْتَلِّ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ عَلَى مَعَانٍ

مفْرَدَةٍ ولا لِالْفَاظِها غايَةٌ . وَإنما ٱلْبلَاغَةُ انْ تَكُونَ بِٱلْمَعانِي ٱلصَّحِيحة مُسْتَوْدَعَةً فِي ٱلْفَاظ فصيحة فَتكُونُ فَصَاحَةُ ٱلْالْفَاظِ مَعَ صِحَّةِ ٱلْمعاني هِيَ ٱلبلاغة

البحث السابع

في عيوب الكلام

(عن الجاحظ والعسكري)

(راجع صفحة ٢٨ من علم الادب)

قَال بَعْضُ ٱلاوائل : لَا تَكْمُلُ آلةُ ٱلْبَلِيغ إِلَّا اذا خَلَا كلامُهُ منَ ٱلتكلُّفِ وَسُوء ٱلصنْعَةِ وَكَانَ غَنيًا عَنِ ٱلتأمُّلِ مُتَبَاعِدا عَنِ ٱلْحَشْو . فَقَوْلُهُ : (يَكُونُ سَالِيمًا مِن ٱلتَكلُّف) فَٱلتكلُّفُ طَلبُ ٱلشَّيْء بِصُعُوبَة لِلْجَهْلِ بِطَرَائِقِ طَلَبِهِ بِٱلسُّهُولَة . فَٱلكَلَامُ اذا جُمِعَ بِتَعَبٍ وَجُهْدٍ وَتُنُوِّلَتْ ٱلْفَاظُهُ مِنْ بُعْدٍ فَهُوَ مُتَكَلَّفٌ . وَقَالُوا : لَيس ٱلْفِقْهُ بِٱلتفقُّهِ وَلَا ٱلْفَصَاحَةُ بِٱلتَّفَصُّحِ لِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ مُتَزَيّدٌ فِي كَلَامِهِ إِلَّا لِنَقْصٍ يَجِدُهُ فِي نفسِهِ . وَمِمَّا ٱتفقتْ عَلَيْهِ ٱلعَرَبُ وَٱلْعَجَمُ قَوْلُهُمْ : ٱلطَّبْعُ املَكُ . قَالَ ٱلْعَرْجِيُّ :

يَا أَيُّهَا ٱلْمُتَحَلِّي غَيْرَ شِيمَتِهِ ... وَمَنْ شَمَائِلُهُ ٱلتَّبْدِيلُ وَٱلْمَلَقُ
ارْجِعْ الَى خُلُقِكَ ٱلْمَعْرُوفِ دَيْدَنُهُ ... إِنَّ ٱلتَّخَلُّقَ يَأْتِي دُونَهُ ٱلْخُلُقُ

وَقَالَ آخرُ :

وَمَنْ يَبْتَدِعْ مَا لَيْسَ مِنْ سُوسِ نَفْسِهِ ... يَدَعْهُ وَيَغْلِبْهُ عَلَى ٱلنَّفْسِ خِيمُهَا

وَقَالَ آخرُ :

كُلُّ امْرِئٍ رَاجِعٌ يوماً لشيمتِهِ   وَإِنْ تخلقَ أخلاقاً الى حِينِ

وَمِثالُ التكلفِ قَوْلُ بعضِهِمْ فِي دُعَائِهِ : اَللهُمَّ رَبنا وَإِلهنا مَنْ أَرادَ بنا سُوءاً فَأَحِطْ ذَلِكَ السُّوءَ بِهِ وارْسِخْهُ فِيهِ كرُسُوخِ السجِّيلِ فِي أَصحابِ الفيلِ. وَانْصُرْنا عَلَى كُلِّ بَاغٍ وَحسودٍ كما انتصرْتَ لناقةِ ثمودٍ. ثُمَّ قَال : (بَرِيئاً مِنْ سُوءِ الصنْعَة) فسوءُ الصّنْعَةِ يتصرفُ عَلَى وُجُوهٍ مِنها : سُوءُ التقْسِيمِ وفسادُ التفسيرِ وَقُبْحُ الاسْتِعارة وَالتطْبِيقِ وَفسادُ النسجِ وَالسبكِ . فإذا أَخلَّ الكاتبُ بذلك فَاتَتْهُ فضيلتُهُ وعَلقتْ بِه رذيلَةُ فَوْتِهِ فعفى عَلَى جَمِيعِ مَحاسِنِه وعمى سائرَ فضائِلِهِ . لِأَنَّهُ اذا لَمْ يفرقْ بَيْنَ كلام جَيدٍ وَآخرِ رَدِيءٍ وَلفظ حَسنٍ وآخرَ قَبيحٍ وشعرٍ نادرٍ وَآخرَ باردٍ بَانَ جهلُهُ وظهرَ نَقْصُهُ. وَهُوَ أَيضا اذا ارادَ انْ يَصْنعَ قَصِيدَةً أَوْ يُنشئَ رسَالةً وَقدْ فاتَهُ هـذا العلمْ مَزَجَ الصّفوَ بالكدرِ وَخَاطَ الغُرَرَ بِالْعُورِ وَاسْتعملَ الوحْشِيّ العكرَ فجعلَ نَفسهُ مَهْزَاةً لِلجَاهِلِ وَعبْرَة للعاقِلِ . وَإِذَا اراد أَيضاً تَصْنِيفَ كلَامٍ مَنْثُورٍ اوْ تأْلِيفَ شِعْرٍ مَنْظُومٍ وتخطى حُسْنَ الصّنْعَة سَاءَ اخْتِيارُهُ لهُ و قُبِحتْ آثارُهُ فيهِ فاخذَ الرديءَ المرْذُولَ وَترَكَ الجَيِّدَ المقْبُولَ فَدَلَّ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَتَأَخرِ مَعْرِفتِهِ وَعلْمِهِ . وَقَدْ قِيلَ : اخْتِيَارُ الرَّجُلِ قطْعَةٌ مِنْ عِلْمِهِ . وَمَا أَكْثَرَ مَا وَقعَ منْ عُلمَاءِ العَرَبِيَةِ فِي هٰذِهِ الرَّذِيلَةِ . وَقوْلُهُ : (بَرِيئًا مِنَ التعْقيد) فَالتعْقيدُ وَالإغلاقُ سَوَاءٌ وهُوَ اسْتِعْمَالُ الوَحشِيّ وَشِدَّةُ تعْلِيقِ الكلام بعضِهِ بِبَعْضٍ حَتى يَسْتَبِهمَ المَعْنَى .

قال حبيبٌ الطائيُّ :

فما لك بالغريب يدٌ ولكنْ　　تعاطيك الغريبَ من الغريبِ

أمَا لو ان جهلك عادَ علماً　　اذا لرسختَ في علمِ الغيوبِ

قال آخرُ يمدحُ رجلاً باستسهالِ اللفظ :

قولٌ كأنَّ فرنــدهُ　　سحرٌ على ذهنِ اللبيب

لم يشمئزَّ على اللسا　　نِ ولا يشذُّ على القلوب

لم يغلُ في شنعِ اللغا　　تِ ولا يوحّشُ بالغريبِ

وقولُه : (غنيًا عن التأمل) اي هوَ مستغنٍ لوضوحِه عن تأملِ معانيهِ وترديدِ النظرِ فيه . قالَ الجاحظُ : انَّ مَن اعارَه اللهُ مِن معونته نصيبا وافرغَ عليه مِن محبتِه ذنوبًا حبّبَ اليهِ المعاني وسلّسَ له نظامَ اللفظِ وكانَ قبل قد اعفى المستمعَ من كدِّ التلطّف واراحَ قارئ الكتابِ من كدِّ التفهّم . وقد قيلَ : انَّ البلاغةَ التقرّبُ منَ المعنى البعيدِ والتباعدُ من حشوِ الكلامِ وقربُ المأخذِ وايجازٌ في صوابٍ وقصدٌ الى الحجةِ وحسنُ الاستعارةِ . ومثلُه قولُ الآخرِ : البلاغةُ تقريبُ ما بعدَ منَ الحكمةِ بايسرِ الخطابِ والتقرّبُ منَ المعنى البعيدِ . وهوَ ان يعمدَ الى المعنى اللطيفِ فيكشفه وينفي الشواغلَ عنهُ فيفهمه السامعُ من غيرِ فكرٍ فيه وتدبّرٍ له . وقولُه : (متباعدا من الحشوِ) فالحشوُ على ثلاثةِ اضربٍ : اثنانِ منها مذمومانِ وواحدٌ محمودٌ . فاحدُ المذمومينِ هوَ : ادخالُك في الكلامِ لفظًا لو اسقطتَه لكانَ الكلامُ تاما . مثلُ قولِ الشاعرِ :

اَعنِي مَتى لَمْ تَذُرّ اَلشَّمْس طَالِعَةً يَوْمًا مِنَ اَلدَّهرِ اِلَّا ضرّ اَوْ نَفعا

فَقولُهُ : (يوما من اَلدَّهر) حَشْوٌ لَايُحتَاجُ اِلَيهِ لِاَنَّ اَلشَّمسَ لَا تَطْلَعُ لَيــلًا . وَاَلضَّرْبُ اَلآخَرُ اَلعبارَةُ عَنِ اَلمَعنَى بِكَلَام طَويل لا فَائدَةَ فِي طُولِهِ ويُمكِنُ اَنْ يُعبّر بِاَقْصَرَ مِنْهُ كَقَولِ اَلنَّابِغة :

تَبينتُ آيَات لَهَا فَعرَفتُهَــا لِسِتَةِ اعوَام وَذَا اَلْعَامُ سَابِعُ

فَـكَانَ يَنْبغي اَنْ يَقُولَ : اسبْعَةِ اعْوَام . وَيُتِمّ اَلبَيْتَ بِكَلَام آخَرَ يكُون فِيهِ فَائدَةٌ فعجَزَ عَنْ ذٰلكَ فحشا اَلبيْت بِمَا لَا وجهَ لهُ . وَامّا اَلضَّرْبُ اَلمحْمُودُ فـكَقَولِ كُثَيّر :

لَوَ اَنَّ اَلباخِلِين وَاَنتَ مِنْهُمْ رَاوْكَ تَعَلّمُــوا مِنْكَ اَلمِطَالا

قوْلهُ : (وَاَنتَ مِنهُمْ) حَشْوٌ اِلَّا اَنَّهُ مَلِيحٌ وَيُسمّي اهْلُ اَلصنعَةِ هٰذَا اَلجِنْسَ اَعتِرَاضَ كلام فِي كَلَام . ومنهُ قَوْل اَلآخَر :

اِنَّ اَلثمَانِــين وَبلّغتهَــا قَدْ اَحوَجتْ سَمْعي اِلَى تَرْجُمَانْ

البحث الثامن

في الالتباس والاسباب المانعة من فهم المعاني

(عن الماوَردي باختصار)

اِنْ لَمْ يَفهَمِ اَلعاقِلُ مَعَانِي مَا سَمِعَ كشَفَ عَنِ اَلسَّبَبِ اَلمانِعِ مِنهَا لِيعْلَمَ اَلعلةَ فِي تَعَذُرِ فهْمِهَا فَاِنّ بِمَعرِفَةِ اَسبابِ اَلاَشْيَاء وَعِللِها يَصِلُ الى تَلَافِي مَا شَذَّ وَصَلاح مَا فسدَ وَلَيسَ يَخــلُو اَلسَّببُ اَلمَانِعُ مِنْ ذٰلــكَ مِنْ ثَلَاثَةِ اَقسامٍ : اِما اَنْ يَكُونَ بعلّةٍ فِي اَلـكَلام

ٱلْمُتَرْجِمِ عَنْهَا. وَامَّا انْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي ٱلْمُسْتَوْدَعِ فِيهَا. وَامَّا انْ يَكُونَ لِعِلَّةٍ فِي ٱلسَّامِعِ ٱلْمُسْتَخْرِجِ . فَانْ كَانَ ٱلسَّبَبُ ٱلْمَانِعُ مِنْ فَهْمِهَا لِعِلَّةٍ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَرْجِمِ عَنْهَا لَمْ يَخْلُ ذٰلِكَ مِنْ ثَلَاثَةِ احْوَالٍ: (احَدُهَا) انْ يَكُونَ لِتَقْصِيرِ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَصِيرَ تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى سَبَبًا مَانِعًا مِنْ فَهْمِ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا يَكُونُ مِنْ احَدِ وَجْهَيْنِ: امَّا مِنْ حَصَرِ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَعِيِّهِ. وَامَّا مِنْ بَلَادَتِهِ وَقِلَّةِ فَهْمِهِ . (ٱلْحَالُ ٱلثَّانِي) انْ يَكُونَ لِزِيَادَةِ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى فَتَصِيرَ ٱلزِّيَادَةُ عِلَّةً مَانِعَةً مِنْ فَهْمِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْهُ وَهٰذَا قَدْ يَكُونُ مِنْ احَدِ وَجْهَيْنِ : امَّا مِنْ هَذَرِ ٱلْمُتَكَلِّمِ وَاكْثَارِهِ . وَامَّا لِسُوءِ ظَنِّهِ بِفَهْمِ سَامِعِهِ . (وَٱلْحَالُ ٱلثَّالِثُ) انْ يَكُونَ لِمُوَاضَعَةٍ يَقْصِدُهَا ٱلْمُتَكَلِّمُ بِكَلَامِهِ فَاذَا لَمْ يَعْرِفْهَا ٱلسَّامِعُ لَمْ يَفْهَمْ مَعَانِيَهَا . وَامَّا تَقْصِيرُ ٱللَّفْظِ وَزِيَادَتُهُ فَمِنَ ٱلْاسْبَابِ ٱلْخَاصَّةِ دُونَ ٱلْعَامَّةِ لِانَّكَ لَسْتَ تَجِدُ ذٰلِكَ عَامًّا فِي كُلِّ ٱلْكَلَامِ وَانَّمَا تَجِدُهُ فِي بَعْضِهِ فَاذَا عَدَلْتَ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُقَصِّرِ الَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُسْتَوْفِي وَعَنِ ٱلزَّائِدِ الَى ٱلْكَافِي ارَحْتَ نَفْسَكَ مِنْ تَكَلُّفِ مَا يَكُدُّ خَاطِرَكَ وَانْ اقَمْتَ عَلَى ٱسْتِخْرَاجِهِ امَّا لِضَرُورَةٍ دَعَتْكَ الَيْهِ عِنْدَ اعْوَازِ غَيْرِهِ اوْ لِحَمِيَّةٍ دَاخَلَتْكَ عِنْدَ تَعَذُّرِ فَهْمِهِ فَٱنْظُرْ فِي سَبَبِ ٱلزِّيَادَةِ وَٱلتَّقْصِيرِ . فَانْ كَانَ ٱلتَّقْصِيرُ لِحَصَرٍ وَٱلزِّيَادَةُ لِهَذَرٍ سَهُلَ عَلَيْكَ ٱسْتِخْرَاجُ ٱلْمَعْنَى لِانَّ مَا لَهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَحْصُولٌ لَا يَجُوزُ انْ يَكُونَ ٱلْمُخْتَلُّ مِنْهُ اكْثَرَ مِنَ ٱلصَّحِيحِ وَفِي ٱلْاكْثَرِ عَلَى ٱلْاقَلِّ دَلِيلٌ . وَانْ كَانَتْ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى

دَليلًا بِسُوءِ ظَنّ ٱلْمُتَكَلِّم بِفَهْمِ ٱلسَّامِعِ كَانَ ٱسْتِخْرَاجُهُ اسهلَ . وَإنْ كانَ تقصيرُ ٱللفظِ عَنِ ٱلمعْنَى لِسُوءِ فَهْمِ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَهُوَ اَصْعبُ ٱلأُمُورِ حَالًا وَأَبْعَدُهَا ٱسْتِخْرَاجًا لِأَنَّ مَا لَمْ يَفْهمهُ مُكَلِّمُكَ فأَنتَ مِنْ فَهْمِهِ اَبعَدُ إِلَّا اَنْ يَكُونَ بِفَرْطِ ذَكَائِكَ وَجُودَةِ خَاطِرِكَ تَتَنَبَّهُ بِاشَارَتِهِ عَلَى ٱسْتِنْبَاطِ مَا عَجَزَ عَنْهُ وَٱسْتِخْرَاجِ مَا قَصَّرَ فِيهِ فَتَكُونُ فَضِيلَةُ ٱلِاسْتِيفَاءِ لَكَ وَحَقُّ ٱلتَّقَدُّمِ لَهُ . وَاَمَّا ٱلْمُوَاضَعَةُ فَضَرْبَانِ : عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ. (اَمَّا ٱلعَامَّةُ) فهيَ مُوَاضعةُ ٱلْعُلَمَاءِ فيما جعلوهُ ٱلقابًا لِمعانٍ لا يَسْتَغْنِي ٱلْمُتَعَلِّمُ عنها وَلَا يَقِفُ عَلَى معْنَى كَلَامِهِم الَّا بها كما جعلَ ٱلْمُتَكَلِّمُونَ ٱلجَوَاهِرَ وَٱلأَعْرَاضَ وَٱلأَجسامَ ٱلقَابًا تواضعُوها لِمعَانٍ ٱتَّفَقُوا عَلَيْهَا . وَلَسْتَ تَجِدُ مِنَ ٱلعُلومِ عِلْمًا يَخْلُو مِنْ هٰذا . وَهٰذه ٱلْمُوَاضَعَةُ ٱلعَامَّةُ تُسَمَّى عُرْفًا . (وَاَمَّا ٱلخَاصَّةُ) فَمُوَاضَعَةُ ٱلْوَاحِد يَقْصِدُ بِبَاطِنِ كَلَامِهِ غيرَ ظَاهِرِهِ . فَاِذَا كَانَتْ فِي ٱلكَلَامِ كَانَتْ رَمْزًا . وَإِنْ كَانَتْ فِي ٱلشِّعْرِ كَانتْ لُغْزًا . فامَّا ٱلرَّمْزُ فَلَسْتَ تَجِدُهُ فِي عِلْمٍ مَعْنَوِيٍّ . وَلَا فِي كَلَامٍ لُغَوِيٍّ . وَإِنَّمَا يَخْتَصُّ غَالبًا بِاحَدِ شَيْئَيْنِ : إِمَّا بِمَذْهَبٍ شَنِيعٍ يُخْفِيهِ مُعْتَقِدُهُ وَيَجْعَلُ ٱلرَّمْزَ سَبَبًا لِتَطَلُّعِ ٱلنُّفُوسِ إِلَيْهِ وَٱحْتِمَالِ ٱلتَّأْوِيلِ فِيهِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلتُّهْمَةِ عَنْهُ . وَإِمَّا لِمَا يَدَّعِي اَرْبَابُهُ اَنَّهُ عِلْمٌ مُعْوِزٌ . وَاَنَّ اِدْرَاكَهُ بَدِيعٌ مُعْجِزٌ كَالصَّنْعَةِ ٱلَّتِي وَضَعَهَا اَرْبَابُهَا ٱسْمًا لِعِلْمِ ٱلكِيمِيَاءِ فَرَمَزُوا بِاَوْصَافِهِ وَاَخْفَوْا مَعَانِيَهُ لِيُوهِمُوا ٱلشُّحَّ بِهِ وَٱلأَسَفَ عَلَيْهِ خَدِيعَةً لِلْعُقُولِ ٱلْوَاهِيَةِ وَٱلآرَاءِ ٱلْفَاسِدَةِ . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى ٱلْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا ... مُنِعَتْ شَيْئًا فَأَكْثَرْتُ ٱلْوُلُوعَ بِهِ

ثُمَّ لِيَكُونُوا بُرَآءَ مِنْ عُهْدَةِ مَا قَالُوهُ إِذَا جُرِّبَ وَلَوْ كَانَ مَا تَضَمَّنَ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ وَأَشْبَاهَهُمَا مِنَ ٱلرُّمُوزِ مَعْنًى صَحِيحًا وَعِلْمًا مُسْتَفَادًا لَخَرَجَ مِنَ ٱلرَّمْزِ ٱلْخَفِيِّ إِلَى ٱلْعِلْمِ ٱلْجَلِيِّ . فَإِنَّ أَغْرَاضَ ٱلنَّاسِ مَعَ ٱخْتِلَافِ أَهْوَائِهِمْ لَا تَتَّفِقُ عَلَى سَتْرِ سَامٍ وَإِخْفَاءِ مُفِيدٍ . وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ :

ٱلسِّتْرُ دُونَ ٱلْفَاحِشَاتِ وَلَا ... يَلْقَاكَ دُونَ ٱلْخَيْرِ مِنْ سِتْرِ

وَرُبَّمَا ٱسْتَعْمَلَ ٱلرَّمْزَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِيمَا يُرَادُ تَفْخِيمُهُ مِنَ ٱلْمَعَانِي وَتَعْظِيمُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ لِيَكُونَ أَحْلَى فِي ٱلْقَلْبِ مَوْقِعًا . وَأَجَلَّ فِي ٱلنُّفُوسِ مَوْضِعًا . فَيَصِيرَ بِٱلرَّمْزِ سَائِرًا وَفِي ٱلصُّحُفِ مُخَلَّدًا . كَٱلَّذِي حُكِيَ عَنْ فِيثَاغُورْسَ فِي وَصَايَاهُ ٱلْمَرْمُوزَةِ أَنَّهُ قَالَ : ٱحْفَظْ مِيزَانَكَ مِنَ ٱلنَّدَى وَأَوْزَانَكَ مِنَ ٱلصَّدَى . يُرِيدُ بِحِفْظِ ٱلْمِيزَانِ مِنَ ٱلنَّدَى حِفْظَ ٱللِّسَانِ مِنَ ٱلْخَنَا وَبِحِفْظِ ٱلْأَوْزَانِ مِنَ ٱلصَّدَى حِفْظَ ٱلْعَقْلِ مِنَ ٱلْهَوَى. فَصَارَ بِهٰذَا ٱلرَّمْزِ مُسْتَحْسَنًا وَمُدَوَّنًا وَلَوْ قَالَهُ بِٱللَّفْظِ ٱلصَّرِيحِ وَٱلْمَعْنَى ٱلصَّحِيحِ لَمَا سَارَ عَنْهُ وَلَا ٱسْتُحْسِنَ مِنْهُ . وَعِلَّةُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمَحْجُوبَ عَنِ ٱلْأَفْهَامِ كَٱلْمَحْجُوبِ عَنِ ٱلْأَبْصَارِ فِيمَا يَحْصُلُ لَهُ فِي ٱلنُّفُوسِ مِنَ ٱلتَّعْظِيمِ . وَفِي ٱلْقُلُوبِ مِنَ ٱلتَّفْخِيمِ . وَمَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَمْ يَحْتَجِبْ هَانَ وَٱسْتُرْذِلَ . وَهٰذَا إِنَّمَا يَصِحُّ ٱسْتِحْلَاؤُهُ فِيمَا قَلَّ وَهُوَ بِٱللَّفْظِ ٱلصَّرِيحِ مُسْتَقِلٌّ. فَأَمَّا ٱلْعُلُومُ ٱلْمُنْتَشِرَةُ ٱلَّتِي تَتَطَلَّعُ ٱلنُّفُوسُ إِلَيْهَا فَقَدِ ٱسْتَغْنَتْ بِقُوَّةِ ٱلْبَاعِثِ عَلَيْهَا. وَشِدَّةِ ٱلدَّاعِي إِلَيْهَا . عَنِ ٱلِٱسْتِدْعَاءِ إِلَيْهَا بِرَمْزٍ مُسْتَحْلًى وَلَفْظٍ مُسْتَغْرَبٍ. بَلْ ذٰلِكَ مُنَفِّرٌ لِمَا فِي ٱلتَّشَاغُلِ بِٱسْتِخْرَاجِ

رموزها من الابطاء عن دركها فهذا حال الرمز . واما اللغز فهو تحري اهل الفراغ وشغل ذوي البطالة ليتنافسوا في تباين قرائحهم ويتفاخروا في سرعة خواطرهم فيستكدوا خواطر قد منحوا صحتها فيما لايجدي نفعا ولا يفيد علما كاهل الصراع الذين قد صرفوا ما منحوه من صحة اجسامهم الى صراع كدود يصرع عقولهم ويهد اجسامهم ولا يكسبهم حمدا ولا يجدي عليهم نفعا . انظر الى قول الشاعر :

رجل مات وخلف رجلا　　ابن ام ابن ابي اخت ابيه

معه ام بني اولاده　　وابا اخت بني عم اخيه

اخبرني عن هذين البيتين وقد روعك صعوبة ما تضمنهما من السؤال اذا استكديت الفكر في استخراجه فعلمت انه اراد ميتا خلف ابا وزوجة وعما . ما الذي افادك من العلم ونفى عنك من جهل . الست بعد علمه تجهل ما كنت جاهلا من قبله ولو ان السائل قلب لك السؤال فاخر ما قدم وقدم ما اخر لكنت في الجهل به قبل استخراجه كما كنت في الجهل الاول وقد كددت نفسك واتعبت خاطرك . ثم لا تعدم ان يرد عليك مثل هذا مما تجهله فتكون فيه كما كنت قبله . فاصرف نفسك تولى الله رشدك عن علوم النوكى وتكلف البطالين . ثم اجعل ما من الله به عليك من صحة القريحة وسرعة الخاطر مصروفا الى علم ما يكون انفاق خاطرك فيه مذخورا وكد فكرك فيه مشكورا . وقال بعض البلغاء : من امضى يومه بغير حق قضاه . او فرض اداه . او مجد اثله .

اَوْ حمدٍ حصّلَهُ . اَوْ خيرٍ اسسهُ اَوْ عِلمٍ اقتبسهُ . فقدْ عقّ يومَهُ وظلمَ نفسهُ . وقال بعضُ الشُّعراءِ :

لقدْ هاجَ الفراغُ عليكَ شُغلا وَاسبابُ البلاءِ من الفراغِ

فهذا تعليلُ ما في الكلامِ من الاسبابِ المانعة من فهمِ معانيه حتى خرجَ بنا الاستيفاءُ والكشفُ الى الاغماضِ . (وَامّا القسمُ الثاني) وهوَ ان يكونَ السببُ المانعُ من فهمِ السامعِ لعلّة في المعنَى المستودَعِ فلا يخلو حالُ المعنَى من ثلاثة اقسام : اِمّا انْ يكونَ مستقلاً بنفسهِ او يكونَ مقدمة لغيره اَوْ يكونَ نتيجةً من غيرهِ . فَامّا المستقلُ بنفسه فضربانِ : جليٌّ وخفيٌّ . فاما الجلي فهوَ يسبقُ الى فهمِ متصوّرِه من اوّلِ وهلةٍ . وليسَ هوَ من اقسامِ ما يشكلُ على مَنْ تصوّرهُ . وَامّا الخفيُّ فيحتاجُ في اِدراكه اِلى زِيادةِ تأمّلٍ وفضلِ معاناةٍ ليتجلى عما اخفى وينكشفَ عمّا اغمضَ . وباستعمالِ الفكرِ فيه يكونُ الارتياضُ بهِ وبالارتياضِ بهِ يسهلُ منهُ ما استصعبَ ويقرُبُ منهُ ما بعدَ . فانَّ الرياضةِ جراءةً وللدرايةِ تأثيرا . وَامّا ما كانَ مقدّمةً لغيرهِ فضربانِ : احدُهما انْ تقومَ المقدّمةُ بنفسها وَانْ تعدّتْ الى غيرِهَا فتكونَ كالمستقلِ بنفسه في تصورِه وفهمِهِ مستدعيا لنتيجتهِ . والثاني انْ يكونَ مفتقرا الى نتيجةٍ فيتعذّرَ فهمُ المقدّمة الّا بما يتبعُها من النتيجةِ لانّها تكونُ بعضا . وتبعيضُ المعنَى اشكلُ لهُ وبعضهُ لا يغني عن كلهِ . وَامّا ما كانَ نتيجةً لغيرهِ فهوَ لا يُدركُ الّا باوّلِهِ ولا يُتصوّرُ على حقيقتهِ

إلا بمقدمته والاشتغال به قبل المقدمة عناء. وإتعاب الفكر في استنباطه قبل قاعدته أذى. فهذا يوضح تعليل ما في المعاني من الأسباب المانعة من فهمها. (وأما القسم الثالث) وهو أن يكون السبب المانع لعلة في المستمع فذلك ضربان: أحدهما من ذاته. والثاني من طارٍ عليه. (فأما ما كان من ذاته) فيتنوع نوعين: أحدهما ما كان مانعا من تصور المعنى. والثاني ما كان مانعا من حفظه بعد تصوره وفهمه. فأما ما كان مانعا من تصور المعنى وفهمه فهو البلادة وقلة الفطنة وهو الداء العياء. وقد قال بعض الحكماء: إذا فقد العالم الذهن قل على الأضداد احتجاجه. وكثر إلى الكتب احتياجه. وليس لمن بلي به إلا الصبر والإقلال. لأنه على الإقلال أقدر. وبالصبر أحرى أن ينال ويظفر. وأما المانع من حفظه بعد تصوره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير وإهمال التواني فينبغي لمن بلي به أن يستدرك تقصيره بكثرة الدرس ويوقظ غفلته بإدامة النظر. فقد قيل: لا يدرك العلم من لا يطيل درسه ويكد نفسه. وكثرة الدرس كدود لا يصبر عليه إلا من يرى العلم غنما والجهالة مغرما. فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم وينفي عنه معرة الجهل. فإن نيل العظيم بأمر عظيم. وعلى قدر الرغبة تكون المطالب وبحسب الراحة يكون التعب. وقد قيل: طلب الراحة قلة الاستراحة. وقال بعض الحكماء: أكمل الراحة ما كانت عن كد التعب وأعز العلم ما كان عن ذل الطلب...

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ : إِنَّ هٰذِهِ ٱلْآدَابَ نَوَافِرُ تَنِدُّ عَنْ اَهْلِ ٱلْاَذْهَانِ فَٱجْعَلُوا ٱلْكُتُبَ عَنْهَا حُمَاةً . وَٱلْاَقْلَامَ لَهَا رُعَاةً . (وَاَمَّا ٱلطَّوَارِئُ) فَنَوْعَانِ : (اَحَدُهُمَا) شُبْهَةٌ تَعْتَرِضُ ٱلْمَعْنَى فَتَمْنَعُ عَنْ نَفْسِ تَصَوُّرِهِ وَتَدْفَعُ عَنْ اِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . فَيَنْبَغِي اَنْ يُزِيلَ تِلْكَ ٱلشُّبْهَةَ عَنْ نَفْسِهِ بِٱلسُّؤَالِ اَوِ ٱلنَّظَرِ لِيَصِلَ اِلَى تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى وَاِدْرَاكِ حَقِيقَتِهِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ : لَا تُخْلِ قَلْبَكَ مِنَ ٱلْمُذَاكَرَةِ فَتَعُودَ عَقِيمًا . وَلَا تُعْفِ طَبْعَكَ مِنَ ٱلْمُنَاظَرَةِ فَيَعُودَ سَقِيمًا . وَقَالَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

شِفَاءُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّؤَالِ وَاِنَّمَا
دَوَامُ ٱلْعَمَى طُولُ ٱلسُّكُوتِ عَلَى ٱلْجَهْلِ

فَكُنْ سَائِلًا عَمَّا عَنَاكَ فَاِنَّمَا
دُعِيتَ اَخَا عَقْلٍ لِتَبْحَثَ بِٱلْعَقْلِ

(وَٱلثَّانِي) اَفْكَارٌ تُعَارِضُ ٱلْخَاطِرَ فَيَذْهَلُ عَنْ تَصَوُّرِ ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا سَبَبٌ قَلَّ مَا يَعْرَى مِنْهُ اَحَدٌ لَا سِيَّمَا فِيمَنِ ٱنْبَسَطَتْ آمَالُهُ وَٱتَّسَعَتْ اَمَانِيُّهُ . وَقَدْ يَقِلُّ فِيمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي غَيْرِ ٱلْعِلْمِ اَرَبٌ وَلَا فِيمَا سِوَاهُ هِمَّةٌ فَاِنْ طَرَاَتْ عَلَى ٱلْاِنْسَانِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مُكَابَرَةِ نَفْسِهِ عَلَى ٱلْفَهْمِ وَغَلَبَةِ قَلْبِهِ عَلَى ٱلتَّصَوُّرِ لِاَنَّ ٱلْقَلْبَ مَعَ ٱلْاِكْرَاهِ اَشَدُّ نُفُورًا وَاَبْعَدُ قَبُولًا . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْاَثَرِ : بِاَنَّ ٱلْقَلْبَ اِذَا اُكْرِهَ عَمِيَ . وَلٰكِنْ يُعْمَلُ فِي دَفْعِ مَا طَرَاَ عَلَيْهِ مِنْ هَمٍّ مُذْهِلٍ اَوْ فِكْرٍ قَاطِعٍ لِيَسْتَجِيبَ لَهُ ٱلْقَلْبُ مُطِيعًا . وَقَدْ قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَلَيْسَ بِمُغْنٍ فِي ٱلْمَوَدَّةِ شَافِعٌ
اِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَ ٱلضُّلُوعِ شَفِيعُ

وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : اِنَّ لِهٰذِهِ ٱلْقُلُوبِ تَنَافُرًا كَتَنَافُرِ ٱلْوَحْشِ

فَتَأَلَّفُوهَا بِالاقْتِصادِ فِي التَّعْلِيمِ وَالتَّوَسُّطِ فِي التَّقْدِيمِ لِتَحْسُنَ طَاعَتُهَا وَيَدُومَ نَشَاطُهَا. فَهٰذَا تَعْلِيلُ مَا فِي الْمُسْتَمِعِ مِنَ الأَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنْ فَهْمِ الْمَعَانِي

البحث التاسع

في المعاظلة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

إِنَّ الْمُعَاظَلَةَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: تَعَاظَلَتِ الْجَرَادَتَانِ إِذَا رَكِبَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى. فَسُمِّيَ الْكَلَامُ الْمُتَرَاكِبُ فِي أَلْفَاظِهِ وَفِي مَعَانِيهِ الْمُعَاظَلَةَ مَأْخُوذًا مِنْ ذٰلِكَ وَهُوَ اسْمٌ لَائِقٌ بِمُسَمَّاهُ. وَوَصَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ زُهَيْرَ بْنَ أَبِي سُلْمَى فَقَالَ: كَانَ لَا يُعَاظِلُ بَيْنَ الْكَلَامِ. وَقَدِ اخْتَلَفَ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ فِي حَقِيقَةِ الْمُعَاظَلَةِ فَقَالَ قُدَامَةُ ابْنُ جَعْفَرٍ الْكَاتِبُ: التَّعَاظُلُ فِي الْكَلَامِ هُوَ أَنْ يَدْخُلَ بَعْضُ الْكَلَامِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ وَلَا أَعْرِفُ ذٰلِكَ إِلَّا فَاحِشَ الاسْتِعَارَةِ. كَقَوْلِ أَوْسِ بْنِ حُجْرٍ:

وَذَاتِ هِدْمٍ عَارٍ نَوَاشِرُهَا ... تُصْمِتُ بِالْمَاءِ تَوْلَبًا جَدِعَا

فَسَمَّى الظَّبْيَ تَوْلَبًا وَالتَّوْلَبُ وَلَدُ الْحِمَارِ. وَهٰذَا مَا ذَكَرَهُ قُدَامَةُ ابْنُ جَعْفَرٍ وَهُوَ خَطَأٌ إِذْ لَوْ كَانَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ صَوَابًا لَكَانَتْ حَقِيقَةُ الْمُعَاظَلَةِ دُخُولَ الْكَلَامِ فِيمَا لَيْسَ مِنْ جِنْسِهِ. وَلَيْسَتْ حَقِيقَتُهَا هٰذِهِ بَلْ حَقِيقَتُهَا مَا تَقَدَّمَ وَهُوَ التَّرَاكُبُ مِنْ قَوْلِهِمْ: تَعَاظَلَتِ الْجَرَادَتَانِ

إذا رَكِبَتْ إحداهما الأخرى . وهذا المثالُ الذي مثلَ به قُدامةُ لا تراكب في ألفاظِه ولا في معانيه . وأما غيرُ قُدامة فإنه خالفه فيما ذهبَ إليهِ إلّا أنهُ لم يقسمِ المعاظلة إلى لفظيةٍ ومعنويةٍ ولكنهُ ضربَ لها مثلا . كقولِ الفرزدقِ :

وَمَا مِثْلُهُ فِي النَّاسِ إلّا مُمَلَّكًا أبو أمِّهِ حَيٌّ أبوهُ يُقارِبُهْ

وهذا مِنَ القِسْمِ المعنويّ لا مِن القِسْمِ اللفظيّ . ألا ترى إلى تراكب معانيه بتقديم ما كانَ يجبُ تأخيرُهُ وتأخيرِ ما كانَ يجبُ تقديمُهُ لأنَّ الأصلَ في معناهُ : وَمَا مِثْلُهُ فِي الناسِ حَيٌّ يقارِبُهُ إلّا مُمَلَّكًا أبو أمِّهِ أبوهُ . وإذ حَقَّقْتُ القَوْلَ في بيانِ المعاظلةِ والكشفِ عَنْ حقيقتها فأقولُ : إنَّ المعاظلةَ معاظلتانِ لفظيةٌ ومعنويةٌ (فالمعنويةُ) أنْ يُقَدَّمَ ما الأولى بهِ التأخيرُ وهوَ مِنْ عُيوبِ الكلامِ لأنَّ المعنى مُخْتَلٌّ بذلكَ ومضطربٌ وذلكَ كتقديمِ الصفةِ أوْ ما يتعلقُ بها عَلَى الموصوفِ وتقديمِ الصلةِ عَلَى الموصولِ وغيرِ ذلكَ . كقولِ بعضهمْ :

فقدْ والشكُّ بيَّنَ لي عَناءُ بوشْكِ فِراقِهمْ صُرَدٌ يَصيحُ

فإنَّهُ قدمَ قولَهُ (بوشْكِ فِراقِهِمْ) . وهو معمولُ يَصيحُ ويَصيحُ صفةٌ لِصُرد عَلَى صُرَد وذلكَ قَبيحٌ . ألا ترى أنَّهُ لا يَجوزُ أنْ يُقالَ : هذا مِنْ مَوضِعِ كذا رَجلٌ وَرَدَ اليومَ . وإنما يَجوزُ وقوعُ المعمولِ بحيثُ يجوزُ وقوعُ العامل فكما لا يجوزُ تقديمُ الصفةِ عَلَى موصوفها فكذلكَ لا يجوزُ تقديمُ ما اتصلَ بها عَلَى موصوفِها . ومِنْ هذا النحوِ

قَولُ ٱلآخرِ :

فَاَصْبحتْ بَعْدَ خطَّ بهجتها كَاَنَّ قفرًا رُسُومَها قلما

وَاِنهُ قدَّمَ خبرَ كَانَّ عليها وهو قولُهُ : خط . وَهٰذا وَاَمثالُه مِمَّا لَا يجوزُ قِياسٌ عليهِ وَٱلاَصلُ فِي هٰذا ٱلبيتِ (فَاَصْبحتْ بَعْدَ بهجتها قفرا كَانَّ قلما خطَّ رُسومَها) اِلا انهُ عَلَى تِلْكَ ٱلحالةِ ٱلاُولَى فِي ٱلشِّعْرِ مُختلٌ مُضْطربُ . وَٱلْمعاظلَةُ في هٰذَا ٱلبابِ تتفاوتُ درجاتُها فِي ٱلقبحِ وهٰذَا ٱلبيتُ ٱلْمشارُ اِليهِ مِنْ اقبحِها لِاَنَّ معانِيَهُ قَدْ تداخلت وَركبَ بعْضُهَا بعْضا . وَمِمايجْرِي هذا ٱلمجْرَى قولُ ٱلفرزْدقِ :

اِلى مَلكٍ مَا اَمهُ مِنْ مُحاربٍ ابوهُ وَلا كانتْ كُليبٌ تُصاهِرُهْ

(وهوَ يزِيدُ الى مَالك ابوهُ مَا امهُ مِنْ مُحارب) . وَهٰذا اقبحُ مِنَ ٱلاَولِ وَاكثرُ اختلالا . . . وَقدِ ٱستَعملَ ٱلفرزْدقُ مِنَ ٱلتعاظُلِ كثيرًا كانهُ كانَ يقْصِدُ ذلك وَيتعمَّدهُ . لِاَنَّ مِثْلهُ لايجيُّ اَلَّا متكلفًا مَقْصُودَا وِاِلا فاِذَا تَركَ مُؤلفُ ٱلكلَامِ نفسهُ تجْرِي عَلَى سجيتِهَا وطَبْعها فِي ٱلاِسْتِرْسَالِ لمْ يعرِضْ لَهُ شيْءٌ مِنْ هٰذَا ٱلتعقيدِ . اَلا ترَى اَنَّ ٱلمقصودَ مِنَ ٱلكلَامِ مَعدومٌ فِي هٰذَا ٱلضربِ ٱلمشارِ اِليهِ اذِ ٱلمقْصودُ مِنَ ٱلكلامِ انمَا هُوَ ٱلاِيضَاحُ وَٱلاِبَانَةُ وَاِفهامُ ٱلمعْنَى . فَاِذَا ذهبَ هٰذَا ٱلوَصْفُ ٱلمقْصودُ مِنَ ٱلكلامِ ذهبَ ٱلمرَادُ بِهِ وَلَا فرْقَ عنْدَ ذٰلِكَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غيْرِهِ منَ ٱللُّغاتِ كَٱلفارِسِيَّةِ وَٱلهِنْدِيَّةِ وَغيْرِهِمَا . وَٱعْلمْ انَّ هٰذَا ٱلضربَ مِنَ ٱلكلامِ هُوَ ضِدُّ ٱلفصَاحةِ لِاَنَّ ٱلفصَاحةَ هِيَ ٱلظُّهورُ وَٱلبيَانُ وَهٰذَا عارٍ عَنْ هٰذَا ٱلوَصفِ . وَامَّا ٱلقِسْمُ

ٱللفظيّ من ٱلمعاظلة) فاني تاملته بالاستقراء من الاشعار قديمها ومحدثها ومن النظر في حقيقتها نسبًا فوجدتها تنقسم الى خمسة اقسام : (الاول) منها يختص بادوات الكلام . من والى وعن وعلى واشباهها . فان منها ما يسهل النطق به اذا ورد مع اخواته . ومنها ما لا يسهل بل يرد ثقيلا على اللسان ولكل موضع يخصه من السبك . فمما جاء منه قول ابي تمام :

الى خالدٍ راحت بنا ارحبيةٌ ... مرافقها من عن كراكرها نكبُ

فقوله : (من عن كراكرها) من الكلام المتعاظل الذي يثقل النطق به على انه قد وردت هاتان اللفظتان وهما : من وعن في موضع آخر فلم يثقل النطق بهما كقول القائل : من عن يمين الطريق . والسبب في ذلك انهما وردتا في بيت ابي تمام مضافتين الى لفظة الكراكر فثقلت منهما وجعلتهما مكروهتين كما ترى والا فقد وردتا في شعر قطري بن الفجاءة فكانتا خفيفتين كقوله :

ولقد اراني للرماح دريئة ... من عن يميني مرة وامامي

والاصل في ذلك راجع الى السبك فاذا سبكت هاتان اللفظتان او ما يجري مجراهما مع الفاظ تسهل منهما لم يكن بهما من ثقل كما جاءتا في بيت قطري . واذا سبكتا مع الفاظ تثقل منهما جاءتا كما جاءتا في بيت ابي تمام . ومن هذا القسم قول ابي تمام ايضا :

كأنه لاجتماع الروح فيه له ... في كل جارحةٍ من جسمه روحُ

فَقَوْلُهُ (فِي) بَعْدَ قَوْلِهِ (فِيهِ لَهُ) مِمَّا لا يَحْسُنُ وُرُودُهُ. وكَذَلِكَ وَرَدَ قولُ ابي ٱلطَّيِّبِ ٱلمُتَنَبِّي :

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ   سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

فقولُهُ : (لَهَا مِنها عَلَيهَا) من ٱلثَّقيلِ ٱلثَّقيل ٱلثقيل . . . .

(ٱلقِسْمُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلمُعَاظَلة ٱللفظيَّةِ) تَخْتَصُّ بِتكْرِيرِ ٱلحُروفِ وَليسَ ذَلِكَ مِمَّا يَتعلقُ بِتكْرِيرِ ٱلأَلفَاظ وَلَا بِتكْرِيرِ ٱلمعانِي مِمَّا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِي بَابِ ٱلتكْرِيرِ فِي ٱلمقالَةِ ٱلثانيَةِ. وإِنَّمَا هُوَ تكْرِيرُ حَرفٍ وَاحِدٍ اَوْ حَرْفَيْنِ فِي كُلِّ لفظة مِنْ الفاظِ ٱلكَلَامِ ٱلمنْثُور او ٱلمنظُوم فَيثْقُلُ حينئذ ٱلنُّطقُ بِهِ . فَمِنْ ذَلِك قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

وَقَبْرُ حَرْبٍ فِي مَكَانٍ قَفْرٍ   وَليسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

فَهذهِ ٱلقَافَاتُ وَٱلرَاآتُ كَانَّها فِي تَتابُعِها سِلْسِلَةٌ ولَاخفَاءَ بِمَا فِي ذَلكَ مِن ٱلثقل . وكذَا وَرَد قَوْلُ ٱلحريريّ فِي مقاماتِهِ :

وَأَزْوَرَ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا   وَعَافَ عَافِي ٱلعُرْفِ عِرْفَانَهُ

فَقَوْلُهُ : (وعَافَ عَافِي ٱلعُرْفِ عِرْفَانَهُ) مِنَ ٱلتكْرِيرِ ٱلمُشار اليْهِ. وكَذَلكَ وَرد قَوْلُهُ ايضًا فِي رِسَالَتيهِ ٱللتيْنِ صَاغَهُما عَلَى حَرْفَي ٱلسِّين وَٱلشِّين : فَانهُ اَتَى فِي اِحْدَاهُمَا بالسِّين فِي كُلِّ لفظةٍ مِنْ الفاظِها . وَاَتَى بِٱلأُخْرَى بِٱلشِّينِ فِي كُلِّ لَفْظةٍ مِنْ الفَاظِها فَجَاءَتَا كَانَّهُما رُقى ٱلعَقَارِبِ اَوْ خُذْرُوفَةُ ٱلعَزَائِمِ . وما اَعْلَمُ كيفَ خَفِيَ مَا فِيهِمَا مِنَ ٱلقُبْحِ عَلى مِثْلِ ٱلحريريّ مَع مَعْرِفَتِهِ بِٱلجيدِ وَٱلرَّدِيءِ مِنَ ٱلكَلامِ . . وَاَعْلَمْ اَنَّ ٱلعَرَبَ ٱلذينَ هُمُ ٱلاصْلُ فِي هٰذِهِ ٱللُّغَةِ قَدْ عدلُوا عَنْ

تكرير الحروف في كثير من كلامهم. وذاك انه اذا تكرر الحرف عندهم ادغموه استحسانا فقالوا في : (جعل لك) جعلك. وفي : (تضربونني) تضربوني. وكذلك قالوا : استعد فلان للامر اذا تاهب له والاصل فيه استعدد. واستتب الامر اذا تهيأ. والاصل فيه استتبب. واشباه ذلك في كلامهم حتى انهم لشدة كراهتهم لتكرير الحروف ابدلوا احد الحرفين المكررين حرفا آخر غيره فقالوا : امليت الكتاب. والاصل فيه امللت. فابدلوا اللام ياء طلبا للخفة وفرارا من الثقل. واذا كانوا قد فعلوا ذلك في اللفظة الواحدة فما ظنك بالالفاظ الكثيرة التي يتبع بعضها بعضا

(القسم الثالث من المعاظلة) ان ترد الفاظ على صيغة الفعل يتبع بعضها بعضا فمنها ما يختلف بين ماض ومستقبل. ومنها ما لا يختلف. فالاول كقول القاضي الارجاني في ابيات يصف فيها الشمعة فقال :

بالنار فرقت الحوادث بيننا وبها نذرت اعود اقتل روحي

فقوله : (نذرت اعود) من المعاظلة المشار اليها. واما ما يرد على نهج واحد من الصيغة الفعلية. فكقول ابي الطيب المتنبي :

اقل انل اقطع احمل عل سل اعد زد هش بش تفضل اذن سر صل

فهذه الفاظ جاءت على صيغة واحدة وهي صيغة الامر كانه قال : (افعل افعل) هكذا الى آخر البيت. وهذا تكرير للصيغة

وإنْ لَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا للحُرُوفِ إلَّا أنَّهُ أخوهُ ولا أقُولُ : ابنُ عمِّهِ. وَهٰذِهِ ألفاظٌ مُتَرَاكِبَةٌ مُتَدَاخِلَةٌ ولو عطفها بالواو لكانت أقرب حالًا. كما قال عبدُ السلامِ بنُ رَغبانَ :

فسدَ النَّاسُ فاطْلُبِ الرِّزقَ بالسَّيْفِ م وإلَّا فَمُتْ شَدِيدَ الهُزالِ
حِلَّ وَأمِرْ وضُرَّ وانْفَعْ ولِنْ واخْشُنْ م وابْرِزْ ثُمَّ انْتَدِبْ للمعالي

ألا تَرَى أنَّهُ لما عطفَ هٰهنا بالواو لم تتراكب الألفاظُ كتَرَاكُبِها في بَيْتِ أبي الطيِّبِ المتقدِّمِ ذِكْرُهُ

(القِسْمُ الرابعُ مِنَ المعاظَلة) وهُوَ الذي يَتَضَمَّنُ مُضافاتٍ كثيرةً كقولِهِمْ : سَرْجُ فرسِ غُلامِ زيد. وإنْ زِيدَ على ذلك قِيلَ : لبدُ سرجِ فرسِ غُلامِ زَيد. وهٰذا أشدُّ قُبْحًا وأثقلُ على اللسانِ. وَعليهِ وَرَدَ قولُ ابنِ نابكَ الشاعرِ في مُفْتَتَحِ قصيدةٍ لَهُ :

حمامةَ جَرْعَا حَوْمَةِ الجَنْدَلِ اسْجَعِي فأنْتِ بِمَرْأى مِنْ سُعادَ ومَسْمَعِ

(القِسْمُ الخامِسُ مِنَ المعاظَلةِ) أنْ تَرِدَ صِفاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ على نَحْوٍ وَاحِدٍ. كقولِ أبي تمّام مِنْ قصيدةٍ يَصِفُ رُمْحًا :

وَمُرَّ تهفو ذؤابتاهُ على اسمَرَ مَتْنِي يومَ الوَغَى جَسِدِهْ
مَارِنُهُ لَدْنُهُ مُثقَّفُهُ عِرَاضُهُ في الأكُفِّ مُطَّرِدُهْ

وَهٰذا كالأوَّلِ في قُبْحِهِ وثِقَلِهِ فقاتلهُ اللهُ ما أمتنَ شِعْرَهُ وما أسخفَهُ في بعضِ الأحوالِ . . . وعلى هٰذا وَرَدَ قولُ أبي الطيِّبِ المتنبِّي :

دَانٍ بَعِيدٍ مُحِبّ مُبْغِضٍ بَهِجٍ أغَرَّ حُلْوٍ مُمِرٍّ لَيِّنٍ شَرِسِ

نَدٍ اَبِيٍّ غَرٍ وَافٍ لَخِي ثِقَةٍ   جَعْدٍ سَرِيٍّ نَهٍ نَدْبٍ رَضٍ نَدُسِ

وَهٰذَا كَاَنَّهُ سِلْسِلَةٌ بِلَا شَكٍّ وَقَلِيلًا مَا يُوجَدُ فِي اَشْعَارِ ٱلشُّعَرَاءِ. وَلَمْ اَجِدْهُ كَثِيرًا اِلَّا فِي شِعْرِ ٱلْفَرَزْدَقِ وَتِلْكَ مُعَاظَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ وَهٰذِهِ مُعَاظَلَةٌ لَفْظِيَّةٌ وَهِيَ تُوجَدُ فِي شِعْرِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ كَثِيرًا

البحث العاشر

في المنافرة بين الالفاظ في السبك

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَمْ يُحَقِّقْ اَحَدٌ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ ٱلْقَوْلَ فِيهِ. وَغَايَةُ مَا يُقَالُ: اِنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ لَا تَكُونَ ٱلْاَلْفَاظُ نَافِرَةً عَنْ مَوَاضِعِهَا ثُمَّ يُكْتَفَى بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ وَلَا تَفْصِيلٍ حَتَّى اِنَّهُ قَدْ خَلَطَ هٰذَا ٱلنَّوْعَ بِٱلْمُعَاظَلَةِ وَكُلٌّ مِنْهُمَا نَوْعٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَهُ حَقِيقَةٌ تَخُصُّهُ. اِلَّا اَنَّهُمَا قَدِ ٱشْتَبَهَا عَلَى عُلَمَاءِ ٱلْبَيَانِ فَكَيْفَ عَلَى جَاهِلٍ لَا يَعْلَمُ. وَقَدْ بَيَّنْتُ هٰذَا ٱلنَّوْعَ وَفَصَّلْتُهُ فِي فَصْلِ ٱلْمُعَاظَلَةِ وَضَرَبْتُ لَهُ اَمْثِلَةً يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى اَخَوَاتِهَا وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا. وَجُمْلَةُ ٱلْاَمْرِ اَنَّ مَدَارَ سَبْكِ ٱلْاَلْفَاظِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّوْعِ وَٱلَّذِي قَبْلَهُ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنْ تِلْكَ ٱلْاَنْوَاعِ ٱلْمَذْكُورَةِ. لِاَنَّ هٰذَيْنِ ٱلنَّوْعَيْنِ اَصْلَا سَبْكِ ٱلْاَلْفَاظِ وَمَا عَدَاهُمَا فَرْعٌ عَلَيْهِمَا. وَاِذَا لَمْ يَكُنِ ٱلنَّاثِرُ اوِ ٱلنَّاظِمُ عَارِفًا بِهِمَا فَاِنَّ مَقَاتِلَهُ كَثِيرَةٌ. وَحَقِيقَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْمُنَافَرَةُ اَنْ يُذْكَرَ لَفْظٌ اَوْ اَلْفَاظٌ يَكُونُ غَيْرُهَا مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهَا اَوْلَى بِٱلذِّكْرِ. وَعَلَى هٰذَا

فَإِنَّ ٱلْفَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُعَاظَلَةِ أَنَّ ٱلْمُعَاظَلَةَ هِيَ ٱلتَّرَاكُبُ وَٱلتَّدَاخُلُ إِمَّا فِي ٱلْأَلْفَاظِ أَوْ فِي ٱلْمَعَانِي عَلَى مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا تَرَاكُبَ فِيهِ وَإِنَّمَا هُوَ إِيرَادُ أَلْفَاظٍ غَيْرِ لَائِقَةٍ بِمَوْضِعِهَا ٱلَّذِي تَرِدُ فِيهِ . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : أَحَدُهُمَا يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَٱلْآخَرُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ . (فَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱللَّفْظَةِ ٱلْوَاحِدَةِ) فَإِنَّهُ إِذَا وَرَدَ فِي ٱلْكَلَامِ أَمْكَنَ تَبْدِيلُهُ بِغَيْرِهِ مِمَّا هُوَ فِي مَعْنَاهُ سَوَاءٌ كَانَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ نَثْرًا أَوْ نَظْمًا . وَأَمَّا ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ فَإِنَّهُ لَا يُمْكِنُ تَبْدِيلُهُ بِغَيْرِهِ فِي ٱلشِّعْرِ بَلْ يُمْكِنُ ذٰلِكَ فِي ٱلنَّثْرِ خَاصَّةً لِأَنَّهُ يَعْسُرُ فِي ٱلشِّعْرِ مِنْ أَجْلِ ٱلْوَزْنِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْأَوَّلِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ ٱلْمُتَنَبِّي :

فَلَا يُبْرَمُ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي هُوَ حَالِلٌ ... وَلَا يُحْلَلُ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي هُوَ يُبْرِمُ

فَلَفْظَةُ حَالِلٌ نَافِرَةٌ عَنْ مَوْضِعِهَا وَكَانَتْ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَنْهَا لِأَنَّهُ لَوِ ٱسْتَعْمَلَ عِوَضًا عَنْهَا لَفْظَةَ (نَاقِضُ) لَجَاءَتِ ٱللَّفْظَةُ قَارَّةً فِي مَكَانِهَا غَيْرَ قَلِقَةٍ وَلَا نَافِرَةٍ . وَبَلَغَنِي عَنْ أَبِي ٱلْعَلَاءِ : أَنَّهُ كَانَ يَتَعَصَّبُ لِأَبِي ٱلطَّيِّبِ حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يُسَمِّيهِ ٱلشَّاعِرَ وَيُسَمِّي غَيْرَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بِٱسْمِهِ وَكَانَ يَقُولُ : لَيْسَ فِي شِعْرِهِ لَفْظَةٌ يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ عَنْهَا مَا هُوَ فِي مَعْنَاهَا فَيَجِيءَ حَسَنًا مِثْلَهَا . فَيَا لَيْتَ شِعْرِي أَمَا وَقَفَ عَلَى هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ لٰكِنَّ ٱلْهَوَى كَمَا يُقَالُ أَعْمَى . وَكَانَ أَبُو ٱلْعَلَاءِ أَعْمَى ٱلْعَيْنِ خِلْقَةً وَأَعْمَاهَا عَصَبِيَّةً فَٱجْتَمَعَ لَهُ ٱلْعَمَى مِنْ جِهَتَيْنِ . وَهٰذِهِ ٱللَّفْظَةُ ٱلَّتِي هِيَ (حَالِلٌ) وَمَا يَجْرِي مَجْرَاهَا قَبِيحَةُ ٱلِٱسْتِعْمَالِ وَهِيَ فَكُّ

ٱلادغام في ٱلفعل ٱلثلاثي ونقله إلى اسم ٱلفاعل . وعلى هذا فلا يحسن ان يقال : بلّ ٱلثوب فهو باللّ . ولا : سلّ ٱلسيف فهو ساللٌ . وهذا لو عرض على من لا ذوق له لادركه وفهمه فكيف من له ذوق صحيح كابي ٱلطيب . لكن لا بدّ لكلّ جوادٍ من كبوةٍ .
وانشد بعض ٱلادباء بيتا لدعبل وهو :

شفيعك فاشكر في ٱلحوائج إنّه يصونك عن مكروهها وهو يخلق

فقلت له : عجز هذا ٱلبيت حسنٌ واما صدره فقبيحٌ . لانّ سبكه قلقٌ نافرٌ . وتلك ٱلفاء ٱلتي في قوله : شفيعك فاشكر كانّها زكبة ٱلبعير وهي في زيادتها كزيادة ٱلكرش . . . ومثل هذه ٱلدقائق ٱلتي ترد في ٱلكلام نظمًا كان او نثرًا لا يتفطن لها الا ٱلراسخ في علم ٱلفصاحة وٱلبلاغة . ومن هذا ٱلقسم وصلة همزة ٱلقطع وهي محسوبة من جائزات ٱلشعر ٱلتي لا تجوز في ٱلكلام ٱلمنثور . وكذلك قطع همزة ٱلوصل لكنّ وصل همزة ٱلقطع اقبح لانه اثقل على ٱللسان . فمما ورد من ذلك قول ابي ٱلطيب ٱلمتنبي :

يوسّطه ٱلمفاوز كلّ يوم طلاب ٱلطالبين لا ٱنتظارُ

فقوله : (لا ٱنتظار) كلامٌ نافرٌ من موضعه . ومن هذا ٱلقسم ان يفرق بين ٱلموصوف وٱلصفة بضمير من تقدم ذكره . كقول ٱلبحتري :

حلفت له بٱلله يوم ٱلتفرّق وبٱلوجد من قلبي به ٱلمتعلّق

تَقْدِيرُهُ (مِنْ قَلْبِي ٱلْمُتَعَلِّقِ بِهِ) فَلَمَّا فَصَلَ بَيْنَ ٱلْمَوْصُوفِ ٱلَّذِي هُوَ (قَلْبِي) وَٱلصِّفَةِ ٱلَّتِي هِيَ (ٱلْمُتَعَلِّقُ) بِٱلضَّمِيرِ ٱلَّذِي هُوَ (بِهِ) قَبُحَ ذٰلِكَ . وَلَوْ كَانَ قَالَ مِنْ قَلْبٍ بِهِ مُتَعَلِّقٍ لَزَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ وَذَهَبَتْ تِلْكَ ٱلْهُجْنَةُ . وَمِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ أَيْضًا أَنْ تُزَادَ ٱلْأَلِفُ وَٱللَّامُ فِي ٱسْمِ ٱلْفَاعِلِ وَيُقَامَ ٱلضَّمِيرُ فِيهِ مُقَامَ ٱلْمَفْعُولِ . كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

فَلَوْ عَايَنْتَهُمْ وَٱلزَّائِرِيهِمْ   لَمَا مِزْتَ ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْحَمِيمِ

فَقَوْلُهُ : (ٱلزَّائِرِي) ٱسْمُ فَاعِلٍ . وَقَوْلُهُ : (وَٱلزَّائِرِيهِمْ) هُوَ ٱلضَّمِيرُ فِي مَوْضِعِ ٱلْمَفْعُولِ . تَقْدِيرُهُ :(ٱلزَّائِرِينَ أَرْضَهُمْ أَوْ دَارَهُمْ أَوِ ٱلزَّائِرِينَ إِيَّاهُمْ) فَٱسْتِعْمَالُ هٰذَا مَعَ ٱلْأَلِفِ وَٱللَّامِ قَبِيحٌ جِدًّا . وَإِذَا حَذَفْتَا زَالَ ذٰلِكَ ٱلْقُبْحُ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلشُّعَرَاءُ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ كَثِيرًا

(وَمِمَّا جَاءَ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي)ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ أَيْضًا :

لَاخَلْقَ أَكْرَمُ مِنْكَ إِلَّا عَارِفٌ   بِكَ رَاءَ نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِهَا

فَإِنَّ عَجُزَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ نَافِرٌ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَأَمْثَالُ هٰذَا فِي ٱلْأَشْعَارِ كَثِيرٌ



الفصل السادس

في وجوه الكلام

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

البحث الاوَّل

في وجوه البلاغة وطبقات الكلام

(من العقد الفريد لابن عبد ربه)

اَلْبَلاَغَةُ تَكُونُ عَلَى اَرْبَعَةِ اَوْجُهٍ : تَكُونُ بِٱللَّفْظِ وَٱلْخَطِّ وَٱلْاشَارَةِ وَٱلدَّلاَلَةِ . وَكُلٌّ مِنْهَا لَهُ حَظٌّ مِنَ ٱلْبَلاَغَةِ وَٱلْبَيَانِ وَمَوْضِعٌ لاَيَجُوزُ فِيهِ غَيْرُهُ . وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ : لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ وَلِكُلِّ كَلاَمٍ جَوَابٌ . وَرُبَّ اِشَارَةٍ ابلغ مِنْ لَفْظٍ . فَاَمَّا ٱلْخَطُّ وَٱلْاِشَارَةُ فَمَفْهُومَانِ عِنْدَ ٱلْخَاصَّةِ وَاَكْثَرِ ٱلْعَامَّةِ . وَاَمَّا ٱلدَّلاَلَةُ فَكُلُّ شَيْءٍ دَلَّكَ عَلَى شَيْءٍ فَقَدْ اَخْبَرَكَ بِهِ . . . . وَقَالَ اَبْرَوِيزُ لِكَاتِبِهِ : اَعْلَمْ اَنَّ دَعَائِمَ ٱلْمَقَالاَتِ اَرْبَعٌ : اِنِ ٱلْتُمِسَ لَهَا خَامِسٌ لَمْ يُوجَدْ فَاِنْ نَقَصَ مِنْهَا وَاحِدٌ لَمْ تَتِمَّ وَهِيَ : سُؤَالُكَ ٱلشَّيْءَ وَاَمْرُكَ بِٱلشَّيْءِ وَاِخْبَارُكَ عَنِ ٱلشَّيْءِ وَسُؤَالُكَ عَنِ ٱلشَّيْءِ . فَاِذَا طَلَبْتَ فَأَسْجِحْ . وَاِذَا سَاَلْتَ فَاَوْضِحْ وَاِذَا اَمَرْتَ فَاَحْكِمْ . وَاِذَا اَخْبَرْتَ فَحَقِّقْ . وَاجْمَعِ ٱلْكَثِيرَ مِمَّا تُرِيدُ فِي ٱلْقَلِيلِ مِمَّا تَقُولُ (يُرِيدُ ٱلْكَلاَمَ ٱلَّذِي تَقِلُّ حُرُوفُهُ وَتَكْثُرُ مَعَانِيهِ) . وَقَالَ رَبِيعَةُ : اَلرَّأْيُ اَنْ لَا اَسْمَعَ ٱلْحَدِيثَ عُطْلاً فَاُشَنِّفَهُ وَاُقَرِّطَهُ فَيَحْسُنُ وَمَا زِدْتُ فِيهِ شَيْئًا وَلَا غَيَّرْتُ

لهُ معنًى . وقَالُوا : خيرُ الكلامِ ما لمْ يُحْتَجْ بعدهُ الى كلامٍ وللعربِ مِنْ موجزِ اللفظِ ولطيفِ المعنى فصولٌ عجيبةٌ وبدائعُ غريبةٌ . قال ابراهيمُ بنُ محمدٍ الشيبانيُّ : اِذَا احتجتَ الى مخاطبةِ الملوكِ والوزراءِ والعلماءِ والكتَّابِ والخطباءِ والادباءِ والشعراءِ واوساطِ الناسِ وسُوقتِهم فخاطِبْ كُلًّا على قدرِ ابهتِهِ وجلالتِهِ وعلوِّهِ وارتفاعِهِ وفطنتِهِ وانتباهِهِ واجعلْ طبقاتِ الكلامِ على ثمانيةِ اقسامٍ : منها الطبقاتُ العليةُ اربعٌ والطبقاتُ الاخرُ وهي دونها اربعٌ لكلِّ طبقةٍ منها درجةٌ ولكلٍّ قسمةٌ . لا ينبغي للكاتبِ البليغِ ان يقصرَ باهلها عنها ويقلبَ معناها الى غيرها . (فالحدُّ الاوّلُ) الطبقاتُ العليا وغايتُها القصوى الخلافةُ التي اجلَّ اللهُ قدرها واعلى شأنها عن مساواتها باحدٍ من ابناءِ الدنيا في التعظيمِ والتوقيرِ . (والطبقةُ الثانيةُ) لوزرائها وكتّابها الذين يخاطبون الخلفاءَ بعقولهم والسنتهم ويرتقون الفتوقَ بآرائهم . (والطبقةُ الثالثةُ) امراءُ ثغورهم وقوّادُ جنودهم فانهُ يجبُ مخاطبةُ كلِّ احدٍ منهم على قدرِهِ وموضعِهِ وحظِّهِ وغنائِهِ وجزائِهِ واضطلاعِهِ بما حملَ من اعباءِ امورهم وجلائلِ اعمالهم . (والرابعةُ) القضاةُ فانهم وان كان لهم تواضعُ العلماءِ وحليةُ الفضلاءِ فمعهم ابهةُ السلطنةِ وهيبةُ الامراءِ . واما الطبقاتُ الاربعُ الاخرُ فهمُ الملوكُ الذين اوجبت نعمُهم تعظيمَهم في الكتبِ اليهم وافضالُهم تفضيلَهم فيها . (والثانيةُ) وزراؤهم وكتّابهم واتباعهم الذين تقرعُ ابوابُهم وبعنايتِهم تستباحُ اموالُهم . (والثالثةُ) همُ العلماءُ

يَجِبُ تَوْقِيرُهُمْ فِي ٱلْكُتُبِ بِشَرَفِ ٱلْعِلْمِ وَعُلُوِّ دَرَجَةِ اهْـلِهِ .
(وَٱلطَّبَقَةُ ٱلرَّابِعَةُ) لأَهْلِ ٱلْقَدْرِ وَٱلْجَلَالَةِ وَٱلْحَلَاوَةِ وَٱلطَّلَاوَةِ وَٱلظَّرْفِ
وَٱلْأَدَبِ فَإِنَّهُمْ يَضْطَرُّونَكَ بِجِدَّةِ اذْهَانِهِمْ وَشِدَّةِ تَمْيِيزِهِمْ وَٱنْتِقَادِهِمْ
وَادَبِهِمْ وَتَصَفُّحِهِمْ إِلَى ٱلِاسْتِقْصَاءِ عَلَى نَفْسِكَ فِي مُكَاتَبَتِهِمْ وَٱسْتَغْنَيْنَا
عَنِ ٱلتَّرْتِيبِ لِلسُّوقَةِ وَٱلْعَوَامِّ وَٱلتُّجَّارِ بِٱسْتِغْنَائِهِمْ بِمِهَانَتِهِمْ مِنْ هٰذِهِ
ٱلْآلَاتِ وَٱشْتِغَالِهِمْ بِمِهَانَاتِهِمْ عَنْ هٰذِهِ ٱلْأَدَوَاتِ . وَلِكُلِّ طَبَقَـةٍ
مِنْ هٰذِهِ ٱلطَّبَقَاتِ مَعَانٍ وَمَذَاهِبُ يَجِبُ عَلَيْـكَ انْ تَرْعَاهَا فِي
مُرَاسَلَتِكَ إِيَّاهُمْ فِي كُتُبِكَ فَتَزِنَ كَلَامَكَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ بِمِيزَانِهِ
وَتُعْطِيَهُ قِسْمَهُ وَتُوفِيَهُ نَصِيبَهُ . فَإِنَّكَ مَتَى اهْمَلْتَ ذٰلِكَ وَاضَعْتَهُ لَمْ
آمَنْ عَلَيْكَ انْ تَعْدِلَ بِهِمْ عَنْ كَلَامِكَ فِي غَيْرِ مَسْلَكِهِ فَلَا تَعْتَدَّ
بِٱلْمَعْنَى ٱلْجَزْلِ مَا لَمْ تُلْبِسْهُ لَفْظًا لَائِقًا بِمَنْ كَاتَبْتَهُ وَمَلْبَسًا بِمَنْ رَاسَلْتَهُ .
فَإِنَّ إِلْبَاسَـكَ ٱلْمَعْنَى وَإِنْ صَحَّ وَصَرُفَ لَفْظًا مُخْتَلِفًا عَلَى قَدْرِ
ٱلْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ لَمْ تَجْرِ بِهِ عَادَتُهُمْ تَهْجِينٌ لِلْمَعْنَى وَإِخْلَالٌ بِقَـدْرِهِ
وَظُلْمٌ بِحَقِّ ٱلْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ وَنَقْصٌ بِمَا يَجِبُ لَهُ كَمَا انَّ فِي ٱتِّبَاعِ
تَعَارُفِهِمْ وَمَا ٱنْتَشَرَتْ بِهِ عَادَاتُهُمْ وَجَرَتْ بِهِ ٱلْسِنَتُهُمْ قَطْعًا لِعُذْرِهِمْ
وَخُرُوجًا مِنْ حُقُوقِهِمْ وَبُلُوغًا إِلَى غَايَةِ مُرَادِهِمْ وَإِسْقَاطًا لِحُجَّةِ ادَبِهِمْ .
فَمِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمَرْغُوبِ عَنْهَا وَٱلصُّـدُورِ ٱلْمُسْتَوْحَشِ مِنْهَا فِي كُتُبِ
ٱلسَّادَاتِ وَٱلْمُلُوكِ وَٱلْأُمَرَاءِ عَلَى ٱتِّفَاقِ ٱلْمَعَانِي مِثْلُ : ابْقَـاكَ ٱللّٰهُ
طَوِيلًا وَعَمَّرَكَ مَلِيًّا . وَإِنْ كُنَّا نَعْلَمُ انْ لَا فَرْقَ بَيْنَ قَوْلِهِمْ : اطَالَ
ٱللّٰهُ بَقَاءَكَ . وَبَيْنَ قَوْلِهِمْ : ابْقَاكَ ٱللّٰهُ طَوِيلًا . وَلٰكِنَّهُمْ جَعَلُوا هٰذَا

أرجح وزنًا وأنبه قدرًا في المخاطبة كما أنهم جعلوا : أكرمك الله وأبقاك . أحسن منزلًا في كتب الفضلاء والأدباء من جعلت فداك على اشتراك معناه واحتمال أن يكون فداه من الخير كما يحتمل أن يكون فداه من الشر. على أن كتاب العسكر وعوامهم قد ولعوا بهذه اللفظة حتى استعملوها في جميع محاوراتهم وجعلوها هجيراهم في مخاطبة الشريف والوضيع والكبير والصغير . ولذلك قال محمود الوراق :

كل من حل سر من را من النا　　س ومن قد يداخل الأملاكا
لو رأى الكلب مائلًا بطريق　　قال للكلب ياجعلت فداكا

وكذلك لم يجيزوا أن يكتبوا بمثل أبقاك الله وأمتع بك إلا في الابن والخادم المنقطع إليك . وأما في كتب الإخوان فغير جائز بل مذموم مرغوب عنه . . . ولكل مكتوب إليه قدر ووزن ينبغي للكاتب أن لا يجاوزه عنه ولا يقصر به دونه . وقد رأيتهم عابوا الأحوص حين خاطب الملوك خطاب العوام في قوله :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم　　مذق الحديث يقول ما لا يفعل

وهذا معنى صحيح في المدح ولكنهم اجلّوا قدر الملوك أن يمدح بما تمدح به العوام لأن صدق الحديث وإنجاز الوعد وإن كان من المدح فهو واجب على العامة . والملوك لا يمدحون بالفرائض الواجبة . إنما يحسن مدحهم بالنوافل لأن المادح لو قال لبعض الملوك : إنك لا تخون ما استودعت وإنك لتصدق في وعدك وتفي

بعهدك . فكأنَّه قد أثنى بما يجب ولو قصد بثنائه إلى مقصده كان أشبه بالملوك . ونحن نعلم أن كلَّ أمير يتولى من أمير المؤمنين شيئاً فهو أمير المؤمنين غير أنهم لم يطلقوا هذه اللفظة إلا في الخلفاء خاصة . ونحن نعلم أنَّ الكيس هو العقل . ولكن إن وصفت رجلا فقلت : إنَّه لعاقل . كنت مدحته عند الناس . وإن قلت : إنَّه لكيِّس كنت قد قصرت به عن وصفه وصغرت من قدره . إلّا عند أهل العلم باللغة لأن العامة لا تلتفت إلى معنى الكلمة ولكن إلى ما جرت به العادة من استعمالها في الظاهر إذ كان استعمال العامة لهذه الكلمة مع الحداثة والغرة وخساسة القدر وصغر السن . . . فامتثل هذه المذاهب وأجر على هذه القوام وتحفظ في صدور كتبك وفصولها وخواتمها وضع كل معنى في موضع يليق به وتخير لكل لفظة معنى يشاكلها وليكن ما تختم به فصولك في موضع ذكر البلوى بمثل : (نسأل الله دفع المحذور وصرف المكروه) وأشباه هذا . وفي موضع ذكر المصيبة : إنّا لله وإنّا إليه راجعون . وفي موضع ذكر النعمة : (الحمد لله خالصاً والشكر لله واجباً) . فإنَّ هذه المواضع يجب على الكاتب أن يتفقدها ويحتفظ بها . فإنَّ الكاتب إنّما يصير كاتباً بأن يضع كلَّ معنى في موضعه فيعلق كلَّ لفظة على طبقها من المعنى . واعلم أنَّه لا يجوز في الرسائل استعمال الاقتصار والحذف ومخاطبة الخاص بالعام والعام بالخاص . وكذلك ينبغي للكاتب

انْ يَجْتَنِبَ ٱللَّفظَ ٱلْمُشْتَرَكَ وَٱلمعنَى ٱلْمُلْتَبِسَ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ اَيضًا فِي ٱلرَّسَائِلِ وَٱلْبَلَاغَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ مَا يَجُوزُ فِي ٱلْاَشْعَارِ ٱلْمَوْزُونَةِ لِاَنَّ ٱلشَّاعِرَ مُضْطَرٌّ وَٱلشِّعْرَ مَقْصُودٌ مُقَيدٌ بِٱلْوَزْنِ وَٱلْقَوَافِي. فَلِذٰلِكَ اَجَازُوا لَهُمْ صَرْفَ مَا لَا يَنْصَرِفُ مِنَ ٱلْاَسْمَاءِ وَحَذْفَ مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهَا وَٱغْتُفِرَ فِيهِ سُوءُ ٱلتَّظَلُّمِ وَاَجَازُوا فِيهِ ٱلتَّقْدِيمَ وَٱلتَّأْخِيرَ وَٱلْاِضْمَارَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِظْهَارِ وَذٰلِكَ كُلُّهُ غَيْرُ سَائِغٍ فِي ٱلرَّسَائِلِ وَلَا جَائِزٌ فِي ٱلْبَلَاغَاتِ . . . وَكَذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي فِي ٱلرَّسَائِلِ اَنْ يُصَغَّرَ ٱلْاَسْمُ فِي مَوْضِعِ ٱلتَّعْظِيمِ وَاِنْ كَانَ ذٰلِكَ جَائِزًا مِثْلَ قَوْلِهِمْ : دُوَيْهِيَةٌ تَصْغِيرُ دَاهِيَةٍ . وَجُذَيْلٌ تَصْغِيرُ جِذْلٍ . وَعُذَيْقٌ تَصْغِيرُ عِذْقٍ . وَقَالَ لَبِيدٌ :

وَكُلُّ اُنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بَيْنَهُمْ دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ مِنْهَا ٱلْاَنَامِلُ

وَقَالَ ٱلْحُبَابُ بْنُ ٱلْمُنْذِرِ يَوْمَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ : اَنَا عُذَيْقُهَا ٱلْمُرَجَّبُ وَجُذَيْلُهَا ٱلْمُحَكَّكُ . وَقَالَ سَرْحَةُ اَبُو عُبَيْدَةَ : وَمِمَّا لَا يَجُوزُ فِي ٱلرَّسَائِلِ وَكَرِهُوهُ فِي ٱلْكَلَامِ اَيضًا مِثْلُ قَوْلِهِمْ : كَلَّمْتُ اِيَّاكَ وَاَعْنِي اِيَّاكَ وَهُوَ جَائِزٌ فِي ٱلشِّعْرِ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

وَاَجْمِلْ وَاَحْسِنْ فِي اَسِيرِكَ اِنَّهُ ضَعِيفٌ وَلَمْ يَأْسِرْ كَاِيَّاكَ آسِرُ

فَتَخَيَّرْ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ اَرْجَحَهَا لَفْظًا وَاَجْزَلَهَا وَاَشْرَفَهَا جَوْهَرًا وَاَكْرَمَهَا حَسَبًا وَاَلْيَقَهَا فِي مَكَانِهَا وَاَشْكَلَهَا فِي مَوْضِعِهَا فَاِنْ حَاوَلْتَ صَنْعَةَ رِسَالَةٍ فَزِنِ ٱللَّفْظَةَ قَبْلَ اَنْ تُخْرِجَهَا بِمِيزَانِ ٱلتَّصْرِيفِ اِذَا عَرَضَتْ . وَعَايِرِ ٱلْكَلِمَةَ بِمِعْيَارٍ اِذَا سَنَحَتْ . فَاِنَّهُ رُبَّمَا مَرَّ بِكَ مَوْضِعٌ يَكُونُ مَخْرَجُ ٱلْكَلَامِ اِذَا كَتَبْتَ : اَنَا فَاعِلٌ . اَحْسَنُ مِنْ اَنْ

تَكتُبَ : انا افعَلْ . وموضِعٌ آخرُ يكُونُ فِيهِ (اَستَفعَلتُ) احلَى مِنْ (فَعَلتُ) فادِرِ الكلامَ علَى اعكانِهِ وقلِّبْهُ علَى جَميعِ وُجوهِهِ فايُّ لفظةٍ رايتَها فِي المكانِ الذِي نَدَبتَها اِلَيهِ فانزِعها اِلَى المكانِ الَّذِي اَورَدتَها علَيهِ واوقِعها فِيهِ . ولا تَجعَلِ اللفظةَ قلِقةً فِي موضِعِها نافِرَةً عَنْ مكانِها فاِنَّكَ متَى فعلتَ هَجَّنتَ الموضِعَ الَّذِي حاوَلتَ تَحسِينَهُ وافسدتَ المكانَ الَّذِي اردتَ اِصلاحَهُ فاِنَّ وضعَ الالفاظِ فِي غيرِ اماكِنِها وقَصدَكَ بِها اِلَى غيرِ مُصابِها اِنَّما هُوَ كَتَرقيعِ الثوبِ الَّذِي لَمْ يُشابِهْهُ رِقاعُهُ ولَمْ تَتقارَبْ اجزاؤُهُ وخرَجَ مِنْ حدِّ الجِدَّةِ وتَغيَّرَ حُسنُهُ . كما قالَ الشاعِرُ :

اِنَّ الجديدَ اِذا ما زِيدَ فِي خَلَقٍ يَبِينُ لِلناسِ انَّ الثوبَ مَرقُوعُ

كَذٰلِكَ كُلَّما احلَولَى الكلامُ وعَذُبَ وراقَ وسهُلَتْ مخارِجُهُ كانَ اسهلَ وَارجَى فِي الاسماعِ واشَدَّ اتِّصالًا بالقُلوبِ واخفَّ علَى الافواهِ لا سِيَّما اِنْ كانَ المعنَى البديعُ مُترجَمًا بِلفظٍ مُونِقٍ شريفٍ ومُعايَرًا بِكلامٍ عذبٍ لَمْ يَسِمْهُ التكليفُ بِمِيسَمِهِ ولَمْ يُفسِدْهُ التعقيدُ بِاستِهلاكِهِ . . . وقد رايتُهم شبَّهوا المعنَى الخفيَّ بِالرُّوحِ الخفيِّ . واللفظَ الظاهِرَ بِالجُثمانِ الظاهِرِ . وَاِذا لَمْ يَنهَضْ بِالمعنَى الشريفِ الجَزلِ لفظٌ شريفٌ جزلٌ لَمْ تَكُنِ العِبارةُ واضِحَةً ولا النِّظامُ مُتَّسِقًا . وتَضاؤُلُ المعنَى الحَسَنِ تَحتَ اللفظِ القبيحِ كَتَضاؤُلِ الحَسناءِ فِي الاطمارِ الرَّثَّةِ . واِنَّما يدُلُّ علَى المعنَى اربعةُ اصنافٍ : لفظٌ واِشارةٌ وعَقدٌ وخَطٌّ . وقد ذكَرَ لَهُ ارسطاطاليسُ صِنفًا خامِسًا فِي كِتابِ

ٱلْمَنطِقِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلنَّصْبَةَ . وَٱلنَّصْبَةُ ٱلْحَالُ ٱلدَّالَّةُ ٱلَّتِي تَقُومُ مَقَامَ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ ٱلْأَرْبَعَةِ وَهِيَ ٱلنَّاطِقَةُ بِغَيْرِ لَفْظٍ وَمُشِيرَةٌ إِلَيْكَ بِغَيْرِ يَدٍ وَذٰلِكَ ظَاهِرٌ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَكُلِّ صَامِتٍ وَنَاطِقٍ. وَجَمِيعُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ ٱلْخَمْسَةِ كَاشِفَةٌ عَنْ أَعْيَانِ ٱلْمَعَانِي وَسَافِرَةٌ عَنْ وُجُوهِهَا وَأَوْضَحُ هٰذِهِ ٱلدَّلَائِلِ وَأَفْصَحُ هٰذِهِ ٱلْأَصْنَافِ صِنْفَانِ : هُمَا ٱلْقَلَمُ وَٱللِّسَانُ وَكِلَاهُمَا تَرْجُمَانٌ . فَأَمَّا ٱللِّسَانُ فَهُوَ ٱلْآلَةُ ٱلَّتِي يَخْرُجُ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا عَنْ حَدِّ ٱلِٱسْتِبْهَامِ إِلَى حَدِّ ٱلْإِنْسَانِيَّةِ بِٱلْكَلَامِ . وَلِذٰلِكَ قَالَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ : حَدُّ ٱلْإِنْسَانِ ٱلْحَيُّ ٱلنَّاطِقُ

البحث الثاني

في بيان المطبوع من الكلام والمصنوع (١)

(من مقدمة ابن خلدون باختصار)

إِعْلَمْ أَنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْعِبَارَةُ وَٱلْخِطَابُ إِنَّمَا سِرُّهُ وَرُوحُهُ فِي إِفَادَةِ ٱلْمَعْنَى . وَأَمَّا إِذَا كَانَ مُهْمَلًا فَهُوَ كَٱلْمَوَاتِ ٱلَّذِي لَا عِبْرَةَ بِهِ وَكَمَالُ ٱلْإِفَادَةِ هُوَ ٱلْبَلَاغَةُ عَلَى مَا عَرَفْتَ مِنْ حَدِّهَا عِنْدَ أَهْلِ ٱلْبَيَانِ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ : هِيَ مُطَابَقَةُ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ . وَمَعْرِفَةُ ٱلشُّرُوطِ وَٱلْأَحْكَامِ ٱلَّتِي بِهَا تُطَابِقُ ٱلتَّرَاكِيبُ ٱللَّفْظِيَّةُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ هُوَ فَنُّ ٱلْبَلَاغَةِ . وَتِلْكَ ٱلشُّرُوطُ وَٱلْأَحْكَامُ تُؤْخَذُ مِنْ عِلْمِي

(١) ان هذا الفصل لا يوجد في نسخة مقدمة ابن خلدون المطبوعة في مصر وبيروت بل في طبعة باريز

ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَعِلْمُ ٱلْمَعَانِي وَعِلْمُ ٱلْبَيَانِ هُمَا جُزْءَا ٱلْبَلَاغَةِ وَبِهِمَا كَمَالُ ٱلْإِفَادَةِ وَٱلْمُطَابَقَةُ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ. فَٱلْبَلَاغَةُ عَلَى هٰذَا هِيَ أَصْلُ ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ وَسَجِيَّتُهُ وَرُوحُهُ وَطَبِيعَتُهُ. ثُمَّ ٱعْلَمْ أَنَّهُمْ إِذَا قَالُوا ٱلْكَلَامَ ٱلْمَطْبُوعَ فَإِنَّهُمْ يَعْنُونَ بِهِ ٱلْكَلَامَ ٱلَّذِي كَمُلَتْ طَبِيعَتُهُ وَسَجِيَّتُهُ مِنْ إِفَادَةِ مَدْلُولِهِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْهُ لِأَنَّهُ عِبَارَةٌ وَخِطَابٌ لَيْسَ ٱلْمَقْصُودُ مِنْهُ ٱلنُّطْقُ فَقَطْ. بَلِ ٱلْمُتَكَلِّمُ يَقْصِدُ بِهِ أَنْ يُفِيدَ سَامِعَهُ مَا فِي ضَمِيرِهِ إِفَادَةً تَامَّةً وَيَدُلُّ بِهِ عَلَيْهِ دَلَالَةً وَثِيقَةً. ثُمَّ يَتْبَعُ تَرَاكِيبَ ٱلْكَلَامِ فِي هٰذِهِ ٱلسَّجِيَّةِ ٱلَّتِي لَهُ بِٱلْأَصَالَةِ ضُرُوبٌ مِنَ ٱلتَّحْسِينِ وَٱلتَّزْيِينِ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِفَادَةِ وَكَأَنَّهَا تُعْطِيهَا رَوْنَقَ ٱلْفَصَاحَةِ مِنْ تَنْمِيقِ ٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِ ٱلْكَلَامِ وَتَقْسِيمِهِ بِٱلْأَقْسَامِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلْأَحْكَامِ وَٱلتَّوْرِيَةِ بِٱللَّفْظِ ٱلْمُشْتَرَكِ عَنِ ٱلْخَفِيِّ مِنْ مَعَانِيهِ وَٱلْمُطَابَقَةِ بَيْنَ ٱلْمُتَضَادَّاتِ لِيَقَعَ ٱلتَّجَانُسُ بَيْنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَٱلْمَعَانِي فَيَحْصُلَ لِلْكَلَامِ رَوْنَقٌ وَلَذَّةٌ فِي ٱلْأَسْمَاعِ وَحَلَاوَةٌ وَجَمَالٌ كُلُّهَا زَائِدَةٌ عَلَى ٱلْإِفَادَةِ. وَهٰذِهِ ٱلصَّنْعَةُ مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمُعْجِزِ فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِثْلَ: وَٱللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى. وَمِثْلَ: فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَٱتَّقَى وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَى إِلَى آخِرِ ٱلتَّقْسِيمِ. وَكَذَا: فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا إِلَى آخِرِهِ. وَكَذَا: وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. وَأَمْثَالُهُ كَثِيرٌ. وَذٰلِكَ بَعْدَ كَمَالِ ٱلْإِفَادَةِ فِي أَصْلِ هٰذِهِ ٱلتَّرَاكِيبِ قَبْلَ وُقُوعِ هٰذَا ٱلْبَدِيعِ فِيهَا. وَكَذَا وَقَعَ فِي كَلَامِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ مِنْهُ لٰكِنْ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّدٍ. وَيُقَالُ

انَّهُ وَقَعَ فِي شِعْرِ زُهَيْرٍ . وَامَّا ٱلْاِسْلَامِيُّونَ فَوَقَعَ لَهُمْ عَفْوًا وَقَصْدًا وَاتَوا مِنْهُ بِٱلْعَجَائِبِ . وَاوَّلُ مَنْ احكَمَ طَرِيقَتَهُ حَبِيبُ بْنُ اوْسٍ وَٱلْبُحْتُرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ فَقَدْ كَانُوا مُولَعِينَ بِٱلصَّنْعَةِ وَيَأْتُونَ مِنْهَا بِٱلْعَجَبِ . وَقِيلَ اِنَّ اوَّلَ مَنْ ذَهَبَ اِلَى مُعَانَاتِهَا بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ وَٱبْنُ هَرْمَةَ وَكَانَا آخِرَ مَنْ يُسْتَشْهَدُ بِشِعْرِهِ فِي ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ ٱتَّبَعَهُمَا كُلْثُومُ بْنُ عَمْرٍو وَٱلْعَتَّابِيُّ وَمَنْصُورُ ٱلنَّمَرِيُّ وَمُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ وَابُو نُوَاسٍ . وَجَاءَ عَلَى آثَارِهِمْ حَبِيبٌ وَٱلْبُحْتُرِيُّ . ثُمَّ ظَهَرَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ فَخَتَمَ عَلَى ٱلْبَدِيعِ وَٱلصِّنَاعَةِ اجْمَعَ

فَتَامَّلْ قَوْلَهُمُ ٱلْمَطْبُوعَ ٱلْفَقِيدَ ٱلصَّنْعَةِ فِي اِحْكَامِ تَالِيفِهِ وَثِقَافَةِ تَرْكِيبِهِ فَلَوْ جَاءَتْ فِيهِ ٱلصَّنْعَةُ مِنْ بَعْدِ هٰذَا ٱلْاَصْلِ زَادَتْهُ حُسْنًا . وَامَّا ٱلْمَصْنُوعُ فَكَثِيرٌ مِنْ لَدُنِ بَشَّارٍ ثُمَّ حَبِيبٍ وَطَبَقَتِهِمَا ثُمَّ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ خَاتِمِ ٱلصَّنْعَةِ ٱلَّذِينَ جَرَى ٱلْمُتَاخِّرُونَ بَعْدَهُمْ فِي مَيْدَانِهِمْ وَنَسَجُوا عَلَى مِنْوَالِهِمْ . وَقَدْ تَعَدَّدَتْ اَصْنَافُ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ عِنْدَ اهْلِهَا وَٱخْتَلَفَتِ ٱصْطِلَاحَاتُهُمْ فِي ٱلْقَابِهَا . وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَجْعَلُهَا مُنْدَرِجَةً فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى انَّهَا غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي ٱلْاِفَادَةِ وَاِنَّمَا هِيَ تُعْطِي ٱلتَّحْسِينَ وَٱلرَّوْنَقَ . وَامَّا ٱلْمُتَقَدِّمُونَ مِنْ اهْلِ ٱلْبَدِيعِ فَهِيَ عِنْدَهُمْ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْبَلَاغَةِ وَلِذٰلِكَ يَذْكُرُونَهَا فِي ٱلْفُنُونِ ٱلْاَدَبِيَّةِ ٱلَّتِي لَا مَوْضُوعَ لَهَا . وَهِيَ رَأْيُ ٱبْنِ رَشِيقٍ فِي كِتَابِ ٱلْعُمْدَةِ لَهُ وَادَبَاءِ ٱلْاَنْدَلُسِ . وَذَكَرُوا فِي ٱسْتِعْمَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنْعَةِ شُرُوطًا مِنْهَا اَنْ تَقَعَ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا اكْتِرَاثٍ فِيمَا يُقْصَدُ مِنْهَا . وَامَّا ٱلْعَفْوُ فَلَا كَلَامَ فِيهِ

لِأَنَّهَا إِذَا بَرِئَتْ مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ سَلِمَ ٱلْكَلَامُ مِنْ عَيْبِ ٱلِٱسْتِهْجَانِ
لِأَنَّ تَكَلُّفَهَا وَمُعَانَاتَهَا يَصِيرُ إِلَى ٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱلتَّرَاكِيبِ ٱلْأَصْلِيَّةِ
لِلْكَلَامِ فَتُخِلُّ بِٱلْإِفَادَةِ مِنْ أَصْلِهَا وَتَذْهَبُ بِٱلْبَلَاغَةِ رَأْسًا وَلَا يَبْقَى
فِي ٱلْكَلَامِ إِلَّا تِلْكَ ٱلتَّحْسِينَاتُ. وَهٰذَا هُوَ ٱلْغَالِبُ ٱلْيَوْمَ عَلَى أَهْلِ
ٱلْعَصْرِ وَأَصْحَابِ ٱلْأَذْوَاقِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ يَسْخَرُونَ مِنْ كَلَفِهِمْ بِهٰذِهِ ٱلْفُنُونِ
وَيَعُدُّونَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْقُصُورِ عَنْ سِوَاهُ. ثُمَّ مِنْ شُرُوطِ ٱسْتِعْمَالِهَا عِنْدَهُمْ
ٱلْإِقْلَالُ مِنْهَا وَأَنْ تَكُونَ فِي بَيْتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ مِنَ ٱلْقَصِيدِ فَتَكْفِي فِي
زِينَةِ ٱلشِّعْرِ وَرَوْنَقِهِ وَٱلْإِكْثَارُ مِنْهَا عَيْبٌ. قَالَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ وَغَيْرُهُ. وَكَانَ
شَيْخُنَا أَبُو ٱلْقَسِمِ ٱلشَّرِيفُ ٱلسَّبْتِيُّ مُنْفِقُ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ بِٱلْأَنْدَلُسِ لِوَقْتِهِ
يَقُولُ: هٰذِهِ ٱلْفُنُونُ ٱلْبَدِيعَةُ إِذَا وَقَعَتْ لِلشَّاعِرِ أَوْ لِلْكَاتِبِ فَيَقْبُحُ
أَنْ يُسْتَكْثَرَ مِنْهَا لِأَنَّهَا مِنْ مُحَسِّنَاتِ ٱلْكَلَامِ وَمُزَيِّنَاتِهِ فَهِيَ بِمَثَابَةِ
ٱلْخِيلَانِ فِي ٱلْوَجْهِ يَحْسُنُ بِٱلْوَاحِدِ وَٱلِٱثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَقْبُحُ بِتَعْدَادِهَا
وَعَلَى نِسْبَةِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْظُومِ هُوَ ٱلْكَلَامُ ٱلْمَنْثُورُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ
وَٱلْإِسْلَامِ كَانَ أَوَّلًا مُرْسَلًا مُعْتَبَرَ ٱلْمُوَازَنَةِ بَيْنَ جُمَلِهِ وَتَرَاكِيبِهِ.
مُشَاهِدَةً مُوَازَنَتُهُ بِفَوَاصِلِهِ مِنْ غَيْرِ ٱلْتِزَامِ سَجْعٍ وَلَا ٱكْتِرَاثٍ بِصَنْعَةٍ.
حَتَّى نَبَغَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِلَالٍ ٱلصَّابِئُ كَاتِبُ بَنِي بُوَيْهِ فَتَعَاطَى ٱلصَّنْعَةَ
وَٱلتَّقْفِيَةَ وَأَتَى مِنْ ذٰلِكَ بِٱلْعَجَبِ وَعَابَ ٱلنَّاسُ عَلَيْهِ كَلَفَهُ بِذٰلِكَ فِي
ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ. وَإِنَّمَا حَمَلَهُ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِي مُلُوكِهِ مِنَ ٱلْعُجْمَةِ
وَٱلْبُعْدِ عَنْ صَوْلَةِ ٱلْخِلَافَةِ ٱلْمُنْفِقَةِ لِسُوءِ ٱلْبَلَاغَةِ. ثُمَّ ٱنْتَشَرَتِ ٱلصِّنَاعَةُ
فِي مَنْثُورِ ٱلْمُتَأَخِّرِينَ وَنُسِيَ عَهْدُ ٱلتَّرْسِيلِ وَتَشَابَهَتِ ٱلسُّلْطَانِيَّاتُ

وَٱلْاِخْوَانِيَّاتُ وَٱلْعَرَبِيَّاتُ بِٱلسُّوقِيَّاتِ وَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ . وَهٰذَا كُلُّهُ يَدُلُّكَ عَلَى اَنَّ ٱلْكَلَامَ ٱلْمَصْنُوعَ بِٱلْمُعَانَاةِ وَٱلتَّكْلِيفِ قَاصِرٌ عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَطْبُوعِ لِقِلَّةِ ٱلِاكْتِرَاثِ فِيهِ بِاَصْلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَٱلْحَاكِمُ فِي ذٰلِكَ ٱلذَّوْقُ

البحث الثالث

في السجع وانواعهِ

(عن صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي باختصار)

(راجع صفحة ٧٢ من علم الادب)

كَلِمَاتُ ٱلْاَسْجَاعِ مَوْضُوعَةٌ عَلَى اَنْ تَكُونَ سَاكِنَةَ ٱلْاَعْجَازِ مَوْقُوفًا عَلَيْهَا لِاَنَّ ٱلْغَرَضَ اَنْ يُجَانِسَ بَيْنَ ٱلْقَرَائِنِ وَيُزَاوِجَ بَيْنَهَا وَلَا يَتِمُّ ذٰلِكَ اِلَّا بِٱلْوَقْفِ . اَلَا تَرَى اَنَّ قَوْلَهُمْ: مَا اَبْعَدَ مَا فَاتْ . وَمَا اَقْرَبَ مَا هُوَ آتْ. لَوْ اُعْطِيَ اَوَاخِرُ ٱلْقَرَائِنِ مَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُ ٱلْاِعْرَابِ لَاَخْتَلَفَ اَوَاخِرُ ٱلْقَرَائِنِ وَفَاتَ ٱلسَّاجِعَ غَرَضُهُ. وَاِذَا رَاَيْنَاهُمْ يُخْرِجُونَ ٱلْكَلِمَةَ عَنْ اَوْضَاعِهَا لِلِازْدِوَاجِ فَيَقُولُونَ آتِيكَ بِٱلْغَدَوَاءِ اَوْ بِٱلْعَشَاءِ . وَهَنَانِي ٱلطَّعَامُ وَمَرَانِي . وَٱنْصَرِفْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ يُرِيدُونَ : ٱلْغَدَوَاتِ وَٱمْرَانِي وَمَوْزُورَات . مَعَ اَنَّ فِيهِ ٱرْتِكَابًا لِمُخَالَفَةِ ٱللُّغَةِ . وَكَذٰلِكَ : اَعْطِ ٱلْقَوْسَ بَارِيهَا . وَفِيهِ تَرْكُ ٱلْاِعْرَابِ مِنْ اَثْنَاءِ ٱلْكَلِمَةِ فَمَا ٱلظَّنُّ بِاَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ ٱلْمُشَبَّهَةِ بِٱلْقَوَافِي . وَٱلْاَوْلَى اَنْ يُقَالَ فِي اَوَاخِرِ ٱلْاَبْيَاتِ ٱلْفَوَاصِلِ اِذَا عُرِفَ هٰذَا

فَٱلْاَسجاعُ اَربَعةُ اَنوَاع : ٱلتَّرْصِيعُ وٱلْمتَوَازِي وٱلْمطَرَّفُ وٱلْمتاوِزنُ .
اَمَّا (ٱلتَّرْصِيعُ) فَهوَ اَنْ تَكُونَ ٱلاَلفَاظُ مُسْتَوِيَةَ ٱلاَوزَانِ مُتَّفِقَةَ ٱلاَعجَازِ كَقَوْلِه: اِنَّ اِلَينا اِيَابهمْ . ثُمَّ اِنَّ عَلَينَا حِسَابهمْ . وَقَوْلِهِ : اِنَّ ٱلاَبْرَارَ لَفِي نَعِيم . وَاِنَّ ٱلفُجَّارَ لَفِي جَحِيم . وَقَوْلِهِ: ٱللَّهمَّ اَقْبَلْ تَوْبَتِي وٱغسِلْ حَوْبَتِي . وَقَوْلِهمْ : فُلانٌ يَفْتَخِرُ بِٱلهِمَمِ ٱلعَالِيَةِ . لا بِٱلرِّمَمِ ٱلبالِيَة. وَقَوْلِهِمْ: حَتّى عَادَ تَعْرِيضُك وَتَمْرِيضُك تَصْحِيحًا . وَمِن ٱلنّظْمِ قَوْلُ ٱلخَنساء :

حَامِي ٱلحَقِيقَةِ مَحْمُود ٱلخَلِيقَةِ   مَهْدِيّ ٱلطّرِيقَةِ نَفَّاع وَضرَّارِ
جَوَّابِ قاصِيَة جَزَّازِ نَاصِيَـةِ   عَقَّادِ اَلوِيَةٍ لِلْخَيْلِ جرَّارِ

وَكَقَوْلِ اَبِي فِرَاسٍ :

وَافعَالُنا للراغِبِين كَرِيمَةٌ   وَاموَالُنا لِلطَّالِبِينَ نهابُ

وَقَوْل ٱلاَبيوَرْدِيّ :

يرُوحُ اليهمْ عَازِبُ ٱلحَمْدِ وَافِيًا   وَيَغدُو عَلَيْهِمْ طَالِبَ ٱلرِّفْدِ عَافِيًا

وَقَدْ يَجِيءُ مَعَ ٱلتَجْنِيسِ كَقَوْلِهِمْ : إذا قَلَّتِ ٱلاَنصارُ كَلَّتِ ٱلاَبصارُ . وَمَا وَرَاءَ ٱلخَلْقِ ٱلدَّمِيمِ اِلَّا ٱلخُلُقُ ٱلذَّمِيمُ . وَمِنَ ٱلنظْمِ قَوْلُ ٱلمطَرّزيّ :

وَدَرُّ جَلَالِهِ اَبدًا ثَمِينٌ   وَدَرُّ نَوَالِهِ اَبدًا غَزِيرُ

(وٱلْمتَوَازِي) وَهُوَ اَنْ يُرَاعَى فِي ٱلكَلِمَتَيْنِ ٱلاَخِيرَتَيْنِ مِنَ ٱلقَرِينَتَيْنِ وَٱلوَزْن مَعَ ٱتِّفَاقِ ٱلحَرْفِ ٱلاَخِرِ مِنْهُمَا كَقَوْلِهِ: فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ . وَاَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ . وَقَوْلِهِ : ٱللّهُمَّ اَعطِ مُنْفِقًا خَلَفًا .

وَأَعطِ مُمسكًا تلفًا. وَقَوْلِ ٱلْحَرِيرِيّ : أَلْجَأَنِي حُكْمُ دَهْرٍ قَاسِطٍ . إِلَى أَنْ أَنْتَجِعَ أَرْضَ وَاسِطٍ . وَقَوْلِهِ : وَأَوْدَى ٱلنَّاطِقُ وَٱلصَّامِتُ . وَرَثَى لَنَا ٱلْحَاسِدُ وَٱلشَّامِتُ . (وَٱلْمُطَرَّفُ) وَهُوَ أَنْ يُرَاعَى ٱلْحَرْفُ ٱلْأَخِيرُ فِي كِلْتَا قَرِينَتَيْهِ مِنْ غَيْرِ مُرَاعَاةِ ٱلْوَزْنِ . كَقَوْلِهِ : مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا . وَقَوْلِهِمْ : خِيَامُهُ مَحَطُّ ٱلرِّحَالِ . وَمُخَيِّمُ ٱلْآمَالِ . (وَٱلْمُتَوَازِنُ) وَهُوَ أَنْ يُرَاعَى فِي ٱلْكَلِمَتَيْنِ ٱلْأَخِيرَتَيْنِ مِنَ ٱلْقَرِينَتَيْنِ ٱلْوَزْنُ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱلْحَرْفِ ٱلْآخِرِ مِنْهُمَا . كَقَوْلِهِ : وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ . وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ . وَقَوْلِهِمْ : ٱصْبِرْ عَلَى حَرِّ ٱلْقِتَالِ . وَمَضَضِ ٱلنِّزَالِ . وَشِدَّةِ ٱلْمَصَاعِ وَمُدَاوَمَةِ ٱلْمِرَاسِ . فَإِنْ رَاعَى ٱلْوَزْنَ فِي جَمِيعِ كَلِمَاتِ ٱلْقَرَائِنِ أَوْ أَكْثَرِهَا وَقَابَلَ ٱلْكَلِمَةَ مِنْهَا بِمَا تُعَادِلُهَا وَزْنًا كَانَ أَحْسَنَ . كَقَوْلِهِ : وَآتَيْنَاهُمَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسْتَبِينَ . وَهَدَيْنَاهُمَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ . وَقَوْلِ ٱلْحَرِيرِيّ : أَسْوَدُ يَوْمِي ٱلْأَبْيَضُ وَأَبْيَضُ يَوْمِي ٱلْأَسْوَدُ . وَيُسَمَّى هٰذَا فِي ٱلشِّعْرِ ٱلْمُوَازَنَةَ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيّ :

فَقِفْ مُسْعِدًا فِيهِنَّ إِنْ كُنْتَ عَاذِرًا
وَسِرْ مُبْعِدًا عَنْهُنَّ إِنْ كُنْتَ عَاذِلَا

وَمِمَّا هُوَ شَرْطُ ٱلْحُسْنِ فِي هٰذَا ٱلْمُحَافَظَةُ عَلَى تَنَاسُبِهِ وَهُوَ ٱسْمٌ جَامِعٌ لِلْمُلَاءَمَةِ وَٱلتَّنَاسُبِ . فَٱلْمُلَاءَمَةُ تَأْلِيفُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُوَافِقَةِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ فِي ضَرْبِ ٱلِٱعْتِدَالِ . كَقَوْلِ لَبِيدٍ :

وَمَا ٱلْمَرْءُ إِلَّا كَٱلشِّهَابِ وَضَوْئِهِ ... يَعُودُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعُ

وَمَا ٱلْمَالُ وَٱلْاَهْلُونَ اِلَّا وَدِيعَةٌ   وَلَا بُدَّ يَوْمًا اَنْ تُرَدَّ ٱلْوَدَائِعُ

وَبَعْضُهُمْ يَعُدُّ ٱلتَّأْفِيقَ مِنْ بَابِ ٱلْمُلَاءَمَةِ وَهُوَ اَنْ يَضُمَّ اِلَى ذِكْرِ ٱلشَّيْءِ مَا يَلِيقُ بِهِ وَيَجْرِي مَجْرَاهُ وَاَنْ تَجْمَعَ ٱلْأُمُورَ ٱلْمُتَنَاسِبَةَ وَيُقَالُ لَهُ مُرَاعَاةُ ٱلنَّظِيرِ اَيْضًا. وَٱلتَّنَاسُبُ هُوَ تَرْتِيبُ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُتَآخِيَةِ ٱلَّتِي تَتَلَاءَمُ وَلَا تَتَنَافَرُ. كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

وَٱلرِّفْقُ يُمْنٌ وَٱلْاَنَاةُ سَعَادَةٌ   فَتَاَنَّ فِي رِفْقٍ تَنَالَ نَجَاحَا

وَٱلْيَأْسُ مِمَّا فَاتَ يُعْقِبُ رَاحَةً   وَلَرُبَّ مَطْعَمَةٍ تَعُودُ ذُبَاحَا

وَيُسَمَّى ٱلتَّشَابُهَ اَيْضًا. وَقِيلَ ٱلتَّشَابُهُ اَنْ تَكُونَ ٱلْاَلْفَاظُ غَيْرَ مُتَبَايِنَةٍ بَلْ مُتَقَارِبَةً فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلرِّقَّةِ وَٱلْمَتَانَةِ وَٱلسَّلَاسَةِ وَتَكُونَ ٱلْمَعَانِي مُنَاسِبَةً لِاَلْفَاظِهَا مِنْ غَيْرِ اَنْ يُكْسَى ٱللَّفْظُ ٱلشَّرِيفُ ٱلْمَعْنَى ٱلسَّخِيفَ اَوْ عَلَى ٱلضِّدِّ بَلْ يُصَاغَانِ مَعًا صِيَاغَةً تَنَاسُبٍ وَتَلَاؤُمٍ حَتَّى لَا يَكُونَ ٱلْكَلَامُ كَمَا قِيلَ:

وَبَعْضُ قَرِيضِ ٱلْمَرْءِ اَوْلَادُ عِلَّةٍ   يَكُدُّ لِسَانَ ٱلنَّاطِقِ ٱلْمُتَحَفِّظِ

البحث الرابع

في اقسام السجع وضروبه

(عن المثل السائر لابن الاثير باختصار)

(راجع صفحة ٧٣ من علم الادب)

اِعْلَمْ اَنَّ ٱلسَّجْعَ قَدْ يَنْقَسِمُ اِلَى ثَلَاثَةِ اَقْسَامٍ: ٱلْاَوَّلُ اَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلَانِ مُتَسَاوِيَيْنِ لَا يَزِيدُ اَحَدُهُمَا عَلَى ٱلْآخَرِ كَقَوْلِهِ:

وَٱلْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . فَٱلْمورِيَاتِ قَدْحًا . فَٱلْمغِيرَاتِ صُبْحًا . فَأَثرن بِهِ نقْعًا . فَوَسَطْنَا بِهِ جمْعًا . أَلَا تَرَى كَيْفَ جاءَتْ هٰذِهِ ٱلْفُصول مُتَساوِيَةَ ٱلْأَجْزاء حَتَّى كَأَنَّهَا أُفرِغتْ فِي قَالَبٍ وَاحِدٍ . وَأَمْثالُ ذٰلِكَ كَثِيرَةٌ وَهُوَ أَشرَفُ ٱلسَّجعِ مَنْزِلَةً لِلِاعْتِدَالِ ٱلَّذِي فيهِ

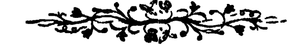
ٱلْقِسمُ ٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي أَطْوَلَ مِنَ ٱلْأَوَّلِ لَا طُولًا يَخْرُجُ بِهِ عَنِ ٱلِاعْتِدَالِ خُرُوجًا كَثِيرًا فَإِنَّهُ يَقْبُحُ عِنْدَ ذٰلِكَ وَيُستَكْرَهُ وَيُعدُّ عَيْبًا . فَمِمَّا جاءَ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ : بَلْ كَذَّبُوا بِٱلسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبورًا . أَلَا تَرَى أَنَّ ٱلْفَصْلَ ٱلْأَوَّلَ ثَمَانِي لَفَظَاتٍ وَٱلْفَصلَ ٱلثَّانِيَ وَٱلثَالِثَ تِسْعٌ تِسْعٌ . ويُستَثْنَى مِنْ هٰذَا ٱلْقِسمِ مَا كَانَ مِنَ ٱلسَّجْعِ عَلَى ثَلَاثِ فقر فَإِنَّ ٱلْفِقْرَتَيْنِ ٱلْأُولَيَيْنِ تُحْسَبَانِ فِي عِدَّةٍ وَاحِدَةٍ . ثُمَّ تَأْتِي ٱلثالِثَةُ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ طَوِيلَةً طُولًا يَزِيدُ عَلَيْهَا فَإِذَا كَانَتِ ٱلْأُولَى وَٱلثَّانِيَةُ أَرْبَعَ لَفَظَاتٍ تَكُونُ ٱلثَّالِثَةُ عَشْرَ لَفَظَاتٍ أَوْ إِحْدَى عَشْرَةَ . إِلَّا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ ذٰلِكَ قِيَاسًا مُطَّرِدًا فِي ٱلسَّجَعَاتِ ٱلثَّلَاثِ أَيْنَ وَقَعت من ٱلْكَلَامِ بَلْ تَعلمُ أَنَّ ٱلْجَوَازَ يَعُمُّ ٱلْجَانِبَيْنِ مِنَ ٱلتَّسَاوِي فِي ٱلسَّجعَاتِ ٱلثَّلَاثِ وَمِنْ زِيَادَةِ ٱلسَّجْعَةِ ٱلثَّالِثَةِ . أَلَا تَرَى أَنَّهُ قَدْ وَرَدَ ثَلَاثُ سَجَعَاتٍ مُتَساوِيَاتٍ كَقَوْلِهِ : وَأَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . مَا أَصْحَابُ ٱلْيَمِينِ . فِي سِدْرٍ مَخْضُود . وَطَلْحٍ مَنْضُود . وَظِلٍّ مَمْدُودٍ . فَهٰذِهِ ٱلسَّجَعَاتُ كُلُّهَا مِنْ لَفظَتَيْنِ لَفظَتَيْنِ وَلَوْ جُعِلَتِ

ٱلثَّالِثَةُ مِنهَا خمس لَفظَاتٍ اَوْ ستا لمَا كَانَ ذلك «عيبًا

اَلْقِسْمُ ٱلثَّالِثُ اَنْ يكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلآخِرُ اَقْصَرَ من ٱلاْوَّلِ وَهُوَ عِنْدِي عَيبٌ فاحِشٌ . وَسَببُ ذلِكَ : اَنَّ ٱلسَّجعَ يَكُونُ قَـدِ ٱسْتَوْفى اَمدَهُ مِنَ ٱلْفَصلِ ٱلاوَّلِ بحُكمِ طُولِهِ . ثُمَّ يَجيءُ ٱلْفَصْـلُ ٱلثانِي قَصِيرًا عَنِ ٱلاَوَّلِ فيَكُونُ كَٱلشَّيْءِ ٱلمَبْتُورِ فَيبقَى ٱلاِنسانُ عِندَ سَماعِهِ كمَنْ يُرِيدُ ٱلاِنْتِهَاءِ اِلَى غايَةٍ فيعثُرُ دُونهَا

وَاِذَا ٱنْتَهَينَا اِلَى هٰهُنا وَبَيَّنا اَقْسامَ ٱلسَّجعِ وَلُبَّهُ وقِشْوره فسنقُولُ فِيهِ قَوْلًا كُلِّيا وهُوَ اَنَّ ٱلسَّجْعَ عَلَى ٱخْتِلَافِ اَقسامِهِ ضَرْبَانِ : اَحَدُهُما يُسمَّى ٱلسَّجعَ ٱلْقَصِيرَ وَهُو اَنْ تَكُونَ كُلُّ واحِدة مِنَ ٱلسَّجعَتَـيْنِ مُؤلَّفَةً مِنْ اَلفاظٍ قليلةٍ وَكُلما قلتِ ٱلاَلْفَاظُ كَانَ اَحْسَنَ لقُرْبِ ٱلْفواصِلِ ٱلْمَسجُوعَةِ مِنْ مَسْمَعِ ٱلسَّامِعِ . وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ اوْعَرُ ٱلسَّجعِ مَذْهبا واَبعدُهُ مُتَناوَلًا ولا يَكَادُ ٱستِعْمَالُهُ يقَعُ اِلَّا نادِرًا . وَٱلضَّرْبُ ٱلآخَرُ يُسَمَّى ٱلسَّجعَ ٱلطَّوِيلَ وهُوَ ضِدُّ ٱلاَولِ لِاَنَّهُ اَسْهلُ مُتَناوَلًا . وَاِنَّمَا كَانَ ٱلْقَصِيرُ مِنَ ٱلسَّجعِ اَوْعر مَسْلَكًا مِنَ ٱلطَّوِيلِ لِانَّ ٱلْمعْنَى اِذا صِيغَ بِاَلْفاظ قَصيرةٍ عَزَّ مُؤَاتَاةُ ٱلسَّجعِ فِيهِ لقصرِ تِلْكَ ٱلاَلْفَاظِ وَضِيقِ ٱلْمجَالِ فِي ٱسْتِجْلَابِهِ . وَاَمَّا ٱلطَّوِيلُ فَاِنَّ ٱلاَلْفَاظَ تَطُولُ فِيهِ وَيُسْتَجلَبُ لَهُ ٱلسَّجعُ مِنْ حَيثُ لَيسَ كَمَا يُقَالُ وَكَانَ ذٰلِكَ سَهلًا. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلضَّرْبَيْنِ تتفَاوَتُ دَرَجَاتُهُ فِي عِدَّةِ ٱلاَلفاظ . اَمَّا ٱلسَّجعُ ٱلْقَصِيرُ فَاَحسَنُهُ مَا كَانَ مُؤَلَّفًا مِنْ لَفظَتَيْنِ لَفظَتَيْنِ كَقَوْلِهِ : وَٱلْمُرْسَـلَاتِ عُرْفًا . فَٱلْعَاصِفاتِ عَصْفًا . وَقَوْلِهِ : يَا اَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ

فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ . وَمِنْهُ مَا يَكُونُ مُؤَلَّفاً مِنْ ثَلَاثَةِ أَلْفَاظٍ وَأَرْبَعَةٍ وَخَمْسَةٍ وَكَذٰلِكَ إِلَى ٱلْعَشَرَةِ . وَمَا زَادَ عَلَى ذٰلِكَ فَهُوَ مِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا : سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ . وَكَذَّبُوا وَٱتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ . وَأَمَّا ٱلسَّجْعُ ٱلطَّوِيلُ فَإِنَّ دَرَجَاتِهِ تَتَفَاوَتُ فِي ٱلطُّولِ أَيْضاً فَمِنْهُ مَا يَقْرُبُ مِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلْقَصِيرِ . وَهُوَ أَنْ يَكُونَ تَأْلِيفُهُ مِنْ إِحْدَى عَشْرَةَ إِلَى ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَأَكْثَرُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَفْظَةً كَقَوْلِهِ : وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ . وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ . فَٱلْأُولَى إِحْدَى عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَٱلثَّانِيَةُ ثَلَاثَ عَشْرَةَ لَفْظَةً . وَمِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ مَا يَكُونُ تَأْلِيفُهُ مِنَ ٱلْعِشْرِينَ لَفْظَةً فَمَا حَوْلَهَا كَقَوْلِهِ : إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللّٰهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلٰكِنَّ ٱللّٰهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللّٰهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ . وَمِنَ ٱلسَّجْعِ ٱلطَّوِيلِ أَيْضاً مَا يَزِيدُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْعِدَّةِ ٱلْمَذْكُورَةِ وَهُوَ غَيْرُ مَضْبُوطٍ



البحث الخامس

في الايجاز

(عن المثل السائر وكتاب الصناعتين وغيرهما)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلْايجازُ حَذْفُ زِيَادَاتِ ٱلْأَلْفَاظِ وَهٰذَا نَوْعٌ مِنَ ٱلْكَلَامِ شَرِيفٌ لَا يَتعَلَّقُ بِهِ إِلَّا فُرْسَانُ ٱلْبَلَاغَةِ مَنْ سَبَقَ إِلَى غَايَتِهَا وَمَا صَلَّى. وَضَرَبَ فِي أَعْلَى دَرَجَاتِهَا بِٱلْقِدْحِ ٱلْمُعَلَّى. وَذٰلِكَ لِعُلُوِّ مَكَانِهِ. وَتَعَذُّرِ إِمْكَانِهِ وَٱلنَّظَرُ فِيهِ إِنَّمَا هُوَ إِلَى ٱلْمَعَانِي لَا إِلَى ٱلْأَلْفَاظِ. وَلَسْتُ أَعْنِي بِذٰلِكَ أَنْ تُهْمِلَ ٱلْأَلْفَاظَ بِحَيْثُ تَعْرَى عَنْ أَوْصَافِهَا ٱلْحَسَنَةِ بَلْ أَعْنِي أَنَّ مَدَارَ ٱلنَّظَرِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ إِنَّمَا يَخْتَصُّ بِٱلْمَعَانِي. فَرُبَّ لَفْظٍ قَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى كَثِيرٍ. وَرُبَّ لَفْظٍ كَثِيرٍ يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى قَلِيلٍ. وَمِثَالُ هٰذَا كَٱلْجَوْهَرَةِ ٱلْوَاحِدَةِ بِٱلنِّسْبَةِ إِلَى ٱلدَّرَاهِمِ. فَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى طُولِ ٱلْأَلْفَاظِ يُؤْثِرُ ٱلدَّرَاهِمَ لِكَثْرَتِهَا. وَمَنْ يَنْظُرُ إِلَى شَرَفِ ٱلْمَعَانِي يُؤْثِرُ ٱلْجَوْهَرَةَ ٱلْوَاحِدَةَ لِنَفَاسَتِهَا. قَالَ أَصْحَابُ ٱلْايجَازِ: ٱلْايجَازُ قُصُورُ ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَمَا تَجَاوَزَ مِقْدَارَ ٱلْحَاجَةِ فَهُوَ فَضْلٌ دَاخِلٌ فِي بَابِ ٱلْهَذَرِ وَٱلْخَطَلِ وَهُمَا مِنْ أَعْظَمِ أَدْوَاءِ ٱلْكَلَامِ وَفِيهِمَا دَلَالَةٌ عَلَى بَلَادَةِ صَاحِبِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَفِي تَفْضِيلِ ٱلْايجَازِ يَقُولُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى لِكُتَّابِهِ: إِنْ قَدَرْتُمْ أَنْ تَجْعَلُوا كُتُبَكُمْ تَوْقِيعَاتٍ فَٱفْعَلُوا. وَقَالَ

بَعضُهُمْ : ٱلزِّيَادَةُ فِي ٱلحَدِّ نُقصَانٌ . وَقَالَ مُحَمَّدٌ ٱلأَمِينُ : عَلَيكُم بِٱلإِيجَازِ فَإِنَّ لَهُ إِفهَامًا وَلِلإِطَالَةِ ٱستِبهَامًا . وَقَالَ شَبِيبُ بنُ شَيبَةَ : ٱلقَلِيلُ ٱلكَافُ خَيرٌ مِن كَثِيرٍ غَيرِ شَافٍ . وَقَالَ آخَرُ : إِذَا طَالَ ٱلكَلَامُ عَرَضَت لَهُ أَسبَابُ ٱلتَّكَلُّفِ وَلَا خَيرَ فِي شَيءٍ يَأتِي بِهِ ٱلتَّكَلُّفُ . وَقِيلَ لِبَعضِهِمْ : مَا ٱلبَلَاغَةُ . فَقَالَ : ٱلإِيجَازُ . قِيلَ : وَمَا ٱلإِيجَازُ . قَالَ : حَذفُ ٱلفُضُولِ وَتَقرِيبُ ٱلبَعِيدِ . وَقِيلَ لِبَعضِهِمْ : لِمَ لَا تُطِيلُ ٱلشِّعرَ . فَقَالَ : حَسبُكَ مِنَ ٱلقِلَادَةِ مَا أَحَاطَ بِٱلعُنُقِ . وَقِيلَ ذٰلِكَ لِآخَرَ . فَقَالَ : لَستُ أَبِيعُهُ مُذَارَعَةً . وَقِيلَ لِلفَرَزدَقِ : مَا صَيَّرَكَ إِلَى ٱلقِصَارِ بَعدَ ٱلطِّوَالِ . قَالَ : لِأَنِّي رَأَيتُهَا فِي ٱلصُّدُورِ أَوقَعَ وَفِي ٱلمَحَافِلِ أَجوَلَ . وَقَالَتْ بِنتُ ٱلحُطَيئَةِ لِأَبِيهَا : مَا بَالُ قِصَارِكَ أَكثَرُ مِن طِوَالِكَ . قَالَ : لِأَنَّهَا بِٱلآذَانِ أَولَجُ وَبِٱلأَفوَاهِ أَعلَقُ . وَقَالَ أَبُو سُفيَانَ لِٱبنِ ٱلزِّبَعرِيِّ : قَصَّرتَ فِي شِعرِكَ . قَالَ : حَسبُكَ مِنَ ٱلشِّعرِ غُرَّةٌ لَائِحَةٌ وَسِمَةٌ وَاضِحَةٌ . وَقِيلَ لِلنَّابِغَةِ ٱلذُّبيَانِيِّ : أَلَا تُطِيلُ ٱلقَصَائِدَ كَمَا أَطَالَ صَاحِبُكَ ٱبنُ حُجرٍ . قَالَ : مَنِ ٱنتَحَلَ ٱنتَقَرَ . وَقِيلَ لِبَعضِ ٱلمُحَدِّثِينَ : مَا لَكَ لَا تَزِيدُ عَلَى أَربَعَةٍ وَٱثنَينِ . قَالَ : هِيَ بِٱلقُلُوبِ أَوقَعُ وَإِلَى ٱلحِفظِ أَسرَعُ وَبِٱلأَلسُنِ أَعلَقُ وَلِلمَعَانِي أَجمَعُ وَصَاحِبُهَا أَبلَغُ وَأَوجَزُ . وَقِيلَ لِٱبنِ حَازِمٍ : أَلَا تُطِيلُ ٱلقَصَائِدَ . فَقَالَ :

أَبَى لِي أَنْ أُطِيلَ ٱلشِّعرَ قَصدِي ... إِلَى ٱلمَعنَى وَعِلمِي بِٱلصَّوَابِ

وَإِيجَازِي بِمُختَصَرٍ قَرِيبٍ ... حَذَفتُ بِهِ ٱلفُضُولَ مِنَ ٱلجَوَابِ

فَأَبعثُهن أربعةً وستاً مُثقَّفةً بألفاظ عِذاب
وَهنّ إذا وَسَمتُ بهنَّ قوماً كأطواقِ الحمائِم في الرّقابِ

وَقَالَ عَليٌّ : مَا رَأَيتُ بَليغاً قطُّ إلّا وَلهُ فِي القَولِ إيجازٌ وَفي المَعانِي إطالةٌ . وَقِيلَ لإياسِ بنِ مُعاوِيَةَ : مَا فِيكَ عَيبٌ غيرَ أنَّكَ كثيرُ الكَلام . قَالَ : أفتسمعُونَ صَواباً أم خطأً . قَالُوا بَل صَواباً . قَال : فالزِّيادَةُ مِنَ الخَيرِ خَيرٌ . وَليس كما قَالَ لِأَنّ لِلكَلام غَايَةً وَلنشاطِ السّامعينَ نهايَة . وما فضلَ عَنْ مقدارِ الاِحتمال وَدعَا إلَى الاِستِثقالِ وَصَارَ سبباً للمَلالِ فَذلكَ الهَذَرُ وَالإسهابُ وَالخَطلُ وَهُو مَعيبٌ عِندَ كُلِّ لبيبٍ . وَقال بَعضُهُم : البلاغةُ بالإيجاز أنجعُ مِنَ البَيانِ بالإِطنابِ . وقَالُوا : المِكثارُ كحاطِبِ اللّيلِ . ومثلُ الإِيجازِ الحسن كقَولِهِ : وخُذِ العفوَ وَأْمُرْ بالعُرفِ وَأَعرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ . فجمعَ جميعَ مكارمِ الأَخلاقِ بأسرهَا . لِأنَّ فِي العفوِ صِلةَ القَاطِعِينَ وَالصفحَ عَنِ الظالِمِينَ وَإعطَاءَ المَانِعِينَ . وَفي الأمرِ بالعُرفِ تقوَى اللّه وَصِلةَ الرّحِمِ وَصَونَ اللِّسانِ عَنِ الكَذِبِ وَغَضّ الطَّرفِ عَنِ المُحرّمَاتِ وَالتبرُّؤَ مِنْ كُلِّ قبيحٍ لِأَنَّهُ لا يَجُوزُ أنْ يَأْمُرَ بِالمَعرُوف وَهُوَ يُلابِسُ شَيئاً مِنَ المُنكَر . وَفي الإعرَاضِ عَنِ الجَاهِلِينَ الصّبرُ وَالحِلمُ وَتنزيهُ النّفسِ عَنْ مُقَابلَةِ السَّفِيهِ مِمّا يُوتِغُ الدّين وَيُسقطُ القُدرةَ . وَقَولُهُ : حُبُّكَ الشيءَ يُعمِي وَيُصِمّ . وَقَولُهُ إنَّ مِنَ البيانِ لَسِحراً . وَقَولُهُ : نِيّةُ المُؤْمِن خيرٌ مِنْ عَمَلِهِ . وَقَولُهُ : ترْكُ الشّرّ صَدَقةٌ . فمعَانِي هٰذا الكَلام أكثرُ مِنْ ألفاظِهِ . وَإذَا أردتَ أنْ تعرفَ صِحّةَ ذٰلكَ

فَحُلَّهَا وَٱنْبِهَا بِنَاءً آخَرَ فَإِنَّكَ تَجِدُهَا تَجِيءُ فِي اَضْعَافِ هٰذِهِ ٱلْاَلْفَاظِ .
وَقَوْلُهُ : إِذَا اَعْطَاكَ ٱللهُ خَيْرًا فَلْيَبِنْ عَلَيْكَ وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ
مِنَ ٱلْفَضْلِ وَلَا تَلُمْ عَلَى ٱلْكَفَافِ وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ . فَقَوْلُهُ :
(فَلْيَبِنْ عَلَيْكَ) اَيْ فَلْيَظْهَرْ اَثَرُهُ عَلَيْكَ بِٱلصَّدَقَةِ وَٱلْمَعْرُوفِ وَدَلَّ
عَلَى ذٰلِكَ بِقَوْلِهِ : (وَٱبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ وَٱرْتَضِخْ مِنَ ٱلْفَضْلِ) اَيِ
ٱكْسِرْ مِنْ مَالِكَ وَٱعْطِهِ) وَٱسْمُ ٱلشَّيْءِ ٱلرَّضِيخَةُ (وَلَا تَعْجِزْ عَنْ
نَفْسِكَ) اَيْ لَا تَجْمَعْ لِغَيْرِكَ وَتَبْخَلُ عَنْ نَفْسِكَ فَلَا تُقَدِّمْ خَيْرًا .
وَقَوْلُ اَعْرَابِيٍّ : اُولٰئِكَ قَوْمٌ جَعَلُوا اَمْوَالَهُمْ مَنَادِيلَ لِاَعْرَاضِهِمْ فَٱلْخَيْرُ
بِهِمْ زَائِدٌ وَٱلْمَعْرُوفُ لَهُمْ شَاهِدٌ . اَيْ يَقُونَ اَعْرَاضَهُمْ بِاَمْوَالِهِمْ .
وَقِيلَ لِاَعْرَابِيٍّ يَسُوقُ مَالًا كَثِيرًا : لِمَنْ هٰذَا ٱلْمَالُ . فَقَالَ : لِلّٰهِ فِي
يَدِي . وَقَالَ اَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ يَمْدَحُهُ : إِنَّهُ لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ يَعْلَمُ اَنَّ
ٱللهَ مَادَّتُهُ . وَقَوْلُ آخَرَ : اَمَا بَعْدُ فَعِظِ ٱلنَّاسَ بِفِعْلِكَ وَلَا تَعِظْهُمْ
بِقَوْلِكَ وَٱسْتَحْيِ مِنَ ٱللهِ بِقَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ . وَخَفْهُ بِقَدْرِ قُدْرَتِهِ عَلَيْكَ .
وَقَالَ آخَرُ : إِنْ شَكَكْتَ فِيَّ فَٱسْاَلْ قَلْبَكَ عَنِّي

وَٱعْلَمْ اَنَّ جَمَاعَةً مِنْ مُدَّعِي عِلْمِ ٱلْبَيَانِ ذَهَبُوا إِلَى اَنَّ ٱلْكَلَامَ
يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : فَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلْإِيجَازُ كَٱلْاَشْعَارِ وَٱلْمُكَاتَبَاتِ .
وَمِنْهُ مَا يَحْسُنُ فِيهِ ٱلتَّطْوِيلُ كَٱلْخُطَبِ وَٱلتَّقْلِيدَاتِ وَكُتُبِ ٱلْفُتُوحِ
ٱلَّتِي تُقْرَاُ فِي مَلَاٍ مِنْ عَوَامِّ ٱلنَّاسِ . فَاِنَّ ٱلْكَلَامَ اِذَا طَالَ فِي
مِثْلِ ذٰلِكَ اَثَّرَ عِنْدَهُمْ وَاَفْهَمَهُمْ وَلَوِ ٱقْتُصِرَ فِيهِ عَلَى ٱلْإِيجَازِ وَٱلْإِشَارَةِ
لَمْ يَقَعْ لِاَكْثَرِهِمْ حَتَّى يُقَالَ فِي ذِكْرِ ٱلْحَرْبِ : ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَتَطَاعَنَ

ٱلْفَرِيقَانِ وَٱشْتَدَّ ٱلْقِتَالُ وَحَمِيَ ٱلنِّصَالُ وَمَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى. وَٱلْمَذْهَبُ عِنْدِي فِي ذٰلِكَ مَا اَذْكُرُهُ: وَهُوَ اَنَّ فَهْمَ ٱلْعَامَّةِ لَيْسَ شَرْطًا مُعْتَبَرًا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْكَلَامِ. لِاَنَّهُ لَوْ كَانَ شَرْطًا لَوَجَبَ عَلَى قِيَاسِهِ اَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْاَلْفَاظَ ٱلْعَامِيَّةَ ٱلْمُبْتَذَلَةَ عِنْدَهُمْ لِيَكُونَ ذٰلِكَ اَقْرَبَ اِلَى فَهْمِهِمْ. لِاَنَّ ٱلْعِلَّةَ فِي ٱخْتِيَارِ تَطْوِيلِ ٱلْكَلَامِ اِذَا كَانَتْ فَهْمَ ٱلْعَامَّةِ اِيَّاهُ فَكَذٰلِكَ تُجْعَلُ تِلْكَ ٱلْعِلَّةُ بِعَيْنِهَا فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْمُبْتَذَلِ مِنَ ٱلْكَلَامِ فَاِنَّهُ لَا خِلَافَ فِي اَنَّ ٱلْعَامَّةَ اِلَى فَهْمِهِ اَقْرَبُ مِنْ فَهْمِ مَا يَقِلُّ ٱبْتِذَالُهُمْ اِيَّاهُ. وَهٰذَا شَيْءٌ مَدْفُوعٌ وَاَمَّا ٱلَّذِي يَجِبُ تَوَخِّيهِ وَٱعْتِمَادُهُ فَهُوَ اَنْ يُسْلَكَ ٱلْمَذْهَبُ ٱلْقَوِيمُ فِي تَرْكِيبِ ٱلْاَلْفَاظِ عَلَى ٱلْمَعَانِي بِحَيْثُ لَا تَزِيدُ هٰذِهِ عَلَى هٰذِهِ مَعَ ٱلْاِيضَاحِ وَٱلْاِبَانَةِ وَلَيْسَ عَلَى مُسْتَعْمِلِ ذٰلِكَ اَنْ يَفْهَمَ ٱلْعَامَّةُ كَلَامَهُ فَاِنَّ نُورَ ٱلشَّمْسِ اِذَا لَمْ يَرَهُ ٱلْاَعْمَى لَا يَكُونُ ذٰلِكَ نَقْصًا فِي ٱسْتِنَارَتِهِ وَاِنَّمَا ٱلنَّقْصُ فِي بَصَرِ ٱلْاَعْمَى حَيْثُ لَمْ يَسْتَطِعِ ٱلنَّظَرَ اِلَيْهِ:

عَلَيَّ نَحْتُ ٱلْقَوَافِي مِنْ مَعَادِنِهَا ... وَمَا عَلَيَّ بِاَنْ لَا تَفْهَمَ ٱلْبَقَرُ

وَحَيْثُ ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْقَوْلُ اِلَى هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَلْنَرْجِعْ اِلَى مَا هُوَ غَرَضُنَا وَمُهِمُّنَا مِنَ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْاِيجَازِ وَحَدِّهِ وَاَقْسَامِهِ وَنُوضِحُ ذٰلِكَ اِيضَاحًا جَلِيًّا وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ فَنَقُولُ: حَدُّ ٱلْاِيجَازِ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ اَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ. وَٱلتَّطْوِيلُ هُوَ ضِدُّ ذٰلِكَ وَهُوَ اَنْ يُدَلَّ عَلَى ٱلْمَعْنَى بِلَفْظٍ يَكْفِيكَ بَعْضُهُ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ. كَقَوْلِ ٱلْعُجَيْرِ ٱلسَّلُولِيِّ مِنْ اَبْيَاتِ ٱلْحَمَاسَةِ:

طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا وَسَابِقٌ ‌ ‌ إِلَى غَايَةٍ مَنْ يَبْتَدِرْهَا يُقَدَّمِ

فَصَدْرُ هٰذَا ٱلبيتِ فيهِ تَطْوِيلٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَعَجُزُهُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَوَاصِفَةِ . وَمَوْضِعُ ٱلتَّطْوِيلِ مِنْ صَدْرِهِ أَنَّهُ قَالَ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا بِٱلْمَطَايَا) فَإِنَّ لَفْظَةَ ٱلْمَطَايَا فَضْلَةٌ لَا حَاجَةَ إِلَيْهَا . وَبَيَانُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْلُو ٱلْأَمْرُ فِيهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا أَنْ يُرِيدَ أَنَّهُ سَابِقُ ٱلْهِمَّةِ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ كَمَا قَالَ ٱلْحَجَّاجُ عَلَى ٱلْمِنْبَرِ عِنْدَ وُصُولِهِ ٱلْعِرَاقَ : أَنَا ٱبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ ٱلثَّنَايَا . أَيْ أَنَا ٱلرَّجُلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلسَّابِقُ إِلَى مَعَالِي ٱلْأُمُورِ . فَإِنْ أَرَادَ ٱلْمُجِيزُ بِقَوْلِهِ : (طُلُوعُ ٱلثَّنَايَا) مَا أَشَرْتُ إِلَيْهِ فَذِكْرُ ٱلْمَطَايَا يُفْسِدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى لِأَنَّ مَعَالِيَ ٱلْأُمُورِ لَا يُرْقَى إِلَيْهَا بِٱلْمَطَايَا . وَإِنْ أَرَادَ ٱلْوَجْهَ ٱلْآخَرَ وَهُوَ أَنَّهُ كَثِيرُ ٱلْأَسْفَارِ فَٱخْتِصَاصُهُ ٱلثَّنَايَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَغَيْرِهَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ . وَعَلَى كِلَا ٱلْوَجْهَيْنِ فَإِنَّ ذِكْرَ ٱلْمَطَايَا لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ وَهُوَ تَطْوِيلٌ بَارِدٌ غَثٌّ . فَقِسْ عَلَى هٰذَا ٱلْمِثَالِ مَا يَجْرِي مَجْرَاهُ مِنَ ٱلتَّطْوِيلَاتِ ٱلَّتِي إِذَا أُسْقِطَتْ مِنَ ٱلْكَلَامِ بَقِيَ عَلَى حَالِهِ لَمْ يَتَغَيَّرْ شَيْءٌ . وَكَذٰلِكَ يَجْرِي ٱلْأَمْرُ فِي أَلْفَاظٍ يُوصَلُ بِهَا ٱلْكَلَامُ فَتَارَةً تَجِيءُ لِفَائِدَةٍ وَذٰلِكَ قَلِيلٌ وَتَارَةً تَجِيءُ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ . وَأَكْثَرُ مَا تَرِدُ فِي ٱلْأَشْعَارِ لِيُوزَنَ بِهَا ٱلْأَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِيَّةُ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِهِمْ : لَعَمْرِي وَلَعَمْرُكَ وَنَحْوُ : أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَظَلَّ وَأَضْحَى وَبَاتَ وَأَشْبَاهِ ذٰلِكَ . وَنَحْوُ : يَا صَاحِبِي وَيَا خَلِيلِي وَمَا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ :

اَقرُّوا لَعمرِي لِحُكم ٱلسُّيُوفِ   وَكانتْ احقَّ بِفَصلِ ٱلقضاء

فَإِنْ قولَهُ : (لَعمري) زِيادةٌ لَاحاجَةَ لِلمَعْنَى اِليها وَهِيَ حشْوٌ في هٰذَا ٱلبيْتِ لافَائدَةَ فِيهِ الّا اِصْلاحُ ٱلوَزْنِ لاغيرُ . اَلاتَرى انها من بَاب ٱلقسمِ وانمَا يَرِدُ ٱلقسمُ فِي مَوضِع يُؤكّدُ بِهِ ٱلمعْنَى ٱلمرَادُ اما لانّهُ يُشكّ فيه اَوْ بِما يَعِزُّ وُجودُهُ اوْ ما جرى هٰذَا ٱلمجْرى . وهٰذَا ٱلبيتُ ٱلشِّعْريُّ لا يفْتَقرُ مَعْناهُ الَى توْكيد قسميّ اِذ لا شك اَنَّ ٱلسُّيُوف حَاكمَةٌ وانَّ كلّ احدٍ يقِرُّ لِحكمِها وَيُذعِنُ لِطاعَتها. وَكذلكَ قَولُهُ ايضًا :

اذا انَا لَمْ اَلُمْ عَثَراتِ دَهْر   بُليتُ به ٱلغَداة فَمَنْ اَلُومُ

فَقولُهُ : (ٱلغداة) زيادةٌ لَا حَاجَةَ للمَعنى اليها لِانَّهُ يَتمُّ بدونها لانَّ عَثَرَاتِ ٱلدهرِ لَمْ تنلهُ ٱلغداة وَلا ٱلعَشيّ وَانمَا نَالَتْهُ وَنَيْلُها اَيَّاهُ لا بدّ اَنْ يَقعَ في زمَن مِنَ ٱلاَزْمنةِ كَائنا ما كَانَ وَلا حَاجَةَ الَى تقييده بِالذّكر . وعَلَى هٰذا ورد قوْلُ ٱلبُحْتُريّ :

ما احسن ٱلايام اِلّا انَها   يَاصَاحِبَيّ اذا مضتْ لم ترْجع

فقوْلُهُ : (يَاصَاحِبَيّ) زِيادةٌ لاحاجة بِالمَعْنَى اِليهَا اِلّا انَها وَرَدتْ لتَصْحِيح ٱلوَزْنِ لَا غيْرَ . وَهٰذِه ٱلاَلفَاظُ ٱلتِي تَرِدُ فِي ٱلاَبيَاتِ ٱلشِّعْرِيّة لتصْحِيحِ ٱلوَزْنِ لَاعيْبَ فِيهَا . لِاَنّا لَوْ عِبْناهَا عَلَى ٱلشُّعرَاء لتحَجّرْنا عَليهِمْ وَضَيّقْنَا ٱلوَزْنَ وَيُضطَرُّ فِي بَعْضِ ٱلاَحوالِ اِلَى مِثْلِ ذلِكَ لَكنْ اِذا وردَتْ فِي ٱلكلَام ٱلمَنْثُور فَانها اِنْ وَرَدَتْ حَشْوا وَلَمْ تردْ لِفائدَة كانتْ عَيبا . وَقدْ تَرِدُ فِي ٱلاَبياتِ ٱلشِّعرِيةِ وَيَكُونُ

وُرُودُهَا لِفَائِدَةٍ . . . فَاعْلَمْ اَيُّهَا ٱلنَّاظِرُ فِي كِتَابِي هٰـذَا اَنَّ ٱلتَّطْوِيلَ هُوَ زِيَادَاتُ ٱلْاَلْفَاظِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَعَانِي وَمَهْمَا اَمْكَنَكَ حَذْفُ شَيْءٍ مِنَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلدَّلَالَةِ عَلَى مَعْنًى مِنَ ٱلْمَعَانِي فَاِنَّ ذٰلِكَ ٱللَّفْظَ هُوَ ٱلتَّطْوِيلُ بِعَيْنِهِ . وَاَمَّا ٱلْاِيجَازُ فَقَدْ عَرَّفْتُكَ اَنَّهُ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ اَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِ . وَهُوَ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (اَحَدُهُمَا) ٱلْاِيجَازُ بِٱلْحَذْفِ وَهُوَ مَا يُحْذَفُ مِنْهُ ٱلْمُفْرَدُ وَٱلْجُمْلَةُ لِدَلَالَةِ فَحْوَى ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَحْذُوفِ وَلَا يَكُونُ اِلَّا فِيمَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ . (وَٱلْقِسْمُ ٱلْآخَرُ) مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهُ شَيْءٌ وَهُوَ ضَرْبَانِ : (اَحَدُهُمَا) مَا سَاوَى لَفْظُهُ مَعْنَاهُ وَيُسَمَّى ٱلتَّقْـدِيرَ . (وَٱلْآخَرُ) مَا زَادَ مَعْنَاهُ عَلَى لَفْظِهِ وَيُسَمَّى ٱلْقَصْرَ . وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْقِسْمَ ٱلْاَوَّلَ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْاِيجَازُ بِٱلْحَذْفِ يُتَنَبَّهُ لَهُ مِنْ غَيْرِ كَبِيرِ كُلْفَةٍ فِي ٱسْتِخْرَاجِهِ لِمَكَانِ ٱلْمَحْذُوفِ مِنْهُ . وَاَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي فَاِنَّ ٱلتَّنَبُّهَ لَهُ عَسِرٌ لِاَنَّهُ يَحْتَاجُ اِلَى فَضْلِ تَاَمُّلٍ وَطُولِ فِكْرَةٍ لِخَفَاءِ مَا يُسْتَدَلُّ عَلَيْهِ وَلَا يَسْتَنْبِطُ ذٰلِكَ اِلَّا مَنْ رَسَتْ قَدَمُهُ فِي مُمَارَسَةِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ وَصَارَ لَهُ خَلِيقَةً وَمَلَكَةً . وَلَمْ اَجِدْ اَحَدًا عَلَّمَ هٰذَيْنِ ٱلْقِسْمَيْنِ بِعَلَامَةٍ وَلَا قَيَّدَهُمَا بِقَيْدٍ . . . فَنَقُولُ اَمَّا ٱلْاِيجَازُ بِٱلْحَذْفِ فَاِنَّهُ عَجِيبُ ٱلْاَمْرِ شَبِيـهٌ بِٱلسِّحْرِ وَذَاكَ اَنَّكَ تَرَى فِيهِ تَرْكَ ٱلذِّكْرِ اَفْصَحَ مِنَ ٱلذِّكْرِ وَٱلصَّمْتَ عَنِ ٱلْاِفَادَةِ اَزْيَدَ لِلْاِفَادَةِ وَتَجِدُكَ اَنْطَقَ مَا تَكُونُ اِذَا لَمْ تَنْطِقْ وَاَتَمَّ مَا تَكُونُ مُبَيِّنًا اِذَا لَمْ تُبَيِّنْ وَهٰذِهِ جُمْلَةٌ تُنْكِرُهَا حَتَّى تُخْبَرَ وَتَدْفَعُهَا حَتَّى تَنْظُرَ . وَٱلْاَصْلُ فِي ٱلْمَحْذُوفَاتِ جَمِيعِهَا عَلَى ٱخْتِلَافِ ضُرُوبِهَا

انْ يَكُونَ فِي الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْمَحْذُوفِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ دَلِيلٌ عَلَى الْمَحْذُوفِ فَإِنَّهُ لَغْوٌ مِنَ الْحَدِيثِ لَا يَجُوزُ بِوَجْهٍ وَلَا سَبَبٍ . وَمِنْ شَرْطِ الْمَحْذُوفِ فِي حُكْمِ الْبَلَاغَةِ انَّهُ مَتَى اُظْهِرَ صَارَ الْكَلَامُ إِلَى شَيْءٍ غَثٍّ لَا يُنَاسِبُ مَا كَانَ عَلَيْهِ اوَّلًا مِنَ الطُّلَاوَةِ وَالْحُسْنِ وَقَدْ يَظْهَرُ الْمَحْذُوفُ بِالْإِعْرَابِ كَقَوْلِنَا: اَهْلًا وَسَهْلًا . فَإِنَّ نَصْبَ الْأَهْلِ وَالسَّهْلِ يَدُلُّ عَلَى نَاصِبٍ مَحْذُوفٍ وَلَيْسَ لِهٰذَا مِنَ الْحُسْنِ مَا لِلَّذِي لَا يَظْهَرُ بِالْإِعْرَابِ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ بِالنَّظَرِ إِلَى تَمَامِ الْمَعْنَى كَقَوْلِنَا : فُلَانٌ يَحُلُّ وَيَعْقِدُ فَإِنَّ ذٰلِكَ لَا يَظْهَرُ الْمَحْذُوفُ بِهِ بِالْإِعْرَابِ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ بِالنَّظَرِ إِلَى تَمَامِ الْمَعْنَى اَيْ إِنَّهُ يَحُلُّ الْأُمُورَ وَيَعْقِدُهَا . وَالَّذِي يَظْهَرُ فِي الْإِعْرَابِ يَقَعُ فِي الْمُفْرَدَاتِ مِنَ الْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرًا وَالَّذِي لَا يَظْهَرُ بِالْإِعْرَابِ يَقَعُ فِي الْجُمَلِ مِنَ الْمَحْذُوفَاتِ كَثِيرٌ

البحث السادس

في المساواة

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

(راجع صفحة ٧٥ من علم الادب)

اَلْمُسَاوَاةُ هِيَ اَنْ تَكُونَ الْمَعَانِي بِقَدْرِ الْأَلْفَاظِ وَالْأَلْفَاظُ بِقَدْرِ الْمَعَانِي لَا يَزِيدُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ وَهُوَ الْمَذْهَبُ الْمُتَوَسِّطُ بَيْنَ الْإِيجَازِ وَالْإِطْنَابِ وَإِلَيْهِ اَشَارَ الْقَائِلُ بِقَوْلِهِ : كَأَنَّ اَلْفَاظَهُ قَوَالِبُ لِمَعَانِيهِ

اي لا يزيد بعضها على بعض . فمما جاء من ذلك قوله : لا تزال امتي بخير ما لم تر الامانة مغنماً والزكاة مغرماً . وقوله : اياك والمشاورة فانها تميت الغرة وتحيي العزة . ومن الفاظ هذه الفصول ما كانت معانيه اكثر من الفاظه وانما يكره تميزها كراهة الاطالة . ومن نثر الكتاب قول بعضهم : سألت عن خبري وانا في عافية لا عيب فيها الا فقدك ونعمة لا مزيد فيها الا بك . وقوله : علمتني نبوتك سلوتك واسلمني يأسي منك الى الصبر عنك . وقوله : فحفظ الله النعمة عليك وفيك وتولى اصلاحك والاصلاح اليك واجزل من الخير حظك والحظ منك ومن عليك وعلينا بك . وقال آخر يئست من صلاحك بي واخاف فسادي بك وقد اطنب في ذم الحمار من شبهك به . ومن المنظوم قول طرفة :

ستبدي لك الايام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالاخبار من لم تزود

وقول الآخر :

تهدا الامور باهل الرأي ما صلحت فان تابت فبالاشرار تنقاد

وقول الآخر :

اما الذي يحصيهم فمكثر اما الذي يطريهم فمقلل

وقول الآخر :

اهابك اجلالا وما بك قدرة علي ولكن ملء عين حبيبها
وما هجرتك النفس انك عندها قليل ولكن قل منك نصيبها

البحث السابع

في الاطناب

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٧٦ من علم الادب)

قَالَ اَصحَابُ ٱلْاِطْنابِ: ٱلْمَنطِقُ اِنَّمَا هُوَ بَيَانٌ وَٱلْبَيَانُ لَا يَكُونُ اِلَّا بِإِشْبَاعٍ وَٱلشِّفَاءُ لَا يَقَعُ اِلَّا بِٱلْاِقْنَاعِ . وَاَفضَلُ ٱلْكَلَامِ اَبْيَنُهُ وَاَبْيَنُهُ اشَدُّهُ اِحَاطَةً بِٱلْمَعَانِي وَلَا يُحَاطُ بِٱلْمَعَانِي اِحَاطَةً تَامَّةً اِلَّا بِٱلْاَسْتِقْصَاءِ. وَٱلْاِيجَازُ لِلْخَوَاصِّ وَٱلْاِطْنَابُ مُشْتَرِكٌ فِيهِ ٱلْخَاصَّةُ وَٱلْعَامَّةُ وَٱلْغَبِيُّ وَٱلْفَطِنُ وَٱلرَّيِّضُ وَٱلْمُرْتَاضُ وَلِمَعْنًى مَا اُطِيلَتِ ٱلْكُتُبُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ فِي اِفْهَامِ ٱلرَّعَايَا. وَٱلْقَوْلُ ٱلْقَصْدُ اَنَّ ٱلْاِيجَازَ وَٱلْاِطْنَابَ يُحْتَاجُ اِلَيْهِمَا فِي جَمِيعِ ٱلْكَلَامِ وَكُلِّ نَوْعٍ مِنْهُ وَلِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَوْضِعٌ فَٱلْحَاجَةُ اِلَى ٱلْاِيجَازِ فِي مَوْضِعِهِ كَٱلْحَاجَةِ اِلَى ٱلْاِطْنَابِ فِي مَكَانِهِ. فَمَنْ اَزَالَ ٱلتَّدْبِيرَ فِي ذٰلِكَ عَنْ وَجْهِهِ فَٱسْتَعْمَلَ ٱلْاِطْنَابَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِيجَازِ وَٱسْتَعْمَلَ ٱلْاِيجَازَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِطْنَابِ اَخْطَاَ . كَمَا رُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بنِ يَحْيَى اَنَّهُ قَالَ مَعَ عُجْبِهِ بِٱلْاِيجَازِ : مَتَى كَانَ ٱلْاِيجَازُ اَبْلَغَ كَانَ ٱلْاِكْثَارُ عِيًّا وَمَتَى كَانَتِ ٱلْكِتَابَةُ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِكْثَارِ كَانَ ٱلْاِيجَازُ تَقْصِيرًا . وَاَمَرَ خَالِدُ بْنُ يَحْيَى ٱثْنَيْنِ اَنْ يَكْتُبَا كِتَابًا وَاحِدًا فِي مَعْنًى وَاحِدٍ فَاَطَالَ اَحَدُهُمَا وَٱخْتَصَرَ ٱلْآخَرُ . فَقَالَ لِلْمُخْتَصِرِ وَقَدْ نَظَرَ فِي كِتَابِهِ : مَا اَرَى مَوْضِعَ مَزِيدٍ . وَقَالَ لِلْمُطِيلِ : مَا

أرى موضع نقصانٍ . وقال غيرهُ : البلاغة الايجاز في غير عجزٍ والاطناب في غير خطلٍ . ولا شكَّ في انَّ الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة والفتوح الجليلة وتفخيم النعم الحادثة او الترغيب في الطاعة والنهي عن المعصية . سبيلها ان تكون مشبعة مستقصاة تملأ الصدور وتأخذ بمجامع القلوب . فالاطناب بلاغةٌ والتطويل عيٌّ . لانَّ التطويل بمنزلة سلوك ما يبعد جهلاً بما يقرب . والاطناب بمنزلة سلوك طريق بعيدٍ نزهٍ يحتوي على زيادة فائدةٍ . وقال الخليل : يختصر الكتاب ليحفظ ويبسط ليفهم . وقيل لأبي عمرو ابن العلاء هل كانت العرب تطيل . قال : نعم كانت تطيل ليسمع منها وتوجز ليحفظ عنها . والاطناب اذا لم يكن منهُ بدٌّ ايجازٌ وهو في المواعظ خاصَّة محمودٌ كما انَّ الايجاز في الافهام محمودٌ ممدوحٌ . والموعظة كقوله : أفأمن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون . او أمن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحىً وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون. فتكرير ما كرر من الالفاظ هاهنا في غاية حسن الموقع . وقيل لبعضهم : متى يحتاج الى الاكثار . قال : اذا عظم الخطب وانشد :

صموتٌ اذا ما الدهر زيَّن اهلهُ وفتَّاق ابكار الكلام المحبَّر

وقال آخر :

يرمون بالخطب الطوال وتارةً وحي الملاحظ خشية الرقباء

وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

إِذَا مَا ٱنْتَدَى خَاطِبًا لَمْ يُقَـلْ ... لَهُ أَطِـلِ ٱلْقَوْلَ أَوْ قَصِّر

طَبِيبٌ بِدَاءِ فُنُونِ ٱلْكَلَا ... مِ لَمْ يَعْيَ يَوْمًا وَلَمْ يَهْـذِرِ

فَإِنْ هُوَ أَطْنَبَ فِي خُطْبَـةٍ ... قَضِي الْمُطِيـلُ عَلَى ٱلْمُقْصِرِ

وَإِنْ هُوَ أَوْجَزَ فِي خُطْبَـةٍ ... قَضِي لِلْمُقِلِّ عَلَى ٱلْمُكْثِرِ

وَوَجَدَ ٱلنَّاسَ إِذَا خَطَبُوا فِي ٱلصُّلْحِ بَيْنَ ٱلْعَشَائِرِ أَطَالُوا . وَإِذَا أَنْشَدُوا ٱلشِّعْرَ بَيْنَ ٱلسِّمَاطَيْنِ فِي مَدِيحِ ٱلْمُلُوكِ أَطْنَبُوا . وَٱلْإِطَالَةُ وَٱلْإِطْنَابُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ إِيجَازٌ . وَقِيـلَ لِقَيْسِ بْنِ خَارِجَةَ : مَا عِنْدَكَ فِي حَمَالَاتِ دَاحِسٍ . قَالَ : عِنْدِي قِرَى كُلِّ نَازِلٍ وَرِضَى كُلِّ سَاخِطٍ وَخُطْبَةٌ مِنْ لَدُنْ مَطْلَعِ ٱلشَّمْسِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ آمُرُ فِيهَـا بِٱلتَّوَاصُلِ وَأَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ . فَقِيلَ لِأَبِي يَعْقُوبَ ٱلْخُرَيْمِيِّ : هَلَّا ٱكْتَفَى بِقَوْلِهِ : آمُرُ فِيهَا بِٱلتَّوَاصُلِ فَقَالَ : وَأَنْهَى عَنِ ٱلتَّقَاطُعِ) . قَالَ : أَوَ مَا عَلِمْتَ أَنَّ ٱلْكِنَايَةَ وَٱلتَّعْرِيضَ لَا تَعْمَلُ عَمَلَ ٱلْإِطْنَابِ وَٱلتَّكْشِيفِ . وَقَدْ رَأَيْنَا فِي ٱلْقُرْآنِ أَنَّهُ : إِذَا خَاطَبَ ٱلْعَرَبَ وَٱلْأَعْرَابَ أَخْرَجَ ٱلْكَلَامَ مُخْرَجَ ٱلْإِشَارَةِ . وَإِذَا خَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ حَكَى عَنْهُمْ جَعَلَ ٱلْكَلَامَ مَبْسُوطًا . وَقَلَّ مَا تَجِدُ قِصَّةً لِبَنِي إِسْرَائِيـلَ فِي ٱلْقُرْآنِ إِلَّا مُطَوَّلَةً مَشْرُوحَةً وَمُكَرَّرَةً فِي مَوَاضِعَ مُعَادَةً لِبُعْـدِ فَهْمِهِمْ وَتَأَخُّرِ مَعْرِفَتِهِمْ . وَكَلَامُ ٱلْفُصَحَاءِ إِنَّمَا هُوَ شَوْبُ ٱلْإِيجَـازِ بِٱلْإِطْنَابِ . وَٱلْفَصِيحُ ٱلْعَالِي مَا دُونَ ذٰلِـكَ مِنَ ٱلْقَصْدِ ٱلْمُتَوَسِّطِ لِيُسْتَدَلَّ بِٱلْقَصْدِ عَلَى ٱلْعَالِي وَلِيَخْرُجَ ٱلسَّامِعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ فَيَزْدَادَ

نَشَاطُهُ وَتَتَوَفَّرَ رَغْبَتُهُ فَيَتَصَرَّفُوا فِي وُجُوهِ ٱلْكَلَامِ إِيجَازِهِ وَإِطْنَابِهِ حَتَّى ٱسْتَعْمَلُوا ٱلتَّكْرَارَ لِتَوَكُّدِ ٱلْقَوْلِ لِلسَّامِعِ . وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْقُرْآنِ وَفِي فَصِيحِ ٱلشِّعْرِ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ مِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ: كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . وَقَدْ جَاءَ مِثْلُ ذٰلِكَ عَنْ اَهْلِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ . قَالَ مُهَلْهِلٌ :

عَلَى اَنْ لَيْسَ عِدْلًا مِنْ كُلَيْبِ

فَكَرَّرَهَا فِي اَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ بَيْتًا . وَهٰكَذَا قَوْلُ ٱلْحٰرِثِ ٱبْنِ عَبَّادٍ :

قَرِّبَا مَرْبِطَ ٱلنَّعَامَةِ مِنِّي

كَرَّرَهَا فِي اَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ هٰذَا لَمَّا كَانَتِ ٱلْحَاجَةُ اِلَى تَكْرِيرِهَا مَاسَّةً وَٱلضَّرُورَةُ اِلَيْهِ دَاعِيَةً لِعِظَمِ ٱلْخَطْبِ وَشِدَّةِ مَوْقِعِ ٱلْفَجِيعَةِ فَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى اَنَّ ٱلْاِطْنَابَ فِي مَوْضِعِهِ عِنْدَهُمْ مُسْتَحْسَنٌ . كَمَا اَنَّ ٱلْاِيجَازَ فِي مَكَانِهِ مُسْتَحَبٌّ وَلَا بُدَّ لِلْكَاتِبِ فِي اَكْثَرِ اَنْوَاعِ مُكَاتَبَاتِهِ مِنْ شُعْبَةٍ مِنَ ٱلْاِطْنَابِ يَسْتَعْمِلُهَا اِذَا اَرَادَ ٱلْمُزَاوَجَةَ بَيْنَ ٱلْفَصْلَيْنِ وَلَا يُعَاقِبُ ذٰلِكَ مِنْهُ. وَذٰلِكَ مِثْلُ اَنْ يَكْتُبَ عَظُمَتْ نِعَمُنَا عَلَيْهِ وَتَظَاهَرَ اِحْسَانُنَا لَدَيْهِ فَيَكُونُ ٱلْفَصْلُ ٱلْاَخِيرُ دَاخِلًا فِي مَعْنَاهُ فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْاَوَّلِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ لَا يَعِيبُهُ اَحَدٌ . وَلَمَّا اُحِيطَ بِمَرْوَانَ قَالَ خَادِمُهُ بَاسِلٌ : مَنْ اَغْفَلَ ٱلْقَلِيلَ حَتَّى يَكْثُرَ وَٱلصَّغِيرَ حَتَّى يَكْبُرَ وَٱلْخَفِيَّ حَتَّى يَظْهَرَ اَصَابَهُ مِثْلُ هٰذَا . وَهٰذَا كَلَامٌ فِي غَايَةِ ٱلْحُسْنِ وَاِنْ كَانَ مَعْنَى ٱلْفَصْلَيْنِ ٱلْاَخِيرَيْنِ دَاخِلًا فِي ٱلْفَصْلِ ٱلْاَوَّلِ .

وَهٰكَذَا قَوْلُ أَبِي تَمَّام حَبِيبِ بْنِ أَوْسٍ :

رُبَّ خَفْضٍ تَحْتَ ٱلسُّرَى وَغَنَاءٍ   مِنْ عَنَاءٍ وَنَضْرَةٍ مِنْ شُحُوبِ

وَٱلْغَنَاءُ دَاخِلٌ فِي ٱلْخَفْضِ وَٱلْعَنَاءُ دَاخِلٌ فِي ٱلسُّرَى . وَهٰذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُعْظَمَ ٱلْمَدَارِ فِي ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَحْسِينِ ٱللَّفْظِ لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ إِذَا دَخَلَ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ هٰذَا ٱلضَّرْبَ مِنَ ٱلدُّخُولِ وَكَانَتِ ٱلْأَلْفَاظُ مُخْتَارَةً حَسُنَ ٱلْكَلَامُ . وَإِذَا كَانَتِ ٱلْمَعَانِي مُرَتَّبَةً حَسَنَةً وَٱلْمَعَارِضُ سَيِّئَةً كَانَ ٱلْكَلَامُ مَرْدُودًا فَٱعْتَمِدْ عَلَى مَا مَثَّلْتُهُ لَكَ وَقِسْ عَلَيْهِ

البحث الثامن

في مواقع الاطناب

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ أَنْعَمْتُ نَظَرِي فِيهِ وَفِي ٱلتَّكْرِيرِ وَفِي ٱلتَّطْوِيلِ فَمَلَكَتْنِي حَيْرَةُ ٱلشَّبَهِ بَيْنَهُمَا طَوِيلًا . ثُمَّ وَجَدْتُهُ إِنَّهُ ضَرْبٌ مُفْرَدٌ بِرَأْسِهِ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ . لِأَنَّ مِنَ ٱلتَّأْكِيدِ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّقْدِيمِ وَٱلتَّأْخِيرِ كَمَا مَرَّ وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْإِطْنَابُ لَيْس كَذٰلِكَ . وَرَأَيْتُ عُلَمَاءَ ٱلْبَيَانِ قَدِ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَلْحَقَهُ بِٱلتَّطْوِيلِ ٱلَّذِي هُوَ ضِدُّ ٱلْإِيجَازِ وَهُوَ عِنْدَهُ قِسْمٌ غَيْرُهُ فَأَخْطَأَ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي كَأَبِي هِلَالٍ ٱلْعَسْكَرِيِّ وَٱلْغَانِمِيِّ حَتَّى أَنَّهُ قَالَ : إِنَّ كُتُبَ ٱلْفُتُوحِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا مِمَّا يُقْرَأُ عَلَى عَوَامِّ ٱلنَّاسِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مُطَوَّلَةً مُطْنَبًا فِيهَا . وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ فَاسِدٌ لِأَنَّهُ إِنْ عَنَى

بذلكَ انَّها تكونُ ذاتَ معانٍ مُتعدِّدةٍ قدِ استُقصِي فِيها شَرحُ تِلْكَ الحادِثةِ مِنْ فتحٍ اوْ غيرِهِ فذلكَ مُسلَّمٌ . وَإِنْ عَنَى بِذلِكَ انَّها تكونُ مُكرَّرةَ المعاني مُطوَّلةَ الألفاظِ قَصْدًا لِإفهامِ العامَّةِ فهذا غيرُ مُسلَّمٍ . وهُوَ مِمَّا لا يَذهَبُ إِلَيْهِ مَنْ عِندَهُ ادْنى معرفةٍ بِعِلمِ الفصاحةِ والبلاغةِ . وعَلى هٰذا فينبغي انْ تكونَ الكُتُبُ جميعُها مِمَّا يُقرأُ على عوامِّ النَّاسِ وخواصِّهِمْ ذاتَ الفاظٍ سهلةٍ مفهومةٍ . وكَذٰلِكَ الأشعارُ والخُطَبُ ومَنْ ذهبَ الى غيرِ ذلكَ فإِنَّهُ بِنَجْوةٍ عنْ هٰذا الفنِّ . وعَلى هٰذا فإِنَّ الإطنابَ لا يَختصُّ بِهِ عوامُّ النَّاسِ وإِنَّما هُوَ للخواصِّ كما هُوَ للعوامِّ . وسأُبيِّنُ حقيقتَهُ وأُحقِّقُ القولَ فِيهِ بِحيثُ تزولُ الشُّبهةُ الَّتي خبطَ اربابُ عِلمِ البيانِ مِنْ اجلِها وقالُوا اقوالًا لا تُعرِبُ عنْ فائدةٍ . والَّذي عِندي فِيهِ : انَّهُ اِذا رجعْنا إِلى الأسماءِ واشتقاقِها وجدْنا هٰذا الاسمَ مُناسِبًا لِمُسمَّاهُ وهُوَ فِي اصلِ اللُّغةِ مأخوذٌ (مِنْ اطنبَ فِي الشَّيءِ) اِذا بالغَ فِيهِ . ويُقالُ : اطنبتِ الرِّيحُ اِذا اشتدَّتْ فِي هُبوبِها . واطنبَ فِي السَّيرِ اِذا اشتدَّ فِيهِ . وعَلى هٰذا فإِنْ حملْناهُ عَلى مُقتضَى مُسمَّاهُ كانَ معناهُ المُبالغةَ فِي اِيرادِ المعاني . وهٰذا لا يختصُّ بِنوعٍ واحِدٍ مِنْ انواعِ عِلمِ البيانِ وإِنَّما يُوجدُ فِيها جميعًا اِذْ ما مِنْ نوعٍ مِنْها اِلَّا ويُمكِنُ المُبالغةُ فِيهِ . وَإِذا كانَ الأمرُ كذٰلكَ فينبغي انْ يُفرَدَ هٰذا النَّوعُ مِنْ بَيْنِها ولا يُتحقَّقُ اِفرادُهُ اِلَّا بِذِكرِ حدِّهِ الدَّالِّ عَلى حقيقتِهِ . والَّذي يُحَدُّ بِهِ انْ يُقالَ : هُوَ زِيادةُ اللَّفظِ عَلى المعنى لِفائدةٍ فهٰذا حدُّهُ الَّذي يُميِّزُهُ

عَنِ ٱلتَّطْوِيلِ اذِ ٱلتَّطْوِيلُ هُوَ زِيَادَةُ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى لِغَيْرِ فَائِدَةٍ .
وَامَّا ٱلتَّكْرِيرُ فَانَّهُ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدًا كَقَوْلِكَ لِمَنْ
تَسْتَدْعِيهِ : اَسْرِعْ اَسْرِعْ. فَانَّ ٱلْمَعْنَى مُرَدَّدٌ وَٱللَّفْظَ وَاحِدٌ. وَٱلتَّكْرِيرُ
جُزْءٌ مِنَ ٱلْاِطْنَابِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنْهُ فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : اِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ
يَأْتِي لِفَائِدَةٍ فَهُوَ اِطْنَابٌ وَلَيْسَ كُلُّ اِطْنَابٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِفَائِدَةٍ .
وَامَّا ٱلَّذِي يَأْتِي مِنَ ٱلتَّكْرِيرِ لِغَيْرِ فَائِدَةٍ فَهُوَ جُزْءٌ مِنَ ٱلتَّطْوِيلِ وَهُوَ
اَخَصُّ مِنْهُ . فَيُقَالُ حِينَئِذٍ : اِنَّ كُلَّ تَكْرِيرٍ يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ تَطْوِيلٌ
وَلَيْسَ كُلُّ تَطْوِيلٍ تَكْرِيرًا يَأْتِي لِغَيْرِ فَائِدَةٍ . وَكُنْتُ قَدَّمْتُ ٱلْقَوْلَ
فِي بَابِ ٱلْاِيجَازِ بِاَنَّ ٱلْاِيجَازَ هُوَ دَلَالَةُ ٱللَّفْظِ عَلَى ٱلْمَعْنَى مِنْ غَيْرِ
زِيَادَةٍ عَلَيْهِ . وَاِذَا تَقَرَّرَتْ هٰذِهِ ٱلْحُدُودُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْمُشَارُ اِلَيْهَا فَاِنَّ
مِثَالَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَٱلتَّطْوِيلِ مِثَالُ مَقْصِدٍ يُسْلَكُ اِلَيْهِ فِي
ثَلَاثَةِ طُرُقٍ : فَٱلْاِيجَازُ هُوَ اَقْرَبُ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ اِلَيْهِ وَٱلْاِطْنَابُ
وَٱلتَّطْوِيلُ هُمَا ٱلطَّرِيقَانِ ٱلْمُتَسَاوِيَانِ فِي ٱلْبُعْدِ اِلَيْهِ . اِلَّا اَنَّ طَرِيقَ
ٱلْاِطْنَابِ تَشْتَمِلُ عَلَى مُتَنَزَّهٍ مِنَ ٱلْمَنَازِهِ لَا يُوجَدُ فِي طَرِيقِ ٱلتَّطْوِيلِ
وَٱلْاِطْنَابُ يُوجَدُ تَارَةً فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَيُوجَدُ تَارَةً
فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ وَٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمَلِ ٱلْمُتَعَدِّدَةِ اَبْلَغُ لِاتِّسَاعِ
ٱلْمَجَالِ . وَعَلَى هٰذَا فَاِنَّهُ بِجُمْلَتِهِ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : (ٱلْقِسْمُ ٱلْاَوَّلُ)
ٱلَّذِي يُوجَدُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْوَاحِدَةِ مِنَ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ يَرِدُ حَقِيقَةً وَمَجَازًا.
اَمَّا (ٱلْحَقِيقَةُ) فَمِثْلُ قَوْلِهِمْ : رَاَيْتُهُ بِعَيْنِي وَقَبَضْتُهُ بِيَدِي وَوَطِئْتُهُ
بِقَدَمِي وَذُقْتُهُ بِفَمِي . وَكُلُّ هٰذَا يَظُنُّ ٱلظَّانُّ اَنَّهُ زِيَادَةٌ لَا حَاجَةَ

إِلَيْهَا وَيَقُولُ : إِنَّ ٱلرُّؤْيَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِٱلْعَيْنِ وَٱلْقَبْضَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْيَدِ وَٱلْوَطْءَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْقَدَمِ وَٱلذَّوْقَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِٱلْفَمِ. وَلَيْسَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ بَلْ هٰذَا يُقَالُ فِي كُلِّ شَيْءٍ يَعْظُمُ مِثَالُهُ وَيَعِزُّ ٱلْوُصُولُ إِلَيْهِ فَيُؤَكَّدُ ٱلْأَمْرُ فِيهِ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ دَلَالَةً عَلَى نَيْلِهِ وَٱلْحُصُولِ عَلَيْهِ. وَأَمَّا مَا جَاءَ مِنْهُ (عَلَى سَبِيلِ ٱلْمَجَازِ) فَقَوْلُهُ: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ. فَفَائِدَةُ ذِكْرِ ٱلصُّدُورِ هٰهُنَا أَنَّهُ قَدْ تُعُورِفَ وَعُلِمَ أَنَّ ٱلْعَمَى عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ مَكَانُهُ ٱلْبَصَرُ وَهُوَ أَنْ تُصَابَ ٱلْحَدَقَةُ بِمَا يَطْمِسُ نُورَهَا. وَٱسْتِعْمَالُهُ فِي ٱلْقَلْبِ تَشْبِيهٌ وَمَثَلٌ فَلَمَّا أُرِيدَ إِثْبَاتُ مَا هُوَ خِلَافُ ٱلْمُتَعَارَفِ مِنْ نِسْبَةِ ٱلْعَمَى إِلَى ٱلْقُلُوبِ حَقِيقَةً وَنَفْيُهُ عَنِ ٱلْأَبْصَارِ ٱحْتَاجَ هٰذَا ٱلْأَمْرُ إِلَى زِيَادَةِ تَصْوِيرٍ وَتَعْرِيفٍ لِيَتَقَرَّرَ أَنَّ مَكَانَ ٱلْعَمَى إِنَّمَا هُوَ ٱلْقُلُوبُ لَا ٱلْأَبْصَارُ. وَهٰذَا مَوْضِعٌ مِنْ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ كَثِيرَةٌ مَحَاسِنُهُ وَافِرَةٌ لَطَائِفُهُ وَٱلْمَجَازُ فِيهِ أَحْسَنُ مِنَ ٱلْحَقِيقَةِ لِمَكَانِ زِيَادَةِ ٱلتَّصْوِيرِ فِي إِثْبَاتِ وَصْفِ ٱلْحَقِيقِيِّ لِلْمَجَازِيِّ وَنَفْيِهِ عَنِ ٱلْحَقِيقِيِّ. (وَأَمَّا ٱلْقِسْمُ ٱلثَّانِي) ٱلْمُخْتَصُّ بِٱلْجُمَلِ فَإِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَى ضُرُوبٍ أَرْبَعَةٍ: (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا أَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ فَيُؤْتَى فِيهِ بِمَعَانٍ مُتَدَاخِلَةٍ. إِلَّا أَنَّ كُلَّ مَعْنًى يَخْتَصُّ بِخَصِيصَةٍ لَيْسَتْ لِلْآخَرِ. وَذٰلِكَ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

قَطَعَتْ إِلَيَّ ٱلزَّابِيَيْنِ هِبَاتُهُ ... وَٱلْتَاثَ مَأْمُورُ ٱلسَّحَابِ ٱلْمُسْبَلِ

مِنْ مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ ... بِكْرٍ وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ

فَقَوْلُهُ: (مِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ)

تَدَاخَلَتْ مَعَانِيهِ إِذِ ٱلْمِنَّةُ وَٱلصَّنِيعَةُ وَٱلْإِحْسَانُ مُتَقَارِبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِتَكْرِيرٍ لِأَنَّهُ لَوِ ٱقْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ : مِنَّةٍ وَصَنِيعَةٍ وَإِحْسَانٍ لَجَازَ أَنْ يَكُونَ تَكْرِيرًا . وَلٰكِنَّهُ وَصَفَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ بِصِفَةٍ أَخْرَجَتْهَا عَنْ حُكْمِ ٱلتَّكْرِيرِ فَقَالَ : (وَمِنَّةٍ مَشْهُورَةٍ) فَوَصَفَهَا بِٱلْإِشْتِهَارِ لِعِظَمِ شَأْنِهَا . (وَصَنِيعَةٍ بِكْرٍ) فَوَصَفَهَا بِٱلْبَكَارَةِ أَيْ أَنَّهَا لَمْ يُؤْتَ بِمِثْلِهَا مِنْ قَبْلُ . (وَإِحْسَانٍ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ) فَوَصَفَهُ بِٱلْغُرَّةِ وَٱلتَّحْجِيلِ أَيْ هُوَ ذُو مَحَاسِنَ مُتَعَدِّدَةٍ . فَلَمَّا وَصَفَ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ ٱلْمُتَدَاخِلَةَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِأَوْصَافٍ مُتَبَايِنَةٍ صَارَ ذٰلِكَ إِطْنَابًا وَلَمْ يَكُنْ تَكْرِيرًا . وَلَمْ أَجِدْ فِي ضُرُوبِ ٱلْإِطْنَابِ أَحْسَنَ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَا أَلْطَفَ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي شِعْرِهِ كَثِيرًا بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَقَوْلِهِ :

ذَكِيٌّ سَجَايَاهُ تُضِيفُ ضُيُوفُهُ ... وَيُرْجَى مُرَجِّيهِ وَيُسْأَلُ سَائِلُهْ

فَإِنَّ غَرَضَهُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ إِنَّمَا هُوَ ذِكْرُ ٱلْمَمْدُوحِ بِٱلْكَرَمِ وَكَثْرَةِ ٱلْعَطَاءِ إِلَّا أَنَّهُ وَصَفَهُ بِصِفَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ فَجَعَلَ ضُيُوفَهُ تُضِيفُ وَرَاجِيَهُ يُرَجَّى وَسَائِلَهُ يُسْأَلُ . وَلَيْسَ هٰذَا تَكْرِيرًا لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ ضُيُوفِهِ تُضِيفُ أَنْ يَكُونَ رَاجِيهِ مَرْجُوًّا وَلَا أَنْ يَكُونَ سَائِلُهُ مَسْئُولًا لِأَنَّ ضَيْفَهُ يَسْتَصْحِبُ ضَيْفًا طَمَعًا فِي كَرَمِ مُضِيفِهِ وَسَائِلَهُ يُسْأَلُ أَنْ يُعْطِيَ ٱلسَّائِلَ عَطَاءً كَثِيرًا يَصِيرُ بِهِ مُعْطِيًا . وَرَاجِيهِ يُرْجَى أَيْ أَنَّهُ إِذَا تَعَلَّقَ بِهِ رَجَاءُ رَاجٍ فَقَدْ أَيْقَنَ بِٱلْفَلَاحِ وَٱلنَّجَاحِ فَهُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يُرْجَى لِمَكَانِ رَجَائِهِ إِيَّاهُ . وَهٰذَا أَبْلَغُ ٱلْأَوْصَافِ ٱلثَّلَاثَةِ . (ٱلضَّرْبُ

ٱلثَّانِي) يُسَمَّى ٱلنَّفْيَ وَٱلْإِثْبَاتَ وَهُوَ اَنْ يُذْكَرَ ٱلشَّيْءُ عَلَى سَبِيلِ ٱلنَّفْيِ ثُمَّ يُذْكَرَ عَلَى سَبِيلِ ٱلْإِثْبَاتِ اَوْ بِٱلْعَكْسِ . وَلَا بُدَّ اَنْ يَكُونَ فِي اَحَدِهِمَا زِيَادَةٌ لَيْسَتْ فِي ٱلْآخَرِ وَاِلَّا كَانَ تَكْرِيرًا . وَٱلْغَرَضُ بِهِ تَأْكِيدُ ذٰلِكَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ . فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُهُ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ اَنْ يُجَاهِدُوا بِاَمْوَالِهِمْ وَاَنْفُسِهِمْ وَٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ . اِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَٱعْلَمْ اَنَّ لِهٰذَا ٱلضَّرْبِ مِنَ ٱلْإِطْنَابِ فَائِدَةً كَبِيرَةً وَهُوَ اَوْكَدُ وُجُوهِهِ اَلَا تَرَى اَنَّهُ قَالَ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ اَنْ يُجَاهِدُوا بِاَمْوَالِهِمْ وَاَنْفُسِهِمْ . ثُمَّ قَالَ : اِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللّٰهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . وَٱلْمَعْنَى فِي ذٰلِكَ سَوَاءٌ اِلَّا اَنَّهُ زَادَ فِي ٱلثَّانِيَةِ قَوْلَهُ : وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْلَا هٰذِهِ ٱلزِّيَادَةُ لَكَانَ حُكْمُ هٰذَيْنِ ٱلْقَوْلَيْنِ حُكْمَ ٱلتَّكْرِيرِ . وَهٰذَا ٱلْمَوْضِعُ يَنْبَغِي اَنْ يُتَأَمَّلَ وَيُنْعَمَ ٱلنَّظَرُ فِيهِ . (اَلضَّرْبُ ٱلثَّالِثُ) هُوَ اَنْ يُذْكَرَ ٱلْمَعْنَى ٱلْوَاحِدُ تَامًّا لَا يَحْتَاجُ اِلَى زِيَادَةٍ ثُمَّ يُضْرَبَ لَهُ مِثَالٌ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ . كَقَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

تَرَدَّدَ فِي خُلُقَيْ سُؤْدَدٍ ... سَمَاحًا مُرَجًّى وَبَأْسًا مَهِيبَا

فَكَالسَّيْفِ اِنْ جِئْتَهُ صَارِخًا ... وَكَالْبَحْرِ اِنْ جِئْتَهُ مُسْتَثِيبَا

فَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي يَدُلُّ عَلَى ٱلْاَوَّلِ لِاَنَّ ٱلْبَحْرَ وَٱلسَّيْفَ لِلْبَأْسِ ٱلْمَهِيبِ اِلَّا اَنَّ فِي ٱلثَّانِي زِيَادَةَ ٱلتَّشْبِيهِ ٱلَّتِي تُفِيدُ تَخَيُّلًا وَتَصْوِيرًا .

(اَلضَّرْبُ الرَّابِعُ) اَنْ يَسْتَوْفِيَ مَعَانِيَ ٱلْغَرَضِ ٱلْمَقْصُودِ مِنْ كِتَابٍ اَوْ خُطْبَةٍ او قَصِيدَةٍ. وَهٰذَا اَصْعَبُ ٱلضُّرُوبِ ٱلْاَرْبَعَةِ طَرِيقًا اَوْ اَضْيَقُهَا بَابًا لِاَنَّهُ يَتَفَرَّعُ اِلَى اَسَالِيبَ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلمَعَانِي وَاَرْبَابُ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ يَتَفَاوَتُونَ فِيهِ وَلَيْسَ ٱلْخَاطِرُ ٱلَّذِي يَقْذِفُ بِٱلدُّرَرِ فِي مِثْلِهِ اِلَّا مَعْدُومَ ٱلْوُجُودِ وَمِثَالُهُ وَمِثَالُ ٱلْاِيجَازِ مِثَالُ مُجْمَلٍ وَمُفَصَّلٍ. وَقَدْ تَقَدَّمَ ٱلْقَوْلُ بِاَنَّ ٱلْاِيجَازَ وَٱلْاِطْنَابَ وَٱلتَّطْوِيلَ بِمَنْزِلَةِ مَقْصِدٍ يُسْلَكُ اِلَيْهِ بِثَلَاثَةِ طُرُقٍ: وَقَدْ اَوْرَدتُّ هٰهُنَا مِثَالًا لِهٰذِهِ ٱلْاَسَالِيبِ ٱلثَّلَاثَةِ وَجَعَلْتُهَا عَلَى هَيْئَةِ ٱلْمَقْصِدِ ٱلَّذِي تُسْلَكُ اِلَيْهِ ٱلطُّرُقُ ٱلثَّلَاثَةُ... فَاَقُولُ : قَدْ وَرَدَ فِي بَابِ ٱلْاِيجَازِ كِتَابٌ كَتَبَهُ طَاهِرُ بْنُ ٱلْحُسَيْنِ اِلَى ٱلْمَأْمُونِ يُخْبِرُهُ بِهَزِيمَةِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَقَتْلِهِ اِيَّاهُ وَهُوَ : كِتَابِي اِلَى اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَرَأْسُ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ بَيْنَ يَدَيَّ وَخَاتَمُهُ فِي يَدِي وَعَسْكَرُهُ مُصَرَّفٌ تَحْتَ اَمْرِي وَٱلسَّلَامُ. وَهٰذَا كِتَابٌ جَامِعٌ لِلْمَعْنَى شَدِيدُ ٱلِاخْتِصَارِ. وَاِذَا كُتِبَ مَا هُوَ مَعْنَاهُ عَلَى وَجْهِ ٱلْاِطْنَابِ قِيلَ فِيهِ مَا اَذْكُرُهُ وَهُوَ مَا اَنْشَأْتُهُ مِثَالًا فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ لِيُعْلَمَ بِهِ ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْاِيجَازِ وَٱلْاِطْنَابِ وَهُوَ : اَصْدَرَ كِتَابَهُ هٰذَا وَقَدْ نُصِرَ بِٱلْفِئَةِ ٱلْقَلِيلَةِ عَلَى ٱلْفِئَةِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱنْقَلَبَ بِٱلْيَدِ ٱلْمَلْأَى وَٱلْعَيْنِ ٱلْقَرِيرَةِ وَكَانَ ٱنْتِصَارُهُ بِجَدِّ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَا بِجَدِّ نَصْلِهِ وَٱلْجَدُّ اَغْنَى مِنَ ٱلْجَيْشِ. وَاِنْ كَثُرَتْ اَمْدَادُ خَيْلِهِ وَرَجْلِهِ وَجِيءَ بِرَأْسِ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ وَهُوَ عَلَى جَسَدٍ غَيْرِ جَسَدِهِ وَلَيْسَ لَهُ قَدَمٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَسْعَى بِقَدَمِهِ. وَلَا يَدٌ فَيُقَالَ اِنَّهُ يَبْطُشُ بِيَدِهِ. وَلَقَدْ طَالَ وَطُولُهُ

مُوذِنٌ بِقِصَرِ شَأْنِهِ وَحَسَدَتِ ٱلضِّبَاعُ ٱلطَّيْرَ عَلَى مَكَانِهَا مِنْهُ وَهُوَ غَيْرُ مَحْسُودٍ عَلَى مَكَانِهِ. وَاحْضِرَ خَاتَمُهُ وَهُوَ ٱلْخَاتَمُ ٱلَّذِي كَانَ ٱلْأَمْرُ يَجْرِي عَلَى نَقْشِ اسْطُرِهِ. وَكَانَ يَرْجُو انْ يُصَدِّرَ كِتَابَ ٱلْفَتْحِ بِخَتْمِهِ فَحَالَ وُرُودُ ٱلْمَنِيَّةِ دُونَ مَصْدَرِهِ . وَكَذَلِكَ ٱلْبَغْيُ مَرْتَعُهُ وَبِيلٌ . وَمَصْرَعُهُ جَلِيلٌ وَسَيْفُهُ وَإِنْ مَضَى فَإِنَّهُ عِنْدَ ٱلضَّرْبِ كَلِيلٌ . وَٱلْعَسَاكِرُ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَى امِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرْبًا صَارَتْ لَهُ سِلْمًا وَاعْطَتْهُ ٱلْبَيْعَةَ عِلْمًا بِفَضْلِهِ وَلَيْسَ مَنْ تَابَعَ تَقْلِيدًا كَمَنْ هُوَ تَابِعٌ عِلْمًا. وَهُمُ ٱلْآنَ مُصَرَّفُونَ تَحْتَ ٱلْاوَامِرِ مُمْتَحَنُونَ بِكَشْفِ ٱلسَّرَائِرِ مُطِيعُونَ بِٱللِّوَاءِ ٱلَّذِي خَصَّهُ ٱللهُ بِٱسْتِفْتَاحِ ٱلْمَقَالِدِ وَٱسْتِيطَاءِ ٱلْمَنَابِرِ وَعَلَى ٱللهِ اتْمَامُ ٱلنِّعَمِ ٱلَّتِي افْتَتَحَهَا وَاجَابَةُ امِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُقْتَرَحَاتِهِ ٱلَّتِي ٱقْتَرَحَهَا وَٱلسَّلَامُ. وَهٰذَا ٱلْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى مَا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ طَاهِرِ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ مِنَ ٱلْمَعْنَى إِلَّا انَّهُ فَصَّلَ ذَلِكَ ٱلْإِجْمَالَ. وَلَوْ كُتِبَتْ عَلَى وَجْهِ ٱلتَّطْوِيلِ ٱلَّذِي لَا فَائِدَةَ فِيهِ لَقِيلَ: اصْدَرَ كِتَابَهُ فِي يَوْمِ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا وَٱلْتَقَى عَسْكَرُ امِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَعَسْكَرُ عَدُوِّ ٱلْبَاغِي. وَتَطَاعَنَ ٱلْفَرِيقَانِ وَتَزَاحَفَ ٱلْجَمْعَانِ . وَحَمِيَ ٱلْقِتَالُ وَٱشْتَدَّ ٱلنِّزَالُ . وَتَرَادَفَتِ ٱلْكَتَائِبُ وَتَلَاحَقَتِ ٱلْمَقَانِبُ . وَقُتِلَ عِيسَى بْنُ مَاهَانَ وَٱحْتُزَّ رَأْسُهُ وَنُزِعَ ٱلْخَاتَمُ مِنْ يَدِهِ وَخُلِعَ وَتُرِكَ جَسَدُهُ طَعَامًا لِلطُّيُورِ وَٱلسِّبَاعِ وَٱلذِّئَابِ وَٱلضِّبَاعِ . وَٱنْجَلَتِ ٱلْوَقْعَةُ عَنْ غَلَبِ ٱلْخَلِيفَةِ وَنَصْرِهِ وَخِذْلَانِ عَدُوِّهِ وَقَهْرِهِ وَٱلسَّلَامُ . فَهٰذَا ٱلْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى تَطْوِيلٍ لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِأَنَّهُ كَرَّرَ فِيهِ مَعَانِيَ يَتِمُّ ٱلْغَرَضُ بِدُونِهَا. فَٱنْظُرْ إِلَى هٰذِهِ ٱلْكُتُبِ ٱلثَّلَاثَةِ وَتَأَمَّلْهَا وَقِسْ عَلَيْهَا مَا يَأْتِي مِنْهَا

الفصل السابع

في البديع

البحث الاول

في حقيقة علم البديع

(عن ابن جابر الاندلسي والحاج خلفا)

(راجع صفحة ٦٦ من علم الادب)

اَلْبدِيعُ مَأْخُوذٌ مِنْ بَدعَ اَلشَّيْءَ يبدَعُهُ بدْعا اِذَا اَنْشَاهُ وَبَدَاهُ. وَيقَالُ اَبْتَدعَ اَلشَّيْءَ اِذَا اَخْتَرعَهُ مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ . وَاَلْبَدِيعُ يُطْلَقُ بِاِزَاء مَعَانٍ يُقَالُ هٰذَا بَدِيعٌ اَيْ مُحْدَثٌ عَجِيبٌ فَيَكُونُ فِي صِيغَةِ اَلْمَفْعُولِ وَيَكُونُ اَيضا مِنْ صِيغَةِ اَلْفَاعِلِ . وَمنْهُ اَلْبَدِيعُ فِي اَسْمَاء اَللّٰهِ تَعَالى لِاِبْدَاعِهِ اَشْيَاء وَاِحْدَاثِهِ اِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ. وَاَلْبَدِيعُ اَيْضًا اَلْجَدِيدُ يُقَالُ : سِقَاءٌ بَدِيعٌ وَحَبْلٌ بَدِيعٌ اَيْ جَدِيدَانِ . وَيُقَالُ : اَبْدَعَ اَلشَّاعِرُ اِذَا صَنَعَ اَلْبَدِيعَ فِي شِعْرِهِ . وَامَّا اَلْبَدِيعُ اَصْطِلَاحًا فَهُوَ عِلْمٌ يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ اَلْمُطَابِقِ لِمُقْتَضَى اَلْحَالِ اَلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ فِي اَلدَّلَالَةِ وُضُوحًا وَخَفَاء . فَقَوْلُهُ : (عِلْمٌ) جِنْسٌ دَخَلَ تَحْتَهُ كُلُّ عِلْمٍ . وَقَوْلُهُ : (يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ اَلْعُلُومَ كُلَّهَا مَا عَدَا عِلْمَ اَلْمَعَانِي وَاَلْبَيَانِ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْهَا لِاَنَّ غَيْرَهُمَا مِنَ اَلْعُلُومِ لَا يُعْرَفُ بِهِ وُجُوهُ تَحْسِينِ اَلْكَلَامِ . وَقَوْلُهُ :

(ٱلْمُطَابِقُ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي لَمْ يُطَابِقْ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَانَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . وَقَوْلُهُ : (ٱلْمَعْلُومَةِ كَيْفِيَّةُ طُرُقِهِ اِلَى آخِرِهِ) فَصْلٌ اَخْرَجَ بِهِ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي يُطَابِقُ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ وَلَمْ يَذْكُرْ كَيْفِيَّاتِ طُرُقِ دَلَالَتِهِ فَاِنَّ هٰذَا لَا يُسَمَّى بَدِيعًا . فَتَحَصَّلَ مِنْ هٰذَا ٱلْحَدِّ انَّ ٱلْعِلْمَ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ لَا يُسَمَّى بَدِيعًا اِلَّا بِشَرْطَيْنِ : اَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامُ مُطَابِقًا لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ . وَاَنْ تَكُونَ كَيْفِيَّاتُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ مَعْلُومَةَ ٱلْوُضُوحِ وَٱلْخَفَاءِ . فَٱلشَّرْطُ ٱلْاَوَّلُ هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي. وَٱلشَّرْطُ ٱلثَّانِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ فَاِنْ عُدِمَ ٱلشَّرْطَانِ اَوْ اَحَدُهُمَا مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ذٰلِكَ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . اَمَّا (مَرْتَبَةُ) هٰذَا ٱلْعِلْمِ فَبَعْدَ مَرْتَبَةِ عِلْمَي ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ حَتَّى اِنَّ بَعْضَهُمْ لَمْ يَجْعَلْهُ عِلْمًا عَلَى حِدَةٍ فَتَاَمَّلْ . وَظَهَرَ مِنْ هٰذَا مَوْضُوعُهُ وَغَرَضُهُ وَغَايَتُهُ . وَاَمَّا مَنْفَعَتُهُ فَاِظْهَارُ رَوْنَقِ ٱلْكَلَامِ حَتَّى يَلِجَ ٱلْاُذُنَ بِغَيْرِ اَذًى وَيَتَعَلَّقَ بِٱلْقَلْبِ مِنْ غَيْرِ كَدٍّ وَاِنَّمَا دَوَّنُوا هٰذَا ٱلْعِلْمَ لِاَنَّ ٱلْاَصْلَ وَاِنْ كَانَ ٱلْحُسْنَ ٱلذَّاتِيَّ وَكَانَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِمَّا يَكْفِي فِي تَحْصِيلِهِ لٰكِنَّهُمْ اعْتَنَوْا بِشَأْنِ ٱلْحُسْنِ ٱلْعَرَضِيِّ اَيْضًا لِاَنَّ ٱلْحُسْنَ اِذَا عَرِيَ مِنَ ٱلْمُزَيِّنَاتِ رُبَّمَا يَذْهَلُ بَعْضُ ٱلْقَاصِرِينَ عَنْ تَتَبُّعِ مَحَاسِنِهِ فَيَفُوتُ ٱلتَّمَتُّعُ بِهِ

البحث الثاني

في ان البديع احد علوم الادب الستة

(عن بديعية العميان)

وَذٰلِكَ اَنَّكَ اِذَا نَظَرْتَ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْعَرَبِيِّ اِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي وُضِعَ لَهُ ٱللَّفْظُ وَهُوَ عِلْمُ ٱللُّغَةِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ ذَاتِ ٱللَّفْظِ بِحَسَبِ مَا يَعْتَرِيهِ مِنَ ٱلْحَذْفِ وَٱلْقَلْبِ وَٱلْبَدَلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ وَهُوَ عِلْمُ ٱلتَّصْرِيفِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلَّذِي يُفْهَمُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرَكَّبِ بِحَسَبِ ٱخْتِلَافِ اَوَاخِرِ ٱلْكَلِمِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْعَرَبِيَّةِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ مُطَابَقَةِ ٱلْكَلَامِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ بِحَسَبِ ٱلْوَضْعِ ٱللُّغَوِيِّ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ طُرُقِ دَلَالَةِ ٱلْكَلَامِ اِيضَاحًا وَخَفَاءً بِحَسَبِ ٱلدَّلَالَةِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ . وَاِمَّا اَنْ تَبْحَثَ عَنْ وُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ وَهُوَ عِلْمُ ٱلْبَدِيعِ . فَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْأُوَلُ لَا يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا اِلَّا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ نَظْمًا وَنَثْرًا . لِاَنَّ ٱلْمُعْتَبَرَ فِيهَا اَلْفَاظُهُ . وَٱلْعُلُومُ ٱلثَّلَاثَةُ ٱلْآخِرَةُ يُسْتَشْهَدُ عَلَيْهَا بِكَلَامِ ٱلْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِاَنَّهَا رَاجِعَةٌ اِلَى ٱلْمَعَانِي وَلَا فَرْقَ فِيهَا فِي ذٰلِكَ بَيْنَ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُوَلَّدِينَ اِذْ هُوَ اَمْرٌ رَاجِعٌ اِلَى ٱلْعَقْلِ وَلِذٰلِكَ قُبِلَ مِنْ اَهْلِ هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلْاِسْتِشْهَادُ بِكَلَامِ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَاَبِي تَمَّامٍ وَاَبِي ٱلطَّيِّبِ وَاَبِي ٱلْعَلَاءِ وَهَلُمَّ جَرًّا . (وَهُنَا تَنْبِيهٌ) وَهُوَ اَنَّ اَنْوَاعَ ٱلْبَدِيعِ فِي ٱلْكَلَامِ كَٱلْمِلْحِ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخَالِ

فِي ٱلْوَجَنَاتِ وَٱلشِّيَةِ فِي ٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَاتِ . وَإِذَا كَثُرَ ٱلْمِلْحُ فِي ٱلطَّعَامِ وَٱلْخِيلَانُ فِي ٱلْخَدِّ وَٱلشِّيَةُ فِي ٱلْخَيْلِ قَبُحَ ذٰلِكَ وَخَرَجَ عَنْ بَابِ ٱلِٱسْتِحْسَانِ فَكَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ إِذَا كَثُرَ وَتُكُلِّفَ تَمُجُّهُ ٱلطِّبَاعُ وَإِنَّمَا يُسْتَحْسَنُ إِذَا وَقَعَ فِي ٱلْكَلَامِ سَهْلًا عَلَى ٱلطِّبَاعِ مُسْتَعْذَبًا فِي ٱلْأَسْمَاعِ عَارِيًا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ ٱلَّذِي يَذْهَبُ بِٱلْحُسْنِ وَاقِعًا مَوْقِعَ ٱلزَّهْرِ مِنَ ٱلْغُصْنِ فَإِذَا فَرَطَ فِي ٱلزِّيَادَةِ خَاطَبَتْهُ ٱلطِّبَاعُ :

لَوِ ٱخْتَصَرْتُمْ مِنَ ٱلْإِحْسَانِ زُرْتُكُمُ   وَٱلْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي ٱلْخَصَرِ

البحث الثالث

في نسبة علم البديع الى علمَي المعاني والبيان

(من شرح بديعيَّة العميان ايضًا)

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ مِنْ أَنَّ عِلْمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ دَاخِلَانِ فِي حَدِّ ٱلْبَدِيعِ عَلِمْتَ أَنَّ نِسْبَتَهُ إِلَيْهِمَا نِسْبَةُ ٱلْمُرَكَّبِ إِلَى مُفْرَدَاتِهِ إِذْ لَا يَدْخُلُ فِي ٱلْحَدِّ إِلَّا مَا هُوَ مِنْ مُفْرَدَاتِ ٱلْمَحْدُودِ ٱلَّتِي تَرَكَّبَ مِنْهَا . فَكَمَا أَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ لَا يَسْتَقِيمُ وُجُودُهُ إِلَّا بِوُجُودِ مُفْرَدَاتِهِ كَذٰلِكَ ٱلْبَدِيعُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا بِوُجُودِ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانِ فَإِذَا عُدِمَ ٱلْمَعَانِي وَٱلْبَيَانُ مِنَ ٱلْكَلَامِ عُدِمَ ٱلْبَدِيعُ مِنْهُ لِأَنَّ ٱلْمُرَكَّبَ يُعْدَمُ بِعَدَمِ مُفْرَدَاتِهِ فَلَوْ وُجِدَ كَلَامٌ خَالٍ مِنْ سَابِقَةِ مُقْتَضَى ٱلْحَالِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْمَعَانِي أَوْ مِنَ ٱلْعِلْمِ بِكَيْفِيَّةِ طُرُقِ ٱلدَّلَالَةِ فِي ٱلظُّهُورِ وَٱلْخَفَاءِ ٱلَّذِي هُوَ عِلْمُ ٱلْبَيَانِ لَمْ يَكُنِ ٱلْعِلْمُ بِوُجُوهِ تَحْسِينِ ٱلْكَلَامِ بَدِيعًا . وَٱعْلَمْ أَنَّ أَعَمَّ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلثَّلَاثَةِ عِلْمُ

اَلْمَعَانِي وَاخَصّهَا عِلْمُ الْبَدِيعِ لِاَنَّهُ مُتَرَكِّبٌ مِنَ الْفَنَّيْنِ الْآخَرَيْنِ
وَزِيَادَةٍ وَالْقَاعِدَةُ اَنَّ الْاَخَصَّ يَتَرَكَّبُ مِنَ الْاَعَمِّ وَزِيَادَةٍ • وَعِلْمُ
الْبَيَانِ مُتَوَسِّطٌ بَيْنَهُمَا فَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى الْمَعَانِي مُنْدَرِجٌ تَحْتَ الْبَدِيعِ
وَكُلُّ بَدِيعٍ مُسْتَلْزِمٌ لِلْمَعَانِي وَالْبَيَانِ لِاَنَّهُمَا جُزْءَاهُ • وَكُلُّ بَيَانٍ مُسْتَلْزِمٌ
لِلْمَعَانِي لِاَنَّهُ جُزْؤُهُ وَلَيْسَتِ الْمَعَانِي مُسْتَلْزِمَةً لِلْبَيَانِ وَلَا لِلْبَدِيعِ اِذْ
يُوجَدُ بِدُونِهِمَا وَذٰلِكَ مِنْ كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى الْحَالِ وَلَمْ تُعْلَمْ كَيْفِيَّةُ
طُرُقِ دَلَالَتِهِ وَلَا وُجُوهُ تَحْسِينِهِ • وَلَا الْبَيَانُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبَدِيعِ اِذْ يُوجَدُ
بِدُونِهِ فِي كَلَامٍ طَابَقَ مُقْتَضَى الْحَالِ وَعُلِمَتْ كَيْفِيَّةُ طُرُقِ دَلَالَتِهِ
وَوُجُوهُ تَحْسِينِهِ • وَاِذَا عَلِمْتَ مَا قَرَّرْنَاهُ فَالْمَعَانِي وَالْبَيَانُ بِالنِّسْبَةِ
اِلَى الْبَدِيعِ كَالْحَيَوَانِ وَالنُّطْقِ بِالنِّسْبَةِ اِلَى الْاِنْسَانِ فَلَا يُوجَدُ الْبَدِيعُ
بِدُونِهِمَا كَمَا لَا يُوجَدُ الْاِنْسَانُ بِدُونِ الْحَيَاةِ • وَالنُّطْقُ وَالْمَعَانِي بِالنِّسْبَةِ
اِلَى الْبَيَانِ كَالْحَيَوَانِ بِالنِّسْبَةِ اِلَى النُّطْقِ فَتُوجَدُ الْمَعَانِي بِلَا بَيَانٍ
كَمَا يُوجَدُ الْحَيَوَانُ بِلَا نُطْقٍ • وَلَا يُوجَدُ الْبَيَانُ بِلَا مَعَانٍ كَمَا لَا يُوجَدُ
النُّطْقُ بِدُونِ الْحَيَوَانِ • وَهٰذَا بَسْطُ مَا يُوجَدُ فِي بَيَانِ هٰذِهِ الْفُنُونِ
الثَّلَاثَةِ وَاللهُ اَعْلَمُ • وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ اَنَّ الْمَعَانِيَ رَاجِعَةٌ
اِلَى مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى الْحَالِ فِي الدَّلَالَةِ الْوَضْعِيَّةِ وَالْبَيَانَ رَاجِعٌ اِلَى
مُقْتَضَى الْحَالِ فِي الدَّلَالَةِ الْعَقْلِيَّةِ • فَكَمَا اَنَّ الْبَدِيعَ لَا بُدَّ لَهُ فِي
الْمَعَانِي مِنْ مُطَابَقَةِ مُقْتَضَى الْحَالِ بِاعْتِبَارِ الدَّلَالَةِ الْوَضْعِيَّةِ • كَذٰلِكَ
فِي الْبَيَانِ لَا بُدَّ لَهُ اَيْضًا مِنْ مُطَابَقَةِ الْحَالِ بِاعْتِبَارِ الدَّلَالَةِ الْعَقْلِيَّةِ
فَلَوْ قَالَ فِي الْمَعَانِي: (زَيْدٌ قَائِمٌ) وَالْحَالُ تَقْتَضِي (اِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ). اَوْ

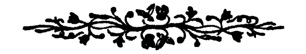
قَالَ : (إِنَّ زَيْدًا قَائِمٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ قَائِمٌ) كَانَ خَطَأً . كَذٰلِكَ ٱلْبَيَانُ لَوْ قَالَ : (زَيْدٌ جَوَادٌ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) أَوْ قَالَ : (زَيْدٌ كَثِيرُ ٱلرَّمَادِ) وَٱلْحَالُ تَقْتَضِي (زَيْدٌ جَوَادٌ) كَانَ خَطَأً

البحث الرابع

في اقسام البديع

(عن شرح بديعية العميان)

اِعْلَمْ أَنَّ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَصُّوا عَلَى أَنْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ أَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِبَابَيْنِ : بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ وَبَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱلْمَعْنَى أَوْ بِٱلْمَعْنَى وَٱللَّفْظِ مَعًا فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْبَلَاغَةِ . وَمَا كَانَ مِنْهُمَا مُتَعَلِّقًا بِٱللَّفْظِ فَقَطْ فَهُوَ مِنْ بَابِ ٱلْفَصَاحَةِ . فَهِيَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى فَقَطْ كَٱلتَّوْرِيَةِ وَتَجَاهُلِ ٱلْعَارِفِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱللَّفْظِ . وَقِسْمٌ بِٱللَّفْظِ فَقَطْ كَٱلتَّجْنِيسِ وَرَدِّ ٱلْعَجُزِ عَلَى ٱلصَّدْرِ وَنَحْوِهِمَا مِمَّا لَا تَعَلُّقَ لَهُ بِٱلْمَعْنَى . وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى كَٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُقَابَلَةِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا مِمَّا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱللَّفْظِ وَٱلْمَعْنَى فِيهِ حَظٌّ . وَأَسْقَطَ صَاحِبُ ٱلْإِيضَاحِ هٰذَا ٱلْقِسْمَ وَجَعَلَ ٱلْبَدِيعَ قِسْمَيْنِ : قِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱللَّفْظِ وَقِسْمٌ يَتَعَلَّقُ بِٱلْمَعْنَى وَهُوَ ٱلْأَبْيَنُ



البحث الخامس

في تاريخ علم البديع وفي اصحاب البديعيَّات

(عن كشف الظنون باختصار وتصرُّف)

اِعلَمْ انَّ قُدَمَاءَ ٱلْمُصنِّفِينَ كَانُوا يَذْكُرُونَ هٰذَا ٱلْفَنَّ فِي آخِرِ عِلْمِ ٱلْبَيَانِ . اِلَّا انَّ ٱلْمُتَاخِّرِينَ زَادُوا عَلَيْهِ شَيْئًا كَثِيرًا وَنَظَمُوا فِيهِ قَصَائِدَ وَالَّفُوا كُتُبًا. وَمِنَ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُخْتَصَّةِ بِعِلْمِ ٱلْبَدِيعِ كِتَابٌ لِأَبِي ٱلْعَبَّاسِ عَبْدِٱللهِ بْنِ ٱلْمُعْتَزِّ ٱلْعَبَّاسِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) وَهُوَ اوَّلُ مَنْ صَنَّفَ فِيهِ . وَكَانَ جُمْلَةُ مَا جَمَعَ مِنْهَا سَبْعَةَ عَشَرَ نَوْعًا اَلَّفَهُ سَنَةَ ٢٧٤ هـ (٨٨٧ م). وَعَاصَرَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَجَمَعَ مِنْهَا عِشْرِينَ نَوْعًا تَوَارَدَ مَعَهُ عَلَى سَبْعَةٍ مِنْهَا فَتَكَامَلَ لَهُمَا ثَلَاثُونَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِنَقْدِ ٱلشِّعْرِ . امَّا ٱلسَّكَّاكِيُّ فَلَمْ يَذْكُرْ مِنْ انْوَاعِ ٱلْبَدِيعِ سِوَى تِسْعَةٍ وَعِشْرِينَ نَوْعًا. ثُمَّ اقْتَدَى ٱلنَّاسُ بِقُدَامَةَ وَٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَكَانَ غَايَةُ مَا جَمَعَ مِنْهَا ابُو هِلَالٍ ٱلْعَسْكَرِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) سَبْعَةً وَثَلَاثِينَ نَوْعًا وَيُعْرَفُ كِتَابُهُ بِكِتَابِ ٱلصِّنَاعَتَيْنِ. ثُمَّ جَمَعَ فِيهَا ٱبْنُ ٱلرَّشِيقِ ٱلْقَيْرَوَانِيُّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) فِي ٱلْعُمْدَةِ مِثْلَهَا وَاضَافَ اِلَيْهَا خَمْسَةً وَسِتِّينَ بَابًا فِي احْوَالِ ٱلشِّعْرِ وَاغْرَاضِهِ . وَتَلَاهُمَا شَرَفُ ٱلدِّينِ ٱلتِّيفَاشِيُّ فَبَلَغَ بِهَا ٱلسَّبْعِينَ. ثُمَّ تَصَدَّى لَهَا ٱلشَّيْخُ زَكِيُّ ٱلدِّينِ بْنُ ابِي ٱلْاِصْبَعِ فَاوْصَلَهَا اِلَى ٱلتِّسْعِينَ وَاضَافَ اِلَيْهَا مِنْ مُسْتَخْرَجَاتِهِ ثَلَاثِينَ سُلِّمَ لَهُ مِنْهَا عِشْرُونَ . وَاجْرَى تِلْكَ ٱلْانْوَاعَ فِي ٱلْآيَاتِ ٱلْقُرْآنِيَّةِ

وسماه التحرير وهو اعم كتاب صنف فيه لانه لم يتكل على النقل دون النقد . وذكر انه وقف على اربعين كتابا في هذا العلم
والبديعيات المشتهرة هي بديعية الشيخ الاديب صفي الدين الحلي سماها كافية البديعية وشرحها شرحا حسنا . حذا حذوه الشيخ عبد الرحمان الحميدي . وبديعية ابي جعفر احمد الرعيني المتوفى سنة ٧٧٩هـ(١٣٧٧ م)وهذه البديعية تعرف ببديعية العميان.وبديعية الشيخ شمس الدين ابي عبدالله محمد بن جابر الاندلسي المتوفى سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م)وبديعية الشيخ عز الدين الموصلي ووجيه الدين اليمني المتوفى في حدود سنة ٨٠٠ هـ (١٣٩٨ م) وبديعية الشيخ تقي الدين بن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ(١٤٣٣ م) وسماها التقديم تشتمل على مئة وستة وثلاثين نوعا ثم شرحها شرحا مفيدا وهو مجموع ادب قل ان يوجد في غيره .وبديعية الشيخ جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٠ م) وتسمى نظم البديع ثم شرحها . وبديعية الفاضلة عائشة الباعونية نظمتها على مثال قصيدة الحموي مع عدم تسمية النوع . واتى بعدها الشيخ عبد الغني النابلسي ونظم قصيدتين التزم باحداهما تسمية النوع

بديعيَّة الخوري الفاضل ارسانيوس الفاخوري

مدح بها السيد المسيح ورسلهُ الاطهار

وهي مشتملة على مائة وثمانين نوعًا مع التزام تسمية النوع

براعة المطلع

بَرَاعَةُ ٱلْمَدْحِ فِي نَجْمٍ ضِيَاهُ سَمِي   تَهْدِي بِمَطْلَعِهَا مَنْ عَنْ سَنَاهُ عَمِي

الجناس المطلق والمركب

تَطْلِيقُ هَمِّي بِتَرْكِيبِ ٱلْمَدِيحِ لَهُ   رُحْ لِي إِلَيْهِ بِهِ رُحْبِي كَذَا هِمَمِي

الجناس المذيّل

سَنَاهُ فِي ٱلْكَوْنِ بَاهٍ بَاهِرٌ عَجِبٌ   وَذَيَّلَ ٱلْكَوْنَ نُورًا مَاحِقَ ٱلظُّلَمِ

الجناس اللاحق

دَرْبُ ٱلْهُدَى مَنْ بِهِ قَدْ سَارَ ٱلْحَقَهُ   كَمْ حَائِرٍ بَائِرٍ بِٱلرُّشْدِ مِنْهُ رُمِي

الجناس التام والمطرف

أَتَمَّ بَدْرَ ٱلسَّمَا مِصْبَاحُهُ وَسَمَا   فَإِنْ هَوِيتَ بِهِ ٱلتَّطْرِيفَ لَمْ أَلُمِ

الجناس المصحف والمحرف

أَرَاحَ تَصْحِيفُهُ ذِهْنًا أَزَاحَ لَهُ   تَحْرِيفَ قَوْلٍ غَدَا فِي ٱلْحُكْمِ وَٱلْحِكَمِ

الافتنان

فَاقَ ٱفْتِنَانِي وَمَدْحِي فِي مَحَاسِنِهِ   يَا تَعْسَ عُمْرٍ مَضَى بِٱلْمَدْحِ لَمْ يَقُمِ

المطابقة

فَلَمْ أُطَابِقْ عَلَى بُعْدِ ٱلْأَحِبَّةِ بَلْ   إِنِّي أُطَابِقُ فِي قُرْبِي لِخِدْرِهِمِ

سلامة الاختراع

سَلَامَتِي فِي ٱخْتِرَاعِي نَظْمَ قَافِيَةٍ   أَرْجُو بِهَا ٱلنَّظْمَ فِي أَجْزَاءِ سِلْكِهِمِ

الاستعارة

إِنِّي ٱسْتَعَرْتُ جِيَادَ ٱلدَّمْعِ فِي سَفَرِي   جَرْيًا وَرَاءَ مَتَابٍ فِي سَبِيلِهِمِ

الجناس المعنوي

وَعُدتُّ بِٱسْمِ ٱبْنِ رَعْدٍ ثُمَّ بِٱسْمِ أَبِي   إِسْحَقَ يَامَعْنَوِيٌّ فِي ٱلْهَوَى بِهِمِ

الاستطراد

مُسْتَطْرِدًا فِي هَوَاهُمْ خَيْلَ مُنْعَطِفِي   كَأَدْمُعِي قَدْ جَرَتْ شَوْقًا لِقُرْبِهِمِ

الاستخدام

سَقَى ٱلْإِلٰهُ ٱلْحَيَا خَيْلًا رَعَتْهُ قَدِ ٱسْـ   ـتَخْدَمْتُهَا قَصْدَ إِدْرَاكٍ لِوَصْلِهِمِ

التخيير

بِرَبْعِهِمْ قَدْ تَخَيَّرْتُ ٱلْعَنَاءَ وَلَا   مُ ٱلْبَقَاءِ فِي سَعَةٍ فِي غَيْرِ رَبْعِهِمِ

التذييل

أَذُمُّ تَذْيِيلَ عَذْلٍ طَالَ مِنْكَ كَفَى   يَاعَاذِلِي ٱلْعَذْلُ مَذْمُومٌ مِنَ ٱلْأُمَمِ

الايداع

وَعِنْدَ إِيدَاعِهِ سَمْعِي مَلَامَتَهُ   مَزَجْتُ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ

الجناس اللفظي وجناس القلب

قَدْ ضَلَّ رَأْيًا بِطَعْنٍ ظَلَّ يَلْفِظُهُ   فَٱلْقَلْبُ مَاحَالَ مِنْ لَاحٍ عَنِ ٱلذِّمَمِ

الاكتفاء

لَمْ يَكْتَفِ ٱلْعَاذِلُ ٱلنَّمَّامُ مِنْ حِيَلٍ   فَكَمْ لِذَاكَ خَبَا لِلْعَاشِقِينَ كَمِي

التفويف

اِرْحَمْ وَدَعْ وَٱتَّئِدْ وَٱشْفِقْ وَلِنْ وَٱرِحْ   فَرِّقْ وَوَشِّ وَجُدْ وَٱنْظِمْ وَمِقْ وَهِمِ

الملفق

أَبَى نَوَالِيَ بِٱلتَّلْفِيقِ مِنْهُ كَمَا   أَبَانَ وَالِيَ وَجْدٍ عَنْ وَلَائِهِمِ

الارقط

قَدْ خَابَ مَنْ مِنْهُ يَرْجُو خُطَّةَ وَجَدَى وَشَانَ رَقْطٌ بِهِ قَدْ بَانَ مِنْ اَضَمِ

الالتفات

فَمَا ٱلتَفَتُّ اِلَى مَكْرٍ بِتَوْشِيَةٍ عَرِّجْ رِكَابَكَ عَنْ تِيهٍ اِلَى ٱللَّقَمِ

الجناس المقلوب المستوي

حَرِّفْ اَخَا كُرَبٍ بِرِّكَ اَخَا فَرَحٍ فَيَسْتَوِي ٱلقَلْبُ بِٱلْافْرَاحِ لَا ٱلْغُمَمِ

الموار بة

يَا لَائِمِي خَلِّ قَوْلًا فِي مُوَارَبَةٍ فَعَاقِلٌ اَنْتَ يَا ذَا ٱلعَذْلِ فَٱسْتَقِمِ

الالتزام

اِنِّي لَمُلْتَزِمٌ خُلْدًا بِحُبِّهِمِ حَتَّى ٱلْمَنَايَا بِهَا عَيْشٌ لِصَبِّهِمِ

رد العجز على الصدر

بِهِمْ اَرُدُّ عَلَى صَدْرِ ٱلْمُخَاصِمِ عَجْزَهُ وَاُخْزِي ٱلعِدَى يَوْمَ ٱلوَغَى بِهِمِ

المقابلة

اِنْ رُحْتُ مُنْزَعِجًا خَوْفًا بِمَسْئَلَةٍ فَقَابَلُوا بِٱلشِّفَا وَٱلْأَمْنِ وَٱلنِّعَمِ

المراجعة

قَالَ اَسْلُهُمْ قُلْتُ حَاشَا لِي فَرَاجَعَنِي فَقَالَ دَعْهُمْ فَقُلْتُ ٱلسَّمْعُ فِي صَمَمِ

الهزل الذي يراد بِهِ الجد

بِٱلْجِدِّ هَازَلَنِي وَٱلدَّمْعُ مُنْسَجِمٌ فَقَالَ اَرْوِ ٱلظَّمَا مِنْ مَنْهَلٍ شَبِمِ

القول بالموجب

قَوْلِي لَهُ مُوجَبٌ اِذْ قَالَ اَنْتَ لَهُمْ سَالٍ فَقُلْتُ لِجِسْمِي مِنْ سَعِيرِهِمِ

المتراكم

قَدْ قَدَّ قَدَّ فُؤَادِي عَضْبُ غَيْبَتِهِ مِنْهَا تَرَاكَمَتِ ٱلْأَحْزَانُ مِنْ اَلَمِي

الاستدراك

فَقَالَ مَكْرًا بِسُقْمٍ أَنتَ بَلْ شُغُلٍ ... فَقُلْتُ مُسْتَدْرِكًا لكِنْ بِعِشْقِهِمِ

المناقضة

إِنِّي أُنَاقِضُ عَهْدِي لِلْحَبِيبِ إِذَا ... مَا شِبْتُ أَوْ عُدتُّ طِفْلًا بَعْدَ مَا هَرِمِ

حسن الاتباع

حُسْنُ اتِّبَاعٍ لَهُمْ قَلْبِي اصْطَفَاهُ هَوًى ... فَالْقَلْبُ عِنْدِي لِغَيْرِ الْعِشْقِ لَمْ يَقُمِ

تشابه الاطراف

تَشْبِيهُ أَطْرَافِ أَقْوَالِي سَمَا بِهِمِ ... بِهِمْ مَدِيحِي غَدَا فِي أَبْلَغِ الْحِكَمِ

السهولة

سُهُولَةُ النَّظْمِ تَحْلُو فِي مَدِيحِهِمِ ... لَا فِي مَدِيحِ الظِّبَا وَالْغِيدِ لِلْحَشَمِ

الجناس الخالي او المعجم

نَبَذْتُ تَفْنِينَ تَشْبِيبٍ بِذِي شَغَفٍ ... يَفْتَنُّ فِي غُنْجِ جَفْنٍ جُنَّ بِالْعَجَمِ

التهكم

بِهِمْ رَأَى عِزَّهُ تِيهًا فَذَلَّ بِهِمْ ... تَهَكُّمًا قُلْتُ يَا بُشْرَاكَ بِالنَّدَمِ

الهجاء في معرض المدح

بِمَعْرِضِ الْمَدْحِ قَدْ يَهْجُوكَ قَائِلُهُ ... مَا مِثْلُكُمْ بِاحْتِمَالِ الضُّرِّ وَالرَّغَمِ

الابهام

كَمْ زَادَ إِبْهَامَ نُصْحِي ذَا الْعَذُولُ وَكَمْ ... يَا لَيْتَ إِبْهَامَهُ فِي حَيِّزِ الْعَدَمِ

النزاهة

تَنَزَّهَتْ سَمْعِي بِحَقٍّ عَنْ نَصَائِحِهِ ... إِذْ لَمْ أَرَ الْحَقَّ فِي قَوْلٍ وَلَا كَلِمِ

المغايرة

أُغَايِرُ النَّاسَ فِي حُبِّي لِذِي عَذَلٍ ... مُسْتَنْطِقًا فَمُهُ حُبًّا لِذِكْرِهِمِ

الجناس الموصل

نَفسي لَهُم عَشِقَتْ حُبّا بِهِمْ شُغِفَتْ   فَحُبُّهُمْ صِلَةٌ تُنفَى بِهَا غُمَمِي

الاستثناء

أَهوَى ٱلْخُطُوبَ بِلَا ٱسْتِثْنَا لِحُبِّهِمِ   إِلَّا مَلَامَ عَذُولِي لِي لِأَجلِهِمِ

الجناس المهمل

كَلَّا ٱلْإِلٰهُ ٱمْرَءًا رَامَ ٱلْوِدَادَ لَهُ   وَأَهْمَلَ ٱلْوُدَّ لِلْأَسْوَاءِ وَٱلْحُرَمِ

الجناس الاخيف

أَحَلَّهُ خَيفَ سَعْدٍ فِي لِوَا نُجُبٍ   كَسَا شَبِيبَةَ عُمْرٍ جُبَّةَ ٱلسَّلَمِ

الالغاز

مِنْ مَرْمَرِ ٱلرُّشْدِ خُذْ شَطْرًا بِشَطْرِ م يَمِينِ ٱللهِ مُتَّحِمًا لِلُّغْزِ تَفْتَهِمِ

الجناس المقطع

وَإِنْ أَرَدتَّ دَوَاءً زُرْ ذُرَاهُ وَرُدْ   وَإِنْ أَرَدتَّ رَوَى دَعْ وِردَ ذِي زَامِ

المحاجاة

وَٱسْتَشْفِهِ فِي ٱلتَّحَاجِي مُمْعِنًا نَظَرًا   بِقَوْلِهِ فَٱلْإِسَا مِلْكِي وَمِنْهُ رُمِ

الكلام الجامع

جَمْعُ ٱلْكَلَامِ إِذَا لَمْ يَشْتَمِلْ حِكَمًا   لَمْ يُلْفِ مَنْ ذَاقَ فِيهِ لَذَّةَ ٱلدَّسَمِ

الاقتباس

مِنْ مَجْمَعِ ٱلشَّوْكِ هَلْ مَنْ يَجْتَنِي عِنَبًا   لَمْ تُقْتَبَسْ لَذَّةٌ مِنْ عَاطِلِ ٱلْكَلِمِ

التوجيه

وَجِّهْ إِلَى ٱلرَّبِّ نَعْتًا أَنتَ تَابِعُهُ   يَرْفَعْكَ مِنْ خَفْضِ رُتْبَاتٍ إِلَى ٱلْعِظَمِ

عكس الاشارة

بِحَقِّ بِرٍّ فَقُمْ لَا فِي إِشَارَتِهِ   فَإِنَّ عَكْسَ ٱسْمِهِ مَعْنَاهُ كَٱلْعَلَمِ

المطمع

قد طابَ لِلنَّفسِ في الأسواءِ مطمعُها ... بل طالَ فيها ولم تعدِلْ إلى النَّدمِ

الرجوع

ما لي رجوعٌ إلى حالي لأُصلحها ... بلى إذا معْ هُدى ربّي سعى قدمي

عتاب النفس

يا نفسِ عِي وارعوي واصغي إلى عتبي ... حتَّامَ أنتِ بجهلٍ غيرِ منصرمِ

التسليم

هيّي لزعمِكِ قد سلّمتُ مرتضيًا ... فما يكونُ جوابي يومَ مُحتكمي

القسم

فلا أُنِلتُ المُنى إن مِلتُ متَّبِعًا ... هواكِ في غيرِ ما أهوى وذا قسمي

حسن التخلص

فرغبتي والهوى حسنُ التخلُّصِ مِنْ ... إثمي بمدحِ وسيطِ النَّاسِ كلِّهمِ

الاطراد

يسوعُ بكرُ الإلهِ ابنُ البتولِ سُلا ... لةُ المُلوكِ وربٌّ في اطِّرادِهِمِ

حصر الجزئي والحاقه بالكلي

فردٌ بهِ تُحصَرُ الأنصارُ أجمعُهُمْ ... فالجزءُ يُلحَقُ بالكلّيِّ للعِظَمِ

العكس

نفسُ الجمالِ جمالُ النفسِ فيهِ بدا ... يا عكسَ مَن عن سنا هذا الجمالِ عَمِي

المماثلة

فالآبُ ماثلَهُ والرُّوحُ وافقهُ ... والكُنهُ شارَكَهُ بالعُظمِ والقِدَمِ

التفسير

كُنهٌ ثُلاثيٌّ أُقنومٍ يُفسِّرهُ ... آبٌ وابنٌ وروحٌ في وحيدِهِمِ

المذهب الكلامي

مَذْهَبِي فِي كَلَامِي مِنْهُ مُنْقِذُنَا　　لَوْ لَمْ يَصِرْ بَشَرًا لَمْ نَنْجُ مِنْ ضَرَمِ

المناسبة

لَاهُوتُهُ كَامِلٌ وَٱلطُّهْرُ نَاسَبَهُ　　نَاسُوتُهُ فَاضِلٌ فِي ٱلْخَلْقِ وَٱلشِّيَمِ

ارسال المثل

فَٱلْحُسْنُ فِي ٱلْخَلْقِ اَرْبَى فِيهِ عَنْ مَثَلٍ　　وَٱلْفَضْلُ اَشْهَرُ مِنْ نَارٍ عَلَى عَلَمِ

الترديد

فَهُوَ ٱلْبَدِيعُ لَنَا هٰذَا ٱلْبَدِيعُ سَنًى　　بِهِ ٱلْبَدِيعُ حَلَا تَرْدِيدُهُ بِفَمِي

التكرار

تَكْرَارُ مَدْحِي بِمَا بِٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ م　　ٱبْنِ ٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ ٱبْنِ ٱلْوَاهِبِ ٱلنِّعَمِ

الترتيب

لَهُ ٱلْمَلَائِكُ وَٱلْاِنْسَانُ اَجْمَعُهُ　　وَمَا سِوَاهُمُ فِي ٱلتَّرْتِيبِ كَٱلْخَدَمِ

التشريع

لَمَّا ٱنْحَنَى وَبِتَشْرِيعِ ٱلْفِدَاءِ بَدَا　　نِلْنَا ٱلْمُنَى فَنَجَوْنَا مِنْ رَدَى ٱلْعَرِمِ

التكميل

اَوْفَى اَبَاهُ تَمَامًا دَيْنَ آدَمِهِ　　حَمْدًا لَهُ فَاقَ تَكْمِيلًا بِذَا ٱلْكَرَمِ

الجناس المرفوّ

هَيَّا مَدَارَ نَعِيمٍ قَدْ رَفَاهُ بِهِ　　وَطَمَّ دَارَ جَحِيمٍ حَالِكِ ٱلظُّلَمِ

الجناس المشتق

هَدَى إِلَى ٱلْمَنْهَجِ ٱلْهَادِي بُغَاةَ هُدًى　　وَمِنْ هُدَاهُ ٱلْخَلَاصُ ٱشْتُقَّ لِلْاُمَمِ

النقل

تَمَّتْ نُقُولُ نُبُوَّاتٍ بِهِ وَمَضَتْ　　بِهِ ٱلْخَلِيلُ نَجَا مِنْ وَابِلِ ٱلضَّرَمِ

تشبيه شيئين بشيئين

شَيْئَانِ قَدْ اَشْبَهَا شَيْئَيْنِ فِيهِ لَنَا   تَعَطُّفٌ وَنَدًى كَٱلْبَحْرِ وَٱلدِّيَمِ

التشطير

تَشْطِيرُ نِعْمَتِهِ ما بَيْنَ أُمَّتِهِ   كَٱلنَّجِ فِي عِظَمٍ قَدْ كَانَ فِي ٱلْقِسَمِ

الطيّ والنشر

فَٱلطَّيُّ وَٱلنَّشْرُ وَٱلتَّبْدِيلُ عَنْ كَرَمٍ   لِلْعُسْرِ وَٱلْيُسْرِ وَٱلْاَحْوَالِ وَٱلشِّيَمِ

الايغال

فِي ٱلسَّعْيِ اَوْغَلَ فِي تَمْهِيدِهِ سُبُلًا   إِلَى ٱلْخَلَاصِ بِحُبٍّ غَيْرِ مُنْكَتِمِ

الاشارة

وَمِنْ إِشَارَاتِهِ بِٱلْوَعْظِ كَمْ نَجَتْ   لَهُمْ فُنُونٌ بِهَا زَادُوا بِبِرِّهِمِ

الايجاز

وَقَوْلُهُ مُوجَزٌ فِي صُنْعِ مُعْجِزَةٍ   إِنْ قَالَ اَشْفَى وَاَحْيَا بَالِيَ ٱلرِّمَمِ

التوشيع

تَوْشِيعُ مَذْهَبِهِ فِي فَضْلِ سُنَّتِهِ   مُثْبِتُ ٱلْاَمْجَدَيْنِ ٱلْعَهْدِ وَٱلذِّمَمِ

التورية

وَكَمْ عُقُودٍ لَهُمْ حَلَّتْ فَوَائِدُهُ   بِحُسْنِ تَوْرِيَةٍ حَلَّتْ لِسَانَ فَمِ

النوادر

كَمْ مِنْ نَوَادِرِ بَذْلٍ مَارَسَتْ يَدُهُ   حَتَّى جَرَى دَمُهَا لِلْبَذْلِ كَٱلدِّيَمِ

البسط

تَعَوَّدَ ٱلْجُودَ مَعْ بَسْطِ لِرَاحَتِهِ   لِلْعُودِ جَادَ بِهَا مَدًّا بِلَا سَقَمِ

الجمع مع التقسيم

جَمْعٌ تَقَسَّمَ يَوْمَ ٱلصَّلْبِ فِي فِرَقٍ   مِنْ قَاتِلٍ وَمُهِينٍ ثُمَّ مُنْتَقِمِ

الجمع

فَٱلْجَلْدُ وَٱلْهُزْؤُ وَٱلتَّشْتِيمُ مَعْ عَذَلٍ　　اِهَانَـةٌ نَالَهَا مِنْ بَغْيِ جُمْعِهِمِ

جناس البعض

بَعْضٌ حَمَاقَتُهُمْ زَادَتْ حَمَاسَتُهُمْ　　جَوْرًا وَبَعْضٌ كَكَلْبٍ كَالِبٍ نَهِمِ

المشوّش

وَشَوَّشُوا ٱلْفَرْعَ مِنْ خَدْشٍ بِهَامَتِهِ　　وَٱلْقَدْغُ فِي ٱلْجِسْمِ وَٱلْكَفَّيْنِ وَٱلْقَدَمِ

التشبيه

وَٱلْجِسْمُ اِنْ جِئْتُ تَشْبِيهًا لِحَالَتِهِ　　قُلْ كَٱلْخِلَالِ نُحُولًا مِنْ نَكَالِهِمِ

تجاهل العارف

تَجَاهَلَ ٱلنَّاسُ فِي عِرْفَانِ صُورَتِهِ　　قَالُوا اَسُقْمٌ بِهِ اَمْ بِٱلنَّكَالِ رُمِي

المساواة

بِٱلْمَوْتِ سَاوَى ٱلْمَلَا اَمَّا قِيَامَتُهُ　　فَاَوْضَحَتْ قُدْرَةَ ٱللَّاهُوتِ كَٱلْعَلَمِ

التوهيم

تَوْهِيمُ قَلْبٍ جَلَتْ بُشْرَى قِيَامَتِهِ　　جَلَّتْ بِنَصْرٍ وَعَزَّتْ سَاعَةَ ٱلْغُمَمِ

الجناس الكامل

وَبَعْدَمَا قَدْ قَضَى فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ اِلَى　　م ٱلْعُلَا اِرْتَقَى ذَا ٱلْجَمِيلُ ٱلْكَامِلُ ٱلشِّيَمِ

الانسجام

وَمِنْ لَدُنْهُ ٱلْمُعَزِّي حَلَّ مُنْسَجِمًا　　عَلَى تَلَامِيذِهِ كَٱلْلُّسْنِ مِنْ ضَرَمِ

التسهيم

تَسَهَّمُوا ٱلْاَرْضَ لِلْبُشْرَى فَقَالَ لَهُمْ　　وَتَلْمِذُوا عَمِّدُوا كُلًّا مِنَ ٱلْاُمَمِ

التمكين

جَالُوا بِتَمْكِينِ عَزْمٍ فِي بِشَارَتِهِمْ　　وَلَمْ يُبَالُوا بِتَعْذِيبٍ وَسَفْكِ دَمِ

الجناس المركب المجموع

جَادُوا بِأَنْفُسِهِمْ حُبًّا كَمَا لِهِمِ ... وَجَمْعُ تَرْكِيبِ فَضْلٍ فِي كَمَالِهِمِ

الإرداف

وَأَرْدَفُوا الْعَزْمَ بَأْسًا أَسْكَنُوهُ مُحَالَ ... مَ الْحُبِّ فِي السَّيْرِ لِلْبُشْرَى بِرَبِّهِمِ

الاتساع

بِيضُ الْمَفَارِقِ بَلْ طُهْرُ النُّفُوسِ هُمُ ... وَبِاتِّسَاعِ الْحِجَى فَازُوا بِقَصْدِهِمِ

الاستتباع

يَسْتَتْبِعُونَ بِمَحْضِ النُّصْحِ فِعْلَ هُدًى ... وَيَحْفَظُونَ تُقَاهُمْ حِفْظَ دِينِهِمِ

المردّد

وَمِنْ مُرَدَّدِ إِنْذَارٍ حَكَوْهُ فَذُو ... مَ الْهَوَى هَوَى كَذَاكَ الْعَابِدُ الصَّنَمِ

الترصيع

هُمْ رَصَّعُوا أَدَبًا مِنْ دُرِّ لَفْظِهِمِ ... كَمْ أَبْدَعُوا خُطَبًا فِي سِرِّ وَعْظِهِمِ

ايتلاف اللفظ مع الوزن

تَآلَفَ اللَّفْظُ مَعْ وَزْنٍ بِمَدْحِهِمِ ... لِرَبِّهِمْ ضِمْنَ نَظْمٍ فِيهِ مُنْسَجِمِ

ايتلاف اللفظ مع المعنى

اللَّفْظُ فِي الْمَدْحِ مَعْ مَعْنَاهُ مُؤْتَلِفٌ ... فَلِلْمَعَانِي تَرَى الْأَلْفَاظَ كَالْخَدَمِ

الفرائد

وَكَمْ مِنْ فَرَائِدِ دُرٍّ فِيهِ قَدْ نَظَمُوا ... عِقْدَ النَّشِيدِ فَأَعْجِبْ بِانْتِظَامِهِمِ

ايتلاف المعنى مع الوزن

تُؤَلِّفُ الْوَزْنَ وَالْمَعْنَى نَشَائِدُهُمْ ... صَحِيحَةً عَذْبَةً فِي اللَّحْنِ وَالنَّغَمِ

التسميط

تَسْمِيطُهُمْ دُرَرًا أَضْحَى بِهِ غُرَرًا ... أَمْسَى لَنَا قَمَرًا فِي لَيْلَةِ الْغُمَمِ

ايتلاف اللفظ مع اللفظ

وَٱللَّفظُ لِلحَمْدِ فِي ٱلْأَفْوَاهِ مُؤْتَلِفٌ مَعْ لَفظِ مَدْحٍ بَدَا مِنْ أَلْسُنِ ٱلدِّيَمِ

الابداع

إِبدَاعُ نَظْمِهِم دَمْعِي جَلَا وَحَلَا ايدَاعُ نَثْرِهِم سَمْعِي كَمُنْتَظِمِ

التفريع

مَا نَسْمَةٌ حَمَلَتْ مِسْكًا لَطَائِفُهَا يَوْمًا بِأَطْيَب مِنْ تَفْرِيعِ فَضْلِهِم

المدح في معرض الذم

فِي مَعْرِضِ ٱلذَّمِّ مَدْحًا قَدْ خَصَصْتُ بِهِمْ لَا عَيْبَ فِيهِمْ سِوَى ٱلْايفَاءِ بِٱلذِّمَمِ

الجناس المرفل

وَبِٱلْأَيَادِي أَيَادِيهِمْ سَمَتْ كَرَمًا فَرَاحَ يَرْفُلُ بِٱلْاِثْرَاءِ ذُو ٱلْعَدَمِ

الكناية

تَزَاحُمُ لِعُفَاةٍ يُسْرِعُونَ الَى فِرَاتِهِمْ ذَا يُكَنِّي عَنْ سَخَائِهِمِ

التوزيع

عَلَى ٱلْعُفَاةِ جَمِيعًا وَزَّعُوا نِعَمًا فَعَادَ أَعْوَزُهُمْ بِٱلْعِزِّ وَٱلْعِظَمِ

الاشتراك

سَادُوا بِصَدْرٍ غَدَا بِٱلْعِزِّ مُشْتَرَكًا صَدْرِ ٱلْجُلُوسِ عَلَى كُرْسِي قَضَائِهِمِ

الموازنة

مُوَازِنٍ وَاتِنٍ مُسْتَرْكِنٍ حَسَنٍ مُسْتَعْلِنٍ فَاتِنٍ مُسْتَمْكِنٍ فَخِمِ

المؤتلف والمختلف

فَجَمْعُ مُؤْتَلِفٍ فِيهِمْ وَمُخْتَلِفٍ حُكْمًا وَفَضْلًا فَسِمْعَانٌ بِذَاكَ سُمِي

الايضاح

مَا بَيْنَهُمْ صَخْرَةٌ لِلْحَقِّ مُوضِحَةٌ بَنَى ٱلْمَسِيحُ عَلَيْهَا بَيْتَ جَمْعِهِمِ

الطاعة والعصيان

فَمَنْ يُطِعْ حُكْمَهُ يُرْحَمْ لَدَى شَجَبٍ ... وَمَنْ عَصَى أَمْرَهُ يُحْرَمْ مِنَ ٱلنِّعَمِ

حسن النسق

نَثْرِي يُنَاسِقُهُمْ شِعْرِي يُطَابِقُهُمْ ... ثَغْرِي يُوَافِقُهُمْ فِي مَدْحِ رَبِّهِمِ

التجزئة

أَرْبَيْتُ فِي هَمِّي جَزَّأْتُ فِي كَلِمِي ... رَوَّيْتُ فِي قَلَمِي أَرْوَيْتُ كُلَّ ظَمِي

المتوازن

تَوَازَنَتْ حِكَمِي حَمْدًا لِمُنْسَجِمِ ... مُلَازِمًا مَدْحَهُ نَظْمًا بِمُنْسَجِمِ

التسجيع

تَجْعِي وَمُنْتَظَمِي مَدْحًا حَلَا بِفَمِي ... حَاكَيْتُ فِي رَنَمِي ٱلشُّحْرُورَ بِٱلنَّغَمِ

الاتفاق

يَسُوعُ وَٱسْمُهُ فِي تَخْلِيصِنَا ٱتَّفَقَا ... فَهْوَ ٱلْمُخَلِّصُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نِقَمِ

الاعتراض

فَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْنَا فِي عِبَادَتِهِ ... وَهْوَ ٱلْإِلٰهُ وَمَنْ يَعْبُدْهُ يَعْتَصِمِ

العنوان

بِهِ ٱلسَّفِينَةُ نَجَّتْ نُوحَ وَهْيَ غَدَتْ ... عُنْوَانَ بِيعَتِهِ تُوقِي مِنَ ٱلْعَرِمِ

الترشيح

فَحَلَّ مَرْكَبَ تِيهٍ حِينَ رَكَّبَهَا ... فَكَمْ تَرَشَّحَ مِنْهَا ٱلرُّشْدُ فِي ٱلظُّلَمِ

التلميح

تَلْمِيحُ تَعْلِيمِهَا ذَاكَ ٱلسِّرَاجُ بِهِ ... يُهْدَى وَفِي ٱلسُّرْجِ إِرْشَادٌ إِلَى ٱللَّقَمِ

التتميم

تَتْمِيمُ سِرِّ ٱلْفِدَا وَٱلْحُبِّ سَلَّمَهَا ... يَا سَعْدَهَا وَٱضْمَحَلَّ ٱلْبُؤْسُ بِٱلنِّعَمِ

التصريع

تَصْرِيعُ ٱبْوَابِهَا يُوقِي مِنَ ٱلْخَصِمِ   فَٱلْمَرْءُ دَاخِلَهَا كَٱلْمَرْءِ فِي ٱلْأُطُمِ

التجريد

يَنَالُ صَوْبَ ٱلْحَيَا مِنْ بَسْطِ رَاحَتِهَا   مَنْ قَدْ تَجَرَّدَ عَنْ كُفْرٍ بِرَبِّهِمِ

المعمّى

حَوَى ارِيجَ بَهَارٍ قَلْبُهُ وَسَمَا   مِنْ شَمِّهِ يَهْتَدِي مَنْ عَنْ غِنَاهُ عَمِي

التعريض

تَطْوِيلُ تَعْرِيضِ هَاجِيهَا يُعَظِّمُهَا   وَٱلْبُغْضُ لِلْحَقِّ مَكْرُوهٌ كَذِي اَضَمِ

التنكيت

دَعِ ٱلْمُنَكِّتَ اِذْ فِي ذِي ٱلكَنِيسَةِ وَحْـ   ـدَهَا نَجَاةٌ مِنَ ٱلطُّوفَانِ وَٱلضَّرَمِ

التوشيح

فَٱلرَّبُّ وَشَّحَهَا مِنْ عِصْمَةٍ حُلَلًا   اَوْقَتْ خُطَى حُكْمِهَا مِنْ زَلَّةِ ٱلْقَدَمِ

تنسيق الصفات

فَٱمْجِدْ لَهُ عِنْدَ تَنْسِيقِ ٱلصِّفَاتِ وَقُلْ   رَبٌّ اِلٰهٌ قَدِيرٌ كَامِلُ ٱلشِّيَمِ

التعطف

فَٱخْتَارَ ذَاكَ ٱلصَّفَا رَأْسًا وَقَالَ لِذَا   ٱلْمُخْتَارِ كُنْ رَاعِيًا وَٱعْطِفْ عَلَى ٱلْغَنَمِ

العقد

مَهْمَا تَحُلَّ بِاَرْضٍ يَنْحَلِــلْ بِسَمَا   وَمَا رَبَطْتَ بِعَقْدِ ٱلرَّبْطِ مِنْكَ رُمِي

التعليل

لَوْ لَمْ يَجِئْنَا بِتَعْلِيلٍ تَجَسُّدُهُ   مِنْ مَرْيَمٍ مَا شُفِينَا مِنْ ضَنَى ٱلسَّقَمِ

المجاز

هِيَ ٱلْمَجَازُ لِإِدْرَاكِ ٱلشِّفَاءِ هِيَ ٱلْـ   ـعَرْشُ ٱلرَّفِيعُ وَبُرْجُ ٱلْبَارِئِ ٱلنَّسَمِ

المبالغة

بِهَا خَلَاصُ جَمِيعِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ   أَرَدتَّ بَالِغْ وَقُلْ بَلْ سَائِرِ ٱلْأُمَمِ

التوليد

لِكُلِّ هَوْلٍ طَرَا تُرْجَى شَفَاعَتُهَا   نَالَ ٱلْعِبَادُ بِهَا تَوْلِيدَ أَمْنِهِمِ

الاغراق

لَوْ تَابَ إِبْلِيسُ يَبْغِي مَاءَ نِعْمَتِهَا   لَأَغْرَقَتْهُ بِتَيَّارٍ مِنَ ٱلنِّعَمِ

الغلوّ

فَقَطْرَةٌ مِنْ نَدَاهَا لَا غُلُوَّ بِهَا   تَكَادُ تُحْيِي رَمِيمًا صَارَ كَٱلْعَدَمِ

التضمين

وَخَلْقُهَا فَاقَ فِي حُسْنٍ تَضَمَّنَهُ   وَإِنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ ٱللهِ كُلِّهِمِ

المدح المفرّغ

يَسْمُو ٱلْمَدِيحُ بِتَفْرِيغٍ لِطَلْعَتِهَا   سُمُوَّ خَلْقٍ حَوَتْ بِٱلْحِلْمِ مُلْتَئِمِ

التعديد

تَعْدِيدُ أَفْضَالِهَا يُبْدِي لِسَامِعِهِ   طُهْرًا وَبِرًّا وَحِلْمًا مَعْ عُلَى ٱلشِّيَمِ

التهذيب والتأديب

تَهْذِيبُ تَأْدِيبِهَا قَدْ زَادَنَا عَجَبًا   بِصَبْرِهَا حِينَ تَعْذِيبِ ٱبْنِهَا ٱلْعَلَمِ

التفصيل

فِي شَرْحِ آلَائِهِ ٱلتَّفْصِيلُ مُتَّسِعٌ   يَكِلُّ عَنْ شَرْحِهَا ذُو ٱلْفَهْمِ وَٱلْحِكَمِ

ايتلاف المعنى مع المعنى

وَصْلٌ وَفَصْلٌ لَهُ لِلْمَعْنَيَيْنِ غَدَا   تَآلُفٌ نَحْوَ صِدِّيقٍ وَمُجْتَرِمِ

[التوكيد

لَهُ ٱلْقَضَاءُ بِتَوْكِيدٍ يَدِينُ بِهِ   أَمَا تَعِي أَنَّهُ ٱلدَّيَّانُ لِلْأُمَمِ

صناعة التنويع

تَنْوِيعُ سَطْوَتِهِ يَوْمًا يُحَاكِمُهُمْ كَاللَّيْثِ كَالسَّيْفِ كَالْجَبَّارِ كَالضَّرِمِ

المشاكلة

يَجْزِي إِسَاءَةَ شَانِيهِ بِسَيِّئَتِهِ يُشَاكِلُ الْخَيْرَ خَيْرًا حُفَّ بِالْكَرَمِ

مجنح القلب

مُدْنٍ لِصَفْحٍ جَنَاحَ الْقَلْبِ عَاطِفُهُ إِذَا رَأَى تَوْبَةً وَالدَّمْعُ فِي نَدَمِ

الجمع مع التفريق

فِي وَجْهِهِ النُّورُ لِلْأَصْحَابِ يَشْمَلُهُمْ وَلِلْعِدَا النَّارُ فِي تَفْرِيقِ جَمْعِهِمِ

مراعاة النظير

وَجْهُ السَّمَاءِ بِهِ كَالْبَرْقِ مُلْتَمِعٌ رَاعَى النَّظِيرَ بِوَجْهٍ لِلظِّبَاءِ سَمِي

التفريق

قَالُوا هُوَ الْمَلْكُ وَالتَّفْرِيقُ يَظْهَرُ لِي فَذَاكَ فَانٍ وَهٰذَا غَيْرُ مُنْعَدِمِ

السلب والايجاب

لَا يُوجِبُ السَّلْبَ فِي إِعْزَازِ عُصْبَتِهِ وَيُوجِبُ الذُّلَّ لِلْأَشْرَارِ فِي النِّقَمِ

المتقارب

أَرْجُو التَّقَارُبَ مِنْ أَعْدَادِ زُمْرَتِهِ لَا مِنْ عَدِيدِ الْعِدَا فِي الْحَشْرِ وَالزِّحَمِ

حسن البيان

حُسْنُ الْبَيَانِ بِنُورٍ مِنْهُ أَرْشَدَنِي إِلَى التَّقَرُّبِ مِنْ أُولَئِكَ الْخَدَمِ

المزاوجة

إِذَا تَزَاوَجَ هَمِّي وَالْتَجَأْتُ لَهُ بِالْمَدْحِ فُزْتُ وَوَقَّانِي مِنَ الْغُمَمِ

الاستعانة

مَا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْمًا وَاسْتَعَنْتُ بِهِ إِلَّا وَنِلْتُ جِوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضَمِ

التقسيم

فَالْكَوْنُ قَدْ عَمَّهُ تَقْسِيمُ أَنْعُمِهِ جِنْسًا وَنَوْعًا وَفَرْدًا وَهْوَ فِي شَمَمِ

التمثيل

تُرْبِي عَلَى ٱلسَّيْلِ فِي ٱلتَّمْثِيلِ نِعْمَتُهُ شَتَّانَ مَا بَيْنَ طَلٍّ وَٱلْحَيَا ٱلْعَرِمِ

نفي الشيء بايجابه

لَا يَنْتَفِي ٱلْجُودُ مِنْ إِيجَابِهِ أَبَدًا وَلَا يَشِينُ بِمَنٍّ رَوْنَقَ ٱلنِّعَمِ

مختوم الطرفين

مِنْ فَضْلِهِ أَرْتَجِي تَخْتِيمَهُ طَرَفِي قَضِيَّتِي فِي ٱلْقَضَا بِٱلْمَجْدِ وَٱلْعِظَمِ

التضمين المزدوج

تَضْمِينُ حَمْدِي لَهُ لِلْفَضْلِ مُزْدَوِجًا عَقْلًا وَنَقْلًا جَنَا لِي جَاهُهُ وَهُمِي

الموارده

تَوَارَدَ ٱلْفِكْرُ فِي مَدْحِ ٱلْأَئِمَّةِ لِمَنْ غَدَا لِخَلَاصِي خَيْرَ مُلْتَزِمِ

التطريز

تَطْرِيزُ حَمْدِي بِمَدْحِي فِيهِ مُلْتَحِمٌ يَاحُسْنَ مُلْتَحِمٍ يَاحُسْنَ مُلْتَحِمِ

الاحتراس

إِلَيْكَ جِئْتُ أَيَا مَوْلَايَ مُنْسَحِقًا قَلْبًا وَمُحْتَرِسًا خُذْنِي مِنَ ٱلْخَدَمِ

المصغر

تُقَيْسَتِي مِنْ زُلَيْلَاتٍ جَنَتْ صَغُرَتْ وَلِّي عُزَيْمِي مُهَيْزِيًا وَلَمْ يَقُمِ

التدبيج

فَأَزْرَقَ أَبْيَضُ وَجْهِي حِينَ دَبَّجَهُ سَوَادُ إِثْمِي بِصِبْغٍ فِيهِ مُتَّسِمِ

المضارع

وَبِٱضْطِرَابِ جَنَانٍ وَٱضْطِرَامِ حَشًا نَازَعْتُ ذَا زَلَّةٍ فِي يَوْمِ مُخْتَصِمِ

التصريف

فَٱلْقَلْبُ حَرَّقَهُ ٱلتَّصْرِيفُ فِي عِلَلٍ ... وَٱلْجَفْنُ قَرَّحَهُ ٱلتَّدْمِيعُ فِي نَدَمِ

براعة الطلب

بَرَاعَتِي فِي مَدِيحِي مُنْتَهَى طَلَبِي ... فَأَسْأَلُ سَخَاكَ فَلَمْ أَحْتَجْ إِلَى ٱلْكَلِمِ

الادماج

أَدْمَجْتُ فِي مَدْحِهِ شَكْوَايَ مِنْ زَلَلِي ... وَعَسْجَدُ ٱلْخَدِّ مِنْ ذَا ٱلدَّمْعِ كَٱلْعَنَمِ

الحذف

أَرُومُ مِنْهُ ٱنْتِصَارًا حَاذِفًا هَلَعًا ... وَعَاضِدًا وَقْتَ هَوْلِ ٱلْحَشْرِ وَٱلنِّقَمِ

التاريخ

بِهِ ٱلْآثِمُ جَنَى بِرًّا فَقُلْتُ بِهِ ... مُذْ أَرَّخُوهُ لَنَا بِٱلْبِرِّ مُغْتَنِمِي *

حسن الختام

بِهِ غَدَا فِي عَلَاءٍ حُسْنُ مُبْتَدَإِي ... هَبْنِي بِهِ يَا إِلٰهِي حُسْنَ مُخْتَتَمِي

ختام الختام

وَأَخْتِمُ خِتَامِي بِأَنْ أَحْظَى بِمَطْلَعِكَ ... م ٱلْبَاهِي بِجَذْرِ ٱلسَّنِيِّ يَا مُرْشِدَ ٱلْأُمَمِ



* قولهُ : (لنا بالبر مغتنمي) تاريخ بحساب الجُمَّل للسنة التي فيها نظمت هذه البديعيَّة وهي سنة ١٨٥٨

البحث السادس

في المطابقة

(من المثل السائر لابن الاثير باختصار وتصرُّف)

(راجع صفحة ٩٤ من علم الادب)

هٰذَا ٱلنَّوْعُ هُوَ فِي ٱلْمَعَانِي ضِدُّ ٱلتَّجْنِيسِ فِي ٱلْأَلْفَاظِ لِأَنَّ ٱلتَّجْنِيسَ هُوَ أَنْ يَتَّحِدَ ٱللَّفْظُ مَعَ ٱخْتِلَافِ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا هُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَعْنَيَانِ ضِدَّيْنِ . وَقَدْ أَجْمَعَ أَرْبَابُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى أَنَّ ٱلْمُطَابَقَةَ فِي ٱلْكَلَامِ هِيَ ٱلْجَمْعُ بَيْنَ ٱلشَّيْءِ وَضِدِّهِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ وَٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ . وَخَالَفَهُمْ فِي ذٰلِكَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ ٱلْمُطَابَقَةُ إِيرَادُ لَفْظَيْنِ مُتَسَاوِيَيْنِ فِي ٱلْبِنَاءِ وَٱلصِّيغَةِ مُخْتَلِفَيْنِ فِي ٱلْمَعْنَى . وَهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ هُوَ ٱلتَّجْنِيسُ بِعَيْنِهِ . غَيْرَ أَنَّ ٱلْأَسْمَاءَ لَا مُشَاحَّةَ فِيهَا إِلَّا إِذَا كَانَتْ مُشْتَقَّةً . وَلْنَنْظُرْ نَحْنُ فِي ذٰلِكَ وَهُوَ أَنْ نَكْشِفَ عَنْ أَصْلِ ٱلْمُطَابَقَةِ فِي وَضْعِ ٱللُّغَةِ وَقَدْ وَجَدْنَا ٱلطِّبَاقَ فِي ٱللُّغَةِ مِنْ طَابَقَ ٱلْبَعِيرُ فِي سَيْرِهِ إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ مَوْضِعَ يَدِهِ وَهٰذَا يُؤَكِّدُ مَا ذَكَرَهُ قُدَامَةُ لِأَنَّ ٱلْيَدَ غَيْرُ ٱلرِّجْلِ لَا ضِدُّهَا وَٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي يَقَعَانِ فِيهِ وَاحِدٌ وَكَذٰلِكَ ٱلْمَعْنَيَانِ يَكُونَانِ مُخْتَلِفَيْنِ وَٱللَّفْظُ ٱلَّذِي يَجْمَعُهُمَا وَاحِدٌ . فَقُدَامَةُ سَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُطَابَقَةً حَيْثُ كَانَ ٱلِاسْمُ مُشْتَقًّا مِمَّا سُمِّيَ بِهِ وَذٰلِكَ مُنَاسِبٌ وَوَاقِعٌ فِي مَوْقِعِهِ إِلَّا أَنَّهُ جَعَلَ لِلتَّجْنِيسِ ٱسْمًا آخَرَ وَهُوَ ٱلْمُطَابَقَةُ وَلَا بَأْسَ بِهِ إِلَّا إِنْ كَانَ مِثْلَهُ بِٱلضِّدَّيْنِ كَٱلسَّوَادِ وَٱلْبَيَاضِ فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ خَالَفَ ٱلْأَصْلَ ٱلَّذِي

اَصَّلَهُ بِاْلمِثَالِ اَلّذِي مَثَّلَهُ . وَاَمَّا غَيْرُهُ مِنْ اَرْبَابِ هٰذِهِ اَلصِّنَاعَةِ فَاِنَّهُمْ سَمَّوْا هٰذَا اَلضَّرْبَ مِنَ اَلْكَلَام مُطَابِقًا لِغَيْرِ اَشْتِقَاقٍ وَلَا مُنَاسَبَةٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُسَمَّاهُ . هٰذَا اَلظَّاهِرُ لَنَا مِنْ هٰذَا اَلْقَوْلِ اِلَّا اَنْ يَكُونُوا عَلِمُوا لِذٰلِكَ مُنَاسَبَةً لَطِيفَةً لَمْ نَعْلَمْهَا نَحْنُ . وَلْنَرْجِعْ اِلَى ذِكْرِ هٰذَا اَلْقِسْمِ مِنَ اَلتَّأْلِيفِ وَاِيضَاحِ حَقِيقَتِهِ فَنَقُولُ : اَلْاَلْيَقُ مِنْ حَيْثُ اَلْمَعْنَى اَنْ يُسَمَّى هٰذَا اَلنَّوْعُ اَلْمُقَابَلَةَ لِاَنَّهُ لَا يَخْلُو اَلْحَالُ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : اِمَّا اَنْ يُقَابَلَ اَلشَّيْءُ بِضِدِّهِ اَوْ يُقَابَلَ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ . وَلَيْسَ لَنَا وَجْهٌ ثَالِثٌ . (فَاَمَّا اَلْاَوَّلُ) وَهُوَ مُقَابَلَةُ اَلشَّيْءِ بِضِدِّهِ كَالسَّوَادِ وَاَلْبَيَاضِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُمَا فَاِنَّهُ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ : اَحَدُهُمَا مُقَابَلَةٌ فِي اَللَّفْظِ وَاَلْمَعْنَى وَاَلْآخَرُ مُقَابَلَةٌ فِي اَلْمَعْنَى دُونَ اَللَّفْظِ . اَمَّا اَلْمُقَابَلَةُ فِي اَللَّفْظِ وَاَلْمَعْنَى فَكَقَوْلِهِ : فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا . فَقَابَلَ بَيْنَ اَلضَّحِكِ وَاَلْبُكَاءِ وَاَلْقَلِيلِ وَاَلْكَثِيرِ . وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ : لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ . وَهٰذَا مِنْ اَحْسَنِ مَا يَجِيءُ فِي هٰذَا اَلْبَابِ . وَقَالَ اَيْضًا : خَيْرُ اَلْمَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنٍ نَائِمَةٍ . وَمِنَ اَلْحَسَنِ اَلْمَطْبُوعِ اَلَّذِي لَيْسَ بِمُتَكَلَّفٍ قَوْلُ عَلِيٍّ لِعُثْمَانَ : اِنَّ اَلْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ وَاَلْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيٌّ وَاَنْتَ رَجُلٌ اِنْ صُدِقْتَ سَخِطْتَ وَاِنْ كُذِبْتَ رَضِيتَ . فَقَابَلَ اَلْحَقَّ بِاَلْبَاطِلِ وَاَلثَّقِيلَ اَلْمَرِيَّ بِاَلْخَفِيفِ اَلْوَبِيِّ وَاَلصِّدْقَ بِاَلْكَذِبِ وَاَلسُّخْطَ بِاَلرِّضَا وَهٰذِهِ خَمْسُ مُقَابَلَاتٍ فِي هٰذِهِ اَلْكَلِمَاتِ اَلْقِصَارِ . وَكَذٰلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ لَمَّا قَالَ اَلْخَوَارِجُ : (لَا حُكْمَ اِلَّا لِلّٰهِ تَعَالَى) : هٰذِهِ كَلِمَةُ حَقٍّ اُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ .

وَقَالَ ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ لِسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَقَدْ احْضَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ لِيَقْتُلَهُ فَقَالَ لَهُ : مَا ٱسْمُكَ . قَالَ : سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ . قَالَ بَلْ انْتَ شَقِيُّ بْنُ كُسَيْرٍ . وَقَدْ كَانَ ٱلْحَجَّاجُ مِنَ ٱلْفُصَحَاءِ ٱلْمَعْدُودِينَ وَفِي كَلَامِهِ هٰذَا مُطَابَقَةٌ حَسَنَةٌ فَإِنَّهُ نَقَلَ ٱلِاسْمَيْنِ إِلَى ضِدِّهِمَا فَقَالَ : فِي (سَعِيدٍ) شَقِيٌّ . وَفِي (جُبَيْرٍ) كُسَيْرٌ . وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلْكَلَامِ لَمْ تَخْتَصَّ بِهِ ٱللُّغَةُ ٱلْعَرَبِيَّةُ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ ٱللُّغَاتِ . وَمِمَّا وَجَدْتُهُ فِي لُغَةِ ٱلْفُرْسِ انَّهُ لَمَّا مَاتَ قُبَاذُ احَدُ مُلُوكِهِمْ قَالَ وَزِيرٌ : حَرَّكَنَا بِسُكُوتِهِ . وَاوَّلُ كِتَابِ ٱلْفُصُولِ لِبُقْرَاطَ فِي ٱلطِّبِّ قَوْلُهُ : ٱلْعُمْرُ قَصِيرٌ وَٱلصِّنَاعَةُ طَوِيلَةٌ . (وَامَّا ٱلْمُقَابَلَةُ فِي ٱلْمَعْنَى دُونَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلْاضْدَادِ) فَمِمَّا جَاءَ مِنْهُ قَوْلُ ٱلْمُقَنَّعِ ٱلْكِنْدِيِّ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْحَمَاسَةِ :

لَهُمْ جُلُّ مَالِي إِنْ تَتَابَعَ لِي غِنًى   وَإِنْ قَلَّ مَالِي لَمْ اكَلِّفْهُمْ رِفْدَا

فَقَوْلُهُ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى) . بِمَعْنَى قَوْلِهِ : كَثُرَ مَالِي فَهُوَ إِذًا مُقَابَلَةٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لِأَنَّ حَقِيقَةَ ٱلْاضْدَادِ ٱللَّفْظِيَّةِ إِنَّمَا هِيَ فِي ٱلْمُفْرَدَاتِ مِنَ ٱلْالْفَاظِ نَحْوُ : قَامَ وَقَعَدَ . وَحَلَّ وَعَقَدَ . وَقَلَّ وَكَثُرَ . فَإِنَّ ٱلْقِيَامَ ضِدُّ ٱلْقُعُودِ . وَٱلْحَلَّ ضِدُّ ٱلْعَقْدِ . وَٱلْقَلِيلَ ضِدُّ ٱلْكَثِيرِ . فَإِذَا تُرِكَ ٱلْمُفْرَدُ مِنَ ٱلْالْفَاظِ وَتُوُصِّلَ إِلَى مُقَابَلَتِهِ بِلَفْظٍ مُرَكَّبٍ كَانَ ذٰلِكَ مُقَابَلَةً مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى لَا مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ كَقَوْلِ هٰذَا ٱلشَّاعِرِ : (تَتَابَعَ لِي غِنًى) . فِي مَعْنَى (كَثُرَ مَالِي) وَهٰذِهِ مُقَابَلَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ لَا لَفْظِيَّةٌ فَاعْرِفْ ذٰلِكَ . (وَامَّا مُقَابَلَةُ ٱلشَّيْءِ بِمَا لَيْسَ بِضِدِّهِ . فَهِيَ ضَرْبَانِ : (احَدُهُمَا) انْ لَا يَكُونَ مِثْلًا . (وَٱلْآخَرُ) انْ

يكون مثلًا . فالضرب الاول يتفرع الى فرعين : (الاول) ما كان بين المقابل به والمقابل نوع مناسبة وتقارب . كقول قريط ابن انيف :

يجزون من ظلم اهل الظلم مغفرة ومن اساءة اهل السوء احسانا

فقابل الظلم بالمغفرة وليس هو ضدًا لها. الّا انه لما كانت المغفرة قريبة من العدل حسنت المقابلة بينها وبين الظلم . (الفرع الثاني) ما كان بين المقابل والمقابل به بعد وذاك مما لا يحسن استعماله . كقول ابي الطيب المتنبي :

لمن يطلب الدنيا اذا لم يرد بها سرور محب او مساءة مجرم

فانّ المقابلة الصحيحة بين المحب والمبغض لا بين المحب والمجرم

ومما يتصل بهذا الضرب ضرب من الكلام يسمى المؤاخاة بين المعاني والمؤاخاة بين المباني وكان ينبغي ان نعقد له بابًا مفردا لكن اذ رأيناه ينظر الى التقابل من وجه وصلناه به. اما المؤاخاة بين المعاني فهو ان يذكر المعنى مع اخيه لا مع الاجنبي . مثاله ان تذكر وصفًا من الاوصاف وتقرنه بما يقرب منه ويلتئم به فان ذكرته مع ما يبعد منه كان ذلك قدحًا في الصناعة وان كان جائزًا . وقد رأيت ابا نواس يقع في هذا الغلط كثيرًا كقوله في وصف الديك :

له اعتدال وانتصاب قد وجلده يشبه وشي البرد

كأنها الهداب في الفرند محدودب الظهر كريم الجد

فَإِنَّهُ ذَكَرَ ٱلظَّهرَ وَقَرَنَهُ بِذِكْرِ ٱلْجَدِّ وَهٰذَا لَا يُنَاسِبُ هٰذَا لِأَنَّ ٱلظَّهرَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَلْقِ وَٱلْجَدَّ فِي ٱلنَّسَبِ. وَأَمَّا (ٱلْمُؤَاخَاةُ بَيْنَ ٱلْمَبَانِي) فَإِنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِمَبَانِي ٱلْأَلْفَاظِ. فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ ٱلْوَلِيدِ:

فَاذْهَبْ كَمَا ذَهَبَتْ غَوَادِي مُزْنَةٍ ... يُثْنِي عَلَيْهَا ٱلسَّهْلُ وَٱلْأَوْعَارُ

وَٱلْأَحْسَنُ أَنْ: يُقَالُ ٱلسَّهْلُ وَٱلْوَعْرُ أَوِ ٱلسُّهُولُ وَٱلْأَوْعَارُ. لِيَكُونَ ٱلْبِنَاءُ ٱللَّفْظِيُّ وَاحِدًا أَيْ أَنْ يَكُونَ ٱللَّفْظَانِ وَارِدَيْنِ عَلَى صِيغَةِ ٱلْجَمْعِ أَوِ ٱلْإِفْرَادِ. وَإِذَا أَنْصَفْنَا هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ وَجَدْنَا ٱلنَّاثِرَ مُطَالَبًا بِهِ دُونَ ٱلنَّاظِمِ لِمَكَانِ إِمْكَانِهِ مِنَ ٱلتَّصَرُّفِ. (ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي) هُوَ فِي مُقَابَلَةِ ٱلشَّيْءِ بِمِثْلِهِ وَهُوَ يَتَفَرَّعُ إِلَى فَرْعَيْنِ: (أَحَدُهُمَا) مُقَابَلَةُ ٱلْمُفْرَدِ بِٱلْمُفْرَدِ. (وَٱلْآخَرُ) مُقَابَلَةُ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ. (ٱلْفَرْعُ ٱلْأَوَّلُ) كَقَوْلِهِ: نَسُوا ٱللهَ فَنَسِيَهُمْ. وَقَدْ رُوعِيَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ فِي ٱلْقُرْآنِ كَثِيرًا فَإِذَا وَرَدَ فِي صَدْرِ آيَةٍ مَا يَحْتَاجُ إِلَى جَوَابٍ كَانَ جَوَابُهُ مُمَاثِلًا كَقَوْلِهِ: مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ. وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ غَيْرَ جَوَابٍ فَإِنَّهُ لَا يَلْتَزِمُ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْمُرَاعَاةَ ٱللَّفْظِيَّةَ. (ٱلْفَرْعُ ٱلثَّانِي فِي مُقَابَلَةِ ٱلْجُمْلَةِ بِٱلْجُمْلَةِ) اِعْلَمْ أَنَّهُ إِذَا كَانَتِ ٱلْجُمْلَةُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مُسْتَقْبَلَةً قُوبِلَتْ بِمُسْتَقْبَلَةٍ. وَإِنْ كَانَتْ مَاضِيَةً قُوبِلَتْ بِمَاضِيَةٍ وَرُبَّمَا قُوبِلَتِ ٱلْمَاضِيَةُ بِمُسْتَقْبَلَةٍ وَٱلْمُسْتَقْبَلَةُ بِٱلْمَاضِيَةِ إِذَا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا بِمَعْنَى ٱلْأُخْرَى فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ: قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي. فَإِنَّ هٰذَا تَقَابُلٌ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَعْنَى وَلَوْ كَانَ ٱلتَّقَابُلُ مِنْ جِهَةِ ٱللَّفْظِ لَقَالَ: وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَإِنَّمَا أَهْتَدِي لَهَا

البحث السابع

في حقيقة التجنيس

(عن كتاب جنان الجناس للصفدي وعن الشريشي وابن الاثير)

(راجع صفحة ١١٨ من علم الادب)

اعلَمْ أنّ التجنيسَ غُرّةٌ شادخةٌ في وَجه الكلام وقد تصرف العُلَماء من ارباب هذهِ الصناعة فيه فغرّبوا وشرّقوا لاسيما المحدّثين منهم. وصنّف الناس فيه كُتُباً كثيرةً وجعلوه ابوابا متعددةً واختلفوا في ذلك وادخلوا بعض تلك الابواب في بعض . وانّما سُمّي هذا النوع من الكلام مجانساً لانّ حروف الفاظه يكون تركيبها من جنس واحدٍ . امّا حقيقتهُ فاعلَم انّ ارباب البلاغة عرّفوه بحدود اختلفت اقوالهم فيها . فقال الرُّمّانيُّ : هو بيانُ المعاني بانواع من الكلام يجمعها اصلٌ واحدٌ من اللغة . وقال قُدامة : هو اشتراك المعاني في الفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق . وقال ابن المعتزّ : هو ان تجيء بكلمة تجانس اختها . وقال ابن الاثير الجزريُّ : الجناسُ هو ان يكون اللفظ واحدا والمعنى مختلفا . وقال بدر الدين ابن النحويّة في ضوء المصباح : هو ان يؤتى بمتماثلين في الحروف او بعضها متغايرين في اصل المعنى في غير ردّ العجز على الصدر . فهذا جملة ما حضرني من حدود القوم عند تعليق هذا الفصل . (قلتُ) اما حدّ الرُّمّانيّ فانّهُ اسلم ممّا بعده لكنّه غير جامع

لِأَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ جِنَاسُ ٱلتَّصْحِيفِ وَٱلتَّصْرِيفِ وَٱلْمُرَكَّبِ وجِنَاسُ ٱلْمَعْنَى وَٱلْجِنَاسُ ٱلْمُطَمِّعُ . وَأَمَّا حَدُّ قُدَامَةَ فَإِنَّهُ عَرَّفَ ٱلشَّيْءَ بِنَفْسِهِ وَهٰذَا غَيْرُ جَائِزٍ لِأَنَّ قَوْلَهُ : (فِي أَلْفَاظٍ مُتَجَانِسَةٍ) يُفْضِي إِلَى ٱلدَّوْرِ لِأَنَّنَا بِهٰذَا لَا نَعْرِفُ ٱلْمُتَجَانِسَ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْجِنَاسِ وَلَا نَعْرِفُ ٱلْجِنَاسَ إِلَّا بَعْدَ مَعْرِفَةِ ٱلْمُتَجَانِسِ فَأَدَّى ذٰلِكَ إِلَى ٱلدَّوْرِ وَهُوَ مُحَالٌ . وَيُمْكِنُ ٱلْجَوَابُ عَنْهُ بِأَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ مَا أَرَادَ ٱلْمُتَجَانِسَ فِي ٱلِاصْطِلَاحِ بَلِ ٱلْمُتَجَانِسَ فِي ٱللُّغَةِ أَيْ فِي ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمُتَشَابِهَةِ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهُوَ حَدٌّ مُضْطَرِبٌ إِذْ فِيهِ لَفْظٌ مُوهِمٌ وَٱلْحُدُودُ يُجْتَنَبُ فِيهَا مِثْلُ ذٰلِكَ . وَقَوْلُهُ : (عَلَى جِهَةِ ٱلِاشْتِقَاقِ) يَخْرُجُ عَنْهُ جَمِيعُ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ إِلَّا ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُشْتَقَّ . وَأَمَّا حَدُّ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَهُوَ أَيْضًا تَعْرِيفٌ دَوْرِيٌّ وَذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ فِي صِنَاعَةِ ٱلْحُدُودِ وَٱلرُّسُومِ . وَأَمَّا حَدُّ ٱبْنِ ٱلْأَثِيرِ فَهُوَ أَيْضًا غَيْرُ جَامِعٍ لِأَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْهُ مِثْلُ ٱلْجِنَاسِ ٱلْمُزْدَوِجِ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمُطَمِّعِ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْخَطِّيِّ وَٱلْجِنَاسِ ٱلْمَعْنَوِيِّ عَلَى مَا سَيَظْهَرُ لَكَ عِنْدَ كَشْفِ كُلِّ مَاهِيَّةٍ مِنْ أَنْوَاعِهِ . وَأَمَّا حَدُّ بَدْرِ ٱلدِّينِ ٱبْنِ ٱلنَّحْوِيَّةِ فَإِنَّ قَوْلَهُ : (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمَلُ ٱلْمُمَاثِلَ مُطْلَقًا سَوَاءٌ كَانَ لَفْظًا أَوْ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ يُخْرِجُ بِهِ ٱلْمُمَاثِلَ مَعْنًى . وَقَوْلُهُ : (أَوْ بَعْضِهَا) مُدْخِلٌ لِلْجِنَاسِ ٱلْمُطَمِّعِ وَٱلْمُخَالِفِ وَٱلِاشْتِقَاقِ . وَقَوْلُهُ : (مُتَغَايِرَيْنِ فِي أَصْلِ ٱلْمَعْنَى) لَا فَائِدَةَ فِيهِ لِأَنَّ هٰذَا مَعْلُومٌ فِي قَوْلِهِ : (مُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ) أَيْ دُونَ مَعْنَاهُمَا لٰكِنْ فِيهِ زِيَادَةُ بَيَانٍ . وَقَوْلُهُ : (فِي غَيْرِ رَدِّ ٱلْعَجُزِ

عَلَى ٱلصَّدْرِ) هٰذَا لَاحَاجَةَ إِلَيْهِ وَلَا فَائِدَةَ فِي هٰذَا ٱلِاحْتِرَازِ كَمَا يَظْهَرُ فِي ٱلتَّمْثِيلِ وَلَوْ زَادَ قَوْلَهُ: بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ أَوْ بَعْضِهَا أَوْ صُورَتِهَا لَكَانَ أَجْوَدَ لِيَدْخُلَ فِيهِ ٱلْجِنَاسُ ٱلْخَطِّيُّ . وَٱلَّذِي أَخْتَارُهُ أَنَا فِي رَسْمِ ٱلْجِنَاسِ أَنْ أَقُولَ : هُوَ ٱلْإِتْيَانُ بِمُتَمَاثِلَيْنِ فِي ٱلْحُرُوفِ أَوْ بَعْضِهَا أَوْ فِي ٱلصُّورَةِ أَوْ زِيَادَةٍ فِي أَحَدِهِمَا أَوْ بِمُتَخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ نَظْمًا أَوِ ٱلْحَرَكَاتِ أَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ . وَلَعَلَّ هٰذَا ٱلرَّسْمَ أَقْرَبُ إِلَى ٱلسَّلَامَةِ مِمَّا ذُكِرَ . فَقَوْلِي (مُتَمَاثِلَيْنِ) جِنْسٌ يَشْمُلُ ٱلْمُمَاثِلَ لَفْظًا وَمَعْنًى. وَقَوْلِي : (فِي ٱلْحُرُوفِ) فَصْلٌ أَخْرَجَ ٱلْمُمَاثِلَ مَعْنًى كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ زَيْدٌ . وَأَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلتَّامَّ كَقَوْلِكَ يَحْيَى يَحْيَا . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُرَكَّبَ كَقَوْلِكَ: نِعْمَتُهُ ذَاهِبَهْ . إِنْ لَمْ يَكُنْ ذَاهِبَهْ. وَقَوْلِي : (أَوْ بَعْضِهَا) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُطْمِعَ كَقَوْلِكَ : ٱلْأَمْوَاهُ وَٱلْأَمْوَالُ . وَٱلْجِنَاسَ ٱلْمُقَارِبَ كَقَوْلِكَ :ٱلْهُمُومُ عَلَى قَدْرِ ٱلْهِمَمِ . وَقَوْلِي :(أَوْ فِي ٱلصُّورَةِ) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْخَطِّيَّ كَقَوْلِكَ : لَا تُضِعْ يَوْمَكَ فِي نَوْمِكَ . وَقَوْلِي : (أَوْ زِيَادَةٍ) فِي أَحَدِهِمَا أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ : ٱلْمَاءُ مِنَ ٱلْأَحْجَارِ جَارٍ . وَقَوْلِي : أَوْ بِمُتَخَالِفَيْنِ فِي ٱلتَّرْتِيبِ أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُخَالِفَ كَقَوْلِكَ: بِيضُ ٱلصَّحَائِفِ وَٱلصَّفَائِحِ . وَقَوْلِي (أَوِ ٱلْحَرَكَاتِ) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمُغَايِرَ كَقَوْلِكَ : أَغْتَنِمْ هَبَاتِ ٱلْهِبَاتِ . وَقَوْلِي : (أَوْ بِمُمَاثِلٍ يُرَادِفُ مَعْنَاهُ مُمَاثِلًا آخَرَ نَظْمًا) أَدْخَلَ ٱلْجِنَاسَ ٱلْمَعْنَوِيَّ كَقَوْلِكَ: أَمْرٌ عَظِيمٌ تَظْهَرُ ٱللُّوثَةُ فِيهِ بِٱلْأَسَدِ . إِذَا أَرَدتَّ أَنْ تَقُولَ :

(بِٱللَّيْثِ) ثُمَّ عدلتَ اِلى مَا يُرادِفُهُ وهُوَ ٱلاَسدُ . وَقَوْلي : (نَظْمًا) اِعلامٌ بِاَنَّ هٰذا ٱلنَّوعَ مِنَ ٱلْجِناسِ اِنَّمَا يَجِيءُ فِي ٱلنَّظْمِ دُونَ ٱلنَّثْرِ . وَتَظْهَرُ عِلَّةُ هٰذَا فِي مَكَانِهِ . فَتَدَبَّرْ هٰذا ٱلرَّسْمَ تَجِدْهُ مَا اَخلَّ بِنَوْعٍ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلْجِناسِ . وَقَدْ قالَ عُلَمَاءُ ٱلْبَدِيعِ : اِنَّ ٱلْجِناسَ يَحْسُنُ اِذَا قلَّ وَاتَى فِي ٱلْكَلَامِ عَفْوًا مِنْ غَيْرِ كَدٍّ وَلَا ٱستِكْرَاهٍ وَلَا بُعْدٍ وَلَا مَيْلٍ اِلَى جَانِبٍ . وَلَمْ يَحْتَجْ اِلَيْهِ بِكَثْرَةِ ٱستِعْمَالِهِ اِلَّا مَنْ قَصُرَتْ هِمَّتُهُ عَنِ ٱخْتِرَاعِ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي هِيَ كَٱلنُّجُومِ ٱلزَّاهِرَةِ فِي اُفُقِ ٱلاَلْفَاظِ . وَاِذَا خلَتْ بُيُوتُ ٱلاَلْفَاظِ مِنْ سُكَّانِ ٱلْمَعَانِي تنزَّلَتْ مَنْزِلَةَ ٱلاَطْلَالِ ٱلْبَالِيَةِ

البحث الثامن

في ذكر انواع التجنيس

اِعلَمْ انَّ اَنْوَاعَ ٱلْجِنَاسِ كَثِيرَةٌ ٱقْتَصَرْنا عَلَى ذِكْرِ اخصِّها وَاَوَّلُهَا ٱلْجِنَاسُ (ٱلْمُرَكَّبُ) وَهُوَ انْ يَكُونَ احَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ كَلِمَةً مُفْرَدَةً وَٱلاُخْرَى مُرَكَّبَةً مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ : فَٱلاولُ مَا تَشَابَهَ لَفظًا وَخطًا كَقَوْلِ ٱلشَاعِرِ :

عَضَّنَا ٱلدَهْرُ بِنَابِهْ   لَيْتَ مَا حَلَّ بِنَا بِهْ

وَٱلثاني مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ لفظًا لَا خطًا وَيسَمَّى ٱلْمَفْرُوقَ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

لَا تَعْرِضَنَّ عَلَى ٱلرُّوَاةِ قَصِيدَةً   مَا لَمْ تَكُنْ بَالَغتَ فِي تَهْذِيبِهَا

وَإِذَا عَرَضْتَ ٱلشِّعْرَ غَيْرَ مُهَذَّبٍ عَدُّوهُ مِنْكَ وَسَاوِسًا تَهْذِي بِهَا

وَلِلْجِنَاسِ ٱلْمُرَكَّبِ نَوْعٌ يُسَمَّى (ٱلْمَرْفُوَّ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ جُزْءًا مُسْتَقِلًّا وَٱلْآخَرُ مُجَزَّأً مِنْ كَلِمَةٍ أُخْرَى كَقَوْلِ ٱلْحَرِيرِيِّ :

وَٱلْمَكْرَ مَهْمَا ٱسْتَطَعْتَ لَا تَأْتِهِ لِتَقْتَنِيَ ٱلسُّؤْدَدَ وَٱلْمَكْرُمَهْ

وَقَوْلِهِ :

وَلَا تَلْهُ عَنْ تَذْكَارِ ذَنْبِكَ وَٱبْكِهِ بِدَمْعٍ يُحَاكِي ٱلْمُزْنَ حَالَ مَصَابِهِ

وَمَثِّلْ لِعَيْنَيْكَ ٱلْحِمَامَ وَوَقْعَهُ وَرَوْعَةَ مَلْقَاهُ وَمَطْعَمَ صَابِهِ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ لَا يَخْلُو مِنْ تَعَسُّفٍ وَتَعْقِيدٍ فِي ٱلتَّرْكِيبِ . وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُلَفَّقُ) وَحَدُّهُ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنَ ٱلرُّكْنَيْنِ مُرَكَّبًا مِنْ كَلِمَتَيْنِ وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُرَكَّبِ وَقَلَّ مَنْ أَفْرَدَهُ عَنْهُ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَكَمْ بِجِبَاهِ ٱلرَّاغِبِينَ إِلَيْهِ مِنْ مَجَالِ سُجُودٍ فِي مَجَالِسِ جُودِ

وَمِنْ أَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمُذَيَّلُ وَٱللَّاحِقُ) . فَٱلْمُذَيَّلُ هُوَ مَا زَادَ أَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى ٱلْآخَرِ حَرْفًا فِي آخِرِهِ فَصَارَ لَهُ كَٱلذَّيْلِ كَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

يَمُدُّونَ فِي أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

وَقَالَ آخَرُ :

عَذِيرِيَ مِنْ دَهْرٍ مُوَارٍ مُوَارِبٍ لَهُ حَسَنَاتٌ كُلُّهُنَّ ذُنُوبُ

وَقَدْ تَأْتِي ٱلزِّيَادَةُ فِي آخِرِ ٱلذَّيْلِ بِحَرْفَيْنِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ فِي رِثَاءٍ :

فيا لكَ مِنْ حزمٍ وعَزمٍ طواهما جديدُ الرَّدى تحتَ الصَّفا والصَّفائحِ

وَارقُّ ما سَمِعتُ في هذا الباب قولُ القائلِ :

اِنَّ البُكاءَ هُوَ الشِّفاءُ م مِنَ الجوى بَيْنَ الجوانحْ

وَامَّا (اللَّاحِقُ) فهوَ ما أُبدِلَ في اَحدِ رُكنَيهِ حرفٌ مِنْ غيرِ مخرجهِ كقولِ بعضِهِمْ في جوابِ رسالةٍ : وَصَلَ كتابُكَ فتناوَلتُهُ باليمينِ ووضعتُهُ مكانَ العقدِ الثَّمينِ . وكقولِ الآخرِ : اما اليتيمَ فلا تقهرْ . وَامَّا السَّائلَ فلا تنهرْ . والفرقُ بَيْنَ الجناسِ اللَّاحِقِ والجناسِ المضارعِ اَنَّ حُرُوفَ اللَّاحِقِ لَيسَتْ مِنْ مخرجٍ واحدٍ كالنُّونِ والقافِ في : (تقهرْ وتنهرْ). واَمَّا حُرُوفُ المُضارعِ فانَّها مُتشابهةٌ في المخرجِ كما وردَ في الحديثِ : اِنَّ الخيلَ معقودٌ بنواصيها الخيرُ . ومثلُهُ قولُ بعضِهِم : البَرايا اَهدافُ البلايا . فانَّ الرَّاءَ واللَّامَ مِنْ مخرجٍ واحدٍ

ومِنْ انواعِ التَّجنيسِ (التَّامُّ) . وهُوَ ما تماثلَ رُكناهُ واتَّفقا لفظًا واختلفا معنًى مِنْ غيرِ تفاوتٍ في تصحيحِ تركيبِهِما واختلافِ حَرَكَتِهِما سواءٌ كانا مِن اسمَيْنِ اَوْ من فعلَيْنِ اَوْ مِن اسمٍ وفعلٍ فانَّهُمْ قالوا : اِذا انتظَمَ رُكناهُ مِنْ نوعٍ واحدٍ كاسمَيْنِ اَوْ فعلَيْنِ سُمّيَ مماثلًا وَاِنِ انتظَما من نوعَيْنِ كاسمٍ وفعلٍ سُمّيَ مُستوفًى . وجُلُّ القصدِ تماثلُ الرُّكنَيْنِ في اللَّفظِ والخطِّ والحركةِ واختلافُهُما في المعنى . فمنهُ قولُ اميرِ المؤمنينَ عليٍّ : صَولةُ الباطلِ ساعةٌ وَصولةُ الحقِّ اِلى السَّاعةِ . ومِنَ الشِّعرِ قولُ بعضِهِمْ في رِثاءِ صَغيرٍ اسمُهُ يحيَى :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيَحْيَا وَلَمْ يَكُنْ   اِلى رَدِّ اَمْرِ ٱللهِ فِيهِ سَبِيلُ

وَكَقَوْلِ اَبِي نُوَاسٍ :

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ اِذَا ٱحْتَدَمَ ٱلْوَغَى   وَٱلْفَضْلُ فَضْلٌ وَٱلرَّبِيعُ رَبِيعُ

وَمِنْهُ ٱلْجِنَاسُ (ٱلْمُطَرَّفُ) وَهُوَ مَا زَادَ اَحَدُ رُكْنَيْهِ عَلَى ٱلْآخَرِ حَرْفًا فِي طَرَفِهِ ٱلْاَوَّلِ . وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُذَيَّلِ . فَاِنَّ ٱلزِّيَادَةَ فِي ٱلْمُذَيَّلِ تَكُونُ فِي آخِرِهِ . وَاَمَّا ٱلْمُطَرَّفُ فَتَكُونُ زِيَادَتُهُ فِي اَوَّلِهِ لِتَصِيرَ لَهُ كَالطَّرَفِ وَيُسَمَّى اَيْضًا ٱلنَّاقِصَ وَٱلْمُرْدَفَ وَٱلْمُزْدَوِجَ وَٱلْمُكَرَّرَ وَٱلْمَرْدُودَ وَٱلْمُجَنَّبَ وَفِي تَسْمِيَتِهِ ٱخْتِلَافٌ. وَٱلزِّيَادَةُ تَكُونُ تَارَةً فِي اَوَّلِ ٱلرُّكْنِ ٱلثَّانِي وَتَارَةً فِي اَوَّلِ ٱلرُّكْنِ ٱلْاَوَّلِ كَقَوْلِهِمْ : لَمَّا مَلَأَ ٱلصَّاعَ ٱنْصَاعَ . وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

وَكَمْ سَبَقَتْ مِنْهُ اِلَيَّ عَوَارِفُ   ثَنَائِي عَلَى تِلْكَ ٱلْعَوَارِفِ وَارِفُ

وَكَمْ غُرَرٍ مِنْ بِرِّهِ وَلَطَائِفٍ   لِشُكْرِي عَلَى تِلْكَ ٱللَّطَائِفِ طَائِفُ

وَمِنْ اَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱللَّفْظِيُّ) وَهُوَ اَنْ يَتَمَاثَلَ رُكْنَانِ وَيَتَجَانَسَا خَطًّا اِلَّا اَنَّ اَحَدَهُمَا يُخَالِفُ ٱلْآخَرَ بِاِبْدَالِ حَرْفٍ مِنْهُ فِيهِ مُنَاسَبَةٌ لَفْظِيَّةٌ كَمَا ٱلَّذِي يُكْتَبُ بِٱلضَّادِ وَٱلظَّاءِ كَقَوْلِهِ : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ اِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . وَكَقَوْلِ ٱبْنِ ٱلْعَفِيفِ :

اَحْسَنُ خَلْقِ ٱللهِ وَجْهًا وَفَمًا   اِنْ لَمْ يَكُنْ اَحَقَّ بِٱلْمَدْحِ فَمَنْ

وَمِنْ اَنْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْجِنَاسُ ٱلْمَقْلُوبُ) وَسَمَّاهُ قَوْمٌ ٱلْمَعْكُوسَ وَذٰلِكَ ضَرْبَانِ : اَحَدُهُمَا عَكْسُ ٱلْاَلْفَاظِ وَٱلثَّانِي عَكْسُ ٱلْحُرُوفِ . فَٱلْاَوَّلُ كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ : عَادَاتُ ٱلسَّادَاتِ . سَادَاتُ ٱلْعَادَاتِ وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

إِنَّ ٱللَّيَالِي لِلْأَنَامِ مَنَاهِلٌ ... تُطْوَى وَتُنْشَرُ بَيْنَهَا ٱلْأَعْمَارُ
فَقِصَارُهُنَّ مَعَ ٱلْهُمُومِ طَوِيلَةٌ ... وَطِوَالُهُنَّ مَعَ ٱلسُّرُورِ قِصَارُ

وَهٰذَا ٱلضَّرْبُ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ لَهُ حَلَاوَةٌ وَعَلَيْهِ رَوْنَقٌ وَقَدْ سَمَّاهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ: (ٱلتَّبْدِيلَ) . وَذٰلِكَ ٱسْمٌ مُنَاسِبٌ لِمُسَمَّاهُ لِأَنَّ مُؤَلِّفَ ٱلْكَلَامِ يَأْتِي بِمَا كَانَ مُقَدَّمًا فِي جُزْءِ كَلَامِهِ ٱلْأَوَّلِ مُؤَخَّرًا فِي ٱلثَّانِي وَبِمَا كَانَ مُؤَخَّرًا فِي ٱلْأَوَّلِ مُقَدَّمًا فِي ٱلثَّانِي . وَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي مِنْ هٰذَا ٱلْقِسْمِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلْحُرُوفِ فَكَقَوْلِ بَعْضِهِمْ :

أَهْدَيْتُ شَيْئًا يَقِلُّ لَوْلَا ... أُحْدُوثَةُ ٱلْفَالِ وَٱلتَّبَرُّكْ
كُرْسِي تَفَاءَلْتُ فِيهِ لَمَّا ... رَأَيْتُ مَقْلُوبَهُ يَسُرُّكْ

وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْبَيْتُ كُلُّهُ مَعْكُوسًا يُقْرَأُ طَرْدًا وَعَكْسًا وَٱلْبَيْتُ ٱلثَّانِي مِنْهُ مَعْكُوسٌ كَقَوْلِ ٱلْأَرَّجَانِيِّ :

أُحِبُّ ٱلْمَرْءَ ظَاهِرُهُ جَمِيلٌ ... لِصَاحِبِهِ وَبَاطِنُهُ سَلِيمُ
مَوَدَّتُهُ تَدُومُ لِكُلِّ هَوْلٍ ... وَهَلْ كُلٌّ مَوَدَّتُهُ تَدُومُ

وَمِنْ أَنْوَاعِهِ (ٱلْجِنَاسُ ٱلْمُقَارِبُ) وَمِنْهُمْ مَنْ يُسَمِّيهِ جِنَاسَ ٱلْاشْتِقَاقِ وَجِنَاسَ ٱلِٱقْتِضَابِ وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنْهَا أَنْ يَكُونَ ٱلرُّكْنَانِ ٱسْمَيْنِ كَقَوْلِ ٱلصَّاحِبِ: إِنَّ ٱلْهُمُومَ بِقَدْرِ ٱلْهِمَمِ . وَكَقَوْلِ ٱلْقَائِلِ: رَوْحٌ وَرَيْحَانٌ . وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ أَحَدُ ٱلرُّكْنَيْنِ ٱسْمًا وَٱلْآخَرُ فِعْلًا نَحْوُ : وَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى ٱللّٰهِ . وَمِنْهَا أَنْ يَكُونَ ٱلرُّكْنَانِ فِعْلَيْنِ . كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

إِنْ تَرَ ٱلدُّنيا اغارَتْ   وَنُجُومَ ٱلسَّعْدِ غارَتْ
فَصُرُوفُ ٱلدَّهْرِ شَتَّى   كُلَّمَا جارَتْ اجارَتْ

وَمِنْ انْوَاعِ ٱلْجِنَاسِ (ٱلْمَعْنَوِيُّ) وَهُوَ انْ يَكُونَ احَدُ رُكْنَيِ ٱلْجِنَاسِ دَالًّا عَلَى مَعْنَى ٱلْآخَرِ فِي غَيْرِ ٱلْفَاظِهِ وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱسْتَدْرَكَهُ فُضَلَاءُ ٱلْمُتَاخِّرِينَ وَٱسْتَخْرَجُوهُ وَبَعْضُهُمْ لَا يَعُدُّهُ جِنَاسًا لِأَنَّهُ قَلَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْكَلَامِ لِتَوَعُّرِ مَسْلَكِهِ. وَسَبَبُ وُرُودِ هٰذَا ٱلنَّوْعِ فِي ٱلْكَلَامِ انَّ ٱلشَّاعِرَ يَقْصِدُ ٱلْمُجَانَسَةَ فِي كَلَامِهِ بَيْنَ لَفْظَتَيْنِ فَلَا يُوَافِقُهُ ٱلْوَزْنُ عَلَى إِثْبَاتِ احَدِ رُكْنَيِ ٱلْجِنَاسِ فَيَعْدِلُ إِلَى مَا يُوَافِقُهُ مَعْنًى وَيُخَالِفُهُ لَفْظًا وَعَلَى هٰذَا لَا وُرُودَ لِهٰذَا ٱلنَّوْعِ فِي ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ إِذْ لَا وَزْنَ يَضْطَرُّهُ إِلَى ٱلْإِتْيَانِ بِذٰلِكَ. وَمِنْ امْثِلَةِ ارْبَابِ ٱلْبَدِيعِ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلشَّاعِرِ يَمْدَحُ ٱلْمُهَلَّبَ بْنَ ابِي صُفْرَةَ وَيَذْكُرُ فِعْلَهُ بِقَطَرِيِّ بْنِ ٱلْفُجَاءَةِ وَكَانَ قَطَرِيٌّ يُكَنَّى ابَا نَعَامَةَ:

حَدَا بِأَبِي أُمِّ ٱلرِّئَالِ فَاجْفَلَتْ   نَعَامَتُهُ مِنْ عَارِضٍ مُتَلَهِّبِ

ارَادَ انْ يَقُولَ: حَدَا بِأَبِي نَعَامَةَ فَاجْفَلَتْ نَعَامَتُهُ اي رُوحُهُ فَلَمْ يُسَاعِدْهُ ٱلْوَزْنُ فَقَالَ: بِأَبِي أُمِّ ٱلرِّئَالِ لِأَنَّ ٱلرِّئَالَ فِرَاخُ ٱلنَّعَامَةِ. وَٱعْلَمْ انَّ ٱلشُّعَرَاءَ عِنْدَ نَظْمِ هٰذِهِ ٱلْأَبْيَاتِ مَا نَحَوْا هٰذِهِ ٱلْمَقَاصِدَ ٱلْبَعِيدَةَ. وَلَا يَخْفَى مَا فِي هٰذَا مِنَ ٱلتَّكَلُّفِ وَٱلتَّعَسُّفِ

الفصل الثامن

في فنون الانشاء

البحث الاوَّل

في المثل وشرفهِ

(عن الميداني)

(راجع صفحة ١٢٦ من علم الادب)

قَالَ ٱلْمُبَرِّدُ: ٱلْمَثَلُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْمِثَالِ وَهُوَ قَوْلٌ سَائِرٌ يُشَبَّهُ بِهِ حَالُ ٱلثَّانِي بِٱلْأَوَّلِ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ ٱلتَّشْبِيهُ. فَقَوْلُهُمْ: مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذَا ٱنْتَصَبَ مَعْنَاهُ: أَشْبَهَ ٱلصُّورَةَ ٱلْمُنْتَصِبَةَ. وَفُلَانٌ أَمْثَلُ مِنْ فُلَانٍ أَيْ أَشْبَهُ بِمَا لَهُ ٱلْفَضْلُ. وَٱلْمِثَالُ ٱلْقِصَاصُ لِتَشْبِيهِ حَالِ ٱلْمُقْتَصِّ مِنْهُ بِحَالِ ٱلْأَوَّلِ فَحَقِيقَةُ ٱلْمَثَلِ مَا جُعِلَ كَٱلْعَلَمِ لِلتَّشْبِيهِ بِحَالِ ٱلْأَوَّلِ. كَقَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ:

كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلَا ... وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا ٱلْأَبَاطِيلُ

فَمَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ عَلَمٌ لِكُلِّ مَا لَا يَصِحُّ مِنَ ٱلْمَوَاعِيدِ. وَقَالَ ٱبْنُ ٱلسِّكِّيتِ: ٱلْمَثَلُ لَفْظٌ يُخَالِفُ لَفْظَ ٱلْمَضْرُوبِ لَهُ وَيُوَافِقُ مَعْنَاهُ مَعْنَى ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ. شَبَّهُوهُ بِٱلْمِثَالِ ٱلَّذِي يُعْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُمَا: سُمِّيَتِ ٱلْحِكَمُ ٱلْقَائِمُ صِدْقُهَا فِي ٱلْعُقُولِ أَمْثَالًا لِٱنْتِصَابِ صُوَرِهَا

فِي ٱلْعُقُولِ مُشْتَقَّةً مِنَ ٱلْمُثُولِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلِٱنْتِصَابُ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ٱلنَّظَّامُ : يَجْتَمِعُ فِي ٱلْمَثَلِ أَرْبَعَةٌ لَا تَجْتَمِعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْكَلَامِ إِيجَازُ ٱللَّفْظِ وَإِصَابَةُ ٱلْمَعْنَى وَحُسْنُ ٱلتَّشْبِيهِ وَجُودَةُ ٱلْكِنَايَةِ فَهُوَ نِهَايَةُ ٱلْبَلَاغَةِ . قَالَ ٱبْنُ ٱلْمُقَفَّعِ : إِذَا جُعِلَ ٱلْكَلَامُ مَثَلًا كَانَ أَوْضَحَ لِلْمَنْطِقِ وَآنَقَ لِلسَّمْعِ وَأَوْسَعَ لِشُعُوبِ ٱلْحَدِيثِ . قَالَ آخَرُ : إِنَّ ٱلْأَمْثَالَ هِيَ وَشْيُ ٱلْكَلَامِ وَجَوْهَرُ ٱللَّفْظِ وَحُلَى ٱلْمَعْنَى ٱلَّتِي تَخَيَّرَتْهَا ٱلْعَرَبُ وَقَدَّمَتْهَا ٱلْعَجَمُ وَنُطِقَ بِهَا كُلُّ زَمَانٍ وَدَارَتْ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ . فَهِيَ أَبْقَى مِنَ ٱلشِّعْرِ وَأَشْرَفُ مِنَ ٱلْخَطَابَةِ . لَمْ يَسِرْ شَيْءٌ مَسِيرَهَا وَلَا عَمَّ عُمُومَهَا حَتَّى قِيلَ : أَسْيَرُ مِنْ مَثَلٍ . قَالَ ٱلشَّاعِرُ :

مَا أَنْتَ إِلَّا مَثَلٌ سَائِرٌ يَعْرِفُهُ ٱلْجَاهِلُ وَٱلْغَابِرُ

هٰذَا وَإِنَّ ٱلْأَمْثَالَ تَتَحَلَّى بِفَرَائِدِهَا صُدُورُ ٱلْمَحَافِلِ وَٱلْمَحَاضِرِ . وَتَتَجَلَّى بِفَوَائِدِهَا قُلُوبُ ٱلْبَادِي وَٱلْحَاضِرِ . وَتَتَقَيَّدُ أَوَابِدُهَا فِي بُطُونِ ٱلدَّفَاتِرِ وَٱلصَّحَائِفِ . وَتَطِيرُ نَوَاهِضُهَا فِي رُؤُوسِ ٱلشَّوَاهِقِ وَظُهُورِ ٱلتَّنَائِفِ . يَحْتَاجُ ٱلْخَطِيبُ وَٱلشَّاعِرُ إِلَى إِدْمَاجِهَا وَإِدْرَاجِهَا لِٱشْتِمَالِهَا عَلَى أَسَالِيبِ ٱلْحُسْنِ وَٱلْجَمَالِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱلْحَاجَةَ إِلَى ٱلْأَمْثَالِ شَدِيدَةٌ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَرَبَ لَمْ تَضَعِ ٱلْأَمْثَالَ إِلَّا لِأَسْبَابٍ أَوْجَبَتْهَا وَحَوَادِثَ ٱقْتَضَتْهَا . فَصَارَ ٱلْمَثَلُ ٱلْمَضْرُوبُ لِأَمْرٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ عِنْدَهُمْ كَٱلْعَلَامَةِ ٱلَّتِي يُعْرَفُ بِهَا ٱلشَّيْءُ وَلَيْسَ فِي كَلَامِهِمْ أَوْجَزُ مِنْهَا وَلَا أَشَدُّ ٱخْتِصَارًا . وَسَبَبُ ذٰلِكَ مَا أَذْكُرُهُ لَكَ لِتَكُونَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ عَلَى يَقِينٍ فَأَقُولُ : قَدْ جَاءَ عَنِ

ٱلْعَرَبِ مِنْ جُمْلَةِ أَمْثَالِهِمْ (إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ). وَهُوَ مَثَلٌ يُضْرَبُ لِلْأَمْرِ ٱلظَّاهِرِ ٱلْمَشْهُورِ وَٱلْأَصْلُ فِيهِ كَمَا قَالَ ٱلْمُفَضَّلُ بْنُ مُحَمَّدٍ: أَنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ بَنِي ثَعْلَبَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ ضَبَّةَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَرَاهَنُوا عَلَى ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِنَ ٱلشَّهْرِ. فَقَالَتْ طَائِفَةٌ: تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ يُرَى. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: يَغِيبُ ٱلْقَمَرُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ ٱلشَّمْسُ فَتَرَاضَوْا بِرَجُلٍ جَعَلُوهُ حَكَمًا. فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: إِنَّ قَوْمِي يَبْغُونَ عَلَيَّ. فَقَالَ ٱلْحَكَمُ: إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ. فَذَهَبَتْ مَثَلًا. وَمِنَ ٱلْمَعْلُومِ أَنَّ قَوْلَ ٱلْقَائِلِ: (إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ). إِذَا أُخِذَ عَلَى حَقِيقَتِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى ٱلْقَرَائِنِ ٱلْمَنُوطَةِ بِهِ وَٱلْأَسْبَابِ ٱلَّتِي قِيلَ مِنْ أَجْلِهَا لَا يُعْطِي مِنَ ٱلْمَعْنَى مَا قَدْ أَعْطَاهُ ٱلْمَثَلُ. وَذَاكَ ٱلْمَثَلُ لَهُ مُقَدِّمَاتٌ وَأَسْبَابٌ قَدْ عُرِفَتْ وَصَارَتْ مَشْهُورَةً بَيْنَ ٱلنَّاسِ مَعْلُومَةً عِنْدَهُمْ. وَحَيْثُ كَانَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ جَازَ إِيرَادُ هٰذِهِ ٱللَّفَظَاتِ فِي ٱلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُرَادِ وَلَوْلَا تِلْكَ ٱلْمُقَدِّمَاتُ ٱلْمَعْلُومَةُ وَٱلْأَسْبَابُ ٱلْمَعْرُوفَةُ لَمَا فُهِمَ مِنْ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ: (إِنْ يَبْغِ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبْغِ عَلَيْكَ ٱلْقَمَرُ) مَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمَقْصُودِ بَلْ مَا كَانَ يُفْهَمُ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَعْنًى مُفِيدٌ. لِأَنَّ ٱلْبَغْيَ هُوَ ٱلظُّلْمُ وَٱلْقَمَرُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَظْلِمَ أَحَدًا فَكَانَ يَصِيرُ مَعْنَى ٱلْمَثَلِ: إِنْ كَانَ يَظْلِمُكَ قَوْمُكَ لَا يَظْلِمُكَ ٱلْقَمَرُ. وَهٰذَا كَلَامٌ مُخْتَلُّ ٱلْمَعْنَى لَيْسَ بِمُسْتَقِيمٍ. فَلَمَّا كَانَتِ ٱلْأَمْثَالُ كَٱلرُّمُوزِ وَٱلْإِشَارَاتِ ٱلَّتِي يُلَوَّحُ بِهَا عَلَى ٱلْمَعَانِي

تداولها صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصاراً . ومن أجل ذلك قيل في حدّ المثل : إنّه القول الوجيز المرسل ليُعمل عليه وحيث هي بهذه المثابة فلا ينبغي الاخلال بمعرفتها

البحث الثاني

في آداب المثل وشروطه

(عن الماوردي ومقدمة كليلة ودمنة)

(راجع صفحة ١٣٣ من علم الادب)

ومن آداب الحكيم أن يجتنب أمثال العامّة الغوغاء ويتخصص بأمثال العلماء الأدباء فإنّ لكلّ صنفٍ من النّاس أمثالاً تشاكلهم فلا تجد لساقطٍ إلّا مثلاً ساقطاً وتشبيهاً مستقبحاً . . . .

ولذلك علّتان : إحداهما أنّ الأمثال من هواجس الهمم وخطرات النفوس ولم يكن لذي الهمّة السّاقطة إلّا مثلٌ مرذولٌ وتشبيهٌ معلولٌ . والثانية أنّ الأمثال مستخرجةٌ من أحوال المتمثّلين بها فبحسب ما هم عليه تكون أمثالهم . فلهاتين العلّتين وقع الفرق بين أمثال الخاصّة وأمثال العامّة وربّما ألف المتخصص مثلاً عاميّاً أو تشبيهاً ركيكاً لكثرة ما يطرق سمعه من مخالطة الأراذل فيسترسل في ضربه مثلاً فيصير به مثلاً كالّذي حكي عن الأصمعيّ : إنّ الرّشيد سأله يوماً عن أنساب بعض العرب . فقال : على الخبير

سَقطتْ يا اَميرَ ٱلْمؤْمنينَ . فقَالَ لَهُ ٱلفضلُ بنُ ٱلرَّبيعِ : اَسقَطَ ٱللهُ جَنبَيْكَ اَتخَاطِبُ اَميرَ ٱلمُؤْمنينَ بِمثْلِ هٰذَا ٱلخطَابِ . فَكَانَ ٱلفَضلُ ٱبنُ ٱلرَّبيعِ مَعَ قِلَّةِ عِلمِهِ اَعلَمَ بِمَا يُستَعمَلُ مِنَ ٱلكَلَامِ فِي مُحَاوَرَةِ ٱلخلَفَاءِ مِنَ ٱلاَصمَعِيِّ ٱلَّذِي هُوَ وَاحِدُ عَصرِهِ وَقَرِيعُ دهرِهِ . وَلِلاَمثَالِ مِنَ ٱلكَلَامِ مَوقِعٌ فِي ٱلاَسماعِ وَتَأْثِيرٌ فِي ٱلقُلُوبِ لَا يَكَادُ ٱلكَلَامُ ٱلمُرسَلُ يَبلُغُ مَبلَغَهَا وَلَا يُؤَثِّرُ تَأْثِيرَهَا لِاَنَّ ٱلمَعَانِيَ بِهَا لَائِحَةٌ وَٱلشَّوَاهِدَ بِهَا وَاضِحَةٌ وَٱلنُّفُوسَ بِهَا وَامِقَةٌ وَٱلقُلُوبَ بِهَا وَاثِقَةٌ وَٱلعُقُولَ لَهَا مُوَافِقَةٌ . وَلَهَا اَربَعَةُ شُرُوطٍ : اَحَدُهَا صِحَّةُ ٱلتَّشبِيهِ . وَٱلثَّانِي اَنْ يَكُونَ ٱلعِلمُ بِهَا سَابِقًا وَٱلكُلُّ عَلَيهَا مُوَافِقًا . وَٱلثَّالِثُ اَنْ يُسرِعَ وُصُولُهَا لِلفَهمِ وَيَعجَلَ تَصَوُّرُهَا فِي ٱلوَهمِ مِنْ غَيرِ اَرتِيَاءٍ فِي ٱستِخرَاجِهَا وَلَا كَدٍّ فِي ٱستِنبَاطِهَا . وَٱلرَّابِعُ اَنْ تُنَاسِبَ حَالَ ٱلسَّامِعِ لِتَكُونَ اَبلَغَ تَأْثِيرًا وَاَحسَنَ مَوقِعًا . فَاِذَا ٱجتَمَعَتْ فِي ٱلاَمثَالِ ٱلمَضرُوبَةِ هٰذِهِ ٱلشُّرُوطُ ٱلاَربَعَةُ كَانَتْ زِينَةً لِلكَلَامِ وَجِلَاءً لِلمَعَانِي وَتَدَبُّرًا لِلاَفهَامِ

قَالَ صَاحِبُ كَلِيلَةَ وَدِمنَةَ : يَجِبُ عَلَى قَارِئِ ٱلاَمثَالِ اَنْ يُدِيمَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا مِنْ غَيرِ ضَجَرٍ وَيَلتَمِسَ جَوَاهِرَ مَعَانِيهَا وَلَا يَظُنَّ اَنَّ نَتِيجَتَهَا اِنَّمَا هِيَ ٱلاِخبَارُ عَنْ حِيلَةِ بَهِيمَتَيْنِ اَوْ مُحَاوَرَةِ سَبُعٍ لِثَورٍ فَيَنصَرِفَ بِذٰلِكَ عَنِ ٱلغَرَضِ ٱلمَقصُودِ وَيَكُونَ مَثَلُهُ مَثَلَ ٱلصَّيَّادِ ٱلَّذِي كَانَ فِي بَعضِ ٱلخُلجَانِ يَصِيدُ فِيهِ ٱلسَّمَكَ فِي زَورَقٍ . فَرَاَى ذَاتَ يَومٍ فِي عَقِيقِ ٱلمَاءِ صَدَفَةً تَتَلَأْلَأُ حُسنًا فَتَوَهَّمَهَا جَوهَرًا لَهُ قِيمَةٌ . وَكَانَ قَدْ اَلقَى

شَبَكَتَهُ فِي ٱلْبَحْرِ فَاشْتَمَلَتْ عَلَى سَمَكَةٍ كَانَتْ قُوتَ يَوْمِهِ . فَخَلَّاهَا وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي ٱلْمَاءِ لِيَأْخُذَ ٱلصَّدَفَةَ . فَلَمَا اخْرَجَهَا وَجَدَهَا فَارِغَةً لَاشَيْءَ فِيهَا مِمَا ظَنَّ فَنَدِمَ عَلَى تَرْكِ مَا فِي يَدِهِ لِلطَّمَعِ وَتَأَسَّفَ عَلَى مَا فَاتَهُ . فَلَمَّا كَانَ ٱلْيَوْمُ ٱلثَّانِي تَنَحَّى عَنْ ذٰلِكَ ٱلْمَكَانِ وَالْقَى شَبَكَتَهُ فَأَصَابَ حُوتًا صَغِيرًا وَرَاى ايضًا صَدَفَةً سَنِيَّةً فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا وَسَاءَ ظَنُّهُ بِهَا فَتَرَكَهَا . وَٱجْتَازَ بِهَا بَعْضُ ٱلصَّيَادِينَ فَأَخَذَهَا فَوَجَدَ فِيهَا دُرَّةً تُسَاوِي امْوَالًا . . . وَكَذٰلِكَ ٱلْجُهَّالُ عَلَى إِغْفَالِ امْرِ ٱلتَّفَكُّرِ فِي ٱلْأَمْثَالِ وَٱلْاغْتِرَارِ بِهَا وَتَرْكِ ٱلْوُقُوفِ عَلَى اسْرَارِ مَعَانِيهَا وَٱلْاخْذِ بِظَاهِرِهَا دُونَ ٱلْاخْذِ بِبَاطِنِهَا . وَمَنْ صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى ٱلنَّظَرِ فِي أَبْوَابِ ٱلْهَزْلِ مِنْهَا فَهُوَ كَرَجُلٍ اصَابَ ارْضًا طَيِّبَةً حُرَّةً وَحَبًّا صَحِيحًا فَزَرَعَهَا وَسَقَاهَا حَتَّى إِذَا قَرُبَ خَيْرُهَا تَشَاغَلَ عَنْهَا بِجَمْعِ مَا فِيهَا مِنَ ٱلزَّهْرِ وَقَطْعِ ٱلشَّوْكِ فَأَهْلَكَ بِتَشَاغُلِهِ مَا كَانَ احْسَنَ فَائِدَةً وَاجْمَلَ عَائِدَةً . وَيَنْبَغِي لِلنَّاظِرِ فِي ٱلْأَمْثَالِ انْ يَعْلَمَ انَّهَا تَنْقَسِمُ إِلَى ارْبَعَةِ اغْرَاضٍ : احَدُهَا مَا قُصِدَ فِيهِ إِلَى وَضْعِهَا عَلَى الْسِنَةِ ٱلْبَهَائِمِ غَيْرِ ٱلنَّاطِقَةِ مِنْ مُسَارَعَةِ اهْلِ ٱلْهَزْلِ مِنَ ٱلشُّبَّانِ إِلَى قِرَاءَتِهَا فَتُسْتَمَالُ بِهِ قُلُوبُهُمْ لِأَنَّ هٰذَا هُوَ ٱلْغَرَضُ بِٱلنَّوَادِرِ مِنْ حِيَلِ ٱلْحَيَوَانَاتِ . وَٱلثَّانِي إِظْهَارُ خَيَالَاتِ ٱلْحَيَوَانَاتِ بِصُنُوفِ ٱلْاصْبَاغِ وَٱلْأَلْوَانِ لِيَكُونَ انْسًا لِقُلُوبِ ٱلْمُلُوكِ وَيَكُونَ حِرْصُهُمْ عَلَيْهَا اشَدَّ لِلنُّزْهَةِ فِي تِلْكَ ٱلصُّوَرِ . وَٱلثَّالِثُ انْ يَكُونَ عَلَى هٰذِهِ ٱلصِّفَةِ فَيَتَّخِذَهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلسُّوقَةُ فَيَكْثُرَ بِذٰلِكَ ٱنْتِسَاخُهَا وَلَا يَبْطُلَ فَيَخْلَقَ عَلَى مُرُورِ ٱلْأَيَّامِ . وَلِيَنْتَفِعَ

بِذٰلِكَ ٱلْمُصَوِّرُ وَٱلنَّاسِخُ أَبَدًا. وَٱلْغَرَضُ ٱلرَّابِعُ وَهُوَ ٱلْأَقْصَى مَخْصُوصٌ بِٱلْفَيْلَسُوفِ خَاصَّةً لِتَكُونَ ٱلْأَمْثَالُ رِيَاضَةً لِعَقْلِهِمْ إِذْ فِيهَا يَجِدُونَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ وَجَمِيعِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ وَأُولَاهُ وَيَحُضُّهُ عَلَى حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ وَيُجَنِّبُهُ مَا تَكُونُ مُجَانَبَتُهُ خَيْرًا لَهُ *

البحث الثالث

في آداب المحادثة والرواية

(عن مروج الذهب للمسعودي)

(راجع صفحة ١٦٩ من علم الادب)

قَدْ قَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ: لَا تَحْسُنُ ٱلْمُحَادَثَةُ إِلَّا بِحُسْنِ ٱلْفَهْمِ. وَقَالُوا: تَعَلَّمْ حُسْنَ ٱلِٱسْتِمَاعِ كَمَا تَتَعَلَّمُ حُسْنَ ٱلْكَلَامِ. وَحُسْنُ ٱلِٱسْتِمَاعِ هُوَ أَشْهَى إِلَى ٱلْمُحَدِّثِ حَتَّى يَنْقَضِيَ حَدِيثُهُ. وَمِنْ أَدَبِ

---

* وقال بعضهم في وصف كليلة ودمنة:

اذا افتخر الرجال بفضل علم	ومدَّت فيهِ السنة طويلهْ
ففاخر ما استطعت بما حوتهُ	بطون كتاب دمنةَ مع كليلهْ
كتاب يغرق البلغاء فيهِ	وألباب الورى منهُ كليلهْ
وكم فيهِ عجائب كامنات	على دنيا وآخرةٍ دليلهْ
وكم حكم على افواه طير	وآداب وامثال مقولهْ
يراها الجاهل المأفون هزلًا	وحسبكها لعالمها فضيلهْ

ٱلْحَدِيثِ وَمُوجِبَاتِهِ أَنْ لَا يُقْتَضَبَ ٱقْتِضَابًا وَلَا يُهْجَمَ عَلَيْهِ وَأَنْ يُتَوَصَّلَ إِلَى إِجْرَائِهِ بِمَا يُشَاكِلُهُ . وَأَنْ يُسْتَنْسَبَ لَهُ مَا يَحْسُنُ أَنْ يَجْرِيَ فِي غَرَضِهِ حَتَّى يَكُونَ بَعْضُ ٱلْمُفَاوَضَةِ مُتَعَلِّقًا بِبَعْضٍ عَلَى حَسَبِ مَا قَالُوا فِي ٱلْمَثَلِ : إِنَّ ٱلْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ يُرِيدُونَ بِذٰلِكَ تَشَعُّبَهُ وَتَفَرُّعَهُ عَنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ إِلَى وُجُوهٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَثِيرَةٍ إِذْ كَانَ ٱلْعَيْشُ كُلُّهُ فِي ٱلْجَلِيسِ ٱلْمُمْتِعِ . وَقَالَ رَجُلٌ : إِنِّي مَا أَمَلُّ ٱلْحَدِيثَ . فَقَالَ ٱلسَّامِعُ : إِنَّمَا يُمَلُّ ٱلْعَتِيقُ لَا ٱلْحَدِيثُ . وَقَدْ أَكْثَرَتِ ٱلشُّعَرَاءُ مِنَ ٱلْإِغْرَاقِ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱلرُّومِيِّ :

وَسَئِمْتُ كُلَّ مَآرِبِي ... فَكَأَنَّ أَطْيَبَهَا خَبِيثُ

إِلَّا ٱلْحَدِيثَ فَإِنَّهُ ... مِثْلُ ٱسْمِهِ أَبَدًا حَدِيثُ

وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ :

وَضَجِرْتُ إِلَّا مِنْ لِقَاءِ مُحَدِّثٍ ... حَسَنِ ٱلْحَدِيثِ يَزِيدُنِي تَعْلِيمَا

وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ ٱلْمُحَدِّثِينَ مِنْ أَهْلِ ٱلْأَدَبِ أَنَّ مِنَ ٱلْأَدَبِ عَدَمَ إِطَالَةِ ٱلْحَدِيثِ مِنَ ٱلنَّدِيمِ وَأَنَّ أَحْلَى لِحَدِيثِهِ وَأَحْسَنَ لِمَوْقِعِهِ أَنْ يَجْتَنِبَ مِنْهُ ٱلْأَحَادِيثَ ٱلطِّوَالَ ذَاتَ ٱلْمَعَانِي ٱلْمُغَلْغَلَةِ وَٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَشْوِيَّةِ ٱلَّتِي ٱفْتَنَّ بِٱقْتِصَاصِهَا سُمَّارُ ٱلْمَجَالِسِ وَتَتَعَلَّقُ بِهَا ٱلنُّفُوسُ وَتُحْتَسَى عَلَى أَوَاخِرِهَا ٱلْكُؤُوسُ . فَإِنَّ ذٰلِكَ بِمَجَالِسِ ٱلْقُصَّاصِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِمَجَالِسِ ٱلْخَوَاصِّ . وَقَدْ ذَكَرَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَأَجَادَ فِيهِ عَبْدُ ٱللّٰهِ بْنُ ٱلْمُعْتَزِّ وَوَصَفَ ذٰلِكَ مِنْ أَوْصَافِ ٱلشَّرَابِ عَلَى ٱلْمُعَاقَرَةِ فَقَالَ :

بَيْنَ اَقْدَاحِهِمْ حَدِيثٌ قَصِيرٌ　　هُوَ سِحْرٌ وَمَا سِوَاهُ حَرَامُ

وَهٰذِهِ طَرِيقَةُ مَنْ ذَهَبَ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى اِلَى ٱسْتِمَاعِ ٱلْمُلَحِ

البحث الرابع

في حقيقة التاريخ وموضوعهِ

(عن كشف الظنون للحاج خلفا ومروج الذهب للسعودي)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

اَلتَّأْرِيخُ فِي ٱللُّغَةِ تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ مُطْلَقًا . وَيُقَالُ : اَرَّخْتُ ٱلْكِتَابَ تَأْرِيخًا وَوَرَّخْتُهُ تَوْرِيخًا كَمَا فِي ٱلصِّحَاحِ وَهُوَ مُعَرَّبٌ . وَعُرْفًا هُوَ تَعْيِينُ وَقْتٍ لِيُنْسَبَ اِلَيْهِ زَمَانٌ يَأْتِي عَلَيْهِ اَوْ مُطْلَقًا يَعْنِي سَوَاءٌ كَانَ مَاضِيًا اَوْ مُسْتَقْبَلًا . وَقِيلَ : تَعْرِيفُ ٱلْوَقْتِ بِٱسْتِنَادِهِ اِلَى اَوَّلِ حُدُوثِ اَمْرٍ شَائِعٍ مِنْ ظُهُورِ مِلَّةٍ اَوْ دَوْلَةٍ اَوْ اَمْرٍ هَائِلٍ مِنَ ٱلْآثَارِ ٱلْعُلْوِيَّةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلسُّفْلِيَّةِ مِمَّا يَنْدُرُ وُقُوعُهُ جُعِلَ ذٰلِكَ مَبْدَأً لِمَعْرِفَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اَوْقَاتِ ٱلْحَوَادِثِ وَٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي يَجِبُ ضَبْطُ اَوْقَاتِهَا فِي مُسْتَأْنَفِ ٱلسِّنِينَ . وَقِيلَ : عَدَدُ ٱلْأَيَّامِ وَٱللَّيَالِي بِٱلنَّظَرِ اِلَى مَا مَضَى مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشُّهُورِ اِلَى مَا بَقِيَ . وَعِلْمُ ٱلتَّأْرِيخِ هُوَ مَعْرِفَةُ اَحْوَالِ ٱلطَّوَائِفِ وَبُلْدَانِهِمْ وَرُسُومِهِمْ وَصَنَائِعِ اَشْخَاصِهِمْ وَاَنْسَابِهِمْ وَوَفَيَاتِهِمْ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ . وَمَوْضُوعُهُ اَحْوَالُ ٱلْأَشْخَاصِ ٱلْمَاضِيَةِ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْحُكَمَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ . وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ٱلْأَحْوَالِ ٱلْمَاضِيَةِ . وَفَائِدَتُهُ ٱلْعِبْرَةُ بِتِلْكَ ٱلْأَحْوَالِ

الْماضِيَةِ وَالتَّنَصُّحُ بِهَا وَحُصُولُ مَلَكَةِ التَّجارِبِ بِالْوُقُوفِ عَلَى تَقَلُّبَاتِ الزَّمَنِ لِيُحْتَرَزَ عَنْ أَمْثَالِ مَا نُقِلَ مِنَ الْمَضَارِّ وَيُسْتَجْلَبَ نَظَائِرُهَا مِنَ الْمَنَافِعِ . وَهٰذَا الْعِلْمُ كَمَا قِيلَ عُمْرٌ آخَرُ لِلنَّاظِرِينَ وَانْتِفَاعٌ (لِلْمُطَالِعِ) فِي مِصْرِهِ بِمَنَافِعَ تَحْصُلُ لِلْمُسَافِرِينَ

وَلَوْلَا تَقْيِيدُ الْعُلَمَاءِ خَوَاطِرَهُمْ عَلَى الدَّهْرِ لَبَطَلَ أَوَّلُ الْعِلْمِ وَضَاعَ آخِرُهُ إِذْ كَانَ كُلُّ عِلْمٍ مِنَ الْأَخْبَارِ يُسْتَنْبَطُ وَالْفِقْهُ مِنْهَا يُسْتَثَارُ وَالْفَصَاحَةُ مِنْهَا تُسْتَفَادُ وَأَصْحَابُ الْقِيَاسِ مِنْهَا يَبْنُونَ . وَأَهْلُ الْمَقَالَاتِ بِهَا يَحْتَجُّونَ وَمَعْرِفَةُ النَّاسِ مِنْهَا تُؤْخَذُ وَأَمْثَالُ الْحُكَمَاءِ فِيهَا تُوجَدُ وَمَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا مِنْهَا تُقْتَبَسُ . وَآدَابُ سِيَاسَةِ الْمُلْكِ وَالْحَرْبِ مِنْهَا تُلْتَمَسُ وَكُلُّ غَرِيبَةٍ مِنْهَا تُعْرَفُ وَكُلُّ أُعْجُوبَةٍ مِنْهَا تُسْتَطْرَفُ . وَهُوَ عِلْمٌ يَسْتَمْتِعُ بِسَمَاعِهِ الْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ وَيَسْتَعْذِبُ مَوْقِعَهُ الْأَحْمَقُ وَالْعَاقِلُ وَيَأْنَسُ بِمَكَانِهِ وَيَنْزِعُ إِلَيْهِ الْخَاصِّيُّ وَالْعَامِّيُّ وَيَمِيلُ إِلَى رِوَايَتِهِ الْعَرَبِيُّ وَالْعَجَمِيُّ . وَبَعْدُ فَإِنَّهُ يُوصَلُ بِهِ كُلُّ كَلَامٍ وَيُتَزَيَّنُ بِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَيُحْتَمَلُ بِهِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ وَيُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ مَحْفِلٍ . فَفَضِيلَةُ عِلْمِ الْأَخْبَارِ بَيِّنَةٌ عَلَى كُلِّ عِلْمٍ وَشَرَفُ مَنْزِلَتِهِ صَحِيحَةٌ فِي كُلِّ فَهْمٍ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى عِلْمِهِ وَتَيَقُّنِ مَا فِيهِ وَإِيرَادِهِ وَإِصْدَارِهِ إِلَّا إِنْسَانٌ قَدْ تَجَرَّدَ لِلْعِلْمِ وَفَهِمَ مَعْنَاهُ وَذَاقَ ثَمَرَتَهُ وَاسْتَشْعَرَ مِنْ عِزِّهِ وَنَالَ مِنْ سُرُورِهِ

البحث الخامس

في شرف التاريخ

(عن ابن خلدون)

(راجع صفحة ١٩٤ من علم الادب)

امّا بَعْدُ فَإِنَّ فنَّ ٱلتَّأْرِيخِ مِنَ ٱلْفُنُونِ ٱلَّتِي تَتَـداوَلُهَا ٱلأُمَمُ وَٱلْأَجْيَالُ وَتُشَدُّ إِلَيهَا ٱلرَّكَائِبُ وَٱلرِّحَالُ وَتَسْمُو إِلَى مَعْرِفَتِهَا ٱلسُّوقَةُ وَٱلْأَغْفَالُ . وَيَتَنَافَسُ فِيهَا ٱلْمُلُوكُ وَٱلأَقْيَالُ . وَتَتَسَاوَى فِي فَهْمِهَا ٱلعُلَمَاء وَٱلْجُهَّالُ . إِذْ هُوَ فِي ظَاهِرِهِ لَا يَزِيدُ عَلَى اَخْبَارٍ عَنِ ٱلأَيَّامِ وَٱلدُّوَلِ . وَٱلسَّوَابِقِ مِنَ ٱلقُرُونِ ٱلأُوَلِ . تَنْمُو فِيهَا ٱلأَقْوَالُ وَتُضْرَبُ فِيهَا ٱلأَمْثَالُ . وَتُطْرَفُ بِهَا ٱلأَنْدِيَةُ إِذَا غَصَّهَا ٱلِاحْتِفَالُ . وَتُؤَدِّي لَنَا شَأْنَ ٱلْخَلِيقَةِ كَيْفَ تَقَلَّبَتْ بِهَا ٱلأَحْوَالُ . وَٱتَّسَعَ لِلدُّوَلِ فِيهَا ٱلنِّطَاقُ وَٱلمَجَالُ . وَعَمَرُوا ٱلأَرْضَ حَتَّى نَادَى بِهِمِ ٱلِارْتِحَالُ . وَحَانَ مِنْهُمُ ٱلزَّوَالُ . وَفِي بَاطِنِهِ نَظَرٌ وَتَحْقِيقٌ . وَتَعْلِيلٌ لِلْكَائِنَاتِ وَمَبَادِئِهَا دَقِيقٌ . وَعِلْمٌ بِكَيْفِيَّاتِ ٱلْوَقَائِعِ وَاَسْبَابِهَا عَمِيقٌ . فَهُوَ لِذَلِكَ اَصِيلٌ فِي ٱلْحِكْمَةِ عَرِيقٌ . وَجَدِيرٌ بِأَنْ يُعَدَّ فِي عُلُومِهَا وَخَلِيقٌ . وَإِنَّ فُحُولَ ٱلْمُؤَرِّخِينَ فِي ٱلْإِسْلَامِ قَدِ ٱسْتَوْعَبُوا اَخْبَارَ ٱلأَيَّامِ وَجَمَعُوهَا وَسَطَّرُوهَا فِي صَفَحَاتِ ٱلدَّفَاتِرِ وَاَوْدَعُوهَا . وَخَلَطَهَا ٱلْمُتَطَفِّلُونَ بِدَسَائِسَ مِنَ ٱلْبَاطِلِ وَهِمُوا فِيهَا وَٱبْتَدَعُوهَا . وَزَخَارِفَ مِنَ ٱلرِّوَايَاتِ ٱلْمُضْعَفَةِ لَفَّقُوهَا وَوَضَعُوهَا . وَٱقْتَفَى تِلْكَ ٱلآثَارَ ٱلْكَثِيرُ مِمَّنْ بَعْدَهُمْ وَٱتَّبَعُوهَا . وَاَدَّوْهَا إِلَيْنَا

كَمَا سَمِعُوهَا . وَلَمْ يُلَاحِظُوا أَسْبَابَ ٱلْوَقَائِعِ وَٱلْأَحْوَالِ وَلَمْ يُرَاعُوهَا . وَلَا رَفَضُوا تُرَّهَاتِ ٱلْأَحَادِيثِ وَلَا دَفَعُوهَا. فَٱلتَّحْقِيقُ قَلِيلٌ. وَطَرْفُ ٱلتَّنْقِيحِ فِي ٱلْغَالِبِ كَلِيلٌ. وَٱلْغَلَطُ وَٱلْوَهْمُ نَسِيبٌ لِلْأَخْبَارِ وَخَلِيلٌ . وَٱلتَّقْلِيدُ عَرِيقٌ فِي ٱلْآدَمِيِّينَ وَسَلِيلٌ. وَٱلتَّطَفُّلُ عَلَى ٱلْفُنُونِ عَرِيضٌ طَوِيلٌ . وَمَرْعَى ٱلْجَهْلِ بَيْنَ ٱلْأَنَامِ وَخِيمٌ وَبِيلٌ. وَٱلْحَقُّ لَا يُقَاوَمُ سُلْطَانُهُ. وَٱلْبَاطِلُ يُقْذَفُ بِشِهَابِ ٱلنَّظَرِ شَيْطَانُهُ. وَٱلنَّاقِلُ إِنَّمَا هُوَ يُمْلِي وَيَنْقُلُ . وَٱلْبَصِيرَةُ تَنْقُدُ ٱلصَّحِيحَ إِذَا تَمَقَّلُ. وَٱلْعِلْمُ يَجْلُو لَهَا صَفَحَاتِ ٱلصَّوَابِ وَيَصْقُلُ . هٰذَا وَقَدْ دَوَّنَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْبَارِ وَأَكْثَرُوا . وَجَمَعُوا تَوَارِيخَ ٱلْأُمَمِ وَٱلدُّوَلِ فِي ٱلْعَالَمِ وَسَطَّرُوا . وَٱلَّذِينَ ذَهَبُوا بِفَضْلِ ٱلشُّهْرَةِ وَٱلْأَمَانَةِ ٱلْمُعْتَبَرَةِ. وَٱسْتَفْرَغُوا دَوَاوِينَ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي صُحُفِهِمُ ٱلْمُتَأَخِّرَةِ . هُمْ قَلِيلُونَ لَا يَكَادُونَ يُجَاوِزُونَ عَدَدَ ٱلْأَنَامِلِ . وَلَا حَرَكَاتِ ٱلْعَوَامِلِ . مِثْلُ ٱبْنِ إِسْحَقَ وَٱلطَّبَرِيِّ وَٱبْنِ ٱلْكَلْبِيِّ وَمُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ ٱلْوَاقِدِيِّ وَسَيْفِ ٱبْنِ عُمَرَ ٱلْأَسَدِيِّ وَٱلْمَسْعُودِيِّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ ٱلْمَشَاهِيرِ. ٱلْمُتَمَيِّزِينَ عَنِ ٱلْجَمَاهِيرِ . وَإِنْ كَانَ فِي كُتُبِ ٱلْمَسْعُودِيِّ وَٱلْوَاقِدِيِّ مِنَ ٱلْمَطْعَنِ وَٱلْمَغْمَزِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ ٱلْأَثْبَاتِ. وَمَشْهُورٌ بَيْنَ ٱلْحَفَظَةِ ٱلثِّقَاتِ . إِلَّا أَنَّ ٱلْكَافَّةَ ٱخْتَصَّتْهُمْ بِقَبُولِ أَخْبَارِهِمْ . وَٱقْتِفَاءِ سُنَنِهِمْ فِي ٱلتَّصْنِيفِ وَٱتِّبَاعِ آثَارِهِمْ. وَٱلنَّاقِدُ ٱلْبَصِيرُ قِسْطَاسُ نَفْسِهِ فِي تَزْيِيفِهِمْ فِيمَا يَنْقُلُونَ أَوِ ٱعْتِبَارِهِمْ . فَلِلْعُمْرَانِ طَبَائِعُ فِي أَحْوَالِهِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا ٱلْأَخْبَارُ . وَتُحْمَلُ عَلَيْهَا ٱلرِّوَايَاتُ وَٱلْآثَارُ . ثُمَّ إِنَّ أَكْثَرَ ٱلتَّوَارِيخِ لِهٰؤُلَاءِ عَامَّةُ ٱلْمَنَاهِجِ وَٱلْمَسَالِكِ . لِعُمُومِ ٱلدَّوْلَتَيْنِ صَدْرَ ٱلْإِسْلَامِ فِي

ٱلآفَاقِ وَٱلْمَمَالِكِ وَتَنَاوُلِهَا ٱلْبَعِيدَ مِنَ ٱلْغَايَاتِ فِي ٱلْمَآخِذِ وَٱلْمَتَارِكِ وَمِنْ هٰؤُلَاءِ مَنِ ٱسْتَوْعَبَ مَا قَبْلَ ٱلْمِلَّةِ مِنَ ٱلدُّوَلِ وَٱلْأُمَمِ. وَٱلْأَمْرِ ٱلْعَمَمِ. كَٱلْمَسْعُودِيِّ وَمَنْ نَحَا مَنْحَاهُ. وَجَاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ عَدَلَ عَنِ ٱلْإِطْلَاقِ إِلَى ٱلتَّقْيِيدِ. وَوَقَفَ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْإِحَاطَةِ عَنِ ٱلشَّأْوِ ٱلْبَعِيدِ فَقَيَّدَ شَوَارِدَ عَصْرِهِ. وَٱسْتَوْعَبَ أَخْبَارَ أُفْقِهِ وَقُطْرِهِ. وَٱقْتَصَرَ عَلَى أَحَادِيثِ دَوْلَتِهِ وَمِصْرِهِ. كَمَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانَ مُؤَرِّخُ ٱلْأَنْدَلُسِ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلْأُمَوِيَّةِ بِهَا. وَٱبْنُ ٱلرَّقِيقِ مُؤَرِّخُ أَفْرِيقِيَةَ وَٱلدَّوْلَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ بِٱلْقَيْرَوَانِ. ثُمَّ لَمْ يَأْتِ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ إِلَّا مُقَلِّدٌ. وَبَلِيدُ ٱلطَّبْعِ وَٱلْعَقْلِ أَوْ مُتَبَلِّدٌ. يَنْسِجُ عَلَى ذٰلِكَ ٱلْمِنْوَالِ. وَيَحْتَذِي مِنْهُ بِٱلْمِثَالِ. وَيَذْهَلُ عَمَّا أَحَالَتْهُ ٱلْأَيَّامُ مِنَ ٱلْأَحْوَالِ. وَٱسْتَبْدَلَتْ بِهِ مِنْ عَوَائِدِ ٱلْأُمَمِ وَٱلْأَجْيَالِ. فَيَجْلُبُونَ ٱلْأَخْبَارَ عَنِ ٱلدُّوَلِ. وَحِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ فِي ٱلْعُصُورِ ٱلْأُوَلِ. صُوَرًا قَدْ تَجَرَّدَتْ عَنْ مَوَادِّهَا. وَصِفَاحًا ٱنْتُضِيَتْ مِنْ أَغْمَادِهَا وَمَعَارِفَ تُسْتَنْكَرُ لِلْجَهْلِ بِطَارِفِهَا وَتِلَادِهَا. إِنَّمَا هِيَ حَوَادِثُ لَمْ تُعْلَمْ أُصُولُهَا. وَأَنْوَاعٌ لَمْ تُعْتَبَرْ أَجْنَاسُهَا وَلَا تَحَقَّقَتْ فُصُولُهَا. يُكَرِّرُونَ فِي مَوْضُوعَاتِهَا ٱلْأَخْبَارَ ٱلْمُتَدَاوَلَةَ بِأَعْيَانِهَا. ٱتِّبَاعًا لِمَنْ عُنِيَ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ بِشَأْنِهَا. وَيُغْفِلُونَ أَمْرَ ٱلْأَجْيَالِ ٱلنَّاشِئَةِ فِي دِيوَانِهَا. بِمَا أَعْوَزَ عَلَيْهِمْ مِنْ تَرْجَمَانِهَا فَتَسْتَعْجِمُ صُحُفُهُمْ عَنْ بَيَانِهَا. ثُمَّ إِذَا تَعَرَّضُوا لِذِكْرِ ٱلدَّوْلَةِ نَسَقُوا أَخْبَارَهَا نَسَقًا. مُحَافِظِينَ عَلَى نَقْلِهَا وَهْمًا أَوْ صِدْقًا. لَا يَتَعَرَّضُونَ لِبِدَايَتِهَا. وَلَا يَذْكُرُونَ ٱلسَّبَبَ ٱلَّذِي رَفَعَ مِنْ رَايَتِهَا وَأَظْهَرَ مِنْ آيَتِهَا. وَلَا عِلَّةَ ٱلْوُقُوفِ عِنْدَ غَايَتِهَا. فَيَبْقَى ٱلنَّاظِرُ

مُتَطَلِّعًا بَعْدُ إِلَى ٱفْتِقَادِ أَحْوَالِ مَبَادِىءِ ٱلدُّوَلِ وَمَرَاتِبِهَا . مُفَتِّشًا عَنْ أَسْبَابِ تَزَاحُمِهَا أَوْ تَعَاقُبِهَا . بَاحِثًا عَنِ ٱلْمُقْنِعِ فِي تَبَايُنِهَا أَوْ فِي تَنَاسُبِهَا . ثُمَّ جَاءَ آخَرُونَ بِإِفْرَاطِ ٱلِاخْتِصَارِ . وَذَهَبُوا إِلَى ٱلِاكْتِفَاءِ بِأَسْمَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلِاقْتِصَارِ . مَقْطُوعَةً عَنِ ٱلْأَنْسَابِ وَٱلْأَخْبَارِ . مَوْضُوعَةً عَلَيْهَا أَعْدَادُ أَيَّامِهِمْ بِحُرُوفِ ٱلْغُبَارِ . كَمَا فَعَلَهُ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي مِيزَانِ ٱلْعَمَلِ وَمَنِ ٱقْتَفَى هٰذَا ٱلْأَثَرَ مِنَ ٱلْهَمَلِ . وَلَيْسَ يُعْتَبَرُ لِهٰؤُلَاءِ مَقَالٌ . وَلَا يُعَدُّ لَهُمْ ثُبُوتٌ وَلَا ٱنْتِقَالٌ . لِمَا أَذْهَبُوا مِنَ ٱلْفَوَائِدِ . وَأَخَلُّوا بِٱلْمَذَاهِبِ ٱلْمَعْرُوفَةِ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْعَوَائِدِ

وَقَدْ زَلَّتْ أَقْدَامُ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَثْبَاتِ وَٱلْمُؤَرِّخِينَ ٱلْحُفَّاظِ فِي مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْأَحَادِيثِ وَٱلْآرَاءِ . وَعَلِقَتْ بِأَفْكَارِهِمْ وَنَقَلَهَا عَنْهُمُ ٱلْكَافَّةُ مِنْ ضَعَفَةِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْغَفْلَةِ عَنِ ٱلْقِيَاسِ وَتَلَقَّوْهَا هُمْ أَيْضًا كَذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَٱنْدَرَجَتْ فِي مَحْفُوظَاتِهِمْ حَتَّى صَارَ فَنُّ ٱلتَّأْرِيخِ وَاهِيًا مُخْتَلِطًا . وَنَاظِرُهُ مُرْتَبِكًا وَعُدَّ مِنْ مَنَاحِي ٱلْعَامَّةِ . فَإِذًا يَحْتَاجُ صَاحِبُ هٰذَا ٱلْفَنِّ إِلَى ٱلْعِلْمِ بِقَوَاعِدِ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبَائِعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ وَٱلْبِقَاعِ وَٱلْأَعْصَارِ فِي ٱلسِّيَرِ وَٱلْأَخْلَاقِ وَٱلْعَوَائِدِ وَٱلنِّحَلِ وَٱلْمَذَاهِبِ وَسَائِرِ ٱلْأَحْوَالِ وَٱلْإِحَاطَةِ بِٱلْحَاضِرِ مِنْ ذٰلِكَ . وَمُمَاثَلَةِ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْغَائِبِ مِنَ ٱلْوِفَاقِ أَوْ بَوْنِ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ ٱلْخِلَافِ وَتَعْلِيلِ ٱلْمُتَّفِقِ مِنْهَا وَٱلْمُخْتَلِفِ . وَٱلْقِيَامِ عَلَى أُصُولِ ٱلدُّوَلِ وَٱلْمِلَلِ وَمَبَادِىءِ ظُهُورِهَا وَأَسْبَابِ حُدُوثِهَا وَدَوَاعِي كَوْنِهَا . وَأَحْوَالِ ٱلْقَائِمِينَ بِهَا وَأَخْبَارِهِمْ حَتَّى يَكُونَ مُسْتَوْعِبًا لِأَسْبَابِ كُلِّ

حَادِثٍ وَاقِفًا عَلَى أُصُولِ كُلِّ خَبَرٍ وَحِينَئِذٍ يَعْرِضُ ٱلْخَبَرَ ٱلْمَنْقُولَ عَلَى مَا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْقَوَاعِدِ وَٱلْأُصُولِ . فَإِنْ وَافَقَهَا وَجَرَى عَلَى مُقْتَضَاهَا كَانَ صَحِيحًا وَإِلَّا زَيَّفَهُ وَٱسْتَغْنَى عَنْهُ . وَمَا ٱسْتَكْبَرَ ٱلْقُدَمَاءُ عِلْمَ ٱلتَّأْرِيخِ إِلَّا لِذٰلِكَ حَتَّى ٱنْتَحَلَهُ ٱلطَّبَرِيُّ وَٱلْبُخَارِيُّ وَٱبْنُ إِسْحَاقَ مِنْ قَبْلِهِمَا وَأَمْثَالُهُمْ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلْأُمَّةِ . وَقَدْ ذَهَلَ ٱلْكَثِيرُ عَنْ هٰذَا ٱلسِّرِّ فِيهِ حَتَّى صَارَ ٱنْتِحَالُهُ مَجْهَلَةً وَٱسْتَخَفَّ ٱلْعَوَامُّ وَمَنْ لَا رُسُوخَ لَهُ فِي ٱلْمَعَارِفِ مُطَالَعَتَهُ وَحَمْلَهُ وَٱلْخَوْضَ فِيهِ وَٱلتَّطَفُّلَ عَلَيْهِ فَٱخْتَلَطَ ٱلْمَرْعِيُّ بِٱلْهَمَلِ وَٱللُّبَابُ بِٱلْقِشْرِ وَٱلصَّادِقُ بِٱلْكَاذِبِ وَإِنَّ لِلّٰهِ عَاقِبَةَ ٱلْأُمُورِ

وَٱعْلَمْ أَنَّ فَنَّ ٱلتَّأْرِيخِ فَنٌّ عَزِيزُ ٱلْمَذْهَبِ جَمُّ ٱلْفَائِدَةِ شَرِيفُ ٱلْعَائِدَةِ إِذْ هُوَ يَقِفُنَا عَلَى أَحْوَالِ ٱلْمَاضِينَ مِنَ ٱلْأُمَمِ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَٱلْأَنْبِيَاءِ فِي سِيَرِهِمْ وَٱلْمُلُوكِ فِي دُوَلِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ حَتَّى تَتِمَّ فَائِدَةُ ٱلْإِقْتِدَاءِ فِي ذٰلِكَ لِمَنْ يَرُومُهُ فِي أَحْوَالِ ٱلدِّينِ وَٱلدُّنْيَا فَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَى مَآخِذَ مُتَعَدِّدَةٍ وَمَعَارِفَ مُتَنَوِّعَةٍ وَحُسْنِ نَظَرٍ وَتَثَبُّتٍ يُفِيضَانِ بِصَاحِبِهِمَا إِلَى ٱلْحَقِّ وَيُنَكِّبَانِ بِهِ عَنِ ٱلْمَزَلَّاتِ وَٱلْمَغَالِطِ . لِأَنَّ ٱلْأَخْبَارَ إِذَا ٱعْتُمِدَ فِيهَا مُجَرَّدُ ٱلنَّقْلِ وَلَمْ تُحَكَّمْ أُصُولُ ٱلْعَادَةِ وَقَوَاعِدُ ٱلسِّيَاسَةِ وَطَبِيعَةُ ٱلْعُمْرَانِ وَٱلْأَحْوَالُ فِي ٱلْإِجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَلَا قِيسَ ٱلْغَائِبُ مِنْهَا بِٱلشَّاهِدِ وَٱلْحَاضِرُ بِٱلذَّاهِبِ فَرُبَّمَا لَمْ يُؤْمَنْ فِيهَا مِنَ ٱلْعُثُورِ وَمَزَلَّةِ ٱلْقَدَمِ وَٱلْحَيْدِ عَنْ جَادَّةِ ٱلصِّدْقِ . وَكَثِيرًا مَا وَقَعَ لِلْمُؤَرِّخِينَ وَٱلْمُفَسِّرِينَ وَأَئِمَّةِ ٱلنَّقْلِ ٱلْمَغَالِطُ فِي حِكَايَاتِ ٱلْوَقَائِعِ لِٱعْتِمَادِهِمْ فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ ٱلنَّقْلِ غَثًّا أَوْ سَمِينًا . لَمْ يَعْرِضُوهَا عَلَى أُصُولِهَا

وَقَاسُوهَا بِأَشْبَاهِهَا وَلَا سَبَرُوهَا بِمِعْيَارِ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى طَبَائِعِ ٱلْكَائِنَاتِ وَتَحْكِيمِ ٱلنَّظَرِ وَٱلْبَصِيرَةِ فِي ٱلْأَخْبَارِ فَضَلُّوا عَنِ ٱلْحَقِّ وَتَاهُوا فِي بَيْدَاءِ ٱلْوَهْمِ وَٱلْغَلَطِ سِيَّمَا فِي إِحْصَاءِ ٱلْأَعْدَادِ وَٱلْأَمْوَالِ وَٱلْعَسَاكِرِ إِذَا عَرَضَتْ فِي ٱلْحِكَايَاتِ إِذْ هِيَ مَظِنَّةُ ٱلْكَذِبِ وَمَطِيَّةُ ٱلْهَذَرِ وَلَا بُدَّ مِنْ رَدِّهَا إِلَى ٱلْأُصُولِ وَعَرْضِهَا عَلَى ٱلْقَوَاعِدِ

البحث السادس

في شروط التاريخ

(عن الفخري)

(راجع صفحة ١٩٧ من علم الادب)

وَإِنْ بَاشَرْتَ بِكِتَابَةِ تَارِيخٍ عَامٍّ فَتَكَلَّمْ عَلَى دَوْلَةٍ دَوْلَةٍ بِمَجْمُوعِ مَا حَصَّلَ ذِهْنُكَ مِنَ ٱلْهَيْئَةِ ٱلِاجْتِمَاعِيَّةِ ٱلَّتِي أَفَادَتْكَهَا مُطَالَعَةُ ٱلسِّيَرِ وَٱلتَّوَارِيخِ وَٱذْكُرْ كَيْفَ كَانَ ٱبْتِدَاؤُهَا وَٱنْتِهَاؤُهَا وطَرَفًا مُمْتِعًا مِنْ مَحَاسِنِ مُلُوكِهَا وَأَخْبَارِ سَلَاطِينِهَا . ثُمَّ إِذَا ذَكَرْتَ دَوْلَةً فَدَوْلَةً تَكَلَّمْتَ عَلَى كُلِّيَّاتِ أُمُورِهَا ثُمَّ ذَكَرْتَ وَاحِدًا وَاحِدًا مِنْ مُلُوكِهَا وَمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ مِنَ ٱلْوَقَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَٱلْحَوَادِثِ ٱلْمَأْثُورَةِ فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ذٰلِكَ ٱلْمَلِكِ ذَكَرْتَ وُزَرَاءَهُ وَاحِدًا وَاحِدًا وَطَرَائِقَ مَا جَرَى لَهُمْ .فَإِذَا ٱنْقَضَتْ أَيَّامُ ٱلْمَلِكِ وَوُزَرَائِهِ ٱبْتَدَأْتَ بِٱلْمَلِكِ ٱلَّذِي بَعْدَهُ وَبِمَا جَرَى فِي أَيَّامِهِ وَبِسِيَرِ وُزَرَائِهِ كَذٰلِكَ إِلَى آخِرِ تِلْكَ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْتَزِمْ فِيهِ أَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ لَا تَمِيلَ فِيهِ إِلَّا مَعَ ٱلْحَقِّ

وَلَا تَنطِقَ فِيهِ إِلَّا بِٱلْعَدلِ . وَأَنْ تَعزِلَ سُلطَانَ ٱلْهَوَى وَتَخْرُجَ مِنْ حُكْمِ ٱلْمَنْشَإِ وَٱلْمَرْبَى وَتَفرِضَ نَفْسَكَ غَرِيبًا عَنْهُمْ وَأَجْنَبِيًّا بَيْنَهُمْ . وَثَانِيهِمَا أَنْ تُعَبِّرَ عَنِ ٱلْمَعَانِي بِعِبَارَاتٍ وَاضِحَةٍ تَقْرُبُ مِنَ ٱلْأَفْهَامِ لِتَنفَعَ بِهِ كُلَّ أَحَدٍ عَادِلًا عَنِ ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُسْتَصْعَبَةِ ٱلَّتِي يُقْصَدُ فِيهَا إِظْهَارُ ٱلْفَصَاحَةِ وَإِثْبَاتُ ٱلْبَلَاغَةِ فَطَالَمَا رَأَيْتُ مُصَنِّفِي ٱلْكُتُبِ قَدِ ٱعْتَرَضَتْهُمْ مَحَبَّةُ إِظْهَارِ ٱلْفَصَاحَةِ وَٱلْبَلَاغَةِ فَخَفِيَتْ أَغرَاضُهُمْ وَٱعْتَاصَتْ مَعَانِيهِمْ فَقَلَّتِ ٱلْفَائِدَةُ بِمُصَنَّفَاتِهِمْ. هٰذَا وَإِنَّ كُتُبَ ٱلتَّوَارِيخِ إِنْ نُظِرَ بِعَيْنِ ٱلْإِنْصَافِ إِلَيْهَا رُئِيَتْ أَنْفَعَ مِنَ ٱلْحَمَاسَةِ ٱلَّتِي لَهِجَ ٱلنَّاسُ بِهَا وَأَخَذُوا أَوْلَادَهُمْ بِحِفْظِهَا فَإِنَّ ٱلْحَمَاسَةَ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا أَكْثَرُ مِنَ ٱلتَّرْغِيبِ فِي ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلضِّيَافَةِ وَشَيْءٍ يَسِيرٍ مِنَ ٱلْأَخْلَاقِ فِي ٱلْبَابِ ٱلْمُسَمَّى بَابَ ٱلْأَدَبِ وَٱلتَّأَنُّسِ بِٱلْمَذَاهِبِ ٱلشِّعْرِيَّةِ . وَٱلتَّأرِيخُ يُسْتَفَادُ مِنْهُ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ ٱلْمَذْكُورَةُ . وَيُسْتَفَادُ مِنْهُ قَوَاعِدُ ٱلسِّيَاسَةِ وَأَدَوَاتُ ٱلرِّئَاسَةِ . فَهٰذَا فِيهِ مَا فِي ٱلْحَمَاسَةِ وَلَيْسَ فِي ٱلْحَمَاسَةِ مَا فِيهِ وَإِنَّهُ يُفِيدُ ٱلْعَقْلَ قُوَّةً وَٱلذِّهْنَ حِدَّةً وَٱلْبَصِيرَةَ نُورًا وَهُوَ لِلْخَاطِرِ ٱلذَّكِيِّ بِمَنْزِلَةِ ٱلْمِسَنِّ لِلْفُولَاذِ ٱلْجَيِّدِ وَهُوَ أَيْضًا أَنْفَعُ مِنَ ٱلْمَقَامَاتِ ٱلَّتِي ٱلنَّاسُ فِيهَا مُعْتَقِدُونَ وَفِي تَحَفُّظِهَا رَاغِبُونَ إِذِ ٱلْمَقَامَاتُ لَا يُسْتَفَادُ مِنْهَا سِوَى ٱلتَّمَرُّنِ عَلَى ٱلْإِنْشَاءِ وَٱلْوُقُوفِ عَلَى مَذَاهِبِ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ . نَعَمْ وَفِيهَا حِكَمٌ وَحِيَلٌ وَتَجَارِبُ إِلَّا أَنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُصَغِّرُ ٱلْهِمَّةَ إِذْ هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى ٱلسُّؤَالِ وَٱلِٱسْتِجْدَاءِ وَٱلتَّحَيُّلِ ٱلْقَبِيحِ عَلَى تَحْصِيلِ ٱلنَّزْرِ ٱلطَّفِيفِ فَإِنْ نَفَعَتْ مِنْ جَانِبٍ ضَرَّتْ مِنْ جَانِبٍ وَبَعْضُ ٱلنَّاسِ تَنَبَّهُوا عَلَى هٰذَا مِنَ ٱلْمَقَامَاتِ ٱلْحَرِيرِيَّةِ وَٱلْبَدِيعِيَّةِ فَعَدَلَ

نَاسٌ اِلَى نَهجِ اَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيّ بْنِ اَبِي طَالِبٍ : فَإِنَّهُ ٱلْكِتَابُ ٱلَّذِي يُتَعَلَّمُ مِنْهُ ٱلْحِكَمُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَٱلْخُطَبُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلزُّهْدُ وَعُلُوُّ ٱلْهِمَّةِ وَاَدْنَى فَوَائِدِهِ ٱلْفَصَاحَةُ وَٱلْبَلَاغَةُ . وَكَذٰلِكَ كُتُبُ ٱلتَّوَارِيخِ فَإِنَّ ٱلْاِنْسَانَ رُبَّمَا اَضْجَرَتْهُ ٱلْمَهَامُّ وَٱلْاَشْغَالُ فَإِذَا رَوَّحَ فِكْرَهُ بِٱلنَّظَرِ فِيهَا دَفَعَ بِهَا ٱلْمَلَالَ وَتَذَكَّرَ بِهَا مَا اَنْسَتْهُ ٱلْاَشْغَالُ . . .

البحث السابع

في الاصول العشرة التي يعتمدها الكاتب في المكاتبات

(من كتاب صبح الاعشى لابي العبَّاس احمد القلقشندي)

(راجع صفحة ٢٠٧ من علم الادب)

(اَلْاَصْلُ ٱلْاَوَّلُ حُسْنُ ٱلِافْتِتَاحِ) ٱلْمَطْلُوبُ فِي سَائِرِ اَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنْ نَثْرٍ وَنَظْمٍ مِمَّا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ لِيَكُونَ دَاعِيَةً لِاسْتِمَاعِ مَا بَعْدَهُ . وَيَرْجِعُ حُسْنُ ٱلِافْتِتَاحِ فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ اِلَى مَعْنَيَيْنِ: (ٱلْمَعْنَى ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا اِلَى ٱلْمُبْتَدَإِ بِهِ اِمَّا بِالِافْتِتَاحِ بِٱلْحَمْدِ لِلّٰهِ كَمَا فِي بَعْضِ ٱلْمُكَاتَبَاتِ لِاَنَّ ٱلنُّفُوسَ تَتَشَوَّقُ اِلَى ٱلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ تَعَالَى . اَوْ بِٱلسَّلَامِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ ٱلشَّارِعُ مُفْتَتَحَ ٱلْخِطَابِ اَوْ نَحْوِ ذٰلِكَ . فَإِنَّ اَمْرَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَبْنِيٌّ عَلَى ٱلتَّلَطُّفِ وَٱسْتِجْلَابِ ٱلْخَوَاطِرِ وَتَأْلِيفِ ٱلْقُلُوبِ اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱصْطِلَاحُ كُلِّ زَمَنٍ فِي ٱلِابْتِدَاءَاتِ . (ٱلْمَعْنَى ٱلثَّانِي) اَنْ يَكُونَ ٱلْحُسْنُ فِيهِ رَاجِعًا اِلَى مَا يُوجِبُ ٱلتَّحْسِينَ مِنْ سُهُولَةِ ٱللَّفْظِ

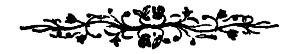
وَصِحَّةِ ٱلسَّبْكِ وَوُضُوحِ ٱلْمَعْنَى وَتَجَنُّبِ ٱلْحَشْوِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّانِي) بَرَاعَةُ ٱلِٱسْتِهْلَالِ ٱلْمَطْلُوبَةُ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فُنُونِ ٱلْكَلَامِ بِأَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ ٱلْمُكَاتَبَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى عَجُزِهَا فَإِنْ كَانَ ٱلْكَاتِبُ يُهَنِّئُ اَتَى فِي اَوَّلِ كَلَامِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّهْنِئَةِ . اَوْ كَانَ ٱلصَّدَدُ فِي ٱلتَّعْزِيَةِ اَتَى فِي اَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى ٱلتَّعْزِيَةِ اَوْ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَعَانِي اَتَى فِي اَوَّلِهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ لِيُعْلَمَ مِنْ مَبْدَإِ ٱلْكَلَامِ مَا ٱلْمُرَادُ . . . ثُمَّ مِنَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ مَا يَعْسُرُ مَعَهُ ٱلْإِتْيَانُ بِبَرَاعَةِ ٱلِٱسْتِهْلَالِ فَيَأْتِي بِهَا فِيمَا يَلِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي مُقَدَّمَةِ ٱلْمُكَاتَبَةِ قَبْلَ ٱلْخَوْضِ فِي ٱلْمَقْصُودِ . . . (ٱلْأَصْلُ ٱلثَّالِثُ) ٱلْمُقَدَّمَةُ ٱلَّتِي يَلْزَمُ اَنْ يَأْتِيَ بِهَا فِي صَدْرِ ٱلْكُتُبِ ٱلْمُشْتَمِلَةِ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ تَأْسِيسًا لِمَا يَأْتِي فِي مُكَاتَبَةٍ . مِثْلَ اَنْ يَأْتِيَ فِي صَدْرِ كُتُبِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْجِهَادِ بِذِكْرِ ٱفْتِرَاضِهِ عَلَى ٱلْأُمَّةِ وَمَا وَعَدَ ٱللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ نَصْرِ اَوْلِيَائِهِ وَخِذْلَانِ اَعْدَائِهِ وَإِعْزَازِ ٱلْمُوَحِّدِينَ وَقَمْعِ ٱلْمُلْحِدِينَ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ ٱلْفَتْحِ بِإِنْجَازِ وَعْدِ ٱللهِ ٱلَّذِي وَعَدَهُ اَهْلَ ٱلطَّاعَةِ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَٱلظَّفَرِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ . وَفِي صُدُورِ كُتُبِ جِبَايَةِ ٱلْخَرَاجِ بِحَاجَةِ قِيَامِ ٱلْمُلْكِ إِلَى ٱلِٱسْتِعَانَةِ بِمَا يُسْتَخْرَجُ مِنْ حُقُوقِ ٱلسُّلْطَانِ فِي عِمَارَةِ ٱلثُّغُورِ وَتَحْصِينِ ٱلْأَعْمَالِ وَتَقْوِيَةِ ٱلرِّجَالِ وَنَحْوِ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلنَّمَطِ . قَالَ فِي مَوَادِّ ٱلْبَيَانِ : وَعَلَى هٰذَا ٱلسَّبِيلِ جَرَتْ سُنَّةُ ٱلْكُتَّابِ فِي جَمِيعِ ٱلْكُتُبِ مِنْ اَيِّ نَوْعٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي كَٱلْفُتُوحِ وَٱلتَّهَانِي وَٱلتَّعَازِي وَٱلتَّهَادِي وَٱلِٱسْتِخْبَارِ وَٱلِٱسْتِبْطَاءِ وَٱلْإِحْمَادِ وَٱلْإِذْمَامِ وَغَيْرِهَا لِيَكُونَ

ذٰلِكَ بِسَاطًا لِمَا يُرِيدُ ٱلْقَوْلَ فِيهِ وَحُجَّةً يَسْتَظْهِرُ بِهَا ٱلسُّلْطَانُ لِأَنَّ كُلَّ كَلَامٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ فَرْشٍ يُفْرَشُ قَبْلَهُ لِيَكُونَ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ ٱلْاَسَاسِ مِنَ ٱلْبُنْيَانِ . (قَالَ) : وَيُرْجَعُ فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ اِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْكَاتِبِ مَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ نَوْعٍ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تُشَاكِلُهَا . (ثُمَّ قَالَ) وَٱلطَّرِيقُ فِي اِصَابَةِ ٱلْمَرْمَى فِي هٰذِهِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ اَنْ تُجْعَلَ مُشْتَمِلَةً عَلَى مَا بَعْدَهَا مِنَ ٱلْمَقَاصِدِ وَٱلْاَغْرَاضِ وَاَنْ يُوضَعَ لِلْاَمْرِ ٱلْخَاصِّ مُقَدَّمَةٌ خَاصَّةٌ وَلِلْاَمْرِ ٱلْعَامِّ مُقَدَّمَةٌ عَامَّةٌ وَلَا يُطَوَّلَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِقْتِصَارِ وَلَا يُقَصَّرَ فِي مَوْضِعِ ٱلْاِيجَازِ . وَلَا تُجْعَلَ اَغْرَاضُهَا بَعِيدَةَ ٱلْمَآخِذِ مُعْتَاصَةً عَلَى ٱلْمُتَصَفِّحِ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْكَاتِبَ رُبَّمَا قَصَدَ اِظْهَارَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ٱلْكَلَامِ وَٱلتَّصَرُّفِ فِي وُجُوهِ ٱلنُّطْقِ فَخَرَجَ اِلَى ٱلْاِمْلَالِ وَٱلْاِضْجَارِ ٱلَّذِي تَتَبَرَّمُ مِنْهُ ٱلنُّفُوسُ وَذَوُو ٱلْاَخْطَارِ ٱلْجَلِيلَةِ . اَمَّا ٱلْكُتُبُ ٱلَّتِي لَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْمَقَاصِدِ ٱلْجَلِيلَةِ كَرِقَاعِ ٱلتُّحَفِ وَٱلْهَدَايَا وَنَحْوِهَا فَلَا تُجْعَلُ لَهَا مُقَدَّمَةٌ فَاِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ جَائِزٍ وَغَيْرُ وَاقِعٍ مَوْقِعَهُ . (ٱلْاَصْلُ ٱلرَّابِعُ) مَوَاقِعُ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلدَّائِرَةِ فِي ٱلْكُتُبِ فَيَلْزَمُ اَنْ يُمَيِّزَ مَوْقِعَ كُلٍّ لِيَضَعَهُ مَكَانَهُ . وَقَالَ فِي ذَخِيرَةِ ٱلْكُتَّابِ : يَجِبُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ ٱلرَّئِيسِ اَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ ٱلْاَلْفَاظِ وَمَوَاقِعَهَا لِيُرَتِّبَهَا وَيُفَرِّقَ بَيْنَهَا فَرْقًا يَقِفُهُ عَلَى ٱلْوَاجِبِ وَيَنْتَهِي بِهِ اِلَى ٱلصَّوَابِ فَيُخَاطِبُ كُلًّا فِي مُكَاتَبَتِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنَ ٱلْخِطَابِ . . وَمَتَى ٱسْتَمَرَّ ٱلْكَاتِبُ عَلَى هٰذِهِ ٱلْمُخَالَفَةِ مِنَ ٱلْاَلْفَاظِ وَٱلْمُنَاقَضَةِ نَقَصَتِ ٱلْمَعَانِي وَرَذُلَتِ ٱلْاَلْفَاظُ وَسَقَطَتِ ٱلْمَقَاصِدُ وَكَانَ

الكَاتِبُ قَدْ اخَلَّ مِنَ الصِّنَاعَةِ بِمُعْظَمِهَا وَتَرَكَ مِنَ الْبَلَاغَةِ غَايَةَ مُحْكَمِهَا بَلْ يَجِبُ اِنْ بَدَا بِخِطَابِ رَئِيس اَوْ نَظِيرٍ اَوْ مَرْؤُوسٍ اَنْ يَكُونَ مَا يَتَخَلَّلُ مُكَاتَبَتَهُ مِنَ الْاَلْفَاظِ عَلَى اتِّسَاقٍ اِلَى آخِرِهَا وَاطِّرَادٍ مِنْ غَيْرِ مُخَالَفَةٍ بَيْنَهَا وَلَا مُضَادَّةٍ وَلَا مُنَاقَضَةٍ . نَعَمْ يَحْسُنُ ذٰلِكَ فِي مُعَاتَبَاتِ الْاِخْوَانِ وَالْمُدَاعَبَاتِ الْجَارِيَةِ بَيْنَ الْخُلَّانِ . . . (الْاَصْلُ الْخَامِسُ) الْاَدْعِيَةُ الَّتِي جَرَتْ عَادَةُ السَّلَفِ وَتَبِعَهُمُ الْخَلَفُ بِاسْتِعْمَالِهَا فِي الْمُكَاتَبَاتِ. وَالنَّظَرُ فِيهَا مِنْ سِتَّةِ اَوْجُهٍ : (الْاَوَّلُ) اَنْ يَعْرِفَ مَرَاتِبَ الدُّعَاءِ لِيُوقِعَهَا فِي مَوَاقِعِهَا وَيُورِدَهَا فِي مَوَارِدِهَا . وَيَأْتِي ذٰلِكَ فِي عِدَّةِ اَدْعِيَةٍ مِنْهَا : الدُّعَاءُ بِاِطَالَةِ الْبَقَاءِ وَالدُّعَاءُ بِاِطَالَةِ الْعُمْرِ . فَالدُّعَاءُ بِاِطَالَةِ الْبَقَاءِ اَرْفَعُ مِنَ الدُّعَاءِ بِاِطَالَةِ الْعُمْرِ . وَذٰلِكَ اَنَّ الْبَقَاءَ لَا يَدُلُّ عَلَى مُدَّةٍ تَنْقَضِي لِاَنَّهُ ضِدُّ الْفَنَاءِ وَالْعُمْرُ يَدُلُّ عَلَى مُدَّةٍ تَنْقَضِي وَلِذٰلِكَ يُوصَفُ اللّٰهُ تَعَالَى بِالْبَقَاءِ وَلَا يُوصَفُ بِالْعُمْرِ . . (الثَّانِي) اَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ اَرْبَابِ الْمَنَاصِبِ الْجَلِيلَةِ مِنَ الدُّعَاءِ فَيَخُصُّهُ بِهِ فَيَأْتِي بِالدُّعَاءِ فِي مُكَاتَبَةِ الْمُلُوكِ بِدَوَامِ السُّلْطَانِ وَخُلُودِ الْمُلْكِ . وَاِلَى الْاُمَرَاءِ بِالدُّعَاءِ بِعِزِّ النَّصْرِ وَمُدَاوَمَةِ النِّعْمَةِ . وَاِلَى الْوُزَرَاءِ مِنْ اَرْبَابِ الْاَقْلَامِ بِسُبُوغِ النَّعْمَاءِ وَتَخْلِيدِ السَّعَادَةِ وَدَوَامِ الْمَجْدِ. وَاِلَى الْقُضَاةِ وَالْحُكَّامِ بِالدُّعَاءِ بِعِزِّ الْاَحْكَامِ . وَاِلَى التُّجَّارِ بِالدُّعَاءِ بِمَزِيدِ الْاِقْبَالِ وَشِبْهِ ذٰلِكَ . (وَالثَّالِثُ) اَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ كُلَّ حَالَةٍ مِنْ حَالَاتِ الْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِي كُلَّ حَالَةٍ بِمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ الدُّعَاءِ فَتَكُونُ الْاَدْعِيَةُ دَالَّةً عَلَى مَقَاصِدِ الْكُتَّابِ

فَإِنْ كَانَ فِي ٱلْهَنَاءِ وَٱلشُّكْرِ اَوِ ٱلتَّعْزِيَةِ اَتَى كُلاًّ بِمَا يُنَاسِبُهُ . (اَلرَّابِعُ) اَنْ يَعْرِفَ مَوَاضِعَ ٱلدُّعَاءِ عَلَى ٱلْمَكْتُوبِ اِلَيْهِ ... (اَلْاَصْلُ ٱلسَّادِسُ) اَنْ يَعْرِفَ مَا يُنَاسِبُ ٱلْمَكْتُوبَ اِلَيْهِ مِنَ ٱلْاَلْقَابِ فَيُعْطِيَهُ حَقَّهُ مِنْهَا . كَالْمَقَامِ وَٱلْمَقَرِّ وَٱلْجَنَابِ وَٱلنَّادِي وَٱلْمَجْلِسِ فِي زَمَانِنَا . . . وَكَذٰلِكَ ٱلنُّعُوتَ . (اَلْاَصْلُ ٱلسَّابِعُ) اَنْ يُرَاعِيَ مَقَاصِدَ ٱلْمُكَاتَبَاتِ فَيَأْتِيَ لِكُلِّ قَصْدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ وَمَدَارُ ذٰلِكَ عَلَى اَمْرَيْنِ : (اَلْاَمْرُ ٱلْاَوَّلُ) اَنْ يَأْتِيَ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ بِمَا يَلِيقُ بِهَا وَيَتَخَيَّرَ لِكُلِّ لَفْظَةٍ مَا يُشَاكِلُهَا فَإِنْ ذَكَرَ ٱلنِّعْمَةَ حَمِدَ ٱللّٰهَ وَاِنْ ذَكَرَ ٱلْبَلْوَى شَفَعَهَا بِٱلِاسْتِعَانَةِ بِٱللّٰهِ وَٱلرُّجُوعِ اِلَيْهِ فِيهَا . وَيَلْتَحِقُ بِذٰلِكَ اَيْضًا اَنَّهُ اِذَا ذَكَرَ ٱلرَّئِيسَ فِي اَثْنَاءِ ٱلْمُكَاتَبَةِ دَعَا لَهُ مِثْلَ اَنْ يَقُولَ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلسُّلْطَانِ : خَلَّدَ ٱللّٰهُ مُلْكَهُ وَمِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى . (اَلْاَمْرُ ٱلثَّانِي) اَنْ يَتَخَطَّى ٱلتَّصْرِيحَ اِلَى ٱلتَّلْوِيحِ وَٱلْاِشَارَةِ اِذَا اَلْجَاَتْهُ ٱلْحَالُ اِلَى ٱلْمُكَاتَبَةِ بِمَا لَا يَجُوزُ كَشْفُهُ وَاِظْهَارُهُ عَلَى صَرَاحَتِهِ بِمَا فِي ذِكْرِهِ اِطْرَاحُ مَهَابَةِ ٱلسُّلْطَانِ وَاِسْمَاعُهُ مَا يَلْزَمُ مِنْهُ اِخْلَالُ ٱلْاَدَبِ فِي حَقِّهِ كَمَا لَوْ اَطْلَقَ لِسَانَهُ فِيهِ بِلَفْظٍ قَبِيحٍ يَسُوءُهُ سَمَاعُهُ فَيَحْتَاجُ ٱلْمُنْشِئُ اِلَى ٱسْتِعْمَالِ ٱلتَّوْرِيَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْمَوَاضِعِ وَٱلتَّلَطُّفِ فِي ٱلْعِبَارَةِ عَنْ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِي مِنْ غَيْرِ خِيَانَةٍ فِي طَيِّ مَا لَا غِنَى بِهِ عَنْ عِلْمِهِ . وَهٰذَا مِمَّا لَا يَسْتَقِلُّ بِهِ اِلَّا ٱلْمُبَرِّزُ فِي ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْمُتَصَرِّفُ فِي تَأْلِيفِ ٱلْكَلَامِ . . (اَلْاَصْلُ ٱلثَّامِنُ) اَنْ يَعْرِفَ مِقْدَارَ فَهْمِ كُلِّ طَبَقَةٍ مِنَ ٱلْمُخَاطَبِينَ فِي ٱلْمُكَاتَبَاتِ مِنَ ٱللِّسَانِ فَيُخَاطِبَ كُلَّ اَحَدٍ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ ٱللَّفْظِ وَمَا

يصِلُ إلَيهِ فهمُهُ مِنَ ٱلخطَابِ (اِستِشهادٌ مِنْ كِتَابِ ٱلصِّنَاعَتَينِ) ..
(ٱلأَصلُ ٱلتَّاسِعُ) أَنْ يُرَاعِيَ رُتبَةَ ٱلمكتُوبِ عَنهُ وَٱلمكتُوبِ إِلَيهِ فِي ٱلخطَابِ فَيُعَبِّرَ عَنْ كُلٍّ وَاحِدٍ مِنهُمَا بِمَا يَلِيقُ بِهِ . وَيُخَاطِبَ ٱلمكتُوبَ إِلَيهِ بِمَا يَلِيقُ بِمَقَامِهِ . فَأَمَّا ٱلمكتُوبُ عَنهُ فَيَختَلِفُ ٱلحَالُ فِيهِ بِٱختِلَافِ مَنصِبِهِ وَرُتبَتِهِ فَيُعَبَّرُ فِي ٱلكُتُبِ ٱلصَّادِرَةِ عَنْ أَبوَابِ ٱلخِلَافَةِ بِأَمِيرِ ٱلمُؤمِنِينَ مِثلُ أَنْ يُقَالَ : فَجرَى أَمرُ أَمِيرِ ٱلمُؤمِنِينَ فِي كَذَا عَلَى كَذَا . وَأَوعَزَ أَمِيرُ ٱلمُؤمِنِينَ إِلَى فُلَانٍ بِكَذَا وَٱقتَضَى رَأيُ أَمِيرِ ٱلمُؤمِنِينَ كَذَا وَهَلُمَّ جرًّا. وَكَذٰلِكَ أَنْ يَعرِفَ قَدرَ ٱلمكتُوبِ إِلَيهِ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلنُّظَرَاءِ وَٱلعُلَمَاءِ وَٱلوُكَلَاءِ لِيَفرُقَ بَينَ مَنْ يَكتُبُ إِلَيهِ.. أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ خَاطَبتَ سُلطَانًا أَوْ وَزِيرًا بِٱلتَّعزِيَةِ عَنِ ٱلمُصِيبَةِ مِنْ مَصَائِبِ ٱلدُّنيَا لَمَا جَازَ أَنْ تَبنِيَ ٱلكَلَامَ عَلَى وَعظِهِ وَتَبصِيرِهِ وَإِرشَادِهِ وَحَضِّهِ عَلَى ٱلأَخذِ بِحَظٍّ مِنَ ٱلصَّبرِ .. وَإِنَّمَا ٱلصَّوَابُ أَنْ تَبنِيَ ٱلخطَابَ عَلَى أَنَّهُ أَعلَى شَأْنًا وَأَرفَعُ مَكَانًا مِنْ أَنْ يُعَزَّى بِخِلَافِ ٱلمُتَأَخِّرِ فِي ٱلرُّتبَةِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُعَزَّى تَنبِيهًا وَتَذكِيرًا وَتَبصِيرًا وَتَعرِيفًا لِلوَاجِبِ فِي تَلَقِّي ٱلسَّرَّاءِ بِٱلشُّكرِ وَٱلضَّرَّاءِ بِٱلصَّبرِ . .
(ٱلأَصلُ ٱلعَاشِرُ) أَنْ يُرَاعِيَ مَوَاقِعَ ٱلآيَاتِ وَٱلسَّجعَ فِي ٱلكُتُبِ وَذِكرَ أَبيَاتِ ٱلشِّعرِ فِي ٱلمكَاتَبَاتِ . . .



الفصل التاسع

في حل الشعر والاحتذاء

البحث الاوَّل

في حسن الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٣٩ من علم الادب)

لَيسَ لِأَحَدٍ مِنْ اَصْنَاف ٱلْقَائِلِينَ غِنًى عَنْ تَنَاوُلِ ٱلْمَعَانِي مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَٱلصَّبُّ عَلَى قَوَالِبِ مَنْ سَبَقَهُ وَلٰكِنْ عَلَيْهِ إِذَا اَخَذَهَا اَنْ يَكْسُوَهَا اَلْفَاظًا مِنْ عِنْدِهِ وَيُبْرِزَهَا فِي مَعَارِضَ مِنْ تَأْلِيفِهِ وَرَصْفِهِ وَيُؤَدِّيَهَا فِي غَيْرِ حِلْيَتِهَا ٱلْأُولَى وَيَزِيدَ فِي حُسْنِ تَأْلِيفِهَا وَجَوْدَةِ تَرْكِيبِهَا وَجَمَالِ حِلْيَتِهَا وَمَعْرِضِهَا . فَإِذَا فَعَلَ ذٰلِكَ فَهُوَ اَوْلَى بِهَا مِمَّنْ سَبَقَ إِلَيْهَا وَلَوْلَا اَنَّ ٱلْقَائِلَ يُؤَدِّي مَا سَمِعَ لَمَا كَانَ فِي طَاقَتِهِ اَنْ يَقُولَ وَإِنَّمَا يَنْطِقُ ٱلطِّفْلُ بَعْدَ ٱسْتِمَاعِهِ مِنَ ٱلْبَالِغِينَ . وَقَالَ اَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ : لَوْلَا اَنَّ ٱلْكَلَامَ يُعَادُ لَنَفِدَ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : كُلُّ شَيْءٍ ثَنَيْتَهُ قَصُرَ إِلَّا ٱلْكَلَامَ فَإِنَّكَ إِذَا ثَنَيْتَهُ طَالَ . عَلَى اَنَّ ٱلْمَعَانِي مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ ٱلْعُقَلَاءِ فَرُبَّمَا وَقَعَ ٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ لِلسُّوقِيِّ وَٱلنَّبَطِيِّ وَٱلزِّنْجِيِّ وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَلْفَاظِ وَرَصْفِهَا وَتَأْلِيفِهَا وَنَظْمِهَا . وَقَدْ يَقَعُ لِلْمُتَأَخِّرِ مَعْنًى سَبَقَهُ إِلَيْهِ ٱلْمُتَقَدِّمُ مِنْ غَيْرِ اَنْ يُلِمَّ بِهِ وَلٰكِنْ

كَمَا وَقَعَ لِلأَوَّلِ وقعَ لِلآخِرِ . وَهٰذَا أَمْرٌ عَرَفْتُهُ مِنْ نَفْسِي فَلَسْتُ أَمْتَرِي فِيهِ . وَقَدْ قِيلَ : إِنَّ مَنْ أَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ كَانَ لَهُ سَالِخًا وَمَنْ أَخَذَهُ فَكَسَاهُ لَفْظًا مِنْ عِنْدِهِ أَجْوَدَ مِنْ لَفْظِهِ كَانَ هُوَ أَوْلَى بِهِ مِمَّنْ تَقَدَّمَهُ . وَقَالُوا : إِنَّ أَبَا عُذْرَةِ ٱلْكَلَامِ مَنْ سَبَكَ لَفْظَهُ عَلَى مَعْنَاهُ . وَمَنْ أَخَذَ مَعْنًى بِلَفْظِهِ فَلَيْسَ لَهُ فِيهِ نَصِيبٌ . عَلَى أَنَّ ٱبْتِكَارَ ٱلْمَعْنَى وَٱلسَّبقَ إِلَيْهِ لَيس هُوَ فَضِيلَةً تَرْجِعُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَإِنَّمَا هُوَ فَضِيلَةٌ تَرْجِعُ إِلَى ٱلَّذِي ٱبْتَكَرَهُ وَسَبَقَ إِلَيْهِ . فَٱلْمَعْنَى ٱلْجَيِّدُ جَيِّدٌ وَإِنْ كَانَ مَسْبُوقًا إِلَيْهِ . وَٱلْوَسَطُ وَسَطٌ وَٱلرَّدِيءُ رَدِيءٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَسْبُوقًا إِلَيْهِمَا . وَقَدْ أَطْبَقَ ٱلْمُتَقَدِّمُونَ وَٱلْمُتَأَخِّرُونَ عَلَى تَدَاوُلِ ٱلْمَعَانِي بَيْنَهُمْ فَلَيْسَ عَلَى أَحَدٍ فِيهِ عَيْبٌ إِلَّا إِذَا أَخَذَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ وَأَخَذَهُ فَأَفْسَدَهُ وَقَصَّرَ فِيهِ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُ وَرُبَّمَا أَخَذَ ٱلشَّاعِرُ ٱلْقَوْلَ ٱلْمَشْهُورَ وَلَمْ يُبَالِ كَمَا فَعَلَ ٱلنَّابِغَةُ فَإِنَّهُ أَخَذَ قَوْلَ وَهْبِ بْنِ ٱلْحَارِثِ بْنِ زُهَيْرٍ :

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ

وَقَالَ ٱلنابِغَةُ

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ وَٱلشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَا ٱلنُّورُ نُورٌ وَلَا ٱلْإِظْلَامُ إِظْلَامُ

وَأَخَذَ قَوْلَ رَجُلٍ مِنْ كِنْدَةَ فِي عَمْرِو بْنِ هِنْدٍ :

هُوَ ٱلشَّمْسُ وَافَتْ يَوْمَ دَجْنٍ فَأَفْضَلَتْ
عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبُ

فَقَالَ :

فَإِنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَسَنَتَّبِعُ ٱلْقَوْلَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ وَٱلْحَاذِقُ يُخْفِي دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى يَأْخُذُهُ فِي سُتْرَةٍ فَيُحْكَمُ لَهُ بِٱلسَّبْقِ إِلَيْهِ . وَذٰلِكَ أَنْ يَأْخُذَ مَعْنًى مِنْ نَظْمٍ فَيُورِدَهُ فِي نَثْرٍ . أَوْ مِنْ نَثْرٍ فَيُورِدَهُ فِي نَظْمٍ أَوْ يَنْقُلَ ٱلْمَعْنَى ٱلْمُسْتَعْمَلَ فِي صِفَةِ خَمْرٍ فَيَجْعَلَهُ فِي مَدِيحٍ أَوْ فِي مَدِيحٍ فَيَنْقُلَهُ إِلَى وَصْفٍ . إِلَّا إِنَّهُ لَا يَكْمُلُ بِهٰذَا إِلَّا ٱلْمُبَرِّزُ وَٱلْكَامِلُ ٱلْمُقَدَّمُ مِمَّنْ أَخْفَى دَبِيبَهُ إِلَى ٱلْمَعْنَى وَسَتَرَهُ غَايَةَ ٱلسَّتْرِ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ :

جَمَعْتَ عُرَى أَعْمَالِهَا بَعْدَ فُرْقَةٍ إِلَيْكَ كَمَا ضَمَّ ٱلْأَنَابِيبَ عَامِلُ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْجَبَالِ ٱلرَّبَعِيِّ :

أُولَئِكَ إِخْوَانُ ٱلصَّفَاءِ رُزِئْتُهُمْ فَمَا ٱلْكَفُّ إِلَّا إِصْبَعٌ ثُمَّ إِصْبَعُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ وَقَدْ نَقَلَهُ مِنْ مَعْنًى إِلَى آخَرَ :

مَكَارِمُ لَجَّتْ فِي عُلُوٍّ كَأَنَّمَا تُحَاوِلُ ثَأْرًا عِنْدَ بَعْضِ ٱلْكَوَاكِبِ

قَالُوا هُوَ مِنْ قَوْلِ ٱلْأَخْطَلِ :

عَرُوفٌ لِحَقِّ ٱلسَّائِلِينَ كَأَنَّهُ بِعَقْرِ ٱلْمَتَالِي طَالِبٌ بِذُنُوبِ

وَمِمَّا أَخَذَهُ وَزَادَ فِيهِ عَلَى ٱلْأَوَّلِ قَوْلُهُ :

أَفْنَاهُمُ ٱلصَّبْرُ إِذْ أَبْقَاكُمُ ٱلْجَزَعُ

مِنْ قَوْلِ ٱلسَّمَوْءَلِ :

يُقَرِّبُ حُبُّ ٱلْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ

أَوْرَدَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي نِصْفِ بَيْتٍ وَٱسْتَوْفَى ٱلتَّطْبِيقَ وَمِنْ هٰذَا ٱلضَّرْبِ قَوْلُهُ :

عَلَّمَنِي جُودُكَ ٱلسَّمَاحَ فَمَا أَبْقَيْتُ شَيْئًا لَدَيَّ مِنْ صِلَتِكْ

مِنْ قَوْلِ ٱبْنِ ٱلْخَيَّاطِ :

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ ٱبْتَغِي ٱلْغِنَى وَلَمْ أَدْرِ أَنَّ ٱلْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدِي

فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَفَادَ ذَوُو ٱلْغِنَى أَفَدتُ وَأَعْدَانِي فَأَتْلَفْتُ مَا عِنْدِي

وَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ مُسْلِمٍ :

أُحِبُّ ٱلرِّيحَ مَا هَبَّتْ شَمَالًا وَأَحْسُدُهَا إِذَا هَبَّتْ جَنُوبَا

قَسَّمَ تَقْسِيمًا حَسَنًا وَمَعْنَاهُ : أَنَّ ٱلشَّمَالَ تَجِيءُ مِنْ نَاحِيَةِ صَدِيقِهِ إِلَيْهِ فَأَحَبَّهَا وَٱلْجَنُوبَ تَهُبُّ إِلَى ٱلْحَبِيبِ فَحَسَدَهَا لِمُبَاشَرَتِهَا جِسْمَهُ وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ جِرَانِ ٱلْعَوْدِ :

إِذَا هَبَّتِ ٱلْأَرْوَاحُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ وَجَدتُّ لِرَيَّاهَا عَلَى كَبِدِي بَرْدَا

وَزَادَ مُسْلِمٌ فِي قَوْلِهِ أَيْضًا :

وَيُغْمِدُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱلنَّحْرِ وَٱلْجِيدِ

عَلَى ٱلسَّابِقِ إِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى وَهُوَ بَعْضُ ٱلْفُرْسَانِ إِذْ يَقُولُ :

جَعَلْتُ ٱلسَّيْفَ بَيْنَ ٱللَّيْثِ مِنْهُ وَبَيْنَ سَوَادِ لِحْيَتِهِ عِذَارَا

لِأَنَّ ٱلْإِغْمَادَ فِيهِ أَشَدُّ تَأْثِيرًا مِنْ وَضْعِ ٱلْعِذَارِ عَلَيْهِ . وَقَدْ زَادَ أَبُو نُوَاسٍ عَلَى جَرِيرٍ فِي قَوْلِهِ :

وَقَدْ أَطُولُ نِجَادَ ٱلسَّيْفِ مُحْتَبِيًا مِثْلَ ٱلرُّدَيْنِيِّ هَزَّتْهُ ٱلْأَنَابِيبُ

فَقَالَ أَبُو نُوَاسٍ :

سَبْطُ ٱلْبَنَانِ إِذَا ٱحْتَبَى بِنِجَادِهِ غَمَرُ ٱلْجَمَاجِمِ وَٱلسِّمَاطُ قِيَامُ

قَوْلُهُ : غَمَرُ ٱلْجَمَاجِمِ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ مِثْلَ ٱلرُّدَيْنِيِّ . وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

اَشَمُّ طُوَالُ ٱلسَّاعِدَيْنِ كَأَنَّمَا　　يُلَاثُ نِجَادَا سَيْفِهِ بِلِوَاءِ

اَحْسَنُ لَفظًا وَسَبْكًا مِنْ قَوْلِ عَنْتَرَةَ :

بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ　　يُحْذَى نِعَالَ ٱلسِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْأَمِ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ فِي ٱبْنَيْ عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ :

لَهفِي عَلَى تِلْكَ ٱلْمَخَايِلِ فِيهِمَا　　لَوْ أُمهِلَتْ حَتَّى تَكُونَ شَمَائِلَا

لَوْ يُنْسَبَانِ لَكَانَ هٰذَا غَارِبًا　　لِلْمَكْرُمَاتِ وَكَانَ هٰذَا كَاهِلَا

اِنَّ ٱلْهِلَالَ اِذَا رَأَيْتَ نُمُوَّهُ　　اَيْقَنْتَ اَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلَا

اَحْسَنُ وَاَجْوَدُ مِمَّا اَخَذَ مِنْهُ هٰذِهِ ٱلْمَعَانِيَ وَهُوَ قَوْلُ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَفِي جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيظَةٍ　　لَوَ اَنَّ ٱلْمَنَايَا اَنْسَاَتْهُ لَيَالِيَا

لَا يَقَعُ بَيْتُ ٱلْفَرَزْدَقِ مَعَ اَبْيَاتِ اَبِي تَمَّامٍ مَوْقِعًا . وَاَخَذَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ :

وَمَا وَامَرَتْنِي ٱلنَّفْسُ فِي رِحْلَةٍ لَهَا　　اِلَى اَحَدٍ اِلَّا اِلَيْكَ ضَمِيرُهَا

فَشَرَحَهُ وَقَالَ :

وَمَا طَوَّفْتُ فِي ٱلْآفَاقِ اِلَّا　　وَمِنْ جَدْوَاكَ رَاحِلَتِي وَزَادِي

مُقِيمُ ٱلظَّنِّ عِنْدَكَ وَٱلْاَمَانِي　　وَاِنْ قَلِقَتْ رِكَابِي فِي ٱلْبِلَادِ

وَاِلَى بَيْتِ ٱلْفَرَزْدَقِ يُشِيرُ ٱلْقَائِلُ :

مَدَحْتُكَ جَهْدِي بِٱلَّذِي اَنْتَ اَهْلُهُ
فَقَصَّرَ عَمَّا فِيكَ مِنْ صَالِحٍ جَهْدِي

فَمَا كُلُّ مَا فِيهِ مِنَ ٱلْخَيْرِ قُلْتُهُ
وَلَا كُلُّ مَا فِيهِ يَقُولُ ٱلَّذِي بَعْدِي

وَكُنتُ إِذَا هَيَّأْتُ مَدْحًا لِمَاجِدٍ
أَتَانِي ٱلَّذِي فِيهِ بِأَدْنَى ٱلَّذِي عِنْدِي

وَمِنْ هَا هُنَا أَخَذَ أَبُو نُوَاسٍ قَوْلَهُ :

إِذَا نَحْنُ أَثْنَيْنَا عَلَيْكَ بِصَالِحٍ فَأَنْتَ كَمَا نُثْنِي وَفَوْقَ ٱلَّذِي نُثْنِي
وَإِنْ جَرَتِ ٱلْأَلْفَاظُ يَوْمًا بِمِدْحَةٍ لِغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ ٱلَّذِي نَعْنِي

وَيُشِيرُ إِلَى قَوْلِ ٱلْخَنْسَاءِ :

وَمَا بَلَغَ ٱلْمُهْدُونَ فِي ٱلْقَوْلِ مِدْحَةً وَإِنْ أَطْنَبُوا إِلَّا ٱلَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ

وَهٰكَذَا قَوْلُهُ :

قَوْمٌ إِذَا لَبِسُوا ٱلدُّرُوعَ لِمَوْقِفٍ لَبِسَتْهُمُ ٱلْأَحْسَابُ فِيهِ دُرُوعَا

أَتَمُّ وَأَجْوَدُ مِن قَوْلِ ٱلْأَوَّلِ :

لَبِسُوا ٱلْقُلُوبَ عَلَى ٱلدُّرُو عِ مُظَاهِرِينَ لِدَفْعِ ذٰلِكْ

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ : إِنَّ ٱلنَّدَى حَيْثُ تَرَى ٱلضِّغَاطَا . فَأَخَذَهُ بَشَّارٌ وَقَدْ شَرَحَهُ وَبَيَّنَهُ فَقَالَ :

تَسْقُطُ ٱلطَّيْرُ حَيْثُ يَنْتَشِرُ ٱلْحَبُّ م وَتُغْشَى مَنَازِلُ ٱلْكُرَمَاءِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

يَزْدَحِمُ ٱلنَّاسُ عَلَى بَابِهِ وَٱلْمَشْرَبُ ٱلْعَذْبُ كَثِيرُ ٱلزِّحَامْ

وَسَمِعَ أَبُو تَمَّامٍ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِلْأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ : إِنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ قَضَاءُ ٱللهِ وَأَنْتَ مَوْزُورٌ . وَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَسْلُ ٱحْتِسَابًا سَلَوْتَ كَمَا تَسْلُو ٱلْبَهَائِمُ فَحَكَاهُ حِكَايَةً حَسَنَةً فِي قَوْلِهِ :

وَقَالَ عَلِيٌّ فِي ٱلتَّعَازِي لِأَشْعَثٍ ... وَخَافَ عَلَيْهِ بَعْضَ تِلْكَ ٱلْمَآثِمِ

أَتَصْبِرُ لِلْبَلْوَى حَيَاءً وَحِسْبَةً ... فَتُؤْجَرُ أَمْ تَسْلُو سُلُوَّ ٱلْبَهَائِمِ

خُلِقْنَا رِجَالًا لِلتَّجَلُّدِ وَٱلْأَسَى ... وَتِلْكَ ٱلْغَوَانِي لِلْبُكَا وَٱلْمَآتِمِ

وَٱلْبَيْتُ ٱلْأَخِيرُ مِنْ قَوْلِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ لَمَّا قُتِلَ مُصْعَبٌ . وَإِنَّمَا ٱلتَّسْلِيمُ وَٱلسَّلْوَةُ لِحَزْمَاءِ ٱلرِّجَالِ . وَإِنَّ ٱلْهَلَعَ وَٱلْجَزَعَ لِرَبَّاتِ ٱلْحِجَالِ وَسَمِعَ قَوْلَ زِيَادٍ لِأَبِي ٱلْأَسْوَدِ . لَوْ أَنَّكَ ضَعِيفٌ لَٱسْتَعْمَلْتُكَ . فَقَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ : إِنْ كُنْتَ تُرِيدُنِي لِلصِّرَاعِ فَإِنِّي لَا أَصْلُحُ لَهُ وَإِلَّا فَغَيْرُ شَدِيدٍ أَنْ آمُرَ وَأَنْهَى فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

تَعَجَّبُ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي نَحِيفًا ... كَأَنَّ ٱلْمَجْدَ يُدْرَكُ بِٱلصِّرَاعِ

وَلَمَّا قَالَ بَشَّارٌ :

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحَاجَتِهِ ... وَفَازَ بِٱلطَّيِّبَاتِ ٱلْفَاتِكُ ٱللَّهِجُ

تَبِعَهُ سَلْمٌ ٱلْخَاسِرُ فَقَالَ :

مَنْ رَاقَبَ ٱلنَّاسَ مَاتَ غَمًّا ... وَفَازَ بِٱللَّذَّةِ ٱلْجَسُورُ

فَلَمَّا سَمِعَ بَشَّارٌ هٰذَا ٱلْبَيْتَ قَالَ : ذَهَبَ ٱلْخَبِيثُ بِبَيْتِي . وَمِنْ حُسْنِ ٱلِٱتِّبَاعِ أَيْضًا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ حَيْثُ كَتَبَ : إِذَا كَانَ لِلْمُحْسِنِ مِنَ ٱلثَّوَابِ مَا يُقْنِعُهُ وَلِلْمُسِيءِ مِنَ ٱلْعِقَابِ مَا يَقْمَعُهُ ٱزْدَادَ ٱلْمُحْسِنُ فِي ٱلْإِحْسَانِ رَغْبَةً وَٱنْقَادَ ٱلْمُسِيءُ لِلْحَقِّ رَهْبَةً . أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيٍّ : يَجِبُ عَلَى ٱلْوَالِي أَنْ يَتَعَهَّدَ أُمُورَهُ وَيَتَفَقَّدَ أَعْوَانَهُ حَتَّى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ إِحْسَانُ مُحْسِنٍ وَلَا إِسَاءَةُ مُسِيءٍ ثُمَّ لَا يَتْرُكَ وَاحِدًا مِنْهُمَا بِغَيْرِ جَزَاءٍ . فَإِنْ تَرَكَ ذٰلِكَ تَهَاوَنَ ٱلْمُحْسِنُ وَٱجْتَرَأَ ٱلْمُسِيءُ وَفَسَدَ

ٱلْأَمْرُ وَضَاعَ ٱلْعَمَلُ . وَسَمِعَ بَعْضُ ٱلْكُتَّابِ قَوْلَ نُصَيْبٍ :

وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ ٱلْحَقَائِبُ

فَكَتَبَ وَلَوْ أُمْسِكَ لِسَانِي عَنْ شُكْرِكَ لَنَطَقَ أَثَرُكَ عَلَيَّ . وَفِي فَصْلٍ آخَرَ : وَلَوْ جَحَدْتُكَ إِحْسَانَكَ لَأَكْذَبَتْنِي آثَارُهُ وَنَمَّتْ عَلَيَّ شَوَاهِدُهُ . وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ : شَاهِدَاتُ ٱلْأَحْوَالِ أَعْدَلُ مِنْ شَهَادَاتِ ٱلرِّجَالِ . أَخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فَشَرَحَهُ فِي قَوْلِهِ :

حَالَ ٱلسِّدَادُ فِي عَمَّا يُرِيبُكُمْ ... لٰكِنْ فَمُ ٱلْحَالِ مِنِّي غَيْرُ مَسْدُودِ

حَالٌ تَصِيحُ بِمَا أَوْلَيْتَ مُعْلِنَةً ... وَكُلُّ مَا تَدَّعِيهِ غَيْرُ مَرْدُودِ

كُلِّي هِجَاءٌ وَقَتْلِي لَا يَحِلُّ لَكُمْ ... فَمَا يُدَاوِيكُمْ مِنِّي سِوَى ٱلْجُودِ

وَمِمَّنْ أَحْسَنَ ٱلْأِتِّبَاعَ أَيْضًا أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ وَقَدْ سَمِعَ قَوْلَ عَلِيٍّ : لَا تَكُونَنَّ كَمَنْ يَعْجِزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُتِيَ وَيَلْتَمِسُ ٱلزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ . فَكَتَبَ : أَحَقُّ مَنْ أَثْبَتَ لَكَ ٱلْعُذْرَ فِي حَالِ شُغْلِكَ مَنْ لَمْ يَخْلُ سَاعَةً مِنْ بِرِّكَ فِي وَقْتِ فَرَاغِكَ . وَأَخَذَهُ أَخْذًا ظَاهِرًا أَحْمَدُ بْنُ صُبَيْحٍ فَقَالَ : فِي شُكْرِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ إِحْسَانِ ٱلْأَمِيرِ شَاغِلٌ عَنِ ٱسْتِبْطَاءِ مَا تَأَخَّرَ مِنْهُ . وَأَخَذَهُ سَعِيدُ بْنُ حُمَيْدٍ فَقَالَ : لَسْتُ مُسْتَقِلًّا لِشُكْرِ مَا مَضَى مِنْ بَلَائِكَ فَأَسْتَبْطِئَ دَرْكَ مَا أُؤَمِّلُ مِنْ مَزِيدِكَ . وَمِنْ هٰذَا أَيْضًا قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لَا تُسْدِيَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً ... حَتَّى أَقُومَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

وَأَخْبَرَ ٱلْأَخْفَشُ قَالَ : قَالَ أَبُو تَمَّامٍ لِٱبْنِ أَبِي دُؤَادٍ لَمَّا غَضِبَ عَلَيْهِ : أَنْتَ ٱلنَّاسُ كُلُّهُمْ وَلَا طَاقَةَ لِي بِغَضَبِ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ . فَقَالَ

أَبْنُ أَبِي رُؤَادٍ : مَا أَحْسَنَ هٰذَا مِنْ أَيْنَ أَخَذْتَهُ . قَالَ : مِنْ قَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ وَلَيْسَ عَلَى ٱللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ . أَنْ يَجْمَعَ ٱلْعَالَمَ فِي وَاحِدِ

وَمَنْ سَمِعَ هٰذَا ٱلْكَلَامَ يَظُنُّهُ مَسْرُوقًا مِنْ قَوْلِ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيَّ بَنُو تَمِيمٍ   رَأَيْتُ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَسَمِعَ قُلَيْبٌ ٱلْمُعْتَزِلِيُّ أَبْيَاتًا لِلْعُتْبِيِّ وَهِيَ :

أَفَلَتْ بَطَالَتُهُ وَرَاجَعَهُ   حِلْمٌ وَأَعْقَبَهُ ٱلْهَوَى نَدَمَا

أَلْقَى عَلَيْهِ ٱلدَّهْرُ كَلْكَلَهُ   وَأَعَارَهُ ٱلْإِقْتَارَ وَٱلْعَدَمَا

فَإِذَا أَلَمَّ بِهِ أَخُو ثِقَةٍ   غَضَّ ٱلْجُفُونَ وَمَجْمَجَ ٱلْكَلِمَا

فَقَالَ لِبَعْضِ ٱلْمُلُوكِ يَسْتَعْطِفُهُ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِهِ : جَعَلَنِي ٱللهُ فِدَاكَ . لَيْسَ هُوَ ٱلْيَوْمَ كَمَا كَانَ أَمْسِ إِنَّهُ وَحَيَاتِكَ أَفَلَتْ بَطَالَتُهُ إِيْ وَٱللهِ وَرَاجَعَهُ حِلْمُهُ وَأَعْقَبَهُ وَحَقِّكَ ٱلْهَوَى نَدَمًا أَلْقَى ٱلدَّهْرُ عَلَيْهِ كَلْكَلَهُ فَهُوَ ٱلْيَوْمَ إِذَا رَأَى أَخَا ثِقَةٍ غَضَّ بَصَرَهُ وَمَجْمَجَ كَلَامَهُ . وَبِهٰذَا يُعْرَفُ أَنَّ حَلَّ ٱلْمَنْظُومِ وَنَظْمَ ٱلْمَحْلُولِ أَسْهَلُ مِنَ ٱبْتِدَائِهِمَا لِأَنَّ ٱلْمَعَانِيَ إِذَا حَلَلْتَ مَنْظُومًا أَوْ نَظَمْتَ مَنْثُورًا حَاضِرَةٌ بَيْنَ يَدَيْكَ تَزِيدُ فِيهَا شَيْئًا فَتَنْحَلُّ أَوْ تَنْقُصُ مِنْهَا شَيْئًا فَتَنْتَظِمُ . وَإِذَا أَرَدْتَ ٱبْتِدَاءَ كَلَامٍ وَجَدْتَ ٱلْمَعَانِيَ غَائِبَةً عَنْكَ فَتَحْتَاجُ إِلَى فِكْرٍ يُحْضِرُهَا وَٱلْمَحْلُولُ مِنَ ٱلشِّعْرِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَضْرُبٍ : ضَرْبٌ مِنْهَا يَكُونُ بِإِدْخَالِ لَفْظَةٍ بَيْنَ أَلْفَاظِهِ . وَضَرْبٌ يُحَلُّ بِتَأْخِيرِ لَفْظَةٍ مِنْهُ وَتَقْدِيمِ أُخْرَى فَيَحْسُنُ مَحْلُولُهُ وَيَسْتَقِيمُ . وَضَرْبٌ مِنْهُ يُحَلُّ عَلَى هٰذَا ٱلْوَجْهِ وَلَا يَحْسُنُ وَلَا يَسْتَقِيمُ . فَأَمَّا ٱلضَّرْبُ ٱلْأَوَّلُ فَمِثَالُهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ

صدرِ كلامِ قُلَيبِ ٱلمعتزليِّ . وأمَّا ٱلضربُ ٱلثاني فمثالُهُ ما ذكر بعضُ ٱلكُتَّابِ مِن قولِ ٱلبحتريِّ :

نطلُبُ ٱلأكثرَ في ٱلدُّنيا وقدْ تُبلَغُ ٱلحاجةُ فيها بِٱلأقلّْ

ثُمَّ قالَ : فإذا نثرتَ ذلكَ ولمْ تزدْ في ألفاظِهِ شيئًا قلتَ : نطلُبُ في ٱلدُّنيا ٱلأكثرَ ونبلُغُ منها ٱلحاجةَ بِٱلأقلِّ . فأمَّا ٱلضربُ ٱلثالثُ فهوَ أنْ توضعَ ألفاظُ ٱلبيتِ في مواضعَ لا يحسُنُ وضعُها في غيرِها فيحَلُّ إذا نُثِرَ بتأخيرِ لفظٍ وتقديمِ آخرَ فيحتاجُ نثرُهُ إلى ٱلنُّقصانِ منهُ وٱلزيادةِ فيهِ . كقولِ ٱلبحتريِّ أيضًا :

يُسَرُّ بعُمْرانِ ٱلدِّيارِ مُضَلَّلٌ وَعُمرانُها مُستأنَفٌ مِنْ خرابِها

ولمْ أرتضِ ٱلدُّنيا أوانَ مجيئِها فكيفَ ٱرتضائيها أوانَ ذهابِها

فإذا نُثِرَ على هذا ٱلوجهِ قيلَ : يُسَرُّ مُضَلَّلٌ بعُمرانِ ٱلدُّنيا ومِن خرابِها عُمرانُها مُستأنَفٌ ولمْ أرتضِ أوانَ مجيئِها ٱلدُّنيا فكيفَ أوانَ ذهابِها ٱرتضائيها . فهذا نثرٌ فاسدٌ فإذا غيَّرتَ بعضَ ألفاظِهِ حسُنَ وهوَ أنْ تقولَ : يُسَرُّ ٱلمُضَلَّلُ بعُمرانِ ٱلدِّيارِ وإنَّما يُستأنَفُ عُمرانُها مِنْ خرابِها . وما ٱرتضيتُ ٱلدُّنيا أوانَ مجيئِها فكيفَ ٱرتضيها أوانَ ذهابِها . ونحنُ نقولُ إنَّ مِنَ ٱلنَّظمِ ما لا يُمكِنُ حَلُّهُ أصلًا بتأخيرِ لفظةٍ وتقديمِ أُخرى منهُ حتَّى يلحقَ بهِ ٱلتَّغييرُ وٱلزيادةُ وٱلنُّقصانُ . مثلُ قولِ ٱلشاعرِ :

لِسانُ ٱلفتى نِصفٌ ونِصفٌ فؤادُهُ فلمْ يبقَ إلَّا صورةُ ٱللَّحمِ وٱلدَّمِ

فٱلمِصراعُ ٱلأوَّلُ يُمكِنُ أنْ تؤخَّرَ ألفاظُهُ وتُقدَّمَ فيصيرُ نثرًا .

مُستقيماً وهو ان تقولَ : فُؤادُ الفتى نِصفٌ ولِسانُهُ نِصفٌ . ولا يُمكِنُ في المِصراعِ الثاني ذلكَ حتّى تزيدَ فيهِ او تنقصَ منهُ لانَّ المِصراعَ الثاني انّما هو تذييلٌ للمِصراعِ الاوّلِ فاذا اردتَ ان تحُلَّهُ حلاًّ مُقتصرًا بغيرِ لفظِهِ قُلتَ : الانسانُ شطرانِ لِسانٌ وجَنانٌ . وممّا لا يُمكِنُ حلُّهُ بتقديمِ لفظةٍ منهُ وتأخيرِ اخرى ايضاً قولُ ابي نُواس :

الا يا ابنَ الذينَ فَنُوا وبادُوا   اما واللهِ ما ذهبُوا لِتَبقَى

فتحتاجُ في نثرِهِ الى تغييرِهِ وابدالِ الفاظِهِ فتقولُ : الا يا ابنَ الذينَ ماتُوا ومضَوا وطعنُوا فنأوا فواللهِ ما طعنُوا لتُقيمَ وما راموا الّا لِتَريمَ . ولا ماتُوا لتحيا ولا فنوا لتبقى . وفي هذهِ الالفاظِ طولٌ وليس بضائرٍ على ما خبّرتكَ فانْ اردتَ اختصارهُ قُلتَ : اما واللهِ انَّ الموتَ لم يُصبكَ في ابيكَ الّا ليُصيبكَ فيكَ . والضربُ الرابعُ ان تكسُوَ ما تحُلُّهُ منَ المنظومِ الفاظاً من عِندِكَ . وهذا ارفعُ درجاتِكَ . ومنهُ ما قالَ بعضُهم للرَّبيعِ بنِ خُثَيمٍ وقد رأى اجتهادَهُ في العبادةِ : قتلتَ نفسكَ . فقالَ : راحتَها اطلبُ . فقالَ الشاعرُ :

ساطلُبُ بُعدَ الدّارِ منكُم لتقرُبوا   وتسكُبُ عينايَ الدُّموعَ لتجمُدا

ومنهُ ما جاءَ عنِ الحسنِ البصريِّ فقالَ نثرًا : انَّ امرأً لم يعُدَّ بينَهُ وبينَ آدمَ الّا ابًا ميتًا لمُعرِقٌ لهُ في الموتِ . فاخذهُ ابو نُواس فقالَ :

وما النّاسُ الّا هالكٌ وابنُ هالكٍ   وذُو نسبٍ في الهالِكينَ عريقُ

وسمعَ بعضُ الكُتّابِ قولَ ابي تمّامٍ :

فَإِنْ نَجِدْ عِلَّةً نَعُمُّ بِهَا   حَتَّى تَرَانَا نُعَادُ مِنْ مَرَضِهْ

فَكَتَبَ مَنْ تَرَلَ مَنْزِلَتِي مِنْ طَاعَتِكَ وَمُشَارَكَتِكَ كَانَ حَقِيقًا أَنْ يُهَنَّأَ بِالنِّعْمَةِ تَحْدُثُ عِنْدَكَ وَيُعَزَّى عَلَى النَّائِبَةِ تُلِمُّ بِكَ . فَنَقَلَ الْعِيَادَةَ إِلَى الْمُصِيبَةِ وَالتَّعْزِيَةِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : الْكِتَابَةُ نَقْضُ الشِّعْرِ . وَقِيلَ لِلْعَتَّابِيِّ : بِمَ قَدَرْتَ عَلَى الْبَلَاغَةِ . فَقَالَ : بِحَلِّ مَعْقُودِ الْكَلَامِ وَأَحْسَنَ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ :

إِلَيْكَ هَتَكْنَا جُنْحَ لَيْلٍ كَأَنَّمَا   قَدِ اكْتَحَلَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِإِثْمِدِ

وَزَادَ فِيهِ عَلَى أَبِي نُوَاسٍ وَمِنْهُ أَخَذَ . وَهُوَ قَوْلُهُ :

وَجُنْحُ لَيْلٍ مُكْتَحِلٌ بِقَارِ

لِأَنَّ الِاكْتِحَالَ يَكُونُ بِالْإِثْمِدِ وَلَا يَكُونُ بِالْقَارِ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ الْعَبَّاسِ :

لِفَضْلِ بْنِ سَهْلٍ يَدٌ   تَقَاصَرَ عَنْهَا الْمَثَلْ

فَبَسْطَتُهَا لِلْغِنَى   وَسَطْوَتُهَا لِلْأَجَلْ

وَبَاطِنُهَا لِلنَّدَى   وَظَاهِرُهَا لِلْقُبَلْ

وَأَخَذَ الْمَعْنَى الْأَمِيرُ أَبُو عَزِيزٍ قَتَادَةُ أَمِيرُ مَكَّةَ فَقَالَ مُشِيرًا إِلَى يَدِهِ مِنْ أَبْيَاتٍ :

تَظَلُّ مُلُوكُ الْأَرْضِ تَلْثِمُ ظَهْرَهَا   وَفِي بَطْنِهَا لِلْمُجْدِبِينَ رَبِيعُ

فَاتَّبَعَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ فَأَحْسَنَ الِاتِّبَاعَ فَقَالَ :

أَصْبَحْتُ بَيْنَ خَصَاصَةٍ وَتَجَمُّلٍ   وَالْحُرُّ بَيْنَهُمَا يَمُوتُ هَزِيلَا

فَامْدُدْ إِلَيَّ يَدًا تَعَوَّدَ بَطْنُهَا   بَذْلَ النَّوَالِ وَظَهْرُهَا التَّقْبِيلَا

وَمَا أَلْطَفَ قَوْلَ مَنْ قَالَ :

وَمَا ٱلدَّهْرُ فِي حَالِ ٱلسُّكُونِ بِسَاكِنٍ
سِوَى أَنَّهُ مُسْتَجْمِعٌ لِوُثُوبِ

وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

وَقُلْتُ يَا قَوْمُ إِنَّ ٱللَّيْثَ مُنْقَبِضٌ عَلَى بَرَاثِنِهِ لِوَثْبَةِ ٱلضَّارِي

وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ :

كَأَنَّ أَبَاهُ حِينَ سَمَّاهُ صَاعِدًا رَأَى كَيْفَ يَرْقَى فِي ٱلْمَعَالِي وَيَصْعَدُ

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ :

سَمَّاهُ أُسْرَتُهُ ٱلْعَلَاءَ وَإِنَّمَا قَصَدُوا بِذٰلِكَ أَنْ يَتِمَّ عُلَاهُ

وَزَادَ أَبُو تَمَّامٍ عَلَى ٱلْأَفْوَهِ وَٱلنَّابِغَةِ وَأَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فِي مَعْنًى تَدَاوَلُوهُ وَهُوَ قَوْلُ ٱلْأَفْوَهِ :

وَتَرَى ٱلطَّيْرَ عَلَى آثَارِنَا رَأْيَ عَيْنٍ ثِقَةً أَنْ سَتُمَارُ

وَقَالَ ٱلنَّابِغَةُ :

إِذَا مَا غَزَوْا بِٱلْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
جَوَانِحُ قَدْ أَيْقَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ إِذَا مَا ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ

وَقَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

تَتَأَيَّا ٱلطَّيْرُ غَزْوَتَهُ ثِقَةً بِٱلشِّبْعِ مِنْ جَزَرِهْ

وَقَوْلُ مُسْلِمٍ :

قَدْ عَوَّدَ ٱلطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقْنَ بِهَا فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلِ

فَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

اَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ حَتَّى كَأَنَّهَا ... مِنَ ٱلْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَا تُقَاتِلُ

وَقَوْلُـهُ : (أَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ زِيَادَةٌ) وَزَادَ عَلَيْهِمْ بَعْضُ ٱلْمُحْدَثِينَ فَقَالَ :

حَتَّى تَكَادَ عَلَى أَحْيَائِهِمْ تَقَعُ

وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

هِمَّةٌ تَنْطَحُ ٱلنُّجُومَ وَجَدٌّ ... آلِفٌ لِلْحَضِيضِ فَهُوَ حَضِيضُ

أَخَذَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ فَحَسَّنَهُ وَهُوَ قَوْلُهُ :

مُتَحَيِّرٌ يَغْدُو بِعَزْمٍ قَائِمٍ ... فِي كُلِّ نَائِبَةٍ وَجَدٍّ قَاعِدِ

وَمِمَّا أَخَذَهُ مِنْ أَبِي تَمَّامٍ فَقَسَّمَهُ تَقْسِيمًا حَسَنًا قَوْلُهُ :

مَلِكٌ لَهُ فِي كُلِّ يَوْمِ كَرِيهَةٍ ... إِقْدَامُ غِرٍّ وَٱعْتِزَامُ مُجَرِّبِ

هُوَ مِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ :

وَمُجَرَّبُونَ سَقَاهُمُ مِنْ بَأْسِهِ ... فَإِذَا لَقُوا فَكَأَنَّهُمْ أَغْمَارُ

وَقَالَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

كَمْ نِعْمَةٍ لَا يُسْتَقَلُّ بِشُكْرِهَا ... لِلّٰهِ فِي طَيِّ ٱلْمَكَارِهِ كَامِنَهْ

أَخَذَهُ أَبُو تَمَّامٍ فَقَالَ :

قَدْ يُنْعِمُ ٱللّٰهُ بِٱلْبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ ... وَيَبْتَلِي ٱللّٰهُ بَعْضَ ٱلْقَوْمِ بِٱلنِّعَمِ

فَزَادَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ أَتَى بِعَكْسِ ٱلْمَعْنَى وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ :

رَأَيْتُ رَجَائِي فِيكَ وَحْدَكَ هِمَّةً ... وَلٰكِنَّهُ فِي سَائِرِ ٱلنَّاسِ مَطْمَعُ

فَأَخَذَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ فَٱخْتَصَرَهُ فَقَالَ :

ثَنَى أَمَلِي فَٱحْتَازَهُ عَنْ مَعَاشِرٍ ... يَبِيتُونَ وَٱلْآمَالُ فِيهِمْ مَطَامِعُ

فَأَخَذَهُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ فقَالَ :

بِهِ صَدَقَ ٱللهُ ٱلْأَمَانِي حَدِيثَهَا ‏ وَقَدْ مَرَّ دَهْرٌ وَٱلْأَمَانِي وَسَاوِسُ

وَقَالَ أَبُو تَمَّام :

أَنضَرَتْ أَيْكَتِي عَطَايَاكَ حَتَّى ‏ عَادَ غُصْنِي سَاقًا وَكَانَ قَضِيبَا

فَقَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ وَزَادَ :

حَتَّى يَعُودَ ٱلذِّئْبُ لَيْثًا ضَيْغَمًا ‏ وَٱلْغُصْنُ سَاقًا وَٱلْقَرَارَةُ نِيقَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ وَفِيمَا أَوردتُ كِفَايَةٌ

البحث الثاني

في قبح الاخذ

(من كتاب الصناعتين للعسكري)

(راجع صفحة ٢٤٣ من علم الادب)

وَقُبْحُ ٱلْأَخْذِ أَنْ تَعْمِدَ إِلَى ٱلْمَعْنَى فَتَتَنَاوَلَهُ بِلَفْظِهِ كُلِّهِ أَوْ أَكْثَرِهِ أَوْ تُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ مُسْتَهْجَنٍ. وَٱلْمَعْنَى إِنَّمَا يَحْسُنُ بِٱلْكُسْوَةِ. أَخْبَرَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا قَالَ قِيلَ لِلشَّعْبِيِّ : إِنَّا إِذَا سَمِعْنَا ٱلْحَدِيثَ مِنْكَ نَسْمَعُهُ بِخِلَافِ مَا نَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِكَ . قَالَ : إِنِّي أَجِدُهُ عَارِيًا فَأَكْسُوهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَزِيدَ فِيهِ حَرْفًا . أَيْ مِنْ غَيْرِ أَنْ أَزِيدَ فِي مَعْنَاهُ شَيْئًا فَمِمَّا أُخِذَ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ وَادَّعَى آخِذُهُ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْهُ وَلٰكِنْ وَقَعَ كَمَا وَقَعَ لِلْأَوَّلِ كَمَا سُئِلَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ عَنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ يَتَّفِقَانِ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ وَمَعْنًى . فَقَالَ : عُقُولُ ٱلرِّجَالِ

تَوَافَتْ عَلَى أَلسِنَتِهَا وَذٰلِكَ قَوْلُ طَرَفَةَ :

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسىً وَتَجَلَّدِ

وَهُوَ قَوْلُ امْرِئِ ٱلْقَيْسِ :

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يَقُولُونَ لَا تَهْلِكْ أَسىً وَتَجَمَّلِ

فَغَيَّرَ طَرَفَةُ ٱلْقَافِيَةَ . وَقَالَ ٱلْبُعَيْثُ :

أَتَرْجُو كُلَيْبٌ أَنْ يَجِيءَ حَدِيثُهَا بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا كُلَيْباً قَدِيمُهَا

وَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ :

أَتَرْجُو رَبِيعٌ أَنْ تَجِيءَ صِغَارُهَا بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا رَبِيعاً كِبَارُهَا

وَمِثْلُ هٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ جِدًّا وَٱلْأَخْذُ إِذَا كَانَ كَذٰلِكَ كَانَ مَعِيباً وَإِنِ ٱدَّعَى ٱلْآخِرُ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ قَوْلَ ٱلْأَوَّلِ بَلْ وَقَعَ لَهُ كَمَا وَقَعَ لِذَاكَ فَإِنَّ صِحَّةَ ذٰلِكَ لَا يَعْرِفُهَا إِلَّا ٱللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ وَٱلْعَيْبُ لَازِمٌ لِلْآخِرِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْقَوْمُ فِي قَبِيلَةٍ وَاحِدَةٍ فَإِنَّ خَوَاطِرَهُمْ تَقَعُ مُتَقَارِبَةً كَمَا أَنَّ أَخْلَاقَهُمْ وَشَمَائِلَهُمْ تَكُونُ مُتَضَارِعَةً وَأَنْشَدَتُ ٱلصَّاحِبَ إِسْمَاعِيلَ بْنَ عَبَّادٍ :

كَانَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ تَحْتَ أَظِلَّةٍ

فَسَبَقَنِي وَقَالَ :

فَغَدَتْ سَرَاةُ ٱلنَّاسِ فَوْقَ سَرَاتِهِ

وَكَذٰلِكَ كُنْتُ قُلْتُ : فَعَلَى هٰذَا جَائِزٌ مَا يُدَّعَى لَهُمْ وَٱلظَّاهِرُ مَا قُلْنَاهُ فَهٰذَا ضَرْبٌ . وَٱلضَّرْبُ ٱلْآخَرُ مِنَ ٱلْأَخْذِ ٱلْمُسْتَهْجَنِ أَنْ يَأْخُذَ ٱلْمَعْنَى فَيُفْسِدَهُ أَوْ يُعَرِّضَهُ أَوْ يُخْرِجَهُ فِي مَعْرِضٍ قَبِيحٍ وَكُسْوَةٍ

مُسْتَرذَلةٍ . وَذلكَ مِثلُ قَولِ ابي كَرِيمَةَ :

قفَاهُ وَجهٌ ثمَّ وَجهُ الَّذِي قفَا ه وَجهٌ يُشبِهُ البَدرَا

وَإنمَا اخذَهُ مِنْ قَولِ ابي نُوَاس :

بَزَ حُسْنَ الوُجُوهِ حُسْنُ قفَانَا

وَاخذَهُ ابو نُوَاسٍ مِنْ قَولِ النَابغةِ بقولِهِ لِلنُّعمَانِ بنِ المُنذِرِ : ايُفَاخِرُكَ ابْنُ جفنَةَ واللاتِ لَامسُكَ خَيرٌ مِنْ يَومِهِ وَلقَذالُكَ احسَنُ مِنْ وَجهِهِ ولَيسارُكَ اسمَحُ مِنْ يَمِينهِ . ولَعبيدُكَ اكثَرُ مِنْ قَومِهِ وَلَنفسُكَ اكبَرُ مِنْ جُندِهِ وَلَيَومُكَ اشرَفُ مِنْ دَهرِهِ . وَلَوَعدُكَ انجَزُ مِنْ رِفدِهِ . وَلَهزلُكَ اصوَبُ مِنْ جِدّهِ . وَلَكُرسيُّكَ ارفَعُ مِنْ سَريرِهِ . وَلَفَترُكَ ابسطُ مِنْ شِبرِهِ . وَلَأُمُّكَ خَيرٌ مِنْ ابيهِ . وَسَمِعَ بَعضُهُمْ قَولَ مَحمُودٍ الوَرَّاقِ :

اذَا كانَ شُكرِي نِعمَةَ اللهِ نِعمَةً عَلَيَّ لَهُ فِي مِثلِهَا يَجِبُ الشُّكرُ

فَكَيفَ بُلُوغُ الشُّكرِ الَّا بِفَضلِهِ وَإنْ طَالَتِ الايَّامُ وَاتَّصلَ العُمرُ

إذَا مَسَّ بِالسَّرَّاءِ عَمَّ سُرُورُهَا وَإنْ مَسَّ بِالضَّرَّاءِ اعقبَهَا الأَجرُ

وَمَا مِنهُمَا الَّا لَهُ فِيهِ نِعمَةٌ تَضِيقُ بِهَا الاوهَامُ وَالبَرُّ وَالبَحرُ

فقَالَ وَاسَاءَ :

الحَمدُ لِلهِ إنَّ اللهَ ذُو نِعَمٍ لَمْ يُحصِهَا عَدَدًا بالشُّكرِ مَنْ حَمِدَا

شُكرِي لَهُ عَمَلٌ فِيهِ عَلَيَّ لَهُ شُكرٌ يَكُونُ لِشُكرٍ قَبلَهُ مَدَدَا

فَهذَا مِثَالُ قُبحِ الاخذِ فَاعلَمهُ . وَاخذَ ابنُ طَبَاطِبَا قَولَ عَلِيٍّ قِيمَةُ كُلِّ امرِئٍ مَا يُحسِنُهُ . فقَالَ :

فَيَالَائِمِي دَعْنِي أُغَالِي بِقِيمَتِي ... فَقِيمَةُ كُلِّ ٱلنَّاسِ مَا يُحْسِنُونَهُ

فَأَخَذَهُ بِلَفْظِهِ وَأَخْرَجَهُ بَغِيضًا مُتَكَلَّفًا . وَٱلْجَيِّدُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ : (فَقِيمَةُ كُلِّ ٱمْرِئٍ عِلْمُهُ) فَهٰذَا وَإِنْ كَانَ أَخَذَهُ بِبَعْضِ لَفْظِهِ فَإِنَّ بَيْتَهُ أَحْسَنُ مَوْقِعًا مِنْهُ مِنْ بَيْتِ ٱبْنِ طَبَاطِبَا. وَمِمَّا قَصَّرَ فِيهِ ٱلْبُحْتُرِيُّ قَوْلُهُ :

قَوْمٌ تَرَى أَرْمَاحَهُمْ يَوْمَ ٱلْوَغَى ... مَشْغُوفَةً بِمَوَاطِنِ ٱلْكِتْمَانِ

أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِي كَرِبَ :

وَٱلضَّارِبِينَ بِكُلِّ أَبْيَضَ مُرْهَفٍ ... وَٱلطَّاعِنِينَ مَجَامِعَ ٱلْأَضْغَانِ

فَإِنَّ قَوْلَهُ (مَجَامِعَ ٱلْأَضْغَانِ) أَجْوَدُ مِنْ قَوْلِهِ: مَوَاطِنُ ٱلْكِتْمَانِ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُطَاعِنُونَ ٱلْأَعْدَاءَ مِنْ أَجْلِ أَضْغَانِهِمْ فَإِذَا وَقَعَ ٱلطَّعْنُ فِي مَوْضِعِ ٱلضِّغْنِ فَذَاكَ غَايَةُ ٱلْمُرَادِ . وَأَنْشَدَ عَبْدُ ٱلرَّحْمٰنِ عَنْ عَمِّهِ :

حَرَامٌ عَلَى أَرْمَاحِنَا طَعْنُ مُدْبِرٍ ... وَتَنْدَقُّ قِدْمًا فِي ٱلصُّدُورِ صُدُورُهَا

مُسَلَّمَةٌ أَعْجَازُ خَيْلِي فِي ٱلْوَغَى ... مُكَلَّمَةٌ لَبَّاتُهَا وَنُحُورُهَا

أَخَذَهُ أَبُو تَمَّامٍ فَقَالَ :

أُنَاسٌ إِذَا مَا ٱسْتَحْكَمَ ٱلرَّوْعُ كَسَّرُوا

صُدُورَ ٱلْعَوَالِي فِي صُدُورِ ٱلْكَتَائِبِ

فَأَحْسَنَا جَمِيعًا وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلْآخَرِ :

يَلْقَى ٱلسُّيُوفَ بِنَحْرِهِ وَبِوَجْهِهِ ... وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ ٱلْمِغْفَرِ

وَيَقُولُ لِلطِّرْفِ ٱصْطَبِرْ لِشَبَا ٱلْقَنَا ... فَهَدَمْتُ رُكْنَ ٱلْمَجْدِ إِنْ لَمْ يُعْقَرِ

وَمِثْلُهُ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ ٱلنَّطَّاحِ :

يَتَلَقَّى ٱلنَّدَى بِوَجْهٍ حَيِيٍّ وَصُدُورَ ٱلْقَنَا بِوَجْهٍ وَقَاحِ

وَهٰذَا كُلُّهُ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ :

لَا يَقَعُ ٱلطَّعْنُ إِلَّا فِي نُحُورِهِمِ لَيْسَ لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ ٱلْمَوْتِ تَهْلِيلُ

وَهُوَ دُونَ جَمِيعِ مَا تَقَدَّمَ . وَقَدْ أَتَيْتُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ عَلَى ٱلْكِفَايَةِ . فَقِسْ بِمَا أَوْرَدْتُهُ عَلَى مَا تَرَكْتُهُ فَإِنِّي لَوِ ٱسْتَقْصَيْتُهُ خَرَجَ هٰذَا ٱلْكِتَابُ عَنِ ٱلْمُرَادِ وَزَاغَ عَنِ ٱلْإِيثَارِ وَبِٱللهِ ٱلتَّوْفِيقُ

البحث الثالث

في حلّ الشعر

(عن المثل السائر والوشي المرقوم لابن الاثير)

(راجع صفحة ٢٤٤ من علم الادب)

حَلُّ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ يَنْقَسِمُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : (ٱلْأَوَّلُ) مِنْهَا وَهُوَ أَدْنَاهَا مَرْتَبَةً أَنْ يَأْخُذَ ٱلنَّاثِرُ بَيْتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ فَيَنْثُرُهُ بِلَفْظِهِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَهٰذَا عَيْبٌ فَاحِشٌ . وَمِثَالُهُ كَمَنْ أَخَذَ عِقْدًا قَدْ أُتْقِنَ نَظْمُهُ وَأُحْسِنَ تَأْلِيفُهُ فَأَوْهَاهُ وَبَدَّدَهُ وَكَانَ يَقُومُ عُذْرُهُ فِي ذٰلِكَ أَنْ لَوْ نَقَلَهُ عَنْ كَوْنِهِ عِقْدًا إِلَى صُورَةٍ أُخْرَى مِثْلِهِ أَوْ أَحْسَنَ مِنْهُ . وَأَيْضًا فَإِنَّهُ إِذَا نُثِرَ ٱلشِّعْرُ بِلَفْظِهِ كَانَ صَاحِبُهُ مَشْهُورَ ٱلسَّرِقَةِ فَيُقَالُ : هٰذَا شِعْرُ فُلَانٍ بِعَيْنِهِ لِكَوْنِ أَلْفَاظِهِ بَاقِيَةً لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهَا شَيْءٌ وَقَدْ سَلَكَ هٰذَا ٱلْمَسْلَكَ بَعْضُ ٱلْعِرَاقِيِّينَ فَجَاءَ مُسْتَهْجَنًا لَا مُسْتَحْسَنًا .

كَقَوْلِهِ فِي بَعْضِ أَبْيَاتِ الْحَمَاسَةِ :

وَأَلَدَّ ذِي حَنَقٍ عَلَيَّ كَأَنَّمَا ... تَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلِ

أَرْجَيْتُهُ عَنِّي فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ ... وَكَوَيْتُهُ فَوْقَ النَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ

(فَيُقَالُ) فِي نَثْرِ هٰذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ : فَكَمْ لَقِيَ الْأَلَدَّ ذَا حَنَقٍ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الْكَوَاكِبِ مِنْ عَلٍ وَتَغْلِي عَدَاوَةُ صَدْرِهِ فَكَوَاهُ فَوْقَ نَاظِرَيْهِ وَأَكَبَّهُ لِفَمِهِ وَيَدَيْهِ . فَلَمْ يَزِدْ هٰذَا النَّاثِرُ عَلَى أَنْ أَزَالَ رَوْنَقَ الْوَزْنِ وَطَلَاوَةَ النَّظْمِ لَا غَيْرُ . وَمِنْ هٰذَا الْقِسْمِ ضَرْبٌ مَحْمُودٌ لَا عَيْبَ فِيهِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْبَيْتُ مِنَ الشِّعْرِ قَدْ تَضَمَّنَ شَيْئًا لَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُ لَفْظِهِ فَحِينَئِذٍ يُعْذَرُ نَاثِرُهُ إِذَا أَتَى بِذٰلِكَ اللَّفْظِ . وَكَذٰلِكَ الْأَمْثَالُ السَّائِرَةُ فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِهَا عَلَى مَا جَاءَتْ فِي الشِّعْرِ . (وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي) فَهُوَ وَسَطٌ بَيْنَ الْأَوَّلِ وَالثَّالِثِ فِي الْمَرْتَبَةِ وَهُوَ أَنْ يَنْثُرَ الْمَعْنَى الْمَنْظُومَ بِبَعْضِ أَلْفَاظِهِ وَيُعَبِّرَ عَنِ الْبَعْضِ بِأَلْفَاظٍ أُخَرَ وَهُنَاكَ تَظْهَرُ الصَّنْعَةُ فِي الْمُمَاثَلَةِ وَالْمُشَابَهَةِ وَمُؤَاخَاةِ الْأَلْفَاظِ الْبَاقِيَةِ بِالْأَلْفَاظِ الْمُرْتَجَلَةِ فَإِنَّهُ إِذَا أَخَذَ لَفْظًا لِشَاعِرٍ مُجِيدٍ قَدْ نَقَّحَهُ وَصَحَّحَهُ فَقَرَنَهُ بِمَا لَا يُلَائِمُهُ كَانَ كَمَنْ جَمَعَ بَيْنَ لُؤْلُؤَةٍ وَحَصَاةٍ . وَلَا خَفَاءَ بِمَا فِي ذٰلِكَ مِنَ الِانْتِصَابِ لِلْقَدْحِ وَالِاسْتِهْدَافِ لِلطَّعْنِ وَالطَّرِيقُ الْمَسْلُوكُ إِلَى هٰذَا الْقِسْمِ أَنْ تَأْخُذَ بَعْضَ بَيْتٍ مِنَ الْأَبْيَاتِ الشِّعْرِيَّةِ هُوَ أَحْسَنُ مَا فِيهِ ثُمَّ تُمَاثِلَهُ . وَسَأُورِدُ هٰهُنَا مِثَالًا وَاحِدًا لِيَكُونَ قُدْوَةً لِلْمُتَعَلِّمِ (فَأَقُولُ) : قَدْ وَرَدَ هٰذَا الْبَيْتُ مِنْ شِعْرِ أَبِي تَمَّامٍ فِي وَصْفِ قَصِيدَةٍ لَهُ :

وَحداء تَملأُ كُلَّ أُذنٍ حِكمَةً   وَبلاغةً وَتُدِرُّ كُلَّ وَرِيـدِ

فَقَوْلُهُ (تَملأُ كُلَّ أُذنٍ حِكمَةً) مِنَ ٱلكَلَامِ ٱلحَسَنِ وَهُوَ احسنُ مَا فِي ٱلبَيْتِ فَإِذا اردتَ انْ تَنثُرَ هٰذا ٱلمَعْنَى فَلا بُدَّ مِن ٱستِعْمالِ لَفظِهِ بِعَيْنِهِ لِأَنَّهُ فِي ٱلغَايَةِ ٱلقُصوى مِنَ ٱلفَصاحةِ وَٱلبَلاغةِ . فَعَلَيْكَ انْ تُؤَاخِيَهُ بِمِثْلِهِ وَهٰذا عَسِرٌ جِدًّا وَهُوَ اصعَبُ مِثَالًا مِنْ نَثْرِ ٱلشِّعْرِ بِغَيْرِ لَفْظِهِ لِأَنَّهُ مَسْلَكٌ ضَيِّقٌ لِمَا فِيهِ مِنَ ٱلتَّعَرُّضِ لِمُمَاثَلَةِ مَا هُوَ فِي غَايَةِ ٱلحُسْنِ وَٱلجُودَةِ . وَامَّا نَثْرُ ٱلشِّعْرِ بِغَيْرِ لَفظِهِ فَذٰلِكَ يَتَصَرَّفُ فِيهِ نَاثِرُهُ عَلَى حَسَبِ مَا يَرَاهُ وَلَا يَكُونُ مُقَيَّدًا فِيهِ بِمِثَالٍ يُضطَرُّ إِلَى مُؤَاخَاتِهِ . وَقَدْ نَثَرْتُ هٰذِهِ ٱلكَلِمَاتِ ٱلمُشَارَ إِلَيْهَا وَاتَيْتُ بِهَا فِي جُمْلَةِ كِتَابٍ فَقُلْتُ : وَكَلَامِي قَدْ عُرِفَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱشْتَهَرَ . وَفَاقَ مَسِيرَ ٱلشَّمْسِ وَٱلقَمَرِ . وَإِذَا عُرِفَ ٱلكَلَامُ صَارَتِ ٱلمَعْرِفَةُ لَهُ عَلَامَةً . وَأُمِنَ مِنْ سَرِقَتِهِ إِذْ لَوْ سُرِقَ لَدَلَّتْ عَلَيْهِ ٱلوَسَامَةُ . وَمِنْ خَصَائِصِ صِفَاتِهِ انْ يَمْلأَ كُلَّ أُذنٍ حِكْمَةً . وَيَجْعَلَ فَصَاحَةَ كُلِّ لِسَانٍ عُجْمَةً . وَإِذَا جَرَتْ نَفَثَاتُهُ فِي ٱلأَفْهَامِ قَالَتْ : اهٰذِهِ بِنْتُ فِكْرَةٍ امْ بِنْتُ كَرْمَةٍ . فَٱنظُرْ كَيْفَ فَعَلْتُ فِي هٰـذَا ٱلمَوْضِعِ فَإِنِّي لَمَّا اخَذْتُ تِلْكَ ٱلكَلِمَاتِ مِنَ ٱلبَيْتِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلتَزَمْتُ بِانْ أُوَاخِيَهَا بِمَا هُوَ مِثْلُهَا اوْ احْسَنُ مِنْهَا فَجِئْتُ بِهٰذَا ٱلفَصْلِ كَمَا تَرَاهُ . وَكَذٰلِكَ يَنْبَغِي انْ يُفْعَلَ فِيمَا هٰذَا سَبِيلُهُ . (وَامَّا ٱلقِسْمُ ٱلثَّالِثُ) وَهُوَ اعلَى مِنَ ٱلقِسْمَيْنِ ٱلأَوَّلَيْنِ فَهُوَ انْ يُؤْخَذَ ٱلمَعْنَى فَيُصَاغَ بِأَلفَاظٍ غَيْرِ الفَاظِهِ . وَثَمَّ يَتَبَيَّنُ حِذْقُ ٱلصَّائِغِ فِي صِيَاغَتِهِ وَيُعْلَمُ مِقْدَارُ تَصَرُّفِهِ

فِي صِنَاعَتِهِ فَإِنِ ٱسْتَطَاعَ ٱلزِّيَادَةَ عَلَى ٱلْمَعْنَى فَتِلْكَ ٱلدَّرَجَةُ ٱلْعَالِيَـةُ وَإِلَّا أَحْسَنَ ٱلتَّصَرُّفَ وَأَتْقَنَ ٱلتَّأْلِيفَ لِيَكُونَ أَوْلَى بِذٰلِـكَ ٱلْمَعْنَى مِنْ صَاحِبِهِ ٱلْأَوَّلِ . وَٱعْلَمْ أَنَّ مِنْ أَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا يَتَّسِعُ ٱلْمَجَالُ لِنَاثِرِهِ فَيُورِدُهُ بِضُرُوبٍ مِنَ ٱلْعِبَارَاتِ . وَذٰلِكَ عِنْدِي شَبِيهٌ بِٱلْمَسَائِلِ ٱلسَّيَّالَةِ فِي ٱلْحِسَابِ ٱلَّتِي يُجَابُ عَنْهَا بِعِدَّةِ أَجْوِبَةٍ . وَمِنَ ٱلْأَبْيَاتِ مَا يَضِيقُ فِيهِ ٱلْمَجَالُ حَتَّى يَكَادَ ٱلْمَاهِرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ لَا يَخْرُجَ عَنْ ذٰلِكَ ٱللَّفْظِ وَإِنَّمَا يَكُونُ هٰذَا لِعَدَمِ ٱلنَّظِيرِ . . . وَإِذَا ٱنْتَهَى بِنَا ٱلْكَلَامُ إِلَى هٰا هُنَا فِي ٱلتَّنْبِيهِ عَلَى نَثْرِ ٱلشِّعْرِ وَكَيْفِيَّةِ نَثْرِهِ وَذِكْرِ مَا يَسْهُلُ مِنْهُ وَمَا يَعْسُرُ . فَلْنُتْبِعْ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ كُلِّيٍّ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ فَنَقُولُ : مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا أَوْ كَانَ عِنْـدَهُ طَبْعٌ مُجِيبٌ فَعَلَيْهِ بِحِفْظِ ٱلدَّوَاوِينِ ذَوَاتِ ٱلْعَدَدِ وَلَا يَقْنَعْ بِٱلْقَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ . ثُمَّ يَأْخُذُ فِي نَثْرِ ٱلشِّعْرِ مِنْ مَحْفُوظَاتِهِ . وَطَرِيقُهُ أَنْ يَبْتَدِئَ فَيَأْخُذَ قَصِيدًا مِنَ ٱلْقَصَائِدِ فَيَنْثُرُهُ بَيْتًا بَيْتًا عَلَى ٱلتَّوَالِي . وَلَا يَسْتَنْكِفُ فِي ٱلِٱبْتِدَاءِ أَنْ يَنْثُرَ ٱلشِّعْرَ بِأَلْفَاظِهِ أَوْ بِأَكْثَرِهَا فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ إِلَّا ذٰلِكَ وَإِذَا مَرَنَتْ نَفْسُهُ وَتَدَرَّبَ خَاطِرُهُ ٱرْتَفَعَ عَنْ هٰـذِهِ ٱلدَّرَجَةِ وَصَارَ يَأْخُذُ ٱلْمَعْنَى وَيَكْسُوهُ عِبَارَةً مِنْ عِنْدِهِ . ثُمَّ يَرْتَقِعُ عَنْ ذٰلِكَ فَيَكْسُوهُ ضُرُوبًا مِنَ ٱلْعِبَارَاتِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ وَحِينَئِذٍ يَحْصُلُ لِخَاطِرِهِ بِمُبَاشَرَةِ ٱلْمَعَانِي لِقَاحٌ فَيَسْتَنْتِجُ مِنْهَا مَعَانِيَ غَيْرَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي وَسَبِيلُهُ أَنْ يُكْثِرَ ٱلْإِدْمَانَ لَيْلًا وَنَهَارًا وَلَا يَزَالَ عَلَى ذٰلِكَ مُدَّةً طَوِيلَةً حَتَّى يَصِيرَ لَهُ مَلَكَةً . فَإِذَا كَتَبَ كِتَابًا أَوْ خَطَبَ خُطْبَةً تَدَفَّقَتِ ٱلْمَعَانِي فِي

أثناء كلامه وجاءت ألفاظه مغسولة مغسولة وكان عليها حدة حتى تكاد ترقص رقصاً . وهذا شيء خبرته بالتجربة ولا ينبئك مثل خبير

تمَّ بعونهِ تعالى



فهرس

المقالات



